منشورات اتحاد المؤرخين العرب

القاهـــرة

١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب

ندوة

عقدها الإتحاد بمقره فى القاهرة

٥ - ٧ شـــعبان ١٤١٩هـ

٢٤ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م

حصاد (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطات سريعة من الندوة

الجمع والإخراج الداخلي والخارجي
دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

اليوم الأول الثلاثاء ٥ شعبان ١٤١٩هـ - ٢٤ نوفمبر ١٩٩٨م

* كلمة الافتتاح يلقيها رئيس الاتحاد (الساعة التاسعة صباحًا)

الجلسة الأولى : (الساعة التاسعة والنصف صباحًا)

- أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تعاصر ملوك سبأ وحمير فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين فى ضوء نقش حميرى جديد

- د. جياغ سيف الدين تابلو كلية الآداب - جامعة دمشق

الكتابات الآرامية كمصدر مهم لدراسة تاريخ منطقة المشرق العربى القديم فى الألف الأول ق.م

- أ.د. محمود سعيد عمران كلية الآداب- جامعة الاسكندرية

العرب فى رواية المؤرخ السريانى زكريا المتلطى

- د. فايزة محمود صقر كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

العلاقات بين العرب والعراق القديم من خلال النصوص الآشورية

- أ.م. محمد حمزة اسماعيل الحداد كلية الآثار- جامعة القاهرة

دراسة تحليلية لبعض المصادر الآثارية وتحقيقها فى دراسة التاريخ الإسلامى

* مناقشات وتعليقات

(استراحة وتناول الشاى - الساعة العاشرة والنصف)

الجلسة الثانية : (الساعة الحادية عشر صباحًا)

- أ.د. محمد السيد عبد الغنى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

مصادر القرنين الأول والثانى الميلادى عن تحقيق انتاج وتصدير اللبان العربى - رؤية نقدية

- د. إبراهيم السعدنى كلية الآداب - جامعة حلوان

الأنباط عند ديودوروس : عرض وتحليل

- أ.م. ماجدة عبده التوبجمي كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

إلى أى مدى يعد الشعر الرومانى مصدراً من مصادر تاريخ العرب القديم

- د. محمد صلاح محمد المقولى كلية الآداب - جامعة القاهرة

تحقيق أسماء ملوك مصر القديمة فى مصادر المؤرخين العرب

* مناقشات وتعليقات

(استراحة و تناول الغداء - الساعة الواحدة والنصف)

الجلسة الثالثة : (الساعة الرابعة مساء)

- د. أيمن فؤاد سيد مستشار بدار الكتب المصرية

إعادة بناء المصادر العربية الضائعة وأهميته (دراسة التاريخ الإسلامى المبكر)

- أ.م. إبراهيم بن محمد المزينى كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد

المشاهدة والمعاينة مصدر من مصادر التدوين التاريخى عند المسلمين

- د. هاشم عبد الراضى محمد عيسى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

كتب الجغرافيا والرحلات مصدراً للتاريخ العربى من القرن الرابع الهجرى حتى نهاية القرن السابع الهجرى

- د. يسرى أحمد عبد الله زيدان كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

كتب فتوح البلدان مصدراً للتاريخ العربى

- د. هشام عطية عطية أحمد كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة

المنهج التاريخى للحافظ أبى طاهر فى تأليف كتابه معجم السفر

* مناقشات وتعليقات

اليوم الثانى الأربعاء ٦ شعبان ١٤١٩ هـ ٢٥ نوفمبر ١٩٩٨م

الجلسة الأولى : (الساعة التاسعة صباحاً)

- أ.د. محمد عبد العزيز عزيز كلية الآداب - جامعة بيروت

العرب فى المصادر السريانية القديمة خلال العصر العباسى

- أ.د. صلاح أحمد هريدى كلية الآداب بدمنهور - جامعة الاسكندرية

سجلات المحاكم الشرعية بالشهر العقارى بالاسكندرية كمصدر من مصادر تاريخ مصر العثمانية

- د. عبد الحميد عبدالجليل أحمد كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

وثائق المخابرات المصرية مصدر من مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر

- أ.م. طلال بن محمد الشعبان كلية اللغات والترجمة - جامعة الملك سعود بالرياض

وثائق الوقف وأهميتها كمصدر لدراسة العمارة الإسلامية فى العصر السلجوقى بالأناضول

* مناقشات وتعليقات

(استراحة وتناول الشاى - الساعة العاشرة والنصف)

الجلسة الثانية : (الساعة الحادية عشر صباحاً)

- د. حسن محمد يوسف نصار كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى

الصحيفة كوثيقة للتاريخ الحديث والمعاصر

-أ.د. عبد العزيز إبراهيم العمرى كلية العلوم الاجتماعية-جامعة الإمام محمد بن سعود

كتب الفتوح مصادر للدراسات الحضارية

- أ.د. عبد الكريم المختار بو صفصاف كلية العلوم الاجتماعية-جامعة منتورى - الجزائر

وثيقتان جديدتان فى تاريخ المغرب العربى الحديث والمعاصر

- د. محمد محمد محمد شركس كلية التربية ببورسعيد- جامعة قناة السويس

قرارات جامعة الدول العربية كمصدر من مصادر تاريخ العرب

- د. سليمان محيى الدين فتوح كلية التربية ببورسعيد- جامعة قناة السويس

قرارات الأمم المتحدة من مصادر تاريخ العرب

* مناقشات وتعليقات

(استراحة وتناول الغذاء – الساعة الواحدة والنصف)

الجلسة الثالثة : (الساعة الرابعة مساءً)

– أ.د. عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة كلية الآداب – جامعة القاهرة

عن الشعر والتاريخ – قراءة في القصائد السلفية

– أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي كلية الآداب – جامعة الملك سعود بالرياض

جمال الدين الشيمي وكتابه الشرف الأعلى

– د. عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

المقدسي مؤرخًا لبلدان العرب من خلال كتابة " أحسن التقاسيم "

– أ.د. علي منصور نصر كلية الآداب – جامعة البحرين

أضواء جديدة على كتاب مروج الذهب ومعدن الجوهر

– د. محمد أحمد محمد دار كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

أضواء على مصادر تاريخ تونس الحديث حتى إعلان الحماية الفرنسية

* مناقشات وتعليقات

اليوم الثالث الخميس ٧ شعبان ١٤١٩ هـ ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م

الجلسة الأولى : (الساعة التاسعة صباحًا)

– أ.د. شوقي عطا الله الجمل معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

رحلات المغاربة كمصدر رئيسي لكتابة التاريخ العربي

رحلات ابن بطوطة كمثل لدور هؤلاء الرحالة

– أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

المخطوطات العربية في نيجيريا وأهميتها كمصدر لتاريخ العرب في غرب أفريقيا

– د. كمال عناني اسماعيل كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

عمران سبته كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتي في كتابه

(اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من لثي الآثار)

– د. إبراهيم سعيد نهيم محمود كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

قراءة في مصنف آل أدرنى كمصدر أوربي عن تونس والمسلمين

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي

* مناقشات وتعليقات

(استراحة وتناول الشاي – الساعة العاشرة والنصف)

الجلسة الثانية : (الساعة الحادية عشر صباحًا)

– أ.د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي كلية التربية بالفيوم – جامعة القاهرة

الوثيقة وأهميتها التاريخية

– أ.م. ناصر بن علي الحارثي كلية الشريعة – جامعة أم القرى

أهمية الآثار كمصدر من مصادر التاريخ العربي في العصر الإسلامي

– أ.م. محمد بن صامل السلمي كلية الشريعة – جامعة أم القرى

كتب السنة وأهميتها في مصادر تاريخ صدر الإسلام

– د. سعيد مغاوري محمد باحث بالمجلس الأعلى للآثار

أهمية الهرديات العربية كمصدر من مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية

* مناقشات وتعليقات

(استراحة وتناول الغذاء – الساعة الواحدة والنصف)

الجلسة الثالثة : (الساعة الرابعة مساءً)

– كلمة الختام والترصيات

– الساعة السادسة مساء، التجمع والانتقال إلى خارج المقر لتناول العشاء بدعوة من مجلس إدارة الاتحاد .

المحتويات

صفحة

كلمة الافتتاح - رئيس الاتحاد ١٥
الوثيقة وأهميتها التاريخية ١٩
د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي
المصادر الآرامية وأهميتها فى كتابة تاريخ المشرق العربى القديم ٢٧
د. جهاد سيف الدين قابلر
العرب عند ديودورس (دراسة تحليلية) ٤١
د. محمود إبراهيم السعدنى
أضواء على مصادر البحث التاريخى عند العرب ٨٧
د. الطاهر ذارع
العلاقات بين العرب والعراق القديم من خلال النصوص الآشورية
منذ منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن السابع ق . م ٩٧
د. فايزة محمود صقر
أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام ١٢١
د. سهيل زكار
العرب فى المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية ١٣٥
د. محمد عزيز
العرب فى مدونة المؤرخ السريانى زكريا المللطى ١٤٣
د. محمود سعيد عمران
أهمية البرديات العربية كمصدر من مصادر التاريخ ١٥٧
د. سعيد مغاورى محمد
إعادة بناء المصادر العربية الضائعة
وأهميته لدراسة التاريخ الإسلامى المبكر والوسيط ١٨٩
د. أيمن فؤاد سيد

كتب الفتوح مصدراً من مصادر تاريخ العرب ٢٠٥
د. يسري أحمد عبد الله زيدان
أضواء جديدة على كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢٢٩
د. علي منصور نصر
أضواء على أهم مصادر تاريخ فلسطين في العصر المملوكي ٢٩٩
د. إبراهيم محمود زعرور
جمال الدين الشيبي وكتابه الشرف الأعلى ٣١٧
د. أحمد بن عمر الزيلعي
تحليل المعلومات الواردة في دفتر غزة « ٩٦٤ هـ = ١٥٥٦م » ٣٤٣
د. محمد عيسى صالحية
كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كمصدر لتاريخ العرب
(كتاب وصف أفريقيا للحسن بن محمود الوزان) ٣٧٣
د. شوقي عطا الله الجمال
العالم العربي في نظر الرحالة الأوربيين : مصنف آل أدورني كمصدر أوروبي
عن تونس في النصف الثاني من القرن ١٥ م « دراسة مقارنة » ٣٩٧
د. إبراهيم سعيد فهيم محمود
سجلات المحاكم الشرعية بالشهر العقاري
بالاسكندرية كمصدر لتاريخ مصر العثمانية ٤٤٩
د. صلاح أحمد هريدي علي
المخطوطات العربية في نيجيريا وأهميتها
كمصدر لتاريخ العرب في غرب أفريقيا ٤٩٧
د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
وثيقة جديدة في تاريخ الجزائر والمغرب العربي المعاصر ٥٢٥
د. عبد الكريم يوسفساف
الوثائق مصدر أصيل لدراسة التاريخ والحضارة الإسلامية
وثائق الأزهر في التاريخ الحديث والمعاصر ٥٣٩
د. مجاهد توفيق الجندي
كلمة الختام - رئيس الاتحاد ٥٥٥

كلمة الافتتاح

نعم ... من هنا نبدأ

الإخوة الزملاء ... والأخوات الزميلات ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد . فها هي الأيام قد مرت سريعًا لنجتمع مرة أخرى تحت مظلة اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ، فمرحبًا بكم جميعًا وشكرًا لله الذي هيأ لنا لقاءً مثمرًا نرتقبه من عام إلى عام. إنه اللقاء السنوي الذي يسعدُ فيه المؤرخُ العربي برؤية زميله وجهًا لوجه ، بعد أن باعدت بينهما شُقةُ الفراق ، فراق المكان لا فراقُ القلوب والعقول والأفكار . ويكفي هذه اللقاءات السنوية التي ينظمها اتحاد المؤرخين العرب أنها تهيأ فرصةً طيبةً يجتمع فيها المؤرخُ العربيُ بزملائه بعد طول غياب ، فتتفاوتُ المشاعرُ والأحاسيسُ ، وتتلاقى الأفكارُ ، وتتطاعمُ الآراءُ ، في أجواءٍ مُشبَّعة بروح الأخوة والزمالة وأواصر العروبة ، مما يحركُ الرغبةَ الصادقة في أن يقدّم كلٌ منهم الجديدَ النافعَ في مجال العلم ... في مجال التاريخ . وهكذا يمضي اتحاد المؤرخين العرب في النهوض برسالته الكبرى السامية التي لاتستهدفُ إلا خدمةَ العرب وأمةَ العرب ، وتاريخَ العرب ، ومؤرخي العرب .

حضرات الإخوة والأخوات

إذا كان علمُ التاريخ يستهدفُ إلقاء الأضواء على صفحات من حياة الإنسان في الحقب والأزمنة الخالية ، سواءٌ ما يرتبط منها بمسير الأعيان ، أو سياسة الحكام أو أحوال الأمم

والشعوب ، في مجالات البناء والتعمير أو الهدم والتخريب ... مع محاولة الوقوف على العوامل التي وجهت مجريات الأمور ، وما يكون قد نجم عنها من آثار ونتائج ألقت ظلالها على مسيرة الحياة في هذا العصر أو ذاك ...

وإذا كان الهدف الأساسي من دراسة التاريخ هو الإفادة من دروس الماضي لمواجهة صعاب الحاضر والإعداد لمستقبل أفضل ....

إذا كانت هذه هي الفوائد المرجوة من التاريخ ودراسته ، فإن أول ما تتطلبه هذه الدراسة ممن يُقدم على ممارسة صنعة التاريخ أن يكون أمينًا ، صادقًا ، دقيقًا فيما يكتب ويروي ، وأن يلتزم بالصدق في أحكامه ، والحيدة المطلقة في آرائه . إنه يحكم على أجيال مضت وعصور انقضت ، وصور من الحياة تغيرت بتغير العوامل التي صنعتها وشكلتها ، والظروف التي أحاطت بها وكيفتها ... وربما لم يتبق منها إلا ما ردده اللاحقون من روايات قد تكون صادقة أو غير صادقة . وهنا يأتي دورُ المؤرخ للقيام بتنقية تلك الروايات مما يكونُ قد عَلِق بها من شوائب ، أو لحق بها من تصحيف وتحريف .

حضرات الزملاء والزميلات

إننا مهما نبالغ في أهمية المعلومات التي نحصلُ عليها من مصادر التاريخ والتي يَستمدُ منها المؤرخُ مادته ، ويبني عليها أحكامه . فإن علينا أن ندرك أنها مع كثرتها حينًا ، وندرتها أو قلتها أحيانًا ، تبدو في بعض الحالات غيرَ مكتملة البناء ، ينقصها التماسك وسلامةُ الإطار ، بعد أن أتى عليها الزمان ، ونالت منها السنونَ والأهوام ، فضاع بعضُ أجزائها ، وتآكل البعضُ الآخر أو تعرض للتشويه على أيدي الإنسان نفسه ، أو تحت تأثير ظروف الطبيعة التي قد لا ترحم .

هذا مع ضرورة التسليم بأن التاريخ - تاريخ الإنسان على سطح الأرض - يفتقد في بعض الحالات عنصرًا خفيًا ، يجعلُ من الصعب على المؤرخ أن يرسمَ الصورة الحقيقية المكتملة لأحوال الماضي . وهذا ما نقصده عندما نقول إن هناك دائمًا أبدًا عنصرٌ غائبٌ يفتقر إليه المؤرخُ الحريصُ على سلامة أحكامه . إنّ المؤرخ يحكمُ على تصرفات فرد أو جماعة في ضوء الظاهر الملموس ، ولكنه لا يعرف حقيقة الباطن المستتر الذي تُكنه صدورٌ من يحكم على أعمالهم ، إذ ربما أخفوا من الأحاسيس والنوايا مالا يعلمه إلا الله عز وجلّ . ولذا كثيرًا ما يَضطر بعض المؤرخين إلى افتراض الفروض ، وظن الظنون ، بل ربما لجأ بعضهم في حالات معينة إلى

الحدس والتخمين ، لأنه لا يجد سندًا ثابتًا أو دليلاً قاطعًا يعتمد عليه ويستشهد به. وكثيرًا ما استخدم المؤرخون المسلمون عبارة « والله أعلم » .

ومن ناحية أخرى فإننا عندما نقول إن جزءًا كبيرًا من المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ ويستمدُ منها مادته ، مُستقى من كتابات ومخلفات السابقين ، فإن علينا أن ندرك أن هؤلاء السابقين الذين صنعوا التاريخ ودونوه وسجلوا أحداثه كانوا بشرًا ، يتصفون بكل ما يتصف به البشر من ميول وأهواء ونزوات ونزعات ، قد تكون طيبة أو غير طيبة . ولذا فإن بعض ما نعتبره مصادر نستقي منها تاريخ السابقين في حاجة إلى دراسة ذاتية متأنية عميقة ، بحيث يقف الباحثُ على هوية صاحبها ، وميوله العقائدية ، ونزعاته الفكرية ، ومكانته السياسية والاجتماعية ، ومآربه الشخصية ، وعلاقاته بمن كتب عنهم أو تعرض لسيرهم وأخبارهم . وهنا تكون نقطة البداية التي يبدأ طريقه منها المؤرخُ الجاد ، الحريصُ على ألا يقدم إلا صورةً نقية ، أقربُ ما تكونُ إلى الحق والواقع . عليه ألا يتعجل في الأخذ بكل ما يصادفه في المصادر من معلومات ، والتهامها بوصفها حقائق صحيحة ، وإنما يبدأ بما يمكن أن نسميه عملية (غربلة) دقيقة للروايات العديدة التي يقعُ بصرهُ عليها في المصادر ، ليفرق بين الغث والسمين ، والحق والباطل ، والظاهر والباطن ، والصحيح والمدسوس ....

حضرات الزملاء والزميلات

إننا عندما نعالج مصادرَ تاريخ العرب ، علينا أن نعترف بأن تاريخ الأمة العربية لم يكن أبدًا بمنجاة من الأخطار . إننا نفخر جميعًا بأن أمتنا أمةٌ واحدةٌ ، ذات تاريخ عريق تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام بكثير . وفي ظل الإسلام اتسع نطاق هذه الأمة شرقًا وغربًا ليشمل سلسلة من البلدان تمتد من المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات غربًا حتى حدود الصين وقلب القارة الآسيوية شرقًا . وكثيرٌ من الشعوب التي استوعبها الإسلام ثم تعريبها وغدت في حكم التاريخ (إسلامية عربية) . ولكن علينا في دراسة تاريخ هذه الأمة العربية أن نميّز بين مرحلتين أساسيتين : مرحلة ماقبل الإسلام ، ثم مرحلة مابعد مولد الدولة العربية الكبرى في ظل الإسلام . ففي المرحلة الأولى كان للعرب نشاطهم الحضاري المتعدد الأوجه ، وبخاصة في جنوب غرب وجنوب شرق شبه الجزيرة ، فضلاً عن إقليم الحجاز وبادية الشام . ويفيض تاريخُ العرب من الناحية الحضارية في تلك الحقبة بتراث ضخم خاصة في ميدان الأدب والشعر ، فضلاً عن النشاط السياسي والنشاط التجاري مع الروم والفرس شمالاً ، وبلاد الحبشة [illegible]

أفريقية جنوبًا . ومازالت النقوش والكتابات على بقايا المعابد والسدود وغيرها تشكل مصدراً هامًا لتاريخ العرب فى تلك الحقبة الزمنية .

على أنه بظهور الإسلام ، وهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، دخل تاريخ العرب دوراً جديداً يتناسب مع ما ترتب على حركة الفتوح الإسلامية من مولد دولة كبيرة ، ازدهرت حضارتها واستوعبت الكثير من ألوان المعرفة ، وارتقى بين جنباتها علمُ التاريخ ليصل إلى مستوى لا مثيل له فى أى ركن آخر من أركان العالم المعاصر . وبعد أن كانت الحجارة والجلود والعظام وقطع النسيج والمعادن والأخشاب وأجزاءٌ من النبات والشجر ... تشكلُ الصحائف التى يُسجَّل عليها التاريخ ، عُرف الورق وظهرت الكتب التى امتلأت بها حوانيت الوراقين والنساخ ، لتصبحَ المصدرَ الأساسى الذى اعتمد عليه مؤرخو تلك العصور . وهكذا تعددت الينابيع وتنوعت المصادر التى استقى منها المؤرخون الكثير عن تاريخ العرب وغير العرب . ويقىَ على المؤرخ اليقظ اليوم ألا يلتقط كل ما يصادفه فى مصادر هذا التاريخ من أخبار وروايات ، ليحملَها محملَ الحقيقة والصدق ، وإنما عليه أن يدقق ، ويقارن ويفند ما يتطلب التفنيد ، بحيث لا يقبل إلا المقبول .

حضرات الإخوة والأخوات

إن المصادر فى التاريخ تشكلُ المنهلَ الذى يستمدُّ منه المؤرخُ العناصر الأولى التى يَشيدَ منها بناءه . فالمصادر هى الأساسُ فى الحكم على مدى صحة أية رواية تاريخية . وبقدر ما يتوفر للمصدر من صحة واكتمال ، بقدر مايكونُ البناءُ سليمًا متماسكًا متكامل الأجزاء .

ونحن اليوم فى هذه الندوة ، الزاخرة بعدد من صفوة المؤرخين العرب ، نجتمع سويًا فى جو مشبَّع بروح الأخوة وسلامة الهدف ، لنُلقى المزيدَ من الأضواء على مصادر تاريخ العرب ، ونستمد من ذلك ما عساه يساعدنا فى جهودنا لتنقية هذا التاريخ مما يكون قد لحق بعض أجزائه على مر العصور من شوائب ، وبذلك نتمكنُ من استكمال بعض ما ألم به من ثغرات .

وهكذا يمضى اتحاد المؤرخين العرب فى طريقه الذى يلتزم به دائمًا ، وفاءً بعهدٍ كان مسئولاً ، مستهدفًا النهوضَ بأمة العرب ، وتاريخ العرب ، ومؤرخى العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سعيد عبد الفتاح عاشور

د . عبد المنعم إبراهيم الجميعى (*)

الوثيقة وأهميتها التاريخية

الوثيقة فى اللغة العربية لفظ عام محدود المعنى ، لم تعطه المعاجم العربية القديمة والحديثة على حد سواء ما يستحقه من شرح وتعريف بالمراد منه . ولقد يكون القدامى ، من اللغويين معذورين فى ذلك ، لأن علم الوثائق لم يكن معروفًا لديهم حينذاك أو على الأقل لم يكن معروفًا لديهم بهذا الاسم[١١] ، ومن هنا جاء تعريف الوثيقة فى معاجم اللغة على أنها مؤنث الوثيق ومعناه المحكم أو ما يحكم به الأمر ، ويقال أخذ بالوثيقة فى أمره بمعنى بالثقة »[٢] ، واسم التفضيل من هذه الكلمة هو الأوثق ، والموثَّق منه وثقى »[٣] ، وقد جاءت هذه الكلمة فى سورة البقرة فى قوله تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)[٤].

ونتيجة لهذا التعميم فى توصيف الوثيقة فقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهوم الوثائق، فبعض المؤرخين قصد بها المستندات التى تصدر من جهات رسمية أو من أفراد لهم صفة رسمية وتعرف فى هذه الحالة بالوثيقة القانونية ، كالأوامر ، والقرارات ، والمراسيم ، والاتفاقيات ، والمعاهدات . هذا إلى جانب الرسائل التى تحمل هذه الصفة ، وبعضهم الآخر يقصد بها كل ما خلفه الحدث التاريخى من آثار بمعنى أن لكل مكتوب قيمة تاريخية حتى لو لم يكن لمحررها صفة رسمية[٥] ومعنى ذلك أن روايات شهود العيان ، وكشوف

* - أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - وكيل كلية التربية بفرع جامعة القاهرة بالفيوم .

اسما طلاب الجامعات والمدارس والتعليمات الموجهة إليهم ، وقرارات وخطب رؤساء الأحزاب وغيرها تدخل فى مفهوم الوثائق [٦].

وتوسع البعض فى تعريف الوثيقة فقال أنها كل آثار السلف حتى ولو كان ذلك خطابًا من ابن إلى أبيه أو من صديق إلى صديقه ، أو بيان حساب لأحد التجار أو حجابًا من الأحجبة أو تعويذة من التعاويذ أو إيصال دين أو قائمة بأسعار بعض السلع أو ما شابه ذلك ، وبخاصة أن كل ذلك قد يكون ذا أهمية كبيرة فى دراسة التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى والثقافى وغير ذلك من المبادين الجديدة فى علم التاريخ [٧].

وحتى يمكن حسم هذا الموضوع فسنعرض لبعض مأورد فى أنظمة بعض دور الوثائق المتقدمة فى العالم . ففى قانون دار الوثائق العامة فى لندن الصادر فى ١٨٣١/٨/١٤م (١٢٤٦هـ) نص على أن الوثيقة تعنى الملفات والسجلات والحجج والمستندات ، ومحاضر الجلسات والمراسيم ، والإشعارات واللوائح القانونية ، وكشوفات الجرد ، والكشوفات الحاسبية ، والأوراق والكتب . وفى القانون الأمريكى الصادر فى ١٩٤٣/٧/٧م (١٣٦٦هـ) جاء تعريف الوثيقة بأنها الكتب والأوراق والخرائط والصور الفوتغرافية أو أية مواد وثائقية بغض النظر عن شكلها الطبيعى أو صفتها .

وعند تقييمنا لهذه الآراء يتضح أنه إذاقصرنا مفهوم الوثيقة على الوثائق الرسمية فإننا قد نصل إلى نتيجة قد لايقبلها المنطق أو الواقع ، وقد تبعدنا عن الموضوعية وهى أن الكثير من أصول الأحداث التاريخية ليس لها صفة رسمية أو حكومية . وأن الوثائق الرسمية فى كثير من الأحيان لاتفى بالغرض المطلوب فى تفسير الأحداث مما يحتم على الباحث الرجوع إلى كل ماتركه الحدث التاريخى من آثار ، وهنا يعنى أن العديد من الدراسات الرصينة لاتعد دراسات موثوقة . ومن هنا فنحن نتفق مع الرأى الذى يرى توسيع معنى الوثيقة ، ونرى أن كل ما خلفه الحدث التاريخى من آثار يدخل فى عداد الوثائق كما نضيف إلى ماسبق ذكره ضرورة وضع التسجيلات الصوتية والأرشيفات الفوتغرافية والسينما توغرافية ضمن تعريف الوثائق خصوصًا وأنه ليس من المنطقى أن لاتدخل جلسات المؤتمرات الدولية المسجلة صوتيًا والمحفوظة بوزارات الخارجية ، وفى هيئة الأمم المتحدة ، وفى وزارات الإعلام والمؤسسات العلمية وغيرها ضمن نطاق الوثائق بل ينبغى أن يشتمل دور الوثائق العربية على أرشيف الوثائق الصوتى archive snore والذى قد يكون فى المستقبل هو أرشيف الغد .

وعن أهمية الوثائق فقد اختلف المؤرخون والعاملون فى حقل الدراسات التاريخية أيضًا فى تحديد مدى أهمية الوثائق فمعظمهم نعتها بالعديد من النعوت التى تبرز قيمتها وأهميتها ، وبعضهم شكك فى ذلك .

أما عن الفريق الأول : فقد وصفوها بأنها قطع من حياة الأسلاف ، وشهود معاصرة للوقائع التاريخية ، وأقوى المصادر حجة فيما يتعلق بتصوير الحياة اليومية وتحديد التواريخ والأماكن . وكثيراً ما يؤدى إهمالها أو الاستغناء عن بعضها إلى أن يخطىء المؤرخ فى أحكامه [٨]. لأنها المادة الخام التى تحمل بين سطورها تراث الأمم وحضاراتها ، وهى الشاهد الأكبر على تراث الأمم وتاريخها ، وهى سند المؤرخ القوى الذى يجد بين ثنايا سطورها من الحقائق ما يسد الثغرات الناقصة ويستكمل الحلقات المفقودة ، وهى المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ ، لكونها منبعًا بكراً يرد فيه الكثير مما لم يتوصل إليه المؤرخون [٩]. وهى الأصول التى لايمكن كتابة التاريخ الصحيح أو تحقيق الحوادث التاريخية بدونها ، وهى التى تتسم بالأصالة والتفرد والعطاء ، وبخاصة إذا كانت تعد فراغًا فى تاريخ البشرية ، وهى المصادر النزيهة التى يصعب الشك فى صحتها ، وبخاصة أنها لم تكتب أصلا بغرض التأليف التاريخى [١٠]. يضاف إلى ذلك أنها أفضل موصل لتبيان الحقيقة التى تجعل المؤرخ يقف على حقائق الأمور دون أى شك أو مواربة ، وترفع الستار عن الكثير من القضايا التاريخية التى يشوبها الغموض والتى لايزال بعضها ألغازًا محيرة [١١]. مما قد يؤدى إلى تفسير مفاهيم خاطئة قد توارثها الآباء عن الأجداد ، والأبناء عن الآباء فأخذت ثوب الحقيقة عن غير استحقاق [١٢]. كما أنها مصدر للمعلومات من الدرجة الأولى يفتح لنا أبوابًا جديدة ومتعددة للدراسة لكونها مصدراً مهمًا سطر فيه الكثير مما أغفله المؤرخون فى كتاباتهم كما أن فقدها أو تعرضها للتلف والضياع يزيد من الفجوات فى مجرى التاريخ ، ويجعل حلقات كثيرة منه مجهولة إلى الأبد .

وإلى جانب ذلك فإن كل وثيقة لايتسنى لأحد الوصول إلى قراءتها تعد وثيقة ميتة ، وهذا هو شأن الوثائق التى مازالت مطمورة حتى الآن فى بعض الخزائن الحكومية والخاصة أو فى حوزة جماعة تحاول احتكار الوثائق ، أو بسبب ظروف خاصة تحول دون نشرها . وفى تلك الحالات تظل هذه الوثائق معطلة ، لايمكن الإفادة منها فى البحث التاريخى إلا إذا خرجت من مخابئها إلى طريق النور حيث يتم نشرها والاستفادة من معلوماتها ، وتحويلها من مادة خام صامتة إلى معلومات تاريخية قد تضيف إلى المعرفة شيئًا جديداً .

أما عن المجموعة الثانية التى شككت فى مصداقية الوثائق ودقتها فإن حجتها فى ذلك أن العديد من الوثائق تعبر عن رأى أصحابها الذى قد لايخلو من التحيز ، وأنها قد تحتوى على معلومات خاطئة أو محرفة أحيانًا بلغت إلى أحد المسئولين قبادر بإيصالها إلى حكومته دون التثبت منها أو ربما كان أحد الأشخاص قد حاول تزوير مافيها من معلومات ، لذلك لايجوز للمؤرخ أن يقبل ماجاء فى الوثائق وبخاصة أنها لاتحتوى إلا على ماكان يفكر فيه صاحب الوثيقة .

والواقع أن كلاً من الرأيين له له وجاهته ، فعلى الرغم من أنه لايوجد شك كبير فى أصالة وحياد الوثيقة ونزاهة كاتبها ، وبخاصة أنه عاش فى وقت لم يكن يتوقع أن ما كتبه سيكون ذا قيمة تاريخية بعد ذلك ، أو سيعتمد عليه فى التأليف التاريخى [١٣] ؛ ولذلك تنتفى الأهواء الذاتية عن الوثيقة التاريخية وتصبح مصدراً رئيسًا للمعلومات من الدرجة الأولى [١٤]. فإنه من المعروف أن بعض الوثائق لاتخلو من التحيز والهوى أو التحريف ، لذلك فإنه لايجوز للمؤرخ أن يقبل كل ماجاء فى الوثائق بل إن مهمته هى غربلة المعلومات الموجودة بالوثائق ومقابلتها بغيرها من المصادر للتوصل إلى الحقيقة والتعرف على ملابسات الواقع. فعلى الرغم من أهمية الوثائق فإنها فى حد ذاتها لاتصنع الحقيقة التاريخية بل تظل أداة خرساء فى يد من لايعرف كيف يضفى عليها من علمه وخبرته فيها [١٥]. وبخاصة وأن الوثائق لاتعطينا صورة كاملة مترابطة عن الحادث وإنما تمدنا بصورة متناثرة ، بينها وبين البعض الآخر الكثير من أنواع النقص وعدم الارتباط والاختلال وأن دراستها وتحليلها وإكمال كل نقص وسد كل ثغرة بينها ، وتنقيتها كما تنقى الحبوب الطبية من الحصى والقشر ويتطلب ذلك من المؤرخ أن يتمتع بموهبة خاصة يستطيع بها إحياء الماضى بكل ماكان عليه وأن يميز بين الحقيقى وغير الحقيقى ، مستعينًا بالشواهد المعترف بأنها صادقة ، كما يحتاج ذلك أيضًا إلى مؤرخ واسع الثقافة ، وناقد حصيف يتمتع بمقدرة علمية عالية ، وقدرة على معالجة المسائل التاريخية والتعرف على ملابسات الواقع ، فيجتهد لإبراز ما بها من خفايا وإيضاح الجديد فيها ، وتلك هى الغاية الأولى للتاريخ . فاستخلاص الأحكام التى تتعلق بالإنسان ، والإجابة على الأسئلة التى تتعلق بجهود البشرية ومنجزات الإنسان فى الماضى بما فيها من عبر وعظات ، للسير على منوالها فى المستقبل ولاسيما أن الإحاطة بأعمال الإنسان ، والإلمام بدقائق الحياة اليومية فى العصور الماضية بمثاليها ومثاربها ، كل ذلك يمكن أن يفيد إنسان الحاضر فى تجنب أخطاء من

سبقوه ، والسير على منوال محاسنهم ومآثرهم . ذلك أن الحضارة الإنسانية ليست بنت ساعتها ، بل هى تراث عصور ومجهودات أمم وشعوب عاش الإنسان تجاربها العديدة المتباينة حتى ظهرت لنا حضارة القرن العشرين .

ومن هنا ينبغى أن يخطر ببال أساتذة الجامعات من المؤرخين الذين يفنون أعمارهم فى البحث عن الحقيقة ، ويبذلون أنفسهم فى الوثائق والإحصاءات ، أن الماضى ميت إلا بمقدار مايؤثر فى أخلاق وغايات الأحياء من الناس ، وأنه لاقيمة للتاريخ إلا بمقدار ما ينير الحاضر ، ويعين على توجيه المستقبل .

وأنه إذا ما كتب التاريخ بهذه الطريقة فسيعرف العالم حقيقة الطبيعة البشرية معرفة أفضل مما يكتبه علماء النفس والفلسفة والاجتماع فى العالم [١٧]. وعلى كل حال فبعد أن اتضحت أهمية الوثائق فى الكتابة التاريخية أخذت الأرشيفات الخاصة بها فى التطور فبعد أن كانت مخازن للملفات غير المستعملة ، ومأوى لمخلفات المصالح الحكومية ، ومستودعًا للحشرات [١٨] أصبحت بمثابة المعامل الحديثة للدراسات التاريخية . وقد تطورت هذه المعامل ، ونظمت بحيث تلبى حاجات الباحثين وظهرت ، منها أنواع جديدة .

ومن المعروف أن مصر كانت من أوائل الدول العربية التى تنبهت إلى أهمية وثائقها فأصدرت مرسومًا وزاريًا فى عام ١٩٥٤م بإنشاء لجنة الوثائق التاريخية لجمع كل موارد المحفوظات ذات الفائدة التاريخية فى إدارة مركزية عرفت باسم دار الوثائق .

وقد أنشئت هذه الدار طبقًا لنص القانون رقم (٣٥٦) لسنة ١٩٥٤م ، ومهمتها جمع الوثائق التى تتصل بتاريخ مصر فى جميع العصور وتيسير البحث والاطلاع والعمل على نشر الوثائق ورفع مستوى البحوث التاريخية [١٩].

هذا وقد نص القانون ٣٥٦ فى مادته العاشرة على تشكيل اللجان الدائمة للمحفوظات ، وعمل سجلات لها ، ولتكون حلقة الاتصال بين تلك الجهات ، ودار الوثائق القومية .

وعن تحديد معنى الوثيقة فإن كل وثيقة مهما كانت مادتها فإنه يمكن أن تكون جزءًا من المادة التاريخية على مرور الأيام ، خصوصًا وأن جميع الوثائق لازمة للمؤرخ سواء فى ذلك الوثائق المالية أم الإدارية أم التعليمية أم القانونية أم غيرها [٢٠].

ومن المعروف أن الإنسان ليس عبدًا للوثائق والمخطوطات بل هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب مايخاطب به عقول الناس فى كل عصر .

ومن البديهى القول أن الشعوب المتقدمة فى سلم الحضارة تحافظ على وثائقها خصوصاً وأن هذه الوثائق تعد كنوزاً ثمينة . فهى الشاهد الأكبر على التاريخ ، وهى الدليل الأعظم على الشخصية الحضارية لأى شعب من الشعوب .

والدراسات التاريخية المبتكرة تعتمد اعتماداً كبيراً على الوثائق لكونها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية لكل باحث ، يرغب فى إضافة حقائق علمية لم تكن معروفة من قبل سواء للمؤرخين أم غيرهم .

الهوامش :

١ - د. سلوى مبلاد : الوثيقة القانونية ، ماهيتها - أجزاؤها أهميتها ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ ص ١٠ .

٢ - مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط جـ ٢ ، القاهرة ، ص ١٠٣٣ .

٣ - بطرس البستانى : محيط المحيط ، بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٣م ص ٩٥٦ - ٩٥٧ .

٤ - الآية ٢٥٦.

٥ - د. على الفصراوى : تقرير بيليوجرافى عن بحوث فرنسا ونشراتها فى القرن الثامن عشر ، مجلة العلوم الاجتماعية بالرياض ، العدد السابع ١٤٠٣ - ١٩٨٣ ، ص ١٠٧ .

٦ - د. عبد العظيم رمضان : المذكرات السياسية وأهميتها بين وثائق تاريخ مصر المعاصر - دراسة غير منشورة ضمن بحوث ندوة وثائق تاريخ العرب الحديث ، ١٩٧٧ ، ص ٣ .

٧ - د. حسين ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، بحث منشور ضمن الجزء الثانى من مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ص ١٣١.

٨ - د. أحمد السعيد سليمان : وثائق التاريخ العربى وكيفية صيانتها ، حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، المجلد التاسع ١٩٦٤ .

٩ - محمود عباس حمودة : المدخل إلى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٣ .

١٠ - لم يكن لدى الناس الذين دونوا أعمالهم منذ مئات السنين أية معلومات محددة عن الطريقة التى يعمل بها المؤرخ المعاصر .

١١ - المنارة : العدد الأول ، شوال ١٤٠٥هـ/يونيو ١٩٨٥ ، مقال للأستاذ عبد الله الحقيل تحت عنوان "أهمية تجميع تراثنا الوثائقى المتناثر فى مكتبات العالم" ص ١٩٠ .

١٢ - لم يعد مجهولاً أن أجيالاً متعاقبة من أبناء مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقته .

١٣ - د. حسين ربيع : البحث السابق ص ١٣١ .

١٤ - د. سلوى مبلاد : وثائق أهل الذمة فى العصر العثمانى وأهميتها التاريخية ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ٣ .

١٥ - يرى البعض أن مجرد العثور على الوثائق ونشرها ومناقشتها يكون ذات فائدة للتاريخ .

انظر : لويس جرتشلك : كيف تفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى - ترجمة عائدة سليمان وأحمد أبو حاكمة ، بيروت ، دار الكتب العربى ، ١٩٦٦ .

١٦ - عبد الرحمن بدوى : مناهج البحث العلمى ص ٢١٩ .

١٧ - ول ديورانت : مناهج الفلسفة - ترجمة أحمد فؤاد الأهواني - القاهرة . الألجلو المصرية ، ١٩٥٥ ، ص ٨ .

١٨ - يذكر أسد رستم أنه عندما صعد إلى القلعة في عام ١٩٣٥ لتفقد الدفترخانة المصرية وجد أوراقها وسجلاتها مكدسة بعضها فوق بعض في أكياس لايزومها سوى الجرادين والثعابين . انظر : مجلة المشرق البيروتية الجزويتية ١٩٣٧ ص ٤٧٧

١٩ - محمود عباس حمودة : النشاط الدولي في خدمة الوثائق ، مخطوط ص ٤١ .

٢٠ - دار الوثائق القومية : نشرة تفسير القانون ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ وتنظيم المحفوظات ص ٢٦ .

د. جباغ سيف الدين قابلو(*)

المصادر الآرامية وأهميتها في كتابة تاريخ المشرق العربي القديم

من المعلوم أنه لايمكن كتابة تاريخ أي فترة زمنية من فترات التاريخ بدون وجود مصادر تمكننا من كتابة تاريخ الفترة الزمانية المعنية ، وإلا كانت كتاباتنا مجرد رواية أدبية أو أسطورية خالية من أي سند علمي ، وبالتالي تصبح بدون أي قيمة علمية حقيقية . ومن المعلوم أيضاً أن هذه المصادر تصنف في مجموعتين أساسيتين : إحداهما المصادر المادية (منشآت معمارية - أدوات عمل - أدوات منزلية - أعمال فنية ... إلخ) . والمجموعة الثانية هي مجموعة المصادر الكتابية التي كشفت منها أعمال التنقيب الأثري . وتتضمن هذه المجموعة معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وأدبية وعلمية ... إلخ .

إن المصادر المعتمدة في دراسة تاريخ المنطقة العربية القديم تشمل المجموعتين آنفتي الذكر . وفيما يتعلق بالمصادر الكتابية، فإن بداية ظهورها تعود إلى نهاية الألف الرابع ق.م - سواءً في بلاد الرافدين أم في مصر على شكل كتابات مسمارية وهيروغليفية . ورغم أن عدد هذه الوثائق كان في البداية محدوداً ، إلا أنها استمرت بالازدياد كلما تقدمت بنا القرون حتى تشكلت لدينا مجموعات من الوثائق ربما زاد عددها على مئات الألوف ، وهي

* - أستاذ مساعد - قسم التاريخ - جامعة دمشق .

بحاجة إلى جهد كبير حتى نتمكن من دراستها واستخراج ما نحن بحاجة إليه من معلومات ، لنتمكن من معرفة تاريخ منطقتنا العربية عبر القرون .

ونحن في بحثنا هذا سنتوقف عند المصادر الكتابية الآرامية ، وأهميتها فيما يتعلق بكتابة تاريخ منطقة الشرق العربي القديم ، والأثر الحضاري لهذه المنطقة على منطقة الشرق القديم برمتها خلال الألف الأول ق.م والقرون الميلادية الأولى .

وقبل أن ندخل في صلب موضوعنا سنتوقف لنعطي لمحة سريعة عن التاريخ السياسي للآراميين من حيث بداية ظهورهم ، والدول التي أسسوها ، وكيف كانت نهاية دولهم هذه .

إن الوثائق الأولى التي وصلتنا تذكر الاسم « آرام » بصيغ مختلفة تعود إلى العصر الأكادي ، وهي تطلق هذا الاسم على منطقة ما تقع بين بين نهري الزاب الأسفل والديالى . وفي وثيقة أخرى يطلق هذا الاسم على مدينة تقع شمالي بلاد الرافدين . ومن عهد سلالة أور الثالثة لدينا وثيقتان ، تعود إحداهما لعهد الملك شولجي (٢٠٩٣١ - ٢٠٤٦ق.م) ويرد فيها اسم « آرامي » كاسم لمدينة أو إقليم . والثانية تعود إلى عهد الملك شوسين (٢٠٤٥ - ٢٠٣٧ ق.م) ويرد فيها اسم « أرامو » كإسم علم لرجل . ومن أرشيف ماري لدينا الاسمان « أحلامو » و« آرام » وهما يردان في وثائق ذات طابع اقتصادي . والاسمان كما يردان يدلان على أن جماعات بدوية ، أو أفراداً من قبيلة آرام أو أحلامو ، كانوا يفدون إلى ماري بغرض المتاجرة معها[١] .

ولكن من خلال هذه الإشارات البسيطة لايمكننا أن نكون واثقين من أن الآراميين الذين تذكرهم هذه الوثائق ، هم أسلاف الآراميين الذين ظهروا فيما بعد في المنطقة السورية الرافدية ، منتصف الألف الثاني ق.م.

إن الظهور الحقيقي للقبائل الآرامية يبدأ مع منتصف الألف الثاني ق.م ، عندما بدأت تثير المشاكل على الطرق التجارية الواصلة بين مناطق مختلفة من العالم القديم . ومن خلال الوثائق المختلفة التي تأتي على ذكرهم خلال هذه الرحلة تتبين أن القبائل الآرامية وأسلافها من الأحلامو ، كانوا ينتشرون على منطقة واسعة تشمل مناطق البادية السورية بمحاذاة نهر الفرات إلى أنحاء مختلفة من الجزيرة العليا . ومن خلال كتابات الملك الأشوري تيغلات بلاصر الأول (١١١٦ - ١٠٧٦ ق.م) يتبين أن المنطقة التي كانت تنطلق منها القبائل الآرامية إلى عملياتها المختلفة أو وراء مناطق الرعي ، كانت تقع في سفوح جبل بشري في البادية السورية إلى الشمال الشرقي من مدينة تدمر[٢] .

ومع مطلع الألف الأول ق.م تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ القبائل الآرامية ، وتتمثل هذه المرحلة بانتقال هذه القبائل من مرحلة العيش كقبائل متنقلة تعتمد في معيشتها على الإغارة على القوافل التجارية التي تربط بين بلدان سورية والأناضول وبلاد الرافدين ، وكذلك على مناطق الاستقرار الواقعة على حدود البلاد الآنفة الذكر ، إلى جانب وضعها لقوتها العسكرية في خدمة حكام الدول التي كانوا يعيشون في إطارها أو على حدودها ، نقول أن هذه القبائل قد انتقلت من أسلوب الحياة هذا ، إلى أسلوب الحياة المستقرة ، ومن ثم إلى إنشاء دول خاصة بها . وبالحقيقة فإننا لا نستطيع أن نكوّن صورة واضحة عن الطريقة التي تم بها الانتقال من النمط السابق إلى التالي ، وذلك لانعدام المصادر التي يمكن أن تفيدنا في ذلك ، ولكن من الممكن أن نقارن ماحدث لهذه القبائل مع ما حدث قبل نحو من ألف عام مع القبائل الأمورية التي دخلت بلاد الرافدين من منطقة البادية السورية في نهاية الألف الثالث ق.م. ، ومن ثم استولت على السلطة في أغلب مدن الرافدين مطلع الألف الثاني ق.م (بابل ، لارسا ، إيسين ، أشنونا ، ماري ...) مُستغلةً حالة الاضطراب التي كانت تعاني منها بلاد الرافدين في هذه الفترة من تاريخها إثر الضعف الذي حل بسلالة أور الثالثة والذي انتهى بانهيارها نتيجة هجوم العيلاميين عليها نحو العام ٢٠٠٣ ق.م . فالمنطقة السورية التي كانت دائمًا منطقة تجاذب بين القوى الكبرى المحيطة بها بدءاً من القرن السادس عشر ق.م (الصراع الميتاني المصري والصراع الحثي المصري ومحاولات التدخل الأشوري فيما بعد) . شهدت هذه المنطقة نوعًا من الفراغ السياسي ، نتيجة عوامل عديدة أهمها غزو شعوب البحر والذي أدى إلى انهيار الإمبراطورية الحثية في الأناضول وانشغال مصر بالدفاع عن حدودها في وجه هذا الغزو[٣] ، والضعف الذي بدأ يحل بالدولة الأشورية إثر وفاة تيغلات بلاصر الأول . وقد استغلت القبائل الآرامية هذا الفراغ في المنطقة لتؤسس لنفسها دول على نمط دويلات المدن الذي كان سائداً فيما مضى في بلاد الرافدين والذي ظهر فيما بعد في بلاد الإغريق وعندما عاد الآشوريون إلى المنطقة السورية بدءاً من عهد حدد نيراري الثاني ٩١٢ - ٨٩١ ق.م ومن تبعه من الملوك الأشوريين . وجدوا أن هذه المنطقة قد قامت فيها مجموعة من الدول من أهمها : بيت بخياني وعاصمتها جوزن في منطقة تل حلف في محافظة الحسكة وإلى الغرب منها بيت عديني وعاصمتها تل برسيب في منطقة تل الأحمر إلى الشمال من حلب على نهر الفرات . ومن ثم بيت أجوشي وعاصمتها أرفاد (تل رفعت) حاليًا شمال حلب أيضًا ، ومن ثم إلى الشمال الغربي بيت ياأودي وعاصمتها شمأل عند منابع نهر الأسود في سفوح الأمانوس ،

وإلى الجنوب من بيت أجوشي قامت آرام حماة وعاصمتها مدينة حماة الحالية ، وإلى الجنوب منها آرام دمشق والتي كانت تعتبر من أكبر القوى السياسية التي أقامها الآراميون في المنطقة السورية . أما في منطقة بابل فقد أسس الآراميون - وبنفس الوقت - مجموعة من الدويلات لعل من أهمها : بيت دكوري جنوبي مدينة بابل ، ومركزها مدينة بورسيبا ، وبيت شالي في الجنوب الشرقي من مدينة بابل بالقرب من مدينة نيبور (نَفَر الحالية) وبيت أموكاني جنوبي الإمارتين السابقتين ومركزها مدينة أوروك (الوركاء الحالية) وبيت يكيني جنوب شرقي بيت أموكاني على ساحل الخليج العربي [٤].

إن الوجود السياسي للدويلات الآرامية في سورية لم يستغرق أكثر من قرنين من الزمن ، إذ أنها سرعان ما دخلت في صراع غير متكافئ مع الدولة الأشورية الطامحة لفرض سيطرتها على جميع المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات ، في الوقت الذي لم تتمكن فيه هذه الدويلات من توحيد صفوفها للوقوف في وجه هذا الطموح ، فبدأت هذه الدويلات بالسقوط الواحدة تلو الأخرى ، وكان آخرها آرام دمشق التي أسقطها تيغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) وقسّم أراضيها إلى عدة مقاطعات عليها حكام آشوريون [٤١]. وفي الوقت نفسه بدأ الصراع بين الأشوريين وآراميي بابل وجنوب بلاد الرافدين والذي استمر بين مد وجزر حتى سقوط الدولة الآشورية على يد التحالف الميدي - الكلداني نحو العام ٦١٠ ق.م .

النصوص الآرامية :

بعد هذا الاستعراض السريع للتاريخ السياسي ، ننتقل لاستعراض أهم الكتابات الآرامية . ولكننا نشير هنا إلى أن الآراميين استعاروا حروف أبجديتهم من جيرانهم وأبناء عمومتهم الفينيقيين سكان الساحل السوري اللبناني . ويمكن تصنيف الكتابات الآرامية في عدة مجموعات : أولاها تلك التي تعود إلى عهد الدويلات الآرامية أي إلى الوقت الذي كان فيه الآراميون يشكلون قوة سياسية في المنطقة السورية وتمتد هذه الكتابات إلى فترة القرنين التاسع والثامن ق.م ، ومن أهمها كتابات ملوك شمال المختلفين(بر راكيب وفنصوا) ونقوش السفيرة العائدة لملك بيت أجوشي متيع إيل بن عثر سمك ، والنقوش المنسوبة لملوك آرام دمشق والتي عثر عليها في مناطق مختلفة من سورية ، ونقش الملك هد يسعي ملك جوزن ، ونقش أفس أو نقش الملك زكور ملك حماة .

وبعد ذلك تأتينا النقوش الآرامية العائدة للعصرين الآشوري والكلداني وأهمها نقشان من الشرب جنوبي حلب ، ورسالة من أشور ، ورسالة من سَمَّأرة وأما من العصر الفارسي الأخميني، فلدينا مجموعة كبيرة من الوثائق التي وجدت في مختلف المناطق التي خضعت للإمبراطورية الفارسية الأخمينية ، والتي تعتبر الأكبر حجمًا من بين الدول التي قامت في منطقة الشرق القديم . وقد دونت هذه النصوص على مواد مختلفة (أوراق البردي ، رقائق الجلد ، نقوش على الحجارة والنقود والأوزان ، والأختام والرقم الطينية) . ونعرض هنا لأهم النقوش الآرامية العائدة لهذه الفترة ، ونبدأ بالنقوش المكتشفة في إيران (باعتبارها قلب الدولة) .

ففي پرسپوليس عُثِرَ بين العامين ١٩٣٦ - ١٩٣٨ على مجموعة من الأواني المحطمة كان على ٣٠٠ قطع من بقاياها هذه الأواني كتابات آرامية (كتابة ولغة) . كما عثر في قلعة هذه المدينة على مجموعة من الرقم عليها نصوص آرامية . وعلى ٤٤ رُقيم مكتوبة باللغة العيلامية (ومن المعلوم أن هذه اللغة دونت بالخط المسماري) وجدت ملاحظات وحواشٍ باللغة الآرامية ، وهي بشكل عام عبارة عن ملخصات للنصوص العيلامية . إن مثل هذه النصوص التي تضم ملخصات بالآرامية لجدها على وثائق مسمارية آشورية وبابلية بدءاً من القرن السابع ق.م.

ومن آسيا الصغرى لدينا مجموعة من النصوص الآرامية العائدة لهذا العصر من مثل تلك التي عُثر عليها في أريسون في كبادوكيا ، وفي منطقة داسكيتي . وإلى جانب هذه النصوص الآرامية اللغة ، هناك نصوص مكتوبة باللغتين الليدية والآرامية معًا وفي أرمينيا المجاورة عُثر أيضًا على مجموعة من النصوص الآرامية تغطي الفترة بين القرنين السادس والرابع ق.م وبعضها أحدث من ذلك .

لقد استخدم كتبة بلاد الرافدين لتدوين الوثائق أوراق البردي أو رقائق الجلد وبسبب طبيعة الطقس الرطب في بلاد الرافدين ، فإن أغلب هذه النصوص تلفت ولم تصلنا مع الأسف . وفي فلسطين في منطقة وادي الدالي عُثر على مجموعة من النصوص تغطي الفترة ما بين ٣٧٥ - ٣٣٥ ق.م وأما محتواها فقد كان إداريًا وبعضها ذو طابع شخصي (عقود زواج ، بيع ممتلكات ... إلخ) .

إن المجموعة التي وصلتنا من مصر ، تعتبر من أهم مجموعات النصوص الآرامية العائدة لهذا العصر ، وقد وصلت أول هذه البرديات المصرية إلى أوروبا في القرن الماضي نحو العام

١٨٢٤م . ومعلومات هذه البرديات هامة جداً لأنها تلقي الضوء على حياة الجالية السورية التي نقلها الأخمينيون وطنها في مناطق مختلفة من مصر وخصوصاً في جزيرة الفيلة (الفنانتين) ومفيس وهيراكليوبوليس وغيرها . وتشمل هذه المعلومات ، معلومات اجتماعية (عقود زواج ، عقود توريث ، رسائل بين أفراد مختلفين من أبناء هذه الجالية ، يعيشون في مناطق مختلفة من مصر) ومعلومات اقتصادية (عقود إقراض فضة أو حبوب ، بيع وشراء منازل ... إلخ) المعتقدات التي كان يعتنقها أفراد هذه الجالية فبعضهم من الآراميين الوثنيين وبعضهم من اليهود والعلاقة التي كانت تربط بين هذه المجموعات المختلفة في ديانتها . إلى جانب ذلك تلقي هذه البرديات الضوء على طبيعة الإدارة الفارسية في مصر ، وذلك من خلال رسائل بعث بها أرشام ساتراب مصر إلى بعض تابعيه في مصر في الوقت الذي كان موجوداً فيه هو في العاصمة الفارسية سوزا أو في العاصمة الإقليمية المهمة بابل [٦]. ورغم أن هذه الرسائل غير مؤرخة ، إلا أن الباحث درايفر الذي كان ينشرها ، أعادها إلى الفترة بين العامين ٦١١-٨٠٤ ق.م . وذلك انطلاقاً من محتواها وبعض الإشارات الجانبية الواردة فيها [٧]. إلا أن بعض الباحثين يعتقدون أن هذه الرسائل أقدم من ذلك وأنها تعود إلى نحو العام ٤٥٤ق.م[٨].

ومن النصوص المهمة من مصر تلك التي نشرها عام ١٩٣١ إيبي جبرون وبلغ عددها ١١٢ نصاً مكتوبة بعضها على أوراق البردي وبعضها على العظام وغيرها من المواد . والمهم في الأمر أن ناشر هذه النصوص يعتقد أن معظمها كانت بمثابة « يوميات » لأحد موظفي الدولة وتتعلق ببناء وإصلاح سفن حربية في مفيس (حيث عُثر على هذه الوثائق) ورغم أن هذه الوثائق مؤرخة وفق التقويمين الفارسي والمصري ، إلا أنها لا تذكر اسم أي ملك من ملوك الفرس ، ولذلك فإنه من الصعب تحديد تاريخها بدقة [٩].

ومن الكتابات الآرامية المهمة العائدة لهذا العصر تلك التي عثر عليها في منطقة تيماء شمال غرب المملكة العربية السعودية . وقد نشرت هذه النصوص على أوقات مختلفة وخاصة بعد ثمانينات قرننا الحالي في مختلف الدوريات المهتمة بالنقوش الشرقية القديمة . وقد جمعها ونشرها مؤخراً الدكتور سليمان بن عبد الرحمن الذييب [١٠]. وتتجلى أهمية هذه النصوص في أنها تلقي الضوء على حياة السكان في هذه المنطقة من نواحي مختلفة اجتماعية ودينية واقتصادية ، ولأول مرة من خلال وثائق محلية وهذا يسد ثغرة كبيرة في تاريخ الجزيرة

العربية بشكل عام والتي كما نعلم نعتمد في دراستنا لتاريخها في الفترة المعنية (إذا ما استثنينا جنوب الجزيرة العربية) على مصادر آشورية وبابلية حديثة (كلدانية) والتي لاتتحدث إلا عن حملات قام بها ملوك هاتين الدولتين إلى نواحي شمال الجزيرة العربية وحصولهم على الغنائم وفرضهم للجزيات في حين أن هذه النصوص تذكر مثلاً معتقدات السكان الدينية وأهم الآلهة التي كانوا يعبدونها ، وعلى رأسها (صلم) . كما تلقي الضوء على الجغرافية التاريخية للمنطقة المحيطة بتيماء . ونستطيع من خلال هذه النصوص الحصول على أصول الكثير من الأسماء العربية التي نعرفها من خلال مصادر العصور الأحدث من هذه الوثائق .

وبعد انهيار الإمبراطورية الفارسية الأخمينية نتيجة هجوم الإسكندر المقدوني على المنطقة، قرب نهاية القرن الرابع ق.م ، بدأ مايمكن أن نسميه تفرع اللغة الآرامية إلى لهجات متعددة متفرقة . كذلك بدأت تتطور عن الخط الآرامي الذي كان سائداً حتى ذلك الوقت في مختلف أنحاء الإمبراطورية الأخمينية تقريباً خطوط مختلفة . فظهرت في المنطقة العربية مثلاً الخطوط التدمرية والنبطية والسريانية والحضرية . وهنا لا نستطيع أن نهمل دور هذه الخطوط الأربعة في ظهور الخط العربي فيما بعد [١١]. وخارج المنطقة العربية ، ظهر ما يسمى مثلاً بالخط الأرمازي في جورجيا وخطوط متعددة في مناطق شرق إيران وصولاً إلى آسيا الوسطى . وهنا لايمكننا إلا أن نتوقف قليلاً عند الأهمية الكبرى التي تتمتع بها النصوص التدمرية والنبطية فيما يتعلق بالفترة اللاحقة على حدود الألف الأول ق.م مع القرون الميلادية الثلاثة الأولى ، بالنسبة لتاريخ المشرق العربي القديم . فرغم أن النصوص التدمرية في معظمها من حيث محتواها ، ذات طابع تذكاري ، تكريمي أو تذكري ، إلا أنها تلقي ضوءاً ساطعاً على العلاقات الاجتماعية المتينة التي كانت تربط سكان هذه المدينة مع بعضها ، ومدى التقدير والاحترام الذي كانوا يكنونه لكبارهم من ناحية ولموتاهم من ناحية أخرى ، ولمن يقدم خدمات جليلة لسكان المدينة بشكل عام . ولكن النص الأهم من بين النصوص التدمرية باعتقادنا هو ما يسمى بنص التعرفة الجمركية . وهو نص منقوش على لوح حجري ضخم موجود الآن في متحف الأرميتاج في سان بطرسبرج وهو مكتوب باللغتين الآرامية – التدمرية والإغريقية . ويدلنا هذا النص على مدى التطور الإداري والاقتصادي الذي بلغته تدمر في ذلك الوقت ، بحيث تقوم بتنظيم أمور تجارتها الداخلية . والتجار الأجانب المتعاملين معها ، من حيث ما

يترتب عليهم دفعه من ضرائب لصالح المدينة لقاء استخدامهم لمرافقها المختلفة . وكذلك الضرائب المفروضة على ممارسي المهن المختلفة في مدينة تدمر نفسها . ويعرفنا هذا النص على الأجهزة التشريعية والتنفيذية التي كانت موجودة فيها . وقد وضع هذا النصب في مركز المدينة بحيث يراه ويتعرف على محتوياته كل سكان المدينة والقادمين إليها [١٢]. إن النقوش التدمرية لم تأتنا من تدمر فقط بل من مختلف المناطق التي وصل إليها التجار التدمريون ، أو خضعت لسلطة تدمر فترة حكم زنوبيا ، أو في المناطق التي خدم التدمريون فيها كفرق خيالة مع الجيش الروماني وفي كل عام تقدم لنا تدمر المزيد من النقوش [١٣]. وما قلناه عن النقوش التدمرية ، ينطبق على النقوش النبطية فهذه النقوش التي يصل عددها حتى الآن نحواً من خمسة آلاف نقش تقريباً وجدت في أماكن مختلفة من العالم القديم إلا أن انتشار هذا النوع من الكتابات كان واضحاً في حدود مملكتهم والمناطق التي يصلها تجارهم داخل شبه الجزيرة العربية ، من دمشق والرقيم وصحراء النقب شمالاً إلى صحراء سيناء والصحراء الشرقية لمصر غرباً وإلى العلا وقرية الفاو جنوباً وإلى حوران في الشمال الشرقي . وهي نقوش تكتب وتقرأ من اليمين إلى اليسار وتطغوا عليها لغوياً لهجتهم العربية كاستخدامهم (ال) التعريف وأداتي الألف والواو للترتيب والاستثناء بكلمة غير [١٤].

وتكتسب اللهجة الآرامية السريانية أهمية خاصة باعتبار أنها استُخدمت لتدوين نصوص دينية مسيحية وعلمية وفلسفية نقلها العرب فيما بعد إلى لغتهم ، وكانت سبباً في نهضتهم العلمية في العصر العباسي . ونشير هنا أيضاً إلى أن اليهود قد دونوا توراتهم بالآرامية التي تسمى حالياً بالآرامية التوراتية ، كما أن المسيحيين دونوا إنجيلهم بالآرامية التي تسمى بالآرامية المسيحية الفلسطينية ، والسيد المسيح كانت لغته الآرامية ، مما يؤكد الأهمية الكبرى التي تمتعت بها الآرامية خلال النصف الثاني من الألف الأول ق.م. أما نقوش الحضر فقد عُثر عليها في أنقاض مدينة الحضر الواقعة على بعد حوالي ٥٠ كم جنوب شرقي الموصل والتي بدأت أعمال التنقيب الأثري فيها منذ مطلع خمسينات هذا القرن . ولقد أدت التنقيبات إلى الكشف عن مجموعة من النقوش الآرامية بلغت نحو الخمسمائة نقش تغطي فترة القرون الثلاثة الأولى الميلادية . وقد نُقشت هذه الكتابات على جدران المعابد وعلى التماثيل وعلى محاريب ومنابع المعابد المختلفة التي وجدت في المدينة . وهي في معظمها ذات طابع تذكاري [١٥].

وأخيراً أحب أن أتوقف قليلاً عند المكتشفات الحديثة من النصوص الآرامية في المنطقة السورية .

فمن المعلوم أنه تجري في سورية ومنذ ثمانينات هذا القرن تنقيبات أثرية إنقاذية في منطقتين تجري فيهما عمليات بناء سدود . تقع أولى هاتين المنطقتين في محافظة الحسكة ويجري بناء السد على نهر الخابور ، والثانية إلى الشمال من حلب ويجري البناء على نهر الفرات . وقد قدمت لنا بعض مواقع هاتين المنطقتين نصوصاً آرامية جديدة على درجة كبيرة من الأهمية (رغم أنها لم تنشر بالكامل حتى الآن) . وأهم المواقع التي قدمت لنا هذه النصوص هي :

- موقع تل الشيخ حَمَدْ والذي هو موقع العاصمة الإقليمية الآشورية دور كاتليمو . فبعد أن قدم لنا هذا الموقع في طبقاته العائدة لعصر الدولة الآشورية الوسطى وتحديداً عصر الملكين شلمناصر الأول (١٢٧٣ - ١٢٤٤ ق.م) وتوكولتي نينورتا الأول (١٢١٤ - ١٢٠٨ ق.م) نصوصاً آشورية ذات طابع اقتصادي ، عاد ليقدم لنا طبقاته العائدة لعصر الدولة الآشورية الحديثة والعصور التاليةمجموعة جديدة من النصوص الآرامية ذات طابع اقتصادي أيضاً ، وتؤكد على استمرار المكانة التي كان يتمتع بها الموقع في الألف الثاني ق.م. ومع الأسف فإن هذه النقوش لم تنشر بالكامل حتى الآن [١٦].

- موقع تل الشيخ حسن في محافظة الرقة قدم لنا أيضاً نصين درسهما العالم الألماني روليغ ونشرهما في مجلة SEMITICA[١٧].

- إلا أن أهم النصوص المكتشفة جاءتنا من موقع شيوخ فوقاني والذي تنقب فيه بعثة فرنسية إيطالية مشتركة منذ العام ١٩٩٤م . فخلال موسم ١٩٩٥م كشفت البعثة عن مجموعة من النصوص الآشورية ، وكان معها نص آرامي هو عبارة عن سند إقراض كمية من الفضة ، والسند منقوش على رقيم طيني . وقد درسه ونشره لغوي البعثة فريدريك ماريوفالس أيضاً في مجلة SEMITICA[١٨].

ثم حدث الكشف المهم عام ١٩٩٧م ، عندما عثر في إحدى غرف مجمع سكني خاص على أرشيف لنصوص قانونية ، حقوقية باللغتين الآشورية والآرامية : عقود بيع وشراء ، وسندات دين للحبوب أو الفضة . ويعود تاريخها إلى القرن السابع ق.م وأغلبها إلى فترة حكم الملك الآشوري أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) .

والمهم فى الوثائق الجديدة أنها سمحت لنا بالتعرف على الاسم القديم التاريخى للموقع الذى تجرى فيه عمليات التنقيب ألا وهو بورمارينا . وهذا الاسم كان معروفًا سابقًا من خلال حوليات الملك الآشورى شلمناصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) والتى يذكر فيها أنه بعد أن هاجم تل برسيب (عاصمة بيت عديني) توجه شمالاً إلى أن وصل بورمارينا . ولكن أحداً لم يستطع أن يحدد فى السابق أين تقع بورمارينا هذه . إلى أن جاءت الاكتشافات الآرامية من هذا التل والتى يذكر فيها الاسم « برمون » والذى هو الصيغة الآرامية للاسم بورمارينا الآشورى [١٩].

والأمر المهم الآخر ، وهذا لا يقتصر على اكتشافات شيوخ فوقانى بل يمتد ليشمل الاكتشافات الأخرى العائدة للعصر الآشورى الحديث ، يتعلق بمحافظة السكان المحليين الآراميين ، الذين خضعوا للحكم الآشورى على لغتهم وكتابتهم وعدم تبنيهم للغة والكتابة الآشورية ، وبالتالى فنحن أمام ظاهرتين ثقافيتين متعاصرين ومتعايشتين فى نفس الزمان والمكان . وعلى العكس من ذلك فإن الآشوريين المنتصرين بدؤوا هم باستخدام الكتابة واللغة الآرامية لتدوين بعض شؤونهم . وبدأت الإدارة الآشورية باستخدام الآرامية لتلخيص بعض قراراتها ومراسيمها . وإذا كان هذا الأمر مفهومًا بالنسبة للآشوريين والكلدانيين والذين هم أبناء عمومة للآراميين ، فإن تبنى الفرس الأخمينيين لهذه اللغة والكتابة وهم الغرباء تمامًا عن المنطقة ، ليدل على مدى عمق التأثير الحضارى للآراميين حتى بلغ الأمر بالمنتصرين عليهم تبنى لغتهم وكتابتهم فى شؤون دولتهم الرسمية .

وأحب أن أشير أخيراً إلى العثور صدفةً فى العام ١٩٩١م على تمثال لأسد عليه كتابة بلغات ثلاث هى الآشورية والآرامية والهيروغليفية اللوفية فى موقع أرسلان طاش (حداتو القديمة) وأن النص الذى يعود إلى النصف الأول من القرن الثامن ق.م يدعم الرأى المطروح فى الأوساط العلمية المهتمة بالشؤون الآرامية حول طبيعة نظام الحكم فى دويلاتهم والذى يقوم على مايمكن أن نسميه وفق مصطلحاتنا المعاصرة نظام فيدرالى .

إن الكشف عن عدد كبير من النصوص الآرامية ذات الطابع الاقتصادى فى المواقع السورية التى تجرى فيها أعمال تنقيب ، والتى تعود بمعظمها إلى عصر الدولة الآشورية الحديثة ، ليولد فى نفسنا الأمل بالعثور على كتابات آرامية جديدة تعود إلى عصر الدويلات الآرامية نفسها ، طالما أن هؤلاء الآراميون قد تكتموا من المحافظة على لغتهم وكتاباتهم فى ظل دول أخرى كانت تحكمهم .

بعد هذا الاستعراض لأهم النصوص الآرامية التى عثر عليها فى مناطق مختلفة من العالم القديم ، والتوقف عند أهمية بعض هذه النصوص ، أحب أن أعدد لكم أهم ما تتميز به النصوص الآرامية بشكل عام :

١ - تغطى هذه النقوش والنصوص مختلف مراحل الألف الأول ق.م وتستمر إلى القرن الثالث الميلادى فى تدمر وأبعد من ذلك زمانيًا من خلال اللهجة الآرامية السريانية (التى مازالت مستخدمة حتى يومنا هذا) .

٢ - المساحة الجغرافية الواسعة التى انتشرت عليها النصوص الآرامية من الهند وأفغانستان إلى إيران وآسيا الصغرى وأرمينيا وجورجيا وبلاد الرافدين وسورية وفلسطين ومصر . ونحن لانعتقد بأن لغة أخرى قد تمكنت من تحقيق مثل هذا الانتشار قبل اللغة الآرامية . فرغم أن النصوص الأكادية اعتبرت لغة الدبلوماسية الدولية فى الألف الثانى ق.م ، إلا أن انتشار هذه اللغة خارج منطقة المشرق العربى القديم كان محدوداً ، ولم تُتبنى كلغة رسمية من قبل شعوب ودول من خارج هذه المنطقة (باستثناء بعض النصوص الأكادية التى عثر عليها فى أرشيف العاصمة الحثية حاتوشا ، بوغاز كوى الحالية ، وبعض النصوص من مملكة أوارتو) .

٣ - محتوى هذه النصوص كما رأينا متنوع للغاية ما بين كتابات رسمية (من مثل كتابات شمأل والسفيرة ودير علا فى الأردن والكتابات الرسمية العائدة للعصر الأخمينى ونص التعرفة الجمركية ... إلخ) ، وكتابات اقتصادية (من مثل وثائق شيوخ فوقانى الحديثة ، ونصوص البرديات المصرية) وكتابات اجتماعية (أيضاً من البرديات المصرية) وكتابات أدبية حيث توجد ترجمة لما يسمى حكم أحيقار باللغة الآرامية . وأشرت أيضًا إلى الكتابات الدينية التوراتية بعهديها القديم والجديد التى دونت بهذه اللغة . وبالتالى فإن هذه النصوص تغطى مختلف جوانب الحياة فى منطقة المشرق العربى القديم وما حولها .

٤ - تسمح لنا هذه النصوص بالتعرف على جذور اللغة العربية الفصحى التى نتكلمها الآن نحن ، وذلك من خلال مقارنة النقوش الآرامية القديمة بالنصوص التى تعتبر أولى الكتابات العربية من مثل نقش النمارة وغيره [٢٠]. كما أن هذه النصوص تحتوى على عدد كبير من أسماء الأعلام التى تصادفنا بصيغ قريبة جداً [illegible]

اللاحقة. فمثلاً تل شيوخ الفوقاني المشار إليه أعلاه يظهر فيه اسم العلم « حسن» ومن المعلوم أن أشهر ملوك الأنباط كان اسمهم الحارث ، ومن ضمن الأسماء الأخرى التي تظهر في كتاباتهم عبادة وعمرو ، وعبيدو وعيدو وسعيدو وجبلو وغيرها . أما كتابات الحضر فتضم من أسماء الأعلام فيها مثل الاسم عبد سمبا (عبد السماء) وعيدو وزبيدو وغيرها . أما الكتابات التدمرية فلعل من الأسماء الواردة فيها ملكو ووهب و ورود ولجمو وتصر وغيرها كثير مما نجده مستخدماً حتى الآن .

٥ – من المهم الإشارة في هذا المجال إلى استخدام الكثير من الدول للكتابة الآرامية في إداراتها الرسمية ، وذلك إثر انهيار الإمبراطورية الفارسية الأخمينية . فالإمبراطورية البارثية التي قامت على أنقاضها تبنّت الكتابة الآرامية وأرشيف عاصمتها نيسى القديمة يتضمن أكثر من ألفي وثيقة مكتوبة بالخط الآرامي وباللغة البارثية وهي لهجة فارسية متوسطة أو پهلوية .

٦ – نشير أخيراً إلى إسهام الكتابة الآرامية في ظهور عدد من الأبجديات في منطقة آسيا الوسطى والهند ، على غرار الكتابة الفينيقية التي ساهمت في ظهور الأبجديات الغربية. وبالتالي فإن معظم أبجديات العالم تولدت من الأبجدية الفينيقية – الآرامية التي ظهرت في منطقة المشرق العربي القديم .

بعد كل ما ذكرناه، آنفًا اعتقد أنه آن الأوان لعدم النظر إلى الوثائق الآرامية كمصدر من الدرجة الثانية فيما يتعلق بتاريخ منطقة المشرق العربي خلال الألف الأول ق.م ، لما تتمتع به هذه الوثائق من أهمية خاصة فيما يتعلق بتاريخ هذه المنطقة من مختلف جوانبه . وفيما يتعلق بولادة الحرف العربي واللغة العربية من هؤلاء الناس الذين تكلموا أو كتبوا بهذه اللغة . كما أن الانتشار الواسع لهذه اللغة يشهد على مدى العمق الحضاري الذي كانت تتمتع به حتى أصبحت لغة وكتابة شعوب كثيرة لاقت لها بصلة .

الهوامش :

١ – أبو عساف ، علي : الآراميون تاريخًا ولغة وفنًا ، دمشق ١٩٨٨ ص ١١ – ١٢ .

٢ – عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ الآراميين وعلاقتهم بقبائل الأعلامو انظر في : تايلر ، جياغ : العلاقات الآشورية – الآرامية حتى منتصف القرن التاسع ق.م ، رسالة دكتوراه من جامعة نيلبيس المكروبية ١٩٩١ (باللغة الروسية) .

٣ – حول غزو شعوب البحر للمنطقة وأثره عليها ، انظر في كتاب : ياينكو : بلاد الإغريق القديمة والشرق ، موسكو ١٩٩٠ ، ص ١٢٠ ومابعدها (باللغة الروسية) .

٤ – إسماعيل ، فاروق : اللغة الآرامية القديمة ، منشورات جامعة حلب ١٩٩٧ ص ٣٤ – ٣٥ .

٥ – حول العلاقات الآشورية الآرامية وانتهاء بانصراع لصالح الآشوريين انظر بتوسع في :

Sader. H.Les etats araméens de Syria depuis leur formation jusqu'a leur transformation en provinces assyriennes. Beirut 1987 .

٦ – آخر نشر للنصوص الآرامية المصرية كان في :

Porter. B-A. Yardeni: Textbook of Aramaic documents from Ancient Egypt I (letters) 1986, 2 (contracts)1989 .

٧ – Driver G. Aramic document of the Fifth century Bc. Oxford: clarendon press, 1957

٨ – داندامايف ولوكونين : ثقافة واقتصاد إيران القديمة. موسكو ١٩٨٠ ص ١٥ – ١٩ باللغة الروسية.

٩ – داندامايف ولوكونين : المرجع السابق ص ١٩ .

١٠ – الذيب ، سليمان بن عبد الرحمن : دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء – المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٩٩٤ .

١١ – محفل ، محمد : في أصول الكتابة العربية ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد السادس ١٩٨١ – دمشق ص ٩٩ – ١١١ .

١٢ – حول المعرفة الجمركية التدمرية ، انظر : شيفمان : المعرفة الجمركية التدمرية ، موسكو ١٩٨٠ باللغة الروسية) وكذلك البني ، عدنان : تدمر والتدمريون ، دمشق ١٩٧٨ ص ٢٣٧ – ٢٥٦ .

١٣ – آخر كتاب جمع كل النصوص التدمرية هو:

Hillers and Cussini : Palmyrene Aramaic texts. The John Hopkins University Press , 1996 .

١٤ – الذيب ، سليمان بن عبد الرحمن : دراسة تحليلية لنقوش نبطية قديمة . الرياض ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، ص ٢١ – ٢٢ .

١٥ - كمبرتيلي ، تسطنطين : اللغة الآرامية - نيلسن ١٩٨٢ ، ص ١٢٦ (باللغة الروسية) .

١٦ - كوبه ، هارتموت : تقرير أولي حول التنقيب في تل شيخ حمد دور كاتليمو ١٩٨٥ ، ترجمة وتلخيص أسعد المحمود ، الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٦ العام ١٩٨٧ ، ص ١١٩ - ٢٠٢ .

١٧ - Wolfgang Rollig : Zwei aramaische inschriften von tall Seh-Hasan / Syrien SEMI- TICA XXX IX, 1990 fi p. 149 - 154 .

١٨ - Fales, F, An Aramaic Tablet from tell shoukh Fawqani, Syria, Semitica XLVI (46) 1996 p. 81-121.

١٩ - فالس ، الحفريات الأثرية في تل شيوخ فوقاني - بورماريا ١٩٩٤ - ١٩٩٨ ، محاضرة في قسم الآثار - جامعة دمشق ٨/١٠/١٩٩٨ .

٢٠ - حول هذا الموضوع انظر : دحفل ، محمد : العربية : لغة وكتابة ، مجلة التراث العربي ، العددان ٧١ - ٧٢ تموز ، يوليو ١٩٩٨ ، السنة الثامنة عشرة ص ٢٢ - ٤٥ .

د . محمود إبراهيم السعدني(*)

العرب عند ديوردورس

(دراسة تحليلية)

تقديم ضروري :

إنني ، بداية ، لا أزعم سبقًا علميًا في مجال دراستي هذه حول العرب وشبه الجزيرة العربية عند الكتاب الكلاسيكيين ، اليونان . فقد سبقني إلى ذلك أستاذان جليلان ، لاثالث لهما ، ويأتيان بترتيب أقدمية كتابتهما عن هذا الموضوع كالتالي :

- الأستاذ الدكتور / لطفي عبد الوهاب ، منذ عام ١٩٧٩م [١].

- الأستاذ الدكتور / مصطفى كمال عبد العليم ، منذ عام ١٩٨٧ [٢].

ويهمني هنا ، في هذا الصدد ، أن أنوه إلى أنه إذا كانت دراسة الدكتور لطفي قد جاءت عامة وشاملة لموضوعها عند أبرز المصادر الكلاسيكية ، اليونانية والرومانية ، فإن دراسة الدكتور مصطفى قد تحت منحى آخر ، وهو تخصيص القول فيما ورد عند أحد تلك المصادر فقط وهو هيرودوت . وتجيء دراستنا ، نحن ، في ذات الاتجاه الثاني ، نحو الغوص في أعماق ما جاء عند كاتب كلاسيكي آخر هو ديودوروس الصقلي ، المؤرخ والجغرافي والفيلسوف ، الذي ازدهرت " مكتبته التاريخية " (Bibliotheke) في الفترة ما بين ٦٠ - ٣٠ ق.م [٣]. عندئذ يفرض سؤال نفسه : ولماذا ديودوروس بالذات ؟

* - أستاذ مساعد التاريخ والحضارة اليونانية - الرومانية ، جامعة حلوان .

إن الإجابة عن هذا السؤال ، الآن ، قبل الخوض فى تفاصيل ماجاء عنده ، ستصبح عسيرة الفهم والاقتناع ، بل ربما تكون غير مقنعة بالمرة ، ولكننى ، مع ذلك ، أراها جديرة بالأخذ فى الاعتبار ، من الآن ، فى ضوء عدة مؤشرات هامة ، نراها نحن كذلك ، فيما يخص ملابسات تلك الكتابات الكلاسيكية ، وفترات ازدهارها ، وما بقى من نصوصها حتى يومنا هذا . ولذلك عندنا بعض الملاحظات الأولية حول مؤرخنا وغيره نسوقها كالتالى .

أولاً : إن الزعم بأن مكانة ديودوروس التاريخية ، بين أعلام تلك الكتابة فى العصور القديمة لاترقى إلى سبق هيرودوت[٤] وعلمه الموسوعى أو إلى منهجية ثوكيديديس[٥] أو إلى تحليل بوليبيوس[٦] غير صحيح أو دقيق ، إذ أن ماكتبه عن الجزيرة العربية ، وتحديداً ساحلها الشمالى الغربى يعتبر ، بحق ، أخطر معلومات تفصيلية لدى أجنبى ، كان مقربًا من صانعى مصير العالم القديم آنذاك ، فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ، إنه بوليبوس قيصر ، أعظم رجالات روما القديمة ، ثم أوكتافيوس أوجوستوس ، المؤسس الأول للإمبراطورية الرومانية (٢٧ ق.م - ١٤ م) ، بعد أن هيمنت روما ، وحدها ودون منازع على الإطلاق ، على كل البلاد الواقعة على حوض البحر المتوسط ، شرقه وغربه ، وشماله وجنوبه، حتى أصبحت ، عن جدارة واستحقاق ، صاحبه الحق الأول فى تسميته " بحرنا " (Mare nos-trum)[٧] .

إنها معلومات العصر والفترة التى سبقت قيام الرومان ، لأول مرة فى تاريخهم ، بحملة مباشرة (مؤكدة الحدوث ومفضوحة الهدف ومعروفة التفاصيل) ضد أهم معاقل التجارة العربية آنذاك ، ألا وهى اليمن المعروفة آنذاك باسم : Arabia Felix فى عـــام ٢٥/٢٤ ق.م[٨] .

وبالتالى فإن كتابات ديودوروس حول الجزيرة ، (التى سوف نفصل الحديث عنها فى دراستنا هذه) كانت ، مما لاشك فيه ، بمثابة التقرير السرى ، الذى على أساسه تم وضع خطة الحملة الرومانية الوحيدة ضد تجارة العرب القديمة ، عند منبعها ، وفى عقر دارها ، لضرب تلك المصالح ، من ناحية ، وللاستحواذ على ثرواتها ومكاسبها للرومان مباشرة دونهم هم ، أى العرب ، كوسطاء لها ، من ناحية أخرى .

لقد كانت الرحلات والتجوال ، فى العصور القديمة ، ولا أخالنى مبالغًا ، إذا قلت وحتى يومنا هذا ، ذات أهداف مادية محددة ، وخدمة أغراض استكشافية استغلالية ولصالح هيئات

أو حكومات ، توقع عقوداً وتبرم اتفاقات مع الأفراد سراً ، لأن أمثال تلك الرحلات (Periegeseis) ، فى البلدان ، موضع الدراسة ومقصد الهدف الاستعمارى الاستغلالى ، كانت فى القديم ، هى بمثابة ماتقوم به ، اليوم الأقمار الصناعية التجسسية على ثروات الشعوب فى باطن الأرض ، أى ثروات المستقبل البعيد ... إنها ، كانت ولاتزال ، خطط القوى الكبرى التى تعد استراتيجيات بعيدة المدى ... وليس هيرودوت ، برحلاته فى الشرق القديم ، لحساب أثينا ، فى القرن٥ ق.م ، وكذلك ديودوروس ، لحساب روما ، فى القرن[٩] الأول ق.م ، إلا أدوات الاستراتيجية الاستغلالية العالمية آنذاك ... فهل ، حقًا ، كانت للعلم بحضارات الأمم الأخرى ، التى تبعد عن أوطانهم آلاف الأميال ، وتكتنف رحلاتهم المصاعب والأهوال ، نصيب ؟!! .

أم أنه كانت هناك ، أيضًا وقبل كل شىء ، بتجميع ودعم قادة وحكام تلك القوى الكبرى الطامعة آنذاك ؟!! .

ذلك لأن التاريخ ، قديمة وحديثة ، يقرره أفراد ، وترتبط مسطوره بإرادات الأشخاص بطموحاتهم وأفكارهم وفلسفاتهم ونقائصهم ، بخيرهم وشرهم :

وهكذا ظلت سياسة " القوة هى الحق "[١٠] ، كما مارسها وأقرها ألكيبيادس (Alkibiades) وكما مارسها غيره كثيرون من الطغاة والحكام ممن سبقوه فى العصور الأقدم . ولكن لانعرف عنهم شيئًا لندرة الكتابة المفهومة وتخلف تطورها .

ثانيًا : إنه وبرغم عدم دقة كتابات ديودوروس فى بعض الأحايين وميله إلى المبالغة أحيانًا ، إلا أنه يسجل لنا ، كشاهد عيان ، لاشك فيه ، معلومات هامة عن المنطقة التى رآها بعينيه ، ومن هنا يكتسب تاريخه(حول الجزيرة العربية ، وإن لم يغط إلا جزءاً واحداً فقط منها ، هو الجزء الشمالى الغربى من مساحتها الضخمة) ، أهم ميزة للمؤرخ وهى المعاصرة ، ذلك العنصر الذى تفتقد إليه كل الكتابات التاريخية عن الإسكندر الأكبر مثلاً ، وتاريخه وإنجازه العالمى المبهر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)[١١] .

ثالثًا : وها هو أوجوستوس (Augustus) ، حاكم العالم القديم كله ، دون منازع ، منذ عام ٢٧ ق.م ، لايستبعد أن يكون هو شخصيًا ، وليس بوليوس قيصر وراء رحلة الاستكشاف هذه التى قام بها ديودوروس صوب الشرق القديم ، بتكليف منه وحسابه ، منذ أن تم تقسيم العالم القديم بينه وبين أنطونيوس عام ٤٠ ق.م ، وكان الشرق من نصيب غريمه هذا ، الذى

قررت الأقدار مصيره عقب هزيمته المروعة فى أكتيوم عام ٣١ ق.م . ولم يكتف زعيم العالم الأوحد آنذاك ، أوجوستوس ، بثروات مصر وسوريا ، التى آلت إليه شخصيًا ، بل بدأ لعابه يسيل أمام ثروات التجارة العربية ، فى الجزيرة ، من وراء تجارة التوابل والبخور الشرقية . عندئذ بدأ يعد العدة للقيام بحملة ضدها .

خامسًا : تعتبر نصوص " المكتبة التاريخية " لديودوروس ، حول الجزيرة العربية (Arabia) ، هى أقدم المصادر الكلاسيكية تركيزاً وتفصيلاً وشمولاً لموضوعها حتى يومنا هذا . وإن لم تكن أدقها ، كما جاء عند استرابون ، من بعده ، بما لايزيد عن (٢٥) خمسة وعشرين عامًا تقريبًا ، وذلك لأنه يؤخذ على كتابات هيرودوت حول العرب والجزيرة بعض المآخذ التى يمكن إيجازها كالتالى :

١ - كان حديثه موسوعيًا يعنى بالقضايا العامة ، دونما تفصيل محدد[١٢].

٢ - جاءت معلوماته ، حول الجزيرة ، متناثرة حسبما يقتضى سياق موضوعه الرئيسى حول الحضارات الأخرى [١٣].

٣ - جنوح مادته إلى الخيال والمبالغة ، كالقول بتعابين مجنحة تحرس أشجار اللبان[١٤] ، ووجود أغنام - عند العرب - ذات ذيول غير عادية الطول [١٥].

٤ - عدم الدقة للاعتماد - فى معظم كتابته حول الجزيرة بصفة خاصة - على الرواية السماعية [١٦].

ويمكننا تقسيم المادة التاريخية عن العرب لديودوروس ، سواء تلك التى سمعها ونقلها إلينا ، أو تلك التى رآها وشاهدها بنفسه ، إلى أقسام ثلاثة ، يغلب عليها جميعًا الطابع الجغرافى . ولذلك فلسوف نرتبها ترتيبًا ، ذى أولوية فى صنع الأحداث التاريخية ، من وجهة نظرنا نحن ، حيث تأتى :

أولاً : الجغرافيا الطبيعية (Ta topografika) ثم

ثانيًا : الجغرافيا البشرية (Ta ethnografika) ثم أخيراً

وثالثًا : الجغرافيا التاريخية (Ta historika)

أى أن المكان الذى وصفه لنا ديودوروس ، أولاً ، وهو مسرح الأحداث ، يجب أن يستحوذ على اهتمامنا قبل كل شىء ، ثم تنتقل إلى معلوماته عن إنسان الجزيرة ، وعنصرها البشرى

الذى سكنها ، وفى أى البقاع عرفه فيها وماذا عرف عنه ديودوروس آنذاك . وأخيراً ، تنتقل إلى الأحداث والوقائع التاريخية التى هى من صنع ذاك الإنسان العربى ، نتيجة لتفاعله مع بيئته ومحاولاته الدؤوبة لقهر عجزها وفقرها وتحديه المستمر لها وقيامه بدور تاريخى رائد فى المنطقة ، مشتغلاً بالتجارة ، ومستغلاً لذكائه الفطرى الحاد ، وذاكرته الحديدية فى ذلك النشاط الإنسانى السريع الإيجابية والعطاء ، والذى كان له عليه بصمة خاصة به :

أ - فى صبره على المكاره ووعثاء السفر الطويل .

ب - وقدرته على التكيف السريع مع طبيعة بلاده الصحراوية [١٧] .

جـ - وتنظيمه الدقيق لقوافل التجارة : تخزينًا ، وتوزيعًا ، وبيعًا ، وتأمينًا [١٨] على طول الطريق الممتدة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فى جزيرته المترامية الأطراف[١٩].

والآن فلندخل فى تفاصيل المادة الإخبارية : الجغرافية والبشرية والتاريخية ، التى أمدنا بها ديودوروس لنتعرف على خصوصيتها الشديدة فيما رآه بعينيه ووصفه لنا وصفًا دقيقًا جدًا . أما ما اضطر إلى نقله والاكتفاء فيه بالسماع ، فقد جاء ، كالسابقين عليه من جغرافيين ومؤرخين ، غير دقيق ، ميال إلى المبالغة والخيال الأجوف . وسنحاول أن نعرض للمادة العلمية كما جاءت بتسلسلها الأصلى عند صاحبها .

أولاً : المعلومات الجغرافية :

بعد أن انتهى ديودوروس من الحديث عن جنوب سيناء (حيث المرتفعات التى سماها بسيفيى Psebaiai) والتى تحد إقليم " تروغوذيتيكى Trogodytike [٢٠] " ، وحيث وصف أنهاره وأشجاره ، وحيواناته وبحاره وجزره التى تنتشر بعلاء ساحله ، وحكى حكاية طريفة عن السمك الضخم الذى لايؤذى الإنسان إذا استطاع إعتلاء ظهره لأنه يصاب بالعمى عندما ترى عيناه ضوء الشمس اللامع [٢١] ، بدأ حديثه عن الجانب الآخر ، المواجه للساحل السينائى ، وهو المسمى بـ " العربية [٢٢] : to proskeklimenon Arabia " واصفًا ذاك الساحل (c paralios) ، من الداخل أولاً ، أى من مناطق عمرانه على اليابسة .

كانت البداية ، عنده ، هى مدينة بوسيديون (Poscidion) ، وهى التى حملت اسم الإله " بوسيديون [٢٣] (Poscidon) " اليونانى ، تيمنًا للمذيع [٢٤] (Bomos) الذى كان قد أقامه لتكريم ذلك الإله القائد البحرى أريستون (Ariston) ، مبعوث بطليموس (الثانى؟) ،

ملك مصر آنذاك ، المرسل من قبله " للتعرف على أحوال[٢٤] " تلك " العربية " حتى المحيط " :

" Pros kataskopen tes eos okeanou parekouses Arabias "[٢٥]

إذن ، نحن ، الآن ، أمام أول معلم من معالم " العربية " (الجزيرة) ، وفق جغرافية ديودوروس ، وهو مدينة " بوسيديون " أو " بوسيديوم : Posidium " – باللاتينية ، ويتلوها ، على الطريق الساحلي ، مكان يحبه سكان المنطقة ويعظمونه لخيراته الطبيعية ، ألا وهو ، المسمى ، عندهم " فينيكون : Foinikon" حيث واحة نخيل كثير ، غزير الثمرات ، بشكل مبالغ فيه (kath`hyperbolen) ويختلف عن غيره من النخيل (diaferon) ، في :

أ – مذاقه (pros apolausin)

ب – وقيمته الغذائية العالية (kai troufen) ، أي ثراء ثمره كغذاء .

وهكذا نصل إلى ثاني معلم من معالم منطقة الجزيرة (العربية)– عند ديودوروس – وهو تلك الواحة الغنية بإنتاجها من التمر المتميز (فينيكون)[٢٦] .

ولكنه بعدها مباشرة يؤكد ، بملاحظة تقريرية قوية ، أن كل المنطقة [٢٧]، من حولها ، تفتقر إلى ينابيع الماء ، وتكون شديدة الحرارة لأنها تتحدر صوب الجنوب :

" Kai dia ten pros mesembrian egklisin empyros hyparkhei "[٢٨]

وهكذا يكون التبرير الجغرافي السليم لحرارة الجو الشديدة في المنطقة ، وتعتبر هذه المعلومة من أوائل علامات خبرة ديودوروس الجغرافية حول الجزيرة .

ويرتفع ديودوروس أكثر إلى مرتبة عالية في التحليل والتعليل الجغرافي إستناداً إلى حقائق جغرافية ، حينما يقول :

" وبسبب ثراء هذا الموقع (يقصد واحة النخيل : فينيكون) (بالأشجار -katafytos to pos وتزويده لسكانه بالغذاء ، ولكونه وسط منطقة ذات ظروف معيشية لا إنسانية للغاية ، فإن البرابرة (يقصد الأجانب[٢٩] أي أهل تلك البلاد) ، كنتيجة طبيعية لكل ذلك ، قد قصروا (ذلك المكان) "[٣٠] .

وينتقل ديودوروس إلى معلم جغرافي ثالث من معالم ذلك الجزء الواقع أقصى الشمال الغربي من الجزيرة " العربية " ، وهو إحدى الجزر ، التي تحمل اسم" فوكي[٣١] : Fokai " وموقعها من الساحل ، كما يذكر مؤرخنا ، " وتوجد جزيرة عند لسان من الأرض متداخل

في البحر ، وتتخذ الكائنات [٣٢] البحرية هذه الجزيرة سكناً لها وتسمى جزيرة فوكي " :

".... pros akroterio tes epeirou nesos estin apo ton enaulizomenon en aute zoon Fokon nesos onomazomene " [٣٣]

ومما هو جدير بالذكر تلك الملاحظة اللطيفة من ديودوروس لتراجد مثل تلك الأسماك والكائنات البحرية ، التي يستخدم لفظة أخرى– للدلالة عليها : للتعبير عن غرابة أشكالها وأحجامها ، وهي " ta theria " ، أي الكائنات المتوحشة . وقد أتبع حديثه عن موقع الجزيرة، من الشاطيء ، بهذا الحديث عن تلك الأسماك ، وكيف أن عدداً كبيراً منها (plethos) يتجول ، جيئة وذهاباً، في تلك الأماكن ، حتى أنه يلفت نظر المشاهدين له ويستحوذ على إعجابهم [٣٤].

وننتقل مع ديودوروس إلى معلم جغرافي رابع ، يتلو مباشرة خبره عن اللسان البحري (To akroterion) والجزيرة السابقة الذكر ، ولكن مؤرخنا هنا ، ليس كعادته يبقين بل يستخدم ألفاظاً ، تفيد الاحتمال والترجيح ، أو على الأقل ، تنقل عن كاهله مسئولية الخبر إلى آخرين، بالضبط كما كان أبو التاريخ ، هيرودوت يفعل عندما لايكون واثقاً من معلوماته، بالنقل عن آخرين ، حيث كان يستخدم ألفاظاً مثل :

" كما يقولون : " hos legousi " ، أو " fasi " ولذلك نجد ديودوروس ، هنا ، أيضاً (نظراً لأنه ينقل عن آخرين ، وليس بناء على مشاهداته الشخصية ، كما فعل من قبل حتى الآن ، فيما يخص تلك المعالم الثلاثة السابقة ، وهذه هي قمة الأمانة التاريخية) يستخدم تعبيراً جديداً ، للدلالة عن نقله وعدم مسئوليته الشخصية ، وهو " hos logos "، حاملاً إلينا المعنى نفسه الذي كان يقصده هيرودوت من تعبيريه السابقين .

إن هذا المعلم الرابع ، الهام ، الذي لحظ ديودوروس بخصوصه ، هو القول بأن البتراء (Petra) ، وكذلك فلسطين ، (حيث يتم إنزال بضائع كثيرة ومنها اللبان والبخور) تقعان خلف ذاك اللسان البحري السابق الذكر ، أي إلى الشمال تقريباً[٣٥] ، مما يؤكد أنه لم يزر تلك المنطقة ولم يرها رؤية العين ، ولايعرف شيئاً يقينياً عن البتراء أو فلسطين ، ويختلف شراح ومفسرو نص ديودوروس حول وجود كلمة " les Arabias " أي من الجزيرة " العربية " ، ومكانها ، من الجملة[٣٦] التي نقل خلالها لنا ديودوروس خبر المعلم الجغرافي الرابع ولكنهم يتفقون على وجودها في النص ، وهذا هو ما يهمنا نحن الدارسين ، إذ أن وجود تلك الكلمة

يعنى أن هذين المكانين ، أى البشراء وفلسطين أو على الأقل البتراء ، فقط ، هى جزء من الجزيرة " العربية " كما كان يعرف ذلك أهل المنطقة الذين نقلوا المعلومة الجغرافية إلى ديودوروس ونسبها إليهم بقوله " hos logos " ، أى " كما يقولون " ، أو كما هو شائع .

ولازلنا ، حتى الآن ، فى منطقة خليج العقبة حيث " تكاد تشرف المرتفعات على البحر مباشرة "[٣٧] ، ولعل اللسان البحرى المرتفع السابق الذكر ، الذى يواجه جزيرة " فرعون " ، هو أحد أبرز ملامح تلك المنطقة التضاريسية .

وينتقل بنا ديودوروس ، بعد ذلك بقليل إلى الحديث عن ساحل ، يقول عنه Oldfather فى تعليقه بأنه هو ساحل خليج العقبة [٣٨].

والواقع التاريخى والجغرافى ، ومن خلال وصفه هو الذى أورده فى نصه ، فإننا نستطيع القول بيقين علمى ، بأننا أمام وصف تفصيلى عن الإقليم الذى سكنه اللحيانيون [٣٩]، أولاً ، ثم الأنباط[٤٠] من بعدهم .

وكمعلم خامس فى خريطة مؤرخنا ، يمكننا ملاحظة أن ديودوروس قد أطلق اسم اللحيانيين على الخليج الأيمن من الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، حيث أن الخليج الأيسر هو خليج السويس ، وأطلق اسم " خليج العقبة " فيما بعد ، على ذاك الخليج المعروف عند مؤرخنا باسم (" الخليج اللحيانى (Kolpos Laianites) وهو الخليج الذى تحيط به قرى كثيرة للعرب ، الذين يدعون باسم " الأنباط ") [٤١].

ويستطرد ديودوروس فى التعريف بهؤلاء الأنباط ، وسنكتفى ، هنا ، بمعلومة جغرافية أخرى ، تاركين بقية الأخبار حول هذا الموضوع فى حينها ، فيقول بأن الأنباط موزعون على مساحة كبيرة من أرض الساحل ، كما أنهم يحتلون مساحة ، ليست بالصغيرة (-ouk oli gen) ، من الأراضى الداخلية التى تسيطر عليها بلادهم [٤٢].

ومن أبرز الملامح الطبيعية لوطن آخر ، كما جاءت عند ديودوروس ، وهو إقليم منخفض ، كوادى ، يقع بعد[٤٣] وطن الأنباط ، مما يلى ، وهو المعلم السادس فى خط سير مؤرخنا :

١ - هو وادى غزير المياه (pedias katarrytos) .

٢ - به عيون منتشرة فى أراضيه كلها " dia tas panta diarreousas pegas.....'

٣ - ينمو به نبات البردى حتى يصل إلى طول قامة الرجل (loton andromeke) .

٤ - به ثروة حيوانية تفوق الوصف : تغيه الماشية والأغنام ، وكذلك الجمال ، والغزلان ، والوعول ، والأسود ، والنمور ، والذئاب [٤٤].

ويكمل مؤرخنا رحلته تاركًا هذه الأودية ، ولايمكننا هنا أن نقرر باطمئنان ، جهة اتجاه الإبحار أكان صوب الشمال أم الجنوب ! ، إذ يستخدم ديودوروس كلمة غامضة فيقول فقط : " بعد أن أبحرنا بحذاء ... " [٤٥] (Parapleusanti) ، وواضح أن وسيلة صاحبنا هنا ، فى هذه الرحلة الاستكشافية للمنطقة العربية من شمال البحر الأحمر ، هى السفينة ، وليس السير براً ، على أن يسير - كما اعترف هو صراحة - بحذاء الساحل مباشرة ، مما يعطيه الفرصة كاملة لمعرفة العمران الساحلى وطبيعة البحر والجزر ورزنة الكائنات البحرية (كما أخذنا من قبل) ، ولكنه ، فى الوقت نفسه ، يحرمه من معرفة العمران الداخلى البعيد عن الساحل الشمالى الغربى للجزيرة العربية . صحيح لقد أمن ديودوروس ، لدرجة ما ، على نفسه وماله ومشروعه ، بركوبه البحر ، بعيداً عن أنظار البر وماعليهما من عمليات سلب ونهب (سنحدثنا هو عنها فيما بعد) ، ولكنه قد خسر جانباً كبيراً من ملامح الصورة التى جاء من أجل استكمال خطوطها ، وخسرت مهمته الاستطلاعية الكشفية [كما يعلو للأجانب تسميتها ووصفها هى وكل محاولات الغربيين القدماء ولكنها ليست ، فى الواقع ، سوى أعمالاً جاسوسية بكل المعايير] إمكانية التعرف على أشياء كثيرة حول المكان والسكان ، والحياة لهؤلاء العرب المقيمين فى تلك الأقاليم الهامة ، على طريق التجارة الرئيسى بين الجنوب والشمال فى الجزيرة العربية القديمة .

عندئذ تصل سفينة رحلتنا إلى خليج غريب فى طبيعته ، كما يصفه هو بكلماته (Kolpos ... paradoxon) [٤٦] ، وجاءت ملامح ذاك المعلم الجغرافى السابع ، فى خريطة ديودوروس ، كالآتى :

١ - يمتد هذا الخليج إلى مسافة طويلة داخل اليابسة ، تقدر بحوالى (٥٠٠) خمسمائة ستاد[٤٧] " ... epi stadious pentakosious parektinetai. " [٤٨].

٢ - ومحاط بصخور ضخمة كجرف شديد الإنحدار : " perikleiomenos de kremnois thaumasiois to megethos ... " [٤٩].

٣ - ومدخله ملتو ، ويصعب الخروج منه : " Skolion kai dysexiton ekhei to - suma" [٥٠].

وذلك لوجود صخرة ممتدة عند مدخله ، تعرقل دخول أو خروج السفن من هذا الخليج [٥١].

٤ – تتهدد السفن الأخطار ، بالارتطام فى هذه الصخرة ، عندما تحدث تغييرات فى اتجاه الرياح [٥٢].

ونسير مع ديودوروس ، فإذا به يتكلم ، بعد ذلك مباشرة ، عن ثلاث جزر (nesoi treis) تقع فى مواجهة الساحل السابق الذكر مباشرة ، وبها عدة موانىء [٥٣](limenas poioisai pleious) . وهنا هو المعلم الجغرافى الثامن ، والذى لاتدرى موقعه على خريطة اليوم ، وعلى أهل التخصص ، الجغرافيين ، أن يفتشوا فى ذلك . فهل نحن لازلنا فى مدخل خليج العقبة؟!!.

وبعد تلك الجزر الثلاث (وهنا نرجح أن الإبحار الآن يتجه صوب الجنوب ، بحذاء الساحل) ، يوجد شاطىء طويل ممتد ، وهو المعلم التاسع :

أ – قدره ديودوروس بحوالى (٢٠٠٠) ألف ستاد[٥٤] !!! . (epi stadious hos khil-ious) .

ب – ولكنه ساحل [٥٥](aigialos) شديد الانحدار (Kremnodes) ، وصعب الإبحار بجانبه[٥٦] (dysparaplous) .

جـ – ذلك لأنه ليس به ميناء ولا مرسى للسفن ، يمكن أن تنزل فيها مراسيها :

" Oute gar limen oute salos ep' agkyras ...." [٥٧].

د – كما أنه ليس به – رغم امتداده الكبير – مأوى طبيعى يمكن أن يكون ملجأ فى حالات الضرورة للتائهين من البحارة أو النكبات القهرية [٥٨].

وينتقل ديودوروس ، كشاهد عيان مدقق ، لهذا الجزء من تضاريس الجزيرة الشمالية الغربية ، إلى وصف تفصيلى ينم عن يقظة تامة لما حوله ، أو تسجيل فورى ، أولاً بأول ، لما رآه فعلاً بعينيه هو ، وليس نقلاً عن أحد مصادره الأقدم . إنه يضيف لنا ، أيضًا ، فى المكان ذاته ، وبحذاء الساحل السابق الذكر ، سلسلة جبلية موازية لذلك الساحل – كمعلم عاشر فى جغرافية ديودوروس – قممها صخرية وذات ارتفاع مخيف ، وشديد الانحدار :

" Kata men koryfen petras aporomadas ekhon kai tois hypsesi hat-aplektikas. ... " [٥٩].

وتصل قوة الملاحظة عند ديودوروس إلى قمتها عندما يذكر [٦٠]:

١ – الشعاب المرجانية الكثيفة والحادة ، تحت الماء ، عند سفوح تلك التلال العالية على الساحل (... spiladas oxeias kai pyknas enthalauous....) .

٢ – الأودية الضيقة التى تقع خلف تلك التلال ، أو السلسلة الجبلية الصخرية العالية ، وهى أودية متصلة بمعابر وطرق موصلة ببعضها .

٣ – عمق البحر ودور العاصفة البحرية عندما تهب وتحدث صوتًا كالرعد عند ارتطامها بالصخور ، وارتفاعها إلى أعلى :

tou de klydonos to men pros megalas petras prosarattomenon eis hypsos histatai ...) .

٤ – تكوين زبد البحر الرائع نتيجة لهيجان الأمواج (العاصفة)

(kai ton afron thaumaston to plethos kataskeuazei, ...) .

٥ – ابتلاع الكهوف لتلك الأمواج الغاضبة ، فى بعض الأحايين ، مما يهدىء من حدتها ، ولكنها تنتج أصواتًا مخيفة ، بسبب ارتطام المياه ، فيتزعج الناس القريبين من تلك الأماكن ، وتتخلع أفئدتهم رعبًا ، وكأنهم يموتون ميتتهم الأولى :

(.... dia to deos oionei proapothneskein) [٦١].

فهل ، بعد كل هذه التفاصيل الطبيعية الرائعة لعالم السواحل البحرية ، من دقة وحسن تعبير ، بل ومعايشة لحظة بلحظة لأهم خصائص البحر !! صحيح ، ربما تكون تلك الملامح عامة لكل ساحل صخرى بحرى ، فى أى مكان من العالم ، ولكن هل يمكننا أن نكون من المصدقين لهذا المؤرخ الجغرافى فى سرده لتلك الحقائق الطبيعية التى يخص بها أحد بقاع الساحل الشمالى الغربى من الجزيرة ، المطل على البحر الأحمر !!! إن الإجابة اليقينية عن هذا السؤال ، ليست للأسف ، عندى أنا ، بل يجب أن نبحث عنها عند علماء الجغرافيا الطبيعية ، المتخصصين فى تضاريس البحر الأحمر .

إنه بعد كل ذلك يقرر خبراً تاريخيًا ، يقينيًا ، دون أدنى شك فى أى لفظ من ألفاظ جملته ، ودون وجود حتى مجرد أى احتمال فى معانيه ، أن هذا الساحل السابق الذكر ، أى المعلم الثامن والتاسع ، يخص عربًا يسمون : " الثموديون " (Thamoudenoi) [٦٢]. وذلك

عند بداية عقد مقارنة بين ذاك الساحل ، غير المناسب على الإطلاق لرسو السفن أو لنجدة البحارة لعدم وجود موانئ به ، وبين ساحل آخر ، هو المعلم الحادي عشر في خريطة ديودوروس لأن هذا الساحل الجديد وخليجه ، هو أهم وأفضل ميناء في العالم القديم كله !! ، باعتراف كلماته ذاتها ، حيث تظهر - لأول مرة - الكثبان الرملية الهشة (aerioi thines hammou [Kharmouthas][٦٤]) (إنه ميناء خارموثاس ، الذي يصفه بقوله :

... Limen kallistos ton eis historian peptokoton, onomazomenos Khar-" mouthas " .

بمعنى " إنه أفضل ميناء من (تلك) الموانئ المقيرة في التاريخ ، (وهو) المسمى "خارموثاس" .

وراح ديودوروس يعدد مزايا ذلك الميناء الأفضل في العالم القديم بأكمله ، مقارنة بتلك الموانئ الفقيرة التي يحرفها التاريخ :

١ - وجود حائل طبيعي ، ممتاز ، للأمواج وذلك لوقاية المرفأ وسفنه منها [٦٥].

٢ - امتداد هذا الحائل الطبيعي نحو الغرب ، حيث يكون خليجًا رائعًا في شكله ومزاياه :

أ - فهو مغطى بغابة كثيفة من الأشجار التي تغطيه كله ، لمسافة مائة أستاد على هيئة حلقة .

ب - ومدخله ضيق ، حوالي ثمانين (٨٠) متراً فقط [٦٦] ، مما يضمن عدم اضطراب مياهه في داخله ، بسبب الأمواج خارجه .

جـ - ويتسع لحوالي (٢٠٠٠) ألفين سفينة داخله .

٣ - كما أن بالميناء مياه كثيرة (euudros) - صالحة للشرب - على غير العادة (kath' hyperbolen) لوجود نهر كبير يصب فيه [٦٧].

٤ - وكذلك يوجد في وسط هذا الميناء جزيرة وفيرة مياه الري وقادرة على زراعة الحدائق بها :

Kai Kata meson ekhei neson euudron kai dynamenen ekhein ke-) peumata) [٦٨].

٥ - ويجلب الميناء كميات كبيرة من الأسماك إلى داخله من عرض البحر وذلك بفضل :

أ - هدوء مياهه في داخل أركانه .

ب - وحلاوة تلك المياه التي تنساب إلى داخله من النهر [٦٩].

(... dia te ten nenemian kai ten glykyteta ton eis auton hreonton hydaton)

ونواصل إيجازنا بصحبة ديودوروس ، في سفينته الخاصة ، صاحبة المهمة المحددة [٧٠] ، والتي لاتزال تتجه صوب الجنوب بحذاء الساحل الغربي للجزيرة العربية ، فإذا به يشير بيقين شاهد العيان إنه يرى خمسة تلال ، شاهقة الارتفاع ، ذات قمم منفصلة عن بعضها ، وكل قمة أشبه بثدي من الحجر ، وتكون جميعها صورة تقريبية لأهرامات مصر :

... ekhonta tas koryfas eis petrode maston, paraplesion fantasian apot-) elounta tois kat' Aigypton Pyramisin) [٧١].

وهو وصف رائع ، يشبه بتأثير شكل أهرامات مصر على ذهن مؤرخنا وخياله ، الذي نقل معه تلك اللوحة الخالدة منذ رؤيته لها عند وصوله إلى مصر ، حوالي منتصف القرن الأول ق.م، وظلت حية بداخله عدة سنوات إلى أن رأى شيئًا شبيهًا بها - من بعد [٧٢]- فسطن لسانه بهذا التشابه وسجله تلميحًا للتاريخ فيخلده الزمن ألفين من السنين حتى يومنا هذا . هذا من ناحية ، إلا أن الجزئية الأخرى من تشبيهه السابق ، يثبي، ، من ناحية أخرى ، عن نفسية وعقلية ذات مذهب حسي ، مادي (hedonistes) ، شأنه في ذلك ، شأن معظم اليونانيين القدماء !!! كان ذلك هو المعلم الثاني عشر من خريطة ديودوروس .

وقبل أن ننتقل إلى المعلم الثالث عشر ، وهو واحد من أهم الأماكن التي حظيت باهتمام مؤرخنا ، يجب أن نلفت النظر إلى أنه لم يذكر ، ولو لمرة واحدة ، كم من المسافة أو من الوقت ، كان قد قطعه للوصول من معلم جغرافي سابق إلى مكان المعلم الجديد اللاحق ، وإن كان ديودوروس غالبًا ما يستخدم إما كلمة " meta " ، أي (بعد ذلك المكان) ، أو كلمة " hex- es " ، أي (وبتلو ذلك المكان) . وفي الحالتين لايشير ، لامن قريب أو بعيد ، إلى البعد المكاني أو الزماني للمعلم الجغرافي الجديد عن ذاك القديم ، مما يسبب للدارس حيرة شديدة في تحديد مواقع تلك الأماكن الواردة عنه . وما نقوم به هنا (خريطة {١}) ليس سوى اجتهاد شخصي يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ بالقدر ذاته ، ويكفينا أننا اجتهدنا بالرغم من صعوبة المهمة!!! .

وتتلخص أبرز ملامح المعلم الثالث عشر ، في كونه خليج دائري الشكل محاط بلسان[٧٣] صخري عظيم من ناحية :

(Kolpos kykloteres megalois akroteriois periokhomenos, ...)[٧٤].

ويضيف ديودوروس أنه توجد - ثلاثة معابد تدهش الناظر إليها لارتفاعها - فوق التل الأوسط حيث تستطيل قمته ، وهذه المعابد الثلاثة قد تم بناؤها لآلهة ، غير معروفة لليونانيين من ناحية ، ولكنها تلقى ، من ناحية أخرى ، تكريمًا غير عادي من أهل المنطقة المحليين :

... treis naoi ... theon, agnooumenon men hypo ton Hellenon, timomenon) d' hypo ton egkhorion diaferontos) [٧٥].

ثم ينتقل بنا مؤرخنا الجوال ، السائح البحري ، إلى معلم جغرافي آخر (وهو الذي يحمل عندنا رقم « ١٤ » في خريطة رحلته إلى شمال غرب الجزيرة العربية) ، فجأة مكتفيًا - كعادته - بكلمة " وبعد ذلك (meta) " ، وهذا المكان الجديد ، الرابع عشر ، هو عبارة عن شاطيء (aigialos) رطب جداً ، تخترقه جداول مياه عذبة ، كما يوجد على أرضه تل يسمى " خـابينوس[٧٦] : Khabinos " ، وهو تل تكثر فيه الأشجار ، من كل نوع ، على هيئة أيكات وخمائل . أما الأراضي التي تضمها تلك المنطقة المرتفعة ، فيسمى سكانها العرب دباي[٧٧] (Debai) ، وهو ما ترجمه ، نحن ، للتشابه الكبير في الاسم والوظيفة مع مسمى ميناء " ضبا " الحالي (انظر خريطة ٢) ، بأنهم هم " أهل ضبا " وسكان ذلك السهل الساحلي!! وربما كان هذا الاسم القديم هو المسمى الوحيد في رواية ونصوص ديودوروس ، الذي أمكننا ، ببعض اليقين ، أن نتعرف على معادلة الحديث والمعاصر في جغرافية شبه الجزيرة العربية ، على ساحلها الغربي الممتد على البحر الأحمر !!! .

ولعل من أخطر ما أخبرنا به ديودوروس ، حول هذا الموقع الساحلي ، بين أهل ضبا ، هو وجود نهر ، يخترق وسط ذلك الإقليم ، محملاً بتراب الذهب ، حتى أن طين مجراه يلمع بسبب ذلك وصولاً إلى مصبه حتى البحر :

(Kata de mesen ten khoran autom feretai potamos tosouto khrysou ka- taferon psegma ...)[٧٨].

وتشد ديودوروس المنطقة وعادات سكانها ليتكلم : عن ذلك تفصيلاً ويحاول أن يعطي تفسيراً أسطوريًا ، كعادة كتاب ذاك الزمان ، لوجود الذهب في ذاك الإقليم بالتحديد . ولكننا

لن نخوض في مثل تلك الجزئيات الآن وسنفرد لها مكانًا آخر وفق منهج دراستنا الذي أعلناه سلفًا .

ويصل رحالتنا اليوناني ، صاحب المهمة الكشفية الصعبة ، أو إن شئت نقل بالأحرى ، المهمة الاستخبارية لصالح أقوى قوى ذاك الزمان وهم القادة الرومان ، إلى مكان جديد وأرض جديدة أطلق عليها اسم ساكنيها ، وهم عرب ، أولاد علي (!!!) (Alilaioi) وغسان[٧٩] (Gasandoi) ، وجاء وصفه لبلادهم متضمنًا الآتي :

أ - ليست حارة كبلاد جيرانهم[٨٠].

ب - أرضها خصبة جداً وتنتج كل شيء[٨١].

جـ - تسقط عليها أمطار بسبب الغيوم الكثيفة عليها ولاسيما في الصيف ، كما أن شتاءها طيب[٨٢].

د - بها ذهب خام كثير[٨٣].

ويترك ديودوروس هذا الموقع الخامس عشر ، من خريطته لشمال غرب الجزيرة ، ومنتقل بنا فجأة ، كعادته في هذا السرد الجغرافي المقتضب ، مكتفيًا بكلمة "meta" ، - أي " وبعد ذلك ... " - إلى أناس لم يذكر عنهم سوى اسمهم وهم الـ " كاربای : Karbai " ، وأتبعهم باسم آخر ، ولكنه لأشهر الجماعات العربية القديمة وأكثرهم حضارة وإنجازاً قديمًا ، وهم " أهل سبأ " (السبئيون) (Sabaioi) ، وهو ، بذلك ، يكون قد أحصى (١٦) ستة عشر موقعًا .

ثانيًا : الجغرافيا البشرية (ta ethnographica) :

وهنا يجب أن نتوقف طويلاً ، كما فعل ديودوروس نفسه ، عند تفصيله القول في شأن هؤلاء السبأيين ، وإنهاء حديثه عن جغرافية شمال غرب الجزيرة " العربية : أرابيا " بمثل هذا التركيز عنهم ، وذلك بتفنيد عناصر مادته حولهم ، ومحاولة فهم أهم ما لفت نظر مؤرخنا في هذه الجماعة العربية الشهيرة ، وكذلك بذل الجهد للتعرف على سر الاهتمام الزائد بأولئك على وجه التحديد من أبناء الجزيرة العربية القدماء .

لقد جاء أول وصف للسبئيين (وفي نظرنا أنه أخطر ما لفت نظر ديودوروس كيوناني يدرك قيمة تعداد السكان الكبير حيث يفتقد هو تلك الميزة كأمة) ، على لسان مؤرخنا ، عقب ذكر اسمهم مباشرة ، بقوله :

" Polyanthropotatoi ton Arabikon ethnon ontes ... [٨٤]"

يعني : " إنهم أكثر الجماعات العربية تعداداً " .

كانت هذه هي أهم وأبرز سمة وضعها ديودوروس على رأس قائمة خصائص أولئك العرب ، الذين لانعرف أين (!) قابلهم وفي أي بقعة من الجزيرة : هل إبان رحلته الساحلية ، في المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، كما سبق وأحصى لنا خمسة عشر موقعاً ، ولم يكن قد بلغ بعد منتصف المسافة لذلك الساحل صوب الجنوب !!! أم أنه لاستكمال حديثه ، فقط ، انتقل فجأة للحديث عنهم ، دون رؤيتهم هم أنفسهم وهم أهل الجنوب العربي أصلاً ، أي قاطنو " اليمن السعيد : Arabia Felix " ، كما عرفوا بذلك من بعد على أيدي الرومان[٨٥] !!! .

هذه الجزئية لايمكننا ، بيقين علمي ، أن نصدر بخصوصها حكماً قاطعاً . وهي قضية مشابهة لتحديد مكان مملكة الملكة بلقيس ، في الرواية القرآنية [٨٦]. وهذا أمر خارج عن هدف دراستنا التحليلية للنص اليوناني لتحديد مضمونه ومحتواه ، وصولاً - إن أمكن - إلى المغزى التاريخي ، بصفة خاصة ، من وراء بعض الإشارات الواردة فيه . هذا ، وإن كنا نرجح أن ديودوروس كان يقصد أهل الجنوب العربي الأصليين ، وليس الفرعيين ، الذين ربما يكونوا قد أقاموا في بعض مناطق وسط الساحل الغربي للجزيرة . ذلك لأنه يقول صراحةً ، بعد وصفهم السابق الذكر ، " nemontai de ten eudaimona kegomenen Arabian " [٨٧].

يعني : " كما أنهم يعيشون في (البلد) المدعو العربية السعيدة " .

ومع ذلك ، فإن التحديد الجغرافي الدقيق لذلك المصطلح القديم لم يكن قاصراً على ما نعرفه اليوم باسم " اليمن " ، بل أكثر إتساعاً وشمولاً من ذلك بكثير ، ولاسيما في اتجاه الشمال والشرق من هذا الجنوب العربي . ولهذا نعود إلى نقطة البداية ، من حيث بدأنا ، حينما قلنا صراحة ، ليس في الإمكان التوصل إلى يقين جغرافي ، بمعايير اليوم ، إلى مكان إقامة هؤلاء السبئيين المقصودين عند ديودوروس ، إلا بأنهم ، وفقط ، ربما كانوا هم سكان الجنوب العربي القديم .

وعموماً ، فقد جاء وصفه لبلادهم في فقرة طويلة يمكن إيجاز مضمونها كالتالي :

١ - تنتج بلاد السبئيين معظم الأشياء العزيزة على اليونانيين والغالية بينهم [٨٨].

٢ - ترعى القطعان من كل نوع والأغنام بأعداد لاحصر لها [٨٩].

٣ - ينمو نبات البلسم (Balsamos) بحذاء الساحل ، وكذلك الكاسيا (Kasia) ، وعشب آخر مميز له طبيعة خاصة [٩٠].

٤ - هناك غابات كثيفة في داخل تلك البلاد ، وهي التي بها - بالإضافة إلى أشجار النخيل والغاب (البوص) - الأشجار الكبيرة (megala dendra) للبان (Libanotos) والمر (Smyrne) والقرفة (Kinamonos) ، وجميعها وغيرها لها رائحة ذكية [٩١].

٥ - المبالغة الشديدة في وصف تأثير الروائح الذكية حتى على البحارة العابرين بحذاء الساحل السبئي ، وكيفية حدوث ذلك وميقاته [٩٢].

ثالثاً : الوقائع التاريخية :

الأنباط عند ديودوروس[٩٣] : (دراسة تحليلية في النص اليوناني) :

الحق أن ديودوروس ، المؤرخ الموسوعي الكبير ، الذي كتب تواريخه (Historiai) ، بالنقل تارة عن سابقيه ، وبالسماع تارة أخرى عن محدثيه ، كان ، أيضاً ، يعتمد في كثير من الأحيان على الزيارة الميدانية لمواقع ومواطن وصفها بعناية بالغة ودقة متناهية . وإذا كان ، كذلك ، قد جاء متأخراً ، في اهتماماته التاريخية بأحداث العالم القديم ، بعد هيرودوت ، بحوالي أربعة قرون من الزمان ، وكذلك بعد ثيوفراستوس ، بحوالي قرنين ونصف على الأقل ، فإنه استطاع أن يقدم لنا - نحن العرب على الأقل - مادة تاريخية وأيضاً جغرافية لمنطقة الشرق القديم ، ولاسيما إقليم الـ " أرابيا " (Arabia) كما سماها من قبله هيرودوت وكذلك ثيوفراستوس ، وسار على نهجهم ، من بعدهم ، كل من سترابون وبلينيوس .

ومع ذلك ، فقد قدم لنا ديودوروس مادة خاصة جداً ، تؤكد بما لايدع مجالاً لأدنى شك بأنه كان قد زار المنطقة ورآها رؤية العين بأم رأسه ومن ثم كان شاهداً للعيان ، في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد لما كانت عليه منطقة شمال غرب شبه الجزيرة العربية القديمة على وجه الخصوص .

وفي الوقت الذي كانت معلومات ثيوفراستوس ، في نهايات القرن الرابع ومطلع القرن الثالث ق.م ، عن الـ " أرابيا " غير دقيقة أو واضحة ، بالضبط كما كان أسلافه من المؤرخين، أمثال هيرودوت ، حيث كان لايزال محافظاً على التراث الثقافي المحدود الذي وصله من سابقيه ، فاعتبر " العربية : أرابيا " ، " بعيدة قليلاً عن قفط [٩٤]" (كوبتوس : Koptos) ، في وسط صعيد مصر!!! أي أن الـ " أرابيا " ، هي الصحراء الشرقية لمصر ...بالضبط كما كان يعتبرها هيرودوت [٩٥].

ويضيف ثيوفراستوس قائلاً بالحرف الواحد :

" وعلى أرض تسمى " العربية " (أرابيا) ، بالقرب من البحر المدعو البحر الأحمر ، قليلاً أبعد من قفط ، لاتثمر أية شجرة ماعدا تلك المعروفة باسم " أكاسيا العطشى " ، ولكن ذلك نادر ، بسبب شدة الحر (Kaumata) وكذلك عدم توافر المياه (anydria) ، لأنها لاتمطر أبداً إلا كل أربع أو خمس سنوات ، وعندئذ تسقط مطراً غزيراً ولمدة قليلة " .

هذا ماوصف به ثيوفراستوس منطقة " أرابيا " وكان واثقًا من معلوماته إلى حد كبير ، كما يبدو من استخدامه لألفاظه القاطعة ولمفرداته الواضحة ، ولنفيه وتحديده المدة الزمنية لسقوط المطر وكثافته ، ولكنه ، على النقيض ، يتردد ويتحفظ ، ويستخدم تعبير " كما يقال : hosper clokhthe " ، حتى لايحمل نفسه وزر صحة المعلومة التي يقدمها لسامعه وقارئه ، عندما يتكلم عن نبات أشبه بشجرة القطن الحديثة ، ويقول بأن هذه الشجرة موجودة في الهند وكذلك في أرابيا (العربية) [٩٦].

كان ذلك هو كل ما تعرفه ، تقريبًا ، عن شبه الجزيرة عند المصدر الثاني القديم ، الغربي، بعد هيرودوت ، عن منطقتنا . بينما نجد الأمور (بعد قيام حملة الاسكندر وانتشار أخبارها في كل العالم الهيللينستي ، وزيادة الطلب على منتجات الشرق القديم والطمع في ثرواته) تتغير تمامًا وتلهج الألسنة بذكر الشرق وتروح تعدد خيراته ، وها نحن أمام ديودوروس لنتعرف على ماجاء عنده عن الأنباط مثلاً ، لندرك حجم الاهتمام ونوعيته .

أولاً : لقد استطاع ديودوروس أن يحدد موقع بلادهم بدقة كبيرة ، لم يسبقه إليها أحد ، فقال بأن هناك العديد من القرى العربية (... pollais Komais Arabon ....) [٩٧] وذلك حول الخليج اللعسياني [٩٨](Kolpos Laianites) وذهب ديودوروس إلى أبعد من هذا ، ونسب كل هذه القرى العربية الكثيرة إلى فرع عربي محدد ، في شمال الجزيرة العربية ، وهم الأنباط (Nabataioi) ، وصرفهم بأنهم [٩٩] :

أ - قبيلة بدوية .

ب - يقطنون المساحة الأكبر من هذا الساحل البحري على خليج العقبة .

جـ - لكن الامتداد الأعظم لهم هو إلى الداخل في الصحراء .

د - عدد سكانهم كبير (amytheton) .

هـ - لهم مراعي للأغنام والقطعان بأعداد ضخمة لاتصدق (agelas aristous tois pleth-csin) .

وقد أدرك ، بوسائله وأدوات الإخبار والبحث في عصره ، فعقد ديودوروس مقارنة بين واقع الأنباط آنذاك ، في النصف الثاني من القرن الأول ق.م ، بعد أن دخلوا حظيرة الإمبراطورية الرومانية كبقية أقاليم سوريا وفينيقيا وشمال الجزيرة ، وبين ماكانوا عليه في أزمانهم القديمة ... ولفت نظره أنهم قوم يحرصون على إرساء قواعد العدالة (dikaiosyne) ، ويتنافسون بالوفاء الذي تمنحهم إياه قطعانهم وأغنامهم [١٠٠].

وها هو أيضًا في أثناء تجواله بالمنطقة ، تارةً بالبر ، وتارةً أخرى بالبحر ، يذكر لنا أقوامًا آخرين ، عرب ، يقيمون في شمال غرب الجزيرة ، التي ركز على مشاهدتها والتعرف على طبيعة أرضها ، وخيراتها ، وكأنه في مهمة رسمية ، بهدف رفع تقرير مفصل إلى الجهات العليا المسئولة صاحبة الحق في اتخاذ القرارات المناسبة ، في التوقيت المناسب ، لتحقيق مصلحة بعينها !! [١٠١]. فراه يفصل الحديث عن أنواع القطعان ، والنبات ، وطبيعة الثروات والحيوان المنتشرة في المنطقة من جمال برية وغزلان ووعول [١٠٢].

كما يبين صراع الرعاة ، ليل نهار ، ضد الذئاب والقهود ، مما يؤكد على أن السكان ، بالرغم من خيرات المكان ، يشعرون بسوء حظهم أمام تحديات الطبيعة التي منحتهم ، كذلك ، ماهو ضار جنبًا إلى جنب مع العديد من النعم [١٠٣].

ثم هو يذكر المسافات ويصف التضاريس ، ويتحفظ في الإشارة إلى بعض آثار المنطقة القديمة على أرض بعض الجزر ، فيقول : " ويروون الروايات التاريخية : historousin : ، وهكذا يلقي بالتبعية على الرواة الذين أخبروه بذلك [١٠٤].

ومن بين الأقوام العرب الذين ذكرهم ديودوروس في مكتبته التاريخية (Bibliotheke) . مايلي :

أ - الثموديون (Thamoudenoi) ، وهم يقيمون على أحد الخلجان ، وساحل ، حيث تنتشر جزر مبعثرة [١٠٥].

ب - أهل ضبا (Debai) ، ويسكنون منطقة جبلية ويرعون الجمال التي يستخدمونها في تحقيق أغراضهم التالية :

١ – الحرب ، ركوبًا على ظهورها .

٢ – نقل المتاع .

٣ – شرب لبنها .

٤ – الركوب لمسافات طويلة .

ثم ما هو أخطر من كل ذلك ، فيذكر مؤرخنا بأن هناك – فى وسط بلدهم – يجرى نهر يحمل كمية كبيرة من تبر الذهب ، الذى لايعرف الأهالى كيف يصنعونه . ويصف أهل ضبا بأنهم كرماء مع الأجانب ، وبصفة خاصة ، اليونانيين القادمين من بيوتيا والبلوبونيز [١٠٦]. ولكنه يخلط ذلك كله بأسطورة للبطل المؤله هيراكليس وعلاقته الغريبة بأجداد أهل ضبا [١٠٧] .

جـ – الغسانة (Gasandoi) والأليلاى (Alilaoi) ، ويسكنون إقليمًا ليس حارًا ، وبه سحب كثيفة ، ويتمتع بموسم صيف معتدل ، وكذلك الشتاء ، كما أن أرضهم خصبة للغاية (e Khora pamforos) ، وفيها مناجم للذهب بوفرة [١٠٧].

وينتقل ديودوروس بنا – فى رحلته فى شمال غرب الجزيرة – إلى قوم آخر ، من عرب الشمال ، يسميهم كاربای (Karbai) ومن بعدهم " السبأيون : Sabaeoi " .

د – السبأيون : " وهم أكثر القبائل العربية عدداً " [١٠٨]، – كما وصفهم مؤرخنا بالحرف الواحد – ويسكنون إقليمًا معروفًا باسم " العربية السعيدة " [١٠٩]: (Eudnemon Arabia) وهى بلد :

١ – تنتج أشياء محببة لدى اليونانيين .

٢ – تربى قطعانًا وأغنامًا من كل نوع وبأعداد كبيرة .

٣ – الرائحة الذكية تملأ الإقليم كله .

٤ – بحذاء الساحل ، ينمو البلسم والكاسيا ، وكذلك عشب آخر معين .

٥ – بينما فى الداخل ، فهناك الغابات الكثيفة والأشجار الضخمة ، التى تنتج البخور والمر ، فضلاً عن أشجار النخيل والكمون والبردى ... إلخ [١١٠].

ثم راح يحكى الروايات عن تجارة العطور والطيوب وزراعة أشجارها وكيفية جمعها ، بالإضافة إلى وصف مدينة سبأ (Sabas) عاصمتهم الرئيسية [١١١].

وعندما عاد ديودوروس إلى الحديث عن تاريخ الصراع السيليوكى البطلمى ومحاولات أنتيجونوس ، منذ أواخر القرن الرابع ق.م ، وهو ماعرف " بحروب الخلفاء " (Diadochoi) ، عرج على فتوحات هذا القائد المقدونى فى سوريا توطئة لغزو مصر وضمانًا لولاء الأمراء المستقلين وحكام وشيوخ القبائل البدوية فى المنطقة ، بالضبط كما فعل الملك الفارسى قمبيز (Kambyses) – فى أواخر القرن السادس ق.م ، عندما توصل إلى اتفاقات ومصالحات ومعاهدات مع كل الجماعات العربية الموجودة فى طريق غزوه المزعوم [١١٢].

وعندئذ تناول الأنباط ، ثانية ، وذكر بعض خلالهم وعاداتهم ، ومنها :

١ – إنهم يعيشون فى الهواء الطلق ، ويسكنون منطقة مفتوحة [١١٣].

٢ – بلادهم ، ليس فيها أنهار أو عيون [١١٤].

٣ – عندهم قانون (nomos) بألا يبذرون الحب ولايزرعون نباتًا ، ولا أشجارًا مثمرة[١١٥].

٤ – وكذلك محرم عليهم استخدام الخمر وبناء المنازل :

" nomos d'estin autois mete siton speirein mete fyteuein meden fyton " Karpoforon mete oino khresthai mete oikian kataskeuazein [١١٦].

٥ – الإعدام (الموت : Thanatos) هو عقوبة الخارج على كل هذه التعليمات ، ولم يقبض عليه متلبسًا باقتراف أى جرم منها .

وهنا ، نتوقف برهة ، لنتساءل ، ولماذا كل هذا التحريم لبعض أنواع النشاط الاقتصادى ، مثل منع الزراعة ، وتحريم بعض الحريات الشخصية ، مثل شرب الخمر وبناء المنازل ؟ ثم لماذا كل هذه العقوبة الشديدة للخارج عليها ، وهى الموت ؟

إن ديودوروس ، هنا ، لم يتركنا لنخمن الإجابة عن تلك الأسئلة ، وأعقب كل هذه المحرمات على الأنباط ، بتفسير لوجهة نظرهم هم – كما يعتقدون – يقال بالحرف الواحد :

" إنهم يتبعون (حرفيًا : يستخدمون) هذا القانون ، واضعين فى اعتبارهم أن من يملك هذه الأشياء [١١٧] فإنه يضطر للخنوع (والخضوع) بسهولة أمام (حرفيًا : بواسطة) الأقوياء ، حرصًا منه على استمرار استخدامه لها [١١٨] .

والحق أن هذا التفسير الرائع لهو المنطق السليم بعينه ، لأناس تحدوا الصحراء ، ورضوا بواقع جد فقير ، واحترفوا التجارة ، ومن ثم ، فقد كانوا بين يدى الأقدار وتصاريف الزمان ،

ولهذا وجب عليهم - باختيارهم - ألا يربطهم شيء بالأرض أو الإقليم الذي يعيشون فيه ، حتى لا يضعفوا أمام ما يملكون ، ويكونون دائمًا أحرارًا في اتخاذ القرار بالترحال ، حينما يشتد الكرب ، وتصبح الإقامة من المحال . لقد فضل الأنباط حريتهم على راحتهم واستقرارهم. وهو قرار شجاع مدروس ، كما رأينا ، وينم عن عقلية مرتبة ، تنظر إلى المستقبل وتحسب حسابات الزمان ، وأن دوام الحال من المحال ، في وسط منطقة عبور (ترانزيت) تجارية هامة ، يطمع فيها كل جبار من القوى المحيطة في الشرق أو الغرب .

وحقًا كان تقدير فيليب هاموند (Ph. Hammond) حينما قال :

" International trade was the source of Nabataean wealth" [١١٩].

وكان ديودوروس قد أكد على الثراء الواضح للأنباط قياسًا ببقية العرب والقبائل المجاورة، حيث أشار إليهم قائلاً :

" ... outoi poly ton allon proekhousi tais euporiais. .. " [١٢٠].

بمعنى : " أنهم يتفوقون كثيراً على غيرهم ، في الثراء " .

وقد ربط بين ذلك وقلة عددهم ، إذ لا يزيدون - حسب روايته[١٢١] - عن عشرة آلاف نسمة . وهنا يناقض ديودوروس نفسه فيما قاله من قبل [١٢٢]، عنهم بأنهم " Amytheon ytheton" ، أي " كثيري العدد " ، أو ربما كان المقصود شيئًا آخر ، خاصًا بالتجار والتجارة ، ويكون القول بالقلة بالنسبة للعدد الإجمالي للسكان . ذلك لأنه يعود فيذكر[١٢٣] كيف أن عددًا . لا بأس به (ouk oligoi) ، أي ليس بالقليل ، فهم يمارسون تجارة البحر فيحضرون العطور والبخور والمر وكذلك أفخر أنواع التوابل ، من أولئك التجار الذين ينقلونها من البلد المعروف باسم " العربية السعيدة " .

ويبدو أن موضوع استيطان الأنباط عن بلدهم وعاصمتهم ، كما عرفهم اليونان والرومان آنذاك ، كان موضوعًا شائعًا ومشهوراً عنهم ، مما جعل ديودوروس يؤكد هو الآخر عليه ، بدوره ، مشيراً إليه في أكثر من موضع [١٢٤].

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فانتحل - من عندياته خطابًا رائعًا على لسان أحد أهالي البتراء من الأنباط ، وجهه إلى ديتريوس ابن أنتيجونوس الذي كان يحاصرهم . مما يعكس مضامين عدة ، تاريخية وحضارية سنتناولها بالتفصيل لاحقًا .

وإننا نرى أن هذا الموضوع يستحق منها وقفة طويلة ، مثلما فعل هذا الأجنبي ، وأكد عليه أكثر من مرة ، لأنه في الغالب الأعم ، كان مدفوعًا بعدة اعتبارات سياسية واقتصادية سنتعرض لها بعد ذلك مباشرة . ذلك لأن ديودوروس يبدأ أولاً بالتعميم في القول والحكم العام على هؤلاء ، فيقول :

" ... ولكن هؤلاء محبون للحرية بطريقة فريدة ..

" ... Hoi de eisi diaferontos Philelautheroi " [١٢٥].

وربما كانت الطريقة التي كان الأنباط يدافعون بها عن وطنهم هي التي لفتت نظر ديودوروس واعتبروها فريدة في نوعها وأسلوبها ، الذي لم يسبق له مثيل في معارفه هو شخصيًا كرجل غربي . ذلك لأنه يتبع الجملة السابقة عن حريتهم ، مباشرة ، بهذا التفسير والتوضيح ، فيضيف قائلاً :

" ... وعندما تقترب قوة عسكرية معتدية ، فإنهم يفرون إلى الصحراء ، تلك التي يتخذونها حصنًا (لهم) " [١٢٦].

وهنا يجد ديودوروس نفسه مضطراً لإعطاء تفسير لكيفية اتخاذ الأنباط من الصحراء ملجأ ومأوى لهم من المعتدين ، فيبرر ذلك ويقول : " لأنها (أي الصحراء) بغير ماء ، وهي - بالنسبة للآخرين - لا يمكنهم أن يخترقوها ، ... " ثم يضيف عاملاً أهم كان فيصلاً ، وفريداً لدى الأنباط ، وهو أنهم كانوا قد عملوا خزانات وصهاريج أرضية (جوفية) للمياه لتخزينها ، وقت الضرورة ، مما يؤمن لهم - وحدهم[١٢٧] السقاية والشرب . وراح يفصل الحديث في كيفية بناء وحفر تلك الخزانات لمياه المطر[١٢٨] ، وكيف أن الأنباط كانوا يميزونها بعلامات يعرفونها وحدهم دون غيرهم [١٢٩].

أما أخطر ما جاء منحولاً من ديودوروس على لسان أحد رجالات الأنباط في نداء إلى الملك ديتريوس أثناء حصاره لعاصمة الأنباط ، البتراء[١٣٠] (Petra) وكأنه - أي المؤرخ - كان قد رأى وسمع ، وبينه وبين الحدث التاريخي هذا ، ما لا يقل عن قرنين ونصف من الزمان الغابر قبله . ذلك لأن لهذا النداء عدة مضامين حضارية وتاريخية ذات أهمية بالغة ، تكشف النقاب عن مفاهيم اليونان والرومان ، عن بعضهم ، لبعض عادات وتقاليد كل العرب بصفة عامة ، والأنباط بصفة خاصة .

وزيادة في الفائدة ، وإعطاء لهذا النداء أهميته التي يستحقها ، وجدنا من الأنسب أن نترجمه إلى العربية – لأول مرة – ثم نتبع ذلك بتعليقنا عليه ، لعلنا نوفق في تبيان حجم تلك الأهمية الحضارية والتاريخية التي جاءت بين سطوره ، حتى بالرغم من علمنا من أنه منحول ومقحوم على الظرف التاريخي الحقيقي ، لأنه في النهاية يعكس واقعًا تاريخيًا ، ومفهومًا سائدًا لدى اللاحقين – في أواخر القرن الأول ق.م – عن العرب ، شمال غرب الجزيرة القديمة ، وهو اعتراف صريح – من الأجانب (اليونان والرومان) بتقدير العربي لحريته واستماتته في الدفاع عنها بكل السبل .

يقول نص النداء :

" أيها الملك ديتريوس ، ماذا تريد أو ما الذي يجبرك على أن تحاربنا ، نحن ساكني الصحراء والأماكن التي ليس بها لا ماء ، ولا حبوب ، ولا خمر ، ولا حتى أقل شيء آخر يمكن أن يكون مفيدًا لكم ؛ ذلك لأننا ، بأي حال من الأحوال ، لسنا على استعداد أن نسترق ، وقد لجأنا ، جميعنا ، إلى بلد يندر فيه كل شيء مفيد للآخرين ، واخترنا أن نحيا حياةً في عزلة وبطريقة بدائية[١٣١] تمامًا ، دون أن نصيبكم بأذى ، ولهذا فإننا نطالبك ، أنت وكذلك أبالك ، ألا تصيبانا بضرر ، وأن تسحبا قواتكما ، بعد أن تتسلما الهدايا منا ، وأن تتخذا من الأنباط أصدقاءً لكما في المستقبل[١٣٢] .

ذلك لأنك ، وإن أردت ، لاتستطيع أن تبقى هنا أيامًا كثيرة ، محرومًا من الماء وكل شيء آخر حيوي (لكم) كما أنك لاتستطيع أن تجبرنا على أن نحيا حياةً أخرى ، وإن كنت ستستولي على بعض الأسرى والعبيد المقهورين ، (الذين) سيعيشون غير راضين وفق قوانين أخرى ... "[١٣٣] .

ولنا هنا وقفة تأمل ، لبعض الوقت ، يفرضها علينا مضمون هذا النص اليوناني الخطير ، الذي سجله كاتب مستول ، يعمل في خدمة الأهداف الرومانية ، إبان أعظم قادة الرومان قاطبة وهما بولبوس قيصر وأوجوستوس ، وظل مشهورًا حتى حوالي عام ٢١ ق.م على الأقل[١٣٤] . وهذا يجعلنا وجهًا لوجه أمام نص ، صيغ بعناية شديدة ، يخدم أغراضًا محددة في كل جملة من جمله ، ولاسيما في طبيعته الدرامية ككلام مباشر ، يستنطق التاريخ السابق عليه ، بما لايقل عن قرنين ونصف من الزمان ... إنها عملية إحياء للماضي متعمدة ، والشكل التأثيري الأفضل ، الأكثر أثرًا في النفوس ، والأسرع إدراكًا للمواقف ، بدلاً من السرد الإخباري ، كوقائع وأحداث عفى عليها الزمان . إنه توظيف للتاريخ القديم :

أ – في مكان محدد .

ب – وزمان محدد .

جـ – وعن أناس وأحداث محددة .

فلماذا ، إذن ، كان هذا الاختيار الدليق الذي أقدم عليه ديودوروس الصقلي ، في تلك الفترة بالذات من تاريخ المنطقة ؟ .

بداية ، لابد من القول صراحة أننا لن نكون مبالغين إذا قلنا ، بالفم الملآن ، أننا هنا أمام تقرير دبلوماسي حي على وشك أن يقدم إلى صاحب القرار النهائي في شئون الإمبراطورية الرومانية ، ولاسيما ولاياتها الخارجية (Provinciae) ، وهو الإمبراطور أوجوستوس (Augustus) – في أغلب الظن – حول أخطر مناطق الشرق القديم وتفرد تجارتها ، وهي "الولاية العربية : Provincia Arabia " ، التي كان بومبي العظيم التي ضمها إلى سوريا منذ عام ٦٤ ق.م .

إن كل ما نعرفه عن هذا الإمبراطور الروماني الرهيب ، صاحب اليد الحديدية على كل أنحاء الإمبراطورية ، وصاحب سياسات التوفيق ، والخطوة – خطوة ، واستغلال أخطاء الآخرين[١٣٥] ، يؤكد لنا إمكانية التخطيط لمثل هذا العمل الاستطلاعي ، بدعم مباشر منه ، للتعرف على ظروف المنطقة وخيراتها وأهلها ، ولاسيما بعد هزيمة ماركوس أنطونيوس ، المنافس الأوحد لأوكتافيانوس أغسطس ، في موقعة أكتيون[١٣٦] (Aktion) عام ٣١ ق.م. لقد كانت مهمة ديودوروس ، في رحلته إلى الشرق القديم ، استكشافية مقصودة ، وغدت هي الخائز الحقيقي لحملة عسكرية مباشرة على الجنوب العربي ، حيث مصدر كل الثروات التجارية التي كانت تصل إلى الأنباط ... فأراد الرومان ، الاستحواذ على كل هذه الخيرات من المنبع[١٣٧] وكان ماكان فيما بين عامي ٢٥ – ٢٤ ق.م ، وفشلت لأسباب عدة ، ليس هنا مجال ذكرها .

إنه إذا كان هيرودوت ، أبو التاريخ ، قد جعل حضارة وتراث مصر القديمة مادة لكتابه الثاني من " تواريخه " ، فإن ديودوروس قد قدمها على ماعداها من موضوعات وجعلها مادة كتابه الأول من " مكتبته " ، مما يعكس بجلاء وضوح الهدف الرئيسي من رحلته لدى أسياده القادة الرومان ، أصحاب القرارات المصيرية للعالم القديم كله ، حيث لم يكن هناك – على

الساحة السياسية والعسكرية – غيرهم ، ولم يكن قد بقى أمامهم سوى بعض الجولات الصغيرة ، هنا أو هناك ، فى الشرق (حيث كان التخطيط جاريًا للإيقاع بأنطونيوس وخليلته كليوباترا) أو فى الغرب الذى خلد إلى الاستسلام التام للقوات الرومانية بعد نجاحات وانتصارات يوليوس قيصر فى انجلترا وفرنسا وشمال إيطاليا .

لقد حدد المغامرون الأقوياء هدف تآمرهم ، بالشرق القديم بعامة ، " والولاية العربية " بخاصة ، طمعًا فى التجارة الواردة من الشرق ومن الجنوب للجزيرة العربية ، وطولاً إلى محطة الترانزيت الكبرى ، عند البتراء (Petra) ، بين أيدى الأنباط . وهكذا كان المكان محددًا سلفًا .

كما أننا نرجع زمانًا لهذه المؤامرة الاستكشافية يقع فيما بين عامى ٤٠ و ٣٠ ق.م ، وهى الفترة التى شهدت شدًا وجذبًا وعدم استقرار بين شريكى الإمبراطورية الرومانية العظمى ، القوة الوحيدة المهيمنة ، آنذاك ، على العالم القديم كله حول البحر المتوسط الذى حق لهم أن يسموه ، على تلك الفترة وما تلاها باسم " بحرنا : Mare nostrum " ، أى بين أنطونيوس ، فى الولايات الشرقية ، وأوكتافيوس على الولايات الغربية وإيطاليا ، بسبب تقربه وتودده بأخر ملكة مقدونية السلالة ، بطلمية السياسة والطموحات ، وهى كليوباترا . ولعل روايات ديون كاسيوس[١٣٧] للحيل العديدة التى لجأ إليها أوكتافيوس للإيقاع بهما تؤكد أسلوب المكر والدهاء الذى احترفه هذا الداهية الرومانى الحاقد حتى على أقرب الناس إليه ، أنطونيوس ، رفيق السلاح وشريك السلطة العليا وزوج الأخت !!! كل ذلك بدافع من حرصه الشديد على الاستئثار بثروات مصر وأموالها التى " كان قد سمع عنها بأنها ضخمة " (كما يقول ديون) :

" e kai ta Khrémata, a pamplethé ekousen einai, ... "[١٣٨] .

كما تكفينا شهادة غربية أخرى ، لسنا نحن قائليها ، وهى لصاحبها John Leach ، الذى يُدين فيها خلفاء يوميى وجريهم ورا ، ذهب البطالمة فى مصر ، فيقول :

Pompey's followers in Rome may have been influenced more by Ptol-" emy's gold than by their leaders' wishes "[١٣٩] .

أما الناس والأحداث التى شغلت بال ديودوروس وفرضت عليه أمانته أن يصفهم ، بدقة ، لينقل حالهم وبعض عاداتهم إلى أصحاب القرار النهائى بشأنهم ، فقد احتال على الإشارة

إليها بطريقة مثلى ، وهى إحياء الوقائع فى نداء مباشر بلسان أحد الأنباط ، إلى المستعمر المهاجم ، وكأنه يريد أن يقول الشىء نفسه ، هو كذلك ، إلى أوكتافيوس ، سيده وراعيه ، ولكن شجاعته كانت قد خانته .

فما هى ، إذن ، هذه المضامين التاريخية والحضارية التى ضمنها ديودوروس فى نداته (لوحة رقم ١) ، كاشفًا عن إمكانات المكان ، وحياة السكان ، وخلاصة المهمة الاستطلاعية ، فى الاقتراح بأخذ الهدايا من أهلها ، عن تراض منهم ، دون الحاجة إلى احتلال بلدهم " البتراء " لفقرها الشديد كسكان للسكنى لاينفع للأجنبى .

وهنا سنعرض لهذه المضامين وفق مجيئها وورودها فى النص .

أولاً : يبدأ النداء أو الرسالة المفتوحة إلى الملك المقدونى المعاصر للأنباط بتأكيد يتعارف الناس جميعًا عليه ولا يختلفون فيه ، وهو أن الاعتداء غالبًا مايحدث ، من طرف على طرف أو من قبيلة على أخرى بسبب من الأسباب الآتية :

أ – طمعًا فى ماء الآخرين .

ب – أو حسدًا على ثرواتهم وما تغله أرضهم من حبوب ، أو كروم .

وعندئذ ، ينتقل النبطى – كما استنطقه ديودوروس – إلى عدم وجود هذه الأشياء ، "وحتى أقل شىء آخر يمكن أن يكون مفيدًا لكم " ، أى للأعداء ، وهكذا ينسف الحكيم النبطى أسباب العداوة والاعتداء ، التى يمكن أن تكون باعثًا على ذلك وجميعها ليس لدى الأنباط . ومن ثم يقع المعتدى فى حرج شديد !!! فلماذا إذن جاء غازيًا لبلادهم !!!؟ .

فهل أراد الكاتب هنا – أى ديودوروس – أن ينسب تاريخ المقدونيين القديم ويبرئ بعض اعتداءاتهم وسوءاتهم غير المبررة ، بدون منطق يحكمها !!!؟ أم أنه أراد أن يصرف[١٤٠] المخطط الرومانى الأكبر ، أوكتافيوس ، عن غزو الأنباط لفقر بلدهم ذاتها ، ويكتفى منهم بدفع الجزية والهدايا له ، كما انتهت تلك الرواية !!؟ .

الحق أننا ، هنا ، لانستطيع أن نجزم برأى واحد أو أن نتحاز إلى أحد التفسيرين ونغلبه على الآخر .

ثانيًا : التأكيد – الذى لايقبل أدنى شك – على استعداد الأنباط للتضحية بكل مرتخص وغال فى سبيل حريتهم ، التى لايمكن أن يفرطوا فيها بأى ثمن . هذا بعد أن نفى المتحدث

الحكيم – هكذا أراده ديودوروس أن يقول – إغراءات المكان ، من أى نوع ، للمعتدى الغازى ، فإنه ينتقل ، الآن ، مباشرة ، إلى موقف السكان ، الأنباط ، ومدى عشقهم لحريتهم واستعدادهم الدائم لعدم التفريط فيها ، مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

وهكذا تنغلق دائرة احتمالات نجاح الغزو والاعتداء ، وقد استحكمت حلقاتها تمامًا :

أ – فلا إغراء مادى للمكان .

ب – ولا تفريط من السكان .

ثم يضيف المتحدث ، حلقة أخرى ، ليجهز تمامًا على أى أمل يمكن أن يراود المعتدى فى الفوز بأية مكاسب من جراء إعتدائه على الأنباط ، وهو أنهم لن يقفوا مكتوفى الأيدى ، منتظرين نهاية مصيرهم على أيدى الغازى ، بل أنهم قد قروا فعلاً إلى مكان قفر ، بعيد مجهول ، فى الصحراء ، ليس به أى شىء مغرى للأجانب المعتدين .

ثالثًا : إعلاء منطق المعاملة بالمثل ، ولاضرر ولاضرار ، كمبدأ أخلاقى راقى ، كان يجب أن يسود علاقات الجوار . يلجأ إليه المتحدث ليبرز طمع المقدونيين وجشعهم فى ممتلكات جيرانهم فى الشرق القديم ، كخلفاء للإسكندر الأكبر ، وسرء سمعتهم بسبب حروبهم ، حتى بينهم وبين أنفسهم هم أبناء العنصر الواحد والأصل الواحد ، المقدونى[١٤٤] . فطالما أن الأنباط لم يصيبوا المقدونيين بأذى ولم يعتدوا عليهم ولم يكونوا البادئين بذلك ، فإنه بالمنطق السليم ، وإحقاقًا لمبدأ حسن الجوار والمعاملة بالمثل ، كان لايجب أن يعتدى المقدونيون عليهم . ولكن نسى المتحدث ، وكذلك تناسى الذى أنطقه بتلك الكلمات المؤرخ ديودوروس ، بأنه كان فى زمن القوة والجبروت وفرض السيادة وتحقيق أعلى المكاسب ، بكافة السبل ، حتى بين رفقاء السلاح بالأمس القريب !!! فكيف بالخلفاء (Diadochoi) الأجانب يرحمون العرب ، المقهورين فى المنطقة ، وهم ، أى المقدونيون ، لم يرحموا أنفسهم !!! .

رابعًا : كان المال ، ولايزال ، هو أنسب الوسائل لشراء النعم الضعيفة فى أصعب المواقف والأحوال . ولما كان هو أسرع مايمكن أن يكتسب فى هذه الدنيا ، فإنه كذلك أول مايمكن أن يتنازل عنه ، لإدراك الناس ، والتجار بصفة خاصة ، أنهم قادرون على الحصول عليه تارة أخرى . فها هو الحكيم النبطى يعرض الهدايا والمال على المعتدى المحاصر لعاصمتهم كى يسحب قواته ، ويرجع ، لأنه لن يستفيد منهم بشىء سوى هذا المال ، إذ لن يقدر على حصارهم طويلاً ، ولن يجبرهم على الإذعان والاستسلام التام له ، حتى ولو أسر البعض منهم.

خامسًا : التأكيد على أبرز خاصية للأنباط ، كملمح رئيسى لهؤلاء السكان العرب ، وهى عشقهم لحريتهم وتمسكهم بها ، مهما كانت التضحيات ، هذا من ناحية ، فضلاً عن حبهم وميلهم للسلم والمسالمة وعدم الاعتداء ، أو المبادرة به ، من ناحية أخرى . ولهذا فهم يعرضون على المقدونيين أن يكون أصدقاء لهم فى المستقبل ، وأن تتوطد عرى الصداقة بينهم على أساس من حسن الجوار وتبادل المصالح .

سادسًا : إدراك الأنباط التام بأنهم كيان ومجتمع ، له عاداته وتقاليده وأعرافه ، المرتبطة بطبيعة بلادهم ، ويختلفون كل الاختلاف عن الأجانب الغازين للشرق القديم ، الطامعين فى ثرواته . فالشرق شرق ، والغرب غرب ، وهيهات أن يلتقيا حقًا وصدقًا !!! وربما كان ديودوروس عامدًا متعمدًا قد قصد ذلك ، بدافع الاستعلاء وإرضاء العنجهية الرومانية ، المنتصرة دائمًا آنذاك ، ليؤكد لسادته وأولياء نعمته تفردهم وتعاليهم على شعوب العالم القديم ليرضى غرورهم .

وإذا جاز لنا أن نسجل هنا كلمة حق ، للتاريخ ، لا وليس من بنات أفكارها لفظة واحدة تعادل المنطق الغربى القديم " القوة هى الحق ") حول حضارة الأنباط بوجه عام [١٤٥] ، يمكننا أن نقول :

" لقد كان الأنباط أذكى جماعة عربية ، فى التاريخ القديم ، تعاملت مع كل المتغيرات الدولية فى منطقتها ، وسخرتها لصالحها ، ولعب دورًا خطيرًا بين المقدونيين السيليوكيين ، فى سوريا ، ورفاقهم البطالمة فى مصر ، ولكن بمجرد وصول الرومان إلى المنطقة وفرضهم الوصاية الإسمية عليها ، منذ عام ١٦٧ ق.م ، وضمهم للولاية العربية – Provincia Arabia – لتشمل سوريا كذلك بعد حملة بومبى عليها ، عام ٦٤ ق.م ، اختط الأنباط سياسة أخادية الولاء ، ولاسيما أنه لم يكن هناك – آنذاك – منافس للرومان فى حوض البحر المتوسط الشرقى " .

كما لايمكننا أن نتجاهل ، الآن أيضًا ، الاكتشافات الأثرية الحديثة من المواقع النبطية ، أو – على الأقل – الدراسات الجديدة لشهاب العرب الواعد فى تاريخ بلدهم القديم ، وبخاصة فى مجال النقوش [١٤٦] . وهكذا تكون البداية الحقة فى كتابة تاريخنا القديم بأيدينا وأقلامنا ، وكفانا نقلاً وترجمة عن علماء الغرب وفقط .

نتائج الدراسة :

أولاً : فيما يخص الجانب الجغرافي ، الهام جداً ، والمرقم الـ (١٤١) الواردة عنده (راجع خريطتنا رقم ١) ، لايمكننا إلا أن نناشد الزملاء الجغرافيين في البحث والتقصي حول تاريخية تلك المواقع . وهنا شهادة عيان نادرة لأقدم رحالة للمنطقة [١٤٤].

ثانيـًا : وفيما يخص الجانب البشري ، وعن إنسان الجزيرة بعامة مثل السبأيين ، وبقية الجماعات الأخرى الواردة في النص اليوناني ، ولاسيما أنه اعترف أنه قد سمع (historousi) وكما يقولون (os legousi) ، – كما جاء في شهادته حرفيًا – أيضًا يحتاج الأمر لمزيد من الحيطة والحذر ، ولايجب أن يُؤخذ كلامُه على علاته .

ثالثـًا : أما الوقائع التاريخية التي وردت عند ديودوروس ، فهي بالرغم من قلتها وعدم معاصرته هو شخصيًا ، لأحداثها – إلا أنها ذات مضمون سياسي واضح (كما أسلفنا) .

وهكذا ، وكأن الشئون السياسية وتاريخ الأنباط التفصيلي ، لايهم ديودوروس ولم يدخل في أجندة بعثته السرية لصالح أوكتافيوس أغسطس .

الهوامش :

١ – الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م ، ص ص ٥٥–٧١ ، وهو ضمن مجموعة الأبحاث المنشورة التي كانت قد قدمت للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في الفترة من ٥–١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣–٢٨ أبريل ١٩٧٧م ، بقسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ – " هيرودوت يتحدث عن العرب وبلادهم " ، العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الأول (١٩٧٨) ، ص ص ٧ – ٢٢ .

٣ – The Oxford Classical Dictionary. 2nd edition, Oxford 1970 (Rep.1972) p. 347, s.v. – Diodorus Siculus .

وهي عبارة عن تاريخ للعالم القديم في (٤٠) كتابًا ، منذ أقدم العصور حتى حروب يوليوس قيصر عام ٥٤ ق.م .

٤ – عن مكانة هيرودوت التاريخية (٤٨٠ – ٤٢٥ ق.م) ، بشكل عام ، راجع :

Usher, S., The Historians of Greece and Rome. Great Britain 1969 (paperback 1970), pp. 1-2 .

هذا بالإضافة إلى دراسة وافية عنه عند الأستاذ الدكتور / سيد الناصري ، الإغريق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ص ٣٠١ – ٣١٥ .

كذلك انظر الموسوعة الكلاسيكية السابقة :

The Oxford Classical Dictionary. s.v. Herodotus. pp. 507-509 .

وكذلك راجع : اسحق عبيد ، معرفة الماضي (من هيرودوت حتى توينبي) ، القاهرة ١٩٨١ .

٥ – وعن ثيوكيديديس (Thoukydides) (٤٧٠ – ٣٩٦ ق.م) ، راجع : O.C.D., s.v. Thucydides, pp 1067-1070 ؛ وكذلك Usher, op. it., pp. ؛ ثم أخيرًا انظر ، سيد الناصري ، المرجع السابق ، ص ص ٣١٩ – ٣٢٤ .

٦ – لمعلومات موجزة حول هذا المؤرخ ومكانته العلمية البارزة في الكتابة المنهجية التاريخية ، راجع : محمود السعدني ، معالم تاريخ روما القديم ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٢٦ – ٢٩ ؛ ولكن لمزيد من التفاصيل والتعليق النقدي لمنهجه وأسلوبه راجع أفضل دراسة حول بوليبيوس ، حتى الآن لصاحبها :

Walbank, F.W., A Historical Commentary on Polybius. 1957 & O.C.D., op. cit., s.v. Polybius, pp. 83-854 .

٧ – حول فلسفة السلام الرومانى (Pax Romana) بصفة عامة ، كما وضعها صاحبها المواطن الأول (Princeps) و " أبو الوطن " (Pater Patriae) الإمبراطور أوجوستوس (Augustus) ، راجع : محمود السعدنى ، المرجع السابق ، ص ص ١٤٨ – ١٥٤ ، وحول سياسات أوجوستوس الخادعة لاحتكار ثروات مصر دون بقية القادة الرومان الآخرين ، وكذب إدعائه فى " أعماله المجيدة " (Res Gestae) ، حول وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، بصفة خاصة ، راجع : محمود السعدنى "Egypt as a Provincial Romain : A Re consideration in Dio's Narrative" بحث مقدم إلى الندوة العلمية الثانية للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية بالتعاون مع المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة (٦–٩ فبراير ١٩٨٩) .

٨ – حول كل ملابسات تلك الحملة الهامة فى التاريخ العربى القديم ، أسبابها ونتائجها فى ضوء نصوص شاهد العيان سترابون مؤرخ الحملة راجع :

أ – عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، بيروت ١٩٧٨ .

ب – حسين الشيخ " حملة أيليوس جالوس على اليمن " ، الندوة العلمية الثانية للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ، القاهرة ١٩٨٩ ، بالتعاون مع المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة .

جـ – لطفى عبد الوهاب ، العرب فى العصور القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ .

٩ – حول تلك القضية التأريخية المحيرة ، وأسبابها ، ودوافعها ، كما يراها المؤلف ، راجع :

أ – محمود السعدنى ، " الاسكندر الأكبر فى المصادر الشرقية : مشكلة تأريخية ، بحث مقدم إلى ندوة قسم التاريخ ، بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، (٢–٤ أبريل ١٩٨٩) ، وقام بنشره المؤلف بالمنيا ، ١٩٩٠ .

ب – محمود السعدنى ، قبر الاسكندر الأكبر : احتمالات موقعه وشكله ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٥ – ٧ .

١٠ – لطفى عبد الوهاب (الذى ضمن بحثه السابق فى كتابه الجديد) العرب فى العصور القديمة : مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ (الطبعة الثانية) ص ص ١٩٦ – ٢٠١ ، ولقد حاولنا ، للأمانة ، أن نستخدم الألفاظ ذاتها تقريبًا ، تلك التى جاءت عند صاحبها المؤلف .

١١ – المرجع نفسه ، ص ١٩٩ .

١٢ – هيرودوت ، الكتاب الثالث ، فقرة ١٠٧ .

١٣ – المصدر نفسه ، فقرة ١١٣ .

١٤ – لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ؛ وكذلك مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ص ١٢ – ١٦ .

١٥ – لعل فى وصف القرآن العظيم (فى سورة النحل ، ٨٠ – ٨١) أبلغ الحديث عن أنعم الله على عرب الجزيرة الذين – كما جاء فى تلك الآيتين الكريمتين :

١ – اتخذوا من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة ينتقلونها حيثما يشاءون .

٢ – واتخذوا من الصوف والوبر والشعر أثاثًا ومتاعًا لهم إلى حين .

٣ – واتخذوا من الأشجار ، الظليلة فى الواحات ، ظلالاً طبيعية يستريحون تحتها فى طريقهم الطويل الشاق .

٤ – كما اتخذوا من مغارات الجبال وكهوفها أكنانًا وبيوتًا مؤقتة .

٥ – وصنعوا ، لأنفسهم ، سرابيل تقيهم الحر وأخرى تقيهم الطعن والضرب ضد أسلحة الأعداء " ... كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " .

وتكتمل الصورة بالاطلاع على آيات (٦–١٦) من السورة ذاتها حول الخيل والبغال والحمير والأمطار والثمرات والبحر والفلك والنجوم .

١٦ – فارون مهارة السيئين ، فى ذلك ، كما جاء عند ثيوفراستوس ، فى النصين الثالث والرابع .

١٧ – حول جغرافية الجزيرة القديمة والحديثة ، راجع : محمود طه أبو العلا ، جغرافية شبه الجزيرة العربية ، الجزء الأول (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ص ٧ – ٤٥) .

١٨ – سيقوم الباحث ، هنا ، بنطق المفردات اليونانية وفقًا لقواعد النطق اليونانى الحديث تيسيرًا وتبسيطًا لتلك المسميات الصعبة ، أصلاً ، على اللسان العربى وتفاديًا لإطالة نطق الدبثونج (الحرفين المتحركين المكونين لمقطع واحد) .

١٩ – Oldfather, C.H., Diodorus of Sicily, vol. II, book III : 41 , 2-4 (Loeb-Classical Library) , Cambridge, Massachusetts-Harvard University Press, London 1953 .

٢٠ – Ibid., III : 42 , 1 .

٢١ – يذكر الناشر لهذا النص ، وهو Oldfather ، أن هذه المدينة هى ، الآن ، مدينة وادى محمد ، فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٩ ، هامش (٢) ، مما يعنى أن أى ديودوروس ، كان يقصد بالساحل الواحة ، الانتقال من خليج السويس ، غربًا إلى خليج العقبة شرقًا .

٢٢ – CF , O.C.D., s.v. Poseidon .

٢٣ – الترجمة الإنجليزية ليست دقيقة إذ تعتبر كلمة (Bomos) معبدًا ، ولكنه ليس أكثر من مذبح لتكريم الإله ، وتقديم القرابين له ، ذلك لأن الكلمات اليونانية التعبدية الدالة على المعبد أو المكان المقدس للعبادة ، كثيرة وكانت معروفة آنذاك ، مثل "Naus" و "Temenos" ، والكاتب هنا – أى ديودوروس – يعرف تمامًا الفرق بينهما وبين تلك المذبحية الصغيرة ، أى المذبح ، وبذلك فقد عناها هى فقط دون القصد ببناء معبد كامل .

٢٤ – هذه الكلمة " Kalaskope " ، تحمل ضمن معانيها التجسس ومعرفة الأخبار ، بطريقة سرية ، وهو المعنى الشائع إلى يومنا هذا في اليونانية ، راجع : Liddle-Scott : Greek English Dictionary, ; راجع : nternmediine .

٢٥ – Diodorus, op. cit., III : 42 , 1-2 .

٢٦ – إن اسم شجرة البلح ، باليونانية ، هو " Foinikia " ، أي " النخلة " ، ويبدو أن ديودوروس ، لم يكن يعرف اسمها المحلي ، بلغة أهلها ، ولا وجده عند سابقيه من مصادر أخباره ، فسماه ، باليونانية ، كمعادل موضوعي ، لأهم ميزة لها المكان الساحلي (Paradaintios) على شاطئ البحر .

٢٧ – يستخدم ديودوروس لفظة " خورا : "Khora" ، التي تعني اليوم " بلد أو وطن " ، بمعنى " الإقليم " الذي هو موضوع الحديث ، أي إقليم تلك الواحة وتلك المدينة السابقة الذكر ، " يوسيذيون " .

٢٨ – Op. cit., III : 42 , 3 .

٢٩ – العرب ، بالنسبة لديودوروس هم أجانب ، وكانت العادة ، منذ العصر الكلاسيكي (أي / منذ مطلع القرن الخامس ق.م) قد جرت بأن يطلق اليونانيون اسم " البرابرة : "Barbaroi" على كل من عداهم ، من الأجانب .

٣٠ – Op. cit., III : 4. 3 .

٣١ – Ibid., 42 , 5 .

٣٢ – يستخدم النص كلمة " Zoe " ، أي حيوانات وليس " onta " أي (كائنات) ، ولكننا فضلنا ، من أجل صياغة عربية أسلم ، ترجمتها إلى كائنات .

٣٣ – Op. it., III : 42 , 5 .

٣٤ – Ibid.. " .. hose thaumazein tous idontas " .

٣٥ – Ibid .

٣٦ – يذكر Oldfather ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ ، هامش (٤) ، بأن الشارح Vogel قد حذف هذه اللفظة من مكانها في النص بعد كلمة " فلسطين " (Palaistine) ، بينما وضعها من سالماسيوس (Salmasius) وبيكر (Bekker) وكذلك ندروف (Dindorf) بعد كلمة " البتراء " (Petran) ، في النص ، على أساس أن البتراء ، فعلاً ، هي جزء جغرافي أصيل من امتداد الجزيرة العربية في شمالها الغربي ، بينما فلسطين جزء من سوريا القديمة . ولكننا نرى أن الكاتبين ، سواء فلسطين أو البتراء كانا (حسب الامتداد الطبيعي بفصلهما لتضاريس الجزيرة القديم ، وقبل التقسيمات السياسية الحديثة) كل لايتجزأ ولا تحده حدود طبيعية بفصلهما عن بقية بادية الشام ، كما عرفناها ، من بعد ذلك في التاريخ الجاهلي ومن بعده الإسلامي ، وحتى أقصى الشمال وصولاً إلى جنوب دمشق ، في

حوران ، بدليل العثور ، فيها ، على نصوص عربية قديمة ، مثل نص : أم الجمال الأول والثاني ، منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين .

وإذا نظرنا إلى أحدث الاكتشافات الأثرية في شمال غرب الجزيرة ، وبالتحديد في منطقتي " تيماء " و " قرية " ، منطقتي يوجود فخار ملون (Painted ware) ، معاصر للفخار المعروف باسم " الفخار الفيليستي " (Philistine Pottery) وهو الذي يؤرخ بالقرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م (حوالي ١٣٠٠ – ١٥٠٠ ق.م) تقريبًا ، وهي الفترة الزمنية التي كان فيها أهل مدين (Midianites) في قمة نشاطهم في تلك المنطقة ، كما تؤكد ذلك المصادر التراثية . وهذا هو ما جعل بيتر بار (P. Parr) يطلق اسم " فخار مدين " على ذلك النوع المكتشف من شمال غرب الجزيرة راجع :

Parr, P. , " Archaeological Sources for the early history of North-West Arabia", Sources forthe History of Arabia. Vol. 1, Part 1 , Riyadh, University of Riyadh press 1399-1979. p. 39 .

٣٧ – محمد عبده طه أبو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الجزء الأول (الطبعة الثالثة) القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٤٠ .

٣٨ – Op. it., p. 213, f.n. 1 .

٣٩ – عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، " لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية " ، الدارة ، العدد الأول ، (السنة الأولى) ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥ ، ص ص ٧٩ – ٨١ ؛ وكذلك فاطمة علي باخشوين ، الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الرياض ١٤١٤ – ١٩٩٣ ، ص ص ٨ – ٩ .

٤٠ – فاطمة علي باخشوين ، المرجع السابق ، ص ٩ ، حيث أحدث المراجع والمقالات .

وهناك كذلك دراسات شاملة لتاريخ وحضارة هذا الشعب العربي ، عند :

أ – لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ص

ب – أحمد أرحيم هيو ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، حلب (١٩٩١) ،

٤١ – Op. it., III : 43 , 4 .

٤٢ – Ibid .

٤٣ – لم يحدد النص بكلمة " بعد " (meta) ، أين بالتحديد جغرافيا ، ولكنه – على الأرجح – هو اتجاه صوب الجنوب بحثا ، الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، أي في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية ، وربما قصد بها منطقة (الحرية القديمة) ؟ .

٤٤ – Op. it., III : 43. 6-7 .

٤٥ - Ibid., 44, 1 .

٤٦ - Ibid .

٤٧ - الاستاديوس (Stadios) ، معيار مساحي للمسافات ، عند اليونانيين القدماء ، وهو مأخوذ من مسافة الاستديون (Stadion) ، الرياضي ، لسباق الجري ، وعربات سباق الخيل ، وكان عادةً مايتراوح ما بين ١٨٠ - ٢٠٠ ياردة طولاً (O.C.D., op. cit., p. 1010) ، أي حوالي مائة متر تقريبًا ، وبالتالي فإن طول ها الخليج يمكن أن يكون - حسب رواية ديودوروس - حوالي ٢٠ ك.م (١٤) .

٤٨ - Diodorus, III : 44, 1 .

٤٩ - Ibid.

٥٠ - Ibid.

٥١ - Ibid.

٥٢ - Ibid., (III: 44, 2.) .

٥٣ - Diodorus, III : 44, 3 .

٥٤ - Ibid., 44, 4.

ويبدو أن المؤلف لم يعمم كلامه عن كل الساحل الغربي للجزيرة ، على البحر الأحمر ، ولكنه يكتفي بوصف الجزء الذي رآه هو بعينيه وصفًا دقيقًا جداً .

٥٥ - هنا استخدم المؤلف ، الرحالة ، لفظة أخرى ، للدلالة على الساحل ، غير التي كان يستخدمها في السابق (Paralios) ، وهما مترادفان في اللغة اليونانية القديمة ، وحتى يومنا هذا ، في اللغة الحديثة ، مع اختلاف طفيف في إعراب الكلمة :

أ - فأصبحت الأولى مؤنثة تأنيثًا كاملاً ، أداة ونهاية ، أي paralia بدلاً من القديم (-par e allos).

ب - وظلت الثانية ، كما هي إملاءً وحروفًا ، ولكنها ، ومايتبعها ، تخضعان للقواعد النحوية الجديدة ، مثل حذف القابل (dolike plose) وعدم نطق أو كتابة حرف (n) في حالة المفعول به (ditialike plose) .

٥٦ - Diodorus, III : 44, 4 .

٥٧ - Ibid.

٥٨ - Ibid.

٥٩ - Ibid.

٦٠ - Ibid.

٦١ - Ibid.

٦٢ - Ibid., 6 .

٦٣ - والغريب أنه يصف لون هذه الكثبان الرملية بأنه أسود ! (melales ton Khroun) .

٦٤ - Ibid., 7 .

٦٥ - Ibid .

٦٦ - يذكر النص اليوناني كلمة (diplethron) ، أي حوالي (٨٠) متراً ، لأن البليثرون (plethron) الواحد يساوي حوالي (٤٠) متراً .

٦٧ - Diodorus, III : 44, 8.

٦٨ - Ibid .

٦٩ - Ibid .

٧٠ - ما أشبهها اليوم بسفينة التجارب الأوربية البحرية الخاصة ، ذات الشهرة العالمية ، في البحار والمحيطات ، والمعروفة باسم : " Costa " ، مع فارق التكنولوجيا ، ومصادر التمويل !!! .

٧١ - Diodorus, III : 45 , 1-2 .

٧٢ - شيء شبيه بذلك وقع لي شخصيًا ، في طريق عودتي من تأديتي لفريضة الحج ، لأول مرة بالبر ، من مكة إلى الرياض طريق الطائف ، في ظهر يوم الخميس (١٤١٣/١٢/١٣ هـ الموافق ١٩٩٣/٦/٣م) عندما لحقت ، من على مسافة أكثر من ٤ ك.م ، مجموعة من المرتفعات والتلال التي ، أعطتها زاوية طريقنا إليها ، وسقوط أشعة الشمس عليها ، شكل الأهرامات الثلاثة ، فتبهت زملائي ورفاقي إلى ذلك ، ولكنه سرعان ما وصلنا إلى المنطقة ذاتها وكان شتان بين صورتها ، من بعد ، وواقعها القريب أمامنا .

٧٣ - ليس هناك في العربية كلمة (أو ربما ، بالأحرى ، تغيب عني الكلمة العربية التي) تساوي وترادف الكلمة اليونانية (kroeeion) غير هذه التي أتيت بها ، وهي لسان ممتد من البر (الشاطيء) يدخل في الماء لمسافة ما .

٧٤ - Diodorus, III : 51 , 2 .

٧٥ - Ibid .

٧٦ - لما كان حرف " الخاء " صعبًا على اليونانيين في نطقه ، كما هو الحال مع العين والقين والشين ، وغيرها ، فنرجح أن تلفت نظر الفارسين إلى إمكانية أن تكون تلك " الشاء " التي أول ها الاسم ، هي " حاء " أو حتى " هاء " فكلاهما بنطقة اليوناني - إلى يومنا هذا - خاء " ، فضلاً عن ضرورة حذف

النهاية اليونانية للاسم ، وهي هنا (os ----) ، وبالتالي يمكن أن يكون مسمى ها الشل ، في العربية، إما : " حابين " ، أو " هابين " ، برخالة " الهاء " أو " الهاء " ومدها بالألف أو حتى تضعيفها .

٧٧ - Diodorus, op. cit., 4 . هذا وإن كانت مراجعنا الإسلامية تختلف اختلافاً بيّناً في نطق الاسم بالضاد أو الظاء ، ويؤرخ لها أقدم تلك المراجع ، من القرن الثالث الهجري ، بوجودها على هيئة "ظبا".

واجع لمزيد من التفاصيل اللغوية وتحرير الاسم عبر العصور ، محمد محمود محمدين ، أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية (دراسة في الدلالة وأنماط الاشتقاق) ، الرياض (الطبعة الأولى) ١٤١٣ - ١٩٩٢ ، ص ص ١١٠ - ١١١ .

٧٨ - Ibid , 5.

٧٩ - لهذه الإشارة الأخيرة لوجود نمل عملاق ، في تلك المنطقة منذ ذلك الوقت ، مطلع النصف الثاني من القرن الأول ق.م أهمية تاريخية عظيمة - إذ لا نسمع عنهم إلا مع الروم البيزنطيين ، في منتصف القرن السادس الميلادي ، واختلاف المؤرخون في عدد ملوكهم وسنوات حكمهم ، ستفرد لها حديثاً لاحقاً مع بقية معلومات ديودوروس التاريخية . ؛ وحول النعامة ، راجع ، مثلاً : عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٧٧ - ١٨٢ .

٨٠ - Diodorus, III : 45. 6 ; (ouk empyros) .

٨١ - Ibid., " e te khora pamforos esti... " .

٨٢ - Ibid,

٨٣ - Ibid., 6. " ... tou de Khryson ... polyn ... apyron.

٨٤ - Ibid., II, 46 : 1 .

٨٥ - كترجمة منهم للاصطلاح اليوناني الأقدم وهو "Arabia Eudaimon" ، للسعيدي نفسه ، ولكن بلفتهم اللاتينية .

٨٦ - راجع / أحمد هبو ، تاريخ العرب القديم قبل الإسلام ، حلب ١٩٩١ ، ص ص ١٠١ - ١٠٣ ؛ حيث يعتقد أن مملكة بلقيس لابد أنها كانت إحدى الممالك العربية الجنوبية المقيمة في شمال الجزيرة باسم " سبأ " ، أي تيمناً باسم أهل جنسهم القديم ، في الجنوب العربي .

٨٧ - Diodorus, op. cit., 46 : 1 .

٨٨ - Ibid .

٨٩ - Ibid.

٩٠ - وحول هذا العشب الأخير ، ذي الطبيعة الخاصة أضاف ديودوروس بأنه نبات مسهج للعين عند رأيته، حيّاً ، ولكنه عندما يحفظ لبعض الوقت فإنه يقبل في الحال ، وتكون نهايته .

٩١ - Ibid, III, 46 , 3-4 .

وهنا يؤكد ، أيضاً ، على استحالة حصر كل أنواع تلك الأشجار وتعداد خصائصها ، وذلك بسبب ضخامة عددها ، من ناحية ، ولتنوعها ، الغير عادي ، بالرائحة الذكية (العبير) التي تطلقها كل منها . ويحصل به الإعجاب بهذه الروائح جداً لدرجة وصفها بأنها " من عند الله (theia) ، أي (رائحة ربانية) تقتحم الأنوف وتحرك مشاعر كل إنسان .

٩٢ - Ibid., III, 46 : 4-5 .

٩٣ - تلك التواريخ التي أسماها : المكتبة التاريخية (Bibliotheke) ، في حوالي مطلع النصف الثاني من القرن الأول ق.م . ولد في صقلية عام ٩٠ ق.م تقريباً ، وزار مصر رشمال الجزيرة العربية .

٩٤ - Theophrastus. Enquiry into plants. (Lock classical library). Great Britain 1916 (Rep. 1968). IV : II. 10-VII: 1 .

٩٥ - لطفي عبد الوهاب . العرب في العصور القديمة ، الإسكندرية (د.ت) .

٩٦ - Op. cit., IV : vii, 8 .

٩٧ - Diod., III: 43. 4 .

٩٨ - وهو خليج العقبة الآن . الفرع الأيمن لذراعي البحر الأحمر الشماليين ... الذراع اليسرى هي خليج السويس ، ضمن الأراضي المصرية ، راجع / سترابون كذلك Strabo, XVI : 4.18.

٩٩ - Diod., op. cit., (III: 43-4) .

١٠٠ - Ibid .

١٠١ - ونقصد بأولئك أسياد المنطقة الرسميين ، وهم الرومان ، الذين كانوا قد فرضوا أنفسهم على الشرق كله بالقوة وتظلموه وفق مصالحهم ، منذ ٦٧ - ٦٤ ق.م ، راجع السعدني ، حضارة الرومان ، القاهرة ١٩٩٨ ، الطبعة الأولى - عين للدراسات والبحوث ، ص ص ١٠٩ - ١١٢ .

١٠٢ - Ibid., 6-7 .

١٠٣ - Ibid., " ... meta ton agathon diklonai ta Blaptonta " .

١٠٤ - Ibid., 44 : 3 .

١٠٥ - Ibid., (III: 44.5) .

١٠٦ - Ibid., 45 : 5 .

١٠٧ - Ibid., 45 -6 .

١٠٨ - Ibid., (III: 46-1): " ... Sabaioi polyanthropotatoi ton Arabikon ethnon eisin".

١٠٩ - هذا باللغة اليونانية القديمة ، أما باللاتينية - كما سماها الرومان - فهي : " Arabia Felix " .

Ibid .

١١٠ -

Ibid., (III: 46, 3-5; 47:1-7) .

١١١ -

Cf. Herodotus, III : 4-9 & Strabo, VXI: 4, 26 & Diodorus, II : 438 .

١١٢ -

وهو الغزو الذي فاجأته ريح صرصر عاتية فقطعت قوائم جميعًا الرمال ، وقبرتهم تحتها ولايعلم أحد ، إلا الله ، مصيرهم حتى اليوم !!! .

Diod., XIX : 94,2 .

١١٣ -

Ibid.

١١٤ -

Ibid., (XIX : 94-3) .

١١٥ -

Ibid.

١١٦ -

١١٧ - يقصد ، من يقوم بهذه الأنشطة من زراعة وبناء وشرب خمر .

XIX : 94, 4.

١١٨ -

The Nabateans : Their History, Culture and Archaeology. Oriental studies Institute. University of Chicago, Nov, 1976 (A report written by Jamal Sirag-Ali, Chicago, p. 68 .

١١٩ -

Op. cit., (XIX : 94, 4) .

١٢٠ -

Ibid .

١٢١ -

III : 43 , 4 .

١٢٢ -

Ibid., (XIX: 94, 5.) .

١٢٣ -

١٢٤ - III : 48, 5 ؛ حيث أشار إلى أن الملوك الآشوريين والكلدانيين والفرس كانوا يرسلون قوات مهاجمة كبيرة - دون جدوى - ضد هؤلاء العرب .

XIX : 94, 6 .

١٢٥ -

Ibid .

١٢٦ -

Ibid .

١٢٧ -

XIX : 94, 7-8 .

١٢٨ -

Ibid , 8.

١٢٩ -

١٣٠ - وهي نطق عربي حرفي ، مع إضافة الهمزة في آخر الكلمة ، للأصل اليوناني لها ، بحروفها نفسها (Petra) وتعني : صخرة ، أو حجر .

١٣١ - يذكر النص كلمة (Theriode) بمعنى : " متوحش " ، أو " أشبه بالوحوش " صفة للحياة التي كانوا يعيشونها ، تعبيراً عن التقشف والبدائية الشديدة في مظاهر تلك الحياة ، مقارنة بالطبع ، بما كان عليه الحال في مراكز الحضر ، والعمران الأجنبية .

١٣٢ - الترجمة الحرفية للنص ، هنا ، هي : " في الزمن القادم الباقي " ، أي (مستقبلاً) لأننا لانعرف ، ولم يوضح المؤرخ " الزمن الباقي " من !!! هل من عهد أبيه أم من عهده هو ؟

١٣٣ - حرفياً [" في داخل " أو بين "] طرائق الحياة غريبة عليهم غير التي تعودوها .

١٣٤ - The Oxford Classical Dictionary (at the clarendon press) , 1970. s.v. Diodorus (3) Siculus, p. 347 .

١٣٥ - El Sandaby, M. " Egypt as a ' Provincia Romana', a Reconsideration in Dio's Narrative". II International Congress of Graeco-Roman Society, Cairo: 4-9 Feb. 1989, with cooperation of the Italian Institute in Cairo .

١٣٦ - هذه هي التسمية الأصوب ، اليونانية ، لأنه موقع يوناني على الساحل الغربي لهذا البلد ؛ وإن كانت التسمية اللاتينية (اكتيوم : Actium) هي التي سادت وانتشرت في المراجع العربية والأوربية .

١٣٧ - Cary, E. Dio's Roman History, LI. 6:6 Loeb Classical Library, vol. VI (1960) .

١٣٨ - Ibid , 8:5-6

١٣٩ - Bonapey the Great. London 1978, p. 139 .

١٤٠ - والمأساة الشبيهة بحالتنا كانت Dio Cassius Roman History, II: 1-2 كما فعل أجريبا ، من بعد ذلك ، عندما أراد أن يصرف الإمبراطور نفسه ، فيما بين عامي ٣٠ - ٢٧ ق.م عن السلطات العسكرية المطلقة دوماً لحسد وحقد القادة العسكريين الآخرين الطامعين في السلطة المطلقة ، راجع / السعدني : معالم تاريخ روما القديم ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ص ١٤٢ - ١٤٤ .

١٤١ - حرك طروف وملابسات وأسباب الصراع الدامي بين المملكتين المقدونيتين الجارتين البطلمية والسيليوكية ، راجع مثلاً : محمود السعدني ، " تاريخ الصراع بين المملكتين البطلمية والسيليوكية منذ بدايته وحتى عام ١٦٨ ق.م " دورية دراسات في علم الآثار والتراث ، صادرة عن الجمعية السعودية للدراسات الأثرية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م (تحت الطبع) - الرياض .

١٤٢ - في أحدث دراسة ، باللغة العربية حول الأنباط ، حضارتهم وسياساتهم الداخلية والخارجية ، وعلاقتهم بمصر البطلمية على وجه الخصوص ، راجع / مها عبد العزيز البديع ، الأنباط وعلاقاتهم

مصر في العصرين الهيللينستي والروماني (٣١٢ ق.م - ٦٠٠م) ، رسالة ماجستير غير منشورة(٤)، كلية الآداب للبنات ، بالرياض ، السعودية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م .

١٤٣ - سليمان عبد الرحمن الذييب ، " دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجوف بالمملكة العربية السعودية " ، مجلة جامعة الملك سعود ، المجلد السادس (الآداب /١) ص ص ١٥١ - ١٩٤ ، عام ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

ولهذا الباحث الجاد في آثار الأنباط ، راجع أيضًا :

" Two New Dated Nabataean Inscriptions from Al-Jawf", Journal of Semitic Studies, XXXIX/2 (1994)pp. 33-40 .

حيث يناقش في هامشه رقم (١٤١) مشكلة تاريخ نهاية دولة الأنباط ، ويضيف إلى نقش السلامة بوستن (Bouston) الذي يؤرخ بعام ١١٢م ، بردية من قرية كرانيس (Kranis) المصرية (في الفيوم) تؤرخ بـ ٢٦ مارس ٧٠م ، لجندي روماني (؟) يسمى بوليبيوس ، كان يعمل في الفرقة الثالثة الرومانية (Legio III) في إقليم أرابيا (الولاية العربية) وأرسلها إلى والده في مصر .

١٤٤ - لأن هيرودوت لم يقم بزيارة لتلك المنطقة ، تحديدًا ، أي / شمال غرب الجزيرة ، إذ كان ، فقط ، قد أعلن - ودون أن يفي بوعده - أنه سيزور سوبرتاميا (العراق القديم) وسيكتب عنها ويحكي عنها في رحلة تالية لزيارته لمصر ، ولذلك جاء حديثه عن الـ " Arabia " عامًا وشاملاً ودونما تحديد.

المصادر والمراجع

أولاً : مصادر البحث الأجنبية حسب ورودها في المتن :

١ - ديودوروس . Diodorus

٢ - ثوكيديديس Thoukydides

٣ - بوليبيوس . Polybius

٤ - هيرودوت Herodotus

٥ - أجاثارخيديس Agatharkhides

٦ - سترابون Strabo

٧ - ثيوفراستوس Theophrastus

ثانيًا : مصادر البحث العربية :

- القرآن الكريم .

- النقوش النبطية .

ثالثًا : المراجع (حسب ورودها في المتن) :

أ - المراجع العربية :

لطفي عبد الوهاب : " الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية " دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ، ١٩٧٩ .

مصطفى كمال عبد العليم : " هيرودوت يتحدث عن العرب وبلادهم " ، العصور (المجلد الثاني) ، الجزء الأول ، ١٩٧ .

سيد أحمد علي الناصري : " الإغريق (الطبعة الثانية) ، القاهرة ١٩٨٥ .

إسحق عبيد : " معرفة الماضي (من هيرودوت حتى توينبي) ، القاهرة ١٩٨١ .

محمود إبراهيم السعدني : " معالم تاريخ روما القديم ، القاهرة ١٩٩٦ .

عبد اللطيف أحمد علي : " مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، بيروت ١٩٧٨ .

حسين الشيخ : " حملة أبليوس جالوس على اليمن " الندوة العلمية الثانية للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ، القاهرة ١٩٨٩ .

لطفي عبد الوهاب : " العرب في العصور القديمة ، الإسكندرية ١٩٩٠ .

محمود إبراهيم السعدني : " قبر الإسكندر الأكبر : احتمالات موقعه وشكله ، القاهرة ١٩٩١ .

محمود إبراهيم السعدني : " الإسكندر الأكبر في المصادر الشرقية : مشكلة تاريخية " ندوة قسم التاريخ (العرب وآسيا) ، بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٨٩ .

محمود طه أبو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الجزء الأول (الطبعة الثالثة) ، القاهرة ١٩٨٨ .

عبد الرحمن الطيب الأنصاري : " لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية " الدارة ، العدد الأول (السنة الأولى) ١٣٩٥ - ١٩٧٥ .

فاطمة علي باخشوين : " الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الرياض ، ١٤١٣ - ١٩٩٣ .

مها عبد العزيز البديع : " الأنباط وعلاقتهم بمصر في العصرين الهيللينستي والروماني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الرياض ١٤١٦ - ١٩٩٥ .

أحمد أرحيم هبو : " تاريخ العرب قبل الإسلام ، حلب ١٩٩١ .

سليمان الذييب : " دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجرف بالمملكة العربية السعودية " ، مجلة جامعة الملك سعود ، المجلد السادس ١٤١٤ - ١٩٩٤ .

ب - المراجع الأجنبية :

1 - The Oxford Classical Dictionary, (2nd edition) Oxford 1970, (Rep. 1972) .

2 - Usher, S., Historians of Greece and Rome, Great Britain 1969 .

3 - Walbank, F. W., " The Date of The Regulations for Melos" , American Journal of Philology, XCII (1971) .

5 - Tarn, W. W., Hellenistic Civilisation (Revised by the author and G.T. Griffith) U.S.A. 1961 (Rep. 1974) .

6 - Olmstead, " Oriental Tales and Romances" , Chap. XXII in his book: History of the Persian Empire, Chicago 1951 .

7 - Liddle-Scott, Greek-English Dictionary (Intermediate), London.

8 - Parr, p., " Archaeological Sources for the early history of North-West Arabia. " Sources for the History of Arabia, Vol. I, part I, Riyadh 1399-1979 .

9 - Hammond, Ph., The Nabataeans " Their History, Culture and Archaeology, Oriental Studies Institue, University of Chicago 1976 .

10 - El Saadani, M., " Egypt as a ' Provincia Romana ' A Re-oConsideration in dio's Narrative", IInd International Congress of Greco-Roman Society, Cairo 1989 .

11 - Cary, E., Dio's Roman History, L.C.L., Vol. VI (1960) .

12 - Solaiman Al-Theeb, "Twwo new dated Nabataean Inscriptions from Al-Jawf", Journal of Semitic studies, XXXIX/1 1994 .

13 - Leach, J., Pompey the Great, London 1978 .

خريطة (١)

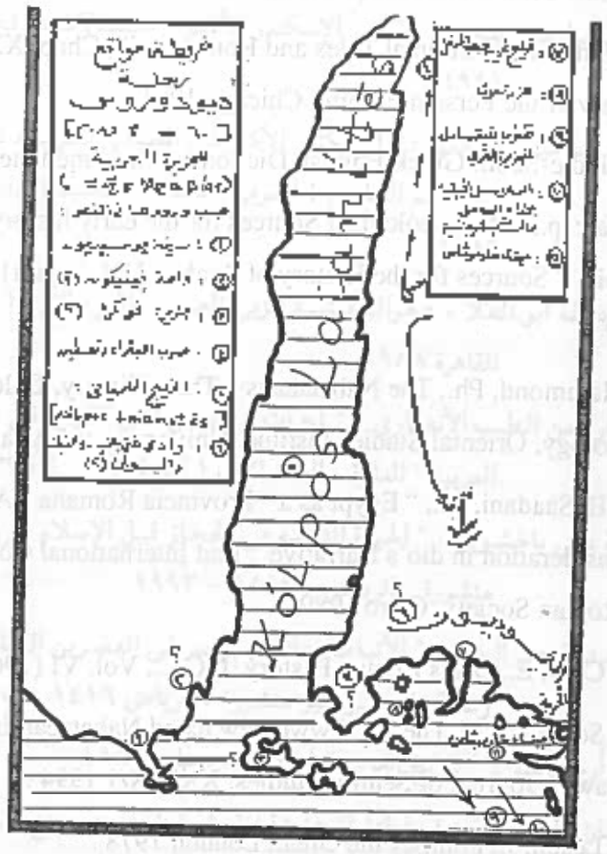

عمل الباحث د. محمود السعدني

أ . الطاهر ذراع(*)

أضواء على مصادر البحث التاريخي عند العرب القدماء

يعالج هذا البحث قضية هامة من قضايا البحث التاريخي عند العرب ، وهو الموضوع الذي يتطلب التجديد والتنويع على الدوام ولتسليط الضوء على المزيد من المصادر الإضافية في المنطقة العربية ، سواء كانت أساسية أو ثانوية .

وقد تكون هذه المصادر :

وثائق مكتوبة ، شهادات حية ، روايات متواترة بالسماع ، أدب محفوظ في الذاكرة الشعبية ، رسومات هادفة ، تماثيل منحوتة ، بنايات منظمة ، مقابر مخططة أو غير مخططة ، قصور مشيدة ، أبراج معبرة ، سدود متطورة وأسوار موسعة ، وغير ذلك مما يضيف لبنة جديدة في صرح الحضارة العربية في العصور العتيقة .

ونحن لاندعي أننا سنحيط بكل أنواع المصادر العربية القديمة في هذا البحث ، وإنما سنحاول أن نضفي عليه حيوية متجددة ، وأسلوبًا مبسطًا لتقريب الصورة واضحة جلية من ذهن القارئ العربي ، الذي يعمل على الدوام لبناء مستقبله على أسس حضارية متطورة ، لايفقد فيها أصالته العربية ولايتخلف عن أساليب المنهج الحديث في ترقية الأمة وتقديم المجتمع .

* - قسم التاريخ - معهد العلوم الاجتماعية - جامعة منتوري - قسنطينة - الجزائر

وسنقتصر فى هذه الدراسة الموجزة على معالجة خمسة مصادر فقط من جملة ما أوردناه فى المقدمة ، انتقيناها من بين عدد من المصادر الأساسية المختصة .

والواقع أن البحث عن المصادر الجديدة فى تاريخ العرب يعد من المهام الأساسية للمؤرخين العرب خاصة ، وغير العرب بصورة عامة .

ذلك أن البحث عن التاريخ القديم للأمة العربية ، مايزال مستعصيًا عن المؤرخين فى كثير من حقول المعرفة ، لأن الدراسات المكتوبة قبل الإسلام غير متوفرة بشكل دقيق ، والتنقيبات الأثرية ماتزال شحيحة إذا ما قورنت بمثيلاتها فى بعض البلدان الأخرى ، لاسيما تلك التى كانت مهد الحضارات الإنسانية القديمة (مصر وبلاد الرافدين) [١].

حقًا أن بعض الحفريات وبعض الدراسات المقارنة قد كونت لدى المؤرخ صورة تكاد تكون ناصعة عن تاريخ العرب فى شبه الجزيرة العربية ، غير أن هذه الدراسات الصامتة والمقارنة ما تزال فى اعتقادنا تبحث عن عناصر جديدة لإبراز المقومات الحضارية للمجتمع العربى فى الأحقاب القديمة .

وقبل الحديث عن بعض مصادر تاريخ العرب القديم ، ينبغى أن نعطى صورة واضحة عن المواد الأساسية التى تتيح للمؤرخ إمكانية الاستفادة منها فى تكوين نص تاريخى عن العرب قبل الإسلام :

أولاً : النقوش الكتابية .

ثانيًا : الآثار المعمارية .

ثالثًا : النحت والمخربشات .

رابعًا : العملة .

خامسًا : الأدوات المستعملة .

أولاً : النقوش الكتابية :

تعتبر النقوش الكتابية الأثرية من أهم مصادر التاريخ بوجه عام والتاريخ العربى القديم بوجه خاص ، لأن أكثر ما وصل إلينا عن تاريخ العرب القديم فى المصادر العربية المدونة ، لايعدو أن يكون روايات يغلب عليها الطابع الأسطورى ، وتختلط فيها الحقيقة بالخيال فى

أحيان كثيرة . ومن هذا المنطلق تطلع الباحثون الأوربيون من القرن الثامن عشر إلى الكشف عن كمصادر جديدة لمعرفة أحوال العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قبل الإسلام ، فعمدوا إلى دراسة النقوش القديمة التى عثر عليها فى البلاد العربية واستخلاص المادة التاريخية منها ، فى ضوء ماورد فيها من حقائق أو إشارات تتضمن أسماء بعض الملوك وألقابهم وأعمالهم ودياناتهم [٢].

والحق أن هذه النقوش المكتوبة تحتوى على مادة خبرية أساسية عن أحوال العرب القدامى ، ونظراً لهذه الأهمية تعد الكتابات الأثرية وثائق أصلية يعتمد عليها المؤرخ فى جمع المادة العلمية ، لأنها مصادر محايدة بالدرجة الأولى ، وليس لها أغراض موجهة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنها معاصرة للأحداث التى سجلت فيها ، لأن الأوائل كانوا يؤرخون لقادتهم وعلمائهم فى حياتهم قبل مماتهم ، كما هو الحال فى الحضارة المصرية القديمة .

والمعروف أن النقوش الأثرية تثبت حقائق واقعية ، وتتضمن تواريخ صحيحة ، وأعلامًا يقل فيها التحريف والتزييف ، فى حين نجد جل ما وصل إلينا من الكتابات قد شوهته إما الروايات الخرافية . أو التحيز لعصبية معينة ، أو لأهواء ذاتية فى نفس المؤرخ [٣].

ثانيًا : الآثار المعمارية :

تعد الآثار المعمارية هى الأخرى من أهم المصادر الأساسية فى تاريخ " العرب القديم " ، فهى تجسد مختلف أنماط الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ... إلخ . وترسم لنا صورة واضحة عن أساليب الناس فى المعيشة ، وسلوكهم فى الحياة والبحث عن الحقيقة الثابتة فى الوجود ، بما يتخذوه من آلهة يعبدونها طمعاً فى الخير ، وفراراً من الشر ، والبحث عن الأمن ، والابتعاد عن أسباب الخوف [٤].

فمعبد " العوام " الذى عُثر عليه بالقرب من مدينة " صرواح " بـ " اليمن السعيد " هو مصدر تاريخى هام ، لاستنباط معتقدات اليمنيين وممارستهم الدينية ، مما يوفر للمؤرخ مادة خبرية تفيده فى معرفة مستوى المجتمع العربى اليمنى فى هذه الحقبة التاريخية فى مجال العبادات ، والتى تمثل مستوى معينًا من التقدم فى سلم الحضارة الإنسانية . ذلك أن ضخامة المعبد واتساع مساحته وتفاصيل بنائه يمكن أن نستخلص منها جملة من الحقائق التاريخية منها : كثافة السكان واليد العاملة المختصة ، وتطور الفن المعمارى الذى يدل على الذوق الفنى الرفيع للمجتمع .

هذا إلى أن وجود تمثال ضخم فى شكل " رأس ثور " بفناء المعبد مصنوع من المرمر يعتبر صورة أخرى تفيد الباحث فى معرفة نوع الآلهة التى كان يعبدها العرب فى المنطقة ، وهى عبادة الكواكب ، لأن هذا التمثال يرمز إلى عبادة القمر [٥].

أما عن الفترة الزمنية التى بنى فيها هذا المعبد ، فإن الأساليب المعمارية المعتمدة فيه تدل على أنه بنى على عدة مراحل ، تتراوح ما بين القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد .

وخلاصة ما يستنتجه المؤرخ من هذا الموقع الأثرى ما يأتى :

١ - أن هذه المنطقة العربية الجنوبية لم تكن تختلف عن بقية المناطق الأخرى فى عبادة القمر التى كانت سائدة فى هذه الربوع ، تحت أسماء مختلفة كجزء من عبادة الكواكب التى كان يجمعها ثالوث " الزهرة والقمر والشمس " .

٢ - مستوى العناية الفائقة فى بناء هذا المعبد ، سواء من حيث بنائه ، أو ترميمه على مدى ثلاثة قرون ، أو من حيث تفاصيل البناء ذاته فى جنوب الجزيرة العربية .

وظاهرة الاهتمام بالمعابد هى فى حد ذاتها من ظواهر حياة الاستقرار التى كانت تسود المناطق ذات الاقتصاد الزراعى المنتظم .

٣ - أما ضخامة بناء المعبد وفخامته فإنها تدل على مدى البذخ والثروة التى كانت تحظى بها منطقة سبأ .

٤ - أما الطراز المعمارى للمعبد بما يظهر فيه من اتقان فى مبانيه وأعمدته وزخرفته ، فإنه يفيد المؤرخ بما وصل إليه المجتمع السبئى من تقدم فنى ملحوظ فى تلك المرحلة التى مر بها بناء المعبد على الأقل ، وهو تقدم يدل على الرخاء الذى ظل سائداً حتى القرن الأول الميلاد حسب بالينيوس " Palinus " [٦].

٥ - إن الشكل البيضاوى الذى وجد عليه المعبد يساعد الباحث على معرفة حقيقة أخرى وهى حراسة المعبد من جميع الجهات ، نظراً لما فيه من ثروة مادية هائلة تتمثل فى بعض الأوانى الذهبية التى عثر عليها المنقبون الأثريون بداخله .

ثالثًا : النحت والمخربشات :

أما المصدر الثالث الذى يمثل لبنة هامة فى عُدّة المؤرخ النحت والمخربشات .

والنحت نوعان :

النوع الأول : يتخذ شكل تماثيل .

والنوع الثانى (البارز) : هو الذى يتخذ شكل صور أو زخارف بارزة على وجهات أو جدران المبانى أو المسلات ، لعل ما يفيد منه المؤرخ من خلال دراسة هذه التماثيل المقارنة بين الحضارات القديمة المعاصرة لهذا التمثال أو ذاك ، والتأثيرات المختلفة التى تظهر على شكل هيكل التمثال من الديانات أو الحضارات المجاورة .

وكذلك مستوى الرقى فى العبادة وتذكير شعوب هذه المناطق أو تلك ، ومدى تقدمها فى مجال هذا الفن " النحت " [٧].

وعلى سبيل المثال التمثال الحجرى الذى عُثر عليه قرب القلعة الرابضة فى جزيرة " تاروت" بشبه الجزيرة العربية الملاصقة للشاطىء الغربى للخليج عند القطيف ، والذى يدل على التشابه مع التماثيل السومارية التى وجدت بجنوب العراق والتى ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، مما يؤكد الاتصال الوثيق بين هذا القسم من شبه جزيرة العرب وبين حضارة وادى الرافدين ، فى هذه الفترة التاريخية المبكرة ، وهو اتصال له ما يؤيده من البقايا الفخارية المتشابهة التى عثر عليها فى المنطقتين ، بما تحتوى هذه الفخاريات من دلائل ، وما قد تلقيه من أضواء على بعض الجوانب الخاصة بأصل الحضارة السومارية أو بتأثيراتها [٨].

كذلك يستطيع المؤرخ أن يستخلص أوجه الشبه بين التمثال الذى عثر عليه فى مدينة " العلاء القديمة " قرب " مدائن صالح " الواقعة فى القسم الشمالى الغربى لشبه الجزيرة وبين التماثيل المصرية القديمة ، والتى يمثل التمثال الأول مصغرة لها ، سواء فى وقفته المتصلة أو فى الذراعين الملتصقين بجانبى الجسم أو فى اليدين المقبوضتين . وبالرغم من أنه لم توجد حتى الآن دراسات مفصلة فى هذا الموضوع ، فإن هذا التشابه أو التماثل يدل دلالة واضحة على تسرب التأثير الفنى المصرى بشكل أو بآخر إلى شبه جزيرة العرب [٩].

وجملة القول أن النحت بنوعيه : النحت المستدير " التماثيل " والنحت البارز ، بالشكل الذى عالجناه فى هذا البحث قدم للباحثين والدارسين على العموم الشىء الكثير عن حياة العرب فى شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام .

أما النوع الآخر من الآثار والمتمثل فى المخربشات ، فيمكن رصدها فى تتبع الآثار التى تركها القدماء على صخور ، وإن كانت أقل قيمة من الناحية الفنية عن التماثيل ، إلا أنها

لانقل عنها فى أهميتها التاريخية كمصدر من مصادر تاريخ العرب ، يستجلى منه المؤرخ صوراً واضحة حول المجتمع العربى فى تلك العصر المعين فى القدم .

وأهم النماذج التى درسها الباحثون وصاغوها فى كتابات تاريخية ، لها مدلولها العلمى وقيمتها الحضارية تلك التى بصمتها يد الإنسان العربى على صخور الجبال والتلال ، والتى كان نقشها بطريقة سريعة وبسيطة ، كتلك التى تقع على جبل برمة فى المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية ، وهى تحمل صورة عنزة فى حركة قافزة ، ومنظراً آخراً يظهر فيه جمل وما يشبه النعامة .

وهذه الرسومات يستفيد منها المؤرخ فى معرفة جوانب كثيرة من حياة الناس فى المجتمع العربى قبل الإسلام .

فالعنزة مثلا تعبر عن إنشغال السكان بتربية هذا النوع من المواشى وربما تقديسه .

أما النوع الثانى الذى يحمل صورتين لحيوانين مختلفين ، فيمكن اعتبار الرمز الأول دليلاً على أن الجمل كان الوسيلة الأساسية لعرب الصحراء ، فى نقل الأثقال والأسفار ، أما الرمز الثانى فهو وإن كان قد انقرض تقريبًا فى العصر الحديث من شبه الجزيرة العربية ، فإنه يدل على انتشاره بكثرة فى العصور القديمة [١٠٠]. والدليل على ذلك ذكر هذا الحيوان فى أشعار أصحاب المعلقات وغيرهم ، أمثال : امرئ القيس ، وعنترة بن شداد والنابغة الذبيانى ... إلخ.

وهناك نماذج أخرى فى " جبل براقة " وفى " وادى ماسل " ، ترمز نقوش الأول إلى صورة الرسم ، أو العلامة التى كانت تتخذها كل قبيلة تميزاً لها عن القبائل الأخرى ، بينما تدل نقوش النموذج الآخر والتى تحمل صورة مشهد راقص ، على جانب من الحياة الترفيهية التى كان يعمد إليها سكان المنطقة من حين إلى حين ، أو ربما تدل على بعض الشعائر الدينية التى تمارسها الشعوب القديمة كل حسب معتقداتها وآلهتها المتعددة [١٠١].

رابعًا : المسكوكات :

تعد المسكوكات من أهم المصادر التاريخية فى الحقب القديمة والوسيطة ؛ يستخلص منها الباحث معطيات كثيرة من أبرزها : معرفة الفترة الزمنية التى سُكّت فيها ، وربما اسم حكام ذلك العصر أو صفاته ، والرسم الذى يوجد على الوجه الآخر للعملة له دلالته سواء صورة

معبود أو حيوان يقدسه المجتمع ، أو طائر أو نبات له أهميته فى الحياة اليومية ، كما تدل على مدى تقدم هذه الدولة أو تلك فى الميادين الاقتصادية .

أما إذا وجدت عملة أجنبية فى هذا البلد أو ذلك كشبه جزيرة العرب [١٠٢]، فإن المؤرخ يستخلص جملة من النتائج أيضًا من أهمها :

- وجود علاقات قوية بين البلد الذى نعثر فيه على العملة الأجنبية ، وبين البلد صاحب العملة ، كأن تكون هذه ٢٠ النقود مثلاً قد وجدت فى اليمن وهى يونانية أو رومانية أو فارسية الأصل [١٠٣].

والحق أن المسكوكات تشكل قاعدة الأساس فى حركة المجتمع الاقتصادية والتجارية ، بل وفى تطوير العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية فى كل بلد من البلدان .

خامسًا : الأدوات المستعملة :

تشكل أدوات الإنسان القديم مصدراً تاريخيًا معتبراً فى الكشف عن نمط حياته اليومية، ومدى رقيه أو تأخره فى أساليب المعيشة ، وأنماط التفكير ، كالأدوات الحجرية المستعملة فى الطبخ والمسكن والدفن ، ونوعية ملابسه ، وأدوات الزينة ، وفنون النحت والنقش [١٠٤].

والآثار القديمة فى شبه الجزيرة العربية غنية بهذه الأدوات التى تعد وثيقة تاريخية هامة تحدد مدى تطور الإنسان العربى أو مدى بداية إنتاجه ، ومدى الثراء أو الفقر فى إمكاناته ، ومدى الأصالة أو التقليد فى صناعته ، ومدى التأثر أو التأثير فى حضاراته أو فى حضارات جيرانه ، بل إن هذه الأدوات تعبير عن هيئته وأزيائه وطبيعة أذواقه [١٠٥].

والحق أنه كلما ازداد الكشف عن هذه الأدوات المستعملة ، كلما ازدادت معرفة حضارة بلدها وقومها .

وخلاصة القول أن البحث عن المصادر الأساسية فى تاريخ العرب القدامى مايزال يتطلب إرادة قوية ، وتشجيعات مادية ، وسياسة حكومية ، تدفع الباحثين إلى التنقيب عن مخلفات الإنسان العربى القديم فى شبه الجزيرة شمالها وجنوبها ، بل وفى البلاد العربية الأخرى ، التى مايزال آثار أسلافها مطمورة تحت ركام الماضى البعيد ، لكى نبطل الأسطورة القائلة أن العرب كانوا متخلفين ومعزولين عن الحضارة ، وقد تأثروا ولم يؤثروا على الحضارات المجاورة ، لأنهم كانوا مجرد مجتمعات بدائية عشائرية قبلية متناحرة .

الهوامش :

١ – زكي محمد حسن : دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد٢ ، جـ١ ، مايو ١٩٦٠ ، ص ٦٢ ؛ سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ١٥١ .

٢ – ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، جـ٣ ، ص ٣٥ ؛ زكي محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ص ٦٣ – ٦٤ .

Ptolemaeos, maubernalacos, geographia, V, 14 5; 18-19; Oxford classical Dictionary, S.V Ptolemy, pp. 746 .

٣ – توفيق برو : تاريخ العرب القديم ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ١٩٨٢ ، ص ١٢ ؛

Pliny : Natural history, VI, 147-162; XII. 51-99, Oxford classical Dictionary, S.V, Pliny, pp. 703-4 .

٤ – جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ، ص ١٠ ؛

Margoliouth, D.S : The origins of arabic poetry, J.R.A.S, July 1925 .

٥ – تنلف بلسر وفرنز هومل : التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، زكي محمد حسن ، وزارة التربية والتعليم ، إدارة الثقافة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ص ١–٣ .

٦ – نجيب العقيقي : المستشرقون ، جـ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٩٨ .

Strabo : XVI, 4, 18-19; Oxford classical Dictionary, S.V, Artemidoros, p. 104 .

٧ – لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦ .

٨ – نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، سوريا (القاهرة) ، ١٩٥٩ ، ص ١٧٠ .

٩ – عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٠ ؛

MILIK, I : Prière de Nabonidus, R.B. 63, 1966, 407 - 15 .

١٠ – عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، ١٩٩٢ ، توفيق برو : المرجع السابق ، ص ١٣ .

١١ – عبد الرحمن الطيب الأنصاري : منطقة القار برادي الدواسر في بداية السبعينات ، راجع مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، إدارة الآثار والمتاحف ، المملكة العربية السعودية ١٩٧٥، ص١ .

١٢ – عبد الرحمن الطيب الأنصاري : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار ونقوش قرية القار ، بحث ألقي في الدورة العلمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ؛ حمد الجاسر : في مجلة العرب ، سبتمبر ١٩٦٩ ؛ عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية ، إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٥ – ٩٣ .

١٣ – سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٥ – ١٦ ؛

BAWDEN, Edens and Miller : Preliminary archaeological investigation at Tayma, AT-LAL, 4, 1980 .

١٤ – بيرن جاكلين : اكتشاف جزيرة العرب ، مترجم ، بيروت ١٩٦٤ ؛ خليل يحيى ناصي : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٣٤ .

١٥ – جروهمان أ : مادة العرب ، في دائرة المعارف الإسلامية ؛ وات ، جونز ، بلر ، لطفي ، الدوري ، الجاسر : في مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، جـ١ ، جامعة الرياض ١٩٧٩ (في مواضع مختلفة) .

د . فايزة محمود صقر(*)

العلاقات بين العرب والعراق القديم من خلال النصوص الآشورية منذ منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن السابع ق.م.

إن منطقة شبه الجزيرة العربية لم تكن منطقة صحراوية جافة فى كل عصورها ، فقد تعرضت لهطول أمطار غزيرة طوال عصر البلايستوسين (آخر العصور الجيولوجية) شأنها فى ذلك شأن المناطق المدارية ، ونتيجة لذلك فإنها فى تلك العصور كانت تغطيها الغابات والنباتات والأعشاب ، وتسكنها المجموعات البشرية على امتداد مساحتها . وهكذا حتى انتهى العصر البلايستوسينى المطير حوالى ١٠,٠٠٠ ق.م [١]، وبدأ عصر الجفاف التدريجى.

وقد توافرت الأدلة الأثرية القديمة لإيضاح حقيقة ماكانت عليه جزيرة العرب من أنها ، رطبة وأمطار ، وما طرأ من تغير على جوها حتى انتهى إلى الجفاف ، الأمر الذى أدى بالسكان إلى النزوح عن أوطانهم والهجرة إلى مناطق تتوفر فيها المياه وسبل العيش ، وأن ما خلفه سكان هذه الأصقاع من آثار لدليل قاطع على قدم حضارة جزيرة العرب ، بمعنى أن

---

* - مدرس تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم - كلية التربية - جامعة القاهرة - فرع الفيوم .

أهل الجزيرة كانوا مزودين بتراث حضارى ورثوه عن أجدادهم وجاءوا به معهم من مناطق سكناهم الأصلية مما أعانهم على تكوين حضارة خاصة بهم [٢].

إن ظروف الرقعة المكانية التى تشغلها شبه الجزيرة - وهى ظروف تتمثل من جهة فى الموقع الذى يتوسط خطوط الوصلات بين الشرق والغرب ، وتتمثل من جهة أخرى فى الموضع الذى تفرض طبيعته على سكان المنطقة الحركة المستمرة رعيًا أو تجارة وتتمثل من جهة ثالثة فى الطبيعة الصحراوية الغالبة على شبه الجزيرة ، هذه الظروف أدت إلى قدر غير قليل من التجانس ، وأدى هذا التجانس بدوره إلى ظهور بوادر غير ملموسة للشخصية أو للهوية الجماعية للعرب رغم التفتت السياسى فى جزيرة العرب فى صورة قبائل أو تجمعات قبائل أو إمارات أو دول . ونلمس بوادر هذه الشخصية العربية ابتداء من أواسط القرن التاسع ق.م. فى عدة نصوص من سجلات الملوك الآشوريين وتصف عدداً من الشخصيات التى اختلط بها ملوك دولة آشور بأنهم " عرب " أو أنهم ملوك أو ملكات على " بلاد العرب " [٣]. ويشير هذا الوصف إلى أن الهوية العربية بدأت تحل - على الأقل فى المعاملات الخارجية - محل الهوية العشائرية أو القبلية [٤].

وهكذا يمكن تصنيف علاقات ملوك آشور بسكان الجزيرة العربية طبقًا للنصوص الآشورية إلى نوعين من العلاقات :

أولهما : العلاقات مع جنوب الجزيرة العربية - أى مع بلاد اليمن .

ثانيهما : العلاقات مع شمال الجزيرة العربية .

أولاً : أما عن العلاقات مع جنوب الجزيرة العربية أى مع بلاد اليمن :

فيوجد نصان آشوريان يشيران إلى تلك العلاقات ، هما :

١ - النص الأول :

جاء فى حوليات الملك " سرجون الثانى " - (المسمى شاروكين فى النصوص الآشورية) والذى تولى عرش آشور فى (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م.) أنه فى العام السابع من حكمه أى حوالى ٧١٤ ق.م . قام بتسلم الجزية من " بيرو (صاحب) موصرى " ، ومن " شمسى " ملكة (بلاد) العرب ، ومن " ايتأمر " السبئى . (كانت عبارة عن) تراب الذهب الخيل والجمال [٥].

٢ - النص الثانى :

جاء فى حوليات سنحاريب ملك آشور فى الفترة (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) أنه : " عند وضع أساس المعبد فى عيد رأس السنة الجديدة ، (أمرت) بإحضار كنوز الملك " كربى ايلو " ملك سبأ وهى أحجار وأحجار كريمة وأعشاب عطرية " [٦].

وهناك نص مسمارى من عهد " نبنورتا - كودورى - اوصر " ، حاكم إقليم سوخى ومارى فى عهد الملك الآشورى تجلات بلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) [٧] الذى عاش فى مطلع النصف الثانى من القرن الثامن ق.م . يتحدث فيه عن قيامه بسلب القوافل المحملة بالبضائع الآتية من سبأ وتيماء حيث جاء فى خاتمة النص ما يلى :

" أنا نبنورتا - كودورى - اوصر حاكم إقليم مارى وإقليم سوخى : عندما كنت فى مدينة " كاراباببل - أده " بلغنى عند الظهيرة أن القوافل الآتية من سبأ وتيماء ، والذين جاءوا من أماكن نائية ، لم يمروا بى ولم يأت رسلهم إلى .... بل اتخذوا طريقهم بالقرب من منابع المياه ، ومن هناك تابعوا سيرهم إلى مدينة خندانو . وعندما سمعت بهم ظهرا نهبت ، وفى المساء عبرت النهر .

وفى اليوم الثانى قبل الظهر وصلت إلى مدينة " ازلانو ، وبقيت هناك ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث غزوتهم فأخذت مائة من رجالهم أسرى ، ومائتى جمل من حمولتها صوف من نوع تاكيلتوم ، وصوف ، وحديد ، وحجر من نوع باريلو ، وجميع أسلحتهم ومعداتهم . أما الغنائم الثقيلة فأرسلتها إلى سوخى " [٨].

من دراسة النصوص الآشورية السابقة يتضح الآتى :

أولاً :

إن الحاكمين السبئيين اللذين ذكرتهما الحوليات الآشورية هما المكربان اللذان ذكرتهما النقوش السبئية ، أحدهما هو (يثع أمر بين " سمهر " على ينوف) [٩] الذى دفع جزية للملك الآشورى سرجون الثانى عام ٧١٥ ق.م ، وثانيهما هو (كرب أيل وتارين ذمار على) الذى بعث بهدية إلى الملك الآشورى سنحريب عام ٦٨٥ ق.م . ومن الممكن أن نعتبر تلك الإشارات النقشية ثوابت فى تاريخ الدولة السبئية ، أقدمها يعود إلى القرنين الثامن والسابع ق.م [١٠].

ومما يجدر ذكره أن المكرب السبئى (كرب أيل وتار) المذكور فى نص الملك الآشورى سنحاريب ، هو الذى وحد اليمن بعد حرب شاملة ، كما ذكر فى نفس النص [١١].

ثانيًا :

إذا ما كانت كلمات SABA و SABUM التى جاءت فى النصوص السومرية تشير أو تعنى السبئيين ففى هذه الحالة يمكن اعتبارهم أقدم شعب سامى جنوبى فى التاريخ العربى القديم .

ثالثًا :

يصف نص الملك سرجون الثانى الحاكم " يثع أمر بين " بلقب " السبئى " ، بينما يصف نص الملك سنحريب الملك " كرب أيل وتار " بلقب " ملك سبأ " ، وتتطابق هذه الألقاب مع ألقاب كل من " يثع أمر بين " الذى يحمل لقب " ملك " بينما حمل الملك " كرب أيل وتر " لقب ملك بعد أن غير لقبه من " مكرب " إلى " ملك : كما جاء فى نقش النصر المذكور المنقوش على واجهة جدار مشيد من المر فى بهر المعبد الرئيسى فى صرواح ، وقد افتتح هذا النقش بجملة : " هذا ما أمر بكتابته " كرب أيل وترين ذمر على مكرب سبأ عندما صار ملكا "[١٢٥]. (انظر خريطة رقم (٣)) .

ويزيد ورود هذين اللقبين بالتتابع فى النصوص الأشورية تحول الدولة السبئية من النظام المكربى إلى النظام الملكى ، وبالتالى يعزز تعاصر المكرب السبئى يثع امر بين كمع الملك الآشورى سرجون والملك السبئى كرب أيل وتار مع الملك الآشورى سنحاريب .

رابعًا :

من دراسة نقش النصر للملك " كرب أيل وتار " نجده اتبع فى حروبه وإجراءاته العسكرية والتأديبية أساليب مشابهة للأساليب الآشورية فى التعامل مع أعدائه ، ويتمثل ذلك فى :

أ - إرهاب الخصوم بالإكثار من القتل والسبى ، وإذا أحصينا عدد القتلى نجدهم يزيدون على ٣٠,٠٠٠ شخصًا من أعدائه .

ب - استخدام الأسرى فى تشييد مبانيه أو فى زرع الأرض المملوكة له أو للمعابد ، ولا يقل عددهم عن ٧٣,٠٠٠ شخص .

جـ - المبالغة فى الأرقام عند تعداد القتلى والغنائم .

خامسًا :

يبين نص " نيشورتا - كودورى - اوصر " حاكم إقليم ماري وإقليم سوخى ، نظام دفع الضرائب بين الآشوريين والقوافل التجارية المارة فى بلادهم ، والذى يقتضى عبور القافلة على مراكز معينة وألا تتعرض لعقوبات صارمة ، منها مصادرة ممتلكات القافلة ومعاقبة أفرادها .

سادسًا :

تدل الإشارة إلى مدينة خندانو التى كانت تقع فى ناحية الكرابلة التابعة لقضاء القائم بمحافظة الأنبار وقبالة مدينة البوكمال السورية ، على أن هذه المدينة كانت تحتل مركزًا تجاريًا يتم فيها تفريغ البضائع ، أو أنها كانت واسطة البضائع ربما إلى آشور وبلاد الشام والأناضول أو البحر المتوسط ، مما يوضح حجم المدينة الكبيرة ، كما أن موقع المدينة على طريق التجارة العابرة فى الفرات أو طرق القوافل يجعلها بوابة العراق أمام طرق القوافل التجارية القادمة من شمال شبه الجزيرة العربية [١٢٣].

سابعًا :

أن نصوص سرجون الآشورى وخليفته سنحاريب [١٢٤] تدل على أن العلاقات بين العرب والآشوريين كانت على المستوى الملكى أى بين سرجون ويثع أمر بين ، وبين سنحاريب وكرب أيل وتار ، ولكن يشير نص " نيشورتا كودورى - اوصر " الذى يرجع إلى عهد تجلات بلاسر الثالث إلى أن التعامل التجارى كان يتم مباشرة بين القيادات الآشورية وزعماء القوافل التجارية ، كما أن النص يدل على أن العلاقات الاقتصادية بين السبئيين والآشوريين كانت ترجع إلى أقدم من عهدى سرجون وسنحاريب ، وبالتحديد إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد .

ثامنًا :

يبدو أن الجزية التى قدمها الملكان السبئيان ما هى إلا هدية قدمها هذان الملكان لضمان سير قوافلهم التجارية فى مناطق الآشوريين ولضمان عدم الاعتداء عليها [١٥٠] ولتوطيد الصداقة بين الحكومتين وهذا يرجع سيطرة الدولة السبئية على تجارتها الخارجية مع بلاد وادى الرافدين وسعيها لتسهيل التبادل التجارى بين العراق واليمن [١٦٦] وذلك ابتداء من أواخر النصف الثانى من القرن الثامن ق.م .

تاسعًا :

ربما سارع " يثع امر بين " السبئى بتقديم الجزية للملك سرجون الثانى حوالى عام ٧١٤ ق.م. حين احتل سرجون الثانى ميناء غزة عام ٧١٥ ق.م. وكان هذا الميناء يعد مجمعًا للسلع العربية [١٧١] مما يبين أهمية الطرق التجارية الشمالية . (انظر خريطة رقم (٣)) .

وجدير بالذكر أن سياسة تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثانى تجاه عرب الشمال كانت حكام محليين للصحراء ، وخاصة بعد سقوط غزة عام ٧١٥ ق.م. وذلك لتأمين الطريق الآشورى إلى سيناء ، ومنها إلى الدلتا فى مصر .

أما فى عصر اسرحون فقد تزايدت قوة القبائل العربية حتى أصبح تحالف القوات الآشورية معها عاملاً هامًا لإجراء النصر على أعدائها الرئيسيين [١١٨].

ثانيًا : العلاقات مع شمال الجزيرة العربية :

فقد وردت فى النصوص الآشورية إشارات إلى ملكات عربيات[١١٩] حكمن فى شمال الجزيرة العربية كما يلى :

١ - الملكة زبيبة :

ورد ذكر زبيبة (حرفيًا زبيبى) فى نصوص الملك تجلات بلاسر الثالث ([٢] ٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) وذلك تقريبًا فى العام التاسع من حكمه فقد جاء فى النص " أنه قام بتسلم جزية زبيبى ملكة بلاد العرب Arabia " وكانت عبارة عن " ذهب وفضة ورصاص وحديد وجلود الأفيال والعاج ، والأثواب الملونة الصوفية والكتانية ، وصوف أزرق وبنفسجى اللون ، وصندوق خشبى به كل أنواع الكنوز الملكية الثمينة ، وأغنام ذات أصواف بنفسجية اللون وطيور أجنحتها زرقاء ، وخيلاً وبغالاً وماشية وأغنامًا وجمالا ونياقًا وصغارها " [١٢١].

٢ - الملكة شمس :

ورد ذكر الملكة شمس حرفيًا (سمسى) فى نصوص الملك تجلات بلاسر الثالث ، وذلك فى عبارة نصها إن " شمسى ملكة بلاد العرب Arabia التى حنثت بقسمها (للإله) شماش ... إلى ... مدينة ايراسى ... بلاد العرب Arabia فى بلاد SA(BA) فى معسكرها أصبحت خائفة من قوة جيشى وأرسلت إلى الجمال والنياق وعينت عليها مرظفًا ثانيًا " [١٢٢].

وقد جاءت فى هذا النص كلمة ناقصة ، فى صورة حرفى sa وأضاف إليها Pritchard علامة BA وترجمها على أنها " سبأ " ، مما قد يرجى بأن هذه الملكة كانت ملكة على سبأ ، وبالتالى تفسر بأنها ملكة سبأ التى عاصرت الملك سليمان . ولكن ذكر اسم شمس فى بداية النص مقترنًا بلقب ملكة بلاد العرب وليس ملكة سبأ ينقض ذلك والمرجح أن السبئيين المشار إليهم فى بقية النص كانوا من التجار السبئيين على هيئة قوافل كما جاء فى العهد القديم (سفر أيوب ١٩:٦) .

أما سبب الحملة التى شنها الملك تجلات بلاسر الثالث ضد الملكة شمس فهو كما يتضح لنا من نفس النص إذ يشير إلى أن الملكة شمس قد حنثت بالقسم الذى اقسمت للإله شماش - ربما يشير إلى الولاء للآشوريين ، ودفع الجزية - فحل بها ويقومها الجوع والدمار نتيجة لذلك[١٢٣].

مما تقدم يتضح مدى العقوبات التى أنزلها تجلات بلاسر الثالث بالقبائل العربية ، نتيجة تخلفهم عن دفع الجزية ، ولكن يشير النص أيضًا إلى المقاومة العسكرية التى قادتها الملكة شمس ضده ، مما جعل هذا الملك يوجه ضربة شديدة لقواتها ، أدت فى النهاية إلى إرسال مبعوث آشورى ليقوم بدور سياسى ، ممثلاً للملك الآشورى داخل المنطقة العربية ويقوم بتوجيه الأمور السياسية والاقتصادية لصالح الملك الآشورى .

كذلك يرد ذكر الملكة شمس فى النصوص الآشورية فى عهد الملك سرجون الثانى إذ يذكر هذا الملك أنه فى العام السابع من حكمه قام بتسلم الجزية من شمس ملكة بلاد العرب ، وذلك ضمن عدة ملوك آخرين [١٢٤].

ويرد ذكرها فى نص آخر يعرف " بنقش الاستعراض " وجد فى قصر خورشباد [١٢٥].

(اللوحات رقم : IVm VII, VIII) وسرد الأحداث من توليه الحكم حتى العام الخامس عشر من حكم سرجون الثانى .

يقول النص :

" تسلمت جزية ببرو وسمسى ملكة بلاد العرب ، رابتا امرا السبئى وكانت ذهبًا وأعشابًا من اجبال ، خيلاً وجمالا[١٢٦] .

٣ - الملكة تلخونو :

يرد ذكر هذه الملكة فى نقوش[١٢٧] الملك سنحريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) .

يقول النص :

" تلخونو ملكة العرب Queen of The Arabs فى وسط الصحراء ، غنمت منها ألفًا من الجمال ، كانت مع حزائيل (حزاعل) ، الرعب من معركتى افزعهم فتركوا خيامهم ... وفروا " لانقاذ " حياتهم " [١٢٨].

يذكر هنا أن حزائيل كان رئيس قبيلة ليدار التى تجمعها المصالح المشتركة مع دومة الجندل إذ كان أهل دومة الجندل يعتمدون على قبيلة قيدار فى حماية القوافل التجارية .

وكانت دومة الجندل ملاذاً للقيداريين ، ولهم أماكن عبادة فيها ، وكانت ملكة دومة الجندل هي الكاهنة العليا لكل القاطنين في بلادها . ويرى البعض في هذا ما يفسر وجود تحالف قوى بين الملكة تلخونو وحزائيل[٢٩] ولكني أعتقد أن المصالح التجارية والعدو المشترك كانت الدافع الأساسي للتحالف بين تلخونو وحزائيل .

وقد ورد ذكر الملكة تلخونو في النقش الآشوري رقم (K3087) ويرجع إلى عهد الملك الآشوري بانيبال : " تلخونو الكاهنة ... التي كانت مع حزائيل ملك بلاد العرب قد سقط في أيدي سنحريب جزئي نتيجة لهزيمته (أمام سنحريب) والذي أعلن أنه لن يقيم مع سكان بلاد العرب people Arabi وقد هاجر إلى بلاد آشور ، إلى اسرحدون ملك آشور والدي ... المفضل لدى الآلهة العظمى ... وقد ثبت (اسرحدون) حزائيل على عرش والده وجاء حزائيل بهداياه الثمينة وقبل أقدامه (أقدام اسرحدون) وتوسل إليه ليعيد الهته عشتار فعفا (اسرحدون) عنه ووافق على أن يسلمه تلخونو الكاهنة السابقة لعشتار . أما عن تبوء[٣٠] الكاهنة فقد استوحى (اسرحدون) الإله شماش بشأنها وأعادها مع تمثال إلهته عشتار (إلهة حزائيل)[٣١].

٤ – الملكة اسكلاتو والملكة تاربوا Tarbua :

وفي نقش آخر يرجع إلى عهد اسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م) يشير فيه إلى علاقة والده سنحريب بالقبائل العربية في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ، ويرد في النص ذكر ملكة ادوماتو . (دومة الجندل) والملكة اسكلاتو والملكة تربوا .

يقول النص :

" (ومن) " ادماتو " قلعة العرب التي استولى عليها أبي سنحريب وأخذ منها كغنيمة تمثالكاتها وتماثيل آلهتها ، وكذلك " اسكلاتو " ملكة العرب ، وأحضر ذلك (كله) إلى آشور ، وقد جاء " حزئيل " ملك العرب ومعه هدايا كثيرة إلى نينوى ، وقبل أقدامي ، ورجاني أن أعيد تماثيل الهته . فاصلحت ما أصاب تماثيل آلهة العرب من تهشيم ، وهي تماثيل " عشير " ، " سمش " و " داي " و " نهي " و " رولنابر " و " ايبريللو " ، " عشر قوروما" وأعدتها إليه بعد أن كتب عليها نقش يعلن قوة سيدي الإله آشور العليا ، واسمي شخصياً، وجعلت " تربوا " التي نشأت في قصر أبي ملكة عليهم ، وأعدتها إلى بلدها الأصلي مع آلهتها . وفرضت عليه جزية إضافية أن يدفع ضعفاً وستين جملاً كبيراً وعشر جمال صغيرة أكثر مما كان من قبل " [٣٢].

٥ – الملكة بابا ملكة مدينة دخراني والملكة بابلو (بسلو) ملكة مدينة اخيلو :

يرد اسم هاتين الملكتين في نص للملك اسرحدون ، يذكر ها الملك أنه وجه حملة ، ضد منطقة نائية من بلاد العرب يسميها باؤو [٣٣]. ويبدو أنها منطقة جبلية حيث يذكر جبل حامو، وتوصف بأنها بلد بعيد تتجاوز أرض الملح والرمل ، والأرض الشائكة ، ونطاق المجال العسكري للملوك الآشوريين الأوائل . وهي أرض عطش تكثر فيها الأفاعي الطائرة والأسود[٣٤].

وقد أورد اسر حدون في نصه اسماء الذين صادفهم في معاركه ومناطق تفرزهم ، وكان ذلك في السنة الخامسة من سني حكمه أي حوالي ٦٧٦ ق.م .

ومن الملاحظ أن النص يذكر ملكتين عربيتين هما :

أ – بابا ملكة مدينة دخراني — Ia-Pa sar-rat Di-ih-ra-a-ni

ب – بابلو ملكة مدينة اخيلو — Ba-as-lu-sar-rat I-hi-lu [٣٤].

٦ – الملكة أربا :

في نص للملك آشور بانيبال تحدث هذا الملك " أنه وجه حملته التاسعة ضد القبائل بزعامة بطع Uaite ملك بلاد العرب ، بسبب أنه حنث بالقسم ، ونسي المعروف ، ونبذ سلطان الملك الآشوري على بلاد العرب الذي منحه إياه الإله آشوري ، كما أنه تخلى عن ولائه وأمسك عن دفع الجزية لآشور بانيبال ، وسجل موقفاً لايختلف عن موقف عيلام المساند لأخيه " شمش شم أوكين " المتمرد في بابل ، وتحالف مع أياموبن تمرى ، هذا فضلاً عن إثارة وتحريض القبائل العربية كافة على أن تمرد بابل هذا فشل وانتحر زعيمه ، وتمكن آشوري بانيبال من إلحاق الهزيمة بالقبائل العربية المتحالفة مع أخيه " ودمر مساكنهم وأرق خيامهم " [٣٦].

ولكن بطع زعيم القبائل العربية المتحالفة تمكن من الفرار إلى بلاد الأنباط Nabitu قبل أن تناله أسلحة آشوري ، وقام بالتحريض ضد الآشوريين [٣٧].

ويفهم من النصوص أن ناتنو ملك الأنباط قد حسب حساب مجيء بطع إليه ، وخاف من بطش الآشوريين ، فأرسل رسالة إلى نينوى يعرض اتفاقية سلم ، وافق عليها آشور بانيبال[٣٨].

وبعد ذهاب بطع إلى نينوى حسب الاتفاق ، تخلى آشور بانيبال عن وعده ، وفرض عليه عقوبة قاسية ، حيث يقول : " حبسته في مربط الكلاب ، مع أبناء آوى والكلاب ، وأقمته على حراسة الباب في نينوى " [٣٩]. كما يذكر أنه " طعنه بخنجر في ذقنه ومرر حبلاً عليه[٤٠].

على أن تصرف آشور بانيبال تجاه بطع قد أغضب الأنباط ، فتحالفوا مع أديا Adia زوجة بطع التي تحالف معها أيضًا ملك قيدار عمولادي وهاجموا الآشوريين [٤١]. وهي المعركة التي انتهت بهزيمة القبائل العربية وأسر أديا [٤٢].

مما تقدم يلاحظ أنه في عهد آشور بانيبال تطور الصراع مع القبائل العربية ليشمل عنصراً جديداً ، هم الأنباط وأصبحوا يتحالفون مع قوى كبرى ضد الآشوريين . إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام القوة الآشورية التي كانت تتبعهم إلى مخابئهم . كما يلاحظ أن القبائل العربية بلغت من القوة مبلغًا جعلهم يكررون مهاجمتهم للآشوريين على الرغم من الهجمات القوية التي يتلقونها تباعًا [٤٣].

من دراسة نصوص الملكات العربيات في النصوص الآشورية يتضح الآتي :

أولاً :

أن الحوليات الآشورية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ترسم صورة جديدة لبدو الصحراء ، إذ لم يعد اقتصاد بعضهم ذاتيًا يعتمد على الجمل ، وإنما بدأوا يشتغلون بالتجارة وينقلون البضائع من مكان إلى آخر عبر جزيرتهم ، ويتصلون بمناطق الاستقرار ، ناقلين معهم الذهب والفضة والرصاص والحديد والعاج والملابس والرياش واللبان . كما صار لهم دويلات صغيرة في الواحات الخصبة على طرق التجارة ، تقوم بدور الوسيط التجاري بين الدول المجاورة ودور الحاجز بين قبائل البدو الغازية والدول الكبرى . فصارت لهم مدن ومحطات تجارية وحكام مستقرون يشولون ضبط القبائل البدوية خدمة للدولة الكبرى الضاغطة على جزيرة العرب وطرق تجارتها [٤٤]. وقد ازدهرت هذه المحطات حتى تمكن البعض منها من التوسع والسيطرة ، فظهر فيها نظام دولة المدينة . ولضمان مرور التجارة في هذه المحطات كانت تنتظم في معاهدات واتفاقيات تنص على التعاون في حماية القوافل من البدو والغزاة وتأمين احتياجاتها [٤٥]. ومثال ذلك المدن التي ورد ذكرها في النصوص الآشورية وتزعمها ملكات عربيات منها : دومة الجندل ومدينة دخراني ومدينة اخيلو ، وتيماء ومنطقة بازو وغيرها .

ثانيًا :

الملكات العربية اللاتي وردت أسماؤهن في النصوص الآشورية :

م	اسم الملكة	الملك الآشوري الذي تعاصره	ألقابها في النصوص الآشورية
١	زبيبي	تجلات بلاسر الثالث	Aribi ملكة بلاد العرب
٢	سمسي	تجلات بلاسر الثالث سرجون الثالث	ملكة بلاد العرب
٣	تلخونو	سنحريب آشوربانيبال	ملكة العرب كاهنة
٤	تربوا	سنحريب	ملكة (نائب عن الملك الآشوري)
٥	اسكلاتو	سنحريب	ملكة العرب
٦	يابا	اسرحدون	ملكة مدينة دخراني
٧	بابلو	اسرحدون	ملكة مدينة اخيلو
٨	أديا	آشور بانيبال	زوجة الملك بطع ملك بلاد العرب

إن ظهور الملكات العربيات على الساحة الدولية كملكات وأميرات ونائبات عن الملك الآشوري ، وكذلك الدور القيادي (لاديا) التي حلت محل زوجها الأسير الملك بطع في عهد آشوربانيبال ، يدل على مكانة المرأة في المجتمع العربي القديم حيث تولت أعلى المناصب السياسية ، وكان لها صلاحية إعلان الحرب ضد الإمبراطورية الآشورية .

ثالثًا :

إن الأساس الحقيقي للعلاقات بين الآشوريين والمنطقة العربية هو المصالح التجارية ، وقد حدثت مصادمات عسكرية بين بعض الأطراف ، مثل قيام القبائل العربية بالتحالف مع أعداء الآشوريين مثل :

- تحالف الملكة تلخونو ادوماتو مع حزائيل صاحب المنطقة العربية ضد الملك الآشوري سنحريب .

- وتحالف الملك يطع ملك بلاد العرب وزوجته أديا مع " شمش شم اوكن " المتمرد في بابل ثم التحالف مع بلاد الأنباط Nabaiu .

ولكن مثل هذه التحالفات العسكرية والحروب كانت محاولة لتأمين الطرق التجارية أو محاولة لمنع السيطرة على هذه الطرق[٤٦] . ويتضح ذلك من المقاومة المسلحة التي قادتها الملكة سمس ضد تجلات بلاسر الثالث والمعركة التي دارت بين جيشها وجيش الملك الآشوري انتهت باضطرارها لدفع الجزية [٤٧]. وقد وصل صمود العرب بقيادة الملكات العربيات (زبيبي - سمس - أديا) إلى درجة البدء بالهجوم واتخاذ قرار الحرب ، رغم الضربات الآشورية العنيفة .

رابعًا :

تطور أسلوب العلاقات بين الآشوريين والقبائل العربية نحو الأساليب الدبلوماسية والسياسية ، مثل إرسال الوكيل السياسي الآشوري (قيبو) [٤٨]. للإشراف على المصالح الآشورية كما حدث للملكة سمس بعد هزيمتها العسكرية . وأيضًا أسلوب إعداد أو تربية الأميرات العربيات في القصر الآشوري ليصبحن حاكمات على قبائلهن ، مثل (تبؤه) وذلك لضمان ولائهن للعرش الآشوري [٤٩]. ويمكن أن نطلق على هذه السياسة سياسة الاحتواء السياسي من الداخل [٥٠].

ويلاحظ أن العلاقات كانت تبدأ بمعارك عسكرية ، لاتلبث أن تتغير الأوضاع إلى العنف ودفع الجزية ربما نتيجة إبرام اتفاقيات تؤدي إلى إعادة الملوك الأسرى وقبائل آلهتهم ، مما قد يشير إلى أن القبائل العربية لم تكن عدواً رئيسيًا للآشوريين . وقد اتبعت الملكات العربيات سياسة التحالف العسكري والمقاومة تارة ، وسياسة المهادنة ودفع الجزية تارة أخرى .

خامسًا :

حكمت الملكات العربيات المنطقة شمال الجزيرة العربية التي تقع بين النفود وأواسط صحراء بلاد الشام ، وقد اشتهرت هذه المنطقة بمراعيها منذ القدم . ويستدل على ذلك بكثرة أسماء قبائلها ومدنها وملوكها وملكاتها التي ترد في كتابات وادي الرافدين ، وفي الكتاب المقدس، وفي الروايات الكلاسيكية ، ومن الكتابات التي تركتها القبائل العربية نفسها على صخور المنطقة . ومازالت هذه المنطقة من أخصب مراعي الجزيرة ، حيث تصبح في فصل الربيع وبعد هطول الأمطار جنة خضراء[٥١] . وهذا يفسر مضاعفة الملوك الآشوريين للجزية[٥٢] . وفرض جزية إضافية على القبائل العربية وخاصة في حال تمردها . ومن ذلك :

جزية الملكة سمس :

غنم منها : ثلاثين ألف جمل ، وعشرين ألف رأس من الماشية وخمسة آلاف إناء من كل أنواع التوابل وكل ممتلكاتها الثمينة وقدمت هي الجزية : جمالاً ونباتًا .

جزية الملكة زبيبي :

ذهب وفضة ورصاص وحديد وجلود الأفيال والعاج ، والأثواب الملونة الصوفية والكتانية ، وصوف أزرق وبنفسجي اللون ، وصناديق يحوي كنوزاً ثمينة ، وأغنام وطيور وخيلاً وبغالاً وماشية وجمالاً ونباتًا .

جزية الملكة تلخونتر :

غنم منها : ألفين من الجمال ، معاقبة التحالف بين تلخونتر وحزائيل بفرض الملك اسرحدون جزية إضافية على القبائل العربية تزيد عما كانت عليه في عهد الملك الآشوري سنحريب [٥٣]، حيث بلغت هذه الإضافة عشرة وحدات (minas) من الذهب ، وألفًا من الأحجار الكريمة وخمسون [٥٤]. جملاً وألفًا من الأواني العطرية وهي إضافة أكثر مما كان يدفع على عهد أبيه . هذه الأرقام الكبيرة تشير إلى ازدهار النشاط التجاري للعرب [٥٥]. وثراء الملكات العربيات ، على الرغم من قرية دفعها ويرى " دورني " أن هذه الأصناف المتنوعة من الجزية كان مصدرها الأرض العربية [٥٦].

سادسًا :

علاقة مدن (المحطات التجارية) الشمالية بالجنوب : انظر خريطة رقم (٣) :

جدير بالذكر أنه كان هناك طريقان تجاريان هامان طريق اللبان وطريق الحرير ، وكان طريق اللبان يمتد من ساحل البحر الأحمر ابتداء من ميناء (قنا) ويمر عبر المدن اليمنية القديمة مثل: شبوه ومأرب ومعين ونجران ثم يواصل مسيرته عبر الحجاز وشمال غرب الجزيرة حتى يصل إلى غزة على البحر المتوسط . أما طريق الحرير فكان يأتي من الشرق عبر بلاد الرافدين ويسير بمحاذاة نهر الفرات حتى يصل إلى تدمر ثم دمشق ومنه مرة أخرى إلى البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

ويربط هذين الطريقين طريق فرعي يمتد من نجران إلى هجر (الهفوف) حاليًا في شرق الجزيرة ، ومنها إلى وادي الرافدين أو إلى سواحل الخليج ومنه بحراً إلى الشرق [٥٧]. وتعتمد

"قرية" الفاو مركزاً تجارياً يقع على الطريق التجارى الفرعى ، وقد تاجر أهلها بالحبوب والطيوب والنسيج والأحجار الكريمة والمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص فأثروا بذلك ثراءً انعكست آثاره فيما بنوه من قصور وأسواق ومتاجر ومعابد [٥٨]. إن تعد "قرية" الفاو عاصمة دولة كندة صورة حية لما كانت عليه مدن القوافل فى مناطق وسط الجزيرة العربية .

ويلاحظ أن القلم المسند كان القلم الرسمى الذى استخدمه مواطنو قرية " الفاو التى كانت تدعى فى النصوص اليمنية القديمة " قدبتم " . ولاعجب فى ذلك " فكندة " ومن والاها هى قبائل يمنية ، والقلم المسند هو القلم الذى استعملته ممالك جنوب الجزيرة العربية : سبأ ومعين وقتبان وحضرموت واوسان وحمير وهو الذى انتشر فى الشمال . إذن فقد نجح سكان الجنوب فى التجارة وأسسوا مراكز تجارية كانت تقيم فيها جاليات من اليمنيين على طرق القوافل ، فى وسط الجزيرة وشمالها .

وكانت جنسيتهم تلاحقهم مثل المعنيين الذين أسسوا مستوطنة فى العلا عرفت فى النقوش باسم " معين معصرف " . وكان الطريق التجارى الرئيسى يقع أحياناً فى سيطرة المعينيين وأحياناً أخرى فى أيدى السبئيين الذين كانوا يعاصرونهم [٥٩]. انظر خريطة رقم (٢) .

* * *

هل كانت ملكة سبأ المذكورة فى العهد القديم من بين الملكات العربيات الواردة أسماؤهن فى النصوص الآشورية ؟

يتبنى بعض الباحثين هذا الرأى ولكن يستبعد ذلك . والمرجح أن ملكة سبأ المذكورة كانت حاكمة على دولة سبأ اليمنية للأسباب الآتية :

١ - على كثرة تكرار ألقاب الملكات العربيات فى النصوص الآشورية بأنهن إما ملكة بلاد العرب (سمسى ، زبيبى ، ... إلخ) أو ملكة العرب (تلخونو ، اسكلاتو) فلم ترد اسم ملكة واحدة مقترنة بلقب سبأ ، رغم أن أحد هذه النصوص أطلق على أحد الملوك الرجال وهو كرب أيلو لقب ملك سبأ (عصر سنحاريب) ورغم أن نص أحد الحكام الرجال " يثامر السبئى" فى نفس السطر الذى ذكر فيه الملكة سمسى بأنها ملكة العرب كما يلى : " ومن بيرو ملك موصرو وسمسى ملكة العرب وابتامر السبئى ... إلخ " (Prichard p. 286) فلو كانت إحدى تلك الملكات قد اقترنت بسبأ لذكرت النصوص الآشورية ذلك كما ذكرت ايتا مر السبئى .

٢ - جاء فى إنجيل متى وصف لملكة سبأ (إنجيل متى ١٢:٤٢) : " ملكة التيمن " والتيمن كلمة سامية معناها " الجنوب " مما يجعل هذه الكلمة تنطبق على اليمن أكثر من انطباقها على منطقة فى شمال الجزيرة العربية .

٣ - وصف العهد القديم السبئيين بأنهم أمة بعيدة (سفر يوئيل ٣:٨) ولايمكن أن يوصف السبئيون بذلك إذا كانت بلادهم فى شمال الجزيرة العربية أى بالقرب من فلسطين .

٤ - تدل الآيات القرآنية التى تناولت قصة سليمان وحاكمة سبأ على أن سليمان لم يكن يعرف عن بلاد سبأ شيئاً واضحاً ، وهو أمر مستبعد إذا كانت سبأ تقع فى الشمال بالقرب من فلسطين .

وهكذا تتفق كل روايات العهد القديم والإنجيل والقرآن الكريم على أن دولة سبأ كانت بلاداً بعيدةً وأنها كانت تقع فى الجنوب .

ويعزز ذلك ما ورد فى العهد القديم باسم " سبارة سبأ " الذين هاجموا العبرانيين (سفر أيوب ٦:١٩) مما يدل على أن السبئيين فى الشمال كانوا يتحركون فى شكل قوافل تجارية ، ولم يكونوا يسكنون مستوطنة ثابتة مثل مستوطنة المعينيين المسماة " معين معصرف " مما يستبعد معه خضوعهم لحكم منظم مثل الحكم الملكى . وعلى هذا فلايمكن أن تكون الشخصيتان المشهورتان إلى سبأ فى النصوص الآشورية ، وهما ابتامر السبئى وكرب أيلو ملك سبأ ، من حكام هؤلاء السبئيين المرتحلين .

٥ - كما سبق أن ذكرنا فى (ثالثاً) ثبت من مقارنة النصين اللذين يذكران اسم " ابتامر السبئى " و " كرب ايلو ملك سبأ " بالنصوص السبئية المدونة بالخط المسند فى اليمن أن هذين الحاكمين هما نفسهما المذكورين فى النصوص الآشورية ، ذلك أن (يثع امر بين) لم يكن يحمل لقب ملك ، لذلك دعته النصوص الآشورية ابتامر السبئى ، أى بدون لقب ملك ، بينما ذكرت خليفته كرب ايلو بلقب ملك سبأ ، لأن كرب أيلو وتار كان أول حاكم سبئى يحمل لقب ملك ، كما جاء فى نقش فى صرواح من عصر ذلك الملك يعرف باسم " نقش النصر " إذ وردت عبارة فى هذا النقش تفيد ذلك وهى " هذه القرابين قدمها كرب أيل وتار مكرب سبأ عندما أصبح ملكاً (كربها) للإله ايل مقه " (٢٠١).

ومن كل ذلك يتبين أن سبأ المذكورة فى النصوص الآشورية هى دولة سبأ اليمنية ، وعلى ذلك فإن ملكة سبأ المذكورة فى العهد القديم كانت حاكمة على اليمن وليست ضمن الملكات العربيات المشار إليهن فى هذه النصوص .

٦ – وجدير بالذكر أن النصوص السبئية[٦١] لاتذكر اسم ملكة امرأة حاكمة ، سوى في أحد النقوش السبئية للملك " شاعر اوتر " ، فجاء في النص أن الملك " شاعر " بعد أن حقق أول نصر على حضر موت في معركة (ذات غيل) انتدب القيل (فارع احصن) للمرابطة في قصر (شقير) وحراسة أخته الملكة (ملك حلك) .

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يطلق عليها لقب ملكة بل دعاها " امرأة تملكهم " (سورة النمل : ٢٣) وسبب ذلك أن لقب ملك أو ملكة لم يكن قد ظهر في دولة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد ، وهو العصر الذي عاش فيه سليمان الحكيم (٩٦٥ – ٩٢٥ ق.م) الذي ربما عاصرته حاكمة سبأ . بل ظهر بعد ذلك بحوالي ثلاثمائة سنة وبالتحديد في عهد كرب ايل وتار [٦٢].

الهوامش :

١ – لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ٥٨ .

٢ – أحمد سوسة : مفصل العرب واليهود في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧١ .

٣ – Kitchen. K.A.Documentation fee Ancient Arabia. part I, Liverpool. 1994, 167 .

٤ – لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق : ٣٥ – ٣٦ .

٥ – Winckler. H., Die Keilschrifttexte Sargons, Leipzig. 1889 Upls. : ينشر هذا النص

2617; Luckenbill D., AR. II. 7; Pritchard J., ANET. PP. 285 .

عن أقدم النقوش العراقية التي ذكرت العرب انظر : أبو العيون بركات : اليمن وعلاقتها بدول الشرق الأدنى القديم في عصور ما قبل الإسلام ، مجلة اليمن الجديد ، العدد الثالث ، ١٩٨٧ ، ٤٢ ؛ وكذلك : لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٤٠٩ – ٤١١ .

Kitchen. K.A., op. cit., p. 160 - 168 .

عن الآراء حول سنوات حكم الملوك السبئيين : انظر نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٩٢ – ٩٧ .

٦ – Luckenbill. D., op. cit., II. 185-186. Galter, H.D.: Die Zerstorung Babyloos durch Sanherib, St Or 55, 1984, 161 - 173; Petrikova J., Assyria Under Sennacherib, AsOr 61, 1993, 1-0; Frame G., Rulers of Bbabyloonia. II. Toronto, 1995, 153 - 154 .

٧ – Saggs. H.W., Assyria. London. 1984. 87-89 ; Frame G., op. cit., 113ff .

٨ – بهيجة اسماعيل خليل : " نصوص تيغرتا – كوديري – اراصر ، حاكم سوخي وماري " ، سومر العدد ٤٢ ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ٨ .

٩ – Doe, B., Southern Arabia, London, 1971, 75 .

١٠ – يوسف محمد عبد الله : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، ج٢ ، صنعاء ، ١٩٨٥ ، ٢٢ ، فومل فرنز : " التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية " ، كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، ٣٦ ، محمد إبراهيم مرسي : أضواء على ملكة سبأ : حولية كلية الآداب جامعة الكويت ، الحولية التاسعة ، ١٩٨٨ ، ٣٨ ، ٣٩ .

١١ – عن نقش النصر : أنظر : أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٣ .

١٢ – Beeston A.F., Problem of Sabaean Chronologys, RSOAS, 1954, 16, Part I, p. 42 .

يرى مونتجمري أن الأسماء التي وردت في النصوص الآشورية (يثع امر يدا) و (كرب ايل وترا) هي أسماء سبئية من شعوب الشمال قبل هجرتهم إلى اليمن :

Montgomery, J.A. Arabia and The Bible, Philadelphia 1969, p. 60 .

وهذا يعيد الاحتمال لعدم وجود أسماء ، بين شعوب الشمال تشبه هذه الأسماء السبئية .

١٣ - بهيجة اسماعيل خليل ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

١٤ - Smith. S., Sennacherib and Esarhaddon, CAH, III, 1965, 92-93

١٥ - أبو المحاسن بركات : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

١٦ - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٢ ، بيروت ، ١٩٧١ - ٦٨ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

١٧ - يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

١٨ - Redford, D.B., Egypt. Canaan and Israel. Cairo, 1995, p. 350 .

١٩ - Abbot, N., Pre. Islamic Arab Queens, AJSL, LVIII, 1941, p. 1-22 .

٢٠ - جاءت حوليات الملك تجلات بلاسر على لوحات جدارية في القصر الركزي في مدينة كالح (نمرود) ، رقام السرحلون ينقل هذه اللوحات إلى القصر الذي يقع جنوب غربي المدينة نفسها كالح (نمرود) ، ١٤ أدى إلى تلف بعض النقوش ، وقام Rost بنشر النص انظر : Luckenbill, D., op. cit, I, p 269

٢١ - Luckenbill, D., op. cit. I, p. 127 ; Pritchard, J., ANET, 283; Montgomery, J.A., op. cit., 58 .

٢٢ - Rawlinson, vol, III, pl. 10, No. 2,1-45 : ; قام بنشر النص Pritchard J., ANET, 283 ; وكذلك Luckenbill, D., op. cit, I, : وقام بترجمته Rost, Pls, XXV-XXVI, Text pp. 79-83 . Pritchard, J., ANET, 284 وكذلك ; p. 293

يرد في النص أن الملكة شمس عربت إلى مدينة " بازو " ؛ ويرى مورسل أن أرض بازو تعني النصف الشمالي من وادي الرحان . Musil, A., Arabia deserta, New York, 1927, 484

ويرى البعض أنها تعني لحيد ؛ انظر : جواد علي : المفصل ، جـ١ ، ص ٥٩٤ - ٥٩٦ ، وهناك من يرى أنها المنطقة الواقعة تجاه جزيرة البحرين عند سواحل الجزيرة العربية ؛ انظر :

Ephal, I., The Ancient Arabs. Jerusalem. 1984. 133;

محمد بيومي مهران : دراسات في الشرق الأدنى القديم ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ٩٧ .

٢٣ - Luckenbill. D., op. cit, I, p. 279 ; Pritchard, J., ANET, 283; Montgomery, J.A., op. cit., 58 ; Abbot, N., op. cit . 4; Olmstead A.T., op. cit., 199 .

٢٤ - Luckenbill, D., op. cit, II, 7 .

٢٥ - Ibid. op. cit. II .

٢٦ - Ibid. op. cit. 26 .

٢٧ - يوجد هذا النقش على لوحة من الأليباشر توجد في متحف بابل .

٢٨ - Luckenbill, D., op. cit. II, 158 .

ادوماتو : تعرف اليوم (باجوف) ، وعلى مبعدة ٤٠٠ كم شرقي البترا ، وعرفت في النصوص المسمارية باسم (ادوماتو) وفي العهد القديم باسم (دومة) ، واشتهرت تسميتها (دومة الجندل) من موقعها على حافة صحراء النفود الشمالي ، وهو الموقع الذي أعطاها أهمية كبيرة في التاريخ القديم ، كمرتفع استراتيجي كان سقوطه أمام المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي يعني تساقط باقي المدن المجاورة . انظر : عبد الرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ١٩٧٥ ، ص ٨٢ .

٢٩ - عارف أحمد اسماعيل : العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية ، صنعاء ، ١٩٩٨ ، ص ١٣٧ ؛ Musil, A., op. cit. 481; Kitchen, K.A , op. cit., 167-168 .

٣٠ - Abbot, N., op. cit., 4-5; Prichard, op. cit., 301 .

٣١ - Huffmon H.B., Amorite personal names in the Mari texts, Baltimore, 1965, 215 - 216 .

٣٢ - Pritchard, J., ANET, 291-292 . ؛ أحمد فخري : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، عن جزائيل ملك قبعار انظر : Eph'al I., op. cit., 118-119 . ؛ جواد علي : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٩٧ ؛ عن أرض بازو : انظر هامش ٢٢ .

٣٣ - Eph'al I., op cit., 130-133 .

٣٤ - Luckenbill, D., op. cit. II, 209 .

٣٥ - Richard, J., ANET, 297 .

٣٦ - Luckenbill, D., op cit. II, 314 .

٣٧ - Smith. S., CAH, 1960, vol. 3, Ch.5, 125 .

٣٨ - عارف أحمد اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ؛ Ahmed, S.S., Southern Mesopotamia in the time of Ashurbanipal, Paris, 1968, 36-39 .

٣٩ - Luckenbill, D., op. cit, II, 314 .

٤٠ - Ibid, 381 - 319 .

٤١ - Ibid, 341-315 .

٤٢ - Iraine, A.K., The Arabs and Ethiopian", Wiseman, D.J., People of the old Testament times, Oxford, 1975, 291 ; Kitchen, K.A., op. cit., 168 .

٤٣ - عارف أحمد اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

٤٤ - يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ٨٤ .

٤٥ - نورة عبد الله العلي النعيم : الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي ، الرياض ، ١٩٩٢ ، ٢٠٧ .

٤٦ - أبو العيون بركات : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

عن علاقة الملوك الأشوريين بحكام القبائل العربية الشمالية : انظر :

Redford, D.B., op. cit. II, 348 - 351

٤٧ - Elat, M., Economic Relations in the lands of the Bible, Jerusalem, 1977, 135- 138.

٤٨ - عارف أحمد اسماعيل : المرجع السابق ص ١٣٣ .

٤٩ - عنى الملوك المصريون في عصور التوسع الخارجي بتربية عناصر جديدة من الأطفال والفتية الأجانب إلى جانب طوائف الأطفال المصريين ، ومنهم أبناء الحكام . وقد ذكرت حوليات الملك تحوتمس الثالث عن بعض أن جلالته : " استقدم أبناء الكبراء وأخوتهم ليكونوا ودائع على أرض مصر حتى إذا هلك أي واحد من أولئك الكبراء عمل جلالته على إيفاد ابنه ليقوم على مكانه " ولاشك في أنهم كانوا يلقون معاملة خاصة ، وأن برنامج تربيتهم كان يوضع بحيث يكفل تشبعهم بالتقاليد والحضارة المصرية وولائهم للملوك المصريين .

٥٠ - لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٤١١ .

٥١ - نورة عبد الله النعيم : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ، انظر :

Eph'al I., the Ancient Arabs : Nomads on the border of the Fertile Crescent 9-5 the Century B.C., Jerusalm, the Mugnes Press, 1984, second ed: 65-86 ; Olmstead, A.T., op.cit, p. 58-59

٥٢ - Montgomery, J.A., op. cit., 58-59 ; Elat, M., Economic Relations of the Neo-Assyrian Empire. JAOS, 98, 1978, p. 28 .

٥٣ - Dougherty, R.P. Nabonidus and Bal Shazzer. London. 1980, p. 86 .

٥٤ - Pritchard, J., ANET, 1969, 292 .

٥٥ - رضا جواد الهاشمي : الجوانب العسكرية والعلاقات السياسية في تاريخ العرب القديم للألف الأول قبل الميلاد ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد السادس والثلاثون ، ١٩٨٩ ، ص ٢١٥ .

٥٦ - Dougherty, R.P., op. cit 44 - 45 .

٥٧ - يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

٥٨ - عبد الرحمن الطيب الأنصاري : قرية " الفاو " صورة للحضارة العربية قبل الإسلام ، الرياض ، ١٩٨٢ ، ١٤ - ١٦ .

٥٩ - أحمد فخري : المرجع السابق ، ١٣٣ ؛ عبد الرحمن الطيب الأنصاري : المرجع السابق ، ٢٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، الاسكندرية ، ص ١٠٤ ؛ Musil, A., the Northern HEGAZ, New York, 1926, 288 .

٦٠ - Repertoire d'Epigraphie Semitique no 3045 ؛ أمل محمد يونس مهران : دراسة تاريخية للعلاقات بين الجزيرة العربية وبلاد الشرق الأدنى القديم خلال الألف الأول قبل الميلاد ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة الاسكندرية ١٩٩٦ ، ص ٢٢ .

٦١ - مطهر علي الأرياني : في تاريخ اليمن ، صنعاء ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ - ٨٤ يناقش هذا البحث حل ملكة حقيقية أو زوجة ملكية .

٦٢ - عبد المنعم عبد الحليم سيد : البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص ٥١٩ .

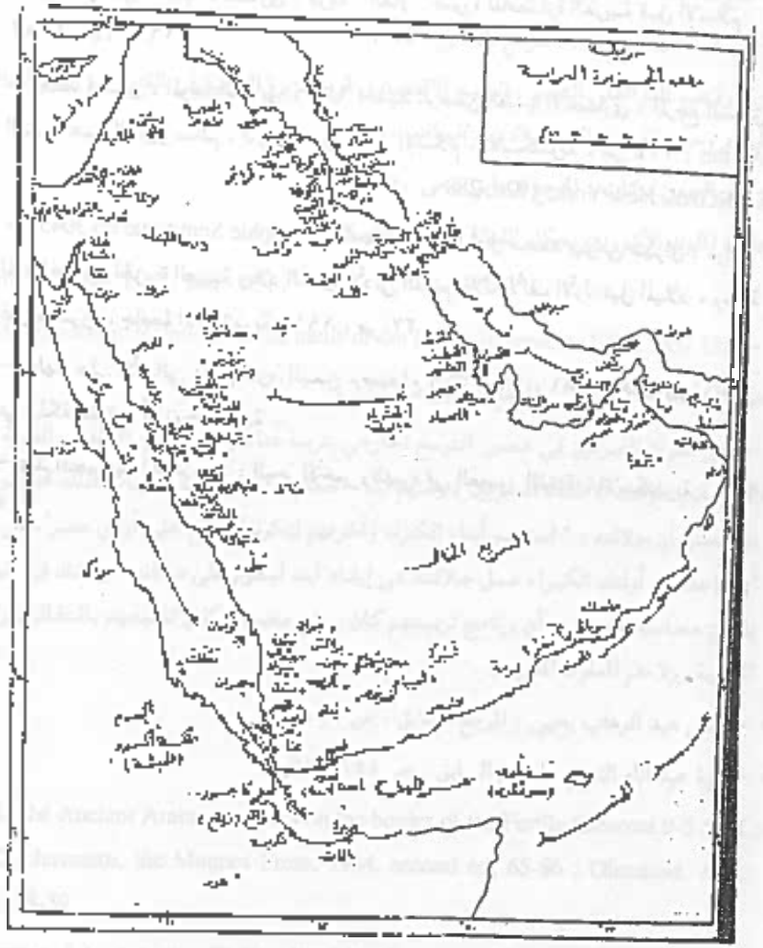

(خريطة رقم ١)

مدن الجزيرة العربية

عبد المنعم ماجد : الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى

القاهرة ، ١٩٦٠ ، رقم (٣)

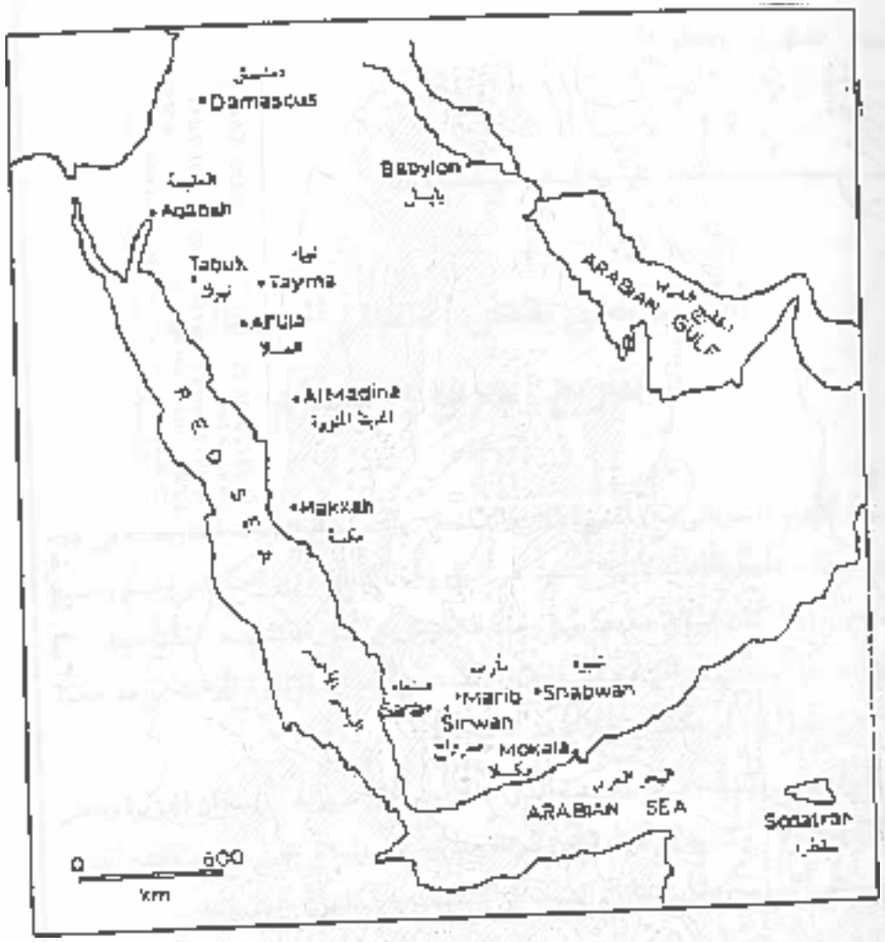

(خريطة رقم ٢)

تيماء وما جاورها

حامد أبو دراك : مقدمة عن آثار تيماء ، الرياض ١٩٨٦ ، ص ١٣٩

(خريطة رقم ٣)

أحمد سهيل زكار*

أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام

يعد الأدب السرياني بين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة علية خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي إحساس رفيع وأمانة وإخلاص . ولما كان هؤلاء جميعًا من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة . فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين ، رسمته يد العناية الإلهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية .

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية الذي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون . ففي سورية والجزيرة مازال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية .

وكتب التاريخ السريانية مسيحية في المحتوى والتعبير ، تلونت بعمق بالكتاب المقدس وسلوك وسير آباء الكنيسة ، وقد تم تصنيف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في مدينة الرها (أديسا - أورفا حاليًا) أو قربها ، فللرها قدسية كنسية خاصة ، على اعتبار أنها أول مدينة ، أو لنقل أول مملكة ، في العالم تبنت المسيحية دينًا رسميًا . وقد اعتمدت لهجة

* - أستاذ التاريخ بجامعة دمشق .

الرها وغطها بالكتابة السريانية فى جميع أرجاء العالم السريانى الذى تجاوز الرقعة الواقعة فيما بين الهضبة الأرمينية فى الشمال حتى حدود الجليل فى الجنوب ، وإقليم عبدين فى الشرق حتى البحر المتوسط فى الغرب .

وغطت الكتابات التاريخية السريانية أكثر من عشرة قرون ، أى منذ القرن الثالث للميلاد حتى أيام المغول ، وخلال هذه الحقبة المديدة لم يتولى السريان دوراً مباشراً فى التحكم بشؤونهم ، ثم إنهم لم يسعوا لفعل ذلك ، ومرد هذا بالأساس إلى الجغرافيا ، ففى البداية توزعوا بين إمبراطوريتين آريتين متنازعتين هما : بيزنطة فى الغرب وفارس فى الشرق ، وامتدت حدود جبهة القتال المستمر بين هاتين الدولتين فيما بين الفرات والدجلة ، وكانت الحروب مدمرة خربت الأرياف والمدن بشكل مروع ، ولم يكن للسريان أية مصلحة فى هذه الحروب ، وفضلاً عما نالهم من دمار وأذى مستمر من جرائها شطرت السريان إلى شطرين : شرقى وغربى ، وكذلك شطرت كنيستهم ، فمنذ القرن الخامس للميلاد استقل سريان بلاد مابين النهرين عن إخوانهم فى الغرب ، وفقط مع الفتوحات العربية أزيل الستار الحديدى الذى فصل مابين سريان المشرق والمغرب واستأنفوا تجانسهم الطبيعى ، إنما منذ أن حدث هذا بدأ المسيحيون يتحولون إلى أقلية متضائلة لها بعض الأدوار السياسية والإدارية .

وانعكس هذا كله على الكتابات التاريخية السريانية ، ففى لهفا حوت على حكايات كثيرة صممت لإثارة الرؤساء للكنيسة ولتقويتها ، وعليه نجد فيها روايات أسطورية عن وصول أولى البعثات التبشيرية إلى الرها وتراجم حياة شهداء الكنيسة ، وهى كثيرة جداً ، جل موادها خيالى مخترع لايمكن للمؤرخ الجاد الإفادة منه .

وأفضل من هذه التراجم محضرطات وثائق الرها مع أنها وصلتنا مقتضبة ، وأقدم مادة تاريخية فيها تتحدث عن فيضان أصاب الرها سنة ٢٠١م ، ويرجح أن كاتب وصف هذا الفيضان كان شاهد عيان ، وكان مما قاله : " أصبحت ينابيع الماء التى انبجست من القصر العظيم ، العائد للملك أبجر ، غزيرة وفاضت ، وكما حدث فى مناسبة فارطة تعاظمت وطافت على جميع الجوانب " ، " وبدأت ساحات قصر الملك وبيوته تمتلىء بالماء ، وعندما رأى سيدنا أبجر الملك ذلك ، صعد إلى مكان أمين على تل يشرف على هذا القصر ، حيث كان حرفيوا الأشغال الملكية يعيشون ويسكنون " .

والمتمعن فى أسلوب هذه الرواية يراها صادقة ومباشرة ومختصرة ، وهى بالحقيقة نموذج لما تلاها من كتابات ، ومن المفيد التعرف هنا إلى عدد من مشاهير المؤرخين السريان وصولاً إلى مؤرخينا الثلاثة الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية .

لعل تاريخ يشوع العمودى هو الأقدم بين ماهو معروف من التواريخ السريانية ، ولا نعرف شيئاً عن يشوع سوى أنه ابتدأ كتابه بحوادث سنة ٣٩٥ - ٣٩٦م وانتهى فى سنة ٥٠٦ ، ويرجح أن هذا التاريخ قد صنف بالرها ، ذلك أنه كتب ببساطة وأمانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع ، تحدث فيه يشوع عن الحروب بين الفرس والروم فوصف أعمال الحصار والغارات والكمائن والأسلحة ، حتى أننا نكاد نسمع دمدمة الحشود العظيمة وزحف الهون على أعالى الجزيرة وسورية ، ففى سنة ٥٠٢ م قاد النعمان بن الأسود قوة كبيرة من العرب والفرس والهون فأغاروا على حقول حران والرها ، ولدى يشوع هنا رواية شهيرة عن قدوم تعزيزات قوطية قدمت نجدة من البيزنطيين فنزلت على أهالى مدينة الرها واحتلت مساكنهم ، اسمعه يقول : " ونهبنا أيضاً الذين جاؤوا لمساعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون أو رائحون بقدر ما فعل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فراشهم ، ونامسوا فيها ، فى حين نام أصحابها على الأرض فى الطقس البارد ، وطردوا آخرين من بيوتهم ، ودخلوها ليسكنوها ، وانتزعوا عن آخرين ثيابهم وأخذوها ، وضربوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تافه ، وتشاجروا مع آخرين فى الشوارع ، وكانوا يسبونهم لأصغر سبب ... وكانوا يهاجمون الناس فى الطرق العامة ... من النساء العجائز إلى الأرامل والفقراء ، وكانوا يمنعونهم من أعمالهم ليخدموهم ، وباختصار ، لقد أزعجوا الناس جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك إنسان لم يعان بعض الأذى منهم " .

لقد كان البدو هم الرعب الدائم لسكان المدن والقرى فى شمالى الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربى) ، بسريانية تلك الآونة ، وفصل العرب هؤلاء فى الريف بشكل رئيس بين آمد وثيريوس - الذى وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم إلى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام بداة طبعاً ، كما كانوا يسمون عادة - هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات فى المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر أمير الحيرة ، الذى ضحى بأربعمائة أسيرة من العذارى لربة القمر - العزى - من فم لقم .

وبدأت المسيحية الحقيقية في إصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس، وكتب يشوع يقول : " أنهم عبروا دجلة ، وسلبوا ، وأخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الأراضي الفارسية ، باصاحب القداسة " . ويتابع مخاطبًا مراسله : " يجب أن تعرف حقيقة أن الطائيين شكلت الحرب بالنسبة لهم موردًا كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين " .

وقد لاحظنا ببساطة أسلوب الكاتب وصراحته ، ورأيه يشوع ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم أعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفًا وتفهمًا للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فهما هوذا يخبرنا عن أسعار القمح والشعير والخضار والنبيذ ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عن عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قليلًا .

أما المؤرخ يحيى العربسوسي (أفسوس) الذي عاش من سنة ٥١٦ إلى نحو ٥٨٧م فكان ذا طبيعة أكثر حدة وصرامة ، وهو بالأصل من أهالي آمد ، أقام معظم حياته في القسطنطينية، وكان على صلة وثيقة هناك بالأباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بشكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في آسيا الصغرى ، وكان أحد الذين أثاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد أعلن هو نفسه ، بصورة مملة نوعًا ما ، أنه:

" لم يكن غريبا عن صراع الأحداث ... بل كان واحداً من الذين زحفوا إلى المعركة ، والذين ... تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر آلام الاضطهاد والسجن ... " .

وبما أن يحيى كانوا عضواً قياديًا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقًا خطيراً ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف ضيق الأفق والتعصب ... والحاجة إلى ضبط النفس والظلم والقسوة ، التي كانت شائعة في تلك الآونة .

وجعلت مسألة الإيمان بالإرادة الواحدة للمسيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا أعضاء في الطائفة نفسها . ونقرأ على سبيل المثال ، أنه عندما سجنت جماعة كبيرة من المسيحيين من قبل الفرس في أنطاكية ، نجح مسيحيان عربيان في الهرب من

تايبيريوس - خوفًا من الانشقاق الديني الذي مزق إمبراطوريته - المنذر بن الحارث إلى عاصمته، وعمل على التوصل إلى تسوية مع هذا الملك العربي المسيحي كان يحيى نفسه موفداً إلى المؤتمر ، ونجد في صفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع أنحاء الإمبراطورية كمحارب ورجل دولة .

وقد ألقى أحد معارف يحيى الآخرين ضوءاً غريبًا على التاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان أحد الممثلين القلائل للكنيسة القائلة بالإرادة الواحدة للمسيح في الأراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشيم ، وكان مجادلاً فظًا ، قام برحلات متكررة إلى فارس ، وراوغ أعداءه النساطرة بالامتناع عن الاعتراف بصحة أصالة الرداء الأرجواني ، وعندما كان بزيارة للحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس وسجل يحيى على صفحات تاريخه أخبار رسل ذي نواس إلى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها - وهي حادثة ذائعة الصيت - كان لها صدى واسع في الأراضي العربية .

إننا يجب أن نقدم التقدير والإجلال لأمانة يحيى كمؤرخ - فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسيحية ، مديحًا وافراً بقوله : " وكما أثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلاً حصيفًا ، حكيمًا ، وقد أرقف نفسه طوال حياته باجتهاد على دراسة الأعمال الفلسفية... " .

ويبدو أيضًا أن الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو أنه كان مستعداً لتقديم تنازلات كبيرة لإعادة إرساء السلام .

وهو بين مؤرخي تلك الحقبة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس . اسمعه يقول : " تلك الأحداث، التي لم نرها أو تدركها معارفنا . ولايمكن أن نشهد بصحتها بقدر ما نحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها " .

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم ذاتية للنساك والزهاد الذين كانوا من معاصريه في منطقة آمد ، دار نشأته الأولى ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في تاريخ الجزيرة قبل الإسلام . وهي مادة حول شعب ورع جاهل يجد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابهت معاناتهم طرائق المشائين ، ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين ألهموا البدو في زمانهم الإخلاص

المؤمنين بالإرادة الواحدة في المسيح ، قد اجتذبت البداة العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها النساطرة وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدراً لها أن تنفجر من الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، أي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت من قبل فارس خلال تلك الآونة ، كتب تراجم فقط ، متكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، ألفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة وهي تاريخ مشيخرخا ، مع معلومات قيمة حول قيام الأسرة الساسانية ، وتاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الإسلام ، وتاريخ ابن حديشا .

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العريسوسي ، كان النبي محمد ﷺ في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره ، وكان مقدراً للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما أمكن لأحد أن يتنبأ بها في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول التوسع العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقت بحملات هرقل والعرب في ما لايزيد عن كلمات قليلة ، وعندما ارتفع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الإسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في العصور الإسلامية هؤلاء المؤرخون السريان يعتمد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهم كانوا دائماً بعيدين عن توجيه الأمور ، ولكنهم الآن باستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بلاط الملوك والأمراء ، بمكانة سياسية سلبية ولامبالية ، وحتى بلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، من الأسلم أن تكون له صلات صغيرة بسلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥م ، على سبيل المثال اعتقل البطريرك جورج ، وقد قدح فيه أعداؤه ، وجلد أمام الخليفة المنصور ، وعندما سأله الخليفة بجفاء : لماذا لم يتقدم بطلب (براءة ملكية) تؤكد منصبه في الكنيسة . أجاب بلطف : لم أرغب في إزعاج أحد .

ويلاحظ مع ذلك ، أن المسيحيين مهما كان تحفظهم وبقاؤهم بمنأى عن حروب الحكام المسلمين ومؤامراتهم ، كانوا مع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل أرض وفي كل عصر ، ونستطيع أن نستخرج من تواريخنا السريانية معلومات مفيدة

حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية للناس العاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهت أقلية دينية تحت الحكم الإسلامي ، ويجب بالطبع ، أن نطبق على التواريخ الأخيرة مسطرة منزلقة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخياً .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الإسلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي تصف حوادث سالفة على زمانهم ، لأنهم ربما كانوا ، يكررون آثاراً موثوقة ، خلفها لهم أسلافهم . لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزيدوا على تأكيد الحقائق ، التي وسعها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم ، أو حدثت قرب أيام حياتهم .

ولفت للانتباه أنه يوجد في هذه التواريخ فقرات ناقدة ، لابل ناقمة بقسوة للنظام الذي كان قائماً ، وفي هذا دليل واضح أن السلطات الإسلامية أعطت حرية في العمل والاختيار جديرة بالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ، فقد شعر هؤلاء الكتاب ، بأنهم أحرار في أن يكتبوا كما يريدون باللسان السرياني أو العربي ، ويعزز هذا كثيراً ويرفع من قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

لقد بينت من قبل أن التاريخ السرياني كما نفهم إصطلاح التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبداً ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبياً بالتدوين في العصور الإسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، حتى عندما أصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للإسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشارقة الجزيرة – دنحا وايشوذنح ، وتوما المرقي والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجم للشهداء والقديسين – لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة وهناك استثنا ان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه لابد قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ، ويحتمل أنه صنف من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ إلياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس أكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة – على الرغم من القلة في العدد – باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها . وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في

التواريخ أولاً بصورة غير صحيحة إلى البطريرك دانيوس التلمحرى ، والذى ينتهى تاريخه بعام ٧٧٤م ، وهو رواية عملة نوعًا مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب ضد خطايا الإنسان ، مع الاضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك فهى تعطينا وصفًا ضافيًا لبلاد الجزيرة فى القرن الثامن ، من مثل قوله : " لقد كانت الأرض كلها ... رائعة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير فى قرية ، لايملك حقلاً وجملاً وماعزاً ، ولم يكن هناك مكانًا قابل للزراعة تقريبًا ، لم يبذر بالكروم حتى فى الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمر ، كانت الكروم تزرع ... وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعى الكثيرة " .

ولكن مؤلفنا يستغرب ، " فالأرض مليئة أيضًا بالظلم " ، وقد كتب بمرارة عن الصراع المصطنع ضمن الكنيسة ، وضد عدم الاستقرار الداخلى ، أو الثورة ضد السلطة ، والمجازر التى كانت تعقب ذلك ، وقد نقد بالابتزاز ، الذى قام به الحكام وأتباعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجال لضمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر فى حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال " بالصيد فى النهر بدون تصريح " ، وكان الموظفون يبالغون فى تقدير العشور : " وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تمامًا ، حتى لو لم يحصد أكثر من خمسة أضعاف البذار ، ولقد تحمل العرب محنًا أقسى من السريان " .

" ثم انقض جباة الضرائب عليهم بالضرب والتعذيب من كل الأنواع ، وكان عليهم نظريًا أن يأخذوا العشر ، ولم يكن العرب يستطيعون جمع ماهو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل ما يملكون ، وقد حاولوا حشهم على أن يأخذوا وفق القانون ، الذى شرعه محمد ﷺ والملوك الأوائل ، وأن يأخذوا من كل واحد حسب مايملك قمحًا ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا سلعكم وأعطونا ذهبًا " .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التى كتبها البطريرك دانيوس الذى نسب إليه خطأ التاريخ الذى وصفناه لتونا . وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراسة التاريخ فى أحد الأديرة ، عندما سيم رغمًا عنه بطريركًا للبعاقبة فى عام ٨١٩ ، وناضل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الانشقاق من الداخل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغداد،

لا بل حتى إلى مصر يلتمس تدخل السلطات ، وترى سيرته الذاتية من خلال أنه كان مراقبًا داهية للرجال ، وقد صور عجز الأقليات واعتمادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلاً من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلى كلمات الخليفة المأمون القاسية التى وجهها إلى دانيوس : " إنكم تزعجوننا وتضايقوننا كثيراً أيها المسيحيون وخاصة أتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التى يقدمها أحدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد أيام " .

وفى روايته حول زيارته لمصر ، لدينا صورة ناهضة بالحياة للطائفة المسيحية هناك : "مدينتنا محاطة بالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو أى موارد أخرى ، ولايمكننا أن نربى ماشية ، المياه التى نشربها تأتى من بعيد ، ونحن نشتريها بسعر أربعة مثاقيل للراوية ، وعملنا محصور بالصرف الذى تغزله نساؤنا ، وتقوم نحن بنسجه ، والثمن الذى نحصل عليه من تجار القماش ، هو نصف مثقال فى اليوم ، وحيث أن عملنا لايوفر الخبز الكافى لأفواهنا ، وعندما نطالب بالضريبة ، نضطر إلى دفع خمسة دنانير (أى ثلاثين مثقالاً) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا بالسجن ونكره على تقديم بناتنا وأبنائنا كضمان للعمل كعبيد عامين لقاء دينار واحد ... " .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحاكم مصر الذى " أعطى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قانون الجزية – ٤٨ مثقالاً من الأغنياء ، و ٢٤ من متوسطى الحال و ١٢ من الفقراء – عند جمع الجزية " .

وننتقل إلى مؤرخينا الثلاثة ونصوصهم ، والنص الأول هو حولية لمؤرخ رهاوى مجهول لعله باسيل مطران الرها فى أيام أحداث الحولية ، التى تعالج أخبار مدينة الرها وما كان ما يحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر ، إنها رواية دقيقة ، تذكر بقوتها بأسلوب تاريخ يشوع العمودى الأقدم بنحو سبعة قرون . فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وألفه المؤلف مع خطط الرها ، أنه كان معاصراً لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضها ، لهذا رجحنا أنه ربما كان باسيل المطران السورى لمدينة الرها فى ذلك الوقت ، ونقرأ عنده عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل وأسير الصليبى جوسلين ولكن مثل هذا الكرم، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار فى الرها والمدن المجاورة ، خلال أيام السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكى

سنة ١١٤٤م ، مما أثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قام حملة صليبية جديدة - واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة أكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥م : " وخرج المطران والكهنة والشماسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الإنجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته وأحواله وقال إنه جاء من أجلهم لإمدادهم بما ينقصهم .. لقد زار كنائسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت العادة في زمن الفرنجة ... ، وأوصى المطران أن يكون حريصاً على حراسة المدينة ، وأن لايخون حكومته " .

وهذه الرواية واردة أيضاً في تاريخ كان مؤلفه حاضراً عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣ .

وأشهر منه وأعظم أهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة مخائيل السوري (ت١١٩٩) لقد أصبح رأساً لكنيسة اليعاقبة في سنة ١١٦٦م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاماً ، ولقد كان كاهناً عسكرياً مبالاً للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين أتباعه ، وكثيراً ماكان تاريخه مثيراً للجدل المذهبي ، وهو لهذا لايقدر بثمن، وهو مرتب في ثلاثة أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمانية ، وتعلق الثاني بالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وأمور ذات أهمية شخصية ومحلية . وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مع ما فيه من تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالباً الأكثر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشيوخ القبائل الصغار في الجزيرة ، قليلي الاهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسطاء من أهل المدن ، والفلاحين الذين تكونت منهم رعية ميخائيل . وبالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصة مشابهة لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم من المسلمين أو الفرنجة.

وفي القتال بين الأكراد والتركمان ، كان كل طرف يصب نقمته على المسيحيين المحليين ، ولقد كانت لنور الدين سمعة في الورع والإحسان بين المسلمين ، ولكن المسيحيين رأوه خلاف ذلك ، وعندما جاء إلى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلاً : " ضاعف الكوس على المسيحيين ، وزاد الجزية ، وألزمهم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعرفوا ويمكن تمييزهم من قبل العرب ، وقضى أيضاً أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على أكتافهم ، حتى يعرفوا " .

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، أعدم الوزير ابن البلدي وأوضح ميخائيل ، أن الوزير الذي ذبح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفة الجديد بمحبة المسيحيين نكاية بالوزير وكراهية له .

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضعوا أملاً كبيراً في عموري الأول ، الذي روعهم موته ، في سنة ١١٧٤م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخائيل نفسه أن يدين أو يصف باللاأخلاقية الرشاوى المقدمة للحكام والعسكريين وسواهم من أجل دفع أذيتهم .

وكان نصيراً مدافعاً قوي الشكيمة عن رعيته ومحافظاً على حقوقهم كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسيف الدين غازي ، الذي اقترح تسميته كاهن مناقس له ليكون بطريركاً :

" إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك من أسلافك ، فلتعلم أنك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل من الأنبياء ، موسى وعيسى ومحمد ﷺ لأنك تدمر مشيئة الله ... أما بالنسبة لي فلفقدان رأسي لاقيمة له ... وها أنا أقدم بحرية رأسي فدعهم يقطعوه ، لأني أخالف مبادئ القانون " .

وفي عام ١١٨١م استدعي ميخائيل من قبل قلج أرسلان إلى ملطية ، فذهب مرتعشاً ، ولكن السلطان استقبله بكل حفاوة وتكريم ومجاملة ، وتناقش البطريرك معه وأصغى إليه (يؤكد لنا) بسرور ، وتأثر بحكمته إلى درجة جعلت الدموع ، تنهمر من عينيه (السلطان).

وتوفرت لميخائيل فرصة لحضور القداسات في جميع أنحاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل عموري الأول ... الخ

وكانت تعليقاته على مجموعات القرى الرئيسة الثلاث في غربي آسيا في تلك الآونة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الأول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسع ، اسمحه يقول : " وفي السنوات التي سنكتب عنها الآن ، سيطر الهدوء والأمن في كنيستنا الأرثوذكسية لهذا السبب ... وكان الروم القساة محتجزين وراء البحار " . ولم يشر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية أيضًا ، وكان لهم أساقفة في كنائسهم ، صعوبات في أمور العقيدة ، ولكنهم كانوا يعدون مسيحيًا كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للأتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البلاد التي يسكنها المسيحيون ، فكرة عن الأسرار المقدسة ، وعليه فقد عدوا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أو اضطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك أنهم شعب كافر شرير " .

وتأتي مع ابن العبري إلى آخر تواريخنا السريانية . لقد أكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوري حتى عام وفاته سنة ١٢٨٦م ، وجاء تاريخه بالسريانية - لا أبحث هنا في تاريخه بالعربية - في جزأين : تعامل أولهما مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية وقد عبر وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط رأسه ، وكان هو نفسه حاضرًا كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغول في سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠م . وكان على معرفة بأمراء وأميرات من البلاط المغولي .

وقد انبعث مصائر المسيحيين مسارًا ، لايمكن التنبؤ به ، فمن جهة وحد العرب صفوفهم مع المسيحيين للدفاع عن ملطية ضد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣م ، ومرة أخرى في سنة ١٢٥٦م . وهكذا أيضًا في وجه العدوان المغولي على بغداد في سنة ١٢٥٨م . وقد أودع العرب الأغنياء في المدينة ممتلكاتهم للحفظ في خزائن الجاثليق ، ومن جانب آخر ، نهبت الأديرة المسيحية من قبل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبل الفقراء من المسلمين في بغداد والموصل واربل .

وكانت الطائفة المسيحية بالتأكيد في وضع شاذ في تلك الآونة ، ولم يتخذ أمراء المغول موقفًا عدائيًا تجاههم ، بل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصب

عليا في البلاد ، وأعلن ابن العبري : " حازت الكنيسة على الاستقرار والحماية في كل مكان" وقد دعا قبلاي خان باسم " الملك الحكيم العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء والأطباء من جميع الأمم " .

ومع ذلك إن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها : " إنهم في جشعهم ، قتلوا أيضًا كثيرًا من المسيحيين وأسروهم وتهبوهم ، مع أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لايؤذوا المسيحيين " .

وتاريخ ابن العبري بكل ما حواه ، ليس مرضيًا ، فمؤلفه لم يعطنا شيئًا من اللمسات الشخصية ، التي جعلتنا مهتمة وصلاته الشخصية نتوقعها ، فقد كانت ولاءاته طائفية ضيقة، ويبدو أنه كان يفتقر إلى معايير تماسك الذات والأمانة ، التي تميز بها المؤرخون الأقدم ، لأن قسوة القائد المغولي سنجقا وغدره (ذلك الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغي علينا ، أن لانحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته هذا التاريخ ، لم تتعمد ، بالنسبة له ، كونها تمرينًا في الإنشاء السرياني وجزءًا من محاولته العامة لإحياء الاهتمام باللغة القديمة ، وقد حكم على التجربة سلفًا بالإخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرته ، وإنه لأمر له دلالته أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية ، وهي عربية بأحرف سريانية .

وتكاد روايات ابن العبري عن أحداث الحروب الصليبية أن تكون مجرد تكرار مختصر لما كتبه سلفه ميخائيل الكبير ، ولهذا عدت مواد ميخائيل أعلى أهمية ومكانة ، ولاشك أن الإفادة منها ستكون أكبر لدى مقارنتها بما أورده ابن الأزرق الفارقي الذي أرخ في العصر نفسه وعاش في المنطقة ذاتها مثله مثل البطريرك ميخائيل ، وتتأتى الفائدة ليس من الخلاف في عرض الروايات وإنما من الخلاف بالمشاعر .

إنها المرة الثانية التي نشرت بها نص المؤرخ الرهاوي المجهول بالعربية ولكن الأولى بالنسبة لنص ميخائيل الكبير ، على أنه مفيد أن نذكر أنه لتاريخ ميخائيل الكبير ترجمة بالعامية العربية كتبت بالكرشونية ، منها أكثر من نسخة مخطوطة واحدة في بلدة صدد قرب حمص وعليها اعتمدت كما استفدت كثيرًا من الترجمة الفرنسية للكتاب ، وسبق للقس الإسلامي من تاريخ الزمان لابن العبري أن نقل إلى العربية من قبل الأب اسحق أرملة ونشر تباعًا ؛

مجلة المشرق ثم أعيدت طباعته بعد جمعه في بيروت ١٩٨٦ ، وهذه الترجمة متوسطة الحال ، لاتخلو من بعض الأخطاء خاصة في أسماء الأعلام .

وحبذا نشري للنصوص السريانية هذه عملاً محرضًا لمزيد من العناية بالأصول التاريخية المكتوبة بالسريانية وتحقيقها وترجمتها إلى العربية لأنها جزء عزيز من تراثنا نحن أحق الناس بالإفادة منه فضلاً عن العناية والصيانة ، وأتمنى ألا ينفرد بالقيام بهذا الواجب من أتقن السريانية فقط ، بل أن يكون هناك تعاون مع الاختصاصيين بالتاريخ فهذا يجعل العمل أكثر كمالاً فيتجنب الوقوع بكثير من الأخطاء التي شاهدناها في كتاب سيقال عن الرها وغيره من المترجمات الحديثة ، وخاصة الترجمة التي صدرت مؤخراً في حلب لتاريخ ميخائيل الكبير في ثلاثة مجلدات .

من الله استمد العون وأطلب الرشاد والتوفيق وصلى الله على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

د . محمد عزيزة*

العرب في المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية

مع انبلاج فجر الفتوحات الإسلامية احتل العرب موقعهم المميز في التاريخ ، فولجوه من أوسع أبوابه وشكلوا بتوسعهم أحد أهم المؤثرات الإيجابية في مجراه . وبالفعل ، لم تكن تلك الفتوحات سوى حلقة في سلسلة الهجرات المتتابعة من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال بعامة وبلاد الشام بخاصة ، حيث حفلت تلك المناطق بوجود العناصر والقبائل العربية منذ العصور التاريخية القديمة ، وذلك كنتيجة لظروف طبيعية وبيئية واقتصادية لسنا في مجال الحديث عنها في هذا المقام .

أما ما ميز التوسع الناتج عن الفتوحات فكان إقترانه بنشر الدين الإسلامي . وقد أدى ذلك إلى خلق إشكالية لاتزال مستمرة حتى يومنا هذا كنتيجة لدخول عناصر غير عربية إلى الدين الإسلامي واحتفاظ العديد من أهل الكتاب من العرب بمعتقداتهم القديمة ، مستفيدين من تسامح الإسلام . وقد زاد ارتباط الإسلام باللغة العربية من حدة هذه الإشكالية حيث اختلطت العروبة بالإسلام في مفهوم البعض وانفصلت عنه في مفهوم البعض الآخر .

فمن هم العرب ؟ أهم المسلمون ؟ أهم ، وبغض النظر عن معتقداتهم ، كل من انتسب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ؟ أم كل من عاد بأصله إلى شبه الجزيرة العربية ؟ أم كل من استعرب بمعنى البداوة [1] ؟ أم كل من تبنى العربية لغة وحضارة ؟ .

* – جامعة بيروت العربية .

سوف نحاول من خلال هذا البحث فى المصادر السريانية القديمة المعاصرة للخلافة العباسية تبيان مفهوم هذه الفئة من أهل الذمة التى خالطت الشعوب العربية والإسلامية وعايشتها عن كثب خلال أجيال ، للعروبة والإسلام ومدى ارتباطهما ببعضهما البعض . وعندما نتحدث عن السريان فإننا نشير إلى كل من اليعاقبة (السريان الغربيين) والنساطرة (السريان الشرقيين) حيث استعمل أفرادهما تلك اللغة فى الكتابة أو النقل ، وكان لهم فضل كبير فى نمو بيت الحكمة فى بغداد ، ودور هام فى تطور الطب العربى وغيره من العلوم التى انتشرت خلال العصر العباسى .

وقد أدى إلى تقريبهم من مركز الخلافة وعلو شأنهم فى ذلك العصر ، مما أضفى على كتاباتهم عامل المعرفة ، بينما نفى عنها عامل المبالغة ، حيث أنهم كتبوا تواريخهم لفئات محددة ، وبهدف تغذية ذاكرة تلك الفئات للاحتفاظ بخصوصيتها ، فلم يكن للسريان ملوك ولا أمراء .

وسوف نقتصر خلال هذا البحث على استعراض أعمال مؤرخين ثلاثة عاصروا الفترة العباسية الأخيرة ، إذ حلا المؤرخون السريان حذو سائر المؤرخين المعاصرين لهم بالنقل عن السلف ، وإضافة كل ما جد عندهم وأكساله حتى زمان كل منهم . أما أول مؤرخينا فهو ميخائيل السريانى ، بطريرك أنطاكية اليعقوبى (١١٦٦-١١٩٩م)[٢] ، يليه الرهاوى المجهول الذى عاصر الأحداث بين سنتى ١١٨٧ و ١٢٣٧م ووصلنا تاريخه حتى سنة ١٢٣٤م[٣]. وأخيراً غريغوريوس الملطى الملقب بابن العبرى نسبه إلى قريته عبرا الواقعة على الفرات من خلال كتابيه " تاريخ مختصر الدول " [٤] و " تاريخ الزمان " [٥]. وقد تنقل ابن العبرى فى وظائف كنسية عدة ووصل إلى رتبة رئيس أساقفة الشرق ، الخاضع آنذاك للمغول ، وتوفى فى مراغة[٦] عام ١٢٨٦م .

والملاحظ من خلال قراءة تلك التواريخ أن موقف السريان من أعداء الأمة الإسلامية من نصارى تلك الحقبة التاريخية ، أى من الروم البيزنطيين ومن الفرنجة الصليبيين ، كان موقفاً تمليه المصلحة المشتركة ، حيث شكل البيزنطيون الأعداء التاريخيين للسريان الذين بقوا مضطهدين تحت حكمهم ، كما اتخذ الصليبيون موقفاً معادياً منهم أشبه بموقفهم من الأقباط ، حيث اعتبروهم من الهراطقة ومنعوهم من الحج إلى بيت المقدس فور استيلائهم عليها [٧].

والواقع أنه ، وبرغم اختلاف ظروف كل من هؤلاء المؤرخين ، فإننا نجدهم متفقين على بعض التسميات لشعوب معينة . فهم عندما تحدثوا عن التتر فإنهم نسبوهم إلى الأتراك ، واستعملوا لفظ " تركى " للدلالة على تترى فى مجالات عديدة وعصور مختلفة ، ونسبوا الأتراك إلى البرابرة . وعندما روى ميخائيل السريانى واقعة هدية أرسلها الحاكم الفارسى إلى البرابرة لاستمالتهم ضد البيزنطيين قال " أنه أرسل هدية إلى البرابرة ، أى أتراك الداخل (خارج حدود الدولة الفارسية) " [٨]. بينما ذكر الرهاوى المجهول أنه إثر هزيمة جلال الدين الخوارزمى أمام القوات الأيوبية المتحالفة مع السلاجقة سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣١م وهروبه مع نفر من خاصته " سمع التتر أى الأتراك بذلك " [٩]. واستطرد فى حديثه عن غزواتهم فى شمال الشام والعراق فروى فى حوادث سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٢م " خرج الأتراك واتوا ثانية وهم لا يعلمون بوجود الله ولا يهتمون بالصوم والصلاة " [١٠].

كذلك فإن كلاً من ميخائيل السريانى وابن العبرى اعتبرا أباطرة الروم البيزنطيين رومان حتى مجىء طيباريوس (٥٧٨ - ٥٨٢م) ، فبدأ ميخائيل تاريخه لعصر هذا الإمبراطور بقوله: " عن بداية ملك طيباريوس أول إمبراطور يونانى والإمبراطور الرومانى الواحد وخمسون"[١١]. واتفق معه ابن العبرى فعلق على انتقال العرش إلى طيباريوس بقوله " ومن حينئذ صارت مملكة القسطنطينية يونانية " [١٢].

أما بالنسبة للعرب فنجد أن ميخائيل السريانى أكثر من استعمال لفظ الطائيين كلما أشار إلى العرب ، بغض النظر عن دينهم أو الحقبة التاريخية التى تحدث عنها . فالمنذر اللخمى هو " ملك الطائيين "[١٣] وأبو جعفر المنصور هو " ملك الطائيين أى العرب " [١٤]، وقد أوضح ميخائيل تسميته عندما تحدث عن بداية الرسالة المحمدية حيث أرخ أن سنة ٩٣٣ يونانية / ٦٢٢ م شهدت تأسيس " الإمبراطورية العربية " ، وحدد التراجم الجغرافى الأساسى للعرب بنهر الفرات شمالاً حتى المحيط الهندى جنوبًا ، والبحر الأحمر غربًا حتى الخليج الفارسى شرقًا . وذكر ضمن تسمياتهم الطائيين والإسماعيليين والهاجريين ، مؤكداً أنها تؤدى إلى نفس المعنى [١٥].

واتفق ابن العبرى مع ميخائيل فى إطلاق اسم العرب على من أتوا من شبه الجزيرة العربية حتى ولو كانوا من غير المسلمين ، فالمنذر اللخمى " ملك العرب "[١٦] والطبيب " حنين بن اسحق النصرانى العبادى ونسبته إلى العبّاد وهم قوم من نصارى العرب " [١٧].

أما الرهاوى المجهول فأشار إلى البدو بلفظ عرب ، وهو عندما تحدث عن نزوح بعض القبائل الرحل إلى شواطىء الفرات نتيجة قحط ومجاعة قال : " تدفق شعب غفير من المعدين أى العرب ونزوحهم من الصحراء : فى نيسان ، خرج من الصحراء شعب غفير من العرب السود الذين يدعون باللغة العربية البدو " [١٨].

وبالرغم من إدراك الرهاوى المجهول أن الإسلام قد ضم شعوبًا عديدة ، حيث ذكر فى معرض تأريخه لسنة ١١٧٥م " فليس العرب وحدهم انضموا إلى دين محمد ، بل الأتراك أيضًا والأكراد والفرس " . إلا أنه استعمل لفظ المسلمين مرادفًا للفظ العرب حين روى "عندما ظهر الأتراك ودب الخمول فى مملكة المسلمين ، احتاج هؤلاء الأتراك إلى الأتراك لكى يساعدوهم على المسيحيين . فتقوت مملكة المسلمين بهؤلاء الأتراك ، وتغلغل الأتراك شيئًا فشيئًا وسيطروا . فكانوا فى البدء ينتزعون المدن والمقاطعات من مملكة الروم ، ثم انتزعوها من المسلمين . وهكذا ... بطلت مملكة العرب من المسكونة تمامًا . وحكم الأتراك من أقصى حدود الشرق حتى بحر بنطس (البحر الأسود) ، ولم يبق من جنس العرب ملك أو سلطان ، ما خلا الجالس فى بغداد والذى لايسمونه ملكًا بل خليفة " [١٩].

وكذلك ابن العبرى ، الذى نقل عن القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى ، صاحب قضاء مدينة طليطلة ، مقدمة عن العرب وأصولهم وأنسابهم وتاريخهم وانقسامهم إلى أهل المدر ، أى الحواضر والقرى ، وأهل الوبر ، أى البداوة [٢٠]. وعندما استعمل التأريخ الهجرى عطف السنة على العرب ، كما أشار فى معرض حديثه إلى ميلاد سيدنا آدم عليه السلام فوصفه بأنه " أبو البشر خلق يوم العروبة [٢١] أى الجمعة ، وفى هذا خلط بين مفهوم العروبة والإسلام .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن ابن العبرى عندما أرخ للممالك التى خضع السريان لحكمها ، فإنه اعتبر أن الملك انتقل من ملوك الروم اليونانيين إلى ملوك العرب المسلمين منذ فتوح الشام وحتى سقوط بغداد فى يد المغول [٢٢]، بينما أنهى الرهاوى المجهول حكم العرب سنة ١١٧٥م [٢٣].

أما الفاطميون ، فعلى الرغم من تأكيد هؤلاء المؤرخين على كونهم ينحدرون من نسل النبى ﷺ [٢٤]، فلم يذكروهم بلفظ عرب أو مسلمين ، بل أشاروا إليهم بلفظ " المصريين " فعند وصول الصليبيين إلى بلاد الشام " كان ساحل البحر كله خاضعًا للمصريين " [٢٥]، وعندما حاصروا القدس كان " بها افتخار الدولة من قبل المصريين " ، إلا أن ابن العبرى ، وفى الموقع

نفسه تحدث عن المدافعين عن المدينة بقوله " وألقى العرب النيران ببرج صهيون " وبعد استيلاء الفرنجة على القدس فقد " قتلوا فى هيكل سليمان أكثر من سبعين ألفًا من العرب " [٢٦]. أما فى كتابه تاريخ مختصر الدول ، وفى معرض حديثه عن الحادثة نفسها فقد ذكر " وليث الإفرنج فى البلاد أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفًا " [٢٧] فهو أشار فى كتابه المختصر إلى القتلى بلفظ المسلمين وفى تاريخه المفصل بلفظ العرب . وقد يكون فى ذلك خلط غير مقصود كما أنه قد يكون ذا مغزى ، حيث أن المختصر نشر بين المسلمين بينما بقى تاريخه المفصل حكرًا على أبناء ملته حتى وقت قريب . وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية الأخرى لوجدنا بين القتلى عددًا لابأس به من يهود المدينة المقدسة [٢٨]، علمًا بأن إفتخار الدولة ، الحاكم المسلم للمدينة ، كان قد أخرج المسيحيين من سكانها قبل الحصار وفكن من دفع فدية للصليبيين والنجاة بنفسه وخاصته [٢٩].

على أن الأمر يختلط كلية على القارىء عندما يروى الرهاوى المجهول أحداث معارك جرت بين قوات إسلامية مختلفة ، فحين تحدث عن القتال الذى نشب بين جلال الدين الخوارزمى وقوات الأيوبيين المتحالفة مع الملاجقة أشار إلى القوات الخوارزمية بلفظ " الفرس " بينما أشار إلى قوات التحالف باسم " المسلمين " ووصف هزيمة جلال الدين بقوله : " وإذا الله غضب الرب على الفرس وأعطى النصر للمسلمين " [٣٠]، علمًا بأنه إذا أراد إتباع التسمية العرقية لأسماها تحالف الأكراد والأتراك ، بخاصة وأن الخوارزمى وقواته كانوا أيضًا من المسلمين .

كذلك وصف المؤرخ نفسه تنكيل التتر ، الذين أشار إليهم بلفظ الأتراك ، بأهالى إحدى المدن التى هاجموها بقوله : " حينئذ بدأوا بالقتل . وبالأخص أبادوا أتراك هذا البلدان أكثر من المسيحيين ، والمسلمين أكثر من اليهود " [٣١] ولاشك فى أنه عنى بلفظ المسلمين العرب منهم من السكان الأصليين الذين يتحدثون العربية ، وبلفظ الأتراك الضحايا المسلمين منهم .

أما بالنسبة للأيوبيين فقد استعمل دائمًا لفظ المسلمين للإشارة إليهم ، وقد يكون مرد ذلك إلى أن الروايات المتناقلة آنذاك كانت ترد الأكراد إلى أنساب عربية وتعزو وجودهم فى الجبال الشمالية إلى أسباب اقتصادية أو سياسية ، وقد أدى طول تواجدهم هناك إلى تحولهم عن اللغة العربية [٣٢] ، كما قد يكون السبب ولاء الأيوبيين للخلافة العباسية العربية وتأقلمهم بالعادات العربية أكثر من بقية الحكام المسلمين من الأتراك المعاصرين لهم .

* * *

وعلى هذا نرى أن هؤلاء المؤرخين الذين عاشروا الحضارة العباسية عن كثب وميزوا بين العرب والمسلمين ، استعملوا لفظ العرب للدلالة على من هم من أصول عربية نابعة من شبه الجزيرة ، كما استعملوها للدلالة على السكان الأصليين لبلاد الشام ممن يتحدثون العربية بمعزل عن انتمائهم الديني أو العرقي ، واستعملوها أيضًا بالمعنى اللغوي الدال على البداوة . كما استعملوا لفظ المسلمين للدلالة على ملوك وخلفاء العرب أو على حكام مسلمين من غير العرب، بينما امتنعوا عن استعماله في أحيان أخرى للدلالة على مسلمين من غير العرب .

وبذلك نجد أنهم عانوا من الإشكالية التي رافقت الفتوحات العربية وانتشار الإسلام والتي لاتزال تعاني منها إلى يومنا هذا . وبالتالي نقلوا صورة صحيحة عن مجتمعهم وعانوا من الإشكالية التي لاتزال تؤرق المحدثين .

الهوامش :

١ - يقول ابن منظور في لسان العرب : " إن أهل عمان عرب استنبطوا أهل البحرين نبيط استعربوا " بمعنى انتقل أهل البداوة إلى التزوج والعكس .

٢ - Michel le Syrien (+1199), Chronique. dvols, Eds. J.B. Chabot, Paris, Culture et civi- lisation, 1901.

٣ - الرهاوي المجهول : ت ٦٣٤ / ١٣٢٧م ، تاريخ الرهاوي المجهول ، عربه عن السريانية وضع حواشيه الأب البرابونا . بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٨٦ .

٤ - العلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) : تاريخ مختصر الدول، قم ، مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلامية ، ١٩٨٩ .

٥ - أبو الفرج جمال الدين ابن العبري : تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية الأب اسحق أرملة ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فيه ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٨٦ .

٦ - مراغة من قواعد اذربيجان وتقع غربي تبريز وكانت قرية فنزل بها مروان بن محمد فبناها مدينة وهي نزهة جداً . الملك المؤيد عماد الدين أبي الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : تقويم البلدان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠ ، ص ٣٩٨ .

٧ - ساويرس بن المقفع اسقف الأشمونين : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الثاني ، قام على نشره يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأسول يوسستر ، القاهرة ، مطبوعات جمعية الآثار القبطية ، ١٩٥٩ .

٨ - Michel le Syrien, op. cit.,v.2, p. 315 .

٩ - الرهاوي المجهول : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

١٠ - المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

١١ - Michel le Syrien. op. cit.,v.2, p. 338

١٢ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٩ .

١٣ - Michel le Syrien, op. cit.,v.2, p. 349-350 .

١٤ - Op. cit.,v.2, p. 526 .

١٥ - Op cit.,v.2, p. 526 .

١٦ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٩ .

١٧ - المصدر السابق : ص ١٤٤ .

١٨ - الرهاوى المجهول : المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

١٩ - المصدر السابق : ص ٢٠١ .

٢٠ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٩٣ - ٩٤ .

٢١ - ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٤ .

٢٢ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٩٣ و ص ٢٧٦ .

٢٣ - الرهاوى المجهول : المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

٢٤ - المصدر السابق : المكان نفسه .

٢٥ - المصدر السابق : ص ٢٢ .

٢٦ - ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ١٢٤ .

٢٧ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٤ .

٢٨ - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، نشر هـ . ف . أمدروز ، ليدن ، ١٩٠٨ ، ص ١٣٧ .

٢٩ - Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum, eds. Brehier, Paris, 1924, pp. 202 - 5 .

٣٠ - الرهاوى المجهول : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

٣١ - المصدر السابق : ص ٢٦٧ .

٣٢ - المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ أجزاء ، وقدم له محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

أ.د. محمود سعيد عمران (*)

العرب فى مدونة المؤرخ السريانى زكريا الملطى

يعرف هذا المؤرخ السريانى باسم زكريا الملطى نسبة إلى مدينة ملطية التى تولى أسقفيتها منذ عام ٥٣٦ م حتى عام ٥٥٣م ، كما يعرف باسم زكريا المتلينى نسبة إلى مدينة ميتلين Mitylene أو ميليتوس Miletus الواقعة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى بالقرب من مصب نهر الميائدر جنوبى مدينة إفسوس Ephsus [١]. وتاريخ ميلاد هذا المؤرخ غير معروف لدينا وكذلك تاريخ وفاته . ولكن مدونته انتهت فى عام ٥٦١م ، ويبدو من كتاباته أنه كان من رجال الدين السريان .

والمدونة التى نتحدث عنها لها ترجمة عن السريانية منشورة باللغة الإنجليزية فى لندن عام ١٨٩٩م . وبالمدونة كثير من النقاط الغامضة التى تحتاج إلى جهد كبير لحلها . ويتضح من تفحص المدونة أن صاحبها اطلع على بعض كتب من سبقوه خاصة كتاب حرب اليهود للمؤرخ اليهودى يوسيفوس Josephus فيما يتعلق بتدمير مدينة القدس ، وكذلك كتاب يوسابيوس القيسارى Eusebius of Caesarea المعروف باسم تاريخ الكنيسة [٢]. وينقل المؤرخ عن بعض شهود العيان ، ومثال ذلك عندما تكلم عن الملك المنقر والأسرى الذين حملهم من مدينة حمص بعد الإغارة عليها [٣]. كما نقل عن المدونة المؤرخ ميخائيل السريانى والمؤرخ أبو الفرج العبرى الذى وصفه بالبليغ [٤].

---

* - أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

وقد استخدم المؤلف عدة طرق لتأريخ الأحداث ، واستخدم بطبيعة الحال التقويم الميلادى والشهور الميلادية ، كما استخدم سنوات حكم الأباطرة . فيقول وفى السنة الحادية عشرة من حكم الإمبراطور أنسطاسيوس Anastasius ويقصد به الأول (٤٩١ – ٥١٨ م) حدثت مجاعة ، أو فى السنة الثالثة عشر من حكم الإمبراطور نفسه ، تكلم عن غزو قبائل الهون لبلاد الفرس [٥] ، أو فى السنة الثانية عشر من حكم الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ – ٥٦٥م) وهكذا . وقد يخطىء المؤرخ أحيانًا فى هذه السنوات فالصواب عن الإمبراطور جستنيان ، أن تكون السنة العشرين لا الثامنة عشر . وأحيانًا يتكلم عن أحداث ، ويذكر أنها تقع فى أيام قساوسة كانوا يتولون أمر مدينة القدس ، مثلما تحدث سامسون Samson وإيليا Eli ، وربطها بأحداث سقوط مدينة روما على يد قوات الإمبراطور جستنيان عام ٥٤٦م [٦].

وأحيانًا يستخدم المؤرخ التقويم اليونانى الذى يبدأ بوفاة الاسكندر الأكبر ، ويقول إنه فى عام ٧٦٤ للسنة اليونانية عُقد مجمع خلقدونية ، ولما كان هذا المجمع عقد عام ٤٥١ : فتكون بداية السنة اليونانية عند المؤرخ هى عام ٣١٣ ق.م. وهذا خطأ منه أو من الكتاب والصواب عام ٣٢٣م وهو تاريخ وفاة الاسكندر الأكبر [٧].

ومرة أخرى يستخدم المؤلف التقويم الأولمبيادى ، ويقول : مات الإمبراطور تيودوسيوس ويقصد به الثانى فى عام ٣٠٨ للأولمبياد بعد أن حكم اثنين وأربعين عامًا ، وخلفه الإمبراطور مارقيان Marcian (٤٥٠ – ٤٥٧ م) ، وبدراسة سنى الحكم تبين أن عام الأولمبياد الذى يقصده المؤلف هو عام ١٤٢م [٨].

والمدونة مقسمة إلى اثنى عشر كتابًا أو فصلاً ، وكل فصل يحتوي على عدة موضوعات ، وفى الفصل الأول الذى يقع فى خمس صفحات تحدث المؤرخ عن سيدنا موسى والأسباط وأرض الميعاد وأرض كنعان [٩] ، ثم انتقل بسرعة ليتحدث عن الإمبراطور البيزنطى أركاديوس Arcadius (٣٩٥ – ٤٠٨ م) ، وواقع الحال أن الأحداث لم ترد مسلسلة زمنيًا بل هناك تقديم وتأخير لبعضها ، كما أن المدونة ليست كاملة ، فهناك أجزاء ناقصة منها مثل الثلاثة فصول الأولى ، وجزء من الفصل الرابع من الكتاب الثانى عشر [١٠].

وقد تطرق المؤرخ فى هذه المدونة إلى موضوعات عديدة ، فتكلم عن الرهبانية وذكر دانيال العمودى ، كما أشار إلى الأديرة فى جبلة وأنطاكية ، وعن بعض المجامع الدينية مثل مجمع صيدا (٥١٢) ومجمع صور (٥١٣م) الذى حضره بعض الأساقفة من العرب ، ومجمع

أنطاكية. كما تكلم عن بعض المذاهب المسيحية مثل الكاثوليكية ، والنسطورية ، واليوطيخية[١١] ، وكالعادة عند مؤرخى ذلك العصر فقد استخدم المؤلف كلمة الرومان وليس البيزنطيين .

وأشار المؤرخ إلى بعض الكوارث الطبيعية كالزلازل وهجمات الجراد ، والمجاعات ، وفياضانات الأنهار ، ومن ذلك أنه أشار إلى الزلزال الذى وقع فى بلاد النهرين عام ٥٠١م ، وما لحقه من مهاجمة الجراد للعرب فى المنطقة ، وحدوث مجاعة دامت لمدة تسع سنوات هلك فيها الكثير من العرب فى مدينة آمد ، كما تكلم عن الزلزال الذى ضرب مدينة أنطاكية فى عام ٥٢٦م ، وفيضان نهر دياتسون Scirtus (Daitson) الذى تقع عليه مدينة الرها وغرقها فى أبريل من عام ٥٢٥م ، ونضيف فى هذا الموقع أنه أشار إلى الخريطة الجغرافية التى عملها بطليموس الجغرافى ، وإلى أهل الكهف الذين سماهم النيام السبع فى ضواحى مدينة إفسوس ، وربط الأحداث بعهد الإمبراطور ثيودوسيوس والمقصود به الثانى [١٢].

كذلك أشار المؤرخ إلى بعض الشعوب والأجناس التى تعيش فى المنطقة التى تقع بين البحر الأسود وبحر قزوين ، ومن هذه الشعوب الأرمن ، وذكر أن لهم أميرًا يحكمهم ولهم لغة خاصة بهم ، وأنهم يخضعون لملك الفرس ، ويعتنقون المذهب الكاثوليكى ، والى أهل جورجيا أو أيبريا (وهم الكرج) وأن لغتهم اليونانية مثل الرومان أى البيزنطيين ، وذكر الشيشان Sis-agan وأن لهم لغة خاصة بهم ، والأبخاز Abasgia ، وهؤلاء لهم لغة خاصة بهم أيضًا ، وأن الإقليم الذى يقطنون به يمتد حتى بحر قزوين ، وأن أراضيهم تعتبر بوابات لقبائل الهون فى تحركهم إلى الجنوب وعودتهم إلى الشمال . والبلغار وأن لهم لغتهم ، واللان ولهم خمس مدن ، وقبائل الأنوجور Unnogur وهم يعيشون فى الخيام ، والأوجر Ogor ، والسابير Sabir ، والأفار وغير ذلك [١٣].

وأشار أيضًا إلى بعض الشعوب والأجناس فى أوربا وأفريقية ، ومن هؤلاء بعض الشعوب التى سكنت بلاد أوربا فى عصره مثل القوط الشرقيين وملكهم ثيودوريك Theodoric (٤٩٣– ٥٣٦ م) ، كما ذكر الفاليين [١٤] ، وهم الفرنجة الذين سكنوا فى غالة . وفى شمال أفريقية أشار إلى الوندال وتحدث عن ملكهم جيزريك Geiseric (٤٣٩ – ٤٧٧ م) الذى استولى على شمال أفريقيا واتخذ قرطاج عاصمة له ، وكيف لجم البيزنطيون بقيادة القائد بليزاريوس Belisarius فى عهد الإمبراطور جستنيان من هزيمتهم واستعادة مدينة قرطاج

وبعض المدن الأخرى (٥٣٤م) ، وفى معرض حديثه تكلم عن البربر Moors الذين يعيشون فى صحراء شمال أفريقية ووصفهم بأنهم كالعرب يعيشون على النهب والسلب [١٥].

وفيما يتعلق بالعرب فى مدونة المؤرخ زكريا فقد أشرنا إلى جانب منها . كما أشار المؤرخ إلى دولة سبأ وقال أنها تقع فى بلاد اليمن السعيد . كما تكلم عن المناذرة وتحالفهم مع الفرس ، وهجومهم على مناطق أعالى الفرات وفى حمص وأنطاكية ، وإلى الغساسنة وتحالفهم مع البيزنطيين فى مقاومة أعداء الإمبراطورية ، وأخيراً ما ذكره المؤرخ عن أحداث دولة حمير التى وقعت فى زمن المؤرخ وهى المعروفة باسم شهداء نجران .

ونبدأ برواية المؤلف عن العرب فى أعالى الفرات . وكان الحديث يدور حول قيام الإمبراطورية البيزنطية ببناء مدينة دارا Dara وموقف الفرس من ذلك . وقد بدأ الحديث بالقول إن أسباب بناء المدينة يرجع إلى هزيمة قوات الإمبراطورية البيزنطية أمام الفرس فى عهد الإمبراطور أناستاس ، وأن الفرس لم يتراجعوا عن الحرب إلا بعد أن قدمت لهم الإمبراطورية البيزنطية الهدايا والذهب الذى أرسله الإمبراطور ، وأن القادة البيزنطيين قد عللوا سبب هزيمتهم بأن معداتهم لم تكن جاهزة ، كما أنه لم يكن يوجد بالقرب من أرض المعركة مكان يلجأ إليه الجنود ، فما كان يوجد سوى غابة صغيرة بعيدة عن أرض القتال ، لاتتسع لاستقبال القوات البيزنطية . هذا علاوة عن قلة الإمدادات والمياه . ولكل ذلك طلب القادة البيزنطيون من المسئولين بناء مدينة إلى جانب الجبل لتكون ملجأ للقوات البيزنطية ومكانًا لراحتهم ولإعداد المعدات ، على أن تقوم القوات البيزنطية من هذه المدينة بحراسة بلاد العرب Coun-try of the Arabs من غارات الفرس والبدو . وقد اختار بعض المسئولين موقع دارا والبعض الآخر موقع آمد ، حتى تم الاتفاق على البناء فى دارا لتصبح مدينة بيزنطية [١٦].

والواقع أن الفرس كانوا يملكون قلعة حصينة فى مدينة نصيبين لتمنع أى تقدم إلى نهر دجلة ، ولم يكن للإمبراطورية مثل هذه القلعة فى أراضيها . لذلك بنى الإمبراطور أناستاس مدينة أناستاسيا التى عرفت باسم دارا على الحدود البيزنطية وعلى بعد أميال قليلة من نصيبين وأقام بها مخازن للحبوب ، وخزانًا للمياه وحمامين [١٧].

وتحدث المؤرخ زكريا عن العرب فى موضع آخر فى عهد الإمبراطور جستين Justin (٥١٨- ٥٢٧ م) وبدى أن الإمبراطور الفارسى قباذ (٤٨٨ - ٥٣١ م) ظل يطالب الإمبراطورية البيزنطية بالجزية وقدرها خمسمائة ليبرة (وهى تعادل ١٦٧٢٥ جرامًا من

الذهب) وذلك مقابل مصاريف القوات التى تحرس البوابات التى تقع فى أرض الهون . ومن أجل ذلك قام الإمبراطور الفارسى من وقت لآخر بإرسال القوات العربية الموالية له (أى المناذرة) للإغارة على الحدود البيزنطية حيث قاموا بأعمال السلب والأسر . وفى مقابل ذلك غزا البيزنطيون أرزن ونصيبين وهى أراضى تابعة للإمبراطورية الفارسية وخربوها . وعلى ذلك قامت المفاوضات بين الطرفين ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قائده هيباتيوس Hipatius يرافقه فارزمان Farzman وهو رجل كبير السن ، للتفاوض مع أحد القادة الفرس فى المنطقة الحدودية. وطال أمد المفاوضات ، وأرسلت التقارير من الأطراف المتفاوضة إلى قادتهم دون أن تحمل أنباء بالسلام . وظل الخلاف مستمراً بين الطرفين [١٨].

وفى السطر التالى ذكر المؤرخ أن المنذر[١٩] ملك العرب Saracens أغار على حدود حمص وأفامية وضواحى أنطاكية مرتين ، وعاد ومعه حوالى أربعمائة من الأسرى العذارى من بينهم راهبات من كنيسة القديس ترماس فى حمص . وذكر المؤلف أن الراهب دودو Dodo شاهد ذلك . وأبلغه أيضًا أن المنذر ضحى ذات يوم على شرف الإله العزى [٢٠].

وقدم لنا المؤلف معلومات أخرى عن العرب فى أعالى الفرات فى عهد الإمبراطورين جستين وجستنيان ، فقد ذكر أن الإمبراطور جستين وجد أن منطقة تانوريس Tannuris ، وهى منطقة حدودية صحراوية على حدود الفرات تصلح لأن تكون مكانًا مناسبًا لحماية العرب Arabs من غارات البدو والرحل المغيرين . وقد بدأ العمل فى عهد جستنيان وتولى هذه المهمة قائد يدعى توماس . وعندما بدأ العمل أغار البدو وعناصر أخرى سماها المؤرخ كاديسنس Kad-iscnes من مدينة سنجار Singara ومدينة أخرى سماها المؤرخ ثيبانا Thebetha ، ولعلها سيسطية . وقد قامت القوات البيزنطية بقيادة بلزاريوس ومساعده سولومون Solomon وبعض القادة الآخرين كان من بينهم أحد قادة البدو يدعى أتافار Atalar . ولما علم الفرس بتقدم هذه القوات حفروا الخنادق وأخفوها ، وتركوا بعض الفتحات للمرور وللتمويه ، وقد وقعت بعض القوات البيزنطية فى هذه الخنادق وتم أسرها . واضطر الباقون للعودة بقيادة بلزاريوس للحاق بإخوانهم الذين كانوا بحاربون عند مدينة دارا . وقد أصيب أتافار أثناء القتال بضربة فى رأسه من مسافة قصيرة ، ومات . وقد وصفه المؤرخ بأنه كان محاربًا شجاعًا وله خبرة كبيرة فى مساعدة الجيش البيزنطى . أما عن القتال فى دارا ، فقد أورد المؤرخ أن سونيكا Sonica قائد عناصر الهون التى كانت تساعد القوات البيزنطية قد اعتنق النصرانية.

أما عن القوات الفارسية التى كانت تحارب عند مدينة دارا فقد ذكر المؤرخ أنها هاجمت الرومان العرب The Roman Arab فى المدينة وأحرقتها بالنار [٢٢١].

وقدم لنا المؤرخ بعض المعلومات عن مساندة الحارث بن جبلة ملك الغساسنة للقوات البيزنطية عند القتال على مدينة ميافارقين فى عام ٥٣١ م فى عهد الإمبراطور جستنيان . فقد روى أن القرى التى كانت تقع فى إقليم أرزن كانت ضمن ممتلكات التاج الفارسى ، ولم تكن منطقة صغيرة ، وكان يجمع منها ضريبة الرؤوس التى تؤول للإمبراطورية الفارسية ، ولما كانت القوات البيزنطية تستخدم مدينة الشهداء Martyropolis (ميافارقين) كملجأ لها ليهاجموا منها مدينة أرزن ، فقد استعد الفرس لمهاجمة تلك المدينة . وقد ساعدهم فى ذلك مهر جيروى Mihr Girowi (ولعله أمير أرمنى) الذى توجه إلى قبائل الهون لاستئجار بعض عناصرها . وقد تجمعت القوات الفارسية ومن ساندها من عناصر الهون واتجهت إلى مدينة الشهداء فى حوالى عام ٥٣١م ، وحاصروا المدينة وقاموا بحفر خندق حولها وأقاموا بعض الأنفاق لدخولها وشددوا الحصار عليها . وعلى ذلك تجمعت القوات البيزنطية بقيادة القائد سيتاس Sittas ومعه باربجلا Bar Gubala ملك العرب [٢٢٢] . واتجهت هذه القوات إلى مدينة آمد فوصلتها فى نوفمبر من عام ٥٣١م . وعندما وصلت هذه القوات كانت المنطقة المحيطة بمدينة الشهداء قد تحولت إلى أوحال ، ثم ما لبث أن مات الإمبراطور الفارسى قباذ فانسحب الطرفان من أرض المعركة . وأضاف المؤرخ أنه بعد انسحاب كل من القوات الفارسية والبيزنطية تقدم الهون الذين استأجرهم الفرس وهاجموا الحدود الرومانية وقتلوا العديد وأحرقوا القرى والكنائس ثم عبروا الفرات وتقدموا حتى مدينة أنطاكية دون أن يتصدى لهم أحد عدا القائد البيزنطى بسه Bessa دوق مدينة الشهداء عند عودتهم وقتل منهم العديد واستولى على غنائمهم وجمع الكثير من الأسلاب وأصبح ثريًا [٢٢٣].

والواقع أن الهون كانوا يتحالفون مع من يدفع أكثر ، وقد أشار المؤرخ نفسه إلى ذلك ، فقد روى ذلك عن بعض الأحداث التى وقعت فى عهد الإمبراطور أناستاس عندما تحول الهون من القتال مع الفرس إلى الجانب البيزنطى . وذكر أن أحد قادة الهون قال ، أن ما يقدمه لنا ملك الفرس من الجزية ليس كافيًا ، وقد وعدنا الإمبراطور البيزنطى عن طريق بعض السفراء بأن يدفع لنا ضعف ما يقدمه الفرس إذا تخلينا عن التحالف معهم [٢٢٤].

وتكلم المؤرخ كذلك عن العرب فى معرض حديثه عن بعض الأحداث التى وقعت فى عام ٥١٨م أى فى عهد الإمبراطور جستين ، وكان حديثه يتعلق بالعرب المسيحيين الذين حضروا [٢٢٥].

وقدم لنا المؤلف بعض المعلومات عن مشاركة عرب فلسطين فى مساندة القوات البيزنطية للقضاء على تمرد قامت به العناصر السامرية فى شمال فلسطين ، فقد ذكر أن السامريين كانوا يعيشون فى منطقة فلسطين بالقرب من مدينة نابلس التى لاتبعد كثيراً عن مدينة قيسارية ، وقد علم هؤلاء أن الفرس يهاجمون الأراضى البيزنطية من وقت لآخر ، فاستغلوا ذلك وثاروا وعينوا حاكمًا عليهم وهاجموا مدينة نابلس وقتلوا مرمرتر Mommuno أسقف المدينة ، وآثاروا الذعر فى المنطقة كما أحرقوا عدة كنائس وسيطروا على مدينة نابلس وسلبوها ، أملين فى مساعدة الفرس لهم باعتبارهم يعيشون فى أرض بيزنطية .

ويضيف المؤرخ أنه عندما علم الملك (الإمبراطور) بذلك أرسل القائد هادريان Hadrian لقمع الفتنة ، وانضم إليه دوق الإقليم وقوات المنطقة بالإضافة إلى عرب المنطقة ذاتها ، وقد سار الجميع إلى السامرة وقضوا على التمرد بعدما قتلوا الكثير ، كان من بينهم قائد التمرد ، واستعادوا مدينة نابلس ووضعوها تحت سيطرتهم ، وتم تعيين أسقف جديد للمدينة ، كما تركت بها حامية عسكرية لحمايتها وحفظ النظام بين سكان المنطقة [٢٢٦].

وتحدث المؤلف عن دولة حمير وركز على حادثة شهداء نجران ، وهى العاصمة الملكية للدولة وقد سجلها فى أحداث عام ٥٢٤م فى عهد الإمبراطور جستين ، فقال إنه فى العشرين من يناير عام ٥٢٤م ، تركنا معسكر النعمان بما سبق أن كتبناه وما نسجله الآن لأننا سافرنا فى رحلة لمدة عشرة أيام عبر الصحراء فى الاتجاه الجنوبى الشرقى حتى وصلنا إلى معسكر المنذر فى منطقة تعرف فى اللغة العربية باسم الرملة [٢٢٧]. وعندما وصلنا إلى المعسكر قابلنا بعض العرب Saracens الوثنيين ، وقبائل مادويا Madoya (المدية Madiyya) . قال لنا هؤلاء " ماذا أنتم فاعلون وأنت تلاحظون أن المسيحية قد انحسرت عن بعض الأراضى الرومانية والفارسية ومن دولة حمير I " . ويضيف المؤرخ لقد أحزنتنا مثل هذه الإهانات بالإضافة إلى الألم الذى نعانيه . وسجل المؤلف أنه فى هذه المرحلة وصل مبعوث من ملك حمير (اليهودى)[٢٢٨] إلى الملك المنذر ، وقدم له رسالة ورد بها ما يلى [٢٢٩]:

" إن الملك المسيحى الحميرى الذى أقامه ملك أثيوبيا فى بلادنا (حمير) قد مات ، وبسبب حلول فصل الشتاء ، فإن ملك أثيوبيا قد تأخر فى تعيين ملك مسيحى جديد وإرساله إلى دولة حمير ، وعلى ذلك - والحديث هنا لملك حمير اليهودى - إننى أصبحت ملكًا على بلاد حمير ، وإننى مصمم على ذبح كل المسيحيين فى حمير إلا إذا اعتنقوا اليهودية مثلى .

لقد قتلت مائتين وثمانية من الرجال ، وكذلك رجال الدين الذين رفعوا فى أيدينا ، بالإضافة إلى الأثيوبيين الذين كانوا يحرسون الكنائس ، كما أننى حولت هذه الكنائس إلى معابد لليهود . لقد تقدمت إلى المدينة الملكية نجران ومعى مائة وعشرون ألف رجل ، وحاصرتها عدة أيام وعجزت عن السيطرة عليها ، لذلك أرسلت إلى أهلها ولرؤسائها فحضروا إلىّ وأمنتهم ، ولكننى لم أف بعهدى ، فقد قبضت عليهم وطلبت منهم أن يأتوا إلى بذهبهم وفضتهم ومتاعهم ففعلوا . وقد سألت عن الأسقف بولس فأخبرونى أنه مات ، ولم أصدقهم حتى أروننى قبره ، فنبشته وأخرجت عظامه وأحرقتها ثم أحرقت الكنيسة ، فقر رجال الدين وكل من كان موجوداً . وقد أمرت من تبقى منهم بالتخلى عن الديانة المسيحية واعتناق اليهودية ، ولكنهم رفضوا وأعلنوا أنهم على استعداد للموت من أجل دينهم ، وتفوهوا ضدنا بالكثير وأهنونا ، لذلك أمرت بقتلهم" [٣٠].

ويضيف المؤرخ لقد أمر الملك اليهودى بإحضار زوجات الزعماء وأبلغهن بما حدث وأنه يشفق على الزوجات والأولاد من الموت . ولكن الراهبات تقدمن ورغبن فى الموت ، واعترضت الزوجات وطالبن بقتلهن أولاً . وقد أصدر الملك اليهودى أوامره بقتلهن عدا زوجة الملك وتدعى رومى Rhmi . وقد طلب منها الملك اليهودى إنكار السيد المسيح ليبقى على حياتها رحمة منه بأولادها ، ولها أن تحتفظ بكل ممتلكاتها إذا اعتنقت اليهودية . وقد تركها الملك لتعقد اجتماعاً تحت حراسة رجاله تدبر فيها أمرها [٣١].

ويضيف المؤرخ لقد ذهبت الملكة إلى الميادين والشوارع عارية الرأس وهى المرأة التى لم يرها أحد فى الشوارع من قبل وصاحت فيما معناه ، يا نساء نجران زميلاتى فى المسيحية ، ويا بقية الوثنيين واليهود ، أنتم تعرفون مولدى وعائلتى ، وتعرفون أيضًا أننى أملك الذهب والفضة والعبيد بالإضافة إلى دخل كبير ، ومبلغ أربعين ألف دينار وميراث زوجى ، ورغم هذا كله فإننى متمسكة بالديانة المسيحية وكذلك بناتى ولا أبالى بالموت . وقد طلبت الملكة من شعبها أن يتشبهوا بها ، كما ألقت بعض العظات وصلت من أجلهم ، وطلبت من شعبها أن يصلى من أجلها بعد أن بقيت ثلاثة أيام على قيد الحياة بعد وفاة زوجها [٣٢].

ويقول المؤلف لقد عادت الملكة إلى الملك اليهودى وهى متمسكة بدينها ومعها بناتها رغبة فى الاستشهاد ، وأخيراً رأى الملك اليهودى أنه لايجوز أخذ الأبناء بجريمة الآباء ، لذلك وزع

الأولاد والبنات على رجال الجيش لتربيتهم ، حتى إذا كبروا وتحولوا لليهودية فسوف يبقون على قيد الحياة ، أما إذا تمسكوا بالمسيحية فسوف يقتلون [٣٣].

وذكر المؤلف أن مبعوث الملك اليهودى شرح له كل ذلك ، وطلب منه أن يعامل اليهود الذين فى أرضه معاملة طيبة ، وكذلك المسيحيين الذين يتحولون إلى اليهودية ، وطلب منه أن يرسل إليه بما يتم [٣٤].

ويضيف المؤرخ أنه عندما عاد إلى معسكر النعمان وجد مبعوثًا مسيحيًا كان قد أرسله ملك حمير المسيحى ، وهو كما ذكره المؤرخ يدعى الحارث بن خاناب Khanab ، زوج رومى قبل موته ، وقد علم هذا المبعوث بما أحدثه اليهود فى نجران ، ولكى يتأكد هذا المبعوث مما جرى فى نجران أرسل رجلاً استأجره من معسكر النعمان إلى نجران ليأتى له بالأخبار ، ولما عاد هذا الرجل أكد ماهو مسجل فى رسالة الملك اليهودى ، وأضاف أن الذين قتلوا كانوا حوالى ثلاثمائة وأربعين وهم الذين خرجوا من نجران للقاء الملك اليهودى [٣٥].

وأورد المؤلف حديثًا طويلاً دار بين الملك اليهودى والملك الحارث بن خاناب الحميرى ، وأوضح فيه تمسك الحارث ورفاقه بالديانة المسيحية وأنهم يفضلون الموت عن التحول لليهودية. وفى نهاية الأمر أمر الملك اليهودى بأخذ الملك الحميرى ورفاقه إلى أخدود Gully يسمى الوادى ، وقد رفعوا أيديهم إلى السماء يدعون السيد المسيح ليأتى إليهم لمساعدتهم ، وأن الملك الحارث الحميرى قد رسم علامة الصليب على جسده قبل موته ثم أسلم نفسه للسيف ، ثم قطعت رؤوس بقية المقبوض عليهم وألقيت جثثهم فى الأخدود [٣٦].

ويقول المؤرخ زكريا أن الأمر قد أصبح واضحًا طبقًا للخطاب الوارد مع المبعوث والتقارير التى وصلت ، وبات واضحًا أن الكرب قد حل بالمسيحيين فى حمير ، ويضيف أنه يجب أن يعرف جميع رجال الدين بما حدث ليأتوا هؤلاء الشهداء ، ويجب على الأخص إخطار أسقف الاسكندرية ليكتب إلى ملك أثيوبيا ليذهب لنجدة أهل حمير ، كما يجب القبض على الزعيم الدينى لليهود فى مدينة طبرية وإجباره على أن يرسل للملك اليهودى فى حمير ليضع حداً لمحنة واضطهاد المسيحيين فى البلاد [٣٧].

* * *

وهنا انتهى المؤرخ من سرد الأحداث الخاصة بأحداث مملكة حمير ، ولكن المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس الذى أشار فى إيجاز شديد إلى تعرض أهل حمير إلى اضطهاد مفرط من حشالة اليهود ، أضاف بعض المعلومات التالية ، فبعد أن تكلم عن المعلومات الجغرافية الخاصة بدولة أثيوبيا وهى أكسيوم ، وبعض الأماكن التى تقع فى جنوب مصر ، ذكر أن هيلاثيبوس Hel-leseaeus ملك أثيوبيا قد علم بالمحنة التى يتعرض لها المسيحيون على الجانب الآخر للبحر فى دولة حمير على يد بعض حشالة اليهود ، لذلك أمر بإعداد الجيش والأسطول ، واتجه على رأس قواته إلى حمير وهزم اليهود وذبح ملكهم وكثيراً من اليهود ، ثم وضع على عرش حمير ملكاً مسيحياً حميرى المولد يدعى إسيميفايوس Esimiphaeus مقابل جزية سنوية تدفع للملك إثيوبيا ، ثم عاد إلى وطنه . وأضاف أنه كان فى الجيش الأثيوبى بعض العبيد الأشرار الذين رفضوا العودة إلى إثيوبيا . وقد ثار هؤلاء بعد قليل وقبضوا على الملك الجديد وعينوا مكانه ملكاً آخر يدعى أبراموس Abramus وكان عبداً رومانياً . وقد بادر الملك بمقاتلة هؤلاء الثوار ، وأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكن هذا الجيش لم يقاتل أبراموس ولم يرغب فى العودة إلى إثيوبيا وقتلوا قائدهم وتفاوضوا مع أبراموس ودخلوا فى خدمته ، فأرسل ملك إثيوبيا جيشاً آخر ، وظلت الحرب قائمة حتى انتهت بقيام أبراموس بدفع الجزية لملك أثيوبيا ، فترى حكم أبراموس فى المراحل التالية [٣٨].

* * *

والخلاصة أن المؤرخ زكريا المتطى قدم لنا معلومات قيمة وعلى جانب كبير من الأهمية ، فقد تكلم عن العرب المتاخرة فى الحيرة ، والعرب الغساسنة فى بلاد الشام ، وأحداث شهدا ، تجران فى دولة حمير باليمن ، إلى جانب بعض المعلومات المتفرقة عن العرب . ويضيف من هذه الأهمية أن المؤرخ كان معاصراً للأحداث ، وتقابل مع بعض صناع القرار فى حينه . هذا بالإضافة إلى بعض الأسماء الهامة والتواريخ وإن كان بعضها يحتاج إلى ضبط وتحقيق . كما أن المعلومات التى قدمها لنا عن أحوال العرب ، وإن كانت ناقصة ، إلا أنها لم ترد عند غيره من المؤرخين المعاصرين .

ومن النتائج المحددة يمكن القول أنه استخدم فى معظم الأحيان كلمة Arabs عندما يتكلم عن العرب أصدقاء بيزنطة ، وكلمة Saracens عندما يتكلم عن العرب أعداء بيزنطة ، كما أنه استخدم عبارة الرومان العرب Roman Arabs . كذلك فإن المؤرخ لم يستخدم كلمة

إمبراطور بل استخدم كلمة ملك لبيزنطة والفرس . وقد تكلم عن الغساسنة وتحالفهم مع بيزنطة ومساعدتها عسكرياً فى أعالى الفرات حتى مدينتى آمد ودارا ، وأن المناذرة تقدموا فى عمق أعالى بلاد الشام وهاجموا مدينتى حمص وأنطاكية . وأن الإمبراطورية البيزنطية تعاملت بدفع الجزية مع الفرس والهون والعرب ، وهو ما يعرف عند البيزنطيين بالاستثمار الحكيم لرأس المال ، وليس بالخضوع . ومن النتائج أيضاً أن قبائل الهون كانت تحالف من يدفع لها الأكثر ، لذلك انحازت بعض الوقت للقبائل الفارسية وهاجمت أراضى الإمبراطورية البيزنطية وتوغلت جنوباً حتى هاجمت مدينة أنطاكية ، كما تكلم عن العملة فى دولة حمير وهى الدينار ، ودور مملكة إثيوبيا فى تعيين ملك دولة حمير والدفاع عنه وعن المملكة . يضاف إلى ذلك واقعة الأخدود التى أفاض فيها وحدد أعداد قتلاها ، وأن ملك حمير المسيحى الذى قتله يوسف ذو نواس هو الحارث بن كعب وأن زوجته كانت تدعى رومى . وأخيراً ماكان لبطريرك الاسكندرية من مكانة وتأثيره على ملك أثيوبيا . وأن دولة حمير كان بها الوثنى واليهودى والمسيحى فى عهد المؤلف .

الهوامش :

١ - Z.M. = Zachariah of Mitylene, Syriac Chronicle, trans F.J. Hamilton and E.W. Brooks, London, 1899, p. 3 .

٢ - Z.M., pp. 15, 18, 163, 325 .

٣ - Z.M., p. 207 .

٤ - أبو الفرج العبري : تاريخ الزمان - نقله إلى العربية اسحق أملة - بيروت - دار المشرق ، ١٩٨٦ ، ص ١ .

٥ - Z.M., p. 151 .

٦ - Z.M., p. 316 .

٧ - Z.M., p. 38 .

٨ - Z.M., p. 38 .

٩ - Z.M., pp. 12-16 .

١٠ - Z.M., p. 319 .

١١ - Z.M., pp. 19-23, 113, 126, 210-1, 179-184 .

١٢ - Z.M., pp. 18-19, 151, 204, 213, 325-6 .

١٣ - Z.M., pp. 327-8 .

١٤ - Z.M., pp. 38, 145, 262, 313 .

١٥ - Z.M., pp. 38, 206-3 .

١٦ - Z.M., pp. 164-5 .

١٧ - Bury, History of The Later Roman Empire, New York, 1958, II, p. 15.

١٨ - Z.M., p. 206 .

١٩ - لعله النعمان الأسود الذي تولى مدة حكمه خارج الحيرة يحارب الروم في أعالي الشام والجزيرة وتوفي عام ٤ - قم أثناء حصار الرها . انظر أسد رستم : الروم - بيروت ١٩٥٦ - جـ ١ ، ص ١٣٦.

٢٠ - Z.M., pp. 206-7 .

٢١ - Z.M., pp. 222-5 .

٢٢ - هو الحارث بن جبله الذي عينه الإمبراطور جستنيان ملكاً على العرب انظر : Procopius, The Persian War, London, 1961, I, p. 159 .

٢٣ - Z.M., pp. 212, 227-9 .

٢٤ - Z.M., pp. 151-2 .

٢٥ - Z.M., p. 150 .

٢٦ - Z.M., pp. 231-2 .

ولم يحدد المؤرخ تاريخًا لهذه الأحداث ، ولكن المؤرخ بروكوبيوس أشار إليها ضمن أحداث عهد الإمبراطور جستنيان . انظر : Procopius, The Anecdota, London, 1960, pp. 137, pp. 136. 141, 223 .

٢٧ - من الواضح هنا أن المؤلف وصل إلى أرض الغساسنة في فلسطين .

٢٨ - هو زرعه ذو نواس ، وفا شهيد سمي يوسف ذو نواس ، وهو الذي حقد الأخدود بنجران وقتل النصارى، انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ، ١٩٧٧ ، جـ٢ ، ص١١٩ .

٢٩ - Z.M., pp. 192-3 .

٣٠ - Z.M., pp. 193-4 .

٣١ - Z.M., p. 194 .

٣٢ - Z.M., pp. 194-5 .

٣٣ - Z.M., pp. 196-7 .

٣٤ - Z.M., p. 197 .

٣٥ - Z.M., p. 198 .

٣٦ - Z.M., pp. 200-1 .

٣٧ - Z.M., p. 202.

٣٨ - Procopius, The Persian War, I, pp. 181-191.

د. سعيد عاشور محمد (*)

أهمية البرديات العربية كمصدر من مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية

تمهيد : لايختلف الباحثون فى مجال التاريخ والحضارة الإسلامية على أهمية البرديات العربية كمصدر رئيسى من المصادر التاريخية التى يمكن الاعتماد عليها فى مجال البحوث والدراسات التاريخية والحضارية وذلك لأن هذه البرديات تعتبر وثائق ثابتة تعاصر الحدث ولايمكن أن يتطرق إليها أدنى شك، والبرديات تحتوى على العديد من الحقائق والمعلومات والبيانات والإحصاءات التى قلما نجدها فى مراد أخرى غير البردى .

ويصعب على المرء تحديد موضوعات معينة كتبت بين طيات البرديات العربية وذلك لأنها شملت تقريبًا جميع نواحى الحياة فى الدولة الإسلامية بداية من عهد الخلفاء الراشدين حتى نهاية الدولة العباسية تقريبًا .

فالبرديات الديوانية الصادرة عن دواوين الدولة تكشف العديد من أعمال الديوان من بينها المكاتبات الصادره من الخلفاء للولاة والعمال وأصحاب الشرطة ورجال الفقه والقضاة ، هذا بالإضافة لمقادير الأموال الصادرة إلى بيت المال أو الخارجة منه- كما تكشف أيضًا حقائق بالغة الأهمية عن أنشطة بيت المال وسائر أعمال التدوين والمكاتبات والتظلمات [1] والشكاوى والنظر فيها ومقادير الجزية والخراج الواجبة على أهل الذمه من يهود ونصارى[2] . أيضًا حملت نصوص بعض البرديات العربية معلومات هامة عن النشاط الاقتصادى والتجارى

* باحث بالمجلس الأعلى للآثار ومشرف على البرديات العربية بدار الكتب المصرية .

والمالى فى الدوله الإسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة وذلك من خلال المعلومات الواردة فى عقود البيع والشراء وكشوف العمال والأجراء والحرفيين والصناع والمبادلات التجارية والصفقات المتبادلة بين التجار والصناع سواء داخل مصر وخارجها وأسعار السلع والمنتجات والمحاصلات الزراعية وأسعار المواشى والأغنام الواردة فى التقارير الزراعية المحلوظ فى الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين والعهدين الأموى ثم العباسى[٣] حيث كشفت نصوص بعض البرديات العربية معلومات بالغة الأهمية عن رواج حركة البيع والشراء بين أقطار العالم العربى والإسلامى تبين ذلك من خلال ورود أسماء العديد من مراكز الصناعة والتجارة مثل مدن القدس والفسطاط ونيسابور وبغداد وتنيس وتستر والأسكندرية وطبرستان والسوس وإقليم السند وعيادان وخراسان وطبرية والماحوزة والرملة ودمشق وفلسطين .. وغيرها كثير ومتنوع .

وقد ارتبطت صناعات وحرف معينة ببعض هذه البلدان منها صناعة الزيت «زيت فلسطينى»[٤] وحرف مختلفة منها : «نعل سندى»[٥] و «خف ماحوزى»[٦] و «فرش وبساط وحزام وعقال طبرى»[٧] و «زمام تنيسى»[٨] و«حصر عبادانى»[٩] وجبة تسترية»[١٠] و«ثياب سوسية من الخز»[١١]. و«ثياب قدسى جياد»[١٢] ... وغيرها - وفى واقع الأمر إن المتأمل فى النصوص الواردة فى البرديات العربية يلاحظ أنها غنية بالمعلومات ليس فى المجال الإدارى والمالى والصناعى والزراعى والتجارى فحسب بل فى الأمور العليا للدولة ومنها أمور الديوان وبيت المال ونفقات الجنود[١٣] والقادة وأسراء الجيش ومرتباتهم وأعطياتهم هذا بالإضافة لمعلومات أخرى عن نظم التسليح وأدوات الجيش والمعدات والسفن بأنواعها وأطقمها وملاحيها[١٤] وسائر نفقاتها . كما تشمل أيضًا معلومات هامة عن اتفاقيات حسن الجوار والمعاهدات المبرمة بين الدولة الإسلامية وجاراتها من الدول الأخرى وهى معلومات قلما نجدها فى مواد أخرى غير نصوص البرديات العربية حيث تكشف هذه المعاهدات والاتفاقيات عن حقائق بالغة الأهمية توضح مدى ما كانت عليه الدولة الإسلامية من مهابة ومكانة وضح ذلك من خلال سياق نصوص المعاهدات وما تحمله من عبارات تهديد ووعيد شديد فى حال الإخلال بالنصوص المبرمة بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى ... وغيرها من المعلومات التى تعتبر مصدراً أصيلاً من مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية .

أولاً : البرديات العربية مصدر وثائقى للتاريخ الإسلامى :

١- تعريف الوثيقة :

الوثيقة المكتوبة هى المصدق عليها من جهة رسمية ويطلق عليها كلمة Act أو Deed[١٦] وإذا كانت الوثيقة صادرة من فرد أو شخص معين فلابد أن يكون موقعًا عليها - لذلك فإن الوثيقة المكتوبة تحوى ما يمكن أن يطلق عليه «العمل القانونى أو الواقعة القانونية» . وهناك تعريف آخر للوثيقة المكتوبة حيث عرفها بعض الباحثين بأنها «إعلان مدون عن شئ له طبيعته القانونية صيغ فى قالب أو شكل خاص مناسب للظروف»[١٧]- وعلى العموم فإن كلمة «وثيقة» فى اللغة العربية كلمة عامة غير محددة المعنى وتطلق على المستند قانونيًا كان أو غير قانونى[١٨]، وفى هذا يذكر صاحب مختار الصحاح بأن (الوثيق) هو الشئ المحكم[١٩].

وفى هذا السياق تجدر الإشارة إلى ظهور «علم الدبلوماتيك»[٢٠] وهو العلم الذى يتناول بالدراسة النقدية المصادر الأدبية الرسمية للتاريخ كالدساتير والبراءات والمراسيم والمعاهدات والاتفاقيات والوثائق الشرعية وغير ذلك من الوثائق والأوراق التى تزخر بها الأديرة والكنائس والمعابد- أيضًا يعنى هذا العلم بدراسة وتحليل النصوص المكتوبة فى قالب خاص أو شكل مناسب للظروف ويتضمن فعلاً قانونيًا أو واقعة قانونية . لذلك كله فإن الوثيقة الدبلوماتية تعتبر مصدراً أصيلاً من مصادر التاريخ ويمكن دراستها من حيث الشكل أى الخصائص الخارجية والداخلية . فالخصائص الخارجية تشتمل على كل ما يتصل بالوثيقة من حيث هيئتها الخارجية مثل المادة التى كتبت الوثيقة «ورق- رق- بردى- قماش ...»[٢١] وغيرها» ثم نوع الحبر الذى كتبت به الوثيقة ولونه ثم نوع الخط وفى وثائق البرديات العربية استعمل فى الغالب خط التحرير المخفف أو ما يمكن أن يطلق عليه «الخط اللين» لأنه خط يتناسب مع ألياف ورق البردى. أيضًا تشمل الخصائص الخارجية للوثيقة التوقيعات والأختام[٢٢] وطريقة الإخراج ... وغيرها .

أما بالنسبة للخصائص والسمات الداخلية للوثيقة فهى التى تشتمل على كل ما يتصل بلغة الوثيقة وطريقة صياغتها وما يتعلق بها من مضمون وحقائق ووقائع تاريخية وحضارية أى كل ما تحتويه من معلومات قد تنفع المؤرخ وتفيده بحقائق تاريخية تخدم بحثه . وقد تكون الوثيقة على شكل صفحة أو قطعة Piece[٢٣] أو على هيئة ملف Roll مؤلف من عدة أدراج[٢٤]- وأحيانًا أخرى تخرج على هيئة كتاب Codex Form[٢٥].

٢- البرديات العربية كوثائق تاريخية :

يعرف العلماء «التاريخ» بأنه العلم الذى يبحث فى سير الأولين من الأحداث والرجال والدول ووقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت [٢٦]- وفى تعريف آخر أكثر شمولية اتسع مجال التاريخ فشمل الزمن كله ما مضى منه وما هو حاضر وما هو مقبل ، وبذلك أصبح التاريخ يشمل التجربة الإنسانية كاملة ، فلم يعد يقتصر على ذكر الأحداث السياسية والعسكرية بل شمل أيضًا التطورات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية وأصبح اهتمام المؤرخ موجهًا إلى دراسة أحوال البشر عامه وتطور الجماعة الإنسانية فى مجموعها [٢٧]. ويلخص السخاوى موضوع التاريخ بشكل موجز بقوله : «وأما موضوعه فالإنسان والزمان ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفى الزمان»[٢٨].

ومن هذا المنطلق فإن المتأمل فى نصوص البرديات العربية وخاصة الرسائل والخطابات الصادرة عن دواوين الدولة بداية من عهد الخلفاء الراشدين وحتى نهاية عهد الدولة العباسية يلاحظ أنها وثائق تاريخية ثابتة لايمكن أن يتطرق إليها أدنى شك لأنها تحتوى بين طياتها العديد من المعلومات المتعلقة بسير الإدارة فى الدولة الإسلامية من حيث مصادر الدخل وأوجه الإنفاق والعطاء ومخصصات الولاة والعمال[٢٩]، كما يلاحظ فيها أيضًا توجيهات وملاحظات وإرشادات وتعليمات من الخلفاء للولاة والعمال لمراعاة مصالح الدولة[٣٠] وسياستها العليا وتأمين حدودها وتحسين علاقتها مع جاراتها من الدول الأخرى هذا من ناحية «الشئون الخارجية»[٣١]- أما من ناحية «الشئون الداخلية» فهى فى أغلب الأحوال تتعلق بمصالح الرعية والعدل بينهم وإنصاف المظلومين وحفظ حقوقهم .[٣٢] وكذلك مراقبة أعمال أهل الذمة وحل مشاكلهم والعناية بمصادر الدخل وتنشيط حركة التجارة والاهتمام بالنواحى الاقتصادية وما يرتبط بها من نشاط زراعى وتجارى وصناعى ورعى[٣٣] ... وغيره . كما تتضمن أيضًا حث الولاة والعمال على العناية بمرافق الدولة من طرق ومواصلات ومنشآت وموانئ وجسور وتطهير ترع ومصارف لزيادة مصادر الدخل بزيادة مساحة الرقعة الزراعية التى كانت تمثل أحد المصادر الرئيسية للدخل من جراء تحصيل الجزية والخراج على أهل الذمة الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من أهالى البلاد الأصليين - ويؤيد هذا القول ما رواه أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة» أن عمرو بن العاص والى مصر كان قد إستأذن الخليفة الراشد عمر بن

الخطاب فى إنفاق ثلث خراج مصر فى حفر وتطهير ترعها وبناء وصيانة جسورها»- وفى هذه الإشارة دلالة واضحة على رعاية الدولة بداية من عهد الخلفاء الراشدين بالزراعة وكل ما يرتبط بها من رى ومراعى وإنتاج محاصيل وذلك لزيادة مصادر الدخل حيث كانت الزراعة فى ذلك الوقت تمثل ركيزة أساسية فى حياة المجتمع واستقراره . وفى العهد الأموى لاحظ الخلفاء والولاة أن العديد من أقاليم الدولة وخاصة فى مصر والشام تمتلك مصادر وفيرة من مياه الأنهار كنهر النيل وفروعه المختلفة ونهر دجلة والفرات ... وغيرها فأقاموا عليها السدود وشقوا لها الجداول واستخدموا هذه المياه فى الزراعة[٣٥] ووضعوا تقويمًا للزراعة عرف باسم «التقويم القرطبى»[٣٦] أصبح فى واقع الأمر دليلاً ودستورًا لزراعة النباتات والمحاصيل المختلفة طوال العام فى مواعيدها . وتجدر الإشارة إلى أن العديد من شعوب العالم فى ذلك الوقت قد أخذت تعمل بهذا التقويم لزيادة مصادر دخلها أيضًا [٣٧].

ويؤيد هذا القول ما رواه ابن حجر فى كتابه «فتح البارى»[٣٨] أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه - أرسل أحد عماله رسالة يقول فيها : أنظر ما تبذكم من أرض فاعطوها بالمزارعة على النصف وإلا فعلى الثلث حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد ما منحها ، وإلا فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولاتبيرن قبلك أرضًا .. » من هذا النص يتبين لنا مدى عناية الدولة بمصالح الرعية من خلال الاهتمام بالزراعة والرى وتوفير فرص عمل مناسبة للأهالى حيث كانت تمثل الحرفة الرئيسية لهم وكما هو معلوم فإن الزراعة وما تخرجه الأراضى من محاصيل تنشط حركة التجارة والبيع والشراء كما أنها ترتبط أيضًا إرتباطًا وثيقًا بحرف وصناعات أخرى مختلفة مثل حرفة الرعى وصناعة الألبان والخمور والأجبان وملابس الصوف والقطن وصناعة الحبال والسلال ... وغيرها [٣٩].

وفى العصر العباسى اعتنى أيضًا خلفاء بنى العباس بالزراعة وشئونها المختلفة . ونظرًا لاتساع رقعة الأرض أنشأ العباسيون لماء الرى فى مدينة مرو وهى من أشهر مدن خراسان[٤٠] ديوانًا أطلقوا عليه «ديوان الماء»[٤١] وكان يشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه عشرة آلاف عامل، وتودع فى سجلات هذا الديوان مقادير خراج الأرض حسب كيفية ريها، فيؤخذ العشر إذا كانت تسقى سيحًا أو تسقيها السماء، بينما يؤخذ نصف العشر إذا كانت تسقى بدلو أو ساقية أو نحوه [٤٢].

وفى واقع الأمر إن العديد من نصوص البرديات العربية سواء تلك التى تنسب لعهد الخلفاء

الراشدين أو العهدين الأموى ثم العباسى قد تحدثت بشكل تفصيلى عن النواحى الزراعية ومقادير الحاصلات التى تنتجها الأراضى الزراعية وأحيانًا أوردت نصوص بعض البرديات العربية أسعار بعض المحصولات والكميات الواجب إخراج خراجها وهناك تقارير زراعية مرفوعة لأولى الأمر تبين نوع المحصولات وكمياتها وأسعارها ومقادير الخراج والجزية الواجبة على أهل الذمة [٤٣]- كما أن هناك وثائق بردية أخرى تبين أجور العمال والحرفيين[٤٤] والأجراء الذين يقومون بأعمال الزراعة فى أوقات معينة أثناء جمع المحاصيل وهناك أيضًا معلومات وفيرة عن المواشى وأعدادها وأسعارها[٤٥] وعن صناعة الجبن والألبان واللحوم والمراعى... وغيرها وكل ما يرتبط بمصادر الدخل وهى فى واقع الأمر معلومات وتقارير وبيانات وإحصاءات قلما نجدها فى مواد أخرى غير نصوص البرديات العربية .

٣- نماذج مختاره من البرديات العربية :

آ- قطعة صغيرة من ورقة بردى محفوظة فى متحف الدولة ببرلين بألمانيا برقم سجل (P. Berol. No. 15002)[٤٦] وهى ربما كانت الجزء الأخير من رسالة تتعلق بأمور مالية - والبردية مؤرخه بسنة ٢٢هـ والقسم المتبقى منها نصه هكذا :

١- دينرا ونصف دينرا عدداً فى النصف .

٢- سنة إثنتين وعشرين[٤٧].

ترجع أهمية هذه البردية أنها تعتبر من البرديات المبكرة التى تعاصر فتح مصر ووالييها عمرو بن العاص زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب .

ب- بروتوكول Protocole [٤٨] محفوظ حاليا فى المتحف البريطانى بلندن برقم سجل (Brit. Mus. inv. 1515)[٤٩] - يتضمن نصًا من ١٣ سطراً كتب بلغتين عربية ويونانية ، الكتابة العربية فى ٧ سطور فى نهايتها التاريخ وهو سنة ٨٨هـ .

نص البروتوكول :	«النص العربى»
١- بسم الله	الرحمن الرحيم
٢- لا إله إلا الله	وحده لاشريك له
٣- لم يلد ولم يولد	ولم كين[٥٠] (يكن) له كفوا أحد

٤- محمد رسول الله	أرسله بالهدى ودين الحق
٥- عبد الله الوليد	أمير المؤمنين
٦- هذا مما أمر به الأمير	عبدالله بن عبد الملك
٧- فى سنة	ثمان وثمنين

وفى واقع الأمر أن العديد من نصوص البروتوكولات تكشف العديد من الجوانب المتعلقة لها بدواوين الدولة وطريقة مخاطبة الخلفاء للولاة والعمال وأساليب الكتابة ونظم التدوين وافتتاحيات الخطابات كما تتضمن أيضًا العديد من أسماء الخلفاء وألقابهم وكذلك أسماء الولاة والعمال وكبار رجال الدولة وغيرهم . نظراً لأن نصوص البروتوكلات تعتبر الافتتاحيات الأولى فى أدراج ولفائف البردى.

ج- بردية عربية موضوعها (أمر مرجه من نائب الوزير الفتح بن خاقان إلى أحد أهالى ضيعة الأمير) .

وهى بردية محفوظة فى دار الكتب المصرية برقم سجل (١٠٠١)[٥١] مؤرخه بين أعوام ٢٤٢-٢٤٧هـ / ٨٥٦-٨٦١م تكمن أهميتها فى أنها تكشف حقائق تاريخية هامة عن إقطاعات الخلفاء للوزراء وأملاكهم وسائر أعمال الأقاليم - والبردية صغيرة نسبيًا أبعادها (١٠.٥سم ×١٦سم) تتكون من (٥) سطور نصهم هكذا :

١- (بسم) الله الرحمن الرحيم

٢- (هذا كتاب من محمد بن وكيل الأمير

٣- (الوزير الفتاح) بن خاقان لقلته بن يقيم من سكان فلتدون من ضياع الأمير.

٤- (بعامد قرى عليه كتابى هذا ...

وفى هذا الخصوص يذكر الدكتور جروهمان بعض الحقائق التاريخية عند شرحه وتعليقة على هذه البردية فيقول : «منح الخليفة العباسى المتوكل ، الوزير الفتح بن خاقان الذى كان قد جعل على بيت المال خلفا للفضل بن مروان سنة ٢٣٣هـ إقطاع مصر خلفًا لابنة ولولى عهده محمد (المنتصر) فى شهر ربيع الأول سنة ٢٤٢هـ / أغسطس ٨٥٦ وأصبح للفتح بن خاقان الحق فى استخلاف من يحكم هذه البلاد نيابة عنه ...»[٥٢].

د- برديه عربية موضوعها (إحصاء الحيران فى قرى مختلفة) محفوظة أيضًا فى دار الكتب المصرية برقم سجل (٤١١) تنسب للقرن ٣هـ / ٩م [٥٢]، تتضمن نصًا يتعلق بالمراعى والماشية وهى تعكس النشاط الملحوظ للنواحى الاقتصادية والزراعية فى مصر فى هذه الفترة من الزمن حيث كانت تسجل معلومات وإحصاءات حول المراعى وما تضمه من حيوانات ومواشى إما لخدمة الأراضى الزراعية أو للرعى وللتجارة وغيرها من المعلومات الهامة التى تخدم الباحثين فى مجال التاريخ الاقتصادى عند المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

نص البردية : الوجه

١- ( ) و (كباش .....

٢- يعقوب والراعى نفسه مما أحضر بلتوس هندوه مما (أحضر) ....

٣- يد نجاشه كباش

٤- فلذلك

٥- .....

٦- فلذلك

٧- قرية تدعى طيموه وبويط بسم الله الرحمن الرحيم

٨- ثيدر أيوب والراعى نفسه جرجا نحاس والراعى نفسه كباش

٩- نوهه ابلو والراعى مسنه هـ ( ) والراعى نفسه كباش

١٠- كباش

١١- وله مع مقاره كباش بدر (ـــ) وره بقام والرعى نفسه كباش

١٢- وله مع مقاره كباش وله كباش

١٣- وله مع مقاره كباش جرجه الحارس مما أحضر بسندروف

١٤- وله الراعى هلس كباش

هـ- برديه عربية تتعلق بسجلات أراضى زراعية وحاصلات مختلفة - محفوظة حاليًا فى مجموعة ناصر الخليلى[٥٥] بانجلترا برقم سجل (inv. No, 76) أبعادها ١٧,٥ × ٣٣,٥ سم

تنسب للقرن ٣هـ / ٩م - وردت بها عبارات عن مساحة الأراضى الزراعية وبعض المحاصيل مثل الكروم والأجنة ... وغيرها . ويلاحظ أن البردية تتضمن أيضًا مساحات الأراضى الزراعية بالفدادين[٥٦] مما يدل على الدقة التى كانت سائدة فى هذه الفترة حيث كانت تقاس مساحات الأراضى الزراعية وتقدر محاصيلها الزراعية باختلاف أنواعها حتى تتم عملية كشوفات الجزية والخراج بشكل دقيق، وذلك لأنه كما ذكرت من قبل أن الجزية والخراج كانتا تعد من أهم مصادر الدخل فى الدولة الإسلامية خلال القرون الأولى للهجرة لذلك كانت العناية بمساحات الأراضى الزراعية فى العديد من المدن والقرى أمرًا ضروريًا لتحديد ميزانية الدولة وسائر نفقاتها .

نص البردية : كتابة الوجه Recto [٥٧]

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- كتاب جماعة ما (إرتفع)

٣- من مساحة كورة دلاص وقرى أهنا (س)

٤- من أرض الزرع والكروم والأجنة وغير ذلك ( )

٥- قبـ(هـ)ا من كورة دلاص ثمنية ألف وتسعة وثلثين (فدانا)

٦- من ذلك أرض السجلات ثلثة ألف وثمانى مايه وأربـ(عين فدانا وأربعة فدادين)

٧- الفضل على السجلات ألفين وثلثماية وأربعة (فدادين)

٨- زرع الأمير حفظة الله ستـ(ين فدان / ستة فدادين)

٩- قطيعة عبد .....( )

١٠- ومنها قرى أهناس خمسة ألف وأربع مايه وستـ(ة وثلثين)

١١- فـ(دانا)

١٢- من ذلك أرض السجلات أربعة ألف ومائتين وخمسة وأربعين (فدانا)

١٣- الفضل على السجلات ألف ومايه وتسعين فدانا ( )

١٤- فجميع فضل كورة دلاص وقرى أهنـ(اس)

١٥- على السجلات ( )

كتابة الظهر Verso

١- وبويط وقرى أهناس

ثانيًا : البرديات العربية مصدر من مصادر الحضارة الإسلامية :

١- تعريف الحضارة :

ذكر الفيروز آبادى فى قاموسه عند تعريفه مادة (حضر) بأن «الحاضرة والحضارة خلاف البادية- وإن الحاضر خلاف البادى»[٥٨]. وفى تعريف أكثر توضيحًا للحضارة يذكر المؤرخ ابن خلدون : «إنما تكثر العلوم حيث يكثر العمران ، وتعظم الحضارة والسبب فى ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع التى تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الحضارة والترف حيث نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة وذلك لأنه أمر زائد على المعاش ...» وفى موضع آخر يذكر : «أن الملك زائد على الرئاسة ، وأن الحضارة زائدة على الضرورى من العمران وأن الترف زائد على الحضارة .....»[٥٩].

ومن ناحية أخرى فإن بعض الباحثين المعاصرين[٦٠] قد ذكر تعريفًا مختصراً للحضارة يتمشى تقريبًا مع المعانى السابقة فذكر أن : «الحضارة – فى مفهومها العام- هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية».

وفى واقع الأمر إن المتأمل فى التعريف الأخير يلاحظ أن مفهوم الحضاره مرتبط إرتباطًا شديداً بالتاريخ وذلك لأن التاريخ كما ذكرت من قبل علم يبحث فى وقائع الزمان والناتج الحضارى يحتاج إلى زمن لإظهار ثمرته ، فكما أن ثمار الأشجار لاتنضج إلا بفعل الزمن ومرور وقت لنضجها إذ لايمكن أن تزرع وتحصد الثمار فى وقت واحد معًا ، فإن ثمار الحضارة لاتظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان .

من ذلك كله ندرك تمامًا أن للحضاره مفهومًا ومعنى شاملاً يتسع تقريبًا لنشاط الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض، وفى العصر الإسلامى اتخذت الحضارة مفهومًا مثاليًا وذلك لإرتباطها بتعاليم السماء، وبهدى خاتم الأنبياء، حيث استطاعت القبائل العربية التى عاشت حياة البداوة قبل الإسلام التغلغل فى مواطن الحضارة الفارسية والرومانية فاستوعبتها ونقلتها للعربية وأخذت منها مايناسب الدين الإسلامى وتركت كل ما يخالف العقيدة ، بل أضاف علماء العرب[٦١] فى شتى فروع العلم إضافات جديدة مما فتح الله عليهم من نور العلم والإيمان فأصبحت الحضارة الإسلامية بوتقة عالمية إنصهرت فيها حضارات الأمم السابقة مضافًا إليها

٢- إنصاف أهل الذمة فى نصوص البرديات العربية كمظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية:

مما لاشك فيه أن البرديات العربية وما تحويه نصوصها من موضوعات متعددة ومتنوعة بداية من عهد الخلفاء الراشدين وحتى نهاية العهد العباسى تشمل تقريبًا جميع نواحى الحياة فى الدولة الإسلامية وهى فى واقع الأمر زاخرة بمعلومات غنية عن الحضارة الإسلامية متمثلة فى سياسة الخلفاء والولاة مع العمال والرعية من مسلمين وأهل ذمة وهى كذلك توضح حسن سير الإدارة الإسلامية فى الأقاليم والولايات التابعة للدولة. أيضًا نجد فى نصوص بعض البرديات العربية معلومات عن تنظيم عمل الدواوين ومراجعات الكشوفات والتقارير والسجلات لحصر مصادر الدخل بدقة وكذلك تحديد أولويات الإنفاق والمخصصات والعطايا ليس للجند فحسب بل لأبنائهم وذويهم وأرامل الجند وكل المستحقين من فقراء ويتامى وغيرهم ، ومن الأمور الجديرة بالذكر والملاحظة وجود العديد من الشكاوى والتظلمات مرفوعة من قبل بعض أهل الذمة (يهود ونصارى) للخلفاء والولاة لأخذ حقوقهم إما من أصحاب العمل وإما فى قضايا ثنائية بين طوائف الملة الواحدة ، ويلاحظ أن الخلفاء والولاة يعطون هذه الشكاوى والتظلمات عناية خاصه وإنصاف المظلومين وإعطاء كل ذى حق حقه، كما نلاحظ أيضًا عدم التعسف فى جباية الجزية والخراج الواجبة على أهل الذمة . ولقد أشارت العشرات من نصوص البرديات العربية إلى هذه الحقيقة ومنها على سبيل المثال بردية عربية محفوظة فى دار الكتب المصرية موضوعها (أمر خاص بالدفع موجه من أهل شبرا اجيه بنرتيه ومايجاورها)[٦٢] مؤرخة فى شهر صفر سنة ٩١هـ / ديسمبر ٧٠٩م- تذكر هذه البردية حقيقة بالغة الأهمية وهى أن الجزية التى فرضت على أهل شبراجيه من قرية كوم اشقاو مقدارها (٣٧) ديناراً عدداً وهى أيضًا جزية متأخرة من أكثر من ثلاث سنوات حيث أن البردية مؤرخة كما أشرت من قبل فى شهر صفر سنة ٩١هـ – نص البردية .

١- بسم الله الرحمن الرحيم .

٢- هذا كتاب من قرة بن شريك .

٣- لأهل شبراجيه بـ(بنوتناميه) كوره اشقوه

٤- أنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمنين سبعة

٥- وثلثين دينرا عدداً وكتب راشد فى

٦- صفر من سنة احدى وتسعين .

وفى واقع الأمر إن المتأمل فى نصوص البرديات العربية التى تتعلق بجباية الجزية والخراج وتقارير السجلات الإحصائية لأهل الذمة وقوائم الحرفيين والصناع والتجار وغيرهم يلاحظ أن المسلمين لم يستخدموا العنف والقسوة مع من خالفهم فى العقيدة كما زعم بعض غلاة المستشرقين أمثال المستشرق B. Evetts محقق كتاب ساويرس بن المقفع - «سير آباء الكنيسة القبطية فى الأسكندرية» وكما هو معلوم فإن ساويرس بن المقفع مسيحى يعقوبى شغل منصب أسقف فى كنيسة الأشمونين نحو سنة ٩٥٨م[٦٣] وكتابة ملئ بالأكاذيب والروائع المزورة ولقد نبه العديد من الباحثين إلى توخى الدقة والحذر عند النقل منه ومنهم على سبيل المثال الباحثة نبيه عبود[٦٤] Nabia Abbot - أيضًا حذر المستشرق أبدرس بل H.I. Bell من هذا الكتاب[٦٥] ... وفى هذا الخصوص أذكر إشارة واحدة على سبيل المثال وردت فى كتاب ساويرس بن المقفع السابق الإشارة إليه تتعلق أيضًا بجمع الجزية والخراج وهى تخالف الحقيقة التى أوردتها من قبل فى الوثيقة البردية السابق ذكرها والمؤرخة بعام ٩١هـ - فذكر ساويرس عن والى مصر عبد العزيز بن مروان الذى حكم مصر بين أعوام ٦٥-٨٥ هـ أنه حاول إيقاف هروب الأقباط إلى الأديرة عندما لاحظ موجة الترهب التى لازمت بعض الأقباط فى زمنه حيث كانت الجزية لاتجبى من الرهبان المنقطعين للعبادة فى الأديرة - فذكر: «أنفذ عبد العزيز بن مروان صاحبًا له اسمه فمن من يأمن إليه ومعه آخر فأحصى[٦٦] جميع الرهبان فى كل الكور ووادى هبيب وجبل جراد وسائر الأماكن وجعل عليهم جزيه دينار واحد على كل نسمة وأمرهم أن لايرهبوا أحد بعد من أحصاه وهذه أول جزية وزنوها الرهبان...»[٦٧]. هذه العبارة تتناقض مع الوثيقة البردية السابق ذكرها وهى إلى حد ما قريبة من ولاية عبد العزيز بن مروان الذى انتهى حكمه لمصر سنة ٨٥هـ - والجزية التى تمت جبايتها والتى وردت فى الوثيقة كانت من متأخرات عام ٨٨هـ ... ومقدارها (١٣٧) ديناراً عن كل قرية شبرا اجيه وتوابعها - ونلاحظ أن حديث ساويرس بن المقفع السابق ذكره والذى يزعم فيه أن عبد العزيز بن مروان فرض ديناراً واحداً على كل نسمة - فلو كان هذا الزعم حقيقيًا لكانت الجزية أكثر من هذا بكثير - فلايعقل إطلاقًا أن يكون عدد سكان شبرا اجيه وتوابعها (١٣٧) شخصًا - ولكن الشئ المؤكد أن هذه الجزية كانت على القادرين الذين يمارسون عملاً أما أغلب أهل القرية من صبيه وأطفال وشيوخ ورهبان وراهبات وقساوسة ونساء وعجزة وأرامل وأيتام ... وغيرهم مما لاتجب عليهم الجزية والخراج لاتدخل فى حسابها ، وهذه العدالة تعتبر فى واقع الأمر من أبرز

البيع والشراء التى كتبت على ردق البردى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة كشفت أيضًا عن جوانب حضارية تمثلت فى إرتضاء بعض أهل الذمة فى إنفاذ عقود بيعهم وشرائهم وفق شريعة الإسلام الغراء- ربما لثقتهم المطلقة فى عدالة هذه الشريعة وإنصافها للمظلومين ولأنها شريعة منزهة عن النقائص وتحفظ حقوق كلا الطرفين ، ولعل الدليل على ذلك وجود العشرات من هذه العقود محفوظ فى عدد كبير من المكتبات والجامعات والمعاهد العالمية منها على سبيل المثال دار الكتب المصرية التى تحتفظ بأعداد منها أحدها عقد بيع منزل يحمل رقم سجل[٦٩] (١٧٩٤ تاريخ) كتب على ورق أبيض سميك مصبوغ ظهره بلون أصفر طوله ٢٠,٣٦ سم وعرضه ٨,٣٦ سم وهو فى حالة جيدة نقرأ فى السطور الأربعة الأولى هذا النص:

١- أعرفا البايعين بقبض الثمن من المشتريات بالاجازة وكتب سليمان بن ادريس فى تاريخه .

٢- بسم الله الرحمن الرحيم

٣- هذا ما اشترا مقوس بن ثيدر وزوجته مرنه إبنت سله بن هرمينه من بلهيرا إبنت قوريل ومن والدتها قرهيره ابنت قرى وهما جميعا من أهل الضيعة المعروفة ببلجسرق قرية من قرا كورة .

٤- الفيرم اشتروا منها بصفقة واحد عقد واحد جميع المنزل الذى هو ملكها إرثًا عن والدها قوريل وعمها بيشوده الشماس فى القبلة المعترفه بحارة الكلابين من شرق هذه الضيعة . وفى السطر الثانى عشر من العقد نقرأ هذه العبارة .

١٢- كاين ما كان وبالغ ما بلغ وعلى بيع الإسلام وعهدتهم وذلك فى صحة عقلهم وأبدانهم وجواز أمورهم طايعين غير مكرهين ولامجبرين طيبه بذلك أنفسهم وكتب فى رجب سنة ست وأربع مايه[٧٠].

وفى واقع الأمر إن إرتضاء بعض أهل الذمة إنفاذ عقود بيعهم وشرائهم وفق شريعة الإسلام الغراء إنما يعد دلالة واضحة على عدالة هذه الشريعة وبأنهم يعيشون وسط مجتمع آمن كفل لهم حقوقهم وحفظ لهم ممتلكاتهم ، وفى هذا الخصوص يشير المستشرق آ.س. ترتون بقوله : «إن المسلمين منذ بداية عهدهم لم يحتلوا أية كنيسة ولم يتدخلوا فى شئون الأقباط وأن عمرو بن العاص لم يمد يده إلى أى شئ من أملاك الكنائس[٧١] وفى نقطة أخرى يشير إلى أن أول كنيسة بنيت فى مدينة الفسطاط كانت فى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى ٤٧-٦٨هـ-

ويذكر أيضًا أنه عندما أنشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان سمح بإقامة كنسية بها ثم أنشئت كنيسة ثانية في عهده وبعض الأديرة »[١٧٢]. أيضًا ذكر المسعودي وصفًا شاملاً لأحد إحتفالات الأقباط في مصر وفيه إشارة واضحة لمشاركة الحكام المسلمين في أعياد واحتفالات النصارى «فيقال أنه في سنة ٣٢٠هـ وفي ليلة الغطاس أمر محمد بن طغج الاخشيد والي مصر عندما كان في قصره المعروف بالمختار في جزيرة الروضه بإنارة جانب الجزيرة وجانب الفسطاط بالإضافة إلى ما قام به أهل مصر من إنارة المشاعل والشمع في أنحاء مختلفة إحتفالاً بهذا العيد »[١٧٣]. وفي هذا إشارة واضحة إلى مشاركة جميع الشعب المصري والحاكم فرحة وبهجة الأقباط في عيدهم .

وهي تعد مظهراً راقيًا من مظاهر الحضارة وعدم التعصب . وفيه أيضا دحض للافتراء الظالم الذي ورد في كتاب يوحنا بن النقيوسي السابق ذكره عن عبد العزيز بن مروان من تسوته في جباية الجزية والخراج وهذا يتناقض تمامًا مع ما ذكره أ.س. . ترتون في أن عبد العزيز بن مروان أمر بانشاء كنيستين وديرين في مدينة حلون بعد تأسيسها [١٧٤].

وبالإضافة إلى ذلك أظهرت بعض عقود العمل التي كتبت على ورق البردي مدى ما تمتع به بعض أهل الذمة من ممارسة أعمال تتناسب مع قدراتهم وحفظ كافة حقوقهم المالية وأجورهم . من هذه العقود عقد محفوظ في دار الكتب المصرية برقم سجل (٩٦) مؤرخ بسنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م ، صاحب العمل يدعى سعيد بن عيسى أما العامل فهو أحد أهل الذمة ويدعى هارون بن بقام مدة العمل شهرين - ونلاحظ أن العقد حدد أجرة مناسبة للعامل وهي (سدس دينار) وعلى أن تدفع له على مرحلتين لكل شهر درهمين .

نص العقد :

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- هذا ما استأجر سعيد بن عيسى استأجر هارون بن بقام استأجره

٣- سعيد بن عيسى شهرين كاملين على أن يعمل له عمل الفول وعلى أن

٤- يعطيه في هذين الشهرين سدس دينر لكل شهر درهمين

٥- وأول يوم من الشهر أو يوم من كهيك من شهور العجم

٦- من سنة مئتين وسبعة وعشرين شهد على ذلك

٧- أيوب بن موسى وكتب شهادته

٨- ومحمد بن أيوب وكتب بخطه

٣- نماذج مختارة من نصوص برديات عربية تكشف بعض جوانب الحضارة الإسلامية:

أ- التماس مرفوع من بعض أهل الذمة إلى الخليفة العباسي المعتز بالله

هذا الالتماس محفوظ في دار الكتب المصرية برقم سجل (الطراز رقم ٣٨٠٧) يرجع تاريخه إلى أعوام ٢٥٢-٢٥٥هـ / ٨٦٦-٨٦٩م. أطواله ١٩,٥سم × ٣٤سم [١٧٥]. ترجع أهمية هذا الإلتماس إلى كونه مرفوع من بعض أهل الذمة إلى القيادة العليا في الدولة ممثلة في الخليفة العباسي «أبو عبدالله محمد المعتز بالله بن المتوكل» الذي تولى الخلافة في الرابع من شهر المحرم سنة ٢٥٢هـ إلى ٢٧ رجب سنة ٢٥٥هـ[١٧٦]. وهو يكشف مدى ما تمتع به أهل الذمة من حرية في رفع التماساتهم وتظلماتهم إلى ذوي الشأن في الدولة لحفظ حقوقهم ورعاية شئونهم . وهذا الأمر يتناقض تمامًا مع ما ذكره ساويرس بن المقفع في كتابه السابق الإشارة إليه «سير آباء الكنيسة القبطية في الأسكندرية » حيث أورد فيه عبارات تدل على إضطهاد ولاة أمور المسلمين من خلفاء وولاة لأهل الذمة نذكر على سبيل المثال هذه العبارة[١٧٧]:

عن ولاية الوالي قره بن شريك العبسي ٩٠-٩٦هـ / ٧٠٩-٧١٥م [١٧٨].

«وكانوا الناس يهربوا ونساتهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولاياربهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم أنه ولي إنسان اسمه عبد العزيز من مدينه سخا وكان يجمع الهاربين من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم إلى موضعه».

والالتماس الذي نحن بصدده على الرغم من فقدان أجزاء كبيرة منه حيث تطرق إليه التلف إلا أن ورود اسم الخليفة به مقترنا بتظلم بعض أهل الذمة يدل دلاله واضحة على حرية الرأي والتعبير ورفع المظالم للقيادات العليا في الدولة لأجل النظر فيها والعمل على حلها . نص الإلتماس :

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- هذا كتاب لعبد الله أبي عبد الله الأمام المعتز بالله أمـ(ـير) المؤمنين

٣- أطال (ا)لله بقـ(ـاءه) (ه.....) افخر من أبي و(با)بي وا(سما)عيل) بن داود بن يزيد المقاطعين على مجلس ستر ....

٤- (....) (ياسن يحنس وشنوته بن إصطفى ويعقوب مينا فيساط

٥- ( ) (.....) ساوكا(ذ)ن النجار وبيه بن هشام ويحنس بنهه

٦- ( ) ( ) !

ب- وصفه طبيه كتبت على ورق البردى لعلاج بعض الأمراض تنسب للقرن ١هـ / ٧ م هذه البردية منفذة على قطعة صغيرة من ورق البردى أطوالها ٥×١٢ سم - عدد سطورها ستة سطور كتبت بمداد أسود بخط التحرير المخفف، وهى المخطوط المنفذة فى بردبات القرن الهجرى الأول. والبردية بصفة عامة تتحدث عن علاج بعض الأمراض الشهيرة باستخدام بعض الوصفات الطبية للعلاج بالأعشاب ومن هذه الأمراض « أمراض الحما والمغص والزحير ولدغ العقرب والحية وأمراض الأطفال والطحال وأمراض النسا، والرمد» أما بالنسبة للأعشاب الطبية المستخدمة فى العلاج فقد وردت فى البردية نباتات مختلفة تكثر زراعتها فى البلاد العربية منها نبات الشعير وكما هو معروف فإن شرابه مبرداً للبطن ومدراً للبول وكان يستعمل أيضًا كعلاج موضعى ، ونبات الحلبة يستعمل لإدرار اللبن ولعلاج بعض أمراض النسا، وإزالة تجاعيد الوجه والشيب والإسهال والصرع، ونبات الكسبرة كان يستعمل لعلاج إلتهاب الرحم وعلاج أمراض الأمعا، والبول الدموى ونبات الطرفا، وهو نوع من النباتات تكثر فى سينا، وتفرز مادة سكرية وكان يؤتى بها من سينا، وتباع فى مدينة الفسطاط وكانت تستعمل فى أمراض الحميات وأمراض الطحال وتقوية الباه- أيضًا ورد بالبردية العلاج بلبن الأم للعلاج حيث كان يستخدم كعلاج وغذا، للأطفال وعلاج موضعى للعين والأذن- والحمص كان دواءً لعلاج بعض أمراض النسا، وإدرار الطمث وفتيت حصى الكلى وتنشيط الدورة الدموية كما يساعد على إخراج الجنين ونبات العدسة كان يستخدم فى علاج بعض أمراض العين وكان يستخدم أيضًا كعلاج موضعى للأمراض الجلدية- أيضًا وردت بالبردية عبارة تفيد العلاج بالما، فى حالتيه البارد والفاتر حيث يساعد على تنشيط الجسم ويساعد أيضًا على غسل وتسهيل عمل الكلى [٨٠]. وهذه الوصفات الطبية قد أيدتها الأبحاث الطبيه المعاصرة وهى إن دلت على شئ فإنما تدل على مهارة العرب والمسلمين منذ القرون الأولى للهجرة فى معرفة علاج بعض الأمراض باستخدام الأعشاب النباتية المتوافرة لديهم فى بيئتهم الصحراوية ومناطق معيشتهم .

نص البردية :

( ) ال (

٢- ( ) وعديسه وحد ( ) حموم تشربه بماء الشعير

٣- والحما تشربه بما الكزبر والمغص والزحير تشربه بما فاتر وللعقرب

٤- والحيه تشربه بما بارد وللصبى الذى يشتكى أذنه بلبن أمه

٥- وللطحال تشربه بما الطرفا وارياح الأرحام تشربه بما الحلبه

٦- والحمص

ج- براءة ذمة مالية لأحد أهل الذمة مع التعهد بحمايته من قبل عمال الأمير . هذه البراءة كتبت على قطعة من ورق البردى- محفوظة حاليا فى مجموعة الأرشيدوق رايتر فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PERF. No. 67(I)[٨١] مؤرخه فى شهر رمضان سنة ١٩٦ هـ/ مايو ٨١٢م- تكشف هذه البراءة عن حقائق بالغة الأهمية عن عدالة حكام ولاة أمور المسلمين مع أهل الذمة منها:

١- حرص العمال على إعطاء براءة ذمة مالية لمن سدد ما عليه من خراج وجزية للدولة .

٢- تحديد اسم دافع الجزية مع بيان عمله وموطنه بالتحديد مع ذكر قريته.

٣- وصف شامل ودقيق لدافع الجزية حتى لاتختلط الأسما، ويقع لبس أو ظلم لأحدهم[٨٢].

٤- إقرار العامل بأنه استلم من الذمى ما عليه من مبالغ ماليه مع تحديد الفترة الزمنية الواجب استحقاق الجزية عنها.

٥- أمر من العامل لكافة الجنود والأعوان بعدم التعرض لحامل هذه البراءة إلا بخير.

٦- تاريخ تحرير هذه البراءة مع التصديق عليها بختم الديوان لتوثيقها .

وفى واقع الأمر إن المتأمل فى هذه البراءات وهى عديدة ومتنوعة تزخر بها المتاحف والجامعات والمكتبات العالمية يلاحظ أنها كفلت لأهل الذمة حقوقهم وأرواحهم وحفظت لهم هيبتهم وشخصيتهم بعدم التعرض لهم إلا بخير من قبل العمال والأعوان ورجال الإمارة فى الدولة حتى يتمكنوا من ممارسة أعمالهم بحرية ونشاط . وكما هو معلوم فإن الجزية الواجبة على أهل الذمة كانت تدفع لديوان بيت المال فى الدولة وهيدة كانت تسدد كل عام- لاتتعدى فى كثير من الأحوال عن نصف دينار أو دينار فى أغلب الأحوال وكانت لاتجبى من الفقراء

والمساكين أو الشيوخ والعجزة واليتامى والأرامل والأطفال ورجال الدين الذين لايمارسون أعمالاً تدر عليهم أرباحًا ومكاسب مالية- ونلاحظ أن البراءة التى نحن بصددها تذكر أن الذمى الذى سدد الجزية يدعى (أبقيره الخباز) أى أنه كان يمارس «حرفة الخبازه»[٨٤] وأن جزيته كانت نصف دينار عن سنة ١٩٥ هـ وتم سدادها فى رمضان سنة ١٩٦ هـ أى بعد عام تقريبًا من ميعادها وهذا التراخى يدل أيضًا على سماحة الولاة فى جبايتهم للجزية وعدم التعسف والقسوة فى جمعها منهم.

نص البراءة :

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- هذا كتاب براء من يونس بن عبد الرحمن عامل الأمير عياد بن محمد أبقاه الله

٣- على خراج كورة الفيوم ومعونتها وجميع أعمالها[٨٥]

٤- لأبقيره الخباز من سكان أباطرة من مدينة الفيوم

٥- وهو مجتمع أبيض أقنى أزج أنزع سبط جثر الجسم[٨٦]

٦- أنى قبضت منك جزية رأسك نصف دينار

٧- لخراج سنة خمس وتسعين ومايه نحن لقبه من عمال الأمير أبقاء الله

٨- وعمالى وأعوانى فلايعرض له إلا بخير إن شاء الله

٩- وكتب فى شهر رمضان سنة ست وتسعين ومايه

١٠- (خاتم)[٨٧]

التعليقات والحواشى

١- أنظر فى ذلك البردية المحفوظة بدار الكتب المصرية ومرموزها : «إخطارات مدونة بثلاثة لغات خاصة بظلامات من المتعدى» مؤرخه بين أعوام ١١٧- ١٤٠هـ/ ٧٥٤-٧٥٧م برقم سجل (٩١٩) د. جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٩٩٤م ج٣ ص٦٧ .

٢- أنظر فى ذلك ما نشره الدكتور أدولف جروهمان من برديات دار الكتب المصرية فى الدراسة السابق ذكرها والتى حملت عنوان «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية» المجلدات ٢، ٣، ٤، ٥ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة بداية من عام ١٩٣٤-١٩٦٧م الطبعة الثانية سنة ١٩٩٤م.

٣- تجدر الإشارة إلى أن أقدم بردية عربية مؤرخه هى التى عثر عليها فى منطقة أهناسيا والمؤرخة فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢٢هـ والمحفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رايتر فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PERF. No 558) وهى تعاصر زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - وفى العهد العباسى قل استخدام البردى بسبب ظهور الورق «الكاغد» .

٤- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية بدار الكتب المصرية برقم سجل (٣٢٩) تنسب للقرنين ٣-٤هـ/ ٩-١٠م د. جروهمان : المرجع السابق ج٥ ص٧٨-٨٦ .

٥- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رايتر فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PERF. No . 1014) .

٦- وردت ضمن نصوص بردية عربية بدار الكتب المصرية موضوعها «قائمة بثياب مختلفة» تنسب للقرن ٣هـ / ٩م برقم سجل (٥٥٢) . د. جروهمان . المرجع السابق ج٦ ص ٩٠-١١٣ .

٧- وردت ضمن نصوص بردية عربية محفوظة فى معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا وشعارها «فرش طيرى بطبرستان المذهب الفائق» برقم سجل (PSR. Arab No. 314) .

٨- زمام تنيسى : الزمام هو الخيط الذى يشد به - ولقد وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية فى مجموعة الأرشيدوق رايتر فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PSR. Arab. No. 1014) . ومدينة تنيسى هى إحدى مدن شرق الدلتا بمصر وزمام تنيسى نسبه لمدينة تنيس.

٩- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية محفوظة بمجموعة الأرشيدوق رايتر فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PERF. Arab. No. 724) .

١٠- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية بدار الكتب المصرية بالقاهرة موضوعها «قائمة بثياب مختلفة» د. جروهمان : المرجع السابق ج٦ ص٩٦ .

١١- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية محفوظة بمعهد البرديات بجامعة هايد لبرج بألمانيا برقم سجل (PSR. Arab. Nos. 394).

١٢- وردت هذه العبارة ضمن نصوص بردية عربية في مجموعة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في انجلترا برقم سجل (Dvi- 6, 0Ld, Number39) .

١٣- أنظر في ذلك ما ورد ضمن نصوص بردية عربية بدار الكتب المصرية مؤرخه بعام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م وردت بها عبارة «ورثة يونس الجندي» وفي بردية أخرى بنفس المجموعة تنسب للقرن ٣هـ / ٩م برقم سجل (٧١٥) وردت بها عبارة «بن صبره الجندي» . د. جروهمان : المرجع السابق ج٤ ص١٩ ، ج٦ ص١٤٩ .

١٤- أنظر في ذلك عرفة (النواتية، الملاحين) ضمن نصوص بردية عربية بدار الكتب المصرية تنسب للقرن ٣هـ / ٩م موضوعها «كشف بأسماء أقباط مع حرفهم ووظائفهم» برقم سجل (٧٢٣) د. جروهمان : المرجع السابق ج٧ ص٩٩- ١٠٢ .

١٥- أنظر في ذلك البردية النادرة المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم سجل (١٢٥٤٨) والمؤرخة في سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م وهي عبارة عن «رسالة من والي مصر في العهد العباسي موسى بن كعب إلى حاكم النوبة» يحثه فيها على الالتزام بالعهود والمواثيق المبرمة بينهم وبين الدولة الإسلامية في العصر العباسي .

Martin Hinds & Hamdi Sakkout, Aletter from the Governor of Egypt to the king of Nubia and Muqurra, American University of Beirut, 1981.

١٦- د. محمود عباس حمودة : المدخل إلى دراسة الوثائق العربية- طبع دار الثقافة بالقاهرة١٩٨٤م ص١٧ .

١٧- توفيق اسكندر : محاضرات في علم الوثائق - طبع القاهرة سنة ١٩٥٥م.

١٨-د. محمود عباس حمودة: المرجع السابق ص١٨ .

١٩- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي) : مختار الصحاح- ترتيب محمود خاطر- الطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م ص٨-٧ .

٢٠- وهو علم مشتق من كلمة (دبلوما) Diploum الاغريقية الأصل- ومعناها الحرفي- الصحيفة التي

اللاتينية للفظ Diplus فتعني ضعف أو مضاعف (أي مرتين) ولفظ دبلوما في هذه اللغة تعني أيضا الرسالة المطويه مرتين أو ربما تعني الرسالة الرسمية الصادرة عن جهة حكومية وهناك معنى ثالث للفظة (الدبلوما) وهو الورقة التاريخية Historical Document - وفي المعاهد الدراسية تعني (الدبلوما) - الوثيقة التي تمنح للطالب المتخرج في كلية أو جامعة تثبت إتمامه المقررات الدراسة وتخرجه من المعهد أو الجامعة المقيد بها . سالم الألوسي : الدبلوماتيك ، أو علم دراسة الوثائق ونقدها طبعة دار الحرية للطباعة ببغداد سنة ١٩٧٤م ص١٣ . د. محمود عباس حموده : المرجع السابق ص٢٢ .

٢١- هناك العديد من المواد التي استخدمت في الكتابة والتدوين والتوثيق ذكرها د. جروهمان في كتابه:

Grohmann , A; From the world of Arabic Papyri . Cairo . 1952

٢٢- تحتوي نصوص بعض البرديات العربية العديد من الترقيمات والأختام في نهاية نصوصها ولقد انشق عن هذه الأختام ما يطلق عليه علم السجليوغرافيا Sigillography وهو العلم الذي يعني بدراسة الأختام والتواقيع والإمضاءات وكذلك معرفة موادها والرموز والإشارات والكتابات والرسوم التي حفرت عليها مما يزود المؤرخ بمعلومات وفيرة عن العصر الذي دونت فيه الوثيقة أو النشرة التاريخية وما يصاحبها من نظم وعلاقات وفنون وغيرها . أنظر في ذلك : سالم الألوسي : المرجع السابق ص٦ .

٢٣- غالبية نصوص البرديات العربية عبارة عن قطع صغيرة تم فردها بعضها يتعلق بالأمور المالية كإيصالات الجزية والخراج والعقود بشتى أنواعها (زواج - بيع شراء- إيجار - عمل) .. وغيرها .

٢٤- درج البردي عبارة عن لفافة كبيرة من ورق البردي تتكون عادة من (٢٠ ورقة) ملصق بعضها ببعض تسمى الورقة الأولى البروتوكول ومعناها باللغة العربية (الطراز) . Grohmann, A; Tiraz . Encyclopaedia of Islam .

٢٥- في حالة واحدة فقط عثر على كتاب كامل من ورق البردي Codex - عثر عليه في منطقة تل إدفو وعنوانه : «الجامع في الحديث» للفقيه المصري عبدالله بن وهب بن مسلم ١٢٥-١٩٧هـ / ٧٤٣-٨١٣م- عدد صفحاته ١٩٩ صفحة نشره المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة . سنة ١٩٣٩ ، ١٩٤٨م .

٢٦- فرانتس روزنتال : تاريخ علم التاريخ عند المسلمين- ترجمة د. صالح أحمد العلي- طبع بغداد سنة ١٩٣١م ص٣٨٩ .

٢٧- د. حسين مؤنس : الحضارة - سلسلة عالم المعرفة (١١) - الكويت يناير ١٩٧٨م ص٧٠ .

٢٨- السخاوي (شمس الدين محمد) ٨٣١-٩٠٢ هـ/ ١٤٢٧-١٤٩٧م : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ - ص٣٨٥ .

٢٩- أنظر في ذلك البردية العربية المحفوظة في دار الكتب المصرية برقم سجل (الطراز رقم ١٠٠) والمؤرخة بين أعوام ٢٤٢-٢٤٧هـ / ٨٥٦-٨٦١م مرضوعها : «أمر موجه من نائب الوزير الفتح بن خاقان إلى أحد أهالي ضيعة الأمير» د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص١٠٣-١٠٥ .

٣٠- وضح ذلك من خلال النص الذي رده في بردية متحف الفن الإسلامي بالقاهرة والمؤرخة بعام ١٤١هـ/ ٧٥٨م والسابق الإشارة إليها حيث وردت بها عبارات تتعلق بمصالح الدولة العليا منها ما ورد في السطور (١١-١٤) : «وقد ولينا لكم بالذي جعلنا لكم علينا من - الكف عن دمائكم وأموالكم وعرضت لمتكم في بلادنا - وسكونكم حيث أحببتم منها وباختلاف تجاركم إلينا لايصل إليهم ما تظلم ولاغشم ولايعتدى على أحد ممن قبلنا منكم ولايتبع من حقه...» .

٣١- هناك العديد من الأوراق البردية التي تنسب للخلفاء وتتعلق بالشئون الخارجية للدولة منها (التماس مرفوع إلى الخليفة المعتز بالله) محفوظ بدار الكتب المصرية برقم سجل (٣٨٠٧) يرجع تاريخه إلى ٢٥٢-٢٥٥هـ / ٨٦٦-٨٦٩م وردت في السطر الثاني بعد البسملة هذه العبارة : «هذا كتاب لعبد الله أبي عبدالله الامام المعتز بالله أمير المؤمنين» د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص١٠٩ .

٣٢- أنظر في ذلك البردية العربية المحفوظة في مجموعة شوت رانيهارت بمعهد البرديات - جامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (PSR. inv . Arab. 16) والمؤرخه في شهر جمادى الأولى سنة ٩١هـ/ أبريل ٧١٠م والتي يأمر فيها الوالي الأسرى قرة بن شريك العبسي بحفظ حقوق أحد أهل الذمة ويدعى يحنس بن شنوده .

Becker . C.H. ; Papyri Schott- Reinhard T. I. Heidelberg. 1906 . p. 92 .

٣٣- أنظر في ذلك عدد كبير من البرديات العربية تتحدث عن حركة البيع والتجارة وشئون الزراعة والرعي وغيرها من الأمور، بعض هذه البرديات محفوظ في مجموعات عالمية أبرزها مجموعة الأرشيدوق رانير في فيينا بالنمسا (PERF) من بينها بردية برقم سجل (PERF, No. 170) وأخرى برقم سجل (PERF, No. 1248) بعضها محفوظ في دار الكتب المصرية وهي برديات عديدة ومتنوعة تتناول شتى الأمور المالية وكشوف العمال والأجراء والحرفيين والصناع تتضمن بعض أسماء

الدولة وتقارير دافعي الضرائب وأسعار بعض السلع والمحاصيلات الزراعية من بينها بردية تحمل رقم سجل (الطراز رقم ٢٢٣) تنسب للقرن ٣هـ / ٩م موضوعها (حساب خاص بفرض ضرائب يشتمل على أسماء ملاك الأراضي الذين يمتلكون ضياعًا في قرى مختلفة مع بيان مبالغ النقود الخاصة بأسماء الأساكن) وبردية أخرى بنفس المجموعة أيضًا برقم سجل (الطراز رقم ٢٤١) تنسب للقرن ٣هـ/ ٩م موضوعها : «تقرير عامل الضرائب بليه إحصاء الحيوان في قرى مختلفة من كورة الأشمونين» د. جروهمان : المرجع السابق ج٤ ص١٦٥- ١٧٢، ص٢١٩-٢٢٤ .

٣٤- أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة سنة ١٩٦٣م ج١ ص٢٣ .

٣٥- عاطف أبوزيد سليمان علي : إحياء الأراضي الموات في الإسلام- رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة - العدد رقم (١٩٤) شعبان ١٤١٦هـ ص٤٧ .

٣٦- د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي- الطبعة الثانية - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٤٨م جـ٢ ص٢٤٩ .

٣٧- عاطف أبوزيد سليمان : المرجع السابق ص٤٨ .

٣٨- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري- طبع دار الفكر بيروت- دون تاريخ - جـ٥ ص١١ باب «المزارعة بالشطر ونحوه». وانظر في ذلك أيضًا : يحيى بن آدم القرشي : الخراج- تحقيق أحمد محمد شاكر- طبع دار المعرفة- بيروت - بدون تاريخ ص٦٢-٦٣ «باب إصلاح الأرض المهملة».

٣٩- نشر الدكتور جروهمان العشرات من البرديات العربية التي تتصل موضوعاتها بهذه الأمور جميعها بعضها محفوظ في دار الكتب المصرية وبعضها محفوظ في مجموعات عالمية - فمن برديات دار الكتب المصرية عدد كبير من الأوامر الصادرة من الدولة أو من بعض الأشخاص لاستلام محاصيل زراعية وأجبان وملابس ومراعي وغيرها. من بينها بردية برقم سجل (الطراز رقم ٣١٢) تنسب للقرن ٣هـ / ٩م موضوعها (أمر لإرسال قسح) ، وأخرى (أمر لإرسال خل) بنفس المجموعة برقم سجل (الطراز رقم ١١٧) تنسب للقرنين ٢-٣هـ / ٨-٩م، وأخرى (طلب عسل) برقم سجل (٧٣) تنسب للقرنين ٢-٣هـ / ٨-٩م، وأخرى (أمر بطلب لحم) برقم سجل (الطراز رقم ١٨٣) مؤرخه بسنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م، وأخرى (أمر لإرسال جبن) برقم سجل (١٦٥) تنسب للقرن ٢هـ / ٨م وأخرى (أمر لإرسال

عشر) برقم سجل (الطراز رقم ٦١٦) تنسب للقرنين ٣-٤هـ / ٩-١٠م، وأخرى (أمر لإرسال ملابس ومقص) برقم سجل (٩٧٧) تنسب للقرن ٤هـ / ١٠م .. وغيرها .

د. جروهمان : المرجع السابق ج٥ ص١٤١ ، ص١٤٣ ، ص١٤٤ ، ص١٤٧ ، ص١٤٨ ، ص١٥٢ ، ص١٥٣ .

٤٠- ياقوت الحموي : معجم البلدان - طبع دار بيروت ١٩٨٤م - ج٥ ص١١٢-١١٩ .

٤١- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - تعريب محمد عبد الهادي أبوريده الطبعة الرابعة- بيروت- دار الكتاب العربي ١٩٦٧م ج٢ ص٣٣٦ .

٤٢- أبويوسف : الخراج - تحقيق د. محمد ابراهيم البنا- طبع دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨١م ص١٩٩ ، ٢٠٠ .

٤٣- أنظر في ذلك التقارير والكشوف التي نشرها الدكتور جروهمان بعضها محفوظ في دار الكتب المصرية إحداها برقم سجل (الطراز رقم ٣٢٩) ينسب للقرن ٣هـ / ٩م موضوعة (كشف مزارعين مع بيان مساحة الأراضي الخاصة بكل منهم والايجارات المستحقة عليهم) وفي بردية أخرى بنفس المجموعة أيضًا برقم سجل (الطراز رقم ٢٠٠) وموضوعها (قطعة من كشف خاص بمزارعين مع بيان المحصول المزروع ومبلغ النقود المدفوعة) - وغيرها من البرديات . د. جروهمان : المرجع السابق جـ٤ ص٣٣ - ٤١ ، ص٦٧-٦٩ .

٤٤- أنظر في ذلك البردية المحفوظة بدار الكتب المصرية والتي تحمل موضوع (كشف بأسماء أرباب الحرف تنسب للقرن ٣هـ / ٩م - الطراز رقم [٣٣٥]) - د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص٢٣٢ .

٤٥- هناك عدد كبير من البرديات التي وردت بها معلومات عن المواشي وأعدادها وأسعارها وبيان حالتها من بينها بردية بدار الكتب المصرية برقم سجل (الطراز رقم ١١٥) المجموعة أيضًا برقم سجل (٣٢٠) مؤرخه بسنة ٣٤٨هـ/ ٩٦٠م موضوعها : (حساب غنم مودعه راعيًا) وأخرى موضوعها (حساب ماشية) برقم سجل (٦٨٣) تنسب للقرنين ٣-٤هـ/ ٩-١٠ م .. وغيرها كثير . د. جروهمان : المرجع السابق ج٥ ص١٦٢ ، ج٦ ص٣ ، ص١٠ .

٤٦- د. فالح حسين : تعريف بالوثائق البرديه العربية وأهميتها في دراسة التاريخ الإسلامي مجلة مجمع اللغة العربية الأردني- العدد (٤٠) شوال ١٤١١هـ / حزيران ١٩٩١م ص١١٢ .

٤٧- أنظر اللوحه المرفقة .

٤٨- البرتوكول كلمة يونانية تعني اللصق الأول في درج البردي الذي كان يتكون عادة من ٢٠ ورقة وهي تعني أيضًا (الطراز بالعربية) :

Grohmann . A . Tiraz . Encyclopaedia of islam .

٤٩- Becker . C. H.. Das Griechische in den arabischen Papyrusprotokollen. Strassburg. 1909. p. 171 .

٥٠- كتبت في البردية (كين) والصحيح (يكن) .

٥١- د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص١٠٣ - أنظر اللوحة المرفقة .

٥٢- د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص١٠٤ ، الكندي : الولاة والقضاة ص٢٠٣ ، ٢٠٤ .

٥٣- د. جروهمان : المرجع السابق جـ٤ ص١٧٣ .

٥٤- د. جروهمان : المرجع السابق جـ٤ ص١٧٣-١٧٩ - انظر اللوحة المرفقة .

٥٥- Geoffrey Khan , Arabic Papyri Selected Material from the Khalili Collection Oxford University , 1992 , p 57 .

٥٦- الفدان : المزرعة ، وفي المساحة : أربعمائة قصبة مربعة وهي كلمة سريانية وفدان الأرض عند الفلاحين : ما يحرثه الفدان في يوم واحد. قاموس المنجد في اللغة والاعلام- طبع بيروت سنة ١٩٨٦م- ص٥٧٢ .

٥٧- أنظر اللوحه المرفقة .

٥٨- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي) : القاموس المحيط - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م ص٤٨٢ .

٥٩- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م : المقدمة - طبع بيروت ١٩٦١م ص٧٧٧ .

٦٠- د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص١٣ .

٦١- منهم على سبيل المثال : ابن سينا (ولد سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٠م) ، ابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠هـ / ٩٦٥-١٠٣٨م) ، البيروني (٣٥١-٤٤٠هـ) جابر بن حيان (ولد سنة ١٢٠هـ) ، الخوارزمي (توفي سنة ٢٣٢هـ) ، الكندي (١٨٥-٢٥٢هـ) موسى بن شاكر (عصر الخليفة العباسي المأمون) ، ثابت بن

قرة (٢٢١-٢٨٦هـ/ ٨٣٥-٩٠٠م) ، أبي بكر الرازي (٢٤٠-٣٢٠هـ/ ٨٥٤-٩٣٢م) ، المجوسي (٩٥٠هـ / ٧ ، ١٠م) ... وغيرهم .

إنظر في ذلك د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - الطبعة الأولى دار المعارف بمصر ١٩٦٦م ٢ص١٣٤-١٨٧ .

٦٢- هذه البردية تحمل رقم سجل (٣٣٦) وهي عبارة عن قطعتين من ورق البردي الأولى أطوالها ٢١×٨,٦ سم وهي القطعة الصغيرة - أما القطعة الكبيرة فأطوالها ٢٠,٨×١١,٧ سم د. جروهمان: المرجع السابق ج٣ ص٥١-٥٣ ، ٦٣ - د. أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر- طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ١٩٧٠م ص٢٢ .

٦٤- Nabia Abbott: the Kurrah Papyri from Aphrodito in the Oriental institute Chicago. 1938 .

٦٥- Bell , H. I , the Administration of Egypt under the Umayyad khalifs. p. 284 .

٦٦- في هذا الخصوص ذكر المستشرق B. Evetts وهو محقق كتاب ساويرس بن المقفع عند قراءة عبارة بن المقفع عن عبد العزيز بن مروان (فأحصى الرهبان... وجعل عليهم الجزية...) قرأ فأحصى (فأخصى) وترجمتها بالانجليزية Mutilated وربما تعمد هذه القراءة حيث ترتب عليها العديد من الافتراءات القائمة على حكم الولاة الأمويين فيما بعد.

د. أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص٢٥ .

٦٧- ساويرس بن المقفع (القرن ٣هـ / ٩م) : سير آباء الكنيسة القبطية في الاسكندرية- تحقيق س.ف سيوكد ، طبع ليدن سنة ١٩٠٤م ص١٤٥ .

٦٨- على العكس من ذلك تماما فإن الأقباط في مصر ذاقوا ألوانا مختلفة من العقاب والاضطهاد والظلم على أيدي الرومانيين قبل الفتح العربي لمصر- وفي هذا الخصوص يذكر المستشرق ميلن أن الرومانيين فرضوا الضرائب على جميع ممتلكات الأقباط من ماشيه ومنازل وصناعات حتى فرضت على الموتى فكان لايسمح بدفن الموتى إلا بعد سداد ضريبة معينة Milne, J.G: History of Egypt Under Ro- man rule- London. 1898. pp. 115-116

٦٩- د. جروهمان : المرجع السابق ج١ ص١٦٦ .

مؤرخ في ذي القعدة سنة ٢٣٩هـ، ورقم (١٨٩٩ تاريخ) مؤرخ في المحرم سنة ٣٤١، ورقم (١٩٠٣١ تاريخ) مؤرخ في جمادى الآخرة سنة ٣٤١هـ ، ورقم (١٧٩٨١تاريخ) مؤرخ في شهر رجب سنة ٤٢٣هـ .. وغيرها) .

٧١- أ.س. ترتون : أهل الذمة في الإسلام- ترجمة د. حسن حبشي - طبع دار الفكر بالقاهرة سنة ١٩٤٩م.

٧٢- د. أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص٢٤ .

٧٣- ذكر هذه الواقعة الدكتور أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص٢٥ .

٧٤- أرجع بعض الباحثين أسباب ما حل بالأقباط في العصر الإسلامي إلى ظهور خلافات وصراعات فيما بينهم فذكر يحيى بن سعيد الأنطاكي وأن أهل مصر انقسموا إلى قسمين وكذلك تحزب أهل تنيس إلى حزبين . وصار حزب من الكهنة والعثمانيين مع البطريرك وحزب منهم عليه، وكان كل فريق منهم يصلون في كنيسة مفرده حتى كان الأب لايكلم إبنه ولا المرأة تخاطب بعلها ، ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان وخرج جماعة من النصارى... من أهل تنيس إلى الاخشيد ساعين به راقمين إليه ... ثم ذكر يحيى بن سعيد الانطاكي أنه عقب هذه الوشاية أرسل الاخشيد من قام بضرب احدى الكنائس.

أنظر : يحيى بن سعيد مقاله المنشور في مجلة Patrologia Orientalis. 1929-1932.pp. 715-716.

أيضًا ذكر في هذا الخصوص المستشرق أ.س. ترتون في كتابه «أهل الذمة في الاسلام» : بأن كثيرا من الظلم الذي لحق بالأقباط مصدره أنفسهم ومرده الغيرة المذهبية بين أتباع الدين الواحد. د. أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص٢٤ .

٧٥- د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص١٠٩-١١٠- انظر اللوحه المرفقة رقم (٩) .

٧٦- Zambaur., Manuel de genealogie et de chronologie. Hanover 1917. p. 4 .

٧٧- ساويرس بن المقفع : المصدر السابق ص١٤٩ .

٧٨- أظهرت العشرات من البرديات العربية عدالة هذا الوالي ومتابعته لعماله على الأقاليم وحرصه على الفصل في قضايا أهل الذمة ورعاية مصالحهم - انظر في ذلك برديات بدار الكتب المصرية أرقام سجل (٣٤١) مؤرخ في شوال سنة ٩٦هـ / أغسطس ٧١٠م- موضوعها : «تحذير موجه إلى عامله بسبل عن تقصيره في أداء واجباته وتعليمات تقضي بحضوره إلى دار الإمارة ومعه أبرائه» د. أنظ

في ذلك : د. جروهمان : المرجع السابق ج٣ ص٣ . د. ابراهيم الدوري : ولاية قرة بن شريك على مصر في ضوء أوراق البردي- المجلة التاريخية المصرية - مجلد ١١- سنة ١٩٦٣ .

٧٩- برقم سجل (٢٥٢٤٩٩) وهي ضمن مجموعة د. هنري أمين عرض الهداء للمتحف باسمه .

٨٠- د. هنري أمين عرض : بردية طبية منذ فجر الإسلام- مركز الدراسات البرديه والنقوش- جامعة عين شمس ١٩٨٧م- انظر اللوحه المرفقه.

٨١- Grohman . A., Probleme Der Arabischen Papyrusforschung. II. Reprinted from Ar- chiv Orientalni vol. 6. 1934. No. 2. p. 393 .

٨٢- يتبين لنا ذلك من ورود عبارة في السطر الخامس من البراءة ونصها: «وهو مجتمع أبيض أقنى أزج أنزع سبط جثر الجسم».

وهو وصف دقيق وبالغ يشمل سبع صفات للشخص يمكن من خلالها تحديد شخصيته بدقة كاملة للعمال ورجال الشرطة فلايحدث لبس أو خلل مع شخص آخر.

٨٣- هذه البراءات أيضاً تدحض مزاعم ساويرس بن المقفع ومن على شاكلته من المستشرقين الذين حاولوا النيل من عدالة ولاة أمور المسلمين وحكامهم مع أهل الذمة خلال القرون الأولى للهجرة .

٨٤- الخبازة هي حرفة الخباز وصانع الخبز- قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص١٦٧ .

٨٥- معونتها وجميع أعمالها : المقصود بها القرى والتجمعات السكانية التابعة للفيوم .

٨٦- وصف شامل وكامل لأبادير فكان أبيض البشرة رأقنى أي به إحديداب في الأنف- أزج أي مستوى الحواجب من جراء حذف الشعر الزائد بها- أنزع أي إنحسار الشعر عن جانبي جبهته وموضعه - سبط يعني مسترسل الشعر غير جعد- جثر الجسم- أي ضخم الجسم بدين. انظر : الرازي: مختار الصحاح ص٢٨٣ ، ص٦٥٤ قاموس المنجد: المرجع السابق ص٧٧ ، ص٢٩٤ .

٨٧- الخاتم كان عادة من الطين تختم به الوثيقة في نهايتها وهناك أعداد كبيرة منها.

انظر اللوحه المرفقة رقم (٨) : في نهايات بعض البرديات العربية- هذا بالإضافة لأختام أخرى خاصة بالولاة والعمال تحمل ألقابهم وأسماءهم وفي هذه الحالة يكون الختم من المعدن. وتتحف الفن الإسلامي بعض هذه الأختام وكذلك بدار الكتب المصرية (قاعة البرديات) .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر العربية:

١- ابن حجر العسقلاني (الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني) ت ٨٤٠هـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري- طبع دار الفكر ببيروت - دون تاريخ.

٢- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م : المقدمة - طبع بيروت ١٩٩٦م.

٣- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي) : مختار الصحاح ، ترتيب محمود خاطر- المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة - ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.

٤- ساويرس بن المقفع (القرن ٣هـ/ ٩م) : سير آباء الكنيسة القبطية في الأسكندرية- تحقيق س.ف سيبولد - طبع ليبسالا سنة ١٩٠٤م.

٥- السخاوي (شمس الدين محمد) ٨٣١-٩٠٢هـ / ١٤٢٧-١٤٩٧م ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ- طبع القاهرة.

٦- الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي) ت ٨١٧هـ القاموس المحيط - الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧- أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة سنة ١٩٦٣م.

٨- ياقوت (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م : معجم البلدان ، طبع دار صادر بيروت سنة ١٩٨٤م.

٩- يحيى بن آدم (القرشي) : الخراج - تحقيق أحمد محمد شاكر- طبع دار المعرفة بيروت.

١٠- أبويوسف : الخراج - تحقيق د. محمد ابراهيم البنا- طبع دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨١م.

ثانيًا : المراجع العربية :

١١- د. ابراهيم العدوى : ولاية قرة بن شريك على مصر فى ضوء أوراق البردى ، المجلة التاريخية المصرية- مجلد ١١ سنة ١٩٦٣م.

١٢- د. أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر- طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.

١٣- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى- تعريب محمد عبد الهادى أبو ريده- الطبعة الرابعة - دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٩٦٧م.

١٤- ترتون أ.س : أهل الذمة فى الإسلام- ترجمة د. حسن حبشى - طبع دار الفكر بالقاهرة ١٩٤٩م.

١٥- توفيق اسكندر : محاضرات فى علم الوثائق - طبع القاهرة سنة ١٩٥٥م.

١٦- د. جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية - ٦مجلدات - القاهرة الطبعة الثانية - ١٩٩٤م.

١٧- د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى- الطبعة الثانية- مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨م.

١٨- د. حسين مؤنس : الحضارة - سلسلة عالم المعرفة رقم (١) الكويت - يناير ١٩٧٨م.

١٩- سالم الآلوسى : الدبلوماتيك أو علم دراسة الوثائق ونقدها - طبع دار الحرية للطباعة بغداد سنة ١٩٧٤م.

٢٠- عاطف أبو زيد سليمان على : إحياء الأراضى الموات فى الإسلام ، رابطة العالم الإسلامى- مكة المكرمة- العدد رقم (١٦٤) شعبان ١٤١٦هـ.

٢١- د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٦م.

٢٢- د. فالح حسين : تعريف بالوثائق البردية العربية وأهميته فى دراسة التاريخ الإسلامى ، مجلة مجمع اللغة العربية بالأردن - العدد رقم (٤٠) شوال ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢٣- فرانتس روزنتال : تاريخ علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة د. صالح أحمد العلى، بغداد ١٩٣١م.

٢٤- د. محمود عباس حمودة : المدخل إلى دراسة الوثائق العربية، طبع دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٤م.

٢٥- د. هنرى أمين عوض: بردية طيبة منذ فجر الإسلام- مركز الدراسات البردية- جامعة عين شمس ١٩٨٧م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية

26-Abbott (Nabia): . The Kurrah Papyri from Aphrodito in the Oriental Institute - Chicago - 1938.

27- Becker (C.H.): , Papyri schott- Reinhard T.I. Heidelberg. 1906 .

Becker (C.H.): . Das Lateinische in den arabischen papyrusprotokollen. Strassburg. 1909.

28- Bell (H.I) :. The Administration of Egypt under the Umayyed Khalifs.

29- Geoffrey Khan:. Arabic papyri Selected Material from the khalili Collection . Oxford university. 1992.

30- Grohmann . A:, From the world of Arabic Papyri- Cairo 1952.

Grohmann . A:. Encyclopaedia of Islam.

31- Martin Hinds & Hamdi Sakkout:. Aletter from the Governor of Egypt to the king of Nubia and Muqurra- American University of Beirut 1981.

32- Milne (J.G):. History of Egypt under Roman Rule . London 1898 .

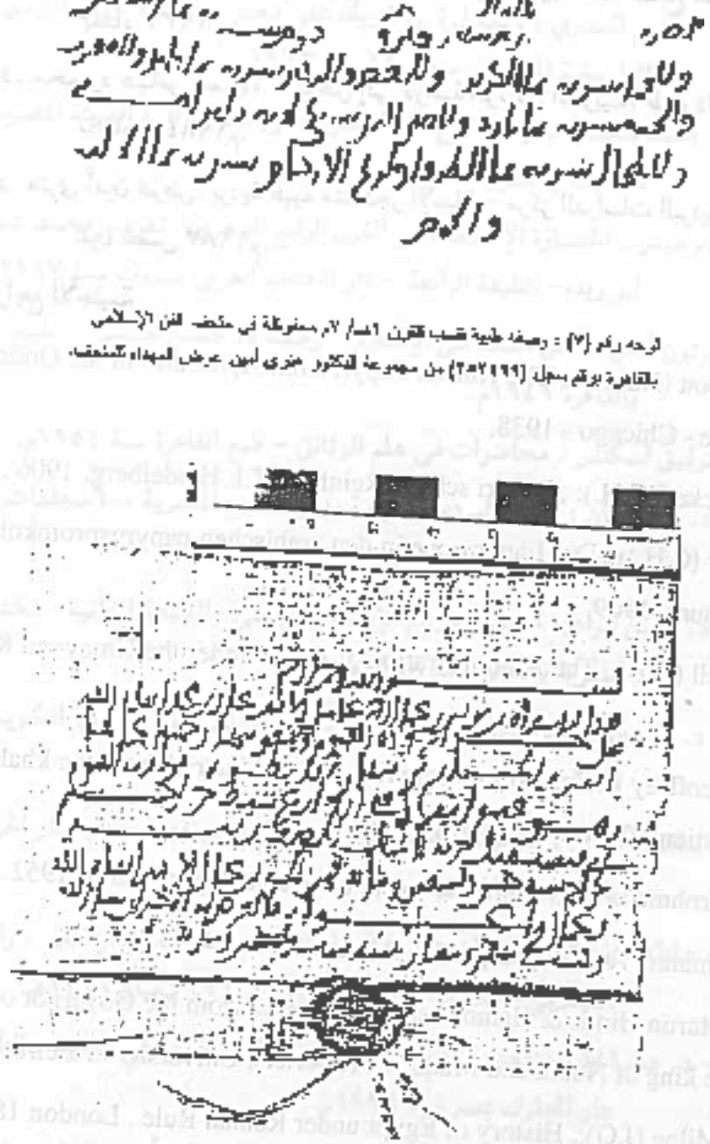

لوحة رقم (٣) : وصفة طبية عتيقة مكتوبة على رق من القرن ١هـ/ ٧م محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة برقم سجل (٢٠٢٩٩) من مجموعة الدكتور هنرى لبيب عرض الفهداء للمتحف.

لوحة رقم (٤) : برديه عليها كتابة محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رانير فى النمسا برقم سجل (PERF.No. 670) مؤرخة بشهر رمضان سنة ١٩٦هـ/ ٨١٢م.

د. أيمن فؤاد سيد (*)

إعادة بناء المصادر العربية الضائعة

وأهميته لدراسة التاريخ الإسلامى المبكر والوسيط

تحتل كتب "التاريخ الإسلامى" فى الإنتاج الثقافى للشعوب الإسلامية مكانة متميزة ، كما تمثل الكتابة التاريخية فى الأدب العربى أهمية استثنائية ؛ ذلك أن الإنتاج التاريخى الإسلامى فاق فى الكم والكيف نظيره الغربى فى العصور الوسطى . واستمرت الكتابة التاريخية نشطة فى كل الأقاليم الإسلامية حتى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى، بل إنها استمرت إلى مابعد ذلك فى بعض الأقاليم لأن التاريخ ظل موضوع اهتمام الملوك وأولى الأمر من ناحية ، ولأن الكشف عن أحداث جديدة وتسجيلها جعل منها مجالا لتجدد المعلومات والمفاهيم من ناحية أخرى[1] هذا إلى أن الكتابة التاريخية عند المسلمين نالت بالتأكيد ما وصلت إليه الكتابات التاريخية السابقة (اليونانية واللاتينية) فى الفهم الاجتماعى للتاريخ أو التنظيم العلمى للمادة التاريخية .

ولن أشير هنا إلى تطور أنواع الكتابة التاريخية عند المؤرخين المسلمين ، ولكن سأكتفى بالإشارة إلى نوع واحد منها هو نمط "الحوليات" الذى أصبح النمط المفضل سواء عند مؤرخى المشرق أو المغرب الإسلامى . وهناك المئات من تلك الحوليات التى تتفاوت فى

(*) مستشار دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

طولها بدءاً من الرسالة التي تعالج موضوعًا محدداً إلى الموسوعة الضخمة التي تعالج بالتفصيل تاريخ الإسلام بصفة عامة .

وإذا قارنا هذه الحوليات - التي بدأت في الظهور في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي - بالتواريخ المبكرة ، نجدها تمثل مرحلة جديدة في الكتابة التاريخية أكثر مما تمثل شكلا جديداً . لأنها بدأت تستخدم مصادر مختلفة للمعلومات ، حيث أصبحت الوثائق - التي أخذت في التزايد بفضل تنظيم الإدارات والسجلات الحكومية - من أهم مصادر المعلومات للحوليات التاريخية ، بل إن بعض المؤرخين استعانوا في تسجيل حولياتهم بالآثار والعملات وما شابهها فكانوا يحق مؤرخين بالمعنى الحديث للكلمة[٢] .

ويمكننا تقسيم "الحوليات الإسلامية" إلى نوعين :

- مصادر بالمعنى الدقيق للكلمة يكتب فيها المؤلف عن أحداث شهدها بنفسه أو كان هو أول من كتب عنها .

- مؤلفات مجمعة استمد مؤلفوها معلوماتهم عن طريق مؤلفين أقدم .

وهذا النوع الأخير هو الأكثر عدداً ، وتوجد منه في المكتبات العالمية أعداد من المخطوطات أكبر بكثير من المصادر الأصلية .

ومن الواضح أن عمل المؤرخ في الحالة الأولى يمثل أهمية أساسية بالنسبة لنا . بينما في الحالة الثانية فإننا يجب أن نبحث عن الأعمال السابقة التي اعتمد عليها . وإذا كان بإمكاننا الوقوف عليها ومطالعتها ، فكثير ماتكون هذه الأعمال السابقة قد فقدت أو على الأقل لانجد لها ذكراً في فهارس المكتبات المعروفة . وفي هذه الحالة فإن المؤلف المتأخر يمثل لنا أهمية خاصة ترقى إلى مستوى المؤلف الأصلي بالرغم من أنه ليس صاحب هذا العمل[٣] .

وفي هذه الحالة فإننا يجب أن نميز كذلك بين نوعين من المؤرخين : من كان يقنع بتجميع النصوص وتصنيفها ، وبين من كانت لهم طريقتهم الخاصة في محاولة إعادة تقويم المادة وإيجاد تركيبة جديدة لها . وعلى الرغم مما تتمتع به هذه الفئة من امتياز عقلي إلا أنها أقل فائدة وأشد خطراً على المؤرخ الحديث إذا ما اعتمد عليها[٤] .

وعلى ذلك فإن أول مايجب على الباحث عمله عندما يتصدى لدراسة إحدى الحوليات أو الاستفادة منها ، أن يتعرف على القيمة الحقيقية لها ومكانتها بالنسبة للأصل وإذا ما كانت

تمثل أصل المؤلف أو منقولة عنه ، خاصة وأن بعض هذه الحوليات يكون بعض أقسامه أصليا أو أصليًا بالنسبة لنا والبعض الآخر على النقيض من ذلك تمامًا . وبذلك تكون مهمتنا الأساسية هي التمييز بين العمل الأصلي والعمل المنقول .

وإذا كان نقل كلام السلف في الأدب يعد انتحالا - رغم أن العصور الوسطى لم تعرف حقوق التأليف كما نعرفها الآن - فإن الأعمال التاريخية لاتبنى على التخيل بل على الوثائق . فإذا لم توجد وثائق فلا تاريخ ! ومن ثم فلا مفر أمامها - حتى يومنا هذا - من أن تعتمد على حد كبير على المؤلفين الذين كانوا أول من اعتمد هذه الوثائق[٥] . وبذلك أصبح تضمين مصنفات الغير أو تضمين أقسام منها في صلب المصنف قاعدة عامة . وفي الأحوال التي يورد فيها المؤلفون أسماء مصادرهم فإن هذا العيب يصبح فضيلة . فكثيراً ماحفظت لنا نتيجة لذلك شذور مقتطفات من مصنفات فقدت تماماً بالنسبة لنا .

وكان العلماء والمؤلفون القدماء عند إشارتهم إلى المراجع التي يأخذون عنها ينقلون النص كاملا وأحياناً بشكل مختصر ، فلم يكن لديهم وسيلة أخرى مناسبة لإطلاع القارئ على المصدر الذي أخذوا عنه ، كما أنهم لم يجدوا طريقة أخرى مناسبة للإشارة إلى نصوص سبق ذكرها في الكتاب أو إلى صفحات سابقة . فمع تزايد عدد المصادر التي كان يعود إليها المؤلفون المتأخرون كانت الطريقة الوحيدة للإبقاء على المعلومات التي يريدون الاستشهاد بها هي تضمينها المؤلفات الجديدة بصورة مسهبة . خاصة وأن المؤلفين الذين كانوا يرجعون قراءهم إلى كتب ضخمة تتألف من مجلدات عديدة لم يكونوا متأكدين من أن هذه الكتب ميسورة لهؤلاء القراء[٦] .

ومع بعد الشقة الزمنية بين المؤلف وبين المصدر الذي يأخذ عنه لم يكن أمام المؤلف ، ليقي نفسه من سهام المنتقدين ، سوى أن يذكر المصدر الذي أخذ عنه بدقة وأمانة . كما أن العلماء المسلمين كانوا يشددون على ضرورة الأمانة والدقة في النقل عن المصادر القديمة[٧] .

ولم تكن طريقة ذكر المصادر المأخوذ عنها هي الطريقة الغالبة عند المؤرخين المتأخرين ، فأحياناً يورد المؤلف في بداية مصنفه ثبتا بأسماء المراجع التي اعتمد عليها دون أن يعنى في صلب الكتاب بالتمييز بين ما أخذه من غيره ومأجمعه هو بنفسه . وكثيراً ما أغفل المؤرخون اللاحقون أسماء المؤلفين الذين نقلوا عنهم . ويحتاج الباحث لذلك إلى الحذر حتى لا يأخذ هذه

التضمينات على أنها ألفاظ المؤلف نفسه ، أو أنها ترجع إلى العصر الذى عاش فيه . وقد ساق هلا عدداً من الباحثين المعاصرين إلى الخطأ فى الحكم على بعض الأحداث .

ومع ذلك فإن المشكلة الأساسية التى تقابلنا فى هذا النوع من الأعمال هى التأكد من أن هذه النقول أمينة وكيفية اختيار المؤلف للنقول المستخدمة ونستطيع أن نتأكد من ذلك بمقارنة هذه النقول التى يوردها أكثر من مؤلف عن أصل واحد والتثبت من هلا الأصل إذا كان قد وصل إلينا[٨] . وفى الحالات التى أمكننا فيها تحقيق رواية المؤلفين المتأخرين فى أصولها تبين لنا أن أغلبهم أهلا لهذه الثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليهم اعتماداً كاملاً .

وبما أن الكثير من المصادر الأصلية قد فقد لسوء الحظ إلا أنه من الممكن استرجاعها وإعادة بنائها إلى حد ما عن طريق المؤلفات التاريخية المتأخرة التى حفظت لنا نقولا ذات شأن للمؤلفين الذين فقدت مؤلفاتهم اليوم . ويتطلب هذا أن نميز فى الكتب المتأخرة بين المصادر الأصلية التى اقتبس منها ووصلت إلينا وبين تلك التى ضاعت أصولها . ومن ثم يجب علينا أن نطبق على دراسة مصادر التاريخ الإسلامى بصفة عامة طرق "نقد المصادر" والتمييز بين الأصول والفروع ، وهو عمل لاغنى عنه ، إذا أردنا أن نقدر القيمة الحقيقية للمعلومات المذكورة فى تلك النصوص عن الأحداث موضوع الدراسة . وهذه مهمة ليست باليسيرة على الدوام لأن الكثير من المؤلفات الأساسية مازال مخطوطاً لم ينشر بعد ، ومن ثم يصبح النشر العلمى لهذه المخطوطات هو الواجب الأساسى فى الوقت الراهن[٩] . ولكن يجب تحرى الدقة فى اختيار النص الذى ينشر من خلال مراجعة فهارس المكتبات المختلفة ومؤلفى بروكلمان وسزجين خاصة وأن الكثير من المصادر المنشورة ليست من النوع الذى يستحق الاهتمام دائماً . على أن يهتم محققو هذه النصوص - إلى جانب التعليقات العلمية على الكتاب - بتسجيل ملاحظاتهم المتعلقة بمصادر المؤلف فى التعليقات .

والتراث التاريخى الإسلامى الذى وصل إلينا موزع اليوم بين عدد كبير من المكتبات الشرقية والغربية ، وهو مسجل فيها بطريقة غير متوازنة ، ففى الوقت الذى أخرجت فيه مكتبات أوربا وأمريكا وبعض مكتبات الشرق فهارس (Catalogues) تعرف برصيدها من هلا التراث فإن قسماً كبيراً منه مازال حبيس بعض المخازن أو لم يعرف به تعريفا جيداً .

والملاحظ أن الفترة المتأخرة من التاريخ الإسلامى أفضل تمثيلا فى هذه المكتبات من الفترة

القديمة النادرة ونشرها نشراً علمياً ، أو باستخدام التضمينات التى قام بها المؤلفون المتأخرون الذين اهتموا بالرجوع إلى مصادر متقدمة فى فترة كان فيها ذلك ممكنا بالنسبة لهم ، ولكن بشرط استخدام النقد اللازم لها .

كذلك الحال بالنسبة للتوازن بين الأقاليم الإسلامية المختلفة . فإن العواصم الكبرى كانت بالطبع أفضل عرضا فى مجموعات المخطوطات عن الأدب الإقليمى .

وإذا مثلنا لذلك بالمصادر التى تؤرخ للدولة الإسلامية فى مصر والشام فى القرون الستة الأولى للإسلام ، فإننا سنجد أن الكثير من المصادر المبكرة لهذه الفترة قد فقد اليوم ، وإن تمكن المؤرخون المتأخرون - خاصة فى مصر - من الوقوف على بعض هذه المصادر وتضمينها فى مؤلفاتهم الكبرى .

فلم تعرف الكتابة التاريخية الشامية أية أهمية قبل عصر الحروب الصليبية ، ولم يصل إلينا قبل عصر صلاح الدين سوى "تاريخ" يحيى بن سعيد الأنطاكى و"ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسى ، بالإضافة إلى قسم من "تاريخ" العظيمى وكتاب "البستان" للعماد الأصفهانى .

ونظراً لأن قيمة أى مصدر إسلامى يتبوؤها قدمه وقربه من الحوادث التى يصفها فإن بعض المؤرخين اللاحقين - الذين عرفت كتبهم منذ فترة بعيدة ، مثل أبى الفدا صاحب "المختصر فى أخبار البشر" على سبيل المثال - تراجعت شهرتهم كثيراً بعد أن عرفت المصادر التى اعتمدوا عليها ، فقد نقل أبو الفدا فى كتابه غالب تاريخ ابن الأثير "الكامل فى التاريخ" .

وعلى العكس من ذلك فإنه لم يصل إلينا شئ مباشرة من المصادر الفاطمية كتب فى زمن خلافة الفاطميين فى مصر ، فما وصل إلينا على ندرته من هذه المؤلفات وصل إلينا فى نسخ كتبت بعد سقوط خلافة الفاطميين فى مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، فقد أضاع الأيوبيون كتب الفاطميين التى فقد منها الكثير[١٠] . ولكن بعضاً منها نجا من عدوان الأيوبيين وأخذ فى الظهور بعد ذلك عندما بدأ اهتمام الناس بتاريخ مصر الماضى ثم تسرب منها فى فترات لاحقة بعض نسخ منه استقرت فى مكتبات أجنبية .

ومانعرفة عن تاريخ الفاطميين ندين به لهؤلاء المؤلفين اللاحقين ، وعلى الأخص تقى الدين أحمد بن على المقريزى الذى كتب فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى كتابه النفيس "المواعظ والاعتبار" المعروف باسم "الخطط" وأعمالاً تاريخية هامة

أخرى. فرغم أنه تفصله عن الفترة الفاطمية بين ثلاثة وخمسة قرون ، فإنه تمكن من الاطلاع على عدد من المصادر الهامة ترجع إلى هذا العصر وضمنها فى كتابه . كما أن كتابة "اتعاظ الحنفا" - الذى خصصه لتاريخ الخلافة الفاطمية - لم يكن معروفًا منه لنا إلى فترة قريبة سوى بدايته فقط .

ومن مصادر مصر الإسلامية التى فقدت اليوم وحفظها لنا مؤرخو القرنين الثامن والتاسع للهجرة / الرابع عشر والخامس عشر للميلاد : "المستحسن من أخبار أحمد بن طولون" أو "سيرة أحمد بن طولون" لابن الداية ، التى نقلها بتمامها ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م فى كتابة "المغرب فى حلى المغرب"[١١١] ، ونقل ابن سعيد كذلك فى نفس الكتاب "سيرة محمد بن طغج الإخشيد" لابن زولاق[١١٢] فحفظ لنا بذلك مصدرين معاصرين للدولة الطولونية والدولة الإخشيدية .

وحفظ لنا ابن سعيد المغربى كذلك نقولاً هامة عن الفترة المبكرة للدولة الفاطمية فى مصر من كتاب "تكثكر الأدباء" لمؤلف فارسى الأصل ولد فى القاهرة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م هو أحمد بن الحسين بن أحمد الروذبارى الذى ذكر أنه شهد أكثر أيام العزيز بالله وكان موجوداً لما مات، ويعد مصدراً هامًا لخلافة الحاكم بأمر الله ، وبداية خلافة الظاهر لإعزاز دين الله[١١٣] .

ومن كتاب "سير الأئمة" لأبى العلاء عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسين المعروف بابن المهذب ، وهو مؤلف قيروانى الأصل كانت أسرته قد قدمت مع المعز إلى القاهرة ولاتعرف على التحديد الفترة التى عاش فيها ولكنه أنهى كتابه بنهاية خلافة الحاكم بأمر الله[١١٤] . وكذلك من كتاب "تاريخ مصر" الذى ألفه أبو عبد الله محمد بن سعيد القرطى[١١٥] وقدمه إلى شاور السعدى وزير الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر . واعتنى فيه بتاريخ مصر من أول ما عمرت إلى عصره[١١٦] . قال ابن سعيد :

"وقفت عليه من قبل النجم الريحانى المعتنى باقتناء الكتب . رحمة الله عليه ، وقيدت منه ما أودعته هذا الكتاب من الآداب المنسوبة إليه"[١١٧] .

ومن المصادر الهامة للفترة الفاطمية المبكرة بمصر مؤلفات أبى محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين المعروف بابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م[١١٨] والتى لم يصل إلينا منها على

أما أهم مؤلفاته وهى "سيرة المعز لدين الله" فقد حفظ لنا منها المقريزى فى القرن التاسع الهجرى نقولا مطولة وقال عنها :

"وقد وقفت عليها بخطه حكى فيها أخبار المعز منذ دخل مصر إلى أن مات يومًا بيومًا .. فإنه كان حاضراً ذلك ومشاهداً له وممن يدخل إليه ويسلم مع الفقهاء عليه ويروى فى هذه السيرة أشياء بالمشاهدة ، وأشياء سمعه بها ثقات الدولة وأكابرها كما هو مذكور فيها"[١١٩] .

أما سائر مؤلفات ابن زولاق الأخرى فلا نعرف إلا عناوينها التى وردت فى كتب التراجم .

وإذا كان لم يصل إلينا من كتاب "أخبار مصر" للأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المسبحى(٣٦٦- ٤٢٠هـ/٩٧٧-١٠٢٩م)[١٢٠] ، وهو مذكرات يومية للفترة التى عاصرها وكان يقع فى نحو ثلاثة وعشرين ألف ورقة ، سوى الجزء الأربعين الذى يشتمل على بقية حوادث سنة ٤١٤هـ وحوادث سنة ٤١٥ من نسخة طالعها واستفاد منها كل من أحمد بن عبد الله بن الحسن الأرجلى وتقى الدين أحمد بن على المقريزى فى مطلع القرن التاسع الهجرى[١٢١] ، فإن قسمًا كبيراً من الكتاب كان موجوداً عند أشخاص مختلفين من عصر المقريزى مكنته من نقل نصوص كاملة منه فى حوادث سابقة على ذلك . حيث نص على أنه اطلع على المجلد الرابع والثلاثين من الكتاب الذى يتضمن حوادث سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م[١٢٢] . كما نقل فى "اتعاظ الحنفا" و"إغاثة الأمة" و"المقفى الكبير" نقولا كثيرة عنه ترجع إلى السنوات من ٢٩١ إلى ٤١٥هـ تمكنت من خلالها من إعادة بناء قسم من "تاريخ" المسبحى ونشرته عام ١٩٨١[١٢٣] .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ الفاطميين فى القرن السادس الهجرى فسنجد أن من أهم مصادره أربعة مصادر فقدت أصولها اليوم وإن كانت موجودة حتى القرن التاسع الهجرى ، حيث نقل عنها مؤرخو العصر المملوكى الأواخر ما قدموه لنا من مادة تاريخية عن هذه الفترة . أولها كتاب "تاريخ خلفاء مصر" للقاضى المرتضى أبى عبد الله محمد بن الحسن الأطرابلسى المعروف بالمحنك ، أحد من تولوا نظر الدواوين والخزائن فى الدولة الفاطمية وتوفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . وينتهى تاريخ ابن المحنك عند خلافة الحافظ لدين الله (٥٢٦-٥٤٤هـ) ولكن لانعرف فى أى سنة بالتحديد . وإلى هذا الكتاب ترجع الأجزاء الأساسية فى حوليات ابن ميسر المتعلقة بتاريخ الفاطميين المتأخرين ، ونقل عن هذا الكتاب أيضًا ابن [illegible]

في "أخبار الدول المنقطعة" ، ويبدو أنه فقد بعد استخدام ابن ميسر له فلا نجد أي نقول عنه عند المؤلفين المصريين المتأخرين[٢٤] .

والكتاب الثاني هو "السيرة المأمونية" أو "تاريخ" ابن المأمون الذي ألفه الأمير شرف الخلافة [الملك] جمال الدين أبو علي مرتضى بن محمد بن فاتك بن مختار البطائحي المعروف بابن المأمون المتوفى بالقاهرة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٥٨٨هـ/٤ يونية سنة١١٩٢م[٢٥]. ويمثل هذا الكتاب أهمية خاصة لفترة خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل بن بدر الجمالي ووالد المؤلف الوزير المأمون البطائحي ، ولكن يبدو أنه ارتبط بالذات بأحداث السنوات ٥١٥-٥١٩هـ/١١٢١-١١٢٥م التي تولى فيها والده الوزارة . وهذا الكتاب أحد ثلاثة مصادر استفاد منها المقريزي في "الخطط" فيما يخص الاحتفالات الفاطمية هو و"نزهة المقلتين" لابن الطوير القيسراني و"الذخائر والتحف" المجهول المؤلف ، فعن طريقه استطاع المقريزي أن يصف لنا باستمرار تفاصيل الاحتفالات التي تمت في عهد الخليفة الآمر ووزارة والده المأمون البطائحي . وبلغت إشارات المقريزي في الخطط لتاريخ ابن المأمون ثلاث وخمسين إشارة ، كما نقل أغلب الحوادث الواقعة بين سنتي ٥١٥ و٥١٩هـ في "اتعاظ الحنفا" عن هذا الكتاب رغم أنه لم يشر إليه خلالها سوى مرة واحدة[٢٦] .

ولاشك أن ابن ميسر اعتمد أيضاً على هذا الكتاب بالنسبة لفترة وزارة المأمون البطائحي غير أن اختصار كتاب ابن ميسر وإيجازه لايوضح لنا هذه الصلة .

والكتاب الثالث هو كتاب مجهول المؤلف عنوانه "أخبار الدولة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء والفتن والحروب من أيام الآمر إلى أيام شيركوه" وقف عليه المؤرخ ابن الفرات في القرن الثامن الهجري في مجلد لطيف ونقل عنه بطريقة شبه كاملة نصا مطولا يعطينا انطباعاً لايرقى إليه الشك على أن صاحبه كان موجوداً في القاهرة في زمن وزارة الوزير ضرغام(٥٥٨-٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م)[٢٧] . ومن الممكن أن يكون هذا الكتاب معروفاً لبعض المؤرخين المتأخرين ، ولكن الأمر مشكوك فيه حيث أورد المقريزي هذا النص بتمامه في "اتعاظ الحنفا" وملخصاً في "الخطط" اغلب الظن بطريقة غير مباشرة من خلال نص ابن الفرات نفسه[٢٨].

أما الكتاب الأخير فهو كتاب "نزهة المقلتين في أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية"

سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م[٢٩] ، الذي يعد المصدر الرئيسي الذي استقى منه المؤرخون المتأخرون أمثال ابن الفرات والقلقشندي والمقريزي وابن تغرى بردي القسم الأهم من معلوماتهم عن النظم والرسوم الفاطمية ، علماً بأن المؤرخين الأسبق في القرنين السابع والثامن للهجرة / الثالث عشر والرابع عشر لم يعرفوا هذا الكتاب .

وينتمي ابن الطُوَير إلى نفس طبقة المؤلفين الإداريين الذين أوكلت إليهم الحكومة وظائف الإشراف العليا على الدواوين الإدارية في مصر في أيام الفاطميين والأيوبيين والتي ينتسب إليها : ابن الصيرفي والمرتضى بن المُنَجَّك والمخزومي وابن مماتي والنابلسي والقاضي الفاضل . وتولى ابن الطوير "ديوان الرواتب" - وهو أحد فروع "ديوان الجيش" في أواخر الدولة الفاطمية. وكتب ابن الطوير كتابه على الأرجح في زمن السلطان صلاح الدين وقصد عمل ما يشبه الموازنة بين نظام الدولة الفاطمية الذي خبره جيداً ونظام دولة صلاح الدين ، ولكن النقول التي حفظت لنا من هذا الكتاب تتعلق كلها بالدولة الفاطمية حتى قال عنه ابن تغرى بردي أنه "أجدر بأخبار الفاطميين من غيره"[٣٠] .

وإذا انتقلنا إلى الفترة الأيوبية سنجد أن المصدر الرئيسي لحياة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو "البرق الشامي" لايوجد منه الآن سوى الجزأين الثالث والخامس[٣١] من أصل سبعة أجزاء[٣٢] ، وبقية أجزاء الكتاب لا نعرفها إلا من خلال النقول المطولة التي نقلها عنه أبو شامة في كتاب "الروضتين" وهي تشتمل على العديد من مراسلات صلاح الدين .

ومن أهم المصادر التي تناولت الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والسادس للهجرة "تاريخ ابن أبي طي" وهو تاريخ عام للعالم الإسلامي من وجهة نظر شامية شيعية كتبه المؤرخ الحلبي يحيى بن حميد بن ظافر بن النجار الحلبي المعروف بابن أبي طي المتوفى نحو سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م[٣٣] . وقد فقد هذا التاريخ وإن حفظ لنا أبو شامة وابن الفرات والمقريزي نقولا كثيرة عنه . فالمؤرخ الشامي أبو شامة يرجع إليه باستمرار فيما يخص عصر السلطان صلاح الدين ، وذكر في أحد المواضع عنوان الكتاب الذي رجع إليه وهو "السيرة الصلاحية" المعروف بـ "كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين"[٣٤] . أما النقول التي أوردها عنه كل من ابن الفرات والمقريزي المتعلقة بتاريخ الفاطميين في مصر فأغلب الظن أنها نقلت من أحد الكتابين الآتيين : "معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب" - الذي ذكره ابن الفرات -

ويوحى بأنه من ناحية تاريخ عام للعالم الإسلامى ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مسقط رأسه ، أو "تاريخ مصر" الذى ذكره الصفدى نقلا عن ياقوت الحموى[٣٥] .

وإزاء فقد المؤلفات الأصلية لاتوجد أمامنا سوى طريقة واحدة لتكوين فكرة واقعية عن مضمونها ، هى دراسة المادة التى حفظها لنا منها المؤلفون الذين نقلوا أغلب مادتها . فتجميع هذه النصوص وإعادة بنائها ونشرها نشرا علميا اعتماداً على مخطوطات جديدة من شأنه أن يصوب الكثير من الأخطاء التى وقعت فى النشرات السقيمة للمصادر المتأخرة وخاصة فيما يتعلق بالمصطلحات وأسماء المواضع ، ومن شأنه كذلك أن يساعدنا على إعادة دراسة تاريخ هذه الفترات اعتماداً على هذه المصادر المعاصرة دون الخلط بينها وبين المصادر المختلفة الأخرى؛ مما يعيننا على رسم لوحة صادقة للحوادث التاريخية كما تظهر فى كتابات هؤلاء المؤرخين المعاصرين . وهذا العمل لايمكن أن يتم على الوجه الأكمل إلا بعد فحص مدقق وملتزم للنصوص التى نأسف لأن قسماً كبيراً منها مازال غير منشور .

وقد سبق للعالم الراحل محمد مصطفى زيادة فى تصديره للقسم الثانى من الجزء الثالث من كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزى أن قال : "إن من واجبى أن أنادى بوجوب توجيه الهمم للكشف عن تلك المنابع التاريخية الكبرى (وكذلك الصغرى منها) مع تنسيق المجهود الذى يبذل فى هذا العمل تنسيقاً يكفل للقائمين عليه مواصلة الإنتاج العلمى الصحيح من غير ما حاجة إلى دعاية أو جلبة أو إعلان . وأود أن أزيد على هذا النداء أن العمل المبتكر فى ميدان التاريخ فى مصر الناهضة هو العمل على جمع تلك المنابع التاريخية فى متناول الباحث فإن ذلك هو السبيل الوحيد إلى التأليف السليم فى المستقبل القريب" .

الهوامش

(١) Sauvaget, J. et Cahen, CL., Introduction a L'histoire de L,Orient Musulman, Paris 1961, pp. 33-34 .

(٢) Sauvaget, J. et Cahen, CL., op. cit, pp 23-33.

(٣) Cahen, CL., "Editing Arabic Chronicles ; a few suggestions", dans Les peuples musulmans dans L'histoire médiévale, Damas IFEAD 1977, p. 13 .

(٤) Sauvaget, J. et Cahen, CL., op. cit, p 35

(٥) Ibid., p.p 34-35 .

(٦) روزنتال ، فرانز : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، بيروت – دار الثقافة ١٩٦١ ، ١٠٢-١٠٣ .

(٧) المرجع نفسه ١١٢-١٢١ .

(٨) Cahen, CL., "Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers fatimides", BE-FAO 37 (1937-38), p2.

(٩) Sauvaget, J. et Cahen, CL., op. cit, p. 36

(١٠) راجع ، أيمن فؤاد سيد : "خزانة كتب الفاطميين فى مصر هل بقى منها شئ ؟" مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٢ (١٩٩٨) ، ١-٢٩ .

(١١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بمصر) ٧٣-١٣٣ ، وابن الداية هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب أحد خواص دولة الطولونيين بمصر توفى سنة ٣٤٠هـ . (ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ١٥٤ – ١٦٠ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ٨ : ٢٨٢-٢٨٣) .

(١٢) نفسه ١٤٨-١٩٧ .

(١٣) ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٥٤-٥٧ ، ٣٦٣ .

(١٤) نفسه ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٣٦٣ (وعنه المقريزى : الخطط ١:٣٥٢ واتعاظ الحنفا ١ : ٢٣٦) .

(١٥) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بمصر) ٢٦٧-٢٦٨ .

(١٦) نفسه ٢٦٨ .

(١٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بمصر) ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، والنجوم الزاهرة ٣٢ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٩٤ ، ٣٩٧ .

(١٨) راجع : ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٢٥-٢٣٠ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ١١ : ٢٧٠ ؛ EF. art. Ibn Zulaq III. p. 1003 ؛ المقريزى : المقفى الكبير ٣ : ٢٨٤-٢٨٦ ؛

(١٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ : ٢٣٢ والخطط ١ : ٣٨٥ ، ٤٧٠ ، ٤٥١ ، ٤٧٠ ، ٤٩٣ .

(٢٠) راجع : ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ : ٣٧٣-٣٨٠ ؛ ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ٢٦٤-٢٦٣ ؛ المقريزى : القسى الكبير ٦ : ١٩٣ ؛ Brunqois, Th., EF. art. al- Musabbihi VII. pp. 650 - 51 .

(٢١) نشر القسم التاريخى منها أيمن فؤاد سيد وتبارى بياناتها بعنوان "الجزء الأربعون من أخبار مصر" للمسبحى . القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٨ .

(٢٢) المقريزى : مسودة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . حققها وقدم لها أيمن فؤاد سيد . لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥ ، ٣٠٠ .

(٢٣) أيمن فؤاد سيد : "نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى" حوليات إسلامية ١٧ (١٩٨١) ، ١-٥٤ .

(٢٤) راجع : ابن ميسر : أخبار مصر ١٥٧ ؛ ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة (القسم الخاص بالفاطميين) ٨٩ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٢٢٣ ؛ أيمن فؤاد سيد : "دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر" ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٨٢ ، ١٥٠-١٥١ .

(٢٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ : ١١١ والخطط ١ : ٤١٩ .

(٢٦) نشرت النصوص التى وصلت إلينا من هذا الكتاب راجع : ابن المأمون : نصوص من أخبار مصر ، حققها وكتب مقدمتها أيمن فؤاد سيد . القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨٣ .

(٢٧) نشر كلود كاهن هذا النص انظر : Cahen, CL., "Un récit inédit du vizirat de Dirgham". An Isl. VIII (1969). M. 27-46 .

(٢٩) الصفدى : الوافى بالوفيات ١٨ : ٤١٧-٤١٨ ؛ Cahen, CL., EF. art. Ibn al - Tuwayr III. p. 985 ؛ أيمن فؤاد سيد : مقدمة نزهة المقلتين لابن الطوير .

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٥ : ٢٤١ .

وقد أعدت بنا - النصوص التى نقلها المؤرخون عن هذا الكتاب وصدرت فى مجلد بعنوان . ابن الطوير : نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ، بيروت - المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية ١٩٩٢ .

(٣١) نشرهما الدكتور مصطفى الحيارى وصدرا عن مؤسسة عبد الحميد شومان بعمان - الأردن ١٩٨٧ .

(٣٢) اختصر الفتح على البندارى هذا الكتاب فى جزأين باسم "سنا البرق الشامى" لم يصل إلينا منهما سوى الجزء الأول نشرته الدكتورة فتحية النبراوى . القاهرة - مكتبة الخانجى ١٩٧٩ .

(٣٣) الصفدى : الوافى بالوفيات (مخطوطة السليمانية رقم ٨٤٢) ورقة ٣٠ ، ١ ؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ٤ : ٣٦٩ - ٣٧١ ؛ Cahen, CL., EF. art. Ibn Abi Tayy III. p. 715 .

(٣٤) أبو شامة : الروضتين ٢/١ : ٤١٥ .

(٣٥) الصفدى : الوافى بالوفيات ١ : ٤٩ .

المصادر والمراجع

أيمن فؤاد سيد : "دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر" ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة – مكتبة الخانجي ١٩٨٢ ، ١٢٩–١٧٩ .

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ، المتوفى سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م .

"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، ١-١٢ نشرة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ .

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م .

"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" ١-٨ تحقيق إحسان عباس ، بيروت – دار الثقافة ١٩٦٩-١٩٧٢ .

روزنتال ، فرانز : "مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي" ، بيروت دار الثقافة ١٩٦١ .

ابن سعيد (علي بن موسى المغربي) المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م .

"المغرب في حلى المغرب" القسم الخاص بمصر ، حققه زكي محمد حسن وآخرون ، القاهرة – جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ .

"النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة" ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة – مركز تحقيق التراث ١٩٧٢ .

ابن شاكر الكتبي (صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .

"فوات الوفيات" ١-٥ تحقيق إحسان عباس ، بيروت – دار صادر ١٩٧٣ -١٩٧٤ .

أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م .

"الروضتين في أخبار الدولتين" الجزء الأول في قسمين تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦-١٩٦٢ .

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م .

"الوافي بالوفيات" ١-١٩ ، ٢١-٢٤ ، تحقيق مجموعة من العلماء ، النشرات الإسلامية ٦ ، استانبول- بيروت ١٩٤٩-١٩٩٢ .

ابن الطوير (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني) المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م "نزهة المقلتين في أخبار الدولتين" أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد ، النشرات الإسلامية – ٣٩ شتوتجارت – دار النشر فرانز شتاينر ١٩٩٢ .

ابن ظافر (جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي) المتوفى سنة ٦١٣هـ ١١٢٥م .

"أخبار الدول المنقطعة" دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب أندريه فريه ، القاهرة – المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٢ .

المسبحي (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد) المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م "نصوص ضائعة من أخبار مصر" اعتنى بجمعها أيمن فؤاد سيد ، حوليات إسلامية .

An. Isl. XVIII (1981), pp. 1-54

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م .

"اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" ١-٣ تحقيق ، جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد ، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٧-١٩٧٣ .

الخطط = المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ١ ، ٢ بولاق ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م .

"مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ، حققها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد ، لندن – مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٦ .

"السلوك لمعرفة دول الملوك" ١-٨ تحقيق محمد البعلاوي ، بيروت – دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢ .

ابن ميسر (تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب واغب) المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م .

"المنتقى من أخبار مصر" انتقاه تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، حققه وقدم له أيمن فؤاد سيد ، القاهرة- المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١ .

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م .

"معجم الأدباء" ١-٢٠ نشره أحمد فريد رفاعي ، القاهرة – دار المأمون ١٩٣٦-١٩٣٨ .

Cahen, Cl., "Editing Arabic Chronicles : A few suggestions", dans Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale, Damas IFEAD 1977 .

_____ , Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers fatimides", BIFAO 37 (1937-38) pp. 1-27 .

Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leiden - Brill 1960 et en cours Sauvaget J. et Cahen. Cl., Introduction a l'histoire de l'Orient musulman, Paris 1961 .

د. يسرى أحمد عبد الله زيداج (*)

كتب الفتوح مصدراً من مصادر تاريخ العرب

تمثل كتب الفتوح أهمية كبيرة لتاريخ العرب وحضارتهم حتى منتصف القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي ، بما تضم من أخبار ومواد متميزة ، ونادرة في بعض الأحيان ، تتصل بالتاريخ السياسي والحربي والإداري والاقتصادي والفكري للعرب في فترة زاهرة ، بلغ فيها العرب المسلمون ذروة المجد السياسي والعلمي والأدبي .

وأبرز هذه الكتب هي :

١- فتوح الشام لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) .

٢- فتوح مصر والمغرب لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) .

٣- فتوح البلدان لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) .

٤- كتاب الفتوح لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) .

٥- تاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطية (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) .

(*) مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

موارد كتب الفتوح :

لعل مما يكسب كتب الفتوح أهمية فوق أهميتها هو ماتتميز به هذه الكتب من أصالة باعتبار أن مؤلفيها قريبون من الأحداث والوقائع التاريخية ، معتمدون على المعايشين للأحداث والمشاركين فيها ، ومن المعلوم أن قيمة الكتب التاريخية تتحدد على أساس من القرب من الحوادث أو استخدامها لمرويات وموارد قريبة من الحوادث .

ومن بين مؤلفي كتب الفتوح : الواقدي الذي يعد من الطبقة الأولى من المؤرخين العرب المسلمين . وقد أكد الواقدي في كتابه "فتوح الشام" في أكثر من موضع على أنه اعتمد في أخبار الفتوح على الصدق ، فما نقل رواياتها إلا عن الثقات المعتمدين[١].

وهذا التأكيد مما يعلي من قيمة كتابه ؛ وبخاصة أنه أورد كثيراً من أسماء من شاركوا في فتوح الشام أو مصر ، أو غيرها[٢] ، وذكر أسماء من اشتهروا بالمعرفة الواسعة ، والحفظ التام للفتوحات[٣] . كما أنه أشار إلى أن هناك من كان يكتب أخبار الفتوح[٤] ، وإلى أن أخبار فتوح الشام و بيت المقدس بصفة خاصة كانت تقرأ بالعراق[٥] .

ولاشك في أن الرغبة كانت ملحة في تدوين أخبار الفتوح ، والباعث كان قويًا سواء من ولاة الأمور أو من الرواة والمؤرخين الأول ؛ فولاة الأمور حريصون على معرفة طبيعة كل فتح ، لأهمية الأحكام الفقهية والاقتصادية المترتبة عليه ، والرواة والمؤرخون الأول حريصون على إثبات دور صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، وإزالة القوى السياسية المهيمنة على الأمور في البلاد المختلفة وترفض مجرد عرض الدين الجديد على الشعوب ، وهو الأمر الذي أعلن الواقدي[٦] عن ضرورة إظهاره لبيان فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى الواقدي اعتمد البلاذري[٧] في كثير من فتوحات البلدان المختلفة ، وقلما نجد صفحة من كتاب "فتوح البلدان" تخلو من ذكر الواقدي ، بل إنه في معظم الأحيان كان اسمه يرد مرات في صفحات كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري .

ولم يكتف البلاذري بالاعتماد على الواقدي[٨] ، وإنما كان للبلاذري موارده الأخرى ، ومنها محدثه به علي بن محمد المدائني(ت٢٢٥هـ/٨٣٩م) عن شيوخه[٩] . والمدائني مشهود له بالبراعة في معرفة أخبار الفتوح ، وبالدقة في اعتماد الروايات أو نقدها ، وفيه يقول الخطيب

البغدادي : "كان عالما بأيام الناس ، وأخبار العرب وأنسابهم ، عالما بالفتوح والمغازي ورواية الشعر ، صدوقا في ذلك"[١٠] .

كذلك اعتمد البلاذري على ماحدثه به أهل العلم من المشايخ والعلماء ، نقلا بالأسانيد عن المشاركين في الأحداث ، أوالحافظين لها[١١] . ولم يكن اختيار البلاذري "لأهل العلم "عشوائيا ، أو اعتباطيا ، دون تمييز ، وإنما كان قائما في الأساس الأول على المعرفة الأكيدة بطبيعة الحدث الذي يريد البلاذري أن يدونه في كتابه ، ولذلك كثر الحديث عن أهل العلم "بضباع البصرة[١٢] أو أهل العلم ومشايخ أهل أنطاكية[١٣] ، أو أهل العلم ومشايخ بغداد[١٤] ، أو سنجار[١٥]، أو همذان[١٦] ، أو تزوين[١٧] ، أو أذربيجان[١٨] ، أو غيرها[١٩]. فهو يعتمد على علماء ومشايخ كل قطر أو مدينة في إيراد أخبارها . ولم يفت البلاذري أن يقوم أحيانا بالإشادة بمن ينقل عنهم وإظهار ثقته بهم ، ومثال ذلك قوله : "حدثني من أثق به" .

وبالمثل كانت موارد ابن عبد الحكم أصيلة ، تلقاها عن والده[٢٠]، أو عمن أخذ عن الليث بن سعد أحمد مشايخ أهل مصر[٢١] ، وعن غيره من أهل مصر[٢٢] ، كما أن ابن عبد الحكم نقل خبرين عن الواقدي خاصين بفتح المغرب[٢٣] ، وأشار ابن عبد الحكم في بعض المرات إلى نقله عن الثقات بقوله : "أخبرني الثقة"[٢٤] .

أما عن مصادر ابن أعثم الكوفي في كتابه "الفتوح" فإنه لم يصرح بمصادره في الكتاب كله الذي يقع في ثمانية أجزاء باستثناء مرات ثلاث أشار فيها إلى الأخذ عن الواقدي[٢٥] . ومقارنة أخبار الفتوح لدى ابن أعثم بغيرها من كتب الفتوح الأخرى وكذلك بالكتب التاريخية الأولى ، تبين استقلال ابن أعثم في مادة "الفتوح" حيث أورد بعض المعلومات والروايات والأخبار التي لم ترد عند غيره[٢٦] ؛ الأمر الذي يؤكد اعتماده على كتاب الفتوح الأول[٢٧]، ومن ثم يعلي من قيمة مادته التاريخية .

ولعل مما يؤكد مذهب إليه هو أن ابن أعثم خالف ثلاث مرات ما ألفه في كتابه كله بأجزائه الثمانية من قوله : "قال" دون تحديد للقائل ، فذكر المدائني مرة[٢٨] ، وذكر عدداً من رواة الأخبار الأول مرتين[٢٩].

أما عن "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية ، فإنه لم يتناول الفتح إلا في صفحات يسيرات[٣٠]

فى أهمية الاعتماد عليه كمصدر أصيل من مصادر دراسة تاريخ العرب فى الأندلس ، حيث احتوى على جوانب مهمة من تاريخ العرب والإسلام بالأندلس ، مما جعل مؤرخًا كبيراً هو لسان الدين بن الخطيب يعتمد عليه فى الحديث عن فتح "غرناطة"[٣١]

ومما سبق يتبين لنا أصالة كتب الفتوح من حيث المادة التاريخية المنقولة عن رواة كانوا قريبين زمنيًا من الأحداث والوقائع ، مما يبرز أهمية هذه الكتب التى استوعبت الكثير من الكتب والروايات الضائعة . وكانت كتب الفتوح بعد ذلك مصدراً مهمًا للعديد من الكتب التاريخية ، بغض النظر عن الاهتمامات الكبرى لهذه الكتب ، التى على أساسها صنفت ضمن كتب : "الخطط" أو "الجغرافيا" أو "الأنساب" أو غير ذلك .

المنقول من كتب الفتوح :

وبسبب أهمية كتب الفتوح ، وماتتمتع به مؤلفوها من سعة علم ، وقرب من الأحداث ، فإن العديد من المصادر التاريخية استمدت معلوماتها وأخبارها من هذه الكتب . فعلى سبيل المثال ورد اسم "الواقدى" لدى الطبرى فى الجزء الرابع فقط من "تاريخ الأمم والملوك" ستين مرة ، منها مرات عديدة وافق فيها الطبرى الواقدى[٣٢] . ومرات أخرى أورد فيها الطبرى روايات غير الواقدى ، والتى اختلفت عنها من حيث تحديد سنة فتح المدينة أو الإقليم[٣٣] .

كذلك وردت روايات الواقدى فى كتاب خاص بتاريخ المغرب هو "البيان المغرب" لابن عذارى المراكشى[٣٤] .

وقد اعتمدت كتب "الخطط" اعتماداً كبيراً على كتب الفتوح فى وصف المدن والأحياء المختلفة والأسوار ، والعمائر ، والعواصم ، إلى غير ذلك من مباحث تاريخية وأثرية وجغرافية واقتصادية واجتماعية . وأبرز هذه الكتب : "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" لتقى الدين المقريزى الذى نقل عن ابن عبد الحكم[٣٥] ، والبلاذرى[٣٦] فى كثير من المواضع . ولئن اعتبرنا كتاب السيوطى "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" ضمن كتب الخطط[٣٧] ، فإننا نلاحظ أن هذا الكتاب قام أساسًا على كتب الفتوح ، ومؤلفيها[٣٨] .

كذلك كانت كتب الفتوح مصدراً أساسيًا لكتب الجغرافيا ، فعلى سبيل المثال اعتمد الجغرافى الرحالة الأديب ياقوت الحموى فى كتابه "معجم البلدان" كثيراً على البلاذرى بصفة خاصة[٣٩] . ووردت إشارات قليلة تخص الواقدى[٤٠] .

وحتى كتب الأنساب اعتمدت على كتب الفتوح فى ذكر المواضع ، أو الترجمة للرجال أو إيراد أصل النسب . ومن هذه الكتب : "الأنساب"[٤١] للسمعانى و"الإيناس فى علم الأنساب"[٤٢] للحسين بن على بن الحسين المغربى المتوفى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة من الهجرة .

كذلك فإن كتب التراجم والطبقات ارتكزت على بعض كتب الفتوح فى بعض من مادتها التاريخية ، ومن ذلك على سبيل المثال كتاب "رفع الإصر عن قضاة مصر"[٤٣] وهو من كتب طبقات القضاة ، وبالمثل كانت كتب "الولاة والقضاة"[٤٤] ، وغيرها من مصادر تاريخية متنوعة على اختلاف اهتماماتها الأساسية ، وعناياتها الرئيسية .

وهكذا إذا تتبعنا مصادرنا التاريخية لوقفنا بسهولة على مدى ماتمثله كتب الفتوح من أهمية لهذه المصادر ، فضلاً عن أن كتب الفتوح استوعبت كثيراً من الكتب التى ضاعت ، فكانت وعاء لها .

ملاحظات على الجانب العسكرى للعرب فى كتب الفتوح :

تتميز كتب الفتوح بالتفصيلات الشديدة لمعارك العرب وحروبهم فى البلاد التى فتحوها ، لإزاحة القوى السياسية الظالمة التى حالت بين معرفة هذه الشعوب بالدين الجديد الإسلام ، أو تلك القوى السياسية التى استعمرت أجزاء من الوطن العربى لقرون عديدة ، مكونة إمبراطورية كبرى ، هى الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ومن هذه التفصيلات يتبين لنا أن العرب المسلمين لم يكونوا فى نزهة حربية وهم يفتحون البلاد ويحررونها أو ينتصرون على عدوهم ، بل بذلوا كل مافى وسعهم أمام جيوش كثيرة العدد والعدة ، وصفت بالجراد المنتشر[٤٥] ، وبالصخر الجلمود[٤٦] . وكان العرب يقاتلونهم قتال الموت ، كما ذكر المشاركون فى القتال[٤٧] . ولذلك لم تخل معركة مع الروم أو الفرس أو الترك أو غيرهم من وصفها بالشدة ، والصعوبة فى تحقيق النصر[٤٨] . وكان قائد العرب المسلمين يقوم بدور مهم، تمثل فى التحريض والحث على القتال ؛ لمواجهة العدو المتحفز والمعد إعداداً جيداً لمواجهة العرب[٤٩] . وكان شعار العرب فى كثير من معاركهم : الصبر ، الصبر[٥٠] .

وقد كثرت فى كتب الفتوح عبارات مثل : "فأنستنى وقعتها ماشهدت قبلها من الوقائع بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥١] و"فاقتتلوا قتالاً شديداً ، لم يقتتلوا فى موطن بمثله"[٥٢] ومن ثم لا غرابة فى أن يسقط الآلاف من العرب شهداء فى حروب التحرير[٥٣]

أو أن يصابوا إصابات بالغة تؤدى إلى الموت ، كما حدث فى اليرموك سنة خمس عشرة من الهجرة حيث اعور من المسلمين سبعمائة عين "فسمى ذلك اليوم يوم التعوير"[٥٤٤] . ولم يكن اليوم الوحيد الذى وصف بهذه الصفة[٥٤٥] .

وأبرزت كتب الفتوح كذلك دور القبائل العربية فى قتال العدو ، كدور "كندة" فى فتح حلب وقلعتها[٥٤٦] ، ودور بنى مخزوم فى فتح حمص[٥٤٧] ، وهكذا .

وعنيت بالتركيز على دور المرأة العربية المسلمة فى الفتوحات ، وهو الدور الذى لم يظهر بصورة واضحة مثلما ظهر فى كتب الفتوح : فلقد شاركت المرأة العربية فى كل مراحل الفتوحات - تقريبا - وفى جميع ميادينها ، وهو ما أكدته كتب الفتوح ؛ ففى يوم اليمامة قاتلت أم حبيب ، نصيبة "فانصرفت وبها جراحات"[٥٤٨] . وفى فتح دمشق (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) قاتلت النساء العربيات بزعامة خولة بنت الأزور وقال الواقدى فى ذلك : "بلغنى أن النسوة قتلن ثلاثين فارسا من الروم"[٥٤٩] . وقد فصل الواقدى القول عمن قاتلن قتال الموت من النساء ، وذكر أسماءهن ، وممن عرفن بالشجاعة والبراعة ومنهن : عقراء بنت غفار ، وأم أبان بنت عتبة ، وسلمة بنت زارع ، ولبنة بنت حازم ، ومزروعة بنت عملوقة ، وسلمة بنت النعمان[٥٥٠] . وفى رقعة أجنادين مع الروم ، وبالتحديد فى يوم مرج الصفر (١٤هـ) من هذه الوقعة استشهد خالد بن سعيد بن العاصى بن أمية ، وكان قد أعرس فى الليلة التى كانت الوقعة فى صبيحتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومى ، فلما بلغها مصابها ، انتزعت عمود الفسطاط فقاتلت به "فيقال : إنها قتلت يومئذ سبعة نفر"[٥٥١] . وقد فصل الواقدى الحديث عن دور هذه المرأة فى تلك الوقعة ، فذكر أنها كانت من المترجلات ، البارزات ، من أهل بيت الشجاعة والبراعة ، وأنها قاتلت مع الناس قتالا "لم ير مثله" وكانت أرمى الناس بالنبل ، ولم تخطئ رميتها ، فلم تقع نبالها إلا فى رجل من الروم "إلى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة"[٥٥٢] .

وفى معركة اليرموك (١٥هـ/٦٣٦م) قاتلت نساء من نساء المسلمين قتالا شديدا ، منهن : خولة بنت الأزور ، وأسماء بنت أبى بكر الصديق ، وسعداء بنت عاصم الخولانى ، وخولة بنت ثعلب الأنصارى ، ونعيمة بنت قياض ، وهند بنت عتبة بن ربيعة ، وإبانة بنت جرير الحميرية ، وغيرهن من العربيات المجاهدات "رضى الله تعالى عنهن ، فلقد كن يقاتلن قتالا يرضين به

بالحجارة ، وضربن جواده بالعمد ، وصحن فيه : "الله الله ، لاتفضوا الإسلام بهزيمتكم" وقامت النساء بمداواة الجرحى ، وإطعام الجوعى ، وتولى بعضهن حراسة جماعات من المسلمين ، بلغ الجهد منهم أقصاه[٥٥٣] . وقد ذكر أحد شهود العيان وهو عبد الله بن قرط الأزدى أن الله تعالى أسعد المسلمين بحملة النساء اللاتى شهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المواطن ، فتراجع المسلمون إلى القتال - بعد الهزيمة - حين نظروا إلى النساء يقاتلن قتال الموت ، "فلله در النساء يوم اليرموك"[٥٥٤] .

وكان للعربيات دور بارز أيضا فى فتح أنطاكية ، تحدث عنه تفصيليا الواقدى[٥٥٥] ، وفى المعارك التى جرت بين العرب والفرس مثل "القادسية" شهدت النساء العربيات هذه المعارك ، ففى القادسية سنة ١٤ هـ لعبت أم كثير امرأة هشام بن الحارث دورا كبيرا ، هى وغيرها من نساء بنى تميم[٥٥٦] .

وفى غزوة قبرس الأولى سنة ٢٧هـ/٦٤٧م زمن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، حمل معاوية بن أبى سفيان امرأته فاختة بنت قرظة بن عمرو ، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، التى خرجت من المراكب فنزلت قبرس ، فعثرت بها دابتها فقتلتها "فقبرها بقبرص ، ويدعى قبر المرأة الصالحة"[٥٥٧] .

وواصلت المرأة العربية مشاركتها فى الفتوح زمن الأمويين[٥٥٨] ، حيث إنهم كانوا يخرجون إلى الغزو بنسائهم ، ويعلل البلاذرى ذلك بقوله : "وكانت بنو أمية تفعل ذلك ؛ إرادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم"[٥٥٩] . ولما غزا مسلمة بن عبد الملك عمورية حمل معه نساء ، وحمل أناس ممن معه نساءهم[٥٦٠] . وفى خلافة يزيد بن معاوية غزيت بلاد ماوراء النهر سنة ٦٣هـ/٦٨١م ، وعبر القائد سلم بن زياد نهر جيحون ، الفاصل بين إيران وتركستان" ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان الثقفى ، وكانت أول عربية عبر بها النهر"[٥٦١] . ولما خرج عشرون ألفا من الروم سنة ثلاث وعشرين ومائة ، فهاجموا ثغر ملطية أغلق أهلها أبوابها "وظهر النساء على السور ، عليهن العمائم فقاتلن"[٥٦٢] .

وهكذا انفردت كتب الفتوح بإبراز دور النساء العربيات فى مقاتلة الأعداء ، أو الدفاع عن الثغور العربية الإسلامية .

وتضمنت كتب الفتوح كذلك كل الرسائل المتبادلة بين القواد الفاتحين وبين الخلافة[٥٦٣] حيث

بأخبار المعارك والفتوح[٧٤] . كما أن هذه الكتب فصلت الحديث فى أمر الشورى وتبادل الرأى بين القواد الفاتحين[٧٥] ، أو بينهم وبين الخليفة بعاصمة الخلافة[٧٦] .

وتعد كتب الفتوح مهمة فى الوقوف على تسليح العرب ، وطرق قتالهم ، وأساليبهم فى الخداع والتجسس ، وغير ذلك من صور الجيش العربى فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة[٧٨] .

وكما سبق يتبين لنا أهمية كتب الفتوح فى إظهار جوانب غامضة ، بصورة واضحة تتعلق بالجانب العسكرى للعرب فى القرون الأولى من الهجرة .

دور العرب فى نشر الإسلام بالبلاد المفتوحة وعلاقتهم بالمخالفين لعقيدتهم :

تميزت كتب الفتوح بالحديث عن دور العرب فى نشر الإسلام بالحسنى والدعوة الهادئة ، بعد أن تم توطين هؤلاء العرب فى البلاد المفتوحة . ولاشك أن مبدأ الحرية الدينية التى التزمها العرب فى البلاد المفتوحة أصل من أصول الإسلام ، فلقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم برسائل عديدة إلى أهالى دومة الجندل ونجران ، والبحرين ، وغيرها بتأمين المخالفين لعقيدة العرب الدينية ، وورد فى إحدى رسائله[٧٩] إلى اليمن قوله" وأن لايفتن يهودى عن يهوديته"[٨٠] وكذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند[٨١] ، وبلاد ما وراء النهر[٨٢] ؛ يدعوهم إلى الإسلام ، وفعل ذلك أيضا الخليفة العباسى المأمون[٨٣] . وتم تأمين المخالفين للعقيدة الإسلامية ، وتأمين دور عبادتهم ، وجاء ذلك مفصلا فى "كتب الفتوح" ففى فتح "طبرية" على سبيل المثال قام شرحبيل بن حسنة بتأمين أهلها على أنفسهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم[٨٤] . وهو ما قام به خالد بن الوليد بعد فتح دمشق ، حيث كتب لهم كتابا جاء فيه "هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم"[٨٥] . وهو ماحدث أيضا فى كل البلاد المفتوحة ، فعندما فتح حبيب بن مسلمة مدينة "الدبيل" كتب لأهلها كتابا هو : هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ، ومجوسها ، ويهودها ، شاهدهم وغائبهم : أنى أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم"[٨٦] .

كذلك استخدم العرب أهالى البلاد المفتوحة من غير المسلمين فى بعض الأعمال منذ زمن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى استخدم يهود قيسارية بعد فتحها سنة [illegible] ، كما كان للخليفة الأموى سليمان بن عبد

الملك كاتب نصرانى تولى الإشراف على حفر الآبار والقنوات بمدينة الرملة بفلسطين[٨٨] . هذا فضلا عن رعاية المرضى وأصحاب العاهات من غير المسلمين فى البلاد المفتوحة[٨٩] .

بل أفاضت كتب الفتوح فى الحديث ، فى أثناء فتوح بعض المدن ، ففى فتح شيزر كتب أبو عبيدة بن الجراح كتابا إلى أهلها ، وأرسله مع رجل من المعاهدين[٩٠] وكان لأبى عبيدة بن الجراح فى جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين ؛ يتصرفون له الأخبار[٩١] . وبالمثل فعل خالد بن الوليد[٩٢] . كما استعان القواد العرب المسلمون بالمعاهدين من غير المسلمين كأدلة على الطرق والدروب[٩٣] .

وهكذا كانت علاقة العرب الفاتحين مع أهل البلاد الذين احتفظوا بدياناتهم السابقة ، وهو ماورد الحديث عنه بصورة واضحة فى كتب الفتوح . وقد أورد ابن عبد الحكم خبرا يلخص كل ماسبق ، هو أن خوارج المغرب الذين تحكموا فى مقدراته سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م واستحلوا المسلمين وأهل الذمة معا ، هزموا أمام الجيوش الأموية فى السنة التالية مباشرة ، فقام القائد العربى حنظلة بن صفوان الكلبى باستنقاذ ما كانوا أصابوا من أهل الذمة[٩٤] . وبنا لم يفرق القائد العربى بين المسلمين وغير المسلمين فى النجدة ، والمعاملة ، وفكاك الأسر .

أما عن دور "كتب الفتوح" فى إظهار ما قام به العرب من جهود لنشر دينهم الإسلام ، فإن هذه الكتب ، وبالأخص كتاب :فتوح البلدان" للبلاذرى ، قد عرضت للهجرات العربية إلى البلاد المفتوحة واستقرارها بها ، وما تم من اختطاط لهذه القبائل العربية التى دعت إلى الإسلام بالقول والفعل الصالحين . وكانت هذه السياسة معمولا بها فى كل البلاد المفتوحة .

ففى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتحت سنجار بالجزيرة الفراتية "وأسكنها قوما من العرب"[٩٥] ، وفتحت توج بفارس ، فسكنها عبد القيس وغيرهم ، وبنيت بها المساجد[٩٦] . وتم توطين قوم من قيس وغيرهم بمالص على يد أبى عبيدة بن الجراح[٩٧] .

وفى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فتحت أذربيجان مرة أخرى سنة ٢٥هـ بعد فتحها فى خلافة عمر بن الخطاب ، وقام والى عثمان على أذربيجان الوليد بن عقبة بإسكان أذربيجان قوما من العرب "وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام"[٩٨] . وأمر عثمان بن عفان واليه على الشام والجزيرة معاوية بن أبى سفيان أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى "ويأذن لهم فى اعتمال الأرضين التى لاحق فيها لأحد" فأنزل بنى تميم وقوما من قيس وأسد وغيرهم مواضع بالجزيرة الفراتية[٩٩] .

ولى عهد معاوية تم فى سنة ٤٥هـ/٦٦٥م إسكان العرب فى مرو [١٠٠]. وسار الأمويون من بعده على هذه السياسة . ولذلك أسكن قتيبة بن مسلم العرب ما وراء النهر "حتى أسكنهم أرض فرغانة والشاش" [١٠١] .

وهكذا أدت هذه السياسة العربية [١٠٢] إلى تعرف غير المسلمين على الإسلام من خلال معاملات وسلوكيات وأفعال العرب ؛ فضلا عن الدعوة بالموعظة الحسنة إلى الإسلام ، مما أدى إلى انتشار الإسلام فى البلاد المفتوحة [١٠٣] .

كتب الفتوح وأحوال العرب الاقتصادية :

احتوت كتب الفتوح معلومات وأخبارا متصلة بالأحوال الاقتصادية للعرب فى القرون الثلاثة للهجرة ، ومن خلال هذه المعلومات والأخبار يمكن الوقوف على سياسة وأحوال العرب الاقتصادية فى تلك الفترة التاريخية . وقد ذكرت هذه الكتب ماتم إقطاعه من أراض موات لمن يقوى على استصلاحها وزراعتها منذ زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى أرسى هذه السياسة ، عندما أقطع أراضى مواتا بحضر موت واليمامة وغيرهما [١٠٤] . وبالمثل كانت إقطاعات الخلفاء الراشدين [١٠٥] والأمويين [١٠٦] ، وغيرهم . وهذا يثبت رغبة العرب فى الزراعة ، بدليل ماورد من قيامهم بإصلاح وإحياء هذه الأراضى بالفعل [١٠٧] .

وبدليل الإشارات التى أوردتها "كتب الفتوح" متعلقة بما كان يزرع بالطائف زمن عمر بن الخطاب من كروم ورمان [١٠٨] ، وبعد ذلك فى أنحاء العالم العربى [١٠٩] .

وقد ورد الأخبار العديدة عن إقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وحفر الأنهار ، ولابن عبد الحكم خبر مهم يتصل بمصر هو أن عمرو بن العاص اختار مائة وعشرين ألفا معهم أدوات الحفر وبناء القناطر والجسور ، لمتابعة المنشآت المائية فى مصر شتاء وصيفا [١١٠] . أما البلاذرى فإنه ذكر ما أنشأه العرب من أنهار فى كل البلاد التى حكموها [١١١] .

أما عن التجارة ، فهناك إشارات عديدة عن أسواق العرب فى البلاد التى فتحوها ، ومنها يتبين لنا أن ظاهرة تخصيص أسواق معينة لكل سلعة داخل السوق الكبيرة كانت معروفة لدى العرب منذ القرن الأول الهجرى ، وقد ورد الحديث عنها فى كتب الفتوح [١١٢] ، وعن دور العرب فى توسيع الأسواق [١١٣] ، وتنظيمهم لها [١١٤] .

ولو تتبعنا ما ورد بكتب الفتوح عن أحوال العرب الاقتصادية لطال بنا الحديث ، وما تقدم إشارات فقط تخص هذا الجانب .

كتب الفتوح وجوانب من النظام الإدارى للعرب :

تعد كتب الفتوح من أخصب الكتب التى تحدثت عن بعض من نظم العرب الإدارية ، قبل أن تتخصص كتب فى هذا الأمر ، وقد احتوت هذه الكتب على أسماء ولاة الأقاليم المختلفة منذ زمن النبى صلى الله عليه وسلم [١١٥] ، وحتى نهاية العصر العباسى الأول [١١٦] (٢٣٢هـ/٨٤٦م) ، وكذلك على أسماء القضاة بصفة خاصة الأمر الذى جعلها مصدرا لكتب "الولاة والقضاة" كما تقدم بيانه . وامتاز كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى بذكر العطاء [١١٨] ، والعملة التى ضربها العرب [١١٩] ، وما قاموا به من خطوات مهمة لتعريب البلاد المفتوحة وصبغها بالصبغة العربية [١٢٠] ، إلى غير ذلك من أمور حضارية [١٢١] ، أدت إلى استقلال الدولة العربية عن غيرها من الدول . هذا فضلا عن الحديث عن الدواوين المتعددة ، ومنها : ديوان الجند ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان البريد [١٢٢] ، وغيرها من دواوين .

كتب الفتوح وجوانب أخرى من حضارة العرب :

من العوامل التى تعلى من قيمة كتب الفتوح كمصدر أصيل من مصادر تاريخ العرب وحضارتها هو ماتضمنته هذه الكتب من معلومات وأخبار غزيرة عن المدن التى اختطها العرب أو مصروها [١٢٣] ، وعن المساجد والجوامع التى بنوها [١٢٤] ، وعن سائر العمائر التى بناها العرب فى كل المدن المفتوحة ، وفى موطنهم الأصلى ، وقد انفرد البلاذرى [١٢٥] بصفة خاصة بخبر ذكر فيه مساهمة النساء [١٢٦] فى بناء الحمامات بالبصرة مع غيرهم من الرجال فى القرن الأول الهجرى .

وجانب البناء والتعمير الذى أفاضت كتب الفتوح فى الحديث عنه يثبت دور هؤلاء العرب فى صنع الحضارة العربية ، فلقد كانوا يتجهون فور فتح المدن إلى تعميرها بالعمائر المختلفة اللازمة لقيام الحياة ، وصنع الحضارة .

هذا ولم تغفل كتب الفتوح الحديث عن بعض النواحى الاجتماعية للعرب ، ومنها رعاية اليتامى [١٢٧] والزمنى [١٢٨] .

وهكذا فإنه بالقراءة المتأنية الواعية لكتب الفتوح ، فإنه يمكن الخروج بملامح عريضة لحياة العرب السياسية والحضارية فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، ويعد كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى الأوسع مادة الأشمل فى هذا الجانب من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه كان يتابع تطور الحدث إلى زمنه فى القرن الثالث الهجرى[١٢٩] ؛ مما يفيد فى المقارنة ، ومتابعة الحدث التاريخى أو الحضارى .

الهوامش

(١) قال الواقدى فى كتابه "فتوح الشام" جـ١ ص١١٦ : "والذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت فى أخبار هذه الفتوح إلا الصدق ، وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات" . وكرر هذا القسم مرة أخرى ص١٥٤ ، بينما أشار فى مواضع أخرى أنه نقل الوقائع والأحداث عن الثقات . راجع جـ١ ص١٠٩ وص ١٦٢ وجـ٢ ص٣٩ وص١٢٤ وص١٣٦ .

(٢) راجع الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص٨٦ و٨٩ و٩٥ و٩٧ و١١٨ و١٢١ و١٥٩ و١٧٣ و١٧٥ و١٧٨ وجـ٢ ص٤٣ و١٠٣ و١٤٣ .

(٣) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص٩٥ وص ١٩١ وجـ٢ ص١٧ وص١٢٠ .

(٤) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص١٧٦ .

(٥) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص١٥١ .

(٦) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص١١٦ وص١٥٤ .

(٧) راجع البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١ ، وص٢٥ وص٢٨ وص ٣١ ، وص٤١ وص٥٣ ، وص٥٦ ، وص٥٧ ، وص٥٨ ، وص٦٠ ، وص٦٨ ، وص٦٩ ، وص٧٠ ، وص٧١ ، وص٧٤ ، وص٨٦ ، وص٩٤ ، وص٩٥ ، وص١٠٢ ، وص١١٥ ، وص١١٦ ، وص١١٩ ، وص١٢٤ ، وص١٢٥ ، وص١٢٩ ، وص١٣٠ ، وص١٣٦ ، وص١٤٩ ، وص١٤٧ ، وص١٥٧ ، وص١٥٩ ، وص١٦٦ ، وص١٧٣ ، وص١٧٤ ، وص١٧٥ ، وص١٧٧ ، وص١٧٩ ، وص١٨٠ ، وص١٨٢ ، وص١٨٧ ، وص١٩٠ ، وص١٩٣ ، وص١٩٤ ، وص٢٠٢ ، وص٢٠٧ ، وص٢٢٠ ، وص٢٢٣ ، وص٢٢٤ ، وص٢٢٥ ، وص٢٢٦ ، وص٢٢٨ ، وص٢٢٩ ، وص٢٣٠ ، وص٢٣١ ، وص٢٣٢ ، وص٢٣٧ ، وص٢٣٨ ، وص٢٣٩ ، وص٢٤٣ ، وص٢٤٧ ، وص٢٥٦ ، وص٢٥٨ ، وص٢٦٣ ، وص٢٧٤ ، وص٢٩٩ ، وص٣٠٤ ، وص٣٠٩ ، وص٣٢٢ ، وص٣٢٨ .

(٨) يلاحظ أن البلاذرى كان ينقل عن الواقدى دون تحفظ ، ويختار روايته على غيرها عند اختلافها مع غيرها ، ومنها روايات أبى مخنف ، لوط بن يحيى (ت١٥٧هـ) ، ربما ليله إلى العلويين ، أو لأن روايات الواقدى عن الشام وأخباره أثبت من روايات غيره لعنايته بتاريخه عناية فائقة . راجع على سبيل المثال : فتوح البلدان للبلاذرى ص١٢٥ .

(٩) راجع على سبيل المثال : فتوح البلدان للبلاذرى ص٢٧٩ ، وص٢٩٨ ، وص٣٠٨ ، وص٣١٩ ، وص٣٢٢ ، وص٣٢٣ ، وص٣٣١ ، وص٣٤٨ ، وص٣٧٥ وفيها يقول "حدثنى المدائنى عن أشياخه" .

وقد ذكر البلاذري أنه أخذ عن "المدائني" مادة تاريخية في صفحات : ٢٤٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ .

(١٠) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ١٢ ص٥٥ وراجع ترجمته من ص٥٤ . وقد ذكر الخطيب البغدادي أيضًا أن من أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني ، ومن أراد أخبار الجاهلية ، فعليه بكتب أبي عبيدة معمر بن المثنى (ص٥٥) .

(١١) راجع البلاذري : فتوح البلدان ص١٢٤ وص١٣٢ وص١٤٤ وص١٥٠ وص١٦٦ وص١٨٣ وص٢٩٠ وص٣٠٣ وص٣٥١ وص٣٦٦ وص٣٨١ .

(١٢) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٦٤ .

(١٣) البلاذري : فتوح البلدان ص١٥٣ و١٦٣ و١٦٨ وراجع ص١١٧ وص١٥٩ .

(١٤) البلاذري : فتوح البلدان ص٢٩٣ و٢٩٦ .

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان ص١٨١ ، ١٨٢ و١٨٤ .

(١٦) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٠٨ .

(١٧) البلاذري : فتوح البلدان ص٣١٧ و٣١٨ و٣٢٤ .

(١٨) راجع البلاذري : فتوح البلدان ص١٣٨ و١٩٧ و٢٠١ و٢٠٢ و٢٠٤ و٢١٢ و٢٣١ و٢٤٧ و٢٨٨ و٣٨٠ .

(١٩) البلاذري : فتوح البلدان ص١٦٦ ، ٢٦٣ .

(٢٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص٢٣٩ و٦١ و٦٨ و٧٩ وص١٠٠ وص١١٣ و١١٤ وص١٣٩ وص١٥٠ وص١٥٣ و١٥٨ وص١٥٩ .

(٢١) اعتمد ابن عبد الحكم كثيراً على الليث بن سعد . وراجع على سبيل المثال ص٣٣ ، ٤٨ ، و٥٥ ، و٥٩ ، و٦٩ ، و٧٧ ، و١٠٧ ، و١٢٥ ، و١٤٣ ، و١٤٨ .

(٢٢) راجع على سبيل المثال ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٣١ و٤٩ و٥١ و٨٤ و١٢٥ و١٥٥ و١٥٧ و١٥٩ . ويذكر هنا اعتماد ابن عبد الحكم على ابن لهيعة كثيراً في كتابه ، وقلما خلت صفحة من "فتوح مصر" من ذكر لابن لهيعة ، راجع على سبيل المثال ص٤٥ وص٦١ وص٦٩ وص٧٥ و١٣٠ .

(٢٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص٢٢٠ .

(٢٤) راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٥٩ .

(٢٦) قارن على سبيل المثال فتح جزيرة رودس عند البلاذري : فتوح البلدان ص٢٣٧ ، وعند الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص٢٨٨ وابن أعثم الفتوح جـ٢ ص١٢٤-١٢٧ . وقارن فتوحات قتيبة بن مسلم لتركستان (بلاد ما وراء النهر) عند البلاذري : السابق ص٤٠٩-٤١٥ وعند الطبري : السابق جـ٨ ص٤٢٩-٤٣٣ ، و٤٣٩-٤٤٠ و٤٤٢-٤٤٧ و٤٧٢-٤٧٩ ، وبين ما أورده ابن أعثم في كتابه الفتوح جـ٧ ص٢١٧-٢٥١ . وقارن فتح جرجان وطبرستان الواقعين في شمال إيران جنوب بحر قزوين عند البلاذري : السابق ص٤١٤-٤١٥ وعند الطبري : السابق جـ٦ ص٥٣٢-٥٣٦ ، وبين ما أورده ابن أعثم : السابق جـ٧ ص٢٨٤-٢٩٨ . وقد اخترت الطبري بصفة خاصة لأنه توفي قبل ابن أعثم بأربع سنوات فقط ، أي إنه معاصر له ، ولأن الطبري صاحب أقدم مصدر كبير لتاريخ العرب .

(٢٧) ضاعت كتب الأوائل المتصلة بالفتوح ، فلقد كان لابن إسحاق ، ولأبي مخنف ، لوط ابن يحيى ، ولسيف بن عمر ، ولعوانة بن الحكم ، وللمدائني كتب في فتوح البلدان ، راجعها عند دكتورة سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ص٣٠-٣١ وه . السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ص٦٨ وص٩٩-٧١ .

(٢٨) ابن أعثم : الفتوح جـ٧ ص٢٧٨ .

(٢٩) ابن أعثم : السابق جـ٢ ص٣٤٢ وص٣٤٤ -٣٤٥ .

(٣٠) من ص٧٣ -٧٨ . وقد ذكر ابن القوطية من نقل عنهم مرة أخرى فقط ص٩٤ .

(٣١) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة جـ١ ص١٠٠ وص١٠١ .

(٣٢) راجع على سبيل المثال : الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص٢٥١ ، ٢٥٣ ، و٢٥٦ و٢٥٧ و٢٦٢ و٢٦٧ و٢٦٨ .

(٣٣) راجع على سبيل المثال : الطبري : السابق جـ٤ ص٦٨ و١٠١ ، و١٠٣ و٢٤١ و٢٤٤ و٢٤٨ و٢٥٨ و٢٦٧ و٢٦٩ . وما ذكرته يتصل بجزء واحد من تاريخ الطبري ، وباقي الأجزاء تتضمن مادة أخرى عن الواقدي ، وراجع على سبيل المثال جـ٣ ص٤٢٥ و٤٤١ .

(٣٤) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص٦ وص٧-٨ و١٣ و٢٤ .

(٣٥) راجع المقريزي : الخطط جـ١ ص٧٤ و٧٦ و٧٨ و٧٨-٧٩ و١٥٨-١٥٩ و١٦٣-١٦٦ و١٩٥ و٢٠٤ و٢٨٧-٢٩٣ .

(٣٦) راجع المقريزي : السابق جـ١ ص٢٠١ .

(٣٧) عده الدكتور / السيد عبد العزيز سالم ضمن كتب "الخطط" . راجع : التاريخ والمؤرخون العرب ص٢٤٢ .

(٣٨) عن اعتماد هذا الكتاب على ابن عبد الحكم راجع حـ١ ص١١ ، ٥٥ ، ٩٤-٩٥ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢ و١٠٩-١١٩ و١٢٢ و١٢٣ و١٣٠ و١٣٤ و١٣٦ و١٤٣ و١٥٦-١٥٨ و٥٨٨ وحـ٢ ص١٣٥ و٣٧٤ و٣٧٨ وعن اعتماده على الواقدى راجع حـ١ ص١٠٢ و٥٨٥ .

(٣٩) راجع ياقوت : معجم البلدان حـ١ ص٢٣٦ و٢٨٩ و٣٢٨ و٥٣٣ و٣٦١ و٤٣٢ و٤٣٤ وحـ٢ ص٥٩ و٨٠ و٨٥ .

(٤٠) راجع ياقوت : السابق حـ٢ ص٣٢ وراجع حـ١ ص٣٠٢ .

(٤١) راجع الأنساب للسمعانى حـ٣ ص٣٠٥ و٣٧٨ و١٦٤ .

(٤٢) راجع الإيناس لابن المقرىء ص١٣٥ و٢٤٣ .

(٤٣) نقل ابن حجر العسقلانى فى "رفع الإصر" عن ابن عبد الحكم فى الجزء الأول ص٢٥ ، وص٤٤ و٢٢٩ وراجع حـ٢ ص٢٦١-٢٦٢ و٢٨٢ و٢٨٤ و٣٠٥ و٣١٨-٣١٩ و٣٧١-٣٧٢ على سبيل المثال .

(٤٤) راجع على سبيل المثال ماتقله الكندى فى كتابه (الولاة والقضاة) عن ابن عبد الحكم ص١٣ و٤٥٣ .

(٤٥) راجع الواقدى : فتوح الشام حـ١ ص١٨ و٧٧ و١٠٠ و٣٠٠ وراجع البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٠٢ .

(٤٦) الواقدى : السابق ص٣٤ .

(٤٧) الواقدى : السابق ص١٥٧ وحـ٢ ص١٤٤ .

(٤٨) راجع فى ذلك البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٥ و١٤١ و١٤٢ و١٨٩ و٣٠٢ و٣٧٠ و٣٧٩ و٣٨٨ و٤٠٥ و٤٠٨ ؛ وراجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤٨ و٤٩ و٥٧ و٥٨ و٥٩ ، وابن أعثم : الفتوح حـ١ ص٢٠٣ و٢٠٩ و٢٦٩ و٢٧٣ وحـ٦ ص٢٩٤ و٢٩٧ وحـ٧ ص١٨٦ و٢٢٣ و٢٢٤ و٢٩٠-٢٩١ وحـ٨ ص٩٨ و٩٩ و١٠٣ و١٠٥ وراجع كتاب الواقدى الذى زخر بالأمثلة الكثيرة ، ومنها على سبيل المثال ص١٠٨ و٢٠٠ .

(٤٩) الواقدى : السابق حـ١ ص٣٣ و٣٧ و٩٣ و١٢٢ وحـ٢ ص١٥٣ .

(٥٠) راجع الواقدى : السابق حـ١ ص٨٠ و٩٤ .

(٥١) الواقدى : السابق حـ١ ص٥٩ وراجع ١٦٢ .

(٥٢) ابن أعثم : الفتوح حـ١ ص٢٧٣ وحـ٦ ص٢٩٤ وراجع حـ٨ ص١٠٢ و٢٢٢ وراجع البلاذرى :

(٥٣) راجع ابن أعثم : السابق حـ٧ ص٢٩٠-٢٩١ وحـ٨ ص٩٨ و٩٩ و١٠٣ و١٠٤ وراجع الواقدى : السابق حـ١ ص٩٦ و١٥٧ و١٦٢ و١٦٣ وحـ٢ ص٥ وراجع البلاذرى : السابق ص٢٥٢-٢٥٣ .

ويكفى هنا ماحدث للعرب المسلمين فى "يوم الجسر" فى رمضان سنة ١٣ هـ ، حيث استشهد منهم أربعة آلاف ، إضافة إلى كثرة الجرحى ، الأمر الذى أدى إلى فزع أهل المدينة المنورة .

(٥٤) راجع الواقدى : السابق حـ١ ص١٣٥ و١٣٩ والبلاذرى : فتوح البلدان ص١٤١ وابن اعثم : الفتوح حـ١ ص٢٦٥ و٢٦٩ .

(٥٥) راجع البلاذرى : السابق ص٢٣٨-٢٣٩ و٤٠١ .

(٥٦) راجع الواقدى : السابق حـ١ ص١٥٧ و١٦٧ و١٦٨ وراجع قبائل أخرى ص١٧٥-١٧٦ .

(٥٧) الواقدى : السابق حـ١ ص٩٤ ولمزيد من التفاصيل عن دور بعض القبائل راجع ابن أعثم : حـ١ السابق ص١٠٤ و٢٥٥ .

(٥٨) البلاذرى : السابق ص١٠٢ .

(٥٩) راجع عن هذا بالتفصيل الواقدى : السابق ص٢٨-٣٢ .

(٦٠) راجع الصفحات السابقة مباشرة عند الواقدى .

(٦١) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٥ .

(٦٢) الواقدى : السابق ص٤١-٤٤ .

(٦٣) راجع بتفصيل شديد الواقدى : السابق حـ١ ص٩٩-١٠٠ و١٠٥ و١٢١ و١٢٥ و١٢٩ و١٢٧ و١٢٨ و١٢٩ و١٣١ و١٣٢ و١٣٥ و١٣٦ و١٣٧ و١٣٨ والبلاذرى : السابق ص١٤١ وابن أعثم حـ١ ص٢٥٣-٢٥٤ و٢٦٠-٢٦١ وص٢٦٦ .

(٦٤) ابن أعثم : السابق حـ١ ص٢٦٦ .

(٦٥) راجع الواقدى : السابق حـ١ ص١٩١ و١٩٩ . ويذكر هنا أيضا أن امرأة عمرو بن العاص كانت معه فى حصار الإسكندرية . ابن عبد الحكم : ص٥٩ .

(٦٦) راجع الواقدى : السابق حـ٢ ص١٩٩ وراجع ص١٢١ .

(٦٧) راجع البلاذرى : السابق ص١٥٧-١٥٩ وعن غزو النساء فى البحر راجع ابن عبد الحكم : السابق ص١٣٠ .

(٦٨) لمزيد من الوقوف على دور المرأة فى المشاركة فى القتال زمن الراشدين راجع الواقدى : السابق حـ١ ص٥٧ وص٦٣ وص٧٤ و١٨٣ وحـ٢ ص٤٦ و٤٧ و١٤٤ و١٤٩ وراجع البلاذرى

(٦٩) البلاذرى : السابق ص١٧١ .

(٧٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٧١) البلاذرى : السابق ص٤٠٣ .

(٧٢) البلاذرى : السابق ص٤٠٩ .

(٧٣) راجع على سبيل المثال الواقدى : السابق جـ١ ص٦-٧ و١٧ و٣٨ و٣٩ و٥٣ و٥٥ و٦٣ و٦٤ و٦٨ وابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٦٢ و٦٨ و١٠٩ و ١١٠ وراجع البلاذرى ، السابق ص١٤٤ و١٤٨ و٢٥٦ و٢٥٧ و٣٠٨ وابن أعثم : الفتوح جـ١ ص٢١٥ و٢١٦ و٢٢٧ و٢٣٠ و٢٩٠ وجـ٢ ص٧٧ وجـ٧ ص٢٣٩ و٢٤٧ و٢٤٨ و٢٩٦ .

(٧٤) راجع البلاذرى : السابق ص٢٦٢ وراجع الواقدى : السابق جـ١ ص١٠٨ و١٨٣ وتابع تطلع أهل المدينة لأخبار الفتوح ص٢٠١ .

(٧٥) راجع الواقدى : السابق جـ١ ص١٤٧ و١٦١ وجـ١ ص٢ و٢٢ و٨٠ و١٠٤ و١٥٦ وابن أعثم : السابق جـ١ ص٢٧١ .

(٧٦) راجع الواقدى : السابق جـ١ ص١٤٣ و١٤٨ وراجع البلاذرى : السابق ص٢٢٨ وابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٢٤ وابن أعثم : السابق جـ١ ص٧١ و٢٢٣-٢٢٥ و٢٩١ .

(٧٧) راجع الواقدى : السابق جـ١ ص٣٢ و٥٨ و٥٩ و٧٤ و٧٨ و٩٢ و١٢٥ و١٣٤ و١٤٤ وراجع ابن أعثم : السابق جـ١ ص١٩٥ .

(٧٨) راجع الواقدى : السابق جـ١ ص١٦ وص٤٠ وص٥٨ وص٧٨ و٩٤ و١٣٨ من نظام الحراسة ، وجـ١ ص١٥ و١١٨ و١٢١ و١٢٦ و١٣٠ و١٣١ و١٣٣ وجـ٢ ص٥ عن الشعارات فى المعارك ، وجـ١ ص٨ وص١٩٥ عن العيون وص١٥٧ عن الكمائن . وراجع البلاذرى السابق ٦٧ .

وراجع ابن أعثم : السابق جـ١ ص١٤٣ و١٤٩ و ١٥٠ وجـ٢ ص٣٩ و٤٤ وجـ٧ ص٢١٨ للوقوف على كثير من أساليب العرب فى الحروب ، وراجع ابن أعثم جـ٣ ص٥٥ و١٩٥ و٢٠٨ و٢١٢ و٢٣٨ و٢٦٥ للوقوف على صورة العربى القتالية بصورة عامة فى هذه الفترة التاريخية .

(٧٩) راجع هذه الرسائل عند البلاذرى : السابق ص٧١ ، و٧٢ ، و٧٦ ، و٨٩-٩٠ و٩١ .

(٨٠) البلاذرى : السابق ص٨٢ .

(٨١) البلاذرى : السابق ص٤٢٩ .

(٨٢) البلاذرى : السابق ص٤١٥ وراجع ص٤١٧ .

(٨٣) البلاذرى : السابق ص٤١٨ .

(٨٤) البلاذرى : السابق ص١٢٣ .

(٨٥) البلاذرى : السابق ص١٢٨ وراجع أخباراً أخرى عند ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٣-١٤ و٩٤ .

(٨٦) البلاذرى : السابق ص٢٠٣ وللوقوف على أمثلة أخرى لهذه الحرية الدينية راجع البلاذرى : السابق ١٣٠ و١٣٦ و١٣٧ و١٣٨ و١٧٨ و٢٠٤-٢٠٥ .

(٨٧) البلاذرى : السابق ص١٤٧ .

(٨٨) البلاذرى : السابق ص١٤٩ .

(٨٩) راجع البلاذرى : السابق ص١٢٥ .

(٩٠) الواقدى : السابق جـ١ ص٩٠ .

(٩١) الواقدى : السابق جـ١ ص٩٨ و٩٩ وراجع ص٨٩ .

(٩٢) الواقدى : السابق جـ١ ص١٦٤ .

(٩٣) راجع الواقدى : السابق جـ٢ ص٣ . وراجع أمثلة أخرى ص٤ و٦ .

(٩٤) ابن عبد الحكم : السابق ص١٤٨ .

(٩٥) البلاذرى : السابق ص١٨٢ .

(٩٦) البلاذرى : السابق ص٣٧٩ .

(٩٧) البلاذرى : السابق ص١٥٥ .

(٩٨) البلاذرى : السابق ص٣٢٤ وهذا النص مهم جداً فى بيان دور العرب فى الدعوة للإسلام بين أهالى البلاد المفتوحة ، إضافة إلى دور الخلفاء والأمراء والولاة ، وراجع عن ذلك أيضاً البلاذرى : السابق ص١٥٨ و٢٣٣ و٢٣٧ ، وراجع بصفة عامة ص٧٩ و٨٧ .

(٩٩) البلاذرى : السابق ص١٨٢ .

(١٠٠) البلاذرى : السابق ص٤٠٠ .

(١٠١) البلاذرى : السابق ص٤٣٠ . وراجع أيضاً ٤١١ .

(١٠٢) راجع للوقوف على أمثلة أخرى البلاذرى : السابق ص٢٣٧ ، وص٢٧٤ وص٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٤٢٥ وراجع الواقدى : فتوح الشام جـ٢ ص٢١ وراجع ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص٨٦ .

(١٠٣) راجع على سبيل المثال البلاذرى : السابق ص٤٢٠ وابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٤٣ .

(١٠٤) راجع فى ذلك البلاذرى ص٨٤ و٩٧ و١٠٢-١٠٣ وراجع أيضاً ص٢٧ و٣٤ وص٩٧ و١٣٥ .

(١٠٥) راجع البلاذرى : السابق ص٢٨ و١٥٠ و٢٨٨ و٣١٨ و٣٤٥ و٣٤٦ .

(١٠٦) راجع البلاذرى : السابق ص٢٨ و٤٨-٤٩ و١٥٧ و١٨٤ و٢٩١ و٢٩٢ و٢٩٧ وراجع عن إقطاع الأراضى بصفة عامة البلاذرى : ٢٧٢ و٢٩٧ وراجع ص١٣٩ و١٥٣-١٥٤ و٣٩١ و٣٦٢ و٣٧٨ . وابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٩٤-٩٧ .

(١٠٧) راجع البلاذرى : السابق ٢٨٨ و٢٩٧ .

(١٠٨) البلاذرى : السابق ص٩٩ .

(١٠٩) راجع البلاذرى : السابق ص٥٨ وص٢٩٧ وراجع ص٧٤ و١٤٠ وراجع ابن أعثم : الفتوح جـ٤ ص١٩٨ وراجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٧٦ و٨٣ .

(١١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٠٤ .

(١١١) للوقوف عليها راجع البلاذرى : فتوح البلدان ص١٤٩ و٢٧٣-٢٧٤ و٢٨٤ و٢٨٨ و٢٨٩ و٢٩١ و٢٩٥ و٣٥١ و٣٥٢ و٣٥٣ و٣٥٦ و٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ و٣٦٣ و٣٦٤ .

وعن تعليمات النبى صلى الله عليه وسلم الخاصة بمنى الأرض راجع ص٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ فى كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى .

(١١٢) راجع ابن عبد الحكم : السابق ص٨٤ و٨٦ و٨٧ و١٦٠ .

(١١٣) راجع على سبيل المثال : البلاذرى : السابق ص١٨٤ وراجع عن بناء وإقامة أسواق جديدة ص٢٨٤ و٢٩٣ .

(١١٤) راجع البلاذرى : السابق ص٢٩٧ وراجع أيضاً ص٢٨ وراجع أخباراً أخرى عن الأسواق والتجار ص١١٠ و١١٢ . وعن بعض المعاملات التجارية راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١١٤ .

(١١٥) راجع البلاذرى : السابق ص١٢٤-١٢٥ وابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص١١١ .

(١١٦) عن عمال وولاة النبى صلى الله عليه وسلم على البلاد والمدن راجع البلاذرى : السابق ص٤٨ و٥٣ و٧٠ و٨٠ و٩٢ و١٢٦ .

(١١٧) عن ولاة الخلفاء الراشدين وعمالهم على المدن والأقاليم المفتوحة ، راجع البلاذرى : السابق ص٦٨ و٦٩ و٩٢-٩٣ و١١٢ و١٣٥ و١٤٥ و١٤٦ و١٨٣ و١٨٨ و٢٠١ و٢٠٧ و٢٦٩ و٢٧٨-٢٧٩ و٣٠٦ و٣١٤ و٣١٥ و٣٢٢ و٣٢٣ و٣٢٤ و٣٢٧ و٣٣٠ ، وراجع الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص١٨٩ و١٩٠ .

وعن ولاة الخلفاء الأمويين راجع ص٢١ و٦٦ و٦٩ و٨٨ و١٤٦ و٢٠٨ و٢٠٩ و٢١١ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٣٤ و٣٣٠ و٣٤٢ و٣٦٣ و٣٨٨ و٣٨٩ و٣٩٠ و٣٩١ و٣٩٢ و٣٩٩ و٤٠٠ و٤٠١ و٤٠٦ و٤٠٧ و٤١٥ و٤١٦ و٤١٧ و٤١٨ .

وراجع ابن أعثم : الفتوح جـ٨ ص١٨٧ و١٩٩ و٢٠١ و٢٠٤ .

وعن ولاة العباسيين راجع البلاذرى : السابق ص٢٤ و٦٠ و٨٨ و١٩١ و١٩٤ و٢١١ و٢١٣ و٣١٩ و٣٢٥ و٣٣٤ و٣٩٢ .

وللوقوف على قضاة مصر بصفة خاصة راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٤٩-١٥٣ ولمعرفة من تولى الشرطة بمصر بصفة خاصة راجع ابن عبد الحكم : السابق ص٧٧ و٧٨ و٩٨ و١١٤ و١٥٣ . وقد ذكر ابن أعثم صاحب شرطة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان جـ٤ ص١٦٩ و١٧١ و٢٥٢ .

وللوقوف على وزراء الأندلس راجع ابن القوطية ١٠٨-١٠٩ و١١٣-١١٤ .

وللوقوف على قضاة الأندلس راجع ابن القوطية ص٩٧-٩٨ و١٠٩-١٠٧ .

وللوقوف على ولاة الأندلس راجع ابن القوطية ص٨٠ و٨١ .

(١١٨) البلاذرى : السابق ص٤٣٥-٤٤٧ .

(١١٩) البلاذرى : السابق ٤٥٠-٤٥٦ .

(١٢٠) البلاذرى : السابق ص٢٩٨ .

(١٢١) راجع على سبيل المثال البلاذرى : السابق ٤٤٧-٤٤٨ .

(١٢٢) عن هذه الدواوين راجع البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٣٣-٤٣٥ و٤٤٧-٤٥١ و٤٥٦-٤٩٠ وراجع ابن عبد الحكم : السابق ص٨٨ و١٣٩ وراجع ابن أعثم : السابق جـ٨ ص٨١-٨٢ .

(١٢٣) عن المدن المنشأة على أيدى العرب أو المعسرة راجع البلاذرى : السابق ص١٣٩ و١٤٩ و١٥٨ و١٨٣ و١٨٤ و٢٢٩ و٢٣٠ و٢٨٥ و٢٨٨ و٢٩٣ و٢٩٥ وص٣١٥ و٣١٩ و٣٣٤ و٣٣٥ و٣٣٦ و٤٣١ و٤٣٢ . وعن تحصين هذه المدن أو بناء الحصون بالشعور راجع ص١٢٣ و١٣٤ و١٩٧ و١٦٩ و١٧١ و١٧٢ و١٧٣ و١٩٠ و١٩٢ و١٩٣ و١٩٤ و٢٠٢ و٢٠٦ و٢٠٧ و٣٢٥ وراجع ابن عبد الحكم : السابق السابق ص١٣١ و١٣٣ .

(١٢٤) عن المساجد التى بناها العرب راجع البلاذرى : السابق ١٣٤ و١٣٥ و١٣٩ و١٤٩ و١٨٢ و٢٧٤ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٨٣-٢٨٤ و٢٨٨ و٢٩٥ و٣١٥ و٣١٨ و٣١٩ .

وراجع ابن القوطية : السابق ص٩٧ و١٠٩ و١١١ .

وراجع ابن عبد الحكم : السابق ص٧٦ و٨٥ و٨٦ و٨٧ و٩٣ و٩٥ و١٢٠ و١٢٦ و١٥٤ و١٥٦ .

وراجع الواقدى : فتوح الشام حـ١ ص١٥٥ وحـ٢ ص٤٢ و١٩٣ و١٦٠ وراجع ابن أعثم : السابق حـ٢ ص١٢٧ .

(١٢٦) عن حمامات البصرة ومساهمة النساء فى بنائها راجع البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٤٨ .

(١٢٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٤٧ ، وراجع ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص١١٤-١١٥

وراجع الواقدى : فتوح الشام حـ١ ص٥٤ .

(١٢٨) راجع البلاذرى : السابق ص١٣٥ .

(١٢٩) راجع البلاذرى : السابق ص٢٣٥ و٢٦٩ و٤٢٣ و٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣١ و٤٣٢ .

المصادر والمراجع

١- البلاذرى : فتوح البلدان . دار الكتب العلمية - بيروت .

٢- ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦١ . القاهرة . تحقيق : د. حامد عبد المجيد . مراجعة : إبراهيم الإبيارى .

٣- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . بيروت - لبنان .

٤- السمعانى : الأنساب . تحقيق عبد الله البارودى . دار الجنان - بيروت .

٥- السيوطى : حسن المحاضرة . تحقيق محمد أبو الفضل . بيروت - لبنان . دار سريدان .

٧- ابن أعثم : كتاب الفتوح . دار الندوة الجديدة - بيروت - لبنان .

٨- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . تحقيق محمد صبيح . مؤسسة دار التعاون .

٩- ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . دار الثقافة - لبنان .

١٠- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . تحقيق د. عبد الله الطباع . مؤسسة المعارف - بيروت - لبنان .

١١- الكندى : الولاة والقضاة . تهذيب وتصحيح رفن كست . مؤسسة قرطبة . بيروت - لبنان .

١٢- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان - الخانجى .

١٣- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الطبعة الثانية .

الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧م .

١٤- ابن المغربى : الإيناس فى علم الأنساب . نشر : حمد الجاسر - الرياض .

١٥- الواقدى : فتوح الشام . المكتبة الشعبية . بيروت - لبنان .

١٦- ياقوت الحموى : معجم البلدان . دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان .

١٧- د. سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى . الخانجى .

١٨- د. عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب . لبنان - بيروت .

د. علي منصور نصر (*)

أضواء جديدة على كتاب
مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (**)

يعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر من أهم الكتب التي ظهرت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري بالنسبة لتاريخ العرب خاصة ولتاريخ المسلمين ومن قبلهم من الأمم والشعوب الأخرى بصفة عامة . ولايمكن أن نتعرف على أهمية هذا الكتاب إلا من خلال دراستنا لشخصية المسعودي . ثم لدراستنا لمنهجه في الكتابة التاريخية للكتاب نفسه ، لنتعرف على مدى أهميته لتاريخ العرب .

أما عن مؤلف الكتاب فهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي كما ورد في كتابه مروج الذهب[1] . يتصل نسبة بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، ولذلك ذاعت شهرته باسم المسعودي[2] .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك ورئيس قسم الدراسات العامة - كلية الآداب - جامعة البحرين.

(**) اعتمد الباحث في هذه الدراسة على الطبعة الأولى لكتاب مروج الذهب ، التي نشرت بعناية دار القلم ببيروت في عام ١٩٨٩ والتي جاءت في أربعة مجلدات في أكثر من ١٥٠٠ صفحة قام على تحقيقها والتعليق عليها الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي رئيس دائرة الشئون الدينية بدار الفتوى بلبنان.

ومن أسف فإن جوانب عديدة من شخصية المسعودي وحياته مازالت مجهولة ، ولاتعرف عنها الكثير ، ونبذل محاولة لإجلاء ماغمض من حياته وسيرته بقدر المستطاع . ذلك أن هذه المؤرخ الجليل عاش معنيًا بالعلم وبالعالم وبالعلماء - والمؤرخين وبالجغرافيا وغيرها من أنواع العلوم والمعارف ، وغير ذلك مما أهمله التاريخ ، فلم تذكره كتب الطبقات إلا في فقرة واحدة ، وردها في سطور ، ولم يكتب المؤرخون أم الكتاب الذين جاءوا بعده شيئا عن حياته [٣] . أو عن دراسته ومعاهد علمه . وكل مانعرفه عنه أنه عربي قح ، فهو من نسل عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل كما سبق القول ، وأنه عراقي المنشأ والمولد[٤] ، بغدادي الأصل والإقامة[٥] . لم تذكر المصادر التاريخية وغيرها على تنوعها سنة ميلاده ، واكتفت فقط بذكر سنة وفاته ، واختلفت في ذلك ، وأغلبيتها تقول أنه توفي في عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م في مدينة الفسطاط بمصر ، وكان قد رحل إليها منذ عام ٣٣٠هـ/٩٤١م[٦] وقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته منتقلا بينها وبين سوريا حتى استقر أخيراً في الفسطاط وبها توفي في العام المذكور[٧] .

تلقى المسعودي تعليمه في بغداد حيث نشأ وترعرع ، وتلقى العلم عن إبراهيم بن الحسن بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه وابن زبر القاضي وغيرهما[٨] وكان يحضر مجالس العلم التي اشتهرت بها بغداد ، وتشير المصادر إلى أحد هذه المجالس ، وهو مجلس ابن العباس بن سريج حيث حضر المسعودي مجلسه في غلته التي مات بها هذا الفقيه البغدادي في عام ٣٠٦هـ/٩١٨م ، وأخذ عنه المسعودي "رسالة البيان عن أصول الأحكام" وقد حضر المسعودي هذه المجلس في جمع غفير من علماء الشافعية والمالكية ومن الكوفيين وغيرهم ، وذلك لعيادة ابن سريج في مرضه ، حيث دخل عليه رجل بكتاب مختوم وارد من بلاد الشاش من بلاد ما وراء النهر يطلبون منه رسالة في أصول فقه الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه وداود ، بكلام واضح ، فأملى أبو العباس بن سريج لبعا ذكر المسعودي بعضها وعجز لضعفه عن إملاء الباقي ، فقرئ عليه والمسعودي يسمع[٩] . فأخذ المسعودي عنه هذه الرسالة التي أمليت في ذلك الوقت ، وهي رسالة البيان عن أصول الأحكام .

لم يكتف المسعودي بطلب العلم في بغداد وإنما رحل في طلبه إلى مدن وبلاد أخرى . فرحل إلى البصرة حيث لقي بها أبا خليفة الجمحي وأخذ عنه[١٠] ، ثم قام برحلاته العديدة التي

هذه البلدان ، وحتى يبعد عن عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تموج بالفتن والدسائس التي كان يروج ضحيتها أبرياء من العلماء والأدباء والفقهاء بسبب وشاية أو دسيسة من هذا أو ذاك من الحاقدين أو الدساسين أو المتطلعين لإحراز مكانة عند هذا القائد أو ذاك الوزير أو الأمير أو الخليفة . ذلك أن عصر المسعودي كان عصر اضطراب ومحن سياسية ، كما كان عصر اضطراب في الأفكار والمعتقدات الدينية نظراً لتنوع المذاهب الدينية وتعددها ، وقيام التشاحن والخصومة بين معتنقيها ، مما دفع بكثير من العلماء أو طالبي العلم إلى اللجوء إلى بلدان الأطراف أو السياحة داخل العالم الإسلامي وخارجه فراراً من هذا الجو الذي كانت الخلافة العباسية تعاني فيه كثيراً من مظاهر الضعف والامتهان والذلة بسبب سيطرة الأتراك عليها منذ عام ٢٣٢هـ/ ، واستمرار هذه السيطرة حتى قبل وفاة المسعودي باثني عشر عاماً حينما تلقفها مستبدون آخرون كانوا أشد عليها قوة واستبداداً وهم البويهيون . وقد عاش المسعودي عصر أولئك وهؤلاء ورأى بنفسه ما حل بالخلافة والدولة على أيدي هؤلاء المتغلبين القساة ، ومن ثم اشتغاله بالعلم وانكبابه على التأليف ، مثله في ذلك مثل معاصره أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م والذي يشابهه في كثرة الانتاج العلمي والذي فعل ذلك هو الآخر ليكون بمنجاة من الوشايات والدسائس السائدة في ذلك الوقت[١١] . فكانت رحلات المسعودي العديدة التي جمع فيها من الحقائق التاريخية والعلمية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد .

ولتحقيق هذه الغاية خرج المسعودي من بغداد في رحلته الأولى وكان في فارس وكرمان عام ٣٠٠هـ/٩١٢م[١٢] . وفي العام التالي (٣٠١هـ/٩١٣م) زار بلاد السند والهند وخاصة بعض مدنها مثل بلتان والمنصورة ، وفي عام ٣٠٣هـ/٩١٥م دخل المسعودي كنباية من أرض الهند كما ذكر ذلك بنفسه ، كما ذكر أنه قام في مدينة كمباي وسيمر في عام ٣٠٤هـ/٩١٦م) ومر بجزيرة سرنديب (سيلان حاليًا) ، ثم ركب البحر من هذه الجزيرة وعبر المحيط الهندي حتى وصل إلى جزيرة قنبلو التي تعرف الآن باسم مدغشقر أو مالاجاس ، ومنها عاد إلى سلطنة عمان في نفس العام[١٣] . ويبدو أنه عاد إلى بغداد بعد ذلك حيث سبق القول أنه كان فيها في عام ٣٠٦هـ/٩١٨م حيث حضر مجلس أبي العباس بن سريج[١٤] .

ويقول المسعودي أنه ركب عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن وبحر الزنج[١٥] ، مما يدل على أنه زار البلاد التي تطل على هذه البحار مثل الصين وأذربيجان

وجرجان التي اتجه منها جنوبا إلى بلاد الشام فكان في بلدة طبرية بفلسطين في عام ٣٦٤هـ/٩٢٦م ، ومنها انتقل إلى أنطاكية في سوريا الشمالية[١٦] وفي عام ٣٣٠هـ/٩٤١م كان المسعودي في مصر حيث حضر ليلة الفطاس[١٧] وهو عيد من أعياد المسيحيين في مصر، وفي عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م كان في مدينة الفسطاط بمصر [١٨] وهي السنة التي انصرف فيها إلى وضع كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر . وكان قد اضطر إلى مغادرة العراق والذهاب إلى مصر في ذلك التاريخ لاضطراب الأحوال السياسية والأمنية في تلك البلاد في ذلك الحين والتي أشرنا اليها من قبل ، ونراه يشير إلى أنه كان في فسطاط مصر في عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م[١٩] وهي السنة التي انتهى فيها من تنقيح كتابه المروج أو مراجعته والإضافة إليه في ذلك العام[٢٠] ثم قضى المسعودي السنوات العشر الأخيرة من عمره متنقلا بين مصر والشام إلى أن استقر أخيراً في الفسطاط بمصر . فتراه فيها في عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م حيث وضع في العام التالي كتابه الأخير أو آخر كتاب له وهو كتاب التنبيه والإشراف حسبما قال ذلك بنفسه في نهاية هذا الكتاب[٢١].

وكان حصيلة هذه الرحلات العديدة كتبًا كثيرة متنوعة المقاصد والغايات وردت أسماؤها ضمن كتابه مروج الذهب فقيه وردت أسماء اثني عشر كتابًا ، كما ورد في كتابه التنبيه والإشراف الذي ألفه قبل وفاته بعام أسماء اثنين وعشرين كتابًا[٢٢] وللأسف الشديد فقد ضاعت هذه الكتب ولم يبق لنا منها إلا جزء واحد من كتابه الكبير "أخبار الزمان ومن اباده الحدثان من الأمم الماضية والممالك الدائرة" والذي كان يقع في ثلاثين مجلداً ، وهو أول وأضخم ما ألف المسعودي من كتب [٢٣] ، ويكثر المسعودي من الإشارة إليه في كتابه المروج ، وكتاب ثان هو الكتاب الأوسط وهو تلخيص للكتاب السابق ، ويكثر المسعودي أيضًا من الإشارة إليه في كتابه المروج . وتوجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة أكسفورد . كما بقي كتاب ثالث هو كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر الذي نشير إليه أحيانًا باسم المروج وهو موضوع بحثنا الآن . ويذكر المسعودي أن هذا الكتاب ماهو إلا "إيجاز لما بسطه واختصار لما كتبه" في كتابه الأول والثاني اللذين ذكرناهما[٢٤] . وكان آخر الكتب التي ألفها المسعودي هو كتاب التنبيه والإشراف وذلك في عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م والذي قال عنه أنه يضم لمعًا من كتبه السابقة الذكر "استذكاراً لما تقدم من كتبنا منبهين على ما أسلف من تصنيفنا"[٢٥] ، وأن هذا الكتاب ماهو الا مختصر لهذه التصانيف[٢٦] .

ومعنى ذلك أن المسعودي كان يستنبط كتابًا جديداً من كتب سلف له تأليفًا أثناء فترات الراحة التي كان يقضيها بين رحلاته العديدة التي قام بها أو أثناء قيامه بهذه الرحلات التي امتدت عبر مسافة طويلة من الزمن بلغت حوالي أربعين عامًا . وينطبق هذا القول على كتابه موضوع البحث وهو مروج الذهب ومعادن الجوهر .

وقبل أن نتحدث عن منهج المسعودي في تأليف وكتابة هذا الكتاب ، لابد أن نشير إلى نقطة هامة لم يسبق لنا التعرض لها في حديثنا عن شخصيته وعن تعلمه في بغداد والبصرة وغيرها . هذه النقطة خاصة بمذهبه الديني الذي كان يعتنقه ، لأنه من المعروف لدى المؤرخين أن مذهب الإنسان لابد وأنه مؤثر في نظرته للأمور والحكم على الأشياء ، إلا من تجرد من عاطفته وميله المذهبي أو الديني ، وحكم على الأمور بموضوعية ، وهؤلاء قليلون فأين كان موقع المسعودي بين هؤلاء ، وأولئك ؟

الحقيقة أن المصادر التاريخية والدينية التي وصلت إلينا تشير إلى أن المسعودي كان معتزليا . قال بذلك الذهبي[٢٧] وتاج الدين السبكي[٢٨] . بينما ذكر ابن حجر العسقلاني إنه كان شيعيا معتزليا ، ويبرر هذا القول بأن كتبه طافحة بذلك مستشهدا بما ذكره المسعودي عن "الأشياء التي استحق بها الصحابة التفضيل -- وأن لعلي بن أبي طالب من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر"[٢٩] .

أما المراجع الحديثة فقد ورد في اثنين منها أنه كان معتزليا شافعيًا[٣٠] وجعله مرجع ثالث- هو كتاب أعيان الشيعة - شيعيا أو عده ضمن الشيعة ، حيث ورد اسمه والتعريف به في سطرين ضمن أعيان الشيعة والذين أرخ لهم صاحب هذا الكتاب[٣١] .

غير أن ابن خلدون وهو من هو في نقد المصادر التاريخية وفي منهجه الصحيح الذي عاد إليه في كتابه التاريخ ، نراه لايذكر شيئا عن عقيدة المسعودي وجعله ضمن المؤرخين القليلين الذين اشتهروا "بالأمانة المقيدة" وإن كان في كتبه وكتب الواقدي وكما يقول ابن خلدون "من المطعن والمفخر ماهو معروف عند الأثبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات" إلا أن الكافة اختصهم بقبول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم"[٣٢] . وقد وصلت تزكية ابن خلدون للمسعودي بأن جعله "إماما للمؤرخين يرجعون إليه ، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أنباء [illegible][٣٣] .

ولو كان المسعودي من أثرت فيه اتجاهاته المذهبية أيا كانت هذه المذاهب لما زكاه وعدله ابن خلدون على هذه النحو الممتاز . أما المطعن والمفخر الذي أشار اليه ابن خلدون في كتابات المسعودي فإنما يعود على الأرجح ليس إلى عقيدة المسعودي المذهبية ، وإنما يعود إلى أن المسعودي نقل هذه المطاعن عن كتب التواريخ والسير والأنساب التي وقعت تحت يده ، وهو يوردها ليس على أنها رأي له ، وإنما رواها من قبل الأمانة العلمية . فعلى سبيل المثال يقول عن البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة أنه "ذكر أخبار من قعد عن البيعة ، ومن بايع ، وما قالت به بنو هاشم ، وما قاله أصحاب النص والاختيار في الأمانة ، ومن قال بإمامة المفضول وغيره"[٣٤].

وهكذا ترى المسعودي قد أورد جميع الآراء المتعلقة بمثل هذا الأمر الذي اختلف فيه المؤرخون الأولون ، واختلف فيه أصحاب الفرق والمذاهب فلم يفضل المسعودي رواية على أخرى ، أو رأيا على آخر ، وإنما أورد جميع الآراء .

وربما يعود هذا المفخر والمطعن إلى ما ورد عند المسعودي من رواية عن جعفر الصادق يسند ينتهي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورد فيها عبارات وألفاظ تدل على عقائد الشيعة مثل الأمان - الحجة - الولاية[٣٥]. والرواية وردت عن المسعودي عن كتب التواريخ والسير والأنساب التي لايذكر المسعودي أسماءها ، تتحدث عن أن آدم حزن لما علم بقتل هابيل وأن القاتل مقتول فأوحى الله إليه بعبارات ورد فيها أنه مخرج منه نوره - يقصد محمداً رسول الله - وأجعله خاتم الأنبياء ، وأجعل آله خيار الأئمة الخلفاء ، وأختم الزمان بهم ، وأفض الأرض بدعوتهم ، وأنشرها بشيعتهم"[٣٦] . كما أورد المسعودي رواية أخرى عن هشام بن الحكم الكوفي الخزاز في مناظرة وقعت بين هذا الرجل وبين عمر بن عبيد قال فيها الأول إن "الإمامة تعس من الله ورسوله على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعلى من بلي عصره من ولده كالحسن والحسين ومن بلي أيامهم"[٣٧] .

ويذكر المسعودي أنه نقل هذه الروايات عن كتب التواريخ والسير والأنساب[٣٨] ، وأنه لم يكن مبتدعا لها ، وأنها مأخوذة أيضاً عن "أهل الإمامة" الذين قالوا بالنص من علي إلى ابنه الحسن وهكذا حتى الإمام الثاني عشر ، وهم الأئمة المعصومون عند أصحاب هذا المذهب[٣٩].

وإذا كان المسعودي قد أورد هذه الروايات التي تدل على أن الامامة لاتكون إلا بالنص ،

الأمة في سائر الأعصار" وقال إن هذا هو رأي المعتزلة وشيخهم والمقدم فيهم وهو عمرو بن عبيد المتوفى عام ١٤٤هـ[٤٠] ، وأنهم يدللون على ذلك بقولهم "إن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه ، وان اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان ، ولم يراعوا في ذلك ولاغيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك"[٤١].

واضح إذن من الروايات التي أوردها المسعودي عن الشيعة وعن المعتزلة بالنسبة لموضوع الإمامة أنه كلام أهل هاتين الفرقتين ، وأنه مجرد ناقل عن "أرباب المقالات وأهل المذاهب والجدل والآراء والنحل ، وغيرهم من الفقهاء ، وأصحاب الحديث" وما جاء في "أخبارهم ومناظراتهم وتباينهم في مذاهبهم "وأنه أورد هذه الأخبار ليس في كتابه مروج الذهب وحده ، وإنما ذكرها من قبل في كتابه "أخبار الزمان" وكذلك في "الكتاب الأوسط"[٤٢].

وعلى ذلك فإن منهج المسعودي في تناوله للأخبار والآراء هو منهج متوازن لايميل إلى رأي دون آخر ، وهذا التوازن والاعتدال جعله يروي على سبيل المثال سفراً قيل في مدح قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، وسفراً قيل في ذمه أيضاً[٤٣] . كما ذكر أن عليا لم يعهد لأحد من أولاده[٤٤] ، وذلك بخلاف رأي الشيعة من أهل النص في الإمامة ، بل أنه ينتقد في بعض الأحيان مايراه خارجاً عن السيرة الحسنة والمنهج القديم حتى لو أتى هذا الأمر من علويين قيل أن المسعودي كان على مذهبهم ، أو أنه كان معتزليا شيعيا كما سلف القول . من ذلك انتقاده لأحد الطالبيين" وهو ابراهيم بن موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام في عام ٢٠٢هـ على أنه أقامه مستغلب عليه، لاتولي من قبل خليفة ، وكان سخن سعى في الأرض بالفساد ، وقتل أصحاب ابراهيم بن عبيد الله الحجبي وغيره في المسجد الحرام ، ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي وغيره من أهل العبادة[٤٥] .

كذلك انتقد المسعودي علويا آخر ووصفه أيضا بالفساد العظيم وهو اسماعيل بن يوسف العلوي الذي تسبب في إبطال الحج إلا يسيرا في عام ٢٩٦هـ وذلك "لأن

على الحاج وهم معرقة في جموعه ، فقتل من المسلمين خلقا عظيما حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى ، وكان شأنه في الفساد عظيما»[٤٦] .

يضاف إلى ذلك أن المسعودي كان يمتدح في كتاباته الخلفاء الراشدين الأربعة جميعهم ، ويروى موقف الإمام علي بن أبي طالب من قتل عثمان بن عفان ، وأنه كان موقف استنكار وحزن شديد فقد «دخل (علي) الدار رأى دار عثمان بعد قتله - وهو كالوالد الحزين ، وقال لأبنيه الحسن والحسين وقد كان مع بني أمية وغيرهم ممن يحرسون الدار كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير»[٤٧] .

وعندما يتحدث المسعودي عن أول الخلفاء الفاطميين وهو عبيد الله المهدي المعاصر له ، لايذكره إلا باسم صاحب المغرب ، ولايذكر محاولة غزو مصر في عام ٣٠٢هـ/٩١٤م إلا بأنها غارة للبربر على مصر[٤٨] مما يدل على أنه لم يتلون مذهبيا ، وأنه يتصف في رواياته بالتوازن والاعتدال وذكر الحقائق من مصادرها الصحيحة ، سواء كانت في هذا الجانب أو ذلك من أصحاب الفرق والمذاهب ، وسواء كان يميل هو شخصيا إلى أي من هذه الفرق أو لايميل ، وهذا يدفعنا إلى تناول منهجه في البحث والكتابة التاريخية .

منهج المسعودي في الكتابة التاريخية في كتاب المروج :

في هذا الشأن يمكن أن نشير إلى ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : تتعلق بكيفية جمع مادته التاريخية وغيرها ، فهل استقى هذه المادة من المصادر الأدبية وحدها ؟ أم لجأ إلى مصادر أخرى ؟ وهل نقد وفحص مصادره أم نقل عنها دون نقد أو تمحيص ؟

النقطة الثانية : هي طريقته التي اتبعها في تدوين الأحداث والأخبار والمعلومات ، هل هي الطريقة الحولية ، أي ذكر الأحداث حسب السنين كما فعل الطبري ، أم طريقة التأليف حسب الموضوعات كما تبعها بعض المؤرخين الذين أتوا بعده مثل ابن خالدون وغيره ؟ وهل اتبع أسلوب الإسناد في رواياته أم جاءت هذه الروايات مرسلة دون إسناد أو توثيق ؟

النقطة الثالثة : هي موضوعيته وحياده ، فهل كان محايدا في كتابته وسرده وتحليله للأحداث ؟ أم أنه كان يميل مع الهوى الشخصي ، ويلون الأحداث كلها أو بعضها بلون يتفق مع آرائه ومبادئه الشخصية ؟

أولا : كيفية جمع المسعودي لمادته التاريخية وغيرها :

نستطيع القول بناء على دراستنا لكتابه مروج الذهب أن المسعودي استقى مادته التاريخية وغيرها من مصادر متنوعة ، أولها كتب الأخبار والأنساب والسير والتاريخ والأدب والجغرافيا وغيرها ، وهو مايعرف عادة بالمصادر الأدبية . وثانيها المشاهد والمعاينة لما رآه وشاهده في أسفاره ورحلاته العديدة التي قام بها والتي أشرنا اليها . وثالثها الروايات الشفوية التي سمعها ممن قابلهم في تلك الرحلات والأسفار ، ورابعها النقوش والكتابات التاريخية الأثرية التي وجدها على جدران أو أبواب بعض المنشآت في بعض الأماكن والبلدان التي زارها .

١- المصادر الأدبية :

يلاحظ أن المسعودي في كتابة المروج استخدم المصادر الأدبية الأصلية والموثق بها والتي كتبت في زمانه وقبل زمانه وتتفاوت هذه المصادر قلة وكثرة حسب الموضوع أو حسب العصر وعما إذا كان ثريا في مصادره أو كان فقيرا في ذلك . وعلى العموم فقد أورد المسعودي في صدر المروج قائمة كاملة بالمصادر الأدبية التي اعتمد عليها ، فذكر أسماء المؤلفين من إخباريين ومؤرخين وجغرافيين وأدباء وشعراء وكتاب ونحويين وفقهاء وأصحاب الفرق والمذاهب المختلفة من المتكلمين والمعتزلة والخوارج والشيعة وأهل الحديث والسنة الذين يسميهم أهل الشريعة ، وكذلك المنجمين والفلكيين والنسابين والفلاسفة وغيرهم من أصحاب العلوم والفنون المختلفة الذين أخذ عنهم واعتمد عليهم في كتابه المروج[٤٩] . وقد ذكر المسعودي في هذه القائمة اسم المؤلف واسم كتابه في بعض الأحيان، واكتفى بذكر اسم المؤلف في معظم الأحيان .

وقد أدى تنوع هذه المصادر الأدبية على هذا النحو إلى أن يكون ليس كتابا تاريخيا بالمعنى المفهوم ، وانما هو موسوعة في التاريخ وغيره من أنواع العلوم والفنون ، يدل على ذلك ما قاله في صدر المروج من أنه لم يترك نوعا من العلوم ولانثا من الأخبار ولاطريقة من الآثار إلا أورده في هذا الكتاب مفصلا أو ذكره مجملا ، أو أشار إليه بضرب من الإشارات أو لوح إليه بفحوى من العبارات[٥٠] ، كما تبين أيضا من التبويب المفصل الذي ذكره في صدر المروج[٥١] .

وقد ساعده على ذلك طبيعته كرحالة وكرجل متعدد الجوانب عارف بشتى أنواع العلوم والفنون، مثله في ذلك مثل غيره من جبل عصره ، وهو عصر الموسوعيين ، كما ساعده أيضا

ما كان يعرفه من لغات ، وهى أيضا صفة للموسوعيين من العلماء . فبجانب اللغة العربية ، كان المسعودى يعرف الفارسية ، يستفاد ذلك من قوله حين تأريخه للفرس إنه أخذ أخبارهم عن علماء الفرس لأنهم "يراعون من تواريخ من سلف ما لايراعيه غيرهم"[٥٢] ، وأنه استعان على ذلك أيضا بما قرأه فى "كتب تواريخ هذه الطائفة بأرض فارس وكرمان"[٥٣] ، ومن حديثه عن الشهور يقول أنه يذكرها بالسريانية والعربية والفارسية[٥٤] كذلك كان المسعودى يعرف القبطية . يستفاد ذلك من قوله "وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير (كلمة) فرعون ، "فلم يخبرونى عن معنى ذلك ، ولاتحصل لى فى لغتهم" [٥٥] أى أنه كان يعرف هذه اللغة . كذلك فإنه كان يعرف اللغة الرومية التى كتب بها الروم تاريخهم ، ويقول المسعودى أن كتب تاريخهم أكثرها بالرومية ، وأن أخبارهم فى كتب النصارى الملكية ، وأنه حكى من ذلك ما تأتى له وصفه من سيرة ملوكهم[٥٦] ، وإن اسم الروم يعود إلى نسبتهم آلى مدينة رومية (روما) ، إلا أن الروم فى لغتهم لايسمى من أنفسهم ولا يدعوهم أهل الفنون إلا رومينس ،[٥٧] مما يدل على معرفته بهذه اللغة .

وعلى غير ماذكر بعض المؤرخين المحدثين من أن المسعودى لم يذكر مصادره إلا فى صدر كتابه (أى القائمة التى أوردها والتى أشرت اليها) وأنه يورد الأخبار دون سند أو مصدر فى المتن وأنه يسرد النص التاريخى كأنه هو صاحبه ، من ذلك أنه فى مقدمة المروج ذكر أسماء الإخباريين والمؤرخين والمصنفين الذين نقل عنهم أو استفاد منهم ولم يذكرهم فى متن الكتاب بين يدى الأخبار [٥٨] . كذلك تبين لنا من دراستنا لكتاب المروج أنه ذكر مصادره فى بداية الروايات والأخبار وللمعلومات التى أوردها على صفحات كتابة التى وردت أكثر من ألف وخمسمائة صفحة فى أربع مجلدات كبار . وبعض هذه المصادر التى ذكرها فى المتن لم ترد فى القائمة التى أوردها فى صدر كتابه مما يدل على أهمية ذكر هذه المصادر التى ذكرها فى صدر الأخبار والمعلومات المنتشرة على صفحات الكتاب .

ففى حديثه عن بدء الخليقة والأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام نراه يعتمد فى حديثه عنهم على الكتب الدينية المقدسة : التوراة ، والانجيل ، والقرآن . فهو ينقل عن التوراة مباشرة فيقول "ووجدت فى التوراة"[٥٩] ثم يحكى الخبر . وكذلك يأخذ عن الإنجيل والقرآن . مثال ذلك قوله إنه "فى الإنجيل خطب طويل فى أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار ، أعرضنا من ذلك لأن الله عز وجل لم يخبرنا بشئ من ذلك فى كتابه (يقصد

القرآن الكريم) ولا أخبر به محمد نبيه صلى الله عليه وسلم (يقصد السنة النبوية)"[٦٠] . وفى مواضع أخرى يجمل القول فيقول" وذكرت أهل الكتاب"[٦١] .

كذلك فإنه اعتمد - بجانب الكتب المقدسة - فى تاريخه للأنبياء والعالم القديم على المؤرخين والعلماء السابقين على الإسلام أو السابقين على عصره من علماء المسلمين وغيرهم ، وكان يذكرهم فى متنة الكتاب وفى صدر رواياته ، يستفاد ذلك من قوله "وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف كابن رابن ، والهيثم بن عدى ، وأبى مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبى"[٦٢] . ومثل "ذكر وهب ابن منبه فى كتاب "المبتدأ والسير"[٦٣] وقد لايفصح عن مصادره فيقول "وذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه"[٦٤] ، ويختم المسعودى حديثه عن مبدأ الخلق وعبر ملوك وأنبياء بنى إسرائيل وغيرهم بقوله : "فهذه جمل مبدأ الخليقة إلى حيث انتهينا من هذا الموضع ولم نشبه بشئ غير ما جاءت به الشرائع ونطقت به الكتب وأوضحت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام"[٦٥] ، بمعنى أنه لم يرجع فى ذلك إلى مشاهدة أو معاينة مما يستحيل القيام به .

ويأتى المسعودى بمصادره فى المتن حين حديثه عن كل شعب أو بلدة أو مملكة أو حينما يأتى بخبر من الأخبار أو فن أو علم من العلوم . ففى حديثه عن النواحى الجغرافية والفلكية من صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من بحار وأنهار وبرك وجزائر ومدن مسكونة وغير مسكونة ، واستدارة الأرض وحرارتها ورطوبتها والمد والجزر إلى غير ذلك من المعلومات الجغرافية والفلكية والطبيعية يأخذ عن أوثق من ألف فى هذه النواحى مثل بطليموس فى كتابه المعروف بالجغرافيا ، أو المجسطى[٦٦] وابن خرداذبة[٦٧] ، وابن قتيبة[٦٨] وحسبن النجم صاحب كتاب الزيج فى النجوم[٦٩] ويعقوب بن اسحاق الكندى وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى[٧٠] ، وأبو معشر المنجم فى كتابه المدخل الكبير إلى علوم النجوم[٧١] ، كما أخذ عن أصحاب الزيجات الآخرين فى كتبهم ، منهم محمد بن جابر النصانى[٧٢] والخوارزمى ، ومحمد بن كثير الفرغانى ، وما شاء الله وحبيش ، والبزيدى ، ومحمد بن جابر البتانى فى زيجه الكبير ، وثابت بن قرة وغيرهم ممن تكلم فى علوم هيآت الفلك والنجوم[٧٣] مثل الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة فى هيئة النجوم والفلك[٧٤] .

وعن الحيوانات التي ذكرها المسعودي في المروج يأخذ في المتن عن الجاحظ في كتابه الحيوان وينتقد الجاحظ فيما قال عن الكركون[٧٥] . كما يأخذ عن عبد الله بن سعيد بن كثير بن عفير المصري ، عن أبيه عن يعقوب بن الحارث بن لجيم ، عن شعيب بن شيبة عن الحارث التيمي[٧٦] ، وعن ابن نمير فيما يرويه عن عكرمة عن ابن عباس[٧٧] وعن الحسن بن ابراهيم الشعبي القاضي يسنده عن ابن عباس[٧٨] ، وعن عيسى بن لهيعة المصري في كتاب المترجم بكتاب "الخلائب والجلائب" فيما ذكره عن الخيل في الجاهلية والإسلام[٧٩] .

وعن النواحي الصحية والبدنية ينقل المسعودي في متن المروج عن الحكيم ابقراط[٨٠] . أما النفس والروح والجوهر ، وغير ذلك من الأمور الفلسفية فقد نقل عن أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، وكذلك عن فيثاغورس[٨١] .

وعن تاريخ الأمم والشعوب في مختلف أنحاء العالم التي جاب المسعودي مواجهها وزارها أو نقل أخبارها من المصادر التاريخية فقد نقل أخبار الهند ومذاهبها عن أبي القاسم البلخي في كتابه "عيون المسائل والجوابات" وعن الحسن بن موسى النوبختي في كتابه "الآراء والديانات"[٨٢] . وعن ملوك الصين وأخبارهم ووصف بلادهم أخذ المسعودي عن أبي زيد الحسن بن يزيد السيرافي مباشرة عندما التقى به في البصرة عام ٣٠٣هـ/٩١٥م[٨٣] ، كذلك أخذ مباشرة من نواخذة السفن السيرافيين والصمانيين بعمان وسيراف وغيرهم ومن التجار ممن كان يختلف إلى هذه البلدان[٨٤] . وعن ملوك الفرس أخذ عن علماء الفرس[٨٥] ، كما أخذ عن محمد بن هشام الكلبي[٨٦] وأبي عبيدة معمر بن المثنى في كتاب "أخبار الفرس"[٨٧] ، وأما أخبار اليونانيين فقد أخذها عن الكندي وبطليموس وغيرهم من الإخباريين المتقدمين[٨٨] ، وأخذ أخبار الروم عن التوراة وعن أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ الكندي ، ومحمد بن موسى المنجم ، والواقدي وابن خرداذبه ، وعن كتب النصارى الملكية وكتب الروم بصفة عامة[٨٩] .

وحينما يتحدث المسعودي عن تاريخ العرب القديم مثل عاد وثمود وبناء ابيت وملوك الحيرة والغساسنة ، وما قيل في ديانتهم وسيرتهم المعظمة وحياتهم الأدبية والاجتماعية ، فإنه يأخذ عن الإخباريين . ويلاحظ أن أخبار بعض بلدان العالم القديم كما هو واضح قليلة المصادر عند المسعودي ، وهناك أمم وشعوب بأكملها روى المسعودي أخبارها وعوائدها وجغرافيتها

وتيلان شاه ، واللان ، وملوك الربانيين وملوك الموصل ونينوى (الآشوريين) وبابل ومصر وملوكها وأخبارها ، والسودان ، والصقالبة والافرنجة ، والجلاسقة ، والتوبكرد وملوكها وغير ذلك من الأمم والممالك والشعوب[٩٠] . وقلة المصادر عن هذه البلدان أغنت عنها المشاهدة والمعاينة التي اعتمد عليها المسعودي في حديثه عن هذه البلدان كما سيأتي في حينه من هذا البحث . أما المصادر التاريخية التي ساعدته في الكتابة عنها فكان يكتفي بقوله "ذكر أهل النباية بأخبار العالم" وذكر الكتابة عنها فكان يكتفي بقوله "ذكر أهل النباية بأخبار العالم" و"ذكر جماعة من أهل العلم" وهكذا من العبارات التي لاتفصح عن أسماء المصادر[٩١] .

أما تاريخ العرب القديم السابق على ظهور الإسلام مباشرة فيما يعرف بعصر الجاهلية وقد أورده المسعودي في أكثر من مائتي صفحة . وقد ذكر في المتن أسماء بعض مصادره مثل قطرب النحوي ، والكلبي ، والترقي الفطامي ، وعبيد بن شريه الجرهمي[٩٢] ، كما أخذ عن آخرين لكنه لايذكر أسماءهم ويكتفي بقوله : "ذكر جماعة من الإخباريين ممن عني بأخبار العرب"[٩٣] ثم يقول : "إنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الإخباريين وعلى حسب ماترجيه الشريعة والتسليم لها ، وليس قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القوم ، لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه ، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب المدينة المنقادين للشرع المسلمين للحق ، وأخبار الشياطين على حسب مانطق به الكتاب المنزل على النبي المرسل ، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم"[٩٤] .

ومعنى ذلك أن المسعودي اتخذ القرآن والسنة وأهل العلم من المسلمين مصدراً له فيما حكاه عن التاريخ القديم للعرب ، غير أنه لايذكر أسماء المؤلفين الذين أخذ عنهم إلا ماذكرناه وهو قليل ، ويغلب عليه الرواية المرسلة دون ذكر سند أو مصدر ، وهو منهج نجده أيضاً عند بعض السابقين عليه مثل الطبري المشهور بإسناده عند ذكر أي رواية تاريخية . ففي حديثه عن التاريخ القديم قبل كلامه عن ملوك الفرس القدامى مثل كيقاوس وكيخسرو ودارا الأكبر ، وخبر الفرس بعد مهلك الإسكندر ، وأخبارهم منذ عهد أردشير بن بابك ومن خلفه من ملوك الأسرة الساسانية حتى زمن كسرى أنوشروان[٩٥] نرى الطبري لايذكر إلا مصدراً واحداً هو هشام بن محمد في قليل من صفحاته ، أما معظم الصفحات التي تحدث فيها عن هؤلاء الملوك فيكتفي بقوله أنه أخذها عن "بعض أهل العلم بأخبار الفرس" ولايذكر أسماءهم[٩٦] .

ومع ذلك فإن المصادر التي ذكرها المسعودي سواء في صدر المروج أو في متنه عن تاريخ الأمم والشعوب القديم ـ ورغم قلتها ـ فهي مصادر أصلية وموثوق بها وبعضها متخصص في تاريخ الشعب أو الدولة التي تحدث عنها مما يعلي من قيمة روايته وتزكيها في هذا المجال .

أما تاريخ الإسلام والمسلمين منذ ظهور الإسلام وحتى عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م وهو العام الذي انتهى فيه المسعودي من كتابه المروج فقد تنوعت مصادره الأدبية وازدادت إلى حد كبير ، وكانت مصادر أصلية ومعاصرة أو قريبة من العصر الذي وقعت فيه الأحداث مما يعطيها قيمة كبيرة .

فعن عصر الرسالة نراه يأخذ عن العديد من المصادر المعتبرة والمشهورة والموثوق بها مثل كتاب المغازي والسير لابن هشام عن ابن اسحاق[٩٧] ، وهو المعروف لنا اليوم باسم سيرة ابن هشام ، أو السيرة النبوية لابن هشام ، كما روى عن ابن الأعرابي عن هشام بن محمد الكلبي[٩٨] . وعن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه أخذ عن ابن اسحاق والواقدي والطبري ، وعن وفاته صلى الله عليه وسلم ذكر المسعودي الكثير من الروايات ونسبها إلى أصحابها[٩٩] .

أما عصر الخلفاء الراشدين فيذكر المسعودي بعض المصادر في متن الكتاب عند روايته لحادثة واحدة مثل تحديد تاريخ وقعة القادسية ، فقد اعتمد في ذلك على الواقدي وابن اسحاق والمدائني فذكر أقوال كل واحد منهم[١٠٠] كما أخذ في غير ذلك عن أبي مخنف لوط بن يحيى والواقدي وابن عباس[١٠١] ، ويلاحظ أن المسعودي لايذكر مصادره عن الخلفاء الراشدين إلا نادرا ، ويزداد ذكرها في حديثه عن بعض الأحداث التي حدثت في عهد الإمام علي بن أبي طالب ، مثل مقدمه إلى البصرة ، ومعركة صفين وعدد من قتل فيها من الفريقين[١٠٢] .

وعن دولة بني أمية يلاحظ أن المسعودي قد أكثر من المصادر الأدبية التي استقى منها معلوماته ، وفي كثير من رواياته يأتي بإسناد كامل (المعنعنة) ، كما أنه يروي عن الطبري والواقدي وأبي مخنف لوط بن يحيى[١٠٣] وابن دأب والهيثم بن عدي ومحمد بن اسحاق وعلي بن محمد بن سليمان النوفلي وعمر بن رشيد النصيبي ، والمنقري بإسناده ، والشعبي[١٠٤] ويلاحظ أنه لاتوجد صفحة واحدة في أخبار عبد الملك بن مروان إلا وفيها الإسناد الكامل أو الإسناد المجمل الذي يعرف عادة بالمعنعنة ، كما يروي عن مؤلفين لهم كتب مذكورة مثل أحمد بن سعيد الدمشقي والطوسي وغيرهما في كتاب الأخبار المعروف بالموتعبات عن الزبير بن بكار[١٠٥] . وعن الخوارج يأتي المسعودي بالخبر مرويا عن طريق

سلسلة من الرواة وبإسناد كامل ، عن المنقري بإسناده[١٠٦] وعن الهيثم بن عدي(ت٢٠٦هـ) والمدائني (ت٢٢٥هـ) وأبي البختري القاضي وحماد الراوية والجوهري بإسناده ، والعتبي بإسناده ، والمبرد ، والأموي الدمشقي عن الزبير بن بكار (ت٢٥٩هـ) عن المديني ، وأبي بكر بن عياش ، والأصمعي[١٠٧]. كما يلاحظ أن كثيرا من أخبار بني أمية يأخذها المسعودي عن طريق الرواية الشفوية من معاصرين له .

أما أخبار الدولة العباسية ، فيلاحظ أن المسعودي يأخذ عن معاصرين للدولة العباسية وخلفائها ، وعن ندماء الخلفاء وأصحاب مجالسهم ، والمتصلين بهم ، وبعضهم كانوا معاصرين للمسعودي شخصيا ، أو عاشوا في الفترة السابقة عليه مباشرة .

وعن أخبار العباسيين الأوائل الذين حكموا في القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث يأخذ المسعودي عن إخباريين وأدباء وعلماء مشهود لهم بالثقة والأمانة والكفاءة مثل علي بن محمد المدائني ، وعبد الله بن عباس المتوف ، والأصمعي ، والمبرد ، والقصقاع بن حكيم وعلي بن يقطين المعاصر للمهدي ، وعيسى بن دأب المعاصر للهادي وجليس المهدي[١٠٨] .

كذلك يأخذ المسعودي بالنسبة لأخبار هارون الرشيد عن معاصرين لهذا الخليفة مثل الأصمعي ، وأبو العتاهية ، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي جليس الرشيد ، وعن الأحمر النحوي مؤدب ولده محمد الأمين[١٠٩] . وفي أخبار محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ) لايذكر المسعودي مصادره رغم أن أخباره بلغت صفحات كثيرة(ص ٣٦٨-٣٩٠) ، واكتفى المسعودي بقوله : "ذكر جماعة من الإخباريين ومن عنى بأخبار العباسيين كالمدائني والعتبي وغيرهما"[١١٠] . كذلك فعل المسعودي في أخبار عبد الله المأمون(١٩٨-٢١٨هـ) إذ أخذ عن راوي الخبر المباشر ، فيقول ذكر ثمامة بن أشرس ، وهو معاصر للمأمون ومن جلسائه[١١١] ، كما أخذ عن أبي العتاهية المعاصر للمأمون والمجالس له ، وكذلك يحيى بن أكثم[١١٢] .

وعن المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) لايأتي المسعودي بأي مصدر ، وعن أخبار الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ) ذكر المسعودي بعض المصادر مثل الشاعر أبي تمام ، والمبرد ، ومحمد بن أبي الأزهر (ت ٢٧٦هـ) [١١٣] أما أخبار المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ) نرى المسعودي يأخذ عن المعاصرين للمتوكل مباشرة وذلك لقرب عهدهم بالمسعودي مثل البحتري ، ومحمد بن أبي عون ، وعلي بن الجهم الشاعر[١١٤] وكذلك يفعل المسعودي بالنسبة لأخبار

(٢٤٧-٢٤٨هـ) فيأخذ أخباره عنه عن معاصر لهذا الخليفة مثل أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات ، وأبي العباس محمد بن سهل ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد[١١٥] وفي حديث عن المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ) يأخذ المسعودي عن ابن دريد (ت٣٢١هـ) المعاصر للمسعودي نفسه ، وكذلك عن أبي العباس المكي[١١٦] أما أخبار المعتز بالله (٢٥٢-٢٥٥هـ) فيأخذ المسعودي بطريق الإسناد الكامل ، فيقول حدثنا ابن الأزهر ويذكر سلسلة الرواة ، وحدثني محمد بن الفرج بمدينة جرجان عن أبي دعامة[١١٧] .

ومع عهد الخليفة المهتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ) يكثر المسعودي من ذكر الأخبار والأحداث وتفاصيلها ، لأنها قريبة العهد به ، أو لأنه معاصر لها ، وخاصة الأحداث التي وقعت منذ الربع الأخير من القرن الثالث الهجري وحتى وفاته في عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م ، ولذلك لا يأت بمصادر كاتبة وخاصة عصر المهتدي الذي لم يستغرق سوى أحد عشر شهرا . ونظرا لمعاصرة المسعودي أو قربه من الأحداث وعصور الخلفاء الذين أتوا منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، فإننا نراه يعتمد كثيرا على الرواية الشفوية ، وغالبا لايذكر اسم من سمع عنه أو حدثه ، وفي بعض الأحيان يذكرهم . مثال ذلك : أخباره عن الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) فبرغم طول مدة حكم هذا الخليفة والتي بلغت ثلاثة وعشرين عاما ، وبرغم أن المسعودي كتب عنه صفحات كثيرة ، (ط٤ ص١٨٦-٢١١) ، إلا أنه لم يأت بمصادر كثيرة عنه ، فلم يذكر إلا ابن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ) وما رواه في مجلس المعتمد عن العود والقضاء ، وعن ملاهي الروم ، وحداء العرب ، وأول الغناء في العرب ، وأثر الغناء ، وأنواع الطرب ، ومنزلة الإيقاع وألقابه ، تخلع عليه المعتمد[١١٨] .

كذلك فعل المسعودي بالنسبة للمعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ) فقد كتب عنه كثيرا (ط٤ ص٢١٤-٢٤٩) ، وبرغم ذلك لم يأت إلا بالقليل من المصادر نظرا لما سبق أن تلمناه من المعاصرة ، أو قرب العهد ، ولذلك جاءت الروايات الشفوية التي لامصدر لها تسد هذا الفراغ ، وكذلك الحال بالنسبة لخلافة المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ) فلا يذكر المسعودي إلا الروايات الشفوية التي استقاها من المعاصرين له مثل الصولي (ت٣٣٦هـ) والمعاصر للخليفة المكتفي وجليسه ، وأبي الحسن علي بن محمد الفقيه الوراق الأنطاكي ، وأبي الحسن أحمد بن يحيى المنجم المعروف بابن التديم ، وأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه النحوي المعروف بنفطويه[١١٩] وأستاذ المسعودي نفسه .

كذلك فإن مصادر المسعودي عن المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) قليلة ، وهي في الغالب روايات شفوية أخذها عن الوراق الأنطاكي ، وعن كتاب كان ابن عبدوس الجشياري قد ألفه عن المقتدر ووقع للمسعودي أجزاء يسيرة منه[١٢٠] . وعن أخبار القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ) لايذكر المسعودي إلا مصدرا واحدا معاصرا له ، وهو محمد بن علي العبدي الخراساني الأخباري الذي كان القاهر به آنسا[١٢١] ، ويذكر المسعودي أن هذا الرجل كان حيا يرزق في عام ٣٣٢هـ ، وأنه كان مداحا للملوك معاشرا لأهل الرياسات حسن الفهم جيد الرأي[١٢٢] . وفي أخبار الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ) يأخذ المسعودي عن المعاصرين له وللراضي مثل أبي بكر الصولي ، وأبي الفتح محمود بن الحسين السندي بن شاهك الكاتب المعروف بشاهج ، والعروضي الذي كان من أدبوا الراضي وغيره من أولاد الخلفاء[١٢٣] ، ومعظم حديث المسعودي عن الراضي هو نقل عن العروضي هذا .

أما أخبار المتقي (٣٢٩-٣٣٣هـ) فلا يذكر المسعودي - وهو معاصر له - إلا مصدرا واحدا فقط هو محمد بن عبد الله الدمشقي الذي كان في خدمة المتقي ونديمه[١٢٤] . ثم يذكر المسعودي من اشتهر بشعره من الشعراء في ذلك الوقت دون ذكر أي مصدر لأنه كان معاصرا لهم[١٢٥] . وعن أخبار المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ) لانرى المسعودي يذكر أي أخبار تاريخية إلا مايتصل بتولي المستكفي الخلافة وكيف عزل عنها بعد أن سمل أحمد بن بويه عينيه ، ولا يأتي المسعودي ، إلا بروايات قالها بعض جلساء هذا الخليفة المنكوب في الشعر وما قيل فيها من شعر ، وبعض ألوان الأطعمة وما قيل فيها من شعر ، وكانت مصادره في ذلك نديم المستكفي أبا اسحاق إبراهيم بن إسحاق المعروف بابن الوكيل البغدادي[١٢٦] وعن معاصرين لهذا الخليفة مثل عبد الله بن محمد الناشي ، وأبي الحسن علي بن أحمد الكاتب البغدادي[١٢٧] .

أما أخبار آخر خليفة عباسي ذكره المسعودي وهو المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ) والذي وصل في الرواية عن أخباره إلى جمادى الأولى عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م حيث انتهى المسعودي من تدوين كتابه المروج في مدينة الفسطاط بمصر[١٢٨] ، فإننا نرى المسعودي لا يأتي بأخبار عنه إطلاقا ويعلل ذلك بقوله "ولم نفرد بجوامع تاريخ المطيع بابا مفصلا عن أخباره كإفرادنا لغيره مما سلف ذكره في هذا الكتاب لأننا في خلافته بعد"[١٢٩] . ومما يعني خوفه من عدم السيرة وعدم الموضوعية إذا ما ألف عن الحاكم المعاصر له ، وهو أمر يحمد للمسعودي ولا يؤخذ عليه .

تلك هي المصادر الأدبية التي استقى منها المسعودي أخباره ورواياته في كتاب المروج والتي ذكرها في متن هذا الكتاب بخلاف من ذكر من المؤرخين أنه أهمل ذكر المصادر في المتن إطلاقا واكتفى بذكرها مجملة في قائمة في أول الكتاب . كما يلاحظ أيضا أن المسعودي أخذ عن مصادر معتدلة موثوق بها ابن إسحاق وابن هشام ، والمدائني والواقدي ، وابن قتيبة والبلاذري والطبري والجهشياري وغيرهم من المؤرخين الموثوق بهم المشهود لهم بالأمانة والنزاهة. كما يلاحظ أنه أخذ عن أهل الإقليم أو المكان الذي يؤرخ له ، فساكن مكة أدرى بشعابها ، وبأخذ مادته عن أهل التخصص ، ففي الأدب أو الأخبار الأدبية والشعر يأخذ عن الأدباء والشعراء ، وعن الجغرافيا والفلك يأخذ عن الجغرافيين والفلكيين ممن أوردنا أسماءهم أثناء هذا الحديث ، وهكذا في بقية تفكراته وأخباره .

ويلاحظ أن المسعودي اتبع أسلوب الرواية الشفوية في تاريخه لخلفاء بني العباسي منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، فهو يأخذ عن معاصرين تحدث إليهم أو أخذ عمن نقل أو سمع منهم مباشرة ، مما يعني أن أخباره منقولة عن أناس يثق بهم ويطمئن إليهم ، مما يعلي من قيمة روايته ويجعلها محل اعتبار وثقة .

ومع ذلك فقد اتسع منهج المسعودي ليشمل بجانب المصادر الأدبية بشتى أنواعها والتي تحدثنا عنها مصدرا آخر من أهم المصادر التاريخية ألا وهو المشاهدة والمعاينة .

٢- المشاهدة والمعاينة :

تأتي المشاهدة والمعاينة من خلال رحلات المسعودي العديدة التي أشرنا إليها والتي كان فيها مشقات وأهوال جمة بسبب "تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة . فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والرابة والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام ، ثم مفاوضتنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم ، وتباين همتهم ، وتباعد ديارهم"[١٣٠] .

ويؤكد المسعودي ما لاقاه من نصب ومشقة وتعب بقوله عند انتهائه من كتاب المروج : "لقد جمعنا حاصله في عدة السنين باجتهاد وتعب عظيم ، وجولان في الأسفار ، وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير محلة الإسلام"[١٣١] .

من هذه الأقوال التي أتى بها المسعودي في أول كتابه ونهايته ، يتبين لنا أن منهجه في الحصول على الأخبار والمعلومات والمعارف يستوفي أدق مناهج البحث الحديثة ، إذ يجمع بين أسلوب المشاهدة والمعاينة وأسلوب القراءة والأخذ من الكتب التي تعنى بموضوع كتابه أو تأليفه ، فهو دائما يقارن الواقع الذي يراه بما هو مدون عنه في بطون الكتب ، وذلك ليعرف الحقيقة وليصحح ما هو مغلوط من الأخبار والوقائع . وقد وضح هذا المنهج - أقصد المشاهدة والمعاينة - في معظم صفحات كتابه المروج ، يستفاد ذلك من الفقرات التي تبدأ بكلمة (ورأيت)[١٣٢] . وقد نتج عن هذه الرؤية وتلك المشاهدة أخبار ومعلومات هامة رواها المسعودي عن عادات الملوك والناس ، وتقاليدهم في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية لم تعرف بها من قبل ، لأن بعضها كان وليد عصره أو تطور من عادات وأفكار سابقة لم ترد في كتب السابقين ، مثال ذلك ما أشار إليه من طقوس كانت تحدث في جزيرة سرنديب (سيلان الآن) حينما يموت الملك[١٣٣] .

كما نتج أيضاً عن هذه المشاهدة أن أخذ المسعودي يصحح معلومات كثيرة جغرافية وطبيعية بل وتاريخية قال بها مصنفو الكتب ممن لم يرحلوا إلى البلدان ولم يطوفوا بالآفاق كما فعل هو ، فعندما وصل إلى بلاد السند ورأى نهر مهران وهو نهر السند صحح خطأ الجاحظ الذي "زعم أن نهر مهران الذي هو نهر السند نيل مصر" واستدل الجاحظ على ذلك بوجود التماسيح فيه وفي نيل مصر ، وذلك في كتابه المعروف باسم "كتاب الأمصار وعجائب البلدان"[١٣٤] ، ويعلل المسعودي خطأ الجاحظ ذاك بأن "الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرى المسالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين" ولذلك فإن كتابه المشار إليه وكما يقول المسعودي "في غاية الغثاثة"[١٣٥] ثم يقوم المسعودي بعد ذلك بتصحيح هذا الخطأ ويشرح كيف يخرج نهر مهران وكيف يسير مجراه حتى قصبة نهر بلاد الديبل في بحر الهند الذي تكثر فيه التماسيح مثلة في ذلك مثل نهر النيل ، وكثرتها هنا أو هناك ليست دليلا أن نهر مهران هو نهر النيل[١٣٦] .

وعندما وصل المسعودي إلى بحر الخزر الذي يعرف الآن ببحر قزوين وركب فيه سفينة من أسكون عند ساحل جرجان ، وأبحر فيه حتى طبرستان وغيرها ، صحح المعلومات التي قيلت عن أن هذا البحر يتصل ببحر نيطس ومايطس وخليج القسطنطينية فيما يعرف الآن بالبحر الأسود ، وفي هذا الموضوع لم يكتف المسعودي

ومن لاتهم عنده من أرباب المراكب "تأخيره بعدم صحة قول من قال أن بحر الخزر يتصل بالبحر الأسود[١٣٧] .

وحتى النواحي العلمية نجد المسعودي يبدي رأيه فيها نتيجة للمشاهدة والمعاينة وإجراء بعض العمليات المختبرية ، وذلك حينما تحدث عن كيف تحول الماء العذب إلى ملح ، وعن دورة المياه في الكون ، وعن الطعام في جوف الإنسان . فيقول إن "هذا قول جماعة ممن تقدم ، وأما ما يوجد بالعيان وإيقاع المحنة (أي التجربة) عند المباشرة ، فإن كل الرطوبات ذوات الطعوم إذا صعدت بالقرع والأنابيق بقيت روائحها وطعومها فيما يرتفع منها كالخل والنبيذ والورد والزعفران والقرنفل ، إلا الماحة فإنها تختلف طعومها وروائحها ولاسيما إن صعدت مرتين وأسخنت مرة بعد أخرى"[١٣٨] . وهو هنا يشير إلى عملية تقطير وعمليات أخرى تجرى في المعمل ، ويشير إلى أدواته مثل القرع (الجفنة والجفان) والأنابيق (أي أنابيب الاختبار) كما تسمى في هذه الأيام .

وهكذا يأتي المسعودي بمنهج المشاهدة والمعاينة ليقدم دليلا واضحا على روعة المنهج العلمي عند علماء العرب والمسلمين . فهو وكما رأينا لم يتراجع أمام الجاحظ المشهور - وإنما يفند كلامه ويذكر الصحيح ويدلل على ذلك بشتى البراهين ، ويشير إلى ضرورة اتباع أسلوب المشاهدة والمعاينة ، بل واللجوء إلى إجراءات العمليات المختبرية إذا ماتطلب الأمر ذلك . مما يؤكد لنا حرص بعض المؤرخين المسلمين وعلى رأسهم المسعودي على اتباع منهج المشاهدة والمعاينة وإجراء التجربة - إن لزم الأمر - وعدم الاعتماد على النقل والسماع فقط ، بل توكيد ذلك بالمشاهدة والمعاينة[١٣٩] .

٣- الرواية الشفوية :

يتصل بالمشاهدة والمعاينة أسلوب التساؤل والاستخبار والاستعلام والاستفسار الذي اتبعه المسعودي فيما لم يره أثناء تطوافه ورحلاته في البلدان المختلفة ، فيسأل من رأى وشاهد وخبر. وكذلك فيما شاهده بنفسه ويريد التأكد منه ، أو فيما قرأه في بطون الكتب ويريد أن يتأكد من حقيقة ما قرأ . يظهر هذا المنهج في الروايات والأخبار التي يبدأها المسعودي بقوله : "سألت" أو "أخبرني" أو "قال لي" أو "أنشدني" . كما يظهر هذا الأسلوب بصفة خاصة عن الأحداث التي وقعت منذ منتصف القرن الثالث للهجرة وحتى وقت بداية تأليفه لكتاب المروج

أحداثها وخاصة منذ بداية القرن الرابع للهجرة . أما ما قبل ذلك فإنه كان يسأل من شاهد الأحداث ورآها أو عرفها من المعاصرين لها أو الذين شاركوا فيها أو كانوا متصلين بفاعليتها . ولذلك فإن هذه الفترة - وكما أشرنا - يقل ذكر أسماء المصادر الأدبية فيها عند المسعودي ، وتكثر الروايات الشفوية التي أخذها من أفواه أصحابها مباشرة أو عمن رواها لهم من المعاصرين لها. يظهر ذلك في كثير من صفحات كتاب المروج . وعلى سبيل المثال فإن المسعودي يأخذ كثيراً من معلوماته عن الصين ثم ذهب إلى الصين ورحال فيها فيقول "وأخبرني أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي بالبصرة - وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثمائة. أنه سأل رجلا من قريش من ولد هبار بن الأسود كان قد سافر إلى الصين واتصل بملكها في مدينة خمدان ، فسأله أبو زيد عن هذه المدينة ، فذكر له صفتها وسعتها وكثرة أهلها .. إلى آخر ماذكره لأبي زيد[١٤٠] .

كذلك فقد كان المسعودي يأخذ كثيراً عن النواخذة وربابنة السفن الذين كانوا يركبون البحار وخاصة بحر الهند الذي يتصل ببحر الزنج وبحر فارس والقلزم (البحر الأحمر) وبقية البحار التي تقع شرقا حتى بحر الصين ، فيقول : "أخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهما من التجار"[١٤١] ، وذلك في معرض حديثه عن جزائر كانت موجودة في بحر هاركند أو بحر الهند ، وهي جزائر تعرف الآن بجزائر المالديف واللكاديف .

ويصحح المسعودي معلومة ذكرها الجاحظ في كتابه "الحيوان" عن حيوان يعيش في بلاد السند يسمى الكركون ، وكما قال الجاحظ فهذا الحيوان يحمل في بطن أمه سبع سنين . وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها . فبعث هذا الوصف المسعودي على أن يسأل قد "سلك تلك الديار من أهل سيراف وعمان وقد رأيت بأرض الهند من التجار فأنكروا ذلك وذكروا له أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس[١٤٢] .

كذلك يصف المسعودي خليج القسطنطينية الذي يعرف الآن ببحر مرمرة ، ومايتصل به من الشمال فيما يعرف ببحر بنطس الذي يسميه المسعودي (وابنطس) ، ومن الجنوب ببحر الروم وهو البحر المتوسط الآن ومافيه من مد وجزر ، وما يوجد حواليه (أي حوالي بحر مرمرة) من مدن ومافيها من أبواب وكنائس ، وذلك نتيجة لما سمعه من رجل عربي كان قد عبر إلى القسطنطينية في خليجها حين دخل لإقامة الهدنة والفداء مع امبراطور [illegible]

أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأزدى الذى يقول عنه المسعودى "إنه شيخ الثغور الشامية قديمًا وحديثًا إلى وقتنا هذا ، وأنه من أهل التحصيل" . كما يشير المسعودى إلى أنه سمع غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا سلوقية ودخلوا خليج القسطنطينية وساروا به مسافة بحيرة عما رأوه مما سبقت الإشارة إليه [١٤٣].

وعن هذا القائد العربى وهو أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأزدى ، يأخذ المسعودى – عنه عن آخرين – ممن شهدوا غزوة هارون الرشيد لمدينة هرقلة المواجهة للقسطنطينية عام ١٩٠هـ[١٤٤] . ولايكتفى المسعودى بذلك فنراه يأخذ خبر هذه الغزوة أيضًا عن ابن دريد (ت٣٢١هـ) المعاصر له – بإسناده فيقول : "وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : أخبرنى أبو العينا ، قال : أخبرنى شبل الترجمان ، قال : كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة وفتحها"[١٤٥] فالسند هنا ينتهى إلى من شاهد الغزوة بل وشارك فيها .

يتبع المسعودى هذا المنهج وهو سؤال من شاهد الأحداث أو عاصرها أو كان يعيش فى موطنها . ويلتزم فى أخباره عن كثير من البلدان التى روى عنها فى المروج ، فيقول عن نصر – على سبيل المثال – عندما ذهب إليها وتجول فى سائر أنحائها ومنها بلاد الصعيد إنه سأل عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الأخميمى الزاهد ، فأخبره بخبره "غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر"[١٤٦] .

وفى حديث المسعودى عن الواحات المصرية التى تقع فى صحرائها الغربية ، أخذ معلومات عنها ليس بالذهاب إليها ، وإنما بطريق سؤال رجل من أهلها أتى حاكم مصر فى مسألة له ، فيقول : وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم ، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلى مع غيره فى سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم"[١٤٧] .

وتشير العبارة الأخيرة فى الفقرة السابقة إلى منهجه فى الحصول على معلوماته أثناء طوافه وتجواله فى البلدان المختلفة ، وذلك إما بطريق المشاهدة والمعاينة ومعرفة الحقيقة بنفسه ، وإما بطريق السؤال والاستفهام عن البلدان التى لم يصل إليها ، فكان يسأل التجار وربابنة السفن وغيرهم من الناس الذين كانوا يعيشون فى هذه البلدان أو كانوا من أهلها ، وهذا هو

ويلاحظ من قراءتنا لكتاب المروج أن الروايات الشفوية تكثر فيما ذكره المسعودى عن عصر بنى أمية وبنى العباس ، ذلك أن معظم المؤرخين الكبار وكذلك الإخباريين والأدباء ، وغيرهم من الذين ذكروا أخبار هاتين الدولتين حتى عصر المسعودى ، عاشوا فى القرن الثالث الهجرى ، وبعضهم عاشوا فى النصف الثانى منه وفى أوائل القرن الرابع للهجرة ، بمعنى أنهم كانوا معاصرين للمسعودى نفسه ولذلك فإنه يأخذ عنهم بسندهم أو عنهم فقط دون سند . يظهر ذلك فى رواياته التى تبدأ بكلمة "وحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى"[١٤٨] ومعروف أن الطبرى توفى عام ٣١٠هـ فهو معاصر للفترة الأولى من حياة المسعودى .

كذلك يذكر المسعودى روايات كثيرة عن عبد الملك بن مروان تبدأ بقوله : "حدثنا نصر بن على "ثم بورود السند[١٤٩] ، و"حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقى والطوسى"[١٥٠] ، و"حدثنا المنقرى عن العتبى"[١٥١] ، وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى"[١٥٢] و"حدثنا الرياش عن الأصمعى"[١٥٣] ، "وحدثنى فقير بن مسكين عن المزنى"[١٥٤] ، "وحدث محمد بن يزيد المبرد"(ت٢٨٥هـ) [١٥٥] و"حدث أبو عبد الله محمد بن عرفه النحوى قال : حدثنا المبرد"[١٥٦] وكل هؤلاء ، أو معظمهم معاصرون للمسعودى ، وغيرهم كثير ممن أخذ عنهم مباشرة بطريق الرواية الشفوية ، مثل أبى اسحاق الزجاجى النحوى[١٥٧] وابن الأزهر (ت ٢٧٦هـ)[١٥٨] ، وابن دريد (ت٣٢١هـ)[١٥٩] وأبو الحسن أحمد بن على بن يحيى المعروف بابن النديم[١٦٠] ، وإبراهيم بن جابر القاضى[١٦١] والعروضى[١٦٢] والصولى (ت٣٣٦هـ)[١٦٣] .

ولم يكتف المسعودى بهذه الرسائل فى الحصول على معلوماته ، وإنما أخذ بعضًا من هذه المعلومات عن المصادر المادية مثل النقوش والكتابات التاريخية الأثرية .

٤- الكتابات الأثرية التاريخية :

تعتبر الكتابات الأثرية التاريخية المصدر الرابع والأخير الذى اعتمد عليه المسعودى فى الحصول على بعض معلوماته التى سطرها فى كتاب مروج الذهب ، ومعروف أن النقوش والكتابات الأثرية التاريخية من المصادر المادية الهامة التى تؤكد أقوال المؤرخين وتزكى آراءهم ، وخاصة عندما يعثر الباحث على نقش على لوحة رخامية على جدران مسجد أو شاهد قبر أو منشأة من المنشآت العمرانية العديدة التى زخر بها العالم الإسلامى ، ويقول هذا النقش بما يخالف ما جاء عند المؤرخين ، مثال ذلك تاريخ بناء مسجد أحمد بن طولون فى مدينة القطائع بمصر ، فقد قال المؤرخون – عدا المقريزى – بأنه أنشئ فى عام ٢٦٤هـ أو عام ٢٦٦هـ

أو عام ٢٥٩هـ وظل هذا التاريخ سائدا حتى عثر على لوحة رخامية فى المسجد تقول بأنه أنشئ فى عام ٢٦٥هـ ، وهو التاريخ الذى قال به المقريزى[١٦٤] . مما زكاه لدى غيره من المؤرخين . ومن هنا تأتى أهمية النقوش والكتابات التاريخية الأثرية .

ويلاحظ من قراءة كتاب مروج الذهب أن صاحبه استعان ببعض النقوش الكتابية الأثرية فى الحصول على معلومات تاريخية جديدة أو تأكيد معلوماته المستقاة من الكتب والمصادر الأدبية والتاريخية . وهذه النقوش الكتابية الأثرية وجدها المسعودى فى أجزاء متفرقة من العالم الإسلامى أثناء طوافه وترحاله لبلدان هذا العالم الفسيح . مثال ذلك تلك الكتابة الأثرية التى وجدها المسعودى فى بلاد اليمن وكانت مكتوبة على باب مدينة ظفار – وهى من عواصم اليمن القديمة قبل ظهور الإسلام . وهذه الكتابة عبارة عن عدة أبيات من الشعر مكتوبة بالقلم الأول – أى بالقلم المسند – فى حجر أسود وتذكر أسماء من تداول من الملوك على ظفار واليمن[١٦٥] .

كذلك يخبرنا المسعودى بأنه رأى على باب مجمع الصابئة بمدينة حران كتابة على مدقة الباب السريانية ، وهى قول لأفلاطون نسوها أحد الصابئة وهو مالك بن عقيون وغيره منهم ، بأن معناها "من عرف ذاته تأله"[١٦٦] . وفى مشرق العالم الإسلامى يأتينا المسعودى بحديث عن كتابة تاريخية أثرية وجدت على باب معبد النوبهار بمدينة بلخ بالفارسية ترجمتها : "قال بودابست : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال : عقل ، وصبر ، ومال "وتحتها "بالعربية" كلب بودابست ، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الثلاث خصال أن لا يلزم باب السلطان"[١٦٧] .

ويورد المسعودى أيضًا كتابة تاريخية أثرية وجدها على رخامة على قبر فى البقيع مكتوب عليها : "باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عبيد الأمم ، ومحيى الرمم ، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين ، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب ، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد رضى الله عنهم"[١٦٨] .

وهكذا ترى المسعودى وقد اتبع فى كتاب المروج أدق وأقوم مناهج البحث التاريخى المعاصر ، وذلك بتنوع المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته التاريخية والجغرافية وغيرها من أنواع العلوم والفنون التى حفل بها كتابه . فمن مصادر أدبية متنوعة إلى مصادر مادية

إلى روايات شفوية أخذها عن المعاصرين ، إلى مشاهدة ومعاينة ، والتى كان اعتماده عليها كثيرا . لكن يبقى السؤال : كيف تعامل المسعودى مع هذه المصادر ، وخاصة المصادر الأدبية – أقصد الكتب التى استقى منها كثيرا من معلوماته التى دونها فى كتاب المروج ؟ هل نقل منها دون نقد أو تمحيص أم أنه نقدها وأبرز الصحيح من السقيم منها ، وقال رأيه فيها ، سواء بالتعديل أو التجريح ، وما موقفه فيما فى بعضها من أخطاء ؟

٥- نقد المصادر عند المسعودى :

يلاحظ أن منهج المسعودى فى الاعتماد على المصادر الأدبية وعلى المشاهدة والمعاينة عن طريق التجوال والرحلة فى مختلف البلدان الإسلامية وغير الإسلامية ، أكسبه وضوح الرؤية والقدرة على الجمع الكثير ، وتمحيص ما جمع ، ومعرفة الحقيقة فيما جمع وشاهد ، مما جعله يناقش كثيرًا من أقوال الكتاب والمؤرخين وأهل العلوم المختلفة التى اطلع عليها المسعودى وأخبر عنها .

وبادئ ذى بدء ، نقول إن المسعودى فحص مصادره ونقدها فى صدر كتاب المروج ، فنراه يمتدح بعضها ويذم البعض الآخر ، ويبدأ ذلك بقوله : "وقد ألف الناس كتبًا فى التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف ، فأصاب البعض وأخطأ البعض ، وكل قد اجتهد بغاية إمكانه ، وأظهر مكنون جوهر فطنته"[١٦٩] .

ومن أصاب وامتدحه المسعودى ابن خرداذبة ، فإنه يقول عنه : "إنه كان إمامًا فى التأليف متبوعًا فى ملاحة التصنيف ، أتبعه من يعتمد وأخذ منه ، ووطئ على عقبه ، ونفا أثره ، وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك ، فانظر إلى كتابه الكبير فى التاريخ ، فإنه أجمع هذه الكتب جدًا ، وأبرعها نظمًا ، وأكثرها علمًا ، وأحوى لأخبار الأمم وملوكهم وسيرها من الأعاجم وغيرها ، ومن كتبه النفيسة كتابه فى المسالك والممالك وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته ، وإذا تفقدته حررته"[١٧٠] .

واللافت للنظر هنا هو أن المسعودى يشير إلى كتاب ممتاز فى التاريخ ألفه ابن خرداذبة المتوفى حوالى عام ٣٠٠هـ ، ولانعلم عنه شيئًا ، لأنه فقد ولاشك فى أن المسعودى قد انتفع به وأخذ منه ، مما يعطى كتاباته أهمية كبرى .

كذلك يمتدح المسعودى كتاب التاريخ للبلاذرى المتوفى عام ٢٧٩هـ ، لعله كتاب "أنساب الأشراف" ويمتدح أيضًا كتابه الآخر المعروف باسم "فتوح البلدان" ويقول عنه إنه "لايعلم فى فتوح البلدان أحسن منه"[١٧١] .

ويصل مدح وثنا، المسعودي إلى القمة حينما يتحدث عن تاريخ الطبري المعاصر له فيقول عنه إنه "الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب والمصنفات، فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم، وهو كتاب تكثر فائدته عائدته، وكيف لايكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره، وناسك دهره، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وحملة السنن والآثار"[١٧٢].

كذلك أثنى المسعودي على "تاريخ" أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه الواسطي النحوي الملقب بنفطويه، لأن كتابه هذا "محشو من ملاحة كتب الخاصة، مملوء من فوائد السادة" ولأن نفطويه أحسن أهل عصره تأليفاً وأملحهم تصنيفاً"[١٧٣]. وقد سبق أن أشرنا إلى أن نفطويه هذا كان أستاذاً للمسعودي. فهو يعرفه معرفة مباشرة. كذلك امتدح المسعودي كتاب معاصره محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٦هـ) المعروف باسم "كتاب الأوراق في أخبار الخلفاء من بني العباس وبني أمية وشعرائهم ووزرائهم"، لأنه "ذكر غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه، وكان محظوظا من العلم محدوداً من المعرفة، مرزوقًا من التصنيف وحسن التأليف"[١٧٤].

كما أثنى المسعودي على قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) المعاصر له فيقول عنه إنه "حسن التأليف بارع التصنيف موجزاً للألفاظ، مقرباً للمعاني، وإذا أردت علم ذلك فانظر في كتابه في الأخبار المعروف "بكتاب زهر الربيع" وأشرف على كتابه المترجم بكتاب "الخراج" إنك تشاهد بهما حقيقة ما قد ذكرنا، وصدق ما وصفنا"[١٧٥].

ومن الذين انتقدهم المسعودي وأنحى عليهم باللائمة سنان بن ثابت بن قرة الحراني، لأنه حسبما يقول المسعودي "انتحل ما ليس من صناعته" فألف كتاباً جمع فيه بين الفلسفة والتاريخ فجعل فيه "لمعًا مما يجب على الملوك والوزراء ثم خرج إلى أخبار يزعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها. ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله، وذكر صحبته إياه .. ثم ترقى إلى خليفة في التصنيف مضادة لرسم الأخبار والتواريخ، وخروجًا عن جملة أهل التأليف، وهو إن أحسن فيه .. فإنما عيبه أنه خرج عن علمه الذي انفرد به من علم أقليدس والمقطعات والمجسطي والمدورات، ولو استفتح آراء سقراط وأفلاطون، وأرسطوطاليس .. لكان قد سلم مما تكلفه وأتى بما هو ألبق بصنعته"[١٧٦].

ومع أن المسعودي انتقد الجاحظ وخطأه في بعض معلوماته التي أوردها في كتاب (الأمصار) والذي وصفه بالغثاثة والذي سبقت الإشارة إليه إلا أنه امتدح كتبه فيقول: "وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور، تجلو مبدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف .. الخ"[١٧٧].

هذا ماذكره المسعودي من تمحيص ونقد لبعض المصادر الأدبية أثناء عرضه لها في مقدمة كتاب المروج، لكننا نراه يكثر من تمحيص مصادره في متن هذا الكتاب، فهو لم يكتف بذكر مصادره في مقدمة كتابه، وإنما أتى بها وبغيرها أثناء سرده للأخبار والأحداث في كثير من صفحات الكتاب، فنراه ينتقد أهل الحديث في بعض الأخبار التي قالوها عن التنين ونهر النيل "لأن طريقتهم في النقل طريق الأفراد والآحاد، ولم يرد مورد التواتر والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم"[١٧٨]، ويعلل ذكره لآرائهم - رغم ذلك - "ليعلم من قرأ هذا الكتاب- يقصد مروج الذهب - أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ولم يغرب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ما ذكرنا"[١٧٩].

ونفس الشيء يفعله المسعودي عند الحديث عن السبب في تسمية اليمن يمنا والشام شاما، فيتحفظ فيما ذكروه عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ويقول "إنه أخبار آحاد وليس مجيئه مجيء الاستفاضة التي يقطع بها العذر ويثبت بها الحكم"[١٨٠].

كما ينتقد ما رواه الأخباريون العرب عن بعض أخبار العرب البائدة وعن علاقة الجن بهم فيقول: "وقد قدمت فصلا من ذلك فيما سلف من هذا الكتاب على مازعم الأخباريون من العرب وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد من الأمر المفهوم .. الخ"[١٨١]. كذلك ينتقد المسعودي زرادشت فيما قاله عن الذات الإلهية، وما قاله بولس عن المسيح بأنه إنسان صار إلهًا وإله صار إنسانا، لأن ذلك من المتناقضات[١٨٢].

ويناقض المسعودي أيضا ما ذكره الأخباريون والكتاب عن مظاهر الطبيعة والنواحي الجغرافية والحيوانية، لأن ذلك - في رأيه - خارج عن الحقيقة الملموسة أو خارج عن نطاق العقل. مثال ذلك ما روى عن النسناس الذي كان يتكلم في حضر موت، وعن العنقاء التي ورد فيها حديث غروة لابن عباس، ويقول المسعودي: "ونحن لم نحل وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل، فإن ذلك غير ممتنع في القدرة، ولكن أمر [illegible]

في العالم ، وهذا باب داخل في حيز الممكن الجائز خارج عن باب الممتنع والواجب"[١٨٣] . ثم يتحرر المسعودي بعد ذلك بعلم ذلك فيما حكاه ورواه"[١٨٤] .

أما قوله الأول فهو دليل على مذهبه ، فهو معتزلي كما سبق القول ، وأما القول الثاني فيدل على منهجه في نقل بعض الأخبار ، فهو ينقلها كما هي - وإن تعارضت مع معتقده - أو يعلق عليها وينقدها ويتبين وجه الصواب والخطأ فيها ، ويقول عنها إن هذه الأخبار وأمثالها إنما هي "لاحقة بالإسرائيليات من الأخبار"[١٨٥] . كما ينتقد أخباراً أخرى لايمكن تصديقها ، مثلما ذكر كعب الأحبار عن خبر رواه في مجلس معاوية بن أبي سفيان عن هيكل جيرون بدمشق - نسبة إلى بانيه جيرون بن سعد العادي - وأن دمشق هي إرم ذات العماد ، فيقول المسعودي إن "هذا الخبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره ، وهو من صنعة القصاص ، لأنه لم يصح عند كثير من الأخباريين ممن وقد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها الا خبر عبيد بن شريه الذي لم يتحدث عن هذا الخبر ولم يذكره ، وأن هذا الخبر وغيره إنما هي "أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب للملوك بروايتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها ، وأن سبيل الكتب المنقولة أيضا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل الكتاب الفارسي المسمى هزار أفسانه ، ومعناه بالعربية (ألف خرافة) ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شير زاد وديدنازاد ، ومثل كتاب (فرزة وسيماس) وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى"[١٨٦] .

وفي بعض الأحيان وقبل أن ينتقد المسعودي رأيا أو خبرا يلجأ إلى التأكد من صحته بمخاطبة العالمين بمواطنه . مثال ذلك ما يذكره عند حديثه عن مذاهب الصابئة من أهل مدينة حران ، فيقول إنه استعان في ذلك بكتاب رآه لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف وصاحب كتاب المنصوري في الطب ، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين ووصف فيه أشياء يقبح عند كثير من الناس وصفها ، أعرض عنها المسعودي ، لكنه أراد أن يتأكد من صحة هذه الأشياء ، أو عدم صحتها فخاطب مالك بن عقبون وغيره من الصابئة ، فمنهم من اعترف ببعضها ، ومنهم من أنكر البعض الآخر"[١٨٧] .

وعندما يبدأ المسعودي في روايته للتاريخ الإسلامي لا يأخذ إلا عن الثقات من المؤرخين ، فعلى سبيل المثال نراه يأخذ في حديثه عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن هشام عن ابن اسحاق ، وعن هشام بن محمد الكلبي وعن غزواته صلى الله عليه وسلم يأخذ عن ابن اسحاق والواقدي والطبري ، وعن أخلاقه صلى الله عليه وسلم يأخذ عن جعفر الصادق بسنده إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه"[١٨٨] .

كذلك يفعل المسعودي في حديثه عن بني أمية وعن بني العباس الأولين ، أما المعاصرين له منهم فقد سبق القول بأنه أخذ عن المؤرخين والكتاب المعاصرين له الذين يعرفهم كل المعرفة والذين يطمئن لهم كل الاطمئنان فهو إذن يختار مصادره وممن يثق فيه من المؤرخين والكتاب والعلماء وغيرهم ممن أخذ عنهم في كتابه مروج الذهب ، وإذا عن له أمر أو لفت نظره لاقت لايهدأ حتى يشير إلى ذلك ، مثال ذلك الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الذي قال إنه قابل أعرابيا قرب مدينة سامراء عند ذهابه إلى الخليفة الواثق ، فسأل أبو تمام هذا الأعرابي عن بعض أعيان الدولة ووجهائها ، فوصفهم الأعرابي له وبين مزاياهم أو عيوبهم في أسلوب أخاذ يدل على فهم وقوة ملاحظة وبيان ، وفي النهاية يقول المسعودي أن هذا الخبر "مخرجه عن أبي تمام ، فإن كان صادقا فيما قال ولا أراه ، فقد أحسن الأعرابي في الوصف ، وإن كان أبو تمام هو الذي صنعه وعزاه إلى هذا الأعرابي فقد قصر في نظمه ، إذ كانت منزلته أكبر من هذا"[١٨٩] .

وإذا رأى أن كاتبا أخذ من غيره دون أن يشير إلى ذلك ، لايتوانى المسعودي في أن ينقد ذلك ويستنكره . ففي كلامه عن استدارة الأرض وخط الاستواء والقطبين وتوزيع الحرارة والرطوبة على الأرض ، ينتقد المسعودي ابن قتيبة فيقول : "وقد حرز ذلك - أي ما أشار إليه المسعودي من كلام عن الأرض وحرارتها ، في كتاب أبو حنيفة الدينوري وقد سلب ذلك ابن قتيبة ونقله إلى كتبه نقلا وجعله عن نفسه ، وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبي حنيفة الدينوري . هذا وكان أبو حنيفة هذا ذا محل من العلم كبير"[١٩٠] هذا برغم أن المسعودي امتدح ابن قتيبة وكتبه في قائمة المصادر التي ذكرها في صدر كتاب المروج ، لكنه لم يستطع السكوت عما فعله ابن قتيبة بكتب أبي حنيفة الدينوري .

وهكذا ينتقد المسعودي مصادره ويمحصها ولا يأخذ عنها ضبط عشوائي ، مما يدل على سلامة منهجه في اختيار مصادره ، وبالتالي سلامة منهجه في الكتابة . وعلى ذلك وبعد أن

انتهينا من الحديث عن هذا الموضوع - أقصد مصادر المسعودى وكيف جمع مادته التى وضعها بين دفتى كتاب المروج ، وكيف نقد مصادره ومحصها - يحق لنا أن نتساءل : كيف استخدم هذه المادة فى كتابة هذا الكتاب ؟ وما هى الطريقة التى اتبعها فى كتابته ؟ تقصد منهجه فى الكتابة . هل اتبع طريقة التأليف حسب الموضوعات ؟ أم طريقة التأليف حسب السنين أى النظام الحولى ؟ وهل استخدم السند أم تخلص منه ؟

ثانيا : منهج المسعودى فى الكتابة :

الواقع أنه من قراءتنا لكتاب المروج ، نلاحظ - وبخلاف ماذكر من كتبوا عن المسعودى - إنه اتبع كل الطرق المشار إليها فى الفقرة السابقة . فبالنسبة لمنهجه فى الكتابة وهل كانت حسب الموضوعات أم حسب النظام الحولى ، فإننا نراه يأخذ بنظام الكتابة حسب الموضوعات فقط فيما ذكره عن تاريخ ما قبل الإسلام ، بمعنى أنه جمع الحوادث التاريخية تحت رءوس موضوعات تتعلق بالشعوب أو الأسرات والدول والحكام ، شأنه فى ذلك شأن اليعقوبى الذى يعتبر هو والمسعودى من أقدم المؤرخين المسلمين الذين اتبعوا هذا الأسلوب[١٩٤] وقد طبق المسعودى هذا المنهج فى حديثه عن الأنبياء والتاريخ القديم للعالم ، إذ تحدث عن الأنبياء واحدا بعد الآخر ، ثم تحدث عن بلاد الهند وملوكها ، ثم عبر البحار والأنهار ، ثم أخذ فى الحديث عن ملوك الصين والترك وبقية الملوك والدول التى كانت موجودة فى العالم القديم حتى عصر البعثة النبوية ، مملكة بعد مملكة . وهذا هو جوهر نظام الكتابة حسب الموضوعات .

أما بعد ظهور الإسلام فإننا نرى المسعودى يأخذ بنظام الكتابة حسب الموضوعات الذى أشرنا إليه ، وكذلك بالنظام الحولى . والنظام الحولى هنا ليس كالموجود عند الطبرى ، وهو ذكر الأحداث حسب السنين وتقطيع أخبار الحدث الواحد إذا اتسع لأكثر من عام ، وإنما النظام الحولى عند المسعودى يمكن القول عنه إنه داخل ضمن الكتابة حسب الموضوعات ، بمعنى أن المسعودى يؤرخ للخلفاء المسلمين خليفة بعد خليفة - وهو أسلوب من أساليب الكتابة حسب الموضوعات - وعند الحديث عن كل خليفة نراه يتحدث عنه بشكل عام ويؤرخ للأحداث الهامة التى حدثت فى عهده حسب السنين ، وقد يذكر عند نهاية الحديث عن الخليفة وفيات العلماء والفقهاء وغيرهم أيضا حسب نظام السنين . أى النظام الحولى بمفهومه عند المسعودى ، وقد يتبع المسعودى فقط نظام الكتابة حسب الموضوعات كما فعل فى تاريخه لمعظم خلفاء بنى أمية ، فلم يذكر الأحداث التى وقعت فى عهدهم حسب النظام الحولى المشار إليه ، وإنما ذكرها

أما عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اتبع فيه المسعودى النظامين معا . ففى حديثه عنه نراه يتحدث - فى كلام مرسل - عن نسبه الشريف ثم عن أسمائه ، وحروب التجار ، وبطون قريش ، وحلف الفضول وسببه ووضع الحجر الأسود ، وكسوة الكعبة ، وتحديد مولده ، ونسب أمه ، وبعض أحداث وقعت له قبل نبوته ، وبعثه ، وإسلام على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق ، وقد أسلم بإسلامه وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم وغزواته وسراياه[١٩٢] ، ثم يأخذ المسعودى بعد ذلك فى التاريخ لما حدث فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم حسب سنى عمره ، فيقول : فى السنة الأولى من مولده دفع إلى حليمة السعدية ، وفى السنة الخامسة ردته حليمة إلى أمه ، وهكذا حتى يصل إلى عام أربعة وخمسين من عمره صلى الله عليه وسلم ، فيقول إن فيها كانت هجرته إلى المدينة . حينئذ يبدأ المسعودى فى الرواية حسب سنوات الهجرة ، سنة بعد سنة حتى السنة الحادية عشرة التى انتقل فيها الرسول إلى الرفيق الأعلى[١٩٣] .

ويلاحظ أن المسعودى لايستمر فى اتباع النظامين معا مع الخلفاء الذين حكموا الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما نراه يتبع نظام التاريخ حسب الموضوعات فى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم يتبع هذا النظام فى عهد معاوية بن أبى سفيان[١٩٤] ويضيف إليه النظام الحولى ليذكر بعض الأحداث التى وقعت فى عهده وفى سنوات معينة وهى السنوات ٤٠ هـ ، ٤٣هـ ، ٤٥هـ ، ٤٩هـ ، ٥٠هـ ، ٥٣هـ ، ٥٩هـ [١٩٥] .

وقد اتبع المسعودى نفس هذا المنهج فى تاريخه - أى الجمع بين النظامين معا - لثلاثة من خلفاء العصر العباسى الأول هم هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، ولمعظم خلفاء العصر العباسى الثانى حتى عام ٣٣٢هـ ، وهو العام الذى بدأ يكتب فيه كتاب المروج . ويلاحظ هنا أن المسعودى يذكر وقائع وأخبار اجتماعية وأدبية وعلمية ، وحينما يأتى إلى بعض الأخبار السياسية وأخبار المتوفين من العلماء والفقهاء وغيرهم من أهل الفكر والرأى يذكر ذلك حسب السنين . ولانراه يذكرهم سنة بعد سنة كما فعل الطبرى وإنما فقط يذكر السنوات التى وقعت فيها وفيات وبعض الأحداث التاريخية الهامة .

ففى عهد الرشيد مثلا يشير إلى أحداث ووفيات سنوات ١٧٥هـ ، ١٨٢هـ ، ١٨٩هـ ، ١٨٨هـ ، ١٨٦هـ ، ١٨٧هـ ، [١٩٦] ثم يذكر بعد ذلك المجالس العلمية وأخبار مجالس الشعراء وأخبار الأدب والأدباء فى شكل موضوعات . وفى عصر المأمون يتحدث المسعودى

عن موضوعات عديدة ثم يشير إلى أحداث السنوات ١٩٩هـ ، ٢٠٠هـ ، ٢٠٢هـ ، ٢٠١هـ، ٢٠٦-٢٠٩هـ ، ٢١١هـ ، ٢١٢هـ ، ٢١٧هـ ، ٢١٨هـ ، [١٩٧] . ويفعل المسعودي نفس الشئ بالنسبة لأخبار المعتصم[١٩٨] وكذلك في عصر المتوكل[١٩٩] أما عصر المنتصر فيتحدث فيه في شكل موضوعات[٢٠٠] . ويتبع النظامين الموضوعي والحولي في عقد المستعين [٢٠١] وذلك في عصر المعتز[٢٠٢] . أما المهدي بالله فلم يذكر له المسعودي إلا بعض الأخبار في شكل موضوعات ، ولم يؤرخ له حسب النظام الحولي ، ربما لأنه لم يحكم إلا أحد عشر شهرا فقط[٢٠٣]، وعاد المسعودي إلى اتباع النظامين معا (الموضوعي والحولي) في عصر الخليفة المعتمد على الله[٢٠٤] .

وكذلك فعل المسعودي بالنسبة لأخبار عصر الخليفة المعتضد بالله[٢٠٥] ، والخليفة المكتفي وخاصة بالنسبة للوفيات فهو يؤرخ لها حسب السنين[٢٠٦] ، والخليفة المقتدر[٢٠٧]. أما الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك وحتى عام ٣٣٦هـ ، وهو العام الذي انتهى فيه المسعودي من كتابة المروج فإنه أرخ لهم حسب الموضوعات ، ولم يتبع النظام الحولي ، ربما لأن أغلبهم حكم سنوات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة .

وإذا كان المسعودي قد اتبع النظام الحولي في جزء من أخبار الخلفاء الذين أشرنا إليهم واحدا بعد الآخر ، ومعظمهم من خلفاء العصر العباسي الأول والثاني ، فإنه في ذلك لم يفعل كما فعل الطبري في التاريخ للأحداث سنة بعد سنة ، وتقطيع الحدث الواحد حسب السنين ، ومن ثم يفقد الموضوع وحدته الموضوعية ، ويفقد الارتباط بين أجزائه . كما أننا نرى المسعودي يؤرخ حسب الخلفاء فيذكر أخبار كل خليفة واحدا بعد الآخر من أبي بكر الصديق حتى عام ٣٣٦هـ في عهد الخليفة المطيع الذي امتد حكمه بعد ذلك حتى عام ٣٦٣هـ ، أي بعد وفاة المسعودي نفسه بسبعة عشر عاما .

وعلى أي حال فإن أسلوب المسعودي في التاريخ يعتبر نقلة هامة في أسلوب الكتابة التاريخية ، وسوف يسير معظم المؤرخين من بعده على منواله . فالمسعودي هنا يعتبر من الرواد الذين طوروا أسلوب الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين .

وسواء اتبع المسعودي في كتابته أسلوب التاريخ حسب الموضوعات أو حسب السنين أو هما معا وهذا هو الغالب عليه ، فإنه اتبع في توثيق كثير من معلوماته وأخباره طريقة الإسناد

(أسلوب العنعنة) – إن كان الخبر ينتمي إلى عصر أبعد من عصر المسعودي ، وفي حالات كثيرة أيضا اسقط المسعودي الإسناد إلى عصر أبعد من عصر المسعودي ، وفي حالات كثيرة أيضا أسقط المسعودي أسلوب الإسناد جملة وتفصيلا ، لا عن قلة اهتمام منه بالأسانيد ، وإنما كان ذلك على سبيل الاختصار والإيجاز . وقد أشار المسعودي إلى ذلك بنفسه حين حديثه عن أخبار الأديب ابن دأب مع الخليفة موسى الهادي فيقول : "ولابن دأب مع الهادي أخبار حسان يطول ذكرها ويتسع علينا شرحها ، ولا يتأتى لنا إيراد ذلك في هذا الكتاب لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز بحذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ"[٢٠٨] .

وفي معظم الروايات ذات الإسناد كان المسعودي يسقط الإسناد الكامل (العنعنة) ويبقى على الراوي المباشر المعاصر للحدث ربما مراعاة منه للإيجاز والاختصار كما سبق القول .

ومعنى ذلك أن المسعودي لم يسقط الإسناد أو توثيق أخباره في متن الكتاب جملة وتفصيلا بخلاف ما قاله المؤرخون المحدثون الذين تعرضوا للمسعودي بالذكر في كتبهم التي كتبوها عن التاريخ والمؤرخين العرب وقالوا بأنه أسقطها في المتن واكتفى بذكرها في مقدمة الكتاب[٢٠٩] . وعلى نفس المنوال سار أولئك الذين قدموا لكتاب المروج في طبعاته المختلفة التي وقعت في أيدينا .

فالحقيقة وحسب دراستنا لهذا الكتاب أننا رأينا المسعودي في كثير من رواياته استخدم الإسناد حسب الأساليب التي أشرنا إليها . واتبع أيضا أسلوب الكلام المرسل الذي لا يعتمد على إسناد أو توثيق ، مكتفيا في ذلك بذكر مصادره في بداية الكتاب على اعتبار أن ماذكره بهذا الأسلوب رأي لكلام غير الموثق – أصبح من الحقائق أو الأمور المشهورة التي لاتحتاج إلى توثيق . مثال ذلك حديثه عن الخلفاء الراشدين ، فهو لايذكر في التاريخ لهم سوى الواقدي وأبي مخنف لوط بن يحيى[٢١٠] بخلاف الإمام علي بن أبي طالب ، فإنه يذكر إسنادا كاملا عن مجيء الإمام إلى البصرة[٢١١] ونستطيع القول أن الإسناد الكامل أو الجمعي (العنعنة) قد ورد أكثر من ثلاثين مرة ، خاصة فيما يتصل بتاريخ الأمويين والعباسيين . وورد القليل منه (٣ مرات) في حديثه عن الحيوانات وأمور الطبيعة ، ربما لأنه اعتمد في الحديث عن ذلك على مشاهداته .

وكمثال على الإسناد الكامل يأتي المسعودي بثلاث روايات عن قبر حاتم الطائي ، وفي كل منها إسناد كامل[٢١٢] ، وفي حديثه عن الحيوانات النادرة أو الشاذة مع رد مصادره في

شكل إسناد كامل[٢١٣] . وحينما يصل المسعودى إلى بداية التاريخ الإسلامى يأتى بإسناد كامل فى حديثه عن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم[٢١٤] وكذلك فى حديثه عن الخوارج والحجاج بن يوسف الثقفى وعبد الملك بن مروان . حتى أحداث المقهى والمطربين أتى فيها المسعودى بإسناد كامل[٢١٥] . وكذلك فى أخباره عن مجالس الخلفاء العباسيين وندمائهم[٢١٦] .

وإذا كان المسعودى قد جمع مادة كتاب المروج على نحو ماذكرنا ، وكتبه بالمنهج الذى أشرنا إليه ، يبقى السؤال : هل كان المسعودى موضوعيا فى إيراد أخباره ؟ وهل كان محايدا عند الحديث عن الآراء المختلفة ؟

ثالثا: مدى الموضوعية والحياد فى كتاب المروج :

يمكننا القول - وبعد دراستنا لكتاب المروج - أن المسعودى بلغ قمة الموضوعية والحياد فى هذا الكتاب . وقد أشار المسعودى إلى هذا المعنى قرب نهاية كتابه فقال : "وليعلم من نظر فيه - أى فى كتاب المروج - أنى لم أنتصر فيه لمذهب ، ولا تحيزت إلى قول ، ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم ، ولم أعرض فيه لغير ذلك"[٢١٧] .

وقد طبق المسعودى هذا الأسلوب الحيادى فى أخباره التى أوردها فى كتابه ، سواء كانت أخبارا تخص ماقيل عن الجن والشياطين وبعض الحيوانات الغريبة ، أو أخبارا تاريخية . والدلائل على ذلك كثيرة ، منها طريقته فى الإسناد الجزئى أو الكلى (العنعنة) التى تعرضت لها الدراسة فى النقطة السابقة . فالإسناد هو تأكيد عمل تمحيص الروايات ونقدها ، لأن الروايات قد تتأثر بالرغبات الشخصية والميول الحزبية والعصبيات المحلية . لذا كان التأكد من سلسلة الرواة هو السبيل إلى التثبت من صحة الرواية[٢١٨] . وهذا هو المنهج الذى اتبعه الطبرى واتبعه - جزئيا - المسعودى ، لأن المسعودى لم يأت فى كل رواياته بإسناد كامل كما فعل الطبرى .

ومما يدل على حياد المسعودى وموضوعيته أيضا أنه كان يأتى أحيانا بروايتين أو أكثر للحدث ويترك للقارئ أن يأخذ بأيها مقتديا فى ذلك بالطبرى المعاصر للفترة الأولى من حياته، والذى اعتمد - فيما اعتمد من مصادر - على كتابه الرسل والملوك . إذ أن الثقة بالمؤرخ تتكون حينما يورد روايات متباينة ، أو حينما يورد روايات مشهورة محايدة[٢١٩] ، أو حينما

عن الأخرى . وهو يسأل باهتمام ممثلى مختلف هذه الفرق والعقائد الأخرى ، ويفحص بانتباه فائق كتبهم ويتعرف جيدا على آرائهم وآدابهم . وكذلك كان موقفه محايدا بالنسبة لهم ، كما كان أيضا إزاء النصارى واليهود والصابئة ، ولذلك فإنه - وكما يقول كراتشكوفسكى - "من المستحيل إنكار مايتصف به المسعودى من موضوعية فى الحكم على مايتعلق بالشعوب والأديان" [٢٢٠] .

أما بالنسبة لذكر أكثر من رواية ، فقد ظهر ذلك واضحا حينما تحدث المسعودى عن مبادئ تكوين البحار ، ورأى اليونانيين والحكماء فى ذلك ، فذكر قول كل فريق منهم وأرجع كل قول فى ذلك إلى قائله[٢٢١] ثم أخذ يمحص هذه الأقوال بمنهج آخر هو منهج المشاهدة والمعاينة حتى يقف على مدى صحة أقوال هؤلاء الفلاسفة والعلماء الأقدمين ، مستعينا فى ذلك بأقوال النواخذة التى خالفت أقوالهم فى هذا الصدد[٢٢٢] . فالمسعودى هنا يطبق الأمر المشاهدة على مايتصل بها من الأخبار المكتوبة ليصل إلى الحقيقة أو ماهو أقرب إليها .

ويأخذ المسعودى أيضا بأسلوب تعدد الروايات فى حديثه عن جرهم فى مكة ، وحكمهم لها . يتبين ذلك من قوله "ووجدت فى وجه آخر من الروايات"[٢٢٣] . وكذلك فى حديثه عن الشعوبية فيذكر رأى جماعة من المتكلمين أو المعتزلة منهم الجاحظ ، وأن هؤلاء قالوا بأن النبط خير من العرب ، ثم يذكر الرد عليهم حسبما جاء عند أبى الحسن أحمد بن يحيى فى كتابه الذى لم يذكره المسعودى"[٢٢٤] .

وعند حديثه عن الجن والشياطين وبعض الحيوانات النادرة أو الشاذة ، فذكر ما قاله فيها وفيهم بعض الأخباريين والفقهاء ، وإن كان هذا القول يخالف رأيه ، ويعلل إيراده لهذا النوع من الأخبار بقوله إن "ماذكره أهل الشرع مما وصفنا ممكنا غير ممتنع ولا واجب ، وإن كان أهل النظر والبحث والمستعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرناه ، ويأبون ما وصفناه ، والمصنف حاطب ليل . فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم ، إذ كان الواجب على كل ذى تصنيف أن يورد جميع ما قاله أهل الفرق فى معنى ماذكرناه"[٢٢٥] . ويكرر المسعودى نفس الكلام عند ذكره أخبار السناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر[٢٢٦] . وبعد أن يذكر رأى أهل العقل ورأى أهل النقل يتخذ المسعودى موقفا محايدا فيقول : "وليس لنا فى ذلك إلا النقل ، وأن نفرده إلى رواية ، وهو المقلد يعلم ذلك فيما حكاه ورواه فتنظمه على حسب ما يتأتى لنا نظره فى الموضع المستحق له"[٢٢٧] .

أما الأخبار التاريخية فيأتي في بعضها بالعديد من الروايات بالنسبة للخبر الواحد ، أو بالروايات المتقابلة . وفي بعض الأحيان يفضل إحداها أو يبدي رأيه فيها . مثال ذلك ماذكره المسعودي عن معركة القادسية التي حدثت بين العرب والفرس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعن تعدد الآراء في تحديد تاريخ وقوعها . فذكر ما رواه كل من الواقدي ، ومحمد بن اسحاق ، والمدائني وغيرهم[٢٢٨] . ولم يأخذ برأي أحدهم ، لأنهم في نظرة مؤرخون معتبرون ، وليست لديه قرينة على الترجيح . وكذلك فعل المسعودي في تقدير عدد القتل يوم صفين . فأتى بالآراء المختلفة التي قيلت في ذلك ولم يأخذ بأي منها وإنما ذكر عدد من حضر تلك الحرب ولم يذكر عدد القتلى[٢٢٩] .

وتظهر حيادية المسعودي وموضوعيته أيضا في أكثر من موقف . مثال ذلك حديثه عن التحكيم بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فقد أتى المسعودي بكافة الروايات التي قيلت عن الثقاة الحكمين باختصار ، وفي حيدة كاملة[٢٣٠] . واختتم هذه الروايات بما يتبين موقف الحيادي إذ يقول : "وقد اختلف أهل ملتنا في الحكمين ، وقالوا في ذلك أقاويل كثيرة . وقد أتينا على ماذهبوا إليه في ذلك وما قاله كل فريق منهم ، ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الأمة في كتابنا في المقالات في أصول الديانات"[٢٣١] .

وحينما يتحدث المسعودي عن فضائل الإمام علي يزكي جميع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : "ولكل فضائل ممن تقدم وتأخر (من الصحابة) وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، مخبر عن مواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان ، وبذلك نزل التنزيل ، وتولى بعضهم بعضا ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي حدثت أمور تنازع الناس في صحتها منهم ، وذلك غير يقين ، ولا يقطع عليهم بها ، واليقين من أمورهم ما تقدم ، وما روى مما كان في أحداثهم بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم فغير متيقن ، بل هو ممكن ، ونحن نعتقد فيهم ما تقدم ، والله أعلم بما حدث"[٢٣٢] .

وعندما يتحدث المسعودي عن بني أمية نراه يمدح بعضهم ويذم البعض الآخر حسبما وصلته الروايات . فمثلما قال عن الوليد بن عبد الملك أن له أخبارا حسانا[٢٣٣] ، وعن يزيد بن عبد الملك أيضا أن له هو الآخر أخبارا حسانا[٢٣٤] ، فإنه انتقد يزيد بن معاوية وذكر مثالبه حتى كاد أن يخرجه عن الإسلام[٢٣٥] . كما انتقد الوليد بن يزيد بن عبد الملك وذكر عيوبه ومثالبه

وقال إنه يدعى خليع بن مروان[٢٣٦] . حتى الوقيات فإن المسعودي يأتي بوفيات الأعلام والعلماء من جميع أصحاب المذاهب وأصحاب الفرق ، وينقل أخبار الشافعية والمالكية بجانب أخبار المعتزلة والعلويين وغيرهم[٢٣٧] ، لايميز جماعة عن أخرى .

وهكذا كانت كتابات المسعودي تتصف بالحيدة والموضوعية ، وإن كان يظهر رأيه أحيانا فيقول مثلا عن خلفاء بني أمية أنهم ملوك ، أما بنو العباس فيصفهم بالخلفاء[٢٣٨] . وعندما يتحدث عن الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، يقول بعد أن يذكر اسم عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي ، عبارة (لعنه الله) ولايذكر اللعن عقب اسم الرجلين الآخرين[٢٣٩] .

وعلى أية حال فإن المسعودي وكما سبق أن أشرنا لم يكن حسب مبدله أو آرائه المذهبية وأتى برواياته في حيدة وموضوعية امتدحه بسببها المؤرخون المسلمون وغير المسلمين . ويبقى بعد ذلك النقطة الرابعة والأخيرة من هذا البحث وهي تقييم كتاب مروج الذهب وأهميته بالنسبة لتاريخ العرب .

رابعا : تقييم المسعودي وكتاب المروج ، ومدى أهميته بالنسبة لتاريخ العرب :

يعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر من أهم الكتب التاريخية ، لأنه يعبر عن مرحلة جديدة وهامة من مراحل تطور الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين ، وهي مرحلة الكتابة الموسوعية[٢٤٠] فلا يقتصر على تاريخ العرب والمسلمين وحدهم . وإنما يتجاوز ذلك إلى مرحلة كتابة التاريخ العالمي . وفي هذا التاريخ لايورد المسعودي الأخبار التاريخية وحدها ، وإنما يتجاوز ذلك إلى ذكر عناصر ثقافية أخرى مثل الجغرافيا والفلك والفلسفة والفيزياء والعقائد والمذاهب والشعر والأدب وغير ذلك من ألوان العلوم الأخرى . وقد عبر ابن خلدون عن هذه العالمية في كتابة المسعودي فقال بعد أن أشار إلى بعض المؤرخين والأخباريين الذين شهد لهم بالأمانة المعتبرة مثل ابن اسحاق والطبري وابن الكلبي والواقدي وسيف بن سالم الأسدي والمسعودي ، إلى أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانت كتاباتهم "غاية المناهج والمسالك لعموم صدر الإسلام والدولتين - يقصد الدولة الأموية والعباسية - من الدول والأمم والأمر المهم كالمسعودي ومن نحا منحاه ، وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد"[٢٤١] لعله يقصد مؤرخي الدول المحلية .

قاس خلدون هنا يجعل المسعودى ضمن هؤلاء المؤرخين الأمناء المعتبرين ، ويفضله عليهم فى أنه كتب تاريخًا بكافة الأمم والدول منذ بدء الخليقة حتى عام ٣٣٦هـ . كما يشير ابن خلدون إلى تنوع معلوماته وأخباره ، بمعنى أنها لم تكن قاصرة على الأخبار التاريخية المتصلة بسير الملوك والحكام والدول فى كافة البلاد فى الشرق والغرب حتى عصره ، أى عصر المسعودى ، بل إنها ذكرت أيضاً "تحل هذه الأمم وعوائدهم ، ووصفت البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم" . ومن ثم صار المسعودى "إمامًا للمؤرخين يرجعون إليه ، وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه"[٢٤٢] .

وزاد ابن خلدون فى تقريظه للمسعودى فقال إن عالم الإسلام فى أواخر المائة الثامنة للهجرة- أى عصر ابن خلدون - قد تغيرت أحواله ، وكان العالم - وقتها - خلق جديد ، وعالم محدث ، وكذلك فإنه فى نظر ابن خلدون يحتاج إلى من "يسلك مسلك المسعودى لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده"[٢٤٣] .

وماجاء فى كتاب المروج يؤكد هذه الأقوال ، ويؤكد موسوعية المسعودى ومنهجه فى كتابه التاريخ العالمى . فنراه يكتب عن بدء الخليقة وعن آدم إلى إبراهيم عليهما السلام ، ثم يذكر الأنبياء حتى عيسى عليهم السلام . بعد ذلك يؤرخ للمشعرب وللبلدان العالم المعروفة . وللدول القديمة التى قامت فيها مثل الهند والصين والفرس واليونان والروم والصقالبة والافرنجة والعرب القدامى والسودان . وأثناء حديثه عن هذه البلدان يذكر جغرافيتها : بحارها وجبالها وأنهارها وحيواناتها ومدنها ومواقعها ومساقاتها . ويتحدث أيضًا عن عباداتها وبيوت العبادة ، وآلهتها وتقاليدها الاجتماعية ، وشعوبها وأنسابها وقبائلها وأسماء ملوكها . بعد ذلك يتحدث عن تاريخ الإسلام فيبدأ بالبعثة النبوية والهجرة حتى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عصر الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية ودولة بنى العباس ، خليفة بعد خليفة حتى عصره أو حتى عام ٣٣٦هـ[٢٤٤] ، أى قبل وفاته بعشر سنوات .

ويؤكد المسعودى نفسه خلال كتاب المروج ، هذا المنهج الموسوعى سواء فى كتابة تاريخ العالم حتى عصره ، أو فى تنوع أخباره التى ذكرها عن شعوب وبلدان هذا العالم ، فيقول : "ولم نترك منوعاً من العلوم ولاقنا من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، إلا أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا ، أو ذكرناه مجملا ، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات ، أو لمحنا إليه [illegible] العبارات"[٢٤٥] . ويعلل المسعودى اتباعه هذا المنهج فى تنويع أخباره بسببين :

أولاهما هو أن الناس يختلفون فى مشاربهم وأهوائهم ، يتبين ذلك من قوله "إن الناس فى أغراضهم متباينين ، وربما يتسرعه من مآخذ العلم مختلفين . فمنهم طالب خبر ، ومتقلد لأثر ، ومنهم ذو بحث ونظر ، ومنهم صاحب حديث ومنقر عن علل ، فجعلنا فيه - أى فى كتاب المروج - لكل ذى رأى نصيبا"[٢٤٦] وثانيهما عدم تسرب الملل لقارئ هذا الكتاب يتبين ذلك من قوله : "يلحق الإنسان الملل لقراءته ما لاتهوى نفسه . فينتقل منه إلى غيره ، فجمعنا فيه سائر ما يحتاج الناس من ذوى المعرفة إلى عمله ، ولما تغلغل بنا الكلام فى نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعانى مما لم يتقدم ذكره وقد أتينا على مبسوط سائر ماذكرناه على الاتساع والإيضاح فى كتابنا "أخبار الزمان" ، وفى "الكتاب الأوسط"[٢٤٧] .

وربما تعود موسوعية المسعودى وهذا التنوع فى أخباره ومعارفه إلى أنه كان رحالة . وكان من الرحالة العرب الذين برزوا فى القرن الرابع للهجرة فاكتسب المسعودى شهرته كمؤرخ وجغرافيا ورحالة أيضًا ، ورأى فى رحلاته وشاهد فى أسفاره مالم يشهده المؤرخ الذى لم يرحل عن بلده[٢٤٨] ولذلك فقد جمع المسعودى من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد . ومن ثم فقد تضمن كتابه المروج فوائد كثيرة لانجدها فى سواه . من هنا كان اعتناء المستشرقين به كبيراً ، فنرى المستشرق الفرنسى باربيه دى مينار يهتم به كثيراً وينقله إلى اللغة الفرنسية ويطبعه فى باريس فى عام ١٨٧٣م ، فى تسعة مجلدات ، كما نرى الأستاذ سبرنجر ينقله إلى الإنجليزية ويطبع الجزء الأول فى لندن فى عام ١٨٤١م[٢٤٩] .

ويعتبر المسعودى أول من جمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية والانثروبولوجيا بأسلوب رائع[٢٥٠] وإن كانت هناك محاولات سابقة عليه ولكنها لم ترق إلى مستواه . كما يعتبر المسعودى أيضًا أول وآخر من أصدر سلسلتين متوازيتين فى التاريخ العالمى : الأولى تلك السلسلة التى يأتى فى مطلعها تاريخه الأكبر (أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة) فى حوالى ثلاثين مجلداً . ثم "الكتاب الأوسط الذى تلاه وهو مختصر للكتاب السابق ، ثم كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر "فى أربع مجلدات ضخمة ، وهو مختصر للكتابين السابقين ، ثم كتاب "التنبيه والإشراف ، وهو مختصر للمروج فى مجلد واحد .

أما السلسلة ، فقد ذكرها المسعودى وتشتمل على الكتب الآتية :

- كتاب فنون المعارف وماجرى فى الدهور السوالف ، وهو صنو أخبار الزمان .
- تلاه كتاب ذخائر العلوم وماجرى فى سالف الدهور - ويعدل الكتاب الأوسط أو المروج .

- وأخيرا كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار - وعليه بنى كتابه الأخير التنبيه والإشراف ، وهو آخر كتاب من السلسلة الأولى[٢٥٥] .

ولو تركنا جانبا بقية الكتب الخمسة والثلاثين التي ألفها المسعودي والتي تكشف عناوينها عن عقلية جبارة في التهام المعرفة والفلسفة في التأليف ، ومنها ماهو في أصول الديانات والمذاهب والنحل ، ومنها ماهو في الفلسفة والحكمة والسياسة ، ومنها ما هو في الأخبار والطرائف ، نقول لو تركنا جانبا هذه المجموعات الفكرية التي لاشك في أن ضياعها خسارة للتراث العربي والإسلامي ، فإن المسعودي في السلسلتين اللتين كتبهما للتاريخ العالمي والتي أشرنا إليهما ، يبدو نموذجا فريدا في التاريخ والمؤرخين كلهم . فليس ثمة في المؤرخين المسلمين من أصدر سلسلتين معا ، ولا من جعل لتاريخه الأكبر وهو (أخبار الزمان) مختصرا أولا ، ثم مختصرا ثانيا ، ثم موجزا أخيرا صغيرا . وهذا الإصرار وهذا النهج في كتابة التاريخ إنما يعبر في الواقع عن إدراك روح العالمية في التاريخ ، ويعبر عن ترابط الأفكار والأديان رغم تنوعها وتعددها ، ويعبر عن توحد الإنسانية أحداثا وعصارا ، رغم تعدد الشعوب والأمم ، واختلاف الأزمان والملوك والحكام . وبذلك فقد مثل المسعودي أوج ما وصلته الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة ، وكذلك في كل القرون ، من إدراك لتلك الروح التي لم تستطع بعد ذلك بنفس المستوى أو على ذات النهج[٢٥٧] . فمفهومة للتاريخ العالمي هو أوسع المفاهيم حتى عهده ، كما أن زاوية نظره للتاريخ زاوية حضارية لا سياسية ، وفكرية لا مادية ، وشعوره "بالإنساني" وبتطور "الإنسانية" ، وتوازن الأفكار والعقائد والأمم شعور واضح[٢٥٨] .

ولذلك ليس غريبا أن يصفه المؤرخون والعلماء القدامى بأنه كان "أخباريا ، مفتيا ، علامة ، صاحب غرائب وملح ونوادر"[٢٥٩] وليس غريبا أيضا أن ينعته المؤرخون والكتاب المحدثون بأنه "هيرودوت العرب" . وهو اللقب الذي أطلقه عليه فون كريمر . وهو تشبيه صحيح ، لأن كلا من المسعودي وهيرودوت جمع بينهما حب المعرفة التاريخية وغيرها من أنواع المعارف الأخرى ، وجمع بينهما أيضا جلد تام ودأب متواصل في الترحال والأسفار لجمع المادة العلمية والتاريخية بجانب ماذكراه من عجائب وخوارق . ومن عادات الشعوب وتقاليدها وأفكارها وتراثها وتسجيل كل ذلك وتدوينه حسب منهج المشاهدة والمعاينة ، والسؤال والاستفهام ، والأخذ من المصادر المعاصرة والسابقة[٢٦٠] .

ربما زاد من أهمية المسعودي ومن تميز كتابه المروج ، أن هذه الكتاب احتوى على مواد ومعلومات وأخبار جديدة لم يسبقه إليها أحد ، كما أنه صحح كثيرا من أخطاء السابقين ، كما تعرض لاختلاف العلماء في أكثر ما بحث من مسائله ، وبين أقاويلهم ، وأشار إلى بعض حججهم ، تاركا تفصيل ما ذكره في المروج إلى كتبه التي صنفها من قبل محيلاً إليها ومشيراً إليها .

فبالنسبة للمعلومات والأخبار الجديدة ، نراه - على سبيل المثال - يأتي لنا بأخبار نعرفها عن أبي مسلم الخراساني لأول مرة[٢٦١] . كما أورد لنا أول خبر معروف عن طواحين الهواء أو دوارة الريح في إقليم سجستان[٢٦٢] . كما أورد حديثا هاما تناول الرد على المعتزلة وتفنيد أقوالهم بالنسبة لمشكلة خلق القرآن التي ثارت في عهد الخليفة المأمون والمعتصم والواثق[٢٦٣] رغم أنه - أي المسعودي - كان معتزليا . كذلك أورد لنا المسعودي مناظرات هامة وقعت بين المعتزلة الشيعة في مسألة الإمامة ، وهل هي نص أم اختيار ، مثل تلك المناظرة التي وقعت بين هشام بن الحكم الكوفي الحرار وأبي الهذيل محمد بن الهذيل (ت٢٢٧هـ) والمناظرة التي حدثت بين الأول وعمرو بن عبيد[٢٦٤] .

وفي مجال الحضارة والفكر والثقافة يتبين لنا من أقواله أن حركة الترجمة ازدهرت ازدهارا عظيما في عصر أبي جعفر المنصور[٢٦٥] بعكس ما نعرفه من أن ذلك كان في عصر هارون الرشيد وابنه المأمون . كما أن المسعودي حفظ لنا بعض الوثائق الرسمية التي تتمثل في الخطابات المتبادلة بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وكذلك الخطابات المتبادلة بين الأخير ومحمد بن أبي بكر الصديق[٢٦٦] كما أننا نتعرف على كثير من الأخبار التاريخية والأدبية والفلسفية من خلال حديث المسعودي عن المجالس العلمية العديدة التي كان يعقدها الخلفاء في قصورهم . مثال ذلك مجالس هارون الرشيد والمأمون ، والواثق وغيرهم من الخلفاء[٢٦٧] .

أما الأخبار الاجتماعية الخاصة بالشعوب والبلدان التي زارها المسعودي ، فإننا نعرفها من كتاب المروج لأول مرة ، وهي مبثوثة في مختلف صفحات هذا الكتاب الذي يعتبر ما جاء فيه عنها أفضل تصوير يقابلنا للحياة الاجتماعية والثقافية في عصر الخلافة . ولذلك ليس غريبا أن يفتتن به في السبعينيات من القرن الماضي مستشرق عرف بتقديره لهذا اللون من الأخبار التاريخية ، وهو المؤرخ الفرنسي أوتسما وبنان[٢٦٨] .

وبالنسبة للكتابات الجغرافية التي وردت في المروج ، فإن المسعودي يعتبر أكثر الجغرافيين أصالة في القرن العاشر للميلاد ، ويحتل المكانة الأولى بينهم دون منازع[٢٦٤] ، لأنه لم يتبع المنهج التأليفي السائد في الجغرافيا العلمية آنذاك اتباعًا أعمى ، بل أفرد مجالا واسعا للمعلومات الجغرافية المأخوذة من الرحالة وربابنة السفن والتجار[٢٦٥] ، وكذلك المأخوذة من مشاهداته أثناء رحلاته العديدة يضاف إلى ذلك أنه أنتج لنا آراء أصيلة في علم الجغرافيا ، حينما ذكر أن من الأرض ما كان بحرًا ، ثم انحسر عنه البحر فصار برًا على مرور الزمان ، وحينما ناقش مراحل النهر فقال إن للأنهار شبابًا وهرما وحياة وموتا ونشورا . وفي ذلك يكون المسعودي قد سبق العالم الأمريكي الشهير وليم موريس ديفز بنحو تسعة قرون ، وموريس هذا هو الذي ينسب إليه تقسيم مجرى النهر إلى مراحل[٢٦٦] .

كذلك فإننا نجد النزعة العلمية واضحة في كتاباته الجغرافية والتاريخية ، فهو يمهد للأحداث التاريخية التي ينوي عرضها بدراسات جغرافية[٢٦٧] ومشاهدات علمية ، وقد سبق القول إنه استعمل الأدوات المختبرية الموجودة في عصره لمعرفة بعض الأمور العلمية . ولذلك فقد نجح في تصحيح كثير من المعلومات الخاطئة سواء في هذا المجال أم مجال التاريخ والجغرافيا . وقد سبقت الإشارة إلى قيامه بتصحيح ما قاله الجاحظ عن بعض الحيوانات ، وما قاله بعض الجغرافيين عن نهر مهران بالسند ، وما قالوه عن اتصال البحر الأسود ببحر قزوين ، يضاف إلى ذلك تصحيحه لقول من قال من الأقدمين بأن اليونانيين والروم من أب واحد . وفي ذلك يقول المسعودي : "وهم من وهم أن اليونانيين ينسبون إلى حيث تنسب الروم وينتمون إلى جدهم إبراهيم ، لأن الديار كانت مشتركة ، والمقاطين والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد شاركوا القوم في السجية والمذهب ، فلذلك غلط من غلط في النسبة ، وجعل الأب واحد ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين وسبيل البحث عند الباحثين ، والروم قفت في لغاتها ووضع كتبها اليونانيين ، فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم ، والروم أبغض في اللسان من اليونانيين وأضعف في ترتيب الكلام الذي عليه نهج تعبيرهم وسان خطابهم"[٢٦٨] .

ثم إنه يستنكر ما قاله ذوو العناية بأخبار المتقدمين ومنهم يعقوب بن اسحاق الكندي الذين "يذهبون إلى أن يونان أخ لقحطان ، وأن بعد ديارهم عن بعضهم البعض هو الذي أدى إلى الشك في اشتراكهم في النسب ، واحتج الكندي بأخبار ذكرها في بدء الأنساب وأوردها من حديث الأجال والأفراد لا من حديث الاستفاضة والكثرة" ويقول المسعودي أن أبا العباس عبد

الله بن محمد الناشئ رد على الكندي في قصيدة طويلة أورد المسعودي أربعة أبيات منها يذكر فيها خطأ خلط نسب يونان بقحطان[٢٦٩] .

وفي التاريخ الإسلامي صحح المسعودي كثيرا من الأخطاء التي أصبحت كالحقيقة نظرا لكثرة تداولها وتواترها ، مثال ذلك ماذكره البعض من أن هارون الرشيد كان يشرب الخمر . وقد أتى المسعودي بأنه كان يشرب ، النبيذ وليس الخمر[٢٧٠] ، وعلق ابن خلدون على ذلك بأن الرشيد "إنما كان يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق"[٢٧١] ، أي مذهب أبي حنيفة الذي كان يجيز ذلك لأن النبيذ لايفعل فعل الخمر في تغييب العقل ، ويذهب ابن خلدون إلى أن المسعودي والطبري اتفقا على ذلك[٢٧٢] .

كما ذكر ابن خلدون أيضا أن الطبري والمسعودي اتفقا على أن "جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الحقيقة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج ، وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد ، وهكذا كان حالهم أيضًا في ملابسهم ، فما ظنك بشاربهم ؟"[٢٧٣] .

وقد صحح المسعودي أيضا قول من قال بأن موسى الكاظم بن جعفر الصادق مات مسمومًا في سجن هارون الرشيد ببغداد . فقد روى المسعودي رواية وردت عن عبد الله بن مالك الخزاعي الذي كان على دار الرشيد وشرطته ، والذي ذكر أن الرشيد استدعاه في وقت متأخر من الليل ، وأمره أن يطلق سراح موسى بن جعفر ، وأن يعطيه ثلاثين ألف درهم ، ويقول له : "إن أحببت المقام قبلنا فلك ماتحب . وإن أحببت الانصراف إلى المدينة ، فالأمر في ذلك يطلق إليك" فقام قائد الشرطة هذا ونفذ أمر الرشيد على الفور ، وذكر أن السبب في ذلك أن الرشيد رأى في منامه كأن جيشيًا قد أتاه ومعه حربة فقال له : إن لم تخل عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرته بهذه الحربة[٢٧٤] . وقد مات موسى بن جعفر مسمومًا بعد ذلك ولكن ليس في سجن هارون الرشيد ، ولم يذكر المسعودي من قام بتسميمه ، وإنما ذكر ذلك في خبر ملتضب ودون ذكر مصدره[٢٧٥] .

ومما زاد من أهمية كتاب المروج أن المسعودي وكما سبق أن أشرنا رجع إلى المصادر الأصلية التي أرخت للأحداث بعد أن فحصها ونقدها وأخذ عما يطمئن إليه فيها ، وكلها مصادر معتبرة، فجاءت أخباره محل ثقة حتى وصفه ابن خلدون بأنه من المؤرخين الأمناء ، وإن من أتى بعده سار على نهجه ، وحث المؤرخون في عصره على أن يحتذوا حذوه في منهجه

وعلمه. والمهم هنا هو أن كثيرا من المصادر التى اعتمد عليها المسعودى ضاع ولم يبق لنا منها إلا ما نقله منها . وبذلك فإنه يكون قد حفظ لنا شيئاً كثيراً من التراث التاريخى والأدبى واللغوى والجغرافى الذى لولاه لما وقفنا عليه ولا سمعنا عنه ، والأمثلة على ذلك كثيرة . منها كتاب الأخبار المعروف بالمرقعات[٢٧٦] "وكتاب زهر الربيع" لقدامة بن جعفر[٢٧٧] ، و"كتاب الألوف" لأبى معشر النجم[٢٧٨] ، والكتب الخاصة بعلم الفلك التى ألفها أناس غير معروفين ، أو غير مشهورين ، ولولا المسعودى لما سمعنا بهم ، مثل محمد بن كثير الفرغانى ، وما شاء الله ، وحبش ، واليزيدى وغيرهم ممن تعرفهم مثل ثابت بن قرة ، والبتانى ، والخوارزمى[٢٧٩] . كما يظهر من قائمة الكتب التى ذكرها المسعودى فى مقدمة كتاب المروج أنه نقل عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة فى أيامه ولم يصلنا منها إلا طائفة قليلة[٢٨٠] . وإلا فأين كتب من ذكرهم المسعودى وأخذ عنهم مثل أبى مخنف لوط بن يحيى العامرى ، والهيثم بن عدى الطائى ، وأبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى ، ومحمد بن الهيثم بن شبابه الخراسانى صاحب كتاب الدولة ، وإسحاق بن ابراهيم الموصلى صاحب كتاب الأغانى وغيره من الكتب ، والخليل بن الهيثم الهرقى صاحب كتاب الحيل والمكايد فى الحروب وغيره ، ومحمد بن زكريا الغلابى المصرى صاحب كتاب "الأجواد" وغيره ، وأحمد بن محمد بن خالد البرقى الكاتب صاحب كتاب البيان ، وعلى مجاهد صاحب كتاب "أخبار الأمويين" وغيره ، ومحمد بن الحارث الثعلبى صاحب كتاب "أخلاق الملوك" المؤلف للفتح بن خاقان ، وكتاب التاريخ لصاحبه أبى عبد الله محمد بن الحسين بن سوار المعروف بابن أخت عيسى بن فرخان شاه ، وكتاب أخبار الأمويين ومثالبهم لصاحبه أبى عبد الرحمن خالد بن هشام الأموى ، وكتاب السير والأخبار لمحمد بن خالد الهاشمى ، وكتاب التاريخ والسير لأبى اسحاق بن سليمان الهاشمى ، إلى غير ذلك من الكتب التى استقى منها المسعودى مادته ولم يُعثر عليها – حسب علمنا – حتى الآن ، وفقدت ضمن مافقدنا من كتب التراث[٢٨١] .

ومما يعلى أيضا من أهمية كتاب المروج أن المسعودى كتبه بأسلوب محايد ، واتبع فيه أقوم مناهج البحث المعاصر مما يؤكد أن المؤرخين العرب والمسلمين أسهموا مساهمة رائعة فى الكتابة التاريخية وأبدعوا فى مناهجها[٢٨٢] . وقد سبق الحديث عن موضوعية المسعودى وحيدته ، ودقة منهجه فى جمع المادة العلمية ، وفى كتابتها وتدوينها . غير أن البعض يعيب عليه فى

هذا المنهج أنه لم يكن له نهج سوى فى سرده وتأليفه ، فهو ينتقل من موضوع إلى آخر[٢٨٣] ، وأن كتابه المروج ليس تاريخا متصل الحلقات يرتبط بعضه ببعض ، ولكنه مجموعة من الحوادث والأخبار والمشاهدات التى رآها فى أسفاره[٢٨٤] ، ويأتى كراتشكوفسكى بنفس الملاحظة ويقول أن منهج التبويب فى كتاب المروج لايرقى إلى المستوى المطلوب ، ويعلل ذلك بأنه كان من الصعب على المسعودى أن يأخذ نفسه باتباع منهج صارم سواء فى التفكير أو التعبير[٢٨٥] .

وربما كانت هذه الملاحظة أو هذا النقد فى موضعه سواء برره البعض أم لم يبرره ، وسواء برره طبيعة المسعودى كرحالة أو كموسوعى كبير أحاط بمعظم تراث عصره . وقد أخذته هذه الصفة إلى كثير من الاستطراد وعدم تنظيم المادة العلمية أثناء تدوينه لها . غير أن هذا الاستطراد لم يكن فى الواقع إلا استجابة لتداعى الأفكار[٢٨٦] وكثرة المعلومات التى جمعها المسعودى من مشاهداته وقراءاته الغزيرة ، وحتى تخرج كتابته فى ثوب من التشويق الذى يتضمن الكثير من الطرائف والغرائب . وربما كانت الرغبة فى التشويق أدت به إلى أن يضمن كتابه بعض الأساطير والخرافات التى راجت فى ذلك العصر[٢٨٧] ، والتى كانت محل نقد من بعض المؤرخين والكتاب الذين جاءوا بعده من أهمهم ابن خلدون[٢٨٨] . وربما كان هذا الاستطراد أيضا نتيجة للسرعة الهائلة فى تسجيله للأخبار والمعلومات والمعارف[٢٨٩] .

ومن أمثلة الاستطراد الذى يلاحظ عند المسعودى فى كتاب المروج ما ذكره عند حديثه عن البحار ومنها بحر الصين ، إذ يقفز بعض أخبارها ثم ينتقل فجأة إلى الحديث عن الأندلس وعن الأمويين ويأتى ببعض أخبارهم ، ثم يتحدث عن بلاد الحبشة والسودان ، ثم بلاد الغرب ، ثم يعود للحديث عن بلاد الصين[٢٩٠] ، ومثال آخر يظهر حين حديثه عن السودانيين وأنسابهم وأجناسهم والذى يستغرق فيه نصف صفحة ، ثم يخرج عن الموضوع ويتحدث عن بعض الحيوانات التى تعيش فى أفريقيا والهند فى أكثر من عشر صفحات ، ثم يعود إلى ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش ، وبعد ثلاثة أسطر يعود ويتحدث عن البقر وأماكن وجودها وأنواعها فى حوالى صفحة ، ثم يقول : "ولنرجع إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها"[٢٩١] .

ويلاحظ أن هذا الاستطراد أو الخروج عن منهج التبويب السليم لم يكن إلا فى النصف الأول من كتابه الذى يبدأ ببدء الخليقة وينتهى بأخبار العرب قبل الإسلام ، والذى يشمل

ملاحظاته ومشاهداته أثناء رحلاته العديدة التي قام بها ، أما النصف الثاني من الكتاب والذي أرخ فيه للتاريخ الإسلامي منذ البعثة النبوية إلى أيامه هو أو إلى عام ٣٣٦هـ على وجه التحديد ، فإن التبويب الذي اتبعه المسعودي ليس فيه ما يعيبه ، ثم دولة بني أمية ، ثم دولة بني العباس ، وأرخ لكل دولة من هذه الدول حسب توالي الخلفاء ، فذكر تاريخ كل خليفة وما حدث فيه من أحداث ، وروى ماقيه من أخبار تتصل بالسياسة أو الأدب أو الاجتماع وغير ذلك من أنواع الأخبار ، مما سبقت الإشارة إليه .

وبجانب الاستطراد الذي كان محل نقد من بعض المؤرخين المحدثين ، نرى ابن خلدون ينتقد بعض الأخبار التي وردت عند المسعودي في كتاب المروج . مثال ذلك ماذكره المسعودي من أن عدد البالغين أي الذين يستطيعون حمل السلاح في جيش موسى عليه السلام في التيه كانوا ستمائة ألف ، فقال ابن خلدون أن في هذا العدد مبالغة شديدة [٢٩٢] كما انتقد ابن خلدون ما رواه المسعودي والطبري وغيرهما عن غزو ملك اليمن افريقش بن قيس بن صيفي المعاصر لموسى عليه السلام أو قبله بقليل أنه غزا شمال افريقيا وأثخن في البربر ، وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقارن هذه البربرة وأنه لما انصرف من المغرب ترك هناك قبائل من حمير فأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ، ومنهم صنهاجة وكتامة وغيرها من القبائل ، وكل هذا غير صحيح عند ابن خلدون [٢٩٣] .

كذلك انتقد ابن خلدون كلام المسعودي عن غزوات تبع أسعد أبو كريب وأن أبناءه غزوا حتى وصلوا بلاد الروم وما وراء النهر وقطعوا المفازة إلى الصين [٢٩٤] ، ويقول ابن خلدون أن "هذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط ، أشبه بأحاديث القصص الموضوعية ، وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب في بلاد اليمن . ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحدا من الأمم المجاورة لجزيرة العرب ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال" [٢٩٥] .

كما انتقد ابن خلدون أيضا كلام المسعودي عن الزرزور الذي يرده ويجمع الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم ، فقال إن هذا الكلام غير معقول وبعيد عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت [٢٩٦] . وانتقد أيضا كلام المسعودي عن مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ، ظفر بها موسى بن نصير في غزواته إلى بلاد المغرب الأقصى [٢٩٧] ويرى ابن خلدون أن هذه الأخبار عن هذه المدينة من خرافات

كذلك انتقد ابن خلدون كلام المسعودي عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، ويقول ابن خلدون أن هذا كلام لامحصل له ولابرهان فيه [٢٩٨] . كما انتقد ابن خلدون ما قاله المسعودي فيما نقله عن الفلاسفة في أن الطبيعة التي هي جبلة للأجسام كانت في غاية الكمال والقوة عندما خلق الله الخلق ثم أخذت تضعف بعد ذلك ويقول ابن خلدون أن هذا رأي لا وجه له إلا التحكم [٢٩٩] .

يضاف إلى نقد ابن خلدون لهذه الأخبار التي وردت في المروج ، ما لاحظناه من المبالغة الشديدة في ذكر عدد البهرد الذين قتلهم ملكا الرومان طيطس وأسباسيانوس عندما ضربا بيت المقدس وحرقا الهيكل ، فقال إن عددهم كان ثلاثمائة ألف [٣٠٠] . كما أن المسعودي لم يصبه التوفيق عندما ذكر أن مقدونيا هي مصر ، وذلك عند حديثه عن موت الاسكندر الأكبر [٣٠١] وردد هذا القول عدة مرات وذلك حينما تحدث عن موت كيلو باترا فقال إنه "كان لها زوج يقال له انطونيوس مشارك لها في ملك مقدونية وهي بلاد مصر من الإسكندرية وغيرها" [٣٠٢] ، وأن اغسطس "أزال من بقي من ملوك الإسكندرية ومقدونية وهي مصر" [٣٠٣] . كذلك ابتعد المسعودي عن الحقيقة عندما ذكر أن الحية التي قتلت كيلو باترا قتلت أيضا أغسطس بعد يوم من موت كيلو باترا [٣٠٤] ، فذلك مخالف لما ذكره المؤرخون ومناقض لما ذكره المسعودي نفسه عندما قال إن أغسطس لم يمت في مصر وأنه مات في مقدونية بعد ميلاد المسيح بأربعة عشر سنة ونصف [٣٠٥] ومعروف أن كيلو باترا ماتت عام ٣٠ ق.م عندما انتصر الإمبراطور اغسطس عليها وعلى انطونيوس في موقعة اكتيوم البحرية في العام المذكور .

ومع ذلك فإن هذه المآخذ التي أشار إليها ابن خلدون ولاحظنا غيرها في كتاب المروج ، تعتبر قليلة جدا في كتاب بلغ عدد صفحاته أكثر من ألف وخمسمائة صفحة في أربع مجلدات كبار ، كما أنها لم ترد في هذا الكتاب إلا نقلا عن بعض كتب سابقة أخذ منها المسعودي دون تمحيص ، معللا ذلك بأنه إنما حكى هذه الأخبار حسبما وجده في كتب الأخباريين وغيرهم [٣٠٧] ، وأنه نقل ذلك عنهم دون أن يكون هذا رأيه وأنه لم يقطع بصحة هذه الأخبار [٣٠٨] . وكثيرا ما يردد المسعودي هذا التعليل أو ذاك القول [٣٠٩] .

ومعنى ذلك أن ما جاء عن المسعودى بالنقل عن الأخباريين هو الذى ورد فيه هذه الأخطاء القليلة ، أما ما جاء عنده عن طريق المشاهدة والمعاينة ، أو عن طريق سؤال صاحب الاختصاص أو من رأى وشاهد وهو كثير جدا ، فقد جاء خاليا من المآخذ والعيوب التى تعتبر ضئيلة بالقياس لحجم الكتاب وغزارة مافيه من مادة تاريخية وجغرافية وعلمية وأدبية . فالكتاب هام نتيجة لهذه الغزارة العلمية التى جعلته موسوعة تاريخية جغرافية أدبية وعلمية ومهم أيضا نتيجة للمنهج الذى اتبعه المسعودى فى جمع مادته وفى كتابته وفى موضوعيته كما أنه مهم كذلك لما ورد فيه من أخبار تخص العرب بالذات . فالمسعودى عربى فح ، وهو ينتمى وكما سبق القول إلى صحابى جليل هو عبد الله بن مسعود ، ولذلك نرى المسعودى يتابع فى كتابه المروج عن قومه العرب ، فيذكر رأى الشعوبية فيهم ويرد على هذا القول ، كما أنه اهتم بتاريخهم اهتماما كبيرا فخصص أكثر من مائتى صفحة لتاريخهم القديم ذكر فيها بلادهم وملوكهم ودولهم وأخبارهم ودياناتهم وبيوت عباداتهم المعظمة عندهم ، وشهورهم وأيامهم وأقوالهم فى التفرس والهام والفياقة والزجر والكهانة وأخبار القيافين والكهان العرب، وأقوالهم فى ليالى الشهور القمرية ، وأقوالهم فى بعض الحيوانات وخاصة الخيل ، وأخبارهم التى تتعلق بعاداتهم وتقاليدهم وحياتهم فى البدو والحضر ، ومجالس أدبهم وشعرهم ، مما لا يستغنى عنه باحث فى تاريخهم القديم .

وبعد ظهور الإسلام نرى المسعودى وقد خصص للدولة العربية أى لعصر النبوة والخلافة الراشدة وعصر بنى أمية أكثر من ٥٨٥ صفحة وعلى ذلك فإن تاريخ العرب فى عصرهم القديم والإسلامى حتى نهاية عصر بنى أمية استغرق ما يقرب من نصف الكتاب ، واستكمل هذا النصف بأخبار الأنبياء والعالم القديم والتى بدأ بها هذا الكتاب . أما النصف الثانى فقد خصصه لتاريخ الدولة العباسية حتى عصره وعلى وجه التحديد حتى عام ٣٣٦هـ . ودولة بنى العباس دولة إسلامية أعطت للعرب وللفرس ولغيرهم من العناصر فرصة النشاط والعمل والظهور ، بمعنى أنها لم تكن دولة للعرب وحدهم ولا للفرس وحدهم ، وحتى لو كانت كذلك فإن الجميع عاشوا فى ظل ثقافة عربية إسلامية ، وكان البيت الحاكم وهو بنو العباس من العرب بل من أشرف بيت فى العرب وهو بيت بنى هاشم ، وكان قصر الخلافة العباسية يموج بالعلماء والفقهاء والمؤدبين والشعراء والأدباء العرب بجانب غيرهم من غير جنسهم ممن تعلموا لغة العرب وتثقفوا بالثقافة العربية الإسلامية .

وعلى ذلك فإن هذا الكتاب هام بالنسبة لتاريخ العرب سواء فى جاهليتهم أو إسلامهم ، روى الكثير من أخبارهم وتاريخهم وآدابهم وعلومهم وأشعارهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية التى وردت على متن صفحاته واستقاها المسعودى من كتب ضاع معظمها ولم يبق منها إلا القليل . وبذا فإن فضل المسعودى عظيم فى أنه حفظ لنا هذه الخبرة الزاخرة من هذه الأخبار والمعلومات التى تخص العرب والتى أخذها من هذه الكتب المفقودة ، مما أدى إلى زيادة التعريف بتاريخ العرب سواء فى تاريخهم القديم أو الإسلامى ، وكذلك بالنسبة لمظاهر حضارتهم التى حفل بها كتابه المروج محل الدراسة .

ولذلك لا غرابة أن يتأثر مؤرخون أتوا بعد المسعودى بكتابه ومنهجه الذى اتبعه فى هذا الكتاب ، مثل مسكويه (ت٤٢١هـ) فى كتابه تجارب الأمم ، فلم يتبع مسكويه فى هذا الكتاب النظام الحولى فى كتاباته عما قبل الإسلام ، وكذلك للسنين الأولى من الإسلام ، ثم اتبع النظام الحولى بعد ذلك متأثرا بالطبرى الذى اعتمد عليه اعتمادا كليا فى الحوادث التى لم يذكرها . ولكنه كان يحذف منها سلسلة الإسناد[٣١٠] فلا يذكر مصادره إطلاقا كما فعل المسعودى فى كثير من رواياته فى المروج .

كما تأثر ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) بالمسعودى فاتبع نفس منهجه فى إسناد الخبر أو سلسلة الرواة ، فمرة يأتى بالإسناد ومرة يغفله كما فعل المسعودى ، وإن كان ابن الجوزى قد روى حسب السنين كما فعل الطبرى[٣١١] كذلك تأثر ابن الجوزى بمنهج المسعودى فى بدء مؤلفاته بلمحة جغرافية عامة عن المناطق والأقاليم والبلدان التى يؤرخ لها . نجد ذلك واضحا فى كتابه المنتظم ، ومرجزه شذور العقود . كما نجده أيضا فى الجزء الأول من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى(ت٦٥٤هـ) وفى البداية والنهاية لابن كثير فيما بعد ، وكذلك لدى العينى والدوادارى وابن فضل الله العمرى وغيرهم[٣١٢] بمعنى أن هذا النهج صار تقليدا فى التأليف التاريخى اتبعه المؤرخون وكان المسعودى رائدا لهم .

والمدهش أن نرى الطبرى يأخذ عن المسعودى فى حديثه عن بدء الخليقة فى رواية أتى بها الطبرى متعلقة ببنى تميم عندما أتوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم[٣١٣] ، رغم أن الطبرى لم يعاصر من المسعودى إلا الفترة الأولى من شباب الأخير . فالطبرى توفى عام ٣١٠هـ والمسعودى توفى عام ٣٤٦هـ ، مما يعنى أن المسعودى كان ذا إنتاج علمى مميز فى تلك المرحلة المبكرة جدا من عمره ، وكان إنتاجا ذا قيمة ، مما جعل شيخ المؤرخين وهو الطبرى يأخذ منه

حسبما أشرنا ، مما يدل على عظيم مقدار المسعودي كمؤرخ ثقة ، وبالتالي على أهمية كتابه المروج .

ولذلك لا غرابة أن يعتني المستشرقون بهذا الكتاب ويترجمونه إلى لغاتهم كما سبق القول، ويعتني به العرب والمسلمون ويصدرونه في طبعات عديدة بل ويقيمون من أجله الندوات ، ويؤلفون عنه الكتب ويصدرون الأبحاث والمقالات .

وعلى ذلك كله ، وفي نهاية حديثنا عن كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نستطيع القول بأن هذا الكتاب وبعد ما قلناه عنه لا يستغني عنه باحث في تاريخ العرب القديم أو في تاريخهم الإسلامي . فما أتى به المسعودي في هذا المجال وفي غيره من المجالات التي وردت في كتابه ذاك "لا يسع ذوي الدراية جهله ، ولا يعذر في تركه والتغافل عنه" كما قال المسعودي نفسه لأنه جمعه في "عدة السنين باجتهاد وتعب عظيم ، وجولان في الأسفار . وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام"[٣١٤] ولذلك فهو يحتفي بهذا الكتاب ويبين عظيم أهميته فيقول : "إن منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهرا منثورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة ، فنظم منها سلكا ، واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقيا لطلابه"[٣١٥].

والحقيقة أن المسعودي لم يكن مبالغا في هذا القول ، ولا في تسمية كتابه هذا بمروج الذهب ومعادن الجوهر ، فقد رأينا أنه أتى فيه بأنواع من الأخبار والعلوم والمعارف والآداب وحوادث التاريخ قل أن نجدها في كتاب آخر ، واتبع في تدوينه أحدث أساليب البحث العلمي المعاصر، ولذلك لم يكن ابن خلدون مبالغا حين سماه بإمام المؤرخين المشهود لهم بالأمانة ، ولم يكن فون كريمر مبالغا أيضا حينما وصفه بأنه هيرودوت العرب .

الهوامش والحواشي

(١) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ، طبعة دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ج٢ ، ص٣٠٠ (وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث) . وقد ورد اسم المسعودي عند صاحب اعيان الشيعة ، السيد محسن الأمين (ج١٠ ص١٢٢) على أنه علي بن الحسن بن علي المسعودي الهذلي ، ويكنى المسعودي بأبي الحسن أو أبي الحسين ، انظر : مروج الذهب ط ج١ ص ٧ .

(٢) يذكر ابن النديم في الفهرست أن المسعودي من ولد عبد الله بن مسعود ، بينما يشكك تاج الدين السبكي في هذه النسبة فيقول : "قيل إنه من ذرية عبد الله بن مسعود" انظر : ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢١٩ . تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ ط٢ ، ج٢ ، ص٣٠٧ . ولاشك أن ابن النديم أصدق من تاج الدين السبكي لأنه كان معاصرا للمسعودي فقد توفي عام ٣٨٣هـ أي بعد وفاة المسعودي بـ٣٧ سنة فقط بينما توفي السبكي عام ٧٧١هـ .

(٣) انظر ، صاحب مقدمة كتاب أخبار الزمان للمسعودي ، دار الأندلس ، بيروت ، سنة ١٩٨٣ ، ط٥ ، ص٢١ .

(٤) أشار المسعودي إلى أنه من إقليم بابل بالعراق في كتابه المروج ، ج٢ ص٧٠ ، وعلى ذلك اتفقت المصادر التي وردت عنه ، فيما عدا محمد بن اسحاق النديم صاحب الفهرست ، إذ قال إنه من أهل المغرب [انظر : الفهرست ، ص٢١٩] وقد صحح ياقوت الحموي هذا القول ، وقال "إن هذا خطأ ، والصحيح أنه ولد في العراق" (أنظر : معجم الأدباء : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج١٣ ، ص٩٠ ، ٩١) ، وحتى لا يقال إن ابن النديم توهم في أصل المسعودي فظن أنه من أهل المغرب ربما لوجود رجل هناك يحمل نفس الاسم ، فالواقع أنه لا يوجد بين أهل المغرب من حمل اسم أو لقب المسعودي ، وقد أورد عمر رضا كحالة في معجمه أسماء ثمانية رجال يحمل كل منهم لقب المسعودي ، لكنهم كلهم عاشوا في بلاد المشرق الإسلامي ، وفي زمن مخالف تماما لزمن المسعودي ومعظمهم محدثون وفقهاء وأدباء وليسوا مؤرخين أو رحالة أو جغرافيين كما كان صاحبنا المسعودي الذي نتحدث عنه ، وعلى ذلك فإننا لا نعدو من أين أتى ابن النديم بهذه المقولة مع أنه كان معاصراً للمسعودي في الجزء الأخير من حياته . انظر : عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مكتبة المثنى ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٧ ، ص٨٠ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ، ج١٣ ص٩٣ ، تاج السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٢ ص٣٠٧ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص٣٢٦ .

(٧) أشار ياقوت إلى أنه توفي عام ٣٤٦هـ (معجم الأدباء ، ج١٣ ص٩٠ ، ٩٣) وذكر ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٢ ص١٣) إنه مات في العام المذكور ، وكذلك ذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان (طبعة بيروت ط٢ سنة ١٩٧١ ، ج٤ ص٣٢٥ ، بينما ذهب فريق ثان على رأسه تاج الدين السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى، ج٢ ص٣٣ إلى أنه مات سنة ٣٤٥ أو سنة ٣٤٦ هـ ولم يجزم بموته في عام ٣٤٥ هـ إلا الذهبي في كتابه (تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٣ ص٨٥٧) وفي كتابه الآخر سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ سنة ١٩٨٤) ج١٥ ص٥٦٩ ، وتابعه على ذلك عمر رضا كحالة في معجمه (ج٧ص ٨٠) ، د. رحاب خضر عكاوي في موسوعة عباقرة الإسلام ج٢ ص١٣٥ .

(٨) تاج الدين السبكي : نفس المصدر ، ج٢ ص٣٠٧ .

(٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٠٧ .

(١٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ص٥٦٩ ، تاج الدين السبكي : نفس المصدر ، ج٢ ص٣٠٧ .

(١١) الصولي : أخبار أبي تمام ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت بدون تاريخ ، مقدمة الكتاب.

(١٢) جورجي زيدان : مشاهير جرجي زيدان الكاملة ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٢م ، ج١٤ ص١٧٥ . ويلاحظ أن صاحب مقدمة الطبعة الفرنسية المترجمة في كتاب مروج الذهب (طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ ص٥) أشار إلى أن المسعودي زار ملتان ومدينة المنصورة في بلاد السند في عام ٣٠٣ ق ، وتابعه على ذلك د. حسين مؤنس في كتابة أطلس الإسلام (طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٧ ، ص٢٦) .

(١٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ص١٠٦ ، ١١٣ ، ١٩٠ ، ١٩٧ .

(١٤) تاج الدين السبكي ، ج٢ ص٣٠٧ .

(١٥) مروج الذهب ، ج١ ص١٠٦ .

(١٦) مقدمة الطبعة الفرنسية المترجمة في كتاب مروج الذهب ، لصاحبها المستشرق الفرنسي دي ميناز ، طبعة دار الأندلس ، بيروت ، ط١ سنة ١٩٦٥ ، ج١ ط٧ ، جورجي زيدان ، نفس المرجع ، ج١٤ ص١٧٥ .

(١٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٠٢ .

(١٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٠٢ ، ٣٦ .

(٢٠) المصدر السابق ، ج١ ص٢٦ .

(٢١) المسعودي : التنبيه والإشراف ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٢٤٣ ، ٣٦٤ ، مقدمة الطبعة الفرنسية لكتاب المروج ، ج١ ص٧ .

(٢٢) وردت قائمة بأسماء كتب المسعودي التي ذكرها سواء في كتاب المروج أو التنبيه والإشراف في مقدمة الكتاب الأخير ص٨-١٠ .

(٢٣) مروج الذهب ، ج١ ص١١ .

(٢٤) المصدر السابق ، ج١ ص١٢ .

(٢٥) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص٣٠ .

(٢٧) سير اعلام النبلاء ، ج١٥ ، ص٥٦٩ .

(٢٨) طبقات الشافعية الكبرى ، ج٢ ص٣٠٧ .

(٢٩) لسان الميزان ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط٢ سنة ١٩٧١ ، ج٤ ص٣٢٥ .

(٣٠) رحاب خضر عكاوي : موسوعة عباقرة الإسلام ، دار الفكر العربي ، بيروت ط١ سنة ١٩٩٣ ، ج٢ ص١٣٥ صاحب مقدمة كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان للمسعودي ، نشر دار الأندلس بيروت ، ط٥ سنة ١٩٨٣ ، ص٣٠ .

(٣١) محسن الأمين : أعيان الشيعة ، تحقيق حسن الأمين ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ج١٠ ، ص١٢٢ . والملاحظ أن هذا المرجع لم يذكر عن المسعودي اسمه فقط ، بل أن هذا الاسم جاء مغلوطاً ، حيث ورد عنده أن اسمه هو : "علي بن الحسن بن علي المسعودي الهذلي وفي منهج المقال هو المعروف بالمسعودي عندنا" . وهذا كل ماجاء عن المسعودي في الكتاب المذكور .

(٣٢) تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج١ ص٣ ، ٤ .

(٣٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٢ .

(٣٤) مروج الذهب ، ج٢ ص٣١٢ .

(٣٥) المصدر السابق ج١ ، ص٣٢ ، ٣٣ .

(٣٦) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٩ ، ٣٧ .

(٣٧) المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٠٠ .

(٣٨) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٦ .

(٣٩) انظر رأي الإمامية كاملا في هذا الموضوع كما ورد في كتاب المروج ، ج٣ ، ص٢١٣-٢١٤ .

(٤٠) مروج الذهب ، ج٤ ص١٠٠ .

(٤١) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢١٢ .

(٤٢) المصدر السابق ، ج٤ ص١٠١ .

(٤٣) المصدر السابق ، ج٢ ص٨٠٤ ، ٩٠٤ .

(٤٤) المصدر السابق ، ج٢ ص٧٠٤ .

(٤٥) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٧٣ .

(٤٦) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٧٥ .

(٤٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٤٨ وعن موقف الإمام علي بن أبي طالب وموقف الصحابة عامة من مقتل عثمان بن عفان ، انظر : رجب عبد الحليم : تاريخ عصر النبوة والخلافة الراشدة ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٨٧م ، ص٣١٦-٣٢١ .

(٤٨) مروج الذهب ، ج٤ ص٢٨٤ .

(٤٩) المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣-١٧ .

(٥٠) المصدر السابق ، ج١ ١٧ ، ١٨ .

(٥١) المصدر السابق ، ج١ ص١٩-٢٦ .

(٥٢) المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٤ .

(٥٣) المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٨ .

(٥٤) المصدر السابق ، ج١ ص٣١٨ .

(٥٥) المصدر السابق ، ج١ ص٣٤٤ .

(٥٦) المصدر السابق ، ج١ ص٣٩٦ .

(٥٧) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨٦ .

(٥٨) عبد العليم خضر : المسلمون وكتابة التاريخ ، نشر المعهد العلمي للفكر الإسلامي ، هيرندن ، فرجينيا ، ط١ سنة ١٩٩٣م ، ص٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، السيد عبد العزيز سالم : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٨١م ، ص٧٦ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٥٩) مروج الذهب ، ج١ ص٤٢ .

(٦٠) المصدر السابق ، ج١ ص٦٦ .

(٦١) المصدر السابق ، ج١ ص٣٥ .

(٦٢) المصدر السابق ، ج١ ص٧٣ .

(٦٣) المصدر السابق ، ج١ ص٦٧ ، ٦٨ .

(٦٤) المصدر السابق ، ج١ ص٧٧ .

(٦٥) المصدر السابق ، ج١ ص٧٦ .

(٦٦) المصدر السابق ، ج١ ص٨٩ ، ج٢ ، ص٢٢٠ .

(٦٧) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٢ .

(٦٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٠ .

(٦٩) المصدر السابق ، ج١ ص٨٨ ، ج٢ ص٢٢٠ .

(٧٠) المصدر السابق ، ج١ ص١١٣ ، ١١٤ ، ج٢ ص٢٢٠ .

(٧١) المصدر السابق ، ج١ ص١٤٢ ، ١٤٣ .

(٧٢) المصدر السابق ، ج١ ص١١٤ .

(٧٣) المصدر السابق ، ج١ ص٣٥١ .

(٧٤) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٣٥ .

(٧٥) المصدر السابق ، ج١ ص١٦٤ .

(٧٦) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٦ .

(٧٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٨ .

(٧٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٣٠ .

(٨٠) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٣٣ ، ٢٣٥ .

(٨١) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٤٤ .

(٨٢) المصدر السابق ، ج١ ص٨٠ .

(٨٣) المصدر السابق ، ج١ ص١٤٠ .

(٨٤) المصدر السابق ، ج١ ص١٤٥ .

(٨٥) المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٨٦) المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٢ .

(٨٧) المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٨٨) المصدر السابق ، ج١ ص٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٨٩) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ .

(٩٠) المصدر السابق ، ج١ ص١٧٠-٢٢٠ ، ٣١٥-٣٥٤ ، ج٢ ، ص١٩-٣٩ .

(٩١) المصدر السابق ، ج١ ص١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ .

(٩٢) المصدر السابق ، ج٢ ص٧٣ ، ٨٩ ، ١٤٥-١٤٩ ، ١٨٥ .

(٩٣) المصدر السابق ، ج٢ ص٤٢ .

(٩٤) المصدر السابق ، ج٢ ص٨٢ .

(٩٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج١ ، ٢ في مجلد واحد ، بدون ناشر وبدون تاريخ ، ج١ ص٢٦٢-٢٦٩ ، ج٢ ص٦-١٢ ، ٥٦-٩٤ .

(٩٦) المصدر السابق ، ج٢ ص٨٩ .

(٩٧) مروج الذهب ، ج٢ ص٢٧٦ .

(٩٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٧٧ .

(٩٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٩٠-٢٩٢ .

(١٠٠) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(١٠١) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٣٠ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(١٠٢) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٦٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ .

(١٠٣) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(١٠٤) المصدر السابق ، ج٣ ص٥٣ ، ٨٢ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢١٧ .

(١٠٥) المصدر السابق ، ج٣ ص١١٨ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ج٣ ص١٢٢ ، ١٣٥-١٤٣ ، ١٦٥ ، ١٧٦ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ج٣ ص١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٦ .

(١٠٨) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧-٣١٢ .

(١٠٩) المصدر السابق ، ج٣ ص٣٢٧ ، ٣٣٣-٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ .

(١١٠) المصدر السابق ، جد ٣ ص٣٦٧ .

(١١١) المصدر السابق ، ج٤ ص١٢ .

(١١٢) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٠ ، ٢٢ .

(١١٣) المصدر السابق ، ج٤ ص٦٥-٦٧ ، ٧٠ .

(١١٤) المصدر السابق ، ج٤ ص١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ .

(١١٥) المصدر السابق ، ج٤ ص١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

(١١٦) المصدر السابق ، ج٤ ص١٤٤ ، ١٤٥ .

(١١٧) المصدر السابق ، ج٤ ص١٥٨ ، ١٥٩ .

(١١٨) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٠٣-٢٠٧ .

(١١٩) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٥٤-٢٥٩ ، ٢٦١-٢٦٣ .

(١٢٠) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٦٩-٢٧٣ .

(١٢١) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٨٧-٢٨٨ .

(١٢٢) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٩٣ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٨٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(١٢٤) المصدر السابق ، ج٤ ص٣١٥ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٢٢ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٢٧ ، ٣٣١ .

(١٢٧) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٢٧ ، ٣٣١ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٣٤١ ، ٣٥٢ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٤١ .

(١٣٠) المصدر السابق ، ج١ ص١٢ .

(١٣١) ال

(١٣٢) المصدر السابق ، ج١ ص٨٤ .

(١٣٣) المصدر السابق ، ج١ ص٨٤ .

(١٣٤) المصدر السابق ، ج١ ص٩٨ ، ٩٩ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ج١ ص٩٩ .

(١٣٦) المصدر السابق ، ج١ ص٩٩ .

(١٣٧) المصدر السابق ، ج١ ص١٢٠ ، ١٢١ .

(١٣٨) المصدر السابق ، ج١ ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٣٩) عبد الحليم خضر ، نفس المرجع ، ص٢١٢ .

(١٤٠) مروج الذهب ، ج١ ص١٣٧ ، ١٤٠ .

(١٤١) المصدر السابق ، ج١ ص١٤٥ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ج١ ص١٦٤ .

(١٤٣) المصدر السابق ، ج١ ص٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(١٤٤) المصدر السابق ، ج١ ص٣٠٩ .

(١٤٥) المصدر السابق ، ج١ ص٣١٠ .

(١٤٦) المصدر السابق ، ج١ ص٣٣٩ .

(١٤٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٧ .

(١٤٨) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٥ ، ٢٦ .

(١٤٩) المصدر السابق ، ج٣ ص١١٤ .

(١٥٠) المصدر السابق ، ج٣ ص١١٨ ، ١٧٦ .

(١٥١) المصدر السابق ، جد ٣ ص١٥٩ ، ١٦٥ .

(١٥٢) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٠٣ .

(١٥٣) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

(١٥٤) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٦ .

(١٥٥) المصدر السابق ، ج٤ ص٦٧ .

(١٥٦) المصدر السابق ، ج٤ ص٩٠ .

(١٥٧) المصدر السابق ، ج٤ ص١٠٦ .

(١٥٨) المصدر السابق ، ج٤ ص١٥٨ .

(١٥٩) المصدر السابق ، ج٤ ص١٢٩ ، ١٤٥ .

(١٦٠) المصدر السابق ، ج٤ ص١٣٠ .

(١٦١) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٤٠ .

(١٦٢) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٠٢-٣٠٦-٣٠٩-٣١٠ .

(١٦٣) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٠٦ .

(١٦٤) المقريزي : الخطط ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ ج٢ ص٢٦٦ ، سيدة إسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، دار الراتد العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص١٢٣ .

(١٦٥) انظر نص هذا النقش في مروج الذهب ، ج٢ ص٩٢ .

(١٦٦) مروج الذهب ، ج٢ ص٢٥٣ .

(١٦٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٤٢ .

(١٦٨) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(١٦٩) المصدر السابق ، ج١ ص١٤ .

(١٧٠) المصدر السابق ، ج١ ص١٥ .

(١٧١) المصدر السابق ، ج١ ص١٥ .

(١٧٢) المصدر السابق ، ج١ ص١٥ .

(١٧٣) المصدر السابق ، ج١ ص١٥ .

(١٧٤) المصدر السابق ، ج١ ص١٥ ، ١٦ .

(١٧٥) المصدر السابق ، ج١ ص١٦ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ج١ ص١٦ ، ١٧ .

(١٧٧) المصدر السابق ، ج٤ ص١٨١ .

(١٧٨) المصدر السابق ، ج١ ص١١٩ .

(١٨٠) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩ .

(١٨١) المصدر السابق ، ج٣ ص١٥٠ .

(١٨٢) المصدر السابق ، ج٣ ص١٧٣ .

(١٨٣) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٢٧ .

(١٨٤) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٢٨ .

(١٨٥) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٣١ .

(١٨٦) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(١٨٧) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٥٥ .

(١٨٨) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠-٢٩٢ .

(١٨٩) المصدر السابق ، ج٤ ص٦٥-٩٧ .

(١٩٠) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٢٠ .

(١٩١) السيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ص٩٢ ، ٩٣ .

(١٩٢) مروج الذهب : ج٣ ص٢٧٦-٢٩٢ .

(١٩٣) المصدر السابق ، ج١ ص٢٩٣-٢٩٨ .

(١٩٤) المصدر السابق ، ج٣ ص١٥-٣٠ .

(١٩٥) المصدر السابق ، ج٣ ص ٣١-٣٥ .

(١٩٦) المصدر السابق ، ج٣ ص٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ .

(١٩٧) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٨-٤٢ .

(١٩٨) المصدر السابق ، ج٤ ص٤٢ ، ٥٨-٦٢ .

(١٩٩) المصدر السابق ، ج٤ ص٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(٢٠٠) المصدر السابق ، ج٤ ص١٣١ -١٣٤ .

(٢٠١) المصدر السابق ، ج٤ ص١٣٥-١٥٣ .

(٢٠٢) المصدر السابق ، ج٤ ص١٥٤-١٦٨ .

(٢٠٣) المصدر السابق ، ج٤ ص١٦٩-١٨٣ .

(٢٠٤) المصدر السابق ، د ٤ ص١٨٤-٢٠١ .

(٢٠٥) المصدر السابق ، ج٤ ص٢١٢-٢٤٩ .

(٢٠٦) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٥٠-٢٦٥ .

(٢٠٧) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٦٦-٢٨٤ .

(٢٠٨) المصدر السابق ، ج٣ ص٣١٢ .

(٢٠٩) مثال ذلك ماذكره الدكتور عبد العليم منتصر في هذا المعنى وهو أن المسعودي تخلص من طريقة الإسناد في المتن . وكذلك فعل الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي رأى أنه اكتفى بذكر مصادره في مقدمة الكتاب ، وقال كراتشكوفسكي أن المسعودي اعتمد في طريقته في التأليف على العرض الأدبي لا على الإسناد . وكذلك قال الدكتور شاكر مصطفى أن المسعودي يعتبر أبرز ممثل للطريقة التاريخية اللاسندية . انظر: عبد العليم منتصر : المسلمون وكتابة التاريخ ، ص٢٢١ ، ٢٢٢ ، السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، ص٧٥ ، ٧٦ - كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج١ ص١٨٣ ، شاكر مصطفى ، التاريخ والمؤرخون ، بيروت ط٢ سنة ١٩٧٩ ، ج١ ص٣٧٨ .

(٢١٠) مروج الذهب ، ج٣ ص٣٤٧ ، ٣٥٦ .

(٢١١) المصدر السابق ، ج٣ ص٣٦١ .

(٢١٢) المصدر السابق ، ج٣ ص١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢١٣) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٢٦ ، ٢٢٨-٢٣٠ .

(٢١٤) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢١٥) المصدر السابق ، ج٤ ص١٣٣ ، ١٤٥-١٤٨ .

(٢١٦) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٥٥ ، ٣٠٦ .

(٢١٧) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٥٤ .

(٢١٨) عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، دار المشرق ، بيروت ، سنة ١٩٨٣ م ، ص٥٨ .

(٢١٩) المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٢٢٠) تاريخ الأدب الجغرافي ، ج١ ص١٨٣ ، شاكر مصطفى : نفس المرجع ، ج١ ص٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢٢١) مروج الذهب ، ج١ ص١٢١ .

(٢٢٢) المصدر السابق ، ج١ ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢٢٣) المصدر السابق ، ج٢ ص٥٨ .

(٢٢٤) المصدر السابق ، ج٢ ص٦١ .

(٢٢٥) المصدر السابق ، ج٢ ص١٦٦ .

(٢٢٦) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢٢٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢٢٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢٢٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٩٠ .

(٢٣٠) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٩٢-٣٩٧ .

(٢٣١) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٩٧ .

(٢٣٢) المصدر السابق ، ج٣ ص٤١٧ .

(٢٣٣) المصدر السابق ، ج٣ ص١٦١ .

(٢٣٤) المصدر السابق ، ج٣ ص١٩٢ .

(٢٣٥) المصدر السابق ، ج٣ ص٧٥ .

(٢٣٦) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٠٢ ، ٢٠٤ .

(٢٣٧) المصدر السابق ، ج٤ ص١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢٣٨) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٠٣ .

(٢٣٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٤٠٥ .

(٢٤٠) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ط١ ، سنة ١٩٨٧ ، ص٣٩ . عبد العليم خضر ، نفس المرجع ، ص١٩٦ .

(٢٤١) ابن خلدون : تاريخه ، ج١ ص٤٠٣ .

(٢٤٢) المصدر السابق ، ج١ ص٥٢ .

(٢٤٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٢ ، ٥٣ .

(٢٤٤) ذكر البعض ممن كتبوا عن المسعودي أنه انتهى من كتابة المروج في عام ٣٣٢هـ ، والواقع أن

في ذلك العام في فسطاط مصر ، لكنه يذكر ويروي ما وقع من أحداث حتى عام ٣٣٦هـ ويذكر هو نفسه أنه انتهى منه في ذلك العام . ويمكن تفسير ذلك بأن المسعودي كتب معظم كتابه في عام ٣٣٢هـ ثم أضاف إليه التي جرت حتى عام ٣٣٦م كما يذكر هو نفسه في نهاية الكتاب . وأن ذلك كان في مدينة الفسطاط بمصر في ذلك العام ، أنظر : مروج الذهب ج٤ ص٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص٢١٦ .

(٢٤٥) مروج الذهب ، ج١ ص١٧ - ١٨ .

(٢٤٦) المصدر السابق ، ج٣ ص١٩٢ .

(٢٤٧) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٣٧ .

(٢٤٨) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص٢١٦ .

(٢٤٩) جورجي زيدان : نفس المرجع ، ج١٤ ص١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢٥٠) عبد العليم خضر : نفس المرجع ، ص٤٧ ، ٤٨ .

(٢٥١) المسعودي : التنبيه والإشراف ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٩٨١ ، ص١٧ ، شاكر مصطفى : نفس المرجع ، ج١ ص٤٠٢-٤٠٤ .

(٢٥٢) شاكر مصطفى : نفس المرجع ، ج١ ص٤٠٣-٤٠٤ .

(٢٥٣) المرجع السابق ، ج١ ص٤٠٦ .

(٢٥٤) ابن شاكر الكتبي ، نفس المصدر ، ج٣ ص١٣ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ص٥٦٩ ، تاج الدين السبكي : نفس المصدر ، ج٢ ص٣٠٧ .

(٢٥٥) رحاب خضر عكاوي ، موسوعة عبقرية الإسلام في الطب والجغرافيا والتاريخ والفلسفة ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ سنة ١٩٩٣ ، ج٢ ص١٣٦ . عبد العليم خضر : نفس المرجع ص١٩٥ .

(٢٥٦) مروج الذهب ، ج٣ ص٢٢٧ .

(٢٥٧) المصدر السابق ، ج٤ ص١٧٨ .

(٢٥٨) المصدر السابق ، ج ، ص .

(٢٥٩) المصدر السابق ، ج٤ ص٩٩-١٠١ .

(٢٦٠) المصدر السابق ، ج٤ ص٢٨٨ .

(٢٦٢) المصدر السابق ،

(٢٦٣) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ج١ ص١٨١ .

(٢٦٤) المرجع السابق ، ج١ ص١٧٧ .

(٢٦٥) المرجع السابق ، ج١ ص١٨٥ .

(٢٦٦) الموسوعة العربية العالمية ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ج٢٣ ، مادة السعودي ص٢٤٨ .

(٢٦٧) عبد العليم خضر : نفس المرجع ، ص١٩٦ .

(٢٦٨) مروج الذهب ، ج١ ص٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢٦٩) المصدر السابق ، ج١ ص٢٦٧ .

(٢٧٠) المصدر السابق ، ج٢ ص٣٢٨ ، ٣٤١ .

(٢٧١) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ص٢٩ .

(٢٧٢) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨ .

(٢٧٣) المصدر السابق ، ج١ ص٢٩ .

(٢٧٤) مروج الذهب ، ج٣ ص٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٢٧٥) المصدر السابق ، ج٣ ص٣٣٦ .

(٢٧٦) المصدر السابق ، ج٣ ص١١٨ .

(٢٧٧) المصدر السابق ، ج١ ص١٦ .

(٢٧٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٦٤ .

(٢٧٩) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٥ ، ٣٥١ .

(٢٨٠) جورجي زيدان : نفس المرجع ، ج١٤ ص١٧٥ .

(٢٨١) مروج الذهب ، ج١ ص١٣-١٧ .

(٢٨٢) عبد العليم خضر : نفس المرجع ، ص١٩٨ .

(٢٨٣) مقدمة الطبعة الفرنسية المترجمة للعربية لكتاب المروج ، طبعة دار الأندلس ١٩٦٥ ، ج١ ص٨ .

(٢٨٤) المرجع السابق ، ج١ ص٢ ، رحاب خضر عكاوي : نفس المرجع ، ج٢ ص١٣٨ .

(٢٨٦) عبد العليم خضر ، نفس المرجع ، ص١٩٦ .

(٢٨٧) مقدمة الطبعة الفرنسية المترجمة إلى العربية لكتاب المروج ، ج ١ ، ص٥ .

(٢٨٨) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ص٦٠ .

(٢٨٩) عبد العليم خضر ، نفس المرجع ، ص١٩٦ .

(٢٩٠) المصدر السابق ، ج٢ ص١٤٨-١٦٧ .

(٢٩١) المصدر السابق ، ج٢ ص١٨ ، ١٩ .

(٢٩٢) المصدر السابق ، ج١ ص٥١ ، تاريخ ابن خلدون ج١ ص١٣ ، ١٥ .

(٢٩٣) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ص١٧ ، ١٨ .

(٢٩٤) مروج الذهب ، ج١ ص١٥٠ ، ١٥١ ، ج٢ ص٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .

(٢٩٥) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ص١٧ ، ١٨ .

(٢٩٦) المصدر السابق ، ج١ ص٦٠ .

(٢٩٧) مروج الذهب ، ج١ ص١٥٨ .

(٢٩٨) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ص٦٠ .

(٢٩٩) المصدر السابق ، ج١ ص١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣٠٠) المصدر السابق ، ج١ ص٣١٥ ، ٣١٦ .

(٣٠١) مروج الذهب ، ج١ ص٢٩٤ .

(٣٠٢) المصدر السابق ، ج١ ص٢٧٢ .

(٣٠٣) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨٣ .

(٣٠٤) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨٩ .

(٣٠٥) المصدر السابق ، ج١ ص٢٨٤ .

(٣٠٦) المصدر السابق ، ج١ ص٢٩٠ .

(٣٠٧) المصدر السابق ، ج٢ ص٨٢ .

(٣٠٨) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٠ .

(٣٠٩) المصدر السابق ، ج٢ ص٢٢٨ .

(٣١٠) مسكويه ، تجارب الأمم ، ملحق بكتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون تاريخ ، ج٦ ص٤٣٧ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣-٤٧٧ ، ٤٨٣-٤٨٥ . السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص١٠١ ، ١٠٢ .

(٣١١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، القسم الثاني من الجزء الخامس ، طبعة حيدر آباد الدكن ، ط١ سنة ١٣٥٧ هـ ، ص٥٩ ، ٧٣ ، ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ .

(٣١٢) شاكر مصطفى : نفس المرجع ، ج١ ص٣٤٦ .

(٣١٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ، ج١ ص١٩ .

(٣١٤) مروج الذهب ، ج٤ ص٣٥٣ .

(٣١٥) المصدر السابق ، ج٤ ص٣٥٤ .

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر العربية :

تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي .

- طبقات الشافعية الكبرى ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ .

ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي .

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، القسم الثاني من الجزء الخامس ، حيدر آباد الدكن ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٧هـ .

ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر .

- لسان الميزان ، ج٤ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧١م .

ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي .

- تاريخ العلامة ابن خلدون ، ج٢ ، ٢ في مجلد واحد ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون تاريخ .

الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي .

- تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

- سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٥هـ/١٣٦٢م) : محمد بن شاكر .

- فوت الوفيات ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .

الصولي (ت٣٣٦هـ/٩٤٧م) : أبو بكر محمد بن يحيى .

- أخبار أبي تمام ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير .

- تاريخ الأمم والملوك ، ج١ ، ٢ في مجلد واحد ، لايوجد اسم ناشر ، ولا مكان للنشر .

المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ مجلدات ، تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي رئيس دائرة الشئون الدينية ، بدار القتوى ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٩ ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في البحث وكانت محل الدراسة

- مروج الذهب ، نشر دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ بها الترجمة العربية للطبعة الفرنسية لكتاب المروج والتي استفدنا منها ، وكذلك استفدنا من مقدمة طبعة مروج الذهب بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج١ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٦٤م .

- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالها ، والعمران ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٣ .

- التنبيه والإشراف ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ .

مسكويه (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) : أحمد بن محمد بن يعقوب .

- تجارب الأمم ج٦ ، ملحق بكتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون تاريخ .

المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) تقي الدين أحمد بن علي .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار صادر ، بيروت ، ب دون تاريخ .

ابن النديم (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م) : محمد بن اسحاق بن النديم البغدادي .

- الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله .

- معجم الأدباء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .

ثانيا : المراجع العربية :

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)

- التاريخ والمؤرخون العرب ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، ١٩٨١م .

جرجي زيدان :

- مؤلفات جرجي زيدان الكاملة ، ج١٤ (تاريخ آداب اللغة العربية) ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢ .

حسين مؤنس : (دكتور)

- أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للاعلام العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ .

رحاب خضر عكاوي : (دكتور)

- موسوعة حضارة الإسلام في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة ، ج٢ ، دار الفكر العربي للطباعة

سهة إسماعيل كاشف : (دكتور)

- مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م .

شاكر مصطفى : (دكتور)

- التاريخ العربي والمؤرخون ، ج١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م .

عبد العزيز الدوري : (دكتور)

- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٣ .

عبد العليم عبد الرحمن خضير : (دكتور)

- المسلمون وكتابة التاريخ ، سلسلة المنهجية الإسلامية ، عدد رقم ٦ نشر المعهد العلمي للفكر الإسلامي ، هيرندية ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

عمر رضا كحالة

- معجم المؤلفين ، مكتبة المثنى ، بيروت ، بدون تاريخ

كراتشكوفسكي (ت١٩٥١م) : أغناطيوس يوليانوفتش .

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله إلى العربية من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، ج١ ، نشر الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

محسن الأمين : الإمام السيد

- أعيان الشيعة ، ج١٠ ، حققه وأخرجه حسن الأمين ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م .

الموسوعة العربية العالمية ، ج٢٢ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، الرياض .

د. إبراهيم محمود زعرور (*)

أضواء على اهم مصادر تاريخ فلسطين في العصر المملوكي

احتلت فلسطين في التاريخ مكانًا هامًا وتميزت بطابعها العربي المعطاء عبر العصور ، وثبت الطابع العربي لفلسطين وتجلت شخصية البلاد وهويتها العربية إثر الفتح الإسلامي لبلاد الشام في القرن السابع للميلاد ، وتكونت الشخصية الفلسطينية في إطار بلاد الشام والأمة العربية عبر العصور التي مرت بها ، وتألق دورها بعد إنهاء الوجود الصليبي في فلسطين ومصر وبلاد الشام وانتصار المماليك الحاسم في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م حيث شكلت عين جالوت نقطة تحول عظمى في التاريخ ، إذ انها أوقفت المد المغولي وحولته إلى جزر ، وحفظت مصر وصانت الشمال الإفريقي وضمنت تحرير بلاد الشام وطرد المغول إلى ماوراء نهر الفرات ، وهيأت الفرصة للعمل على تصفية الوجود الصليبي في المشرق ، لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية ومركز الإشعاع الفكري خاصة بعد دمار بغداد ، وهجرة العلماء وذوي الاختصاص والحرفيين وسواهم من المشرق إلى مصر ، ويلمس المتتبع للحركة الثقافية في فلسطين في العصر المملوكي ضعف الجانب التاريخي فيها بشكل عام .

(*) استاذ تاريخ العرب والإسلام - كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة دمشق .

ذلك أن قلة من أهل فلسطين هم الذين كتبوا بالتاريخ وعدد الذين اهتموا منهم بالتاريخ لجزء من أجزاء فلسطين ضئيل جداً ، ومع ذلك إن المعلومات التي أوردوها تعد ثمينة لايمكن الاستغناء عنها ، وباستثناء المصادر الفلسطينية نجد أن أخبار فلسطين في العصر المملوكي متناثرة داخل مصادر هذا العصر بشكل عام من كتب تاريخ وتراجم وكتب إدارة وجغرافيا .

وتتصدر المصادر الفلسطينية كتاب تاريخ صفد للقاضي صدر الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني (٧٨٠هـ/١٣٧٨م) ، وتم العثور على قطعة منه فيها حديث عن أعمال صفد الرئيسة وبعض قراها ومحاصيلها وإشارات عَرَضية للسكان والأوقاف ونشر هذه القطعة المستشرق برنارد لويس Bernard Lewis في مجلة معهد الدراسات الآسيوية والافريقية[١] ويوجد في مكتبة ديار بكر مايعتقد أنه نسخة كاملة من هذا الكتاب . وأعلى أهمية منه وأكثر فائدة كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" تأليف قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي (٨٦٠-٩٢٨هـ/١٤٥٦-١٥٢٢م) ويحتوي هذا الكتاب على معلومات لامثيل لها حول القدس ثم الخليل ، فالتراجم الواردة فيه عددها كبير جداً ووصفه لمدارس القدس ومنشآتها عامة ، هي المعول عليه ، واعتماداً على هذا الكتاب الموسوعي يمكن تلمس ملامح ظهور الشخصية الفلسطينية وتكونها حول القدس من كافة الجوانب ، وأية محاولة للتأريخ لفلسطين وللمدينة المقدسة لاتعتمد على ماجاء في هذا الكتاب هي محاولة مخفقة[٢] . ومن غير أهل فلسطين من الشاميين نلاحظ أن عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد ، أبو عبد الله الأنصاري الحلبي قد عاصر قيام دولة المماليك ، فقد ولد في حلب سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م وعاش فيها حتى كان الغزو المغولي ، فهرب منها وتوجه إلى مصر والتحق بخدمة السلطان الظاهر بيبرس ، وظل في مصر حتى توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م .

كان ابن شداد مؤرخاً وجغرافيا صنف عدة كتب أهمها كتاب "الأعلاق الخطيرة" ونظراً لغلبة الطابع الجغرافي عليه يمكن التعامل معه جغرافياً ، وسنشير هنا إلى كتابه الذي أرخ به لحياة السلطان الظاهر بيبرس وعصره ، فهذا الكتاب أهم مصدر في بابه حوى من تفاصيل الأخبار ودلتها مالا نجده عند غيره ، لكن لسوء الحظ أن مارصلنا منه يشكل قطعة صغيرة من آخر الكتاب ، وتحتوي هذه القطعة على مواد ثمينة[٣] . ولايقل مكانة عن ابن شداد القاضي محي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢هـ/١٢٢٣-١٢٩٢م) . فقد كان كاتباً

في ديوان الإنشاء في القاهرة عندما تولى السلطنة الظاهر بيبرس ، وقد عاصر ابن عبد الظاهر قيام السلطنة المملوكية وكان من شهود عيان معركة عين جالوت ، وظل طوال عصر بيبرس عاملاً وظيفة كاتب الإنشاء ، وتابع ذلك أيام السلطان المنصور قلاوون ، ثم ابنه من بعده الأشرف خليل . دون ابن عبد الظاهر سيرة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة في كتاب منفرد ، هي على التوالي : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، والألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية . وقد أودع في هذه الكتب من المعلومات مالا نجده لدى مؤرخ آخر . على أنه يلاحظ أن كتاب "الروض الزاهر" هو الوحيد بين الثلاثة الذي وصلنا كاملاً . وعلى الرغم من ذلك فإن في الكتب الثلاثة تأريخ لعصر غني بالأحداث ، معتمد بشكل خاص بالنسبة للأعمال التي استهدفت تصفية الوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام وتحرير كامل الأرض والتصدي في الوقت نفسه للخطر المغولي والأخطار القادمة من آسيا الصغرى[٤] .

ويحتوي كتاب "ذيل مرآة الزمان" لقطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونيني البعلبكي (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) على مواد غنية جداً حول الحقب المبكرة من العصر المملوكي ولاسيما حول أحوال بلاد الشام بشكل عام ، وعلى الرغم من أن هذه المواد قد عرضت بشكل مشوش بعض الشيء ، فإن ماورد خلال أخبار الحوليات وفي ثنايا تراجم الوفيات ثمين جداً[٥] .

وكان المماليك قد قاموا إثر استيلائهم على بلاد الشام بتصفية جميع الدويلات الأيوبية التي عاشت حقبة طويلة ، وكان أبرز الأيوبيين الذين حكموها في العصر المملوكي أبو الفداء إسماعيل بن علي (٦٧٢-٧٣٢هـ/١٢٧٣-١٣٣٢م) وأبو الفداء صاحب شهرة واسعة نبعت من إسهاماته في ميداني علم التاريخ والجغرافيا عند العرب ، فقد خلف لنا بالتاريخ كتابه "المختصر في أخبار البشر" وكتابه "تقويم البلدان" عني به بالجغرافية .

أما بالنسبة لكتاب "المختصر في أخبار البشر" نلاحظ أن المواد الإخبارية للأحداث التي شهدها أبو الفداء أو شارك بها ذات قيمة ، وماعدا ذلك نقلد من مصادر معروفة ذلك أنه اختصر مواد ابن الأثير صاحب "الكامل في التاريخ" وكان أبو الفدا ، شاهد عيان ومشاركاً في معارك التحرير في فلسطين[٦] .

ويعد الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز (٦٧٣-٧٤٨هـ/١٢٧٤-١٣٤٧م) أشهر مؤرخي العصر المملوكي قاطبة وأغزرهم إنتاجاً ، وقد اشتهر كمحدث أيضاً ، وكان أهم ماكتبه في التاريخ كتاب "تاريخ الإسلام" واستخرج من هذا الكتاب بعض الأجزاء فقط ، وهنالك أكثر من محاولة لنشر هذا الكتاب كاملاً وأودع الذهبي جل المواد الإخبارية الواردة في كتاب سماه دول الإسلام ، وقد تمت الإفادة من هذا الكتاب في كل الدراسات التي تبحث بتاريخ فلسطين[٧] .

وكان ابن الاثير علي بن محمد الجزري حين عُدَّ كتابه كاملاً في التاريخ ، فعمل ذلك على أساس اختصاره لـ تاريخ الطبري وإكماله حتى عصره مع بعض الاستدراكات وتمام أبو الفداء باختصار كتاب الكامل وإكماله حتى أيامه ، وبعد وفاة أبي الفداء جاء ابن الوردي عمر بن مظفر بن عمر المعري (٦٩١-٧٤٩هـ/١٢٩٢-١٣٤٩م) فاختصر كتاب أبي الفداء وأكمله بعنوان تتمة "المختصر في أخبار البشر" .

وكان ابن الوردي شاعراً أديباً وفقيهاً تولى القضاء بمنبج وتولى بحلب وقد صنف عدة كتب في التصوف والأدب والنحو وغير ذلك ، ولابد من العودة إلى كتابة "تتمة المختصر" والإفادة من موادها[٨] لكل باحث في تاريخ فلسطين في العصر المملوكي .

ويعد كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير من أشهر كتب تاريخ الإسلام العامة وأهمها ، ويحتوي هذا الكتاب على مواد غنية عن العصر المملوكي ، ذلك أن ابن كثير عماد الدين إسماعيل القرشي (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) كان قد عاش في دمشق المملوكية وشهد الكثير من الأحداث . كما أنه نقل عمن تقدمه من المؤرخين ، فقد نقل محتويات كتاب "تاريخ البرزالي (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) المعروف باسم "المقتفى على تاريخ أبي شامة" وقد قلل من مكانة مواد ابن كثير أن مصادره باتت متوفرة ، ومع ذلك فإن نوع الإختيار والاقتباس مع مادونه من أخبار عصره أمور لها مكانتها[٩] .

ومثلما نبغ في بلاد الشام عدد كبير من المؤرخين شهدت مصر إقدام عدد من العلماء على التصنيف بالتاريخ العام بشكل حولي أو بالتاريخ الخاص ، وكان من هؤلاء الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وقد صنف ابن حبيب عدة كتب أوقفها على أخبار المماليك الأوائل كان منها كتاب "درة الأسلاك" ثم كتاب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه

في القاهرة ، وهو وإن حوى بعض المواد الإخبارية المفيدة ، فقد كانت درجة الإفادة من الكتاب بشكل عام محدودة لغلبة الطابع الأدبي والصنعة عليه[١٠] .

ويعد ابن الفرات المصري ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٧٣٧-٨٠٧هـ/١٣٣٥-١٤٠٥م) من أعظم المؤرخين المصريين في العصر المملوكي ، وذلك أنه وفر لنا بكتابه "تاريخ الدول والملوك" مواد ثمينة تعلقت بعدد كبير من الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها فلسطين لاسيما أثناء التصدي للغزو المغولي وخلال أعمال التحرير وتصفية الوجود الصليبي في المشرق ، ولقد وصلنا بعض مصادر ابن الفرات ، وبعضها الآخر لم يصلنا ، أضف إلى هذا أنه عاصر أحداثاً جمة فدوّن أخبارها ، كما وصلت بشكل رسمي إلى دوائر الدولة في القاهرة ، وقد جرى اعتماد تاريخ ابن الفرات والإفادة منه من قبل الذين تعاملوا مع تاريخ العصر المملوكي وهو عظيم الفائدة بالنسبة لفلسطين[١١] .

وكان ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) من المؤرخين الذين أمضوا شطراً من حياتهم في مصر والشام أيضاً ، وابن خلدون أشهر من أن يُعرَّف ، وشهرته نابعة مما جاء في مقدمة كتابه في التاريخ بعنوان "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" .

والذي يهمنا ما أورده ابن خلدون من أخبار بعض حوادث الحقبة المملوكية المبكرة بشكل مختصر ، وأسهب في تفاصيل أخبار الأحداث التي عاصرها ، وتعلق جلها بقيام دولة المماليك الثانية تحت حكم الشراكسة وبحملات تيمورلنك ضد بلاد الشام ، ولقد شهدت أرض فلسطين عدة أحداث من وقائع الصراع المملوكي الداخلي ، كما أن ابن خلدون كان داخل دمشق لدى حصار تيمور لها ، وقد اجتمع بتيمور وتحدث عن إجتماعه به في كتاب آخر من كتبه هو "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"[١٢] .

وكان ابن خلدون صاحب مدرسة تاريخية واسعة التأثير ، وكان ممن تأثر به بشكل كبير المقريزي مؤرخ مصر الإسلامية ، ونظراً للمكانة الكبيرة لهذا المؤرخ ، ولكونه قدم أهم ماصنف بأخبار الدولة المملوكية يستحق أن نقف عنده أكثر من سواه ونوليه المزيد من العناية .

والمقريزي هو تقي الدين أحمد بن علي ، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م من أسرة تنتمي بالأصل إلى بلدة بعلبك وكانت تقطن في حي من أحياء البلدة عرف باسم حي المقارزة زالت معالمه الآن ولم يعد أحد يسكنه

نشأ المقريزى فى كنف جده لأمه ، وعرف بابن العائغ وكان من علماء الحنفية ، لهذا تأثر المقريزى على ثقافة عالية والتحق بعدد من الوظائف الرفيعة والسامية ، كما قام بزيارة عدد من بلدان العرب خاصة مكة ودمشق حيث أقام فى كل منهما مدة طويلة ، وقد انتهت حياته فى القاهرة ٨٤٥هـ/١٤٤١م .

وكان المقريزى غزير الإنتاج وخاصة فى ميادين التاريخ ، ويمكن تصنيف إنتاجه فى هذا الباب إلى قسمين : المؤلفات الكبيرة ، والرسائل الصغيرة ، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع التاريخ الإسلامى العام ، أو على تاريخ مصر الإسلامية السياسى والعمرانى ، عبر عدة مراحل أولها منذ الفتح الإسلامى حتى قيام حكم الخلافة الفاطمية ، وثانيهما تاريخ هذه الخلافة حتى سقوطها وثالثها – وهو مايهمنا – منذ نهاية العصر الفاطمى حتى أيامه فى العصر المملوكى .

أما الرسائل الصغيرة فقد عالج فيها المقريزى عدداً من المواضيع الهامة للغاية ، ارتبط معظمها بمشاكل العصر المملوكى ، وفى هذه الرسائل تظهر أصالة المقريزى وعبقريته العظيمة وكان بين الرسائل :

١- التعب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك .

٢- شذور العقود فى ذكر النقود .

٣- إغاثة الأمة بكشف الغمة .

٤- البيان والإعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب .

لسنا بحاجة للحديث عن مصنّفات المقريزى الكبيرة باستثنا- كتابه "السلوك" ، وقد أوقف المقريزى هذا الكتاب على التاريخ المملوكى مقدمًا له بأخبار الأيوبيين ، ويعد هذا الكتاب العملاق المصدر الأساسى الذى لايستغنى عنه فى التاريخ المملوكى ، ولحسن الحظ تم نشره كاملاً فى اثنى عشر مجلداً كبيراً . ومن المفيد هنا الإشارة إلى كتابه الذى وضعه حول خطط القاهرة بعنوان "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" لأنه أساسى فى التاريخ العمرانى لهذه المدينة ولأصولها الإسلامية : قطائع أحمد بن طولون وفسطاط عمرو بن العاص ، ونشير هنا أيضًا إلى أن المقريزى قبل وفاته شرع بتصنيف كتاب على غرار "تاريخ دمشق" لابن عساكر ،

أراد أن يؤرخ به لمصر والواردين إليها ، وأراد أن يأتى كتابه هذا بستين مجلداً مثل كتاب ابن عساكر وقد دعاه باسم "المقفى الكبير فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها" ، وقد لحق بربه قبل أن يتاح له إكمال مشروعه الكبير[١٤] .

وفى بلاد الشام كان ابن قاضى شهبة أبو بكر أحمد الأسدى الدمشقى (٧٧٩-٨٥١هـ/١٣٧٧-١٤٤٨م) أعظم مؤرخيها أيام المقريزى ، وقد كتب تاريخًا كبيراً ذيل به على تاريخ ابن كثير "البداية والنهاية" ثم اختصر هذا التاريخ ، وفى هذا الكتاب معلومات شامية غنية تعزز ما أورده المقريزى وتزيد فى كثير من الحالات والتفاصيل[١٤] .

ولقد كان من بين كبار مؤرخى هذا العصر ابن حجر العسقلانى وهو أحمد بن على بن حجر الشافعى العسقلانى الأصل ، المصرى المولد القاهرى الدار والنشأة (٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧٢-١٤٤٨م) كتب فى التاريخ والتراجم وكتابه "إنباء الغمر بأبناء العمر" أهم كتبه التاريخية ، كانت له صلات شخصية ببعض السلاطين كما كان من أصحاب الرحلة فى تتبع الأخبار داخل مصر وخارجها فى الشام والحجاز واليمن ، وأتاح له هذا كله مالم يتح لغيره فاطلع على معلومات عجز معاصروه عن الوصول إليها[١٥] .

وفى القرن التاسع والخامس عشر صنف أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) موسوعته التاريخية الكبيرة "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" ، وأبو المحاسن من أصل مملوكى ، لقد كان والده أتابكًا للعساكر بمصر ثم كافلاً للمملكة الشامية ، وقد أتاح هذا له فرصة الاطلاع على كثير من تفاصيل أخبار عصره السياسية والإدارية والعمرانية ، ومن هذا الباب جاء الكتاب غنيًا ومفيداً[١٦] .

واستمرت حركة التاريخ نشطة فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى وأهم المؤرخين الذين تمت الإفادة من مصنفاتهم هم : على بن داوود ابن الصيرفى المعروف بالخطيب الجوهرى (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) ، ومحمد بن أحمد بن إياس (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ، ومحمد بن طولون الصالحى (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) . صنف ابن الصيرفى كتاب "نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان" وصنف ابن إياس "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" ، أما ابن طولون فقد صنف الكثير من الكتب الهامة منها : "مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان" ، وإعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك فى دمشق الكبرى" وهذه الكتب مفيدة جداً فى التأريخ لأواخر العصر المملوكى ، ويمكن أن نضيف إليها كتاب "التبر المسبوك فى ذيل السلوك" للسخاوى[١٧] .

وشكلت الكتب الآنفة الذكر أعلاه بعض أهم التواريخ العامة للعصر المملوكي ، وجاءت المعلومات فيها عن فلسطين عرضية وبشكل غير مباشر في كثير من الأحيان بدون تفاصيل وافيه بالغرض ، ويسد هذه الثغرة ويعوض النقص بالمعلومات كتب التراجم وهي كثيرة جداً سأذكر أهمها فقط .

كان أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الأصلي الدمشقي (٥٩٩-٦٦٥هـ/ ١٢٠٣-١٢٦٧م) قد عاصر قيام دولة المماليك وقد صنف في تاريخ الحروب الصليبية كتاب "الروضتين" وهو من أشهر الكتب وأهمها وصنع للروضتين ذيلاً ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين كما دون بعض أخبار الحوادث التي عاصرها وعلى هذا يمكن عد مواده شبه وثائقية ، وهي عظيمة الأهمية لايمكن الاستغناء عنها[١٨] .

وكان صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) من أبرز العلماء الذين أنجبتهم مدينة صفد ، ويعدّ كتابه "الوافي بالوفيات" من أهم كتب التراجم قاطبة ، ويحتوي هذا الكتاب الكبير تراجم عدد وافر من شخصيات صفد وفلسطين ممن عرفهم المؤلف أو عاصرهم ، ونظراً لكثرة رحلاته وتسلمه لعدد من المناصب فقد وقف على عدد من الوثائق الرسمية وأودع ما جاء فيها في كتابه وهكذا تتضح أهمية هذا المصدر ومكانته[١٩] .

وقد اهتم المصنفون في العصر المملوكي بكتب التراجم مرتبة حسب سني وفيات الشخصيات أو حسب حروف المعجم ، فالمبدأ الثاني قد اعتمده ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" ، وابن شاكر الكتبي في كتابه "فوات الوفيات" ، وابن أيبك السالف الذكر ، واعتمد المبدأ الأول محمد بن رافع السلامي (٧٠٤-٧٧٤هـ/١٣٠٥-١٣٧٢) في كتاب حمل اسم "الوفيات" ومادة هذا الكتاب مادة وثائقية غنية واسعة التفاصيل تتعلق بدمشق بالدرجة الأولى ثم بقية أجزاء بلاد الشام وديار السلطنة المملوكية[٢٠] ، واهتم أبو شامة بالترجمة لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين ، وبعده جاء ابن حجر العسقلاني فصنف كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" ويحتوي هذا المصدر على تراجم عدد كبير من الأعلام الفلسطينيين والذين كان لهم علاقة بتاريخ فلسطين في العصر المملوكي ، والمعلومات التي تستخلص من هذه التراجم غنية تفيد في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والعسكرية[٢١] .

وتقدمت الإشارة إلى أبي المحاسن ابن تغري بردي وكتابه "النجوم الزاهرة" ولأبي المحاسن كتاب هام جداً بالتراجم هو "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" وواضح من عنوان الكتاب أنه جاء بمثابة عمل متمم لكتاب "الوافي بالوفيات" ، ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة آلاف ترجمة فيها مواد تفصيلية في غاية الأهمية[٢٢] .

وكان محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣٠-٩٠٢هـ/١٤٩٧م) من أعظم المؤرخين في أواخر العصر المملوكي وأغزرهم إنتاجاً ، فقد ذيل على كتاب السلوك بكتاب سماه "التبر المسبوك" ، كما صنف : "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" وهو من أهم كتب التراجم وأوسعها وبالتالي أغزرها مادة ، ويكمل هذا الكتاب مواد كتاب "الدرر الكامنة" وهو من المصادر الأساسية[٢٣] .

وجاء بعد السخاوي الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي (١٠٦١هـ/١٦٥١م) مصنف كتاب "الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة" وقد تضمن هذا الكتاب تراجم عدد كبير من الشخصيات التي عاشت في أواخر العصر المملوكي ، ويمكننا عده حلقة متممة لسلسلة كتب تراجم القرون ، ومواد هذا الكتاب غنية[٢٤] .

ويمكن أن نعد كتاب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان" لعبد الله بن أسعد اليافعي (٧٦٨هـ/١٣٦٧م) من بين الكتب التي غلب عليها طابع التراجم ، ويحوي هذا الكتاب بعض المواد المفيدة ، لكن أهم من "مرآة الجنان" كتاب "شذرات الذهب" لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) ذلك أنه من أشهر كتب التراجم والتاريخ فيه مواد غنية ومفيدة ، هذا ويمكن الاستفادة من كتاب "تاريخ بيروت" لصالح بن يحيى ومن عدد من كتب البدر العيني ولاسيما : "السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي" "والروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" ومن كتاب "البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي" المنسوب لابن الشحنة ، ومن كتاب "الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية" لمحمد بن صصرى[٢٥] .

والمستعرض لأنواع الكتب التي صنفت خلال العصر المملوكي يلاحظ كثرة الكتب المتعلقة بالإدارة والأمور العسكرية ذات السمة الموسوعية ، ومن ذلك :

كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" تصنيف شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ، ويعد هذا الكتاب من أقدم الكتب في بابه ، يقدم المعلومات

الموثقة حول حدود نيابات فلسطين وسواها مع وصف موجز لأعمال كل نيابة وأهم الوظائف الإدارية فيها[٢٦] .

وهذا الكتاب قد اعتمده شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (٨٢١هـ/١٤١٨م) في موسوعته الواسعة الشهيرة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" ، ويحتوي هذا الكتاب على تفاصيل ما أوجزه العمري ويزيد في إعطاء معلومات جغرافية واقتصادية وإدارية هامة جداً ، كما أن النصوص الوثائقية الواردة فيه لايمكن الاستغناء عنها[٢٧] .

ويحتوي كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" لغرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) على معلومات إدارية شديدة الأهمية حول نيابات فلسطين ، ثم يزودنا بمعارف مفيدة حول مراكز البريد وغير ذلك من الإدارات ، وهذه المعلومات وثائقية حصل عليها ابن شاهين لفضل تقلده أرفع المناصب ، ومن ذلك أتابكية العسكر في صفد سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٩م[٢٨] .

ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى أهمية كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (٧٧١هـ/١٣٧٠م) ، وكتاب "التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار" لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي من رجال القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي لما حوياه من معلومات لها علاقة بالإدارة والحياة الاجتماعية[٢٩] .

وأهم منهما ماجاء في موسوعة "نهاية الأرب" للنويري وهو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، عرف بلقب شهاب الدين ، وشهر بالنويري نسبة إلى نويرة ، وهي قرية من قرى بني سويف في مصر ، وكانت ولادته كما هو مرجح سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م وحسب بعض الروايات سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م وهو من أبناء الخمسين ، وللنويري ثقافة جيدة وواسعة وعميقة ويأتي على رأس الموسوعيين العرب ، ونال شهرته من خلال تصنيف كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب" وجاء هذا الكتاب في ثلاثين مجلدة ، ولم تنشر أجزاء تاريخ المماليك بعد ، لكن الأجزاء المنشورة تحتوي معلومات ثمينة لاسيما بالنسبة لأوضاع الفلاحين والإدارة الزراعية في العصر المملوكي[٣٠] . وامتاز العصر المملوكي بكثرة المصنفات التي نشرت فيه حول العلوم العسكرية بشكل عام وخاص ، وقد تم نشر بعض هذه المصنفات ، لكن جلها مازال مخطوطاً ، ويعد

من الزملاء أوسع ماصنف في بابه ، وكانت الإفادة من هذا الكتاب متعلقة بمسألة الإدارة الحربية لدى المماليك والخطط التي وضعها الظاهر بيبرس أثناء القتال في معركة عين جالوت[٣١] .

وتحتوي كتب المكتبة الجغرافية العربية معلومات مفيدة حول فلسطين في العصر المملوكي فقد عاصر المؤرخ والجغرافي ابن شداد الحلبي ظهور الدولة المملوكية ، وقدم في كتابة "الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة" معلومات مفيدة جداً حول فلسطين[٣٢] ، وفضلاً عن كتاب "الأعلاق الخطيرة" يحتوي كتاب "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" لشيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (٨٢٧هـ/١٣٢٧م) على معلومات مفيدة فيها وصف لنباتات فلسطين ولأعمالها مع بعض الإشارات المفيدة اجتماعياً وزراعياً[٣٣] .

وسلفت الإشارة إلى أبي الفداء وكتابه "المختصر في أخبار البشر" وفي الحقيقة إن شهرة أبي الفداء قائمة على إسهاماته الجغرافية أكثر من إسهاماته التاريخية ، فكتابه : تقويم البلدان" عد في مقدمة كتب الجغرافيين العرب واعتبر من أشهرها وأهمها ، ويحتوي هذا الكتاب على معلومات مفيدة عن فلسطين ، لكن غالبية هذه المعلومات استقاها أبو الفداء من مصنفات متقدمة تاريخياً ، لذلك ينبغي التعامل معها بشيء من الحذر بحيث لايمكن اعتبارها تمثل عصر أبي الفداء ، بل عصور مصادرها[٣٤] .

وزار فلسطين خلال العصر المملوكي عدد كبير من الرحالة العرب وغير العرب ، كان ابن بطوطة أشهرهم على الإطلاق ، وابن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) قام برحلة واسعة انطلق فيها من المغرب أيام المرينيين سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م وقد زار بلاد الشام ووصف فلسطين وصف شاهد عيان ، حيث أنه لم ينقل عمن سبقه ولهذا تعد معلوماته في غاية الأهمية ، ولايقلل من مكانتها أن ابن بطوطة أملى "أخبار رحلته إملاء ، وأنها وصلتنا كما صيغت من قبل واحد من تلاميذه[٣٥] .

وكان السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) قد قام سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٨م بجولة تفقدية في بلاد الشام زار خلالها معظم مناطق فلسطين ، وتولى أبو البقاء محمد بن يحيى بن الجيعان (٨٤٧-٩١٢هـ/١٤٤٣-١٤٩٧م) - وكان بصحبة السلطان- وصف هذه الجولة بشكل مختصر وذلك في كتاب دعاه "القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف"

فلسطين مع وظائفهم التي شغلوها مما يدل على أن التركيب الإداري ظل طوال العصر المملوكي على حاله[٣٦] . وتحتوي كتب الحسبة على تعدادها معلومات مفيدة في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحرفية ، ومن المفيد الإشارة إلى أن مدينة القدس كانت دوماً محط الاهتمام الخاص للعرب والمسلمين ، ولذلك كثرت المصنفات حول فضائل هذه المدينة قبل العصر المملوكي وفي أثنائه وبعده . والسمة الدينية البحته غالبة على هذه الكتب ، وهي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على المكانة العلية لهذه المدينة[٣٧] .

وهناك كتابان نشرا حول آثار بيت المقدس أولهما كتاب "المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي" تأليف عبد الجليل حسن عبد الهادي ، وجاء هذا الكتاب في مجلدتين أوقفت الأولى على العصر الأيوبي والثانية على العصر المملوكي ، وهما متكاملتان واجهد المبذول فيهما علمي واضح وعظيم الفائدة[٣٨] .

وحمل الكتاب الثاني وهو متمم للأول عنوان "من آثارنا في بيت المقدس" تأليف كامل جميل العسلي ، ومراد هذا الكتاب غنية فيها جهد علمي واضح ، كما أن الصور والمخططات التي حواها لها فوائد جمة[٣٩] . وهنا يمكننا الإشارة بشكل جلي أنه بات من المقرر أن أي باحث في تاريخ فلسطين وجغرافيتها وأمورها العامة لايمكنه الاستغناء عن المواد الهامة التي أودعها مصطفى مراد الدباغ في كتابة الموسوعي "بلادنا فلسطين" وفي بقية كتبه الأخرى[٤٠] .

الهوامش

(١) صدر الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني ، قطعة من تاريخ صفد .

B. Lewis "An" Arabic Account of the Province of Sa Fad" Bu lletin of School of Oriental and African studies, Vol, XV, pp 477-487 .

(٢) عبد الرحمن بن محمد العليمي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مقدمة الناشر بلا ترقيم .

(٣) نشرت قطعة كتاب عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد عن الظاهر بيبرس بعنوان "تاريخ الملك الظاهر" تحقيق أحمد حطيط .

(٤) نشر كتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر محققاً من قبل عبد العزيز الخويطر ، وقبله كان قد جرى نشر كتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور محققاً من قبل مراد كامل ، وقبل ذلك بأمد طويل نشر الجزء الثالث من كتاب الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية محققاً من قبل اكسل موبيرغ .

(٥) نشر نصف كتاب "ذيل مرآة الزمان" في أربعة أجزاء وطبع في حيدر أباد .

(٦) لكتاب أبي الفداء "المختصر في أخبار البشر" طبعة عثمانية غير محققة جاءت في أربعة أجزاء ، وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب بالتصوير في بيروت من قبل دار المعرفة بلا تاريخ .

(٧) نشر هذا الكتاب محققاً من قبل فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، وطبع في جزءين .

(٨) طبع كتاب تتمة المختصر في أخبار البشر في بيروت في مجلدين انظر الأعلام للزركلي "مادة – عمر" .

(٩) طبع كتاب "البداية والنهاية" في أربعة عشر جزءاً ، وأعيد طبعه بطريقة الأوفست وغيرها مراراً . والكتاب بحاجة للتحقيق وضبط النص بشكل دقيق .

(١٠) نشر هذا كتاب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبيبرس بتحقيق محمد محمد أمين ، وهناك قطعة من درة الأسلاك لم استطع الوقوف على نسخة منها .

(١١) جاء كتاب ابن الفرات "تاريخ ابن الفرات" في عشرة مجلدات وتوجد نسخة خطية منه بخط المؤلف تسعة مجلدات منها في ليبيا والعاشر في مكتبة الفاتيكان ، ونشر من هذا الكتاب خمسة مجلدات ، ثلاثة في بيروت ، واثنان في بغداد .

(١٣) طبع تاريخ ابن خلدون عدة طبعات في مجلدات عدة ما من واحدة منها يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كلياً بسبب الملاحظات العلمية عليها ، أما كتاب التعريف فقد حققه محمد بن تاويت الطنجي .

(١٣) انظر : سهيل زكار . أخبار القرامطة ، ص٧١-٧٥ .

المقريزي : اتعاظ الحنفا . في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج١ ، ص١١-٢٣ .

(١٤) نشر بعض الكتاب محققاً من قبل عدنان درويش .

(١٥) حظي كتاب : "إنباء الغمر بأبناء العمر" بعناية كبيرة فنشر في وقت واحد في كل من القاهرة ودمشق وحيدر أباد الدكن في الهند ، وطبع في القاهرة بتحقيق حسن حبشي في ثلاثة مجلدات .

(١٦) طبع كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" محققاً من قبل دار الكتب المصرية وجاء في ست عشرة مجلدة : انظر ج١ ، ص٣-٢٨ .

(١٧) طبع كتاب "نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان" محققاً في القاهرة في ثلاثة مجلدات من قبل حسن حبشي ، وطبع كتاب "بدائع الزهور في وقائع الزهور" أكثر من مرة .

(١٨) طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في القاهرة ثم أعيد طبعة بالتصوير في بيروت .

(١٩) يتولى المعهد الألماني في بيروت منذ عام ١٩٦٦ العمل على نشر هذا الكتاب محققاً وجرى حتى الآن نشر معظمه .

(٢٠) طبع هذا الكتاب محققاً للمرة الأولى في بيروت ، والثانية في دمشق ، وكان في الحالتين موضوع رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير من جامعة بغداد ثم من جامعة دمشق .

(٢١) نشر جزء واحد من هذا الكتاب في القاهرة .

(٢٢) طبع نصف هذا الكتاب في أربعة أجزاء في حيدر أباد الدكن ، الهند ، وأعيدت طباعته بالتصوير في بيروت .

(٢٣) طبع هذا الكتاب في ستة مجلدات حوى كل منها جزءين من قبل مكتبة الخياط في بيروت بدون تاريخ ولا تحقيق أو ضبط .

(٢٤) طبع هذا الكتاب في بيروت محققاً من قبل الدكتور جيراتيل جبور في ثلاثة مجلدات .

(٢٥) طبع كتاب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان" في حيدر آباد الدكن، الهند ، وجاء في أربعة مجلدات ، ثم طبع ثانية بالتصوير في بيروت .

- وطبع كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" في أربعة مجلدات في كل منها جزءان في بيروت من

- وطبع كتاب "تاريخ بيروت" ثانياً محققاً ، وطبع كتاب "السيف المهند في سيرة الملك المؤيد" محققاً في القاهرة ، وقبل ذلك كان قد تمت في القاهرة طباعة كتاب "الروض الزاهر" كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية" محققاً مع ترجمة إلى الانجليزية في جامعة كاليفورنيا .

(٢٦) طبع كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" بمجلدة لطيفة في القاهرة وذلك بدون ضبط علمي للنص أو تحقيق .

(٢٧) لقي كتاب "صبح الأعشى في صناعة الانشا" عناية كبيرة وقد نشر محققاً بالقاهرة ، وجاء في خمس عشرة مجلدة مع الفهارس .

(٢٨) نشر كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" محققاً في باريس وفي مكتبة د. سهيل زكار نسخة من "كوكب الترك وصركب الملك" .

(٢٩) طبع كتاب "مميد النعم ومبيد النقم" في بيروت وطبع كتاب "التبيير والاعتبار والتحرير والاختيار" في القاهرة .

(٣٠) نشر من كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" حتى الآن واحد وعشرون مجلدة في القاهرة انظر أيضاً د. زكار "أخبار القرامطة" ص٧٠-٧١ .

(٣١) في مكتبة د. سهيل زكار نسخة مخطوطة من هذا الكتاب .

(٣٢) سلفت الإشارة إلى ابن شداد ، وردت المعلومات المتعلقة بفلسطين بجزء لبنان والأردن وفلسطين ، وقد نشر هذا الجزء في دمشق .

(٣٣) نشر هذا الكتاب في بطرسبرغ بشكل محقق .

(٣٤) نشر كتاب تقويم البلدان محققاً في باريس .

(٣٥) طبعت رحلة ابن بطوطة غير مرة وقد اعتمدت طبعة القاهرة لعام ١٩٥٨ المكتبة التجارية الكبرى .

(٣٦) نشرت هذه الرحلة محققة في بيروت .

(٣٧) محمد بن عبد الواحد المقدسي ، فضائل بيت المقدس ، ص٢-٢٤ ، حيث يجد القارئ ثبتاً بأهم الكتب المصنفة حول مكانة القدس الدينية .

(٣٨) نشر كتاب من آثارنا في بيت المقدس في عمان .

(٣٩) نشر كتاب المدارس في بيت المقدس في عمان .

(٤٠) انظر مصطفى مراد الدباغ ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين ، ج١ ، ص٢٢٣ حيث هناك ثبت بمؤلفات الدباغ حول فلسطين .

المراجع والمصادر

١- إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦١م.

٢- إبراهيم محمد علي مهدي ، إدارة القدس في عهد المماليك" ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٣- أحمد دراج ، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨م .

٤- أحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩١٠-١٩٢٠م .

- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤م .

٥- أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

٦- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٦٩م .

- الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، طبعة مصورة ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت .

٧- أحمد بن علي المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، مطبعة إحياء العلوم ، د.ت .

- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ١٩٧٠-١٩٧٣م .

- شذور العقود بذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٧م .

٨- أحمد بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٣١٢هـ .

٩- أحمد بن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٧م.

١٠- أحمد البرنيني البعلبكي ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد / الهند المطبعة العثمانية ، ١٩٥٤م .

١١- إسماعيل بن علي (أبو الفداء صاحب حماه) ، تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠م .

- المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، مصورة دار المعرفة ، د.ت .

١٢- إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢م .

(١٣) سعيد عبد الفتاح عاشور "أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك" ، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٨٠م .

- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م .

- الحركة الصليبية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣م .

- الظاهر بيبرس ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٣م .

- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣م .

- مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩م .

١٤- سهيل زكار - الحروب الصليبية ، دمشق دار إحسان ، ١٩٨٤م .

- حطين ، دمشق ، دار إحسان ١٩٨٤م .

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٤م .

- فلسطين في عصر المماليك من (أواسط القرن السابع الهجري إلى مطلع القرن العاشر الهجري / الثالث عشر الميلادي إلى السادس عشر الميلادي) .

الموسوعة الفلسطينية / بيروت ، ١٩٩٠م .

١٥- السيد الباز العريني ، المماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٩٧م .

١٦- عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) ، الروضتين في أخبار الدولتين مع الذيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت .

١٧- عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥١م .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨م .

د. أحمد بن عمر الزيلعي (*)

جمال الدين الشيبي وكتابه
الشرف الأعلى

مقدمة :

يحتل تاريخ مكة المكرمة مكان الصدارة من التاريخ الإسلامي عامة ؛ ذلك لأن مكة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومهبط الوحي، ومنطلق الرسالة المحمدية إلى الناس كافة، وبها الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، والمسجد الحرام مأوى أفئدتهم ، وبها المشاعر المقدسة التي يحج إليها كل عام مئات الآلاف من مختلف بقاع الدنيا. لذا ؛ فتاريخ مكة هو تاريخ المسلمين جميعًا ، واتصاله ، وترابط حلقاته على درجة كبيرة من الأهمية لدى الدارسين والباحثين المحدثين، ومن قبلهم مؤرخو الإسلام الذين دونوا تاريخها ، وسجلوا سير رجالاتها، وزوارها ، والمقيمين فيها، والمجاورين لبيتها على مر العصور.

ولعل أول من تصدى لتدوين تاريخ مكة من أبنائها الأقدمين هو أبو الوليد الأزرقي المكي (ت. ٢٥٠هـ/ ٨٦٥م)، ثم معاصره أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي(ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، حيث ألف كل منهما كتابًا في أخبار مكة يعدان من أفضل ما ألف في زمانهما عن تاريخ البلد الحرام. إلا أن تدوين تاريخ مكة بعد وفاة كل من الأزرقي والفاكهي أصيب بنكسة كبيرة على مدى القرون الخمسة التي تلت وفاة هذين المؤرخين البارزين. ولم يتصد أحد من أبناء مكة لتدوين تاريخها طوال هذه المدة حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حيث شهد

---

* أستاذ بكلية الآداب - جامعة الملك سعود .

هذا القرن ظهور عدد من المؤرخين البارزين يأتي على رأسهم تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، وتقي الدين بن فهد الهاشمي (ت٨٧١هـ / ١٤٦٦م) ، وابنه نجم الدين بن فهد الهاشمي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، ثم أبو بكر بن ظهيرة القرشي (ت ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) .

بين هذه الكوكبة من المؤرخين المكيين في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، برز مؤرخنا جمال الدين الشيبي ، ورسم لنفسه منهجاً جديداً مع معاصره تقي الدين الفاسي ، يتمثل في الاستفادة من كتابات شواهد القبور مصدراً من مصادر تدوين تاريخ مكة.

وإذا كان الفاسي وقف عند حدود تلك الاستفادة من شواهد القبور في تدوين التاريخ المكي، فإن جمال الدين الشيبي جعل من الشواهد نفسها ، والنصوص المدونة عليها مادته العلمية الرئيسية لتدوين تاريخه هذا الذي بين أيدينا ، وجعل المصادر الأدبية الأخرى مساندة لتلك المادة المستقاة من شواهد القبور . وبذلك فهو يعد رائداً من رواد دارسي الكتابات الإسلامية المنقوشة على شواهد القبور ، بل هو الرائد الأول ، والأستاذ غير المسبوق لهذا الفن دون منازع .

لقد درس الشيبي الكتابات المنقوشة على شواهد القبور التي اختارها ، كما نفعل اليوم: نبين نوع الخط ، ونقرأ مضمونه ، ونعرّف بالمتوفى من المصادر الأخرى المتاحة له ، وبين إن كان مات في مكة ، أو مات في خارجها ونُقل إليها، ونعرف ببلد المتوفى، ومذهبه ، وعدد ألقابه ومناصبه ، وبلده الأصلي الذي قدم منه إلى مكة ، مبيناً ، إن كان زائراً ، أو حاجاً ، أو مجاوراً وتوفي بها أثناء ذلك.

كما كانت لمؤلفنا جمال الدين الشيبي، مواقف نقدية معتدلة ، ومتوازنة ، تدل على صفاء نفسه ، وحبه للعلماء ، وتقديره لهم، وبُعده عن البغضاء ، والغيرة ، والحسد ، وحب الخير للآخرين ، والإشادة بذكرهم ، وسنتناول في هذه الورقة المتواضعة التعريف بمؤلفنا جمال الدين الشيبي ومنهجه الذي اختطه لنفسه في تأليفه لكتابه الشرف الأعلا الذي سنعرف به أيضاً في هذه الورقة المتواضعة ، ذاكرين موضوعاته ، وأقسامه ، ومختلف محتوياته ، والمصادر التي اعتمد عليها مؤلفه في إعداده.

والله ولي التوفيق.

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن علي بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد[١] يكنى بأبي المحاسن ابن النور ، ويلقب بجمال الدين المكي القرشي العبدري الشيبي. اشتهر بجمال الدين محمد الشيبي الشافعي، قاضي مكة (في زمانه) ، وشيخ الحجبة فيها. ولد في مكة المكرمة في شهر رمضان سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م م، وبها نشأ باتفاق جميع المؤرخين الذين ترجموا لحياته. ومنهم : أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) [٢]، وأبوبكر بن أحمد المعروف بابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م) [٣]، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) [٤]، وابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)[٥]، ونجم الدين بن فهد (ت ٨٨٥ / ١٤٨٠م)[٦]، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)[٧]، ومحمد بن أحمد بن إياس (ت نحو ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) [٨]، وابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)[٩]، ومحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) [١٠]، وسواهم .

طلبه للعلم ، وشيوخه ، ورحلاته :

بدأ جمال الدين محمد بن علي الشيبي حياته مبكراً في طلبه للعلم ، والتقائه بالشيوخ ، والأخذ عنهم، فيذكر ابن فهد أنه حفظ منهاج البيضاوي، والألفية لابن مالك، وحضر بمكة ، وهو في الرابعة من عمره[١١]، (العلها الرابعة عشرة) ، على الجمال الأميوطي بعض السيرة الكبرى لابن سيد الناس ، وبعض سنن ابن ماجة ، وسمع بمكة أيضاً من الجمال الأميوطي ، والعفيف النشاوري جامع الترمذي ، وبعض صحيح مسلم، ومن النشاوري أيضاً، والشيخ أبي العباس بن عبد المعطي، وفخر الدين القاياتي المجلس الآخر من الشفا. ومن الجمال الأميوطي، والبرهان الإيناسي، والشريف الزوتي بعض سنن ابن ماجة . ومن القاضي علي الزبيري جامع الترمذي، وقصيدة السكري. ومن البرهان ابن صديق صحيح البخاري، ومسند الدارمي . ومن أحمد بن محمد الناصح ، وشمس الدين محمد بن القاسم جامع الترمذي، وسنن ابن ماجة . ومن أحمد بن حسن بن الزين الرياض النضرة للمحب الطبري. ومن موسى بن مرى ابن العباس الفزولي بعض الصحيحين. ومن شمس الدين بن شكر، والصدر المناوي، والزين العراقي وغيرهم ، وتفقه في مكة أيضاً بالجمال بن ظهيرة ، عالم مكة وفقيهها في زمانه [١٢].

ولم يقنع جمال الدين محمد الشيبي بمن أخذ عنهم بمكة سواء من مشايخها ، أو من

الوافدين عليها، بل رحل في طلب العلم إلى مراكز ثقافية أخرى كانت لها شهرة واسعة في ذلك الزمن، فجال في البلاد طولاً وعرضًا [١٣]. ومنها بلاد المشرق الإسلامي التي كانت له رحلة طويلة فيها، ثم رحل إلى اليمن، وأقام بها مدة لدى ملكها السلطان الناصر [١٥]، ورحل إلى بغداد، وشيراز، وأكرمه صاحبها [١٦]، وإلى مراغة كذلك، وله رحلة إلى الشام ومصر حيث أخذ عن مشائخهما، واستفاد من علمهم [١٨].

أعماله :

تقلد جمال الدين محمد الشيبي عدة أعمال مهمة منها: حجابة البيت اعتبارا من آخر سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م [١٩]، وقيل سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م [٢٠]، وتولى قضاء مكة في سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م [٢١]، واستمر قاضيًا بمكة حتى وفاته [٢٢]. ومن الوظائف التي تقلدها أيضًا نظر الحرم [٢٣]. وقد كان محمود السيرة في الأعمال الوظيفية التي تولاها [٢٤].

براعته في الأدب والتاريخ :

تذكر معظم المصادر التي تناولت سيرته أنه عانى الأدب، ومهر فيه، وتوغل فيه حتى قيل أنه «كان لايعرف إلا به، وانصرفت أوقاته فيه» [٢٥]. وقيل : «إنه كان يحفظ أربعة وعشرين ألف بيت مفرداً من الشواهد» [٢٦]، وكتب منه بخطه الكثير، وجمع منه عدة تصانيف لطيفة وجمع مجاميع كثيرة سيرد ذكرها في مؤلفاته .

كما كان جمال الدين محمد الشيبي مؤرخا فقد نظر في التواريخ، وتضلع في العلم المتصل بها، وكانت له مشاركة جيدة في تدوينه، فقد كتب حوادث زمانه [٢٧]، ويذكر ابن قاضي شهبة أن جمال الدين الشيبي كتب بخطه الحوادث من يوم بلوغه إلى يوم وفاته [٢٨]، ويذكر البغدادي أنه ألف في تاريخ مكة [٢٩].

تلامذته وإجازاته :

كان جمال الدين محمد الشيبي يقرأ على الرجال في المسجد الحرام، ويحدث بذكر الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة، ويذكر إخراجها [٣٠]. وكان يقرأ على تلاميذه مصنف تقي الدين بن فهد : نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب [٣١]. كما كان ينشد الأشعار الواردة في كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية للسهيلي [٣٢].

وكان يجيز لتلاميذه في ما أخذوه عنه بما في ذلك رواية الشعر، وممن أجاز لهم من تلامذته، الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الوهاب اليافعي ثم المكي الذي أجاز له في كثير من الأشعار، التي سنأتي إلى ذكر بعضها بعد.

مؤلفاته :

جمع جمال الدين الشيبي مجاميع كثيرة في مختلف العلوم نذكر منها [٣٣]:

١- إزالة الشكوك في شعر الملوك .

٢- الأسمار في محارف الأشعار [٣٤].

٣- الأمثال [٣٥] صنفه لصاحب اليمن الملك الناصر أحمد بن الملك الأشرف [٣٥].

٤- إيقاظ المنتبه في من نال في شعره نوة تسمى به [٤]

٥- بديع الجمال المعلم في ما لايعلم ويعلم .

٦- تاريخ مكة .

٧- تعليق على الحاوي أو شرح الحاوي الكبير.

٨- الحجج والظفر في أحكام السفر .

٩- حوادث زمانه .

١٠- ديوان شعره.

١١- زوال الحيْن في أحكام الدَّين.

١٢- ذيل حياة الحيوان، أو مختصر حياة الحيوان للدميري.

١٣- لمع البرق في السير إلى بلاد الشرق.

١٤- سحب الذيل على أحكام الليل.

١٥- قلب القلب في ثلاثة مجلدات .

١٦- طيب الحياة في أحكام المياه .

١٧- قلائد النحر في أوصاف البحر.

١٨- [illegible]

١٩- طرف الظرفاء في أشعار الخلفاء.

٢٠- عرض الإصابة في شعراء الصحابة .

٢١- علامة العنوان في شعر النسوان .

٢٢- فواصل الحياة في أحكام القضاة.

٢٣- فيما لا يستحسن بالانعكاس [٣٦].

٢٤- وأخيراً كتاب : «الشرف الأعلا في ذكر مقابر أهلا العلا»[٣٧] [موضوع هذه الورقة].

٢٥- اللواحظ البعّاثة في أوصاف الشعراء الثلاثة (البحتري، وأبي تمام، والمتنبي) مجلد.

٢٦- معلم الأطراف في شعر الأشراف.

٢٧- نور الأعيان في شعر العميان .

٢٨- تور الإنسان في محاسن الإنسان .

ويغلب على الظن أن معظم هذه الكتب مفقود ، ولم يصل إلى أيدينا ، ولعل ذلك حدث منذ وفت ميكر ، إذ يقرر ابن فهد الذي عاش بعد وفاة مؤلفنا حوالي ثمان وأربعين سنة، (ابن فهد توفي سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ، بقوله : «وغالب هذه الكتب لم يكمل ، وذهب غالبها كأنها ما كانت»[٣٨].

نماذج من أشعاره :

سبق أن ذكرنا أن جمال الدين محمد بن علي الشيبي كان ممن يحفظ الشعر، ويجيز فيه، ويقرضه ، وقد وصلتنا بعض الأبيات الشعرية المنسوبة إليه، ومعظمها مما رواه عنه بالإجازة تلميذه جمال الدين محمد بن عبد الوهاب الباقعي المكي. من ذلك قول مؤلفنا في عودة القاضي جلال الدين البلقيني لما أعيد إلى القضاء بعد الهروي سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م[٣٩]:

عَودُ الإمام لدى الأنام كعيدهم ... بل عَودُه لا عيدَ عادَ مثالُهُ

أجلى جلالُ الدين عنا غُمّةً ... زالت بعون الله جَلّ جلاله

وأنشد في كتاب الروض الأنف للسهيلي[٤٠]:

نظرت إلى روضات كتبٍ كثيرةٍ ... ولكن مثل الروض لم تر مقلتي

فيا أيها الهموم دونك زهرةً ... تُقطّف زهرا نورها زهرة.

ويا أيها الضمآنُ ما هو ثغره ... ترشّف زلالاً كالحياة لميت

ومن أشعاره التي رواها تلميذه جمال الدين الباقعي في الطائف[٤١]:

يا أيها الطائف في حبهم ... دمعي غدا كالمطر الواكف

قد غبت عن عيني فأوحشتني ... فصحت واشوقي إلى الطايف

ومنها قوله [٤٢]:

رأى صاحبي أثمار رَيّ فقال لي ... ترى هذه الأثمار تسقط أو تجني

فقلت له كُلها هنيئا فإنما ... أطايبها تجني وتأتيك من تجني

وقوله [٤٣]:

ركلت شخصًا في شعراء أسمر ... من ولد الحبشي نقي العذار

وقلت بالله استجد شرطه ... فابتاع لي عبدا بشرط الخيار

وقوله [٤٤]:

ومشروطة شرط المحبة سمتها ... نوالاً فلم تسمح ، وظلت فلم تُعط

وقالت ألم تعلم بشرطي في الهوى ... فقلت لها إني أموت على الشرط

شمائله ، وأخلاقه :

يوصف جمال الدين محمد الشيبي بأنه كان فاضلاً ديناً خيراً ساكتاً سمحاً مشكور السيرة، متواضعاً لينا، كثير المداراة، شديد الاحتمال، واسع البال، حسن البشر، والتودد، لطيف المحاضرة ، والمحادثة لا قل مجالسه ، قليل الوقيعة في الناس، كثير الحياء، عنده كرم وسماحة نفس[٤٥]. أثنى عليه علماء عصره مثل الفيروزي الذي ينقل عنه السخاوي قوله [٤٦]: «وكان مشكور السيرة ، صحبته في مجاورتي سنة ٨٣٤هـ، وهو قاض ، فنعم الرجل» أما ابن قاضي شهبة فيقول فيه [٤٧]: «وكان رحمه الله قد أجمع الناس على محبته ، لا تراه عين إلا قرت برؤيته ، ولا تسمع به أذن إلا وأصغت لحسن سيرته ... وكان خاتم زمانه». ويضيف السخاوي: «وكان ذا [illegible]

الطبلسان»[٤٨].

وفاته :

مات جمال الدين محمد الشيبي في ثامن عشرى شهر ربيع الأول سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م باتفاق المصادر التي ترجمت له[٤٩] عن نحو من سبعين سنة[٥٠]. وكانت وفاته بمكة ليلاً، وصلى عليه صباحاً عند باب الكعبة، ونودي بالصلاة عليه من فوق ظاهر زمزم، ودفن بالمعلاة عند سلفه ، وكانت جنازته حافلة[٥١].

تعريف بالكتاب :

وصل إلى يدى من هذا الكتاب ثلاث نسخ مصورة عن أصولها المحفوظة في ثلاث مكتبات معروفة هي : المكتبة الوطنية بتونس ، وبها نسخة من الكتاب رقمها ١٨٣٢٥ بخط أبي القاسم بن علي محمد الشهير بابن زيدة الفحطاني، وتاريخ خطها سنة ٥٨٠هـ والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة برلين بألمانيا ، ورقمها ٦١٢٤، نسخها محمد سعيد بن إسماعيل بن محمد المكي الحنفي بتاريخ ربيع الأول سنة ١١٢٢ . أما النسخة الثالثة والأخيرة فهي بخط أحمد الأزهري الذي انتهى من نسخها في سنة ١٢٣١هـ، وهي محفوظة في مكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة تحت رقم ١٣ - / ٩٠٠ ، وهي النسخة التي تجرى الإحالة هنا إلى صفحاتها ، وعليها اعتمدت في هذه الدراسة التي تشتمل عليها هذه الورقة المتواضعة .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة استهلها بعبارات تناسب المقام يقول فيها : «الحمدلله الباقي بعد فناء خلقه، المتكفل تفضلاً منه لكل مخلوق باستكمال أجله، واستيفاء رزقه.. الذي جعل الموت لكل مخلوق ميسماً في عنقه وجعل الخلائق أجمعين تحت طاعته ورقه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث إلى غرب الوجود وشرقه. وعلى آله وصحبه الذين سلموا من خطأ القول ومذقه ، وحازوا بل فازوا من كل فضل ومجد بضيقه وبرقه وبعد، فقد خطر لي أن أكتب في هذه الأوراق بعض ما قرأته على القبور بمقبرة مكة المشرفة المسماه بالمعلاه، وما قدرت عليه، فإن في ذلك تخليد ذكرهم ، وأسمائهم ، وحفظ وفياتهم، والترحم عليهم وقت الوقوف على ذلك، والاتعاظ بحالهم إلى غير ذلك من الفوائد مثل شعر غريب فيه ذكر الموت، والإشارة إلى الفراق، وذكر التوجه إلى دار التلاق ، والله تعالى هو المسئول أن يثيب على ذلك، وأن يجعلنا ممن اتعظ بالموت وأيقن بما هنالك ، وسهل عليه سلوك تلك المسائل فهو العليم بجميع الأمور والمطلع على ما في الصدور سبحانه لا إله إلا هو تقدس وتمجد وتعزز»[٥٢].

على مسائل متعددة ، ومعلومات متنوعة تشمل التعريف بالموت، واشتاق لفظه، وذكر القبر، وأسمائه ، وصفة النعش ، وتحقيقه ، وحالات النزع الأخير عند الإنسان ، وأحكام الجنائز والأشعار التي تحمل لفظ القبر ، ومعانيه المختلفة، وغير ذلك من المسائل والمداخل التي أطلق على كل منها اسم فائدة (جمع فوائد)، وقدم لهذا القسم بقوله : «وقد خطر لي أن أذكر قبل المقصود فوائد غريبة تتعلق بما نحن بصدد ذكره، وهو الموت الذي لا عنه مهرب ، ولا منه فرت، وبعد ذلك أذكر المقصود من كتابة هذه الأوراق إن شاء الله تعالى»[٥٣]. ثم مضى بعده هذه الفوائد التي يتعلق معظمها بالموت، ورتبها وفق منهج منطقي متسلسل حتى بلغ عددها خمساً وثلاثين فائدة هي:

١- فائدة في المعنى اللغوي للموت من قول أهل اللغة مات يمات ، ومات يموت فهو ميت وميت — ص٢

ليس من مات فاستراح بميت — إنما الميت ميت الأحياء

٢- في القول لمن لم يمت أنه مايت — ص٢

٣- في معنى الميتة مع شواهد شعرية. — ص٢

٤- في معنى الموات ، وهو مالا روح فيه — ص٢

٥- كل قتل موت، وإن لم يكن كل موت قتلاً — ص٢

٦- فائدة في الموت ضد الحياة — ص٣

٧- الموت والحياة لفظتان مشتركتان في لسان العرب على ثلاثة عشر وجها — ص٤

٨- المعتبر في حال الوفاة ما تقدم من كفر وإيمان (فائدة في من خرس لسانه عند الموت ولم ينطق بالشهادة). — ص٤

٩- النعشة الأخيرة عند الموت (عليه شواهد شعرية) — ص٤

١٠- أول من مات وآخر من يموت — ص٥

١١- أول ما ينطق به الميت وهو على الجنازة — ص٧

١٣- ما حصل للأنبياء عند الموت من معالجة سكراته ومن مقاسات شدائده ص٩

١٤- فيمن عاش بعد الموت ص١٠

١٥- في أول من أحيا الموتى بإذن الله، وهو إبراهيم الخليل عليه السلام ص١٣

١٦- في من يكلم الموتى من البشر ص١٣

١٧- أول من مات فجأة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ص١٤

١٨- ما من حالة إلا وقد مات عليها ميت حتى في حال الجماع ص١٤

١٩- في حديث أنس: الموت كفارة لكل مسلم ص١٥

٢٠- (الموت) هو نزع الأغنياء، وشهوة الفقراء ص١٥

٢١- فائدة في أسماء القبر وما يتعلق بها ص١٨

٢٢- القبر واحد القبور والمقبرة واحدة المقابر ص١٩

٢٣- في أن أصحاب مذهب الشافعي قالوا : ص١٩

لايجوز دفن الميت قبل الصلاة عليه

٢٤- أقل واجب القبر ما يكتم رائحة الميت عن الناس ويحرسه من السباع . ص٢٠

٢٥- فائدة في اللحد وهو حافظ القبر ص٢١

٢٦- في ما يستحب من رفع القبر قدر شبر ولو بالحصى والحجارة ليعرف ، وتجصيصه مكروه

٢٧- في من أعار أرضا لدفن ميت محترم فإنه لارجوع له ما لم يندرس الميت

٢٨- فائدة في احترام القبر كما لو كان صاحبه فيه حيًا ص٢٤

٢٩- فائدة في ما يجوز جمع اثنين وثلاثة في القبر الواحد إلا ص٢٤

حاجة ، ولا بين رجل وامرأة إلا لشدة الحاجة.

٣٠- لايجوز نبش القبر إلا أن يندرس ، ويبلى أثره، ويصير ترابًا ص٢٥

٣١- فائدة في لبن كتب عليه إذا شاء حبس الريح وإذا شاء أرسلها ، وأن هذا كذب. ص٢٥

٣٢- اشتهر بالمقابري، وهو يحيى بن أيوب العابد البغدادي ص٢٥

٣٣- فائدة حول خروج الشيخ صالح ابراهيم الجعبري إلى مكان مدفنه في مرض موته، وكان قد أمر بحفر قبره.

٣٤- في دخول الأعمش المقابر واضطجاعه في أحدها ، وما قال بعد ذلك. ص٢٧

٣٥- فائدة في بعض أبيات من الشعر فيها لفظ القبر ، ومعانيه المختلفة في أنواع شتى. ص٢٨

ثم أورد المؤلف أبياتًا وشواهد شعرية فيها ذكر القبر لكل من :

١- قيس بن الملوح (مجنون ليلى) ص٢٨

٢- قيس بن ذريح الكناني (صاحب لبنى) ص٢٨

٣- ليلى بنت عبدالله الأخيلية (معشوقة توبة بن الحمير) ص٢٨

٤- القاضي بن الربعي التميمي ص٢٩

٥- الشريف الرضي في رثاء عمر بن عبدالعزيز ص٢٩

٦- أبو الهندي غالب بن عبدالقدوس التميمي ص٢٩

٧- متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك بن نويرة ص٣٠

٨- الحسن بن مطير الأسدي ص٣١

٩- أبو تمام حبيب الطائي ص٣١

أما القسم الثاني فخصصه مؤلفه لذكر الشخصيات الذين اختار أسماءهم من على شواهد

وأهل دين وتقى وتجار ومتصوفة ، وبينهم عدد من أهل مكة، وعدد آخر من المهاجرين إليها، والمجاورين لبيتها العتيق، إلى جانب شخصين ماتا في بلديهما، ونقلا بعد وفاتهما إلى مكة ليدفنا في مقبرة المعلاة بها.

ثم يراعي المؤلف ترتيبًا معينًا في إيراده لأسماء شخصياته؛ فهو لم يرتبهم بحسب الحروف الهجائية ، كما لم يرتبهم زمنيًا بحسب تواريخ وفياتهم ، أو طبقيا بحسب مشاتهم واهتماماتهم، وإنما أوردهم دون ترتيب كيفما اتفق ، وطبقا لما صرح هو نفسه به قائلاً : «ولا ألتزم في ذلك ترتيبًا ، بل هو على حسب حال الكتابة في ذكر متأخر على متقدم ، وتقديم مأمور على أمير، وسبق جاهل على عالم، وغبي على عارف، ونحو ذلك؛ فإن المقصود تخليد ذكرهم في الأوراق، وحفظ أسمائهم والاطلاع على حال من دفن في هذه المقبرة المباركة من أهلها ، والواردين عليها؛ فإن الأحجار معرضة لزوال ما عليها من الكتابة ، إما بطول الزمن، أو بغير ذلك من الأسباب ، وألتزم ضبط ما أجده على الحجر من العبارة ، وذكر المطلوب من ذلك معرضًا عن غيره»[١٥٤].

وقد سلك المؤلف في تناوله لتلك الشخصيات طريقة منهجية سليمة منتظمة ؛ فهو يبدأ بتحديد مكان الحجر، ونوع الخط الذي كتب به، وحالته، ثم يورد النص المكتوب على وجه الشاهد ، وعلى جانبيه إن وجد ، مبتدئًا ذلك بالبسملة ، ثم بآية أو أكثر من القرآن الكريم، وأحيانًا بصور استهلالية أخرى من أدعية مأثورة أو أبيات شعرية ، ثم اسم المتوفى مسبوقًا بسلسلة طويلة من الألقاب والكنى، ثم الترحم عليه، وتاريخ وفاته والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وطلب الرحمة لمن ترحم على صاحب الشاهد.

بعد ذلك يأخذ المؤلف في الترجمة للمتوفى من أمهات الكتب التي عنيت بترجمته ذاكرًا صفته، ومهنته ، والبلد المنسوب إليه، واشتقاق اسم ذلك البلد، وشهرته، ونماذج من شعر المترجم له إن كان شاعرًا ، ونثره إن كان ناثرًا ، ونماذج مما قيل فيه من شعر المديح، وما يتصل به، ويذكر أيضًا المشهورين من أفراد أسرته ، أو من القبيلة أو العشيرة، أو البيت المنسوب إليه ، وكثيرًا ما يربط تاريخ وفاة المترجم له، أو تاريخ ميلاده وغير ذلك من التواريخ المتصلة به، بالأحداث المهمة التي تصادفه، أو تتزامن معه. كل ذلك بأسلوب بديع، ولغة شاعرة ومعلومات متماسكة ، ومستندة إلى مصادر جمة كانت متاحة له في زمانه، وبعضها النبوم في حكم المفقود.

وهو كثير الاستشهاد بالشعر ، وقد يجر إليه الشعر من الاستشهاد بشعر آخر، وهو دائمًا

ويذكرهم بما هم له أهل، ويتناسى عنهم ضد من ينال منهم ممن عرض لذكرهم ، ولسيرهم من سابقيه ومعاصريه من المؤلفين.

وقد تضمنت الشواهد تنوعًا ثريًا من الصيغ الاستهلالية التي تستهل بها النصوص المدونة على بلاطات تلك الشواهد؛ فبعضها آيات مختارة بعناية من القرآن الكريم، وبعضها من عيون الشعر الذي يناسب المقام، وقليل منها أدعية مستوحاة من القرآن الكريم والحديث الشريف.

الآيات والأدعية والشعر : (الصيغ الاستهلالية)

أ- الآيات الاستهلالية :

١- كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام

٢- يبشرهم ربهم برحمة منه.

٣- ومن يخرج من بيته مهاجرًا

٤- لمثل هذا فليعمل العاملون.

٥- وسيق الذين اتقوا ربهم.. إلى قوله تعالى : فنعم أجر العاملين

٦- آية الكرسي.

٧- إن المتقين في جنات وعيون.

٨- إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

٩- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .. إلى قوله تعالى : الجزاء الأوفى.

١٠- رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.. إلى قوله تعالى : والله يرزق من يشاء بغير حساب.

١١- كل نفس ذائقة الموت .. إلى آخرها.

١٢- الذين يذكرون الله قيامًا .. إلى قوله تعالى : عذاب النار.

١٣- إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. إلى قوله تعالى : أن الحمدلله رب العالمين.

١٤- ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله. إلى قوله تعالى : أجر عظيم.

ب- الأدعية :

ورد منها دعا بان اثنان على هذه الصياغة قبل اسم المتوفى ، وبعده :

اللهم نور السموات والأرض نور لعبدك ... في قبره وألحقه بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنس وحدته وارحم صرعته ، واجعله من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

جـ- الصيغ الشعرية الاستهلالية :

أضحى لفقدك ركنُ المجد منهدمٌ ... والعلمُ بعدك عزُّ الدين مُنْثَلِمُّ

والفضل والجودُ والمعروفُ كُلُّهُمُ ... ماتوا لموتك والإحسانُ والكرمُ

من للشريعة والفتوى إذا عَجَزَتْ ... أولُوا العلوم وعن إدراكها قَعَدُوا

ومن للقضاء ، ومن للحكم بعدك ... يا قاضي القضاة ومن للحق ملتزم

ومن للمساكين والأيتام يكفُلُهم ... ومن للمُثقَلِ إذا أُرْدِي به العَدَمُ

سقى ضريحك ربُّ العرش عاريه ... من القسام رضوانٌ له دِيَمُ

ومنها قصيدة طويلة على قبر أبي بكر محمد بن إبراهيم الطربي منها ما صورته:

أبا عين جودي ولا تقشري ... بدمع مدى العمر مُنفجر

.....

مآقي الدموع وأروى النجيع ... وأسلر عن الأهل والمتجر

ولمت بناصيك وقت الطواف ... ويوم الصعود وفي المشعر

كساك الإله من استبرق ... الجنان ومن سندس أخضر

.....

بقول إذا ما أتيت الحجون ... عليك السلام أبا جعفر

أيا مُحيي الدين يا خير من ... تولى الحكومة في الأعصر

سقى قبرك الجودُ جَمَّ العتاق ... وحييت بالورد والعبهر

.....

حضرت السماع وحزت العلوم ... وخلدت ذكرك للأعصر

كفلت اليتامى وعلت الأيامى ... وكنت لهم كأب خير

وأشعروا عليك لدى الموت خبراً ... وهذي الشهادة من معشر

تزود بها يوم فصل القضاء ... وحشر الخلائق في المحشر

وهي طويلة ، يقول مؤلفنا «هذا غالب الأبيات ، ولم يفت منها إلا نحو ستة أبيات أو سبعة عسر على قراءتها فتركتها احترازا للشك في قراءتها ».

أنا المستجير سيدي من تجاوز ... أتاك بلا زاد لقطع المفاوز

وعفوك مأمول لكل مؤمل ... وبرك موجود لكل مناهز

وبابك مفتوح وفضلك شامل ... وما أنا إن أحرمت هذا بفائز

وقد جئت أرجو العفو يا غاية المنى ... مقراً على نفسي بجرم المبارز

أسرف بالطاعات تسويف معشر ... وأفقد في العصيان فقد المناجز

فإن تعف عن جرمي فإنك أهله ... وإلا فما شيء عن النار حاجز

بعدها (كما يقول مؤلفنا) أبيات أخر من غير فاصل بينها وبين الأبيات الأولى أولها:

وحقك ما عصيتك مُستهينا ... بأمرك يا ملاذي واعتمادي

ولكن غَرَّني كَرَمٌ وحِلْمٌ ... وتأميلٌ لقولك يا عبادي

فقابلت الأيادي بالمعاصي ... وصاحبت المآثم بالتمادي

فبالي من هناك وياحيائي ... إذا نودیت باسمي في المعادي

وأوتيتُ الكتابَ وقيل كي إقرأ ... وعاينت السطر فيه بادي

وما قدمت من أعمال سوء ... كفاني قد قدمتُ بغير زادي

فلو أني أبوح بقدر جُرمي ... لبت من الأسى ثوب الحداد

وأجريت المدامع من جُفوني ... وهمت مع الوحوش بكل واد

ونُحت من الخطايا نوح ثكلى ... وأغريتُ المعاجر بالسُّهاد

ومالي لا أنوح على ذُنوبٍ ... بها بارزت خَلاَّقَ العباد

ومالي شافعٌ إلا رجائي ... وحُسْنُ الظن بالملك الجواد

فإن تعفو فأنت لذاك أهلٌ وعبد السوء أهل للبُعاد

أما المتوفون الذين يشكلون المادة الرئيسية في هذا الكتاب، وهم الذين ألف الكتاب من أجلهم، ووجدت الصيغ الاستهلالية المشار إليها على قبورهم، فيصعب تناولهم هنا على وجه التفصيل، وإنما نكتفي فقط بإيراد أسمائهم، وألقابهم، وتواريخ وفياتهم، والإحالة إليهم في النسخة التي بين أيدينا، وهي نسخة مكتبة الشيخ عارف حكمت المشار إليها سابقًا:

اسم المتوفى وألقابه	نوع الخط	سنة الوفاة	مكان الوفاة	الصفحة
١- الملك الأجل الأوحد الأمين المكرم الظهير المؤيد النصير سيف الإمام ركن الإسلام عماد الدين نظام المؤمنين عظيم اليمن فريد المؤمن ذو المجدين داعي أمير المؤمنين أبو موسى عمران بن المعظم المتوج المكين داعي أمير المؤمنين أبو حمير سبأ بن السعود بن الزريع بن موسى الكوم الهمداني	حسن عربي	٥٦١هـ	عدن	٣٢
٢- الحرة الفاضلة الزكية الرضية وحيدة الزمن سيدة ملوك اليمن كاملة العرب والعجم والدة الملك المنتخب المسماة علم أم منصور بن فاتك.	حسن	٥٤٦هـ	أرض الخصيب	٤٠
٣- الشيخ الإمام الزاهد أبو منصور بن عبد الكريم بن هوزان القشيري (عبد الرحمن)	كوفي	٤٨٢هـ	مكة	٤٤

اسم المتوفى وألقابه	نوع الخط	سنة الوفاة	مكان الوفاة	الصفحة
٤- الإمام العلامة زين الدين عبد الغني السبكي الشافعي.	عربي	٧٧٢هـ	لم يذكر	٤٤
٥-٧ الفضيل عباض وولده ابن عيينة، وولد ولده عمر بن عيينة	لم يذكر	لم يذكر	مكة	٤٨
٨- عز الدين بن عمر بن عبد العزيز ابن جماعة الكناني (قاضي القضاة بالديار المصرية)	لم يذكر	٧٦٧هـ	مكة	٥٠
٩- عفيف الدين أبو الظفر منصور بن أبي المفضل بن سعد البغدادي (شيخ الحرمين)	لم يذكر	٦٦٤هـ	لم يذكر	٥٣
١٠- عفيف الدين أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي (صاحب مرآة الجنان)	لم يذكر	٧٨٣هـ	لم يذكر	٥٤
١١- قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد عبدالله بن القاضي نجم الدين عمر بن أبي جرادة الحنفي (حاكم بجاة وأعمالها)	لم يذكر	٧٨٣هـ	لم يذكر	٦٢
١٢- العالم مفتي المسلمين أبو النعمان بشير بن أبي بكر بن سليمان بن يوسف الجعفري التبريزي (شيخ الحرمين ومفتيها)	لم يذكر	٦٣٣هـ	لم يذكر	٦٣
١٣- محمد بن أخت الإمام العالم قاضي قضاة دمشق نجم الدين أحمد بن سالم بن مصري الشافعي	لم يذكر	٦٣٣هـ	لم يذكر	٦٦

اسم المتوفى وألقابه	نوع الخط	سنة الوفاة	مكان الوفاة	الصفحة
١٤- فخر الدين ناصر الشرع شرف القضاة قاضي الحرمين الشريفين والمفتي بهما . أبوجعفر أحمد بن الشيخ الصالح الصعيد أبوبكر بن محمد بن إبراهيم الطبري	لم يذكر	٦١٤هـ	لم يذكر	٦٨
١٥- أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد المقرئ الطبري (المجاور بمكة)	كوفي	٤٧٩هـ	مكة	٧٢
١٦- الشيخ الصالح الفقيه خليل بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر (إمام المالكية بالحرم)	لم يذكر	٧٦٠هـ	لم يذكر	٧٤
١٧- الفقيه الإمام ضياء الدين أبو عبدالله محمد بن الفقيه المرحوم أبي البركات عمر بن محمد بن عمر بن الحسن القسطلاني (إمام المالكية بالحرم)	لم يذكر	٦٦٣هـ	لم يذكر	٧٩
١٨- الإمام فخر العلماء يحيى بن محمد بن أحمد بن أحمد بن القاسم ابن اسماعيل بن أبان المحاملي الصبي (مفتي الحرمين)	كوفي	٥٢٨هـ	مكة	٨٣
١٩- الشيخ الفقيه الإمام العابد الزاهد الورع سراج الدين أبوجعفر	لم يذكر	٦٢٧هـ	مكة	٩٠

اسم المتوفى وألقابه	نوع الخط	سنة الوفاة	مكان الوفاة	الصفحة
٢٠- الشيخ الشهيد غياث الحرمين الناخلة إبراهيم بن الحسين بن سيراويه ابن الحسين الفارسي (رامشت)	لم يذكر	٥٣٤هـ	لم يذكر	٩١
٢١- الجهة الكريمة السيدة الجمالية بلطرن بنت عبدالله الحرة (برضاء الإمام المستظهر بالله العباسي)	عربي	٥١٩	لم يذكر	٩٢
٢٢- الشيخ الصالح الزاهد الورع الذاكر لربه أبو لكوط عبدالله بن عبد السلام الدكالي (نزيل مكة)	لم يذكر	٦٢٩هـ	مكة	٩٤
٢٣- علي بن مكرم بن الشولي (صاحب الشيخ علي بن إدريس)	لم يذكر	٦٤٤هـ	لم يذكر	٩٦
٢٤- الشيخ الإمام الأوحد الزاهد العالم العابد الورع مفتي الفريقين حجة الدين أبو طالب عبد المحسن أبو طاهر الأبهري (إمام مقام الخليل إبراهيم)	لم يذكر	٦٢٤هـ	لم يذكر	٩٧
٢٥- السعيد الشهيد محمد بن عبدالملك ابن محمد بن محمد المعروف بالمقدم	لم يذكر	٥٨٢هـ	لم يذكر	٩٩

مصادر الكتاب:

رجع المؤلف إلى عدد من المصادر التى كانت متوافرة فى زمانه بعضها أشار إليه بعنوانه فقط دون ذكر مؤلفه، وبعضها أشار إلى مؤلفه دون ذكر عنوانه، وبعضها أشار إلى العنوان والمؤلف فى آن واحد. وفيما يأتى ثبت بمصادر الكتاب تورد ها على طريقة المؤلف وبلفظه الذى وجدت عليه فى المتن:

١- الإربلى فى فتاويه.

٢- الأسنائى فى الطبقات.

٣- البغوى فى الفتاوى

٤- البكرى فى معجم ما استعجم.

٥- الجوهرى فى الصحاح

٦- القاضى الحسين (دون تسمية كتاب بعينه)

٧- الخزرجى (دون تسمية كتاب بعينه).

٨- الذهبى فى العبر.

٩- الراغب فى صوفل الفهم .

١٠- الرافعى فى كتاب النفور ، وفى الشرح الصغير.

١١- السرخسى (دون تسمية كتاب بعينه).

١٢- السمعانى فى الأنساب.

١٣- السهيلى فى الروض.

١٤- ابن سيدة فى المخصص.

١٥- صاحب البيان (الاحترازات) (دون تسمية المؤلف).

١٦- صاحب كتاب المقصور والممدود (دون تسمية المؤلف).

١٧- ابن الصلاح فى طبقاته.

١٨- ابن العديم فى تاريخ حلب.

٢٠- الغزالى فى الوسيط.

٢١- ابن فرحون فى تاريخ المدينة (نصيحة المشاور وتسلية المجاور).

٢٢- ابن قتيبة فى المعارف.

٢٣- القطب القسطلانى فى كتابه ارتقاء الرتبة.

٢٤- الماوردى فى الأحكام.

٢٥- المتولى فى تتمة الإبانة.

٢٦- العفيف المطرى فى ذيله على طبقات ابن كثير.

٢٧- أبو العباس الميورقى (نزيل وج) فى تاريخه.

٢٨- ابن النجار فى تاريخ المدينة، وتاريخ بغداد.

٢٩- النووى فى السرقة من زوائد الروضة

النووى فى شرح المهذب

النووى فى تهذيب الأسماء واللغات

النووى فى الفتاوى

٣٠- اليافعى فى مرآة الجنان.

وستتضمن دراسة الكتاب وتحقيقه- إن شاء الله- تخريجًا لهذه الكتب، وتحقيقًا لها، وتدقيقًا لأسمائها ، ونسبة بعضها إلى مؤلفيها، وبيان ما طبع منها وما لم يطبع، وأمكنة حفظ ما بقى منها مخطوطًا حتى الآن.

هذا ما انتهينا إليه فى هذه الورقة المتواضعة من التعريف بجمال الدين الشيبى وبكتابه الشرف الأعلا، ومنه يتضح المكانة العلمية، والأدبية، والأخلاقية التى كان يتمتع بها المؤلف . والمناصب العالية الرفيعة التى وصل إليها وتقلدها ، ومنها حجابة البيت العتيق، ونظارة الحرم الشريف، وقاضى قضاة مكة المكرمة.

كما تتضح أهمية الكتاب، وريادته ، وتفرده بموضوع لم يسبق إليه، وهو دراسة شواهد القبور ، ومضامينها ، وشخصيات المترجين من أصحابها بحيث لاتختلف تلك الدراسة كثيراً عن المنهج المتبع فى دراسة شواهد القبور فى وقتنا الحاضر.

الإحالات والمصادر والمراجع

١- يذكر نجم الدين عمر بن فهد أن الجد الخامس لجمال الدين الشيبي ، وهو محمد بن أحمد، المذكور في هذه السلسلة الطويلة، يدعى ناصر بن أحمد بحير بن ناصر. انظر : الدر الكمين بذيل العقد الثمين، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود رقم ١٩ ، «ترجمة محمد الشيبي».

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢م، جـ١ ، ص٩٢٢ .

٣- أبوبكر بن أحمد ، طبقات الشافعية ، تحقيق عبد العليم خان، الطبعة الأولى، بيروت : عالم الكتب ١٩٨٧م ، جـ١ ، ص١٠٥-١٠٦ .

٤- أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر، ط[١] ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، جـ٨، ص٣٢٢-٣٢٣ .

٥- أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق إبراهيم طرخان ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١م، جـ١٥، ص١٨٦ .

٦- الدرالكمين ، مخطوط ، ترجمة محمد الشيبي.

٧- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، دارمكتبة الحياة، د.ت ، جـ٩ ، ص١٣-١٤ .

٨- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط٣ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م، جـ٢ ، ص١٥٣ .

٩- أبو الفلاح عبد الحسن ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت ، جـ٧، ص٢٢٣-٢٢٤ .

١٠- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت ، جـ٢ ، ص٢١٤ .

١١- ابن فهد، الدر الكمين «ترجمة محمد الشيبي»؛ وانظر أيضًا : ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٢ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩ ، ص١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٧ ص٢٢٣ ، الشوكاني، البدر الطالع ، جـ٢ ص٢١٤ .

١٢- السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩ ، ص١٣ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ٢ ، ص٢١٤ .

١٣- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص١٨٦ .

١٤- السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص١٣ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ٢ ، ص٢١٤ .

١٥- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص١٨٦ ؛ ابن فهد ، الدر الكمين، «ترجمة محمد الشيبي»؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩، ص١٣ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ٢ ، ص٢١٤ .

١٦- ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤ ، ص١٠٦ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٣ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٤ .

١٧- ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، جـ٤ ص١٠٦ ، ابن فهد الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي»، مراقد أشهر بلاد أذربيجان ، أنظر ياقوت الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ) ؛ معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٧٧م، جـ٥ ص٩٣ .

١٨- ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية ، جـ٤ ص١٠٥ ، ابن فهد ، الدر الكمين ، «ترجمة محمد الشيبي»؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص١٣-١٤، كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، بيروت ، دار إحياء التراث، د.ت ، جـ١١ ، ص٤٥ .

١٩- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر ، جـ٨ ص٣٢٢ ، ابن فهد الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي»؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٧ ص٢٢٣-٢٢٤؛ الشوكاني ، البدر الطالع ، جـ٢ ص٢١٤ ؛ الزركلي ، خير الدين، الأعلام، ط٣ ، بيروت ١٩٦٩م، جـ٦ ص٢٨٧ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين، جـ١١ ص٤٥ .

٢٠- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، جـ٤ ص١٠٥ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٣ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٣ وكلا الأخيرين نقلا عن طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة .

٢١- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية، جـ٤ ص١٠٥ ؛ العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٣ ؛ ابن فهد، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي» ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج٧ ص٢٢٣-٢٢٤؛ الشوكاني ، البدر الطالع، ج٢ ص٢١٤ .

٢٢- ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية ، ج٤ ص١٠٦ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٤ .

٢٣- العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٣ ؛ السخاوي الضوء اللامع، جـ٩ ، ص١٣ .

٢٤- ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٨٢٣ ؛ ابن فهد، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي»؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص١٤ .

٢٥- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ص١٨٦ ؛ ابن فهد، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي»؛ السخاوي ، الضوء اللامع، جـ٩ ص١٣ .

٢٦- ابن فهد، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٢٧- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج٤ ص١٠٦ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٨ ص٣٢٢ ، ٣٢٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ص١٨٦؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، جـ٧ ص٢٢٣-٢٢٤ ؛ الشوكاني ، البدر الطالع، جـ٢ ص٢١٤ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين ،

٢٨- طبقات الشافعية ، جـ٤ ص١٠٦ .

٢٩- إسماعيل باشا ، هدية العارفين وآثار المصنفين ، اسطانبول ، وكالة المعارف ١٩٥٥م، مج٢ ، ص١٨٩ .

٣٠- ابن فهد ، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي» .

٣١- ابن فهد ، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي» .

٣٢- ابن فهد ، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي» .

٣٣- انظر : ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج٤ ص١٠٦ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٢ ، ٣٢٣ ؛ ابن فهد الدرالكمين، «ترجمة محمد الشيبي» ؛ السخاوي الضوء اللامع، جـ٩ ص١٤،١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، جـ٧ ص٢٢٣-٢٢٤ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، جـ٢ ص٢١٤ ؛ البغدادي ، هدية العارفين ، مج٢ ص١٨٩ ؛ الزركلي، الأعلام ، جـ٦ ص٢٨٧-٢٨٨؛ كحالة ، معجم المؤلفين، جـ١١ ص٤٥ .

٣٤- هكذا ذكره ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج٤ ص١٠٦ ، بينما يرد في المصادر الأخرى ضمن مؤلفاته كتاب تمثال الأمثال في مجلد ، ولاندري إن كان هو نفسه كتاب الأمثال ، أم أنه كتاب آخر، ولعله هو نفسه حيث يذكر ابن فهد أنه ألفه للناصر صاحب اليمن. الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي» ؛ الشوكاني ، البدر الطالع ، جـ٢ ص٢١٤ ؛ البغدادي، هدية العارفين ، ج٢١ ص١٨٩؛ الزركلي، الأعلام ، ج٦١ ص٢٨٧ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ١١ ص٤٥ .

٣٥- أحمد بن إسماعيل بن العباس الرسولي الملك الناصر بن الأشرف بن الأفضل، من ملوك الدولة الرسولية في اليمن، تولاها سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م ، وتوفي سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م . انظر : أحمد، محمد عبد العال؛ بنو رسول وسلاطين، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م، ص٢٣٧-٢٣٢ .

٣٦- هكذا يورده كل من : السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١١٣ ؛ والبغدادي، هدية العارفين ، جـ٢ ص١٨٩ ، بينما يذكره الشوكاني ، البدر الطالع ، جـ٢ ص٢١٤ بقوله : «ويجمع كتابا فيما لايستحسن بالانعكاس في ثلاثة مجلدات» ، أما كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ١١ ص٤٥ فقد جمع بين هذا الكتاب وكتاب آخر مذكور أصلاه في عنوان واحد هو : (قلب القلب فيما لايستحسن بالانعكاس).

٣٧- هذا العنوان يرد هكذا عند ابن فهد ، (الدرالكمين، «ترجمة محمد الشيبي»)، ويرد عند البغدادي، هدية العارفين ، جـ٢ ص١٨٩ (بعنوان : الشرف الأعلى في ذكر مقبرة الباب المعلى، بينما يرد عند الزركلي (الأعلام ، جـ٦ ص٨٨) باسم الشرف الأعلى في ذكر مقبرة باب المعلى، وسيرد ذكره في نص

٣٨- ابن فهد الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٣٩- ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، جـ٤ ص١٠٦ ؛ ابن فهد، الدرالكمين، «ترجمة محمد الشيبي».

٤٠- ابن فهد، الدرالكمين «ترجمة محمد الشيبي».

٤١- ابن فهد ، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٤٢- ابن فهد، الدرالكمين، «ترجمة محمد الشيبي».

٤٣- ابن فهد، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٤٤- ابن فهد ، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٤٥- المقريزي، السلوك ، جـ٤ ص٩٢٢ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ١٥ ص١٨٦، ابن فهد ، الدر الكمين، «ترجمة محمد الشيبي» ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٣-١٤؛ ابن آياس ، بدائع الزهور، جـ٢ ص١٥٣ .

٤٦- الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص١٤ ؛ انظر : المقريزي ، السلوك جـ٤ ص٩٢٢ .

٤٧- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، جـ٤ ص١٠٦ .

٤٨- الطيلسان لباس الفقهاء، والقضاء . الباطين، إلهام، الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، الطبعة الأولى، الرياض .. مطابع الخالد ١٤١٩هـ، ٢٢٥ .

٤٩- المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ص٩٢٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج٤١ ص١٠٦ ، وهناك من المؤرخين من يورد وفاته في شهر ربيع الثاني، ومن هؤلاء ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ص١٨٦ ؛ وابن فهد ، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي» . أما السخاوي فيذكر أنه مات في النصف الأول من ليلة الجمعة ، شهر ربيع الأول (الضوء اللامع، جـ٩ ص١٤) ، ويعلق على من قال أن وفاته في شهر ربيع الآخر بأنه وهم، ويتفق مع السخاوي في هذا المذهب كل من ابن آياس ، بدائع الزهور، جـ٢ ص١٥٣ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٧ ص٢٢٣-٢٢٤ .

٥٠- المقريزي، السلوك ، جـ٤ ص٩٢٢ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر، جـ٨ ص٣٢٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ص١٨٦ ؛ السخاوي، الضوء اللامع ، جـ٩ ص١٤ .

٥١- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ص١٨٦ ، ابن فهد ، الدرالكمين ، «ترجمة محمد الشيبي».

٥٢- الشيبي، محمد بن علي ، الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة باب المعلا، مخطوطة (مكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة، رقم ١٢٩تاريخ)، ص١ .

٥٣- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٥٤- المصدر نفسه ، ص٣٢ .

أ.د. محمد عيسى صالحية (*)

تحليل المعلومات الواردة في دفتر غزة

٩٦٤هـ = ١٥٥٦م

سجل في دفتر أوقاف لواء غزة ست وقفيات ، وسبع عشرة ملكية ، جاءت بين الأوراق ٧٠-١٠٨ من الدفتر العام رقم (٣١٣) ، أقدمها وقفية أقبغا بن عبد الله الأوحدي تاريخها سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ، وأحدثها الوقفيات الراقعة سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م ، وعددها عشر ، في حين تركت (٣٢) وقفية بدون تاريخ ، مما يعني أنها قديمة ، ومن هذه الوقفيات (٥١) وقفية تعود إلى العصر المملوكي ، و٢٣ وقفية تعود إلى العصر العثماني ، ويتبين من تدقيق الوقفيات ، تكرار وقفيتين[1] ، ليهبط عددها إلى ست وأربع . وهناك خطأ وقع في تسجيل الوقفية رقم (٧٦) ، فقد كتب عليها بشكل مائل عبارة "ترقيد" أي ألغي ، وأضيفت عبارة "حكر" أي مؤجرة ، ومصدرها قطعة الأرض المسماة بالحسامية والواقعة قرب قرية أقباي . وقد نقلت إلى الوقفية رقم (٩٧) وكانت من مصادر وقف حسام الدين على سافية أم على داخل غزة .

أما الملكيات فلم يجاوز عددها ١٧ ملكية منها أحد عشرة عثمانية سجلت بين السنوات ٩٢٢هـ/١٥١٧ و٩٦٣هـ/١٥٥٥م ، وثلاث تعود إلى العصر المملوكي ، ٨٦٦هـ/١٤٦١م

(*) عميد البحث العلمي بجامعة عمان ، وأستاذ بجامعة اليرموك .

٨٩٥هـ/١٤٨٩م ، و٣ لم يحدد تاريخها ، ولكن واحدة منها تعود إلى بلال محمد باشا من أهالي غزة ، وسكان محلة الزيتون . وقد سجل باسمه ثلاث ملكيات أخرى تعود إلى سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م . وكان من أثرياء مدينة غزة ، امتلك كامل قرية صيحان ، الواقعة جنوبي شرق غزة . و(١٤ط) من مزرعة بيت طيما ، قرب جكمة و(٢٠ ط) من طاحون روميل الكائنة على أراضي بينا ، وخان يعرف بدار الوكالة والفيان الموجود فيها ، وقطعتي أرض قرب قبة حاتم . وكان ربع بلال من أملاكه جميعًا (١٠٣٠٩ أقجة) عثمانية .

ومن بين الملكيات المسجلة ، ملكيات مشتركة ، منها اثنتان انتقلت إلى مالكها عن طريق الإرث . وترد إشارات إلى ظاهرة الملكية المشتركة بين بعض الوقفيات والملكيات ، مثل ملكية محمد وعمر شريم وباقي الشركاء ، وملكية ولي الدين بن النويري ، وباني شركائه ، وهناك ما يفيد تملك بعض النساء ، ومشاركتهن في إدارة الوقفيات والأملاك ، مثل جان سكر بنت علي ، التي ملكت (١ط) من قرية بينا سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م . وكانت ثلاث عشرة ملكية لأناس محليين من أهالي غزة ، وأربع ملكيات لعناصر سكنت المدينة ، يعود بعضها إلى أسر مملوكية ، وكانت الملكيات بشكل عام متضمنة :

قرى	٢	مزرعة	٢
حاكورة	١	غراس بستان	١
خان دار الوكالة	١	بساتين عدد	٥
قطع أراضي	٥		

والواقع إن الملكيات كانت صغيرة ومحدودة ، لم تتجاوز أطراف المدينة . أما الأوقاف ، فقد توزعت بين أنواع الوقف المعروفة ، خيري ، ذري مشترك (ذري خيري) أو دون تحديد صفة . وكانت على الشكل التالي :

الوقف الخيري	٦٥	الوقف الذري	٢٧
الأوقاف المشتركة	٨	أوقاف دون تحديد صفة	٤

أما المنشآت الخيرية ، ذات النفع العام ، التي أوقفت عليها مصادر الوقف فكانت مدارس وجوامع ومساجد ، وسواقي وخانقاوات ، وزوايا ، ومقامات الأولياء ، وتربة الأتباء والصالحين

والعلماء ، والبيمارستانات ، ودور قراءة القرآن ، وقراءة كتب الحديث في الجوامع والمساجد ، والدواليب والأسبلة والمحبس (السجن) ، ووجوه البر والصدقة .

وهناك أوقاف في غزة خصص ريعها لمنشآت خيرية ، خارج لواء غزة مثل أوقاف الحرمين الشريفين وقد بلغ ريعها في سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٩م سنة تحرير الدفتر ، (٥ر١٤ر٤٥٠) أقجة عثمانية ، (وقفية رقم١) ، ووقفية جوهر العقباني الزمام ، رقم ١٠٣ المرصدة لمصالح خانقاه صلاح الدين في القدس . وقد بلغ ريعها ، (١٣٤٥٦) أقجة عثمانية ، ووقفية أتبغا بن عبد الله الأوحدي ، رقم ١٠٥ وقد أوقفت على تربته في القاهرة وبلغ ريعها (٥٦٠٠٠) أقجة عثمانية .

أما الوقف الذري أو الأهلي ، فكان يرفده أصحابه على أنفسهم وذريتهم طوال حياتهم ، ثم من بعدهم على أولادهم وأولاد أولادهم وعقبهم أبد الدهر ، فإن انقرضوا تحول إلى وقف خيري . وكانت معظم الوقفيات الذرية تشترط صيرورة الوقف الذري بعد الإنقراض ، إما لمصالح الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، أو الفقراء والمساكين عامة أو فقراء ومساكين ، مكة والمدينة ، أو مصالح الحرم النبوي الشريف ، وحرم سيدنا الخليل ، والبر والصدقة ، أو مصالح مدرسة الطواشي (محلة الشجاعية) بغزة ومصالح زاوية عبد الرحمن بن سلطان . وهناك وقفية واحدة مسجلة باسم غازي علائي بن اسماعيل ، اشترط بعد الانقراض ، صرف ريعها على سبيل الماء في غزة .

ويلاحظ أن الوقفية رقم ٦ والوقفية رقم ١٨ ، كانتا لسلطانين من سلاطين المماليك هما ، الظاهر بيبرس العلائي البندقداري والسلطان فرج بن برقوق . قد أوقفا وقفًا ذريًا على شيخين من مشايخ الصوفية في عهديهما ، فالأول كان وقفه على الشيخ الياس بن سابق بن خضر التركماني وذريته ، وبعد الانقراض على مصالح مسجد الباسر في محلة أولاد الجمال ، والثاني كان وقفه على الشيخ المتصوف جمال الدين ، يوسف بن محمد البرديراوي وبعد الانقراض ، جعل لمصالح زاوية البرديراوي حصة من عائدات وريع الوقف ، كما أن بعض الوقفيات الذرية ، كان ريعها لصالح العتقاء وذرياتهم ، وهي مسألة تثير الاهتمام بالنسبة لشراء المماليك استرقاقهم وعتقهم في العصر المملوكي ، واستمرار هذه الظاهرة في العهد العثماني[١١] .

وتشير المعلومات المستفادة من الوقفيات المشتركة (ذرى - خيرى) أنها شرطت إنفاق الريع على قراءة القرآن في جامع أو مسجد ، وتفريق خبز على الفقراء والمساكين ، وتفريق الماء بالقرب ، وقراءة كتب الحديث ، وخاصة صحيح البخاري ، أو على مصالح تربة أو زاوية ، وفي وقفية واحدة على عتقاء الواقف ، الذكور ، والإناث .

ويظهر من دراسة الوقفيات ، أن معظم أصحابها من أسر ، إما محلية من أهالي غزة وقضاتها أو ذات أصول مملوكية أو عثمانية ، كانت قد استوطنت غزة ومناطقها ، ومن ذوي الرتب والوظائف العالية ، أي الفئة الحاكمة .

ومن المعروف أن لواء غزة ، أو قضاء غزة ضم عدداً كبيراً من القرى ، وقد وردت إشارات إلى النواحي التابعة للواء ، في الدفتر الذي ننشره ، منها القرى التالية ، وكانت كلها أو جزء منها من مصادر الوقف والقرى المذكورة هي : أخصاص عجلان ، بربرا ، بزا ، بربر ، بردغا ، بشيت ، البها ، بطان الغربي ، بيت حانون ، بيت داراس الصغرى ، بيت داراس الكبرى ، بيت زيتون ، بيت لاهيا ، بيت عفا ، تل جلمة ، جباليا ، جديدة ، جلدية ، جهنين ، جرلس ، حليقات ، حمامة ، خرسة ، دمر النجد ، دمر الشرقي ، زاوية ، زيد الحرازين ، سنان بني عياش ، صقرير القاصي ، سلقا رفح ، سمسم ، شعرية الصغرى ، شعرية الكبرى ، صميل المغار ، عامودة بني عامر ، عجز الرأس ، عذار ، عراق السودان ، عودة ، قالوجة ، قرانية ، فرادي ، قطرا ، قرقفة ، قمحا ، كوير ، كفرغل ، كوفية ، كوكبة ، لسن ، مجدل ، مشرفة ، منشية النمليين ، مليص ، ملاقص ، منصورة ، نحادى ، نخاسة ، النزاز ، هربيا ، يبنا .

ويبلغ مجموع هذه القرى ٦٢ قرية ، شكلت ٩٨ مصدراً من مصادر الأوقاف . هذا عدا(٥) مصادر أخرى من قضاء الرملة ، التابعة لغزة ، وهي قرية السافرية ، وساكية ، وبيت دجن ، وبيت سوسين ، ومصدر واحد من قرية طول كرم ، التي تتبع نابلس . أما القرى الأخرى التي ذكرت في الدفتر بإشارات إتصلت بحدودها أو مزارعها أو قطعة أرض منها ، أو منشأة خيرية قائمة عليها فهي قرى الأشراف ، وكان للأشراف بغزة ثلاث قرى هي (سطر ولهد والخصاص)(٢) ، يضاف إلى ذلك قرى أخرى هي عطارة ، إذنة ، وبيت ماعز ، وكفر عقب (عكير عقب) .

والأكيد فإن هذه قرى غزة ولواحقها يفوق ذلك بكثير .

المظاهر العمرانية من واقع الدفتر :

كثيراً ماترد عبارة غزة وعبارة أرض غزة في الوقفيات والملكيات ، لتدل الأولى على وقوع المكان في داخل المدينة ، والثانية لتدل "على ظاهر المدينة" أي خارج السور ، ومع أن الإشارة إلى السور لم ترد في دفترنا ، فإن التسمية إنما تعود إلى ما اعتاده الناس ، زمن وجود السور .

من الثابت أن محلات غزة ، كانت داخل السور ، ولكن استخدام المصطلحات محلة ،وحارة وناحية ، كان يعني مرتبة في الدفتر ، فقد وردت إشارات إلى محلات ، الزيتون ، الشجاعية، حكر التفاح ، البرجلية ، الدباغة ، باب الخضر ، دار الخضر ، أولاد الجمال ، محلة جامع قايتباي ، محلة سوق التركمان ، محلة سيتة ، محلة بني عامر محلة الدرج ، محلة التركمانات ، محلة جماقية ، محلة الهنود في غزة ، كذلك ورد ذكر : حارة الأكراد ، حارة الفواخير ، وناحية بني عياش ، وناحية قبة حاتم "شمال غزة" ومحلة الداروم (خان يونس) .

ومحلة الزيتون كما يفهم من وثائق الدفتر ، تقع جنوبي غزة ، غربي الطريق المؤدي إلى العريش ، مكملة لحي الدرج من الناحية الجنوبية .

ومحلة الشجاعية ، شرقي غزة ، قرب الطريق المؤدي إلى الخليل ، تعود نسبتها إلى شجاع الدين ، عثمان الكردي ، الذي استشهد في غزة سنة ٦٣٧هـ/١٢١٩م . والتفاح ، حي تمحور حول المسجد الابنبكي ، يحد المدينة القديمة من جهة الشمال ، وحول جامع علي بن مروان ، غرب الطريق المؤدي إلى الرملة ، والبرجلية ، إلى الجنوب الشرقي من محل الدرج ، باتجاه شمال غرب محلة الزيتون ، ونسبت إلى جزء من سور غزة القديم ، الذي كثرت فيه الأبراج .

ومحلة باب الخضر ، ضمن حي الزيتون ، تسكنها الفئة الموسرة من سكان المدينة ومحلة أولاد الجمال ، هي حارة الجمال بمحلة التفاح ، نسبت إلى الحاج علي الجمالي ، ومحلة الدرج ، في الغرب من غزة ، إلى الشمال الغربي من محلة الزيتون ، ومحلة الهنود في قلب مدينة غزة، للتجار والقادمين من الهند ، نزلوا بزاوية لهم هناك ومحلة سوق التركمان ، متصلة بمحلة الشجاعية ، وتعود نسبتها إلى القبائل التركمانية التي سكنت المدينة في القرن (٧هـ) ومحلة جامع قايتباي ، بوسط سوق غزة(٣).

ومحلة بني عامر ، تحتل القسم الشرقي من محلة الدرج ، إلى جانب محلة الرجلية ، وهي في المنطقة الشمالية ، ومحلة جماقية(٤) ، غرب محلة الدرج ، خارج سور المدينة ، وهما

الأكراد ، قرب مسجد الطواشي[٥]. ولا أرى دفترنا إلا وقد تجاوز في ذكر المحلات ، ما جاء به كل من Cohen والمبيض[٦] .

ومن المناطق التي يشير إليها دفترنا ، وتقع في أرض أو ظاهر غزة جبل المنطار أو تل المنطار ، الواقع جنوب شرقي غزة ، فقد وردت وقفيات متعلقة به .

والخطوط والشوارع لاتظهر في الدفتر ، ذلك أن تحديد موقع مصدر الوقف أو الملكية ، إنما كان يتم من خلال ذكر جواره ، وليس بموقعه في الخط أو الشارع . ولم ترد إلا إشارتين لزقاق في محلة البرجلية ، وزقاق قرب كنيسة النصارى[٧]، ويفترض أنهما ضيقان وقصيران وغير نافذين .

ويستدل من كثرة الجوامع والمساجد التي وردت في الدفتر والأوقاف التي حبست عليها ، على تاريخ حافل لتلك الأبنية الدينية ، وأيضًا على الدرجة العالية من التدين والتقوى عند سكان مدينة غزة ، فقد أشار الدفتر إلى (٣٦) جامع ومسجد ، هي الجامع القديم وجامع قرية بيت جانون وجامع الشيخ أحمد بن عثمان وجامع الوزير وجامع الكمالية وجامع قايتباي وجامع ابن نجم الدين وجامع الجاولي وجامع الشيخ زكريا التدمري ومسجد عمر بن سواد وجامع المغربي ومسجد علي بن توشقار ومسجد الأوزاعي ومسجد العصافيري ومسجد أبو عزم ومسجد أبو الركب ومسجد كبكلدي ومسجد عاشور ومسجد بركات ومسجد العيس والمسجد المضلع ومسجد أبرك ومسجد ابن دعيوس ومسجد الشيخ مجاهد ومسجد الأينبكي ومسجد الشيخ خالد ومسجد دار الحكيم ومسجد الشيخ علي وكنيته أبو سليمان المنطار ، ومسجد محمد مصطفى ومسجد ركن الدين بيبرس العلائي ومسجد جبالية ومسجد الزيني بلبان (الجامع المعلق) ومسجد عبد الباسط ومسجد علي بن مروان ومسجد الياس ومسجد نعمة ومسجد علي بن نعمان . ولا نعتقد أن استخدام كلمتي مسجد وجامع جاء بمعناهما المعروف من حيث إقامة الجمعة والصلوات الخمس في الجامع والصلوات الخمس فقط في المسجد .

هذا بالإضافة إلى عدد من المقامات والمزارات التي ورد ذكرها في الدفتر ، وهي :

مقام النبي شيث ، مقام الصحابي ، أبو هريرة في يبنا ، مقام الخضرا ، مقبرة العواميد ، وتربة شيخ نبهان ، وتربة شيخ منطار ، وتربة النبي صالح في بيت عفا .

ومن الزوايا ، ورد ذكر ، زاوية الشيخ علي المرجعي ، وزاوية عبد الله بن أبي مسافر ، وزاوية الشيخ سليم (أبو مسلم العراقي في بيت لاهيا) وزاوية الشيخ علي بن مروان ، وزاوية

وجا ، في دفترنا ذكر لعدد من الأبنية السكنية تحمل أسماء ، البيت والدار ، والحوش ، والقاعة ، والظاهرة البارزة قلة الإشارات إلى الأحواش والدور ، فلم ترد إشارة إلى الحوش إلا مرة واحدة (وقفية ٨١) وكان خرابًا وكان الحوش كما هو معروف يعد لايواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة أما كلمة دار فكانت تطلق عادة على مكان سكن الناس ، ويبدو أن استخدامها في الدفتر كان بمعنى بيت ولذا ارتبك معنى البيت والدار في الدفتر ، والبيت في الأساس جزء من الدار ، والبيوت في غزة كان الكثير منها يخضع للتجزئة ، سواء في الوقف أو الملك . ومع أن القاعة هي في الأساس جزء من الدار ، إلا أنه ، وكما يفهم من وثائق الدفتر ، أمكن إخراج القاعة من الدار ، وجعلها عقارًا قائمًا بذاته ، وأمكن استعمالها للحياكة مثل حياكة البسط والسجاجيد والعبى . وكانت القاعات موزعة في محلات وأنحاء غزة ، ففي محلة الزيتون ، وجد قاعة عرفت بقصوصة ، وأخرى في المحلة ذاتها . وفي خان البرجلية وجدت ثلاث قاعات ، وفي محلة الشجاعية ، وجد قاعة بثلاثة أبواب وفي داخل غزة القديمة ، ثلاث قاعات ، وقاعتان في محلة سوق التركمان ، وقاعتان جوار الجامع القديم ، وقاعة في محلة دار الحضر وقاعتان في خان الطباعية .

ويستدل من الدفتر على كثرة المياه الجوفية في غزة ومنطقتها ، بدليل كثرة السواقي فيها ، وحبس الأوقاف على السواقي وآلاتها ، وعلى الأسبلة .

فالوقفية رقم ٦٩ – والواقف تيمري – على ساقية العواميد مع الخرض ، والعواميد في جبل جوزيم . غير أن مايثير الانتباه ، ماجاء في الدفتر رقم (٦٠٢) وقف منكوتمر بن عبد الله الحسامي على ساقية دون تحديدها . وكذا الوقفيات رقم ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، والسواقي التي ورد ذكرها في دفترنا ساقية أم الليمون بحارة الزيتون ، وساقية سلوا في نفس غزة ، وساقية الجماقية ، خارج سور المدينة ، بمحلة الدرج من الجهة الغربية ، وساقية قرب دار الحضر ، وساقية حكيم وساقية الطواشي قرب المدرسة الطواشية ، وساقية الجالقي في سوق الغنم ، وساقية زيتون ، جنوب غزة ، وساقية الطواحين في مدخل الشجاعية ، وساقية خليل ، شرق الشجاعية ، للشرق من حي التركمان ، وساقية تيمارخانة (دار الشفاء) وساقية النجمي في محلة الأكراد ، وساقية أم علي في داخل غزة ، قرب محلة الزيتون وساقية قيدة ، في حي الزيتون ، أسفل مدينة غزة الجنوبي ، وساقية قلقان في حي التفاح ، إلى الشمال من أسوار المدينة القديمة .

وقد توقف الباحث عند الوقفية رقم (١٠٤) ، وهي متصلة بوقف السلطان ، على الساقية الكائنة قرب مدينة خان يونس ، والتي كانت في الأساس خانًا بناه يونس النوروزي الدوادار ، مملوك السلطان الظاهر برقوق ، كملاذ أومنزل لاستراحة القوافل . ثم ظهرت حول الخان محلة عامرة صارت قرية زاهرة . وكانت الساقية سبيلاً للمارين والمقيمين . ويبدو أن متولي الساقية كان يعمل على تعطيل وتوليف الساقية ومضايقة الزوار ، والتجار القادمين والذاهبين فتضرر أهالي القرى المجاورة ، وعرض هذا الأمر على السلطان في استانبول ، فأمر بإضافة (١٠٠ ٢١٠ أتجة) تضاف إلى (١٢٠٠) المتحصلة من الأهالي ، لتصل عائدات الأوقاف المرصدة للساقية إلى (١٣٠٠ أتجة) . وحتى يستمر العمل في الساقية فقد خصص (٥ أتجات) علوفة للمتولي ، وعين قاضي لوا ، غزة للنظر ومراقبة العمل . هذا إضافة إلى الأبار والبرك الأخرى ، كما نقلت المياه من الخارج إلى أماكن استخدامها بواسطة القرب ، وخاصة في الجوامع والمساجد . كذلك خصصت في إحدى الوثائق ثلاث سكك ذهبية سنويًا لمن يقدمون بإدارة أمور الساقية[٩] . وأشارت الوثائق إلى سبيل محمد بن الدقماق الصفدي في حي الفراخير ، ودولابه أيضًا ، وسبيل الجاولي الملحق بالجامع وسبيل الماء في تربة رمضان بن الباس . وسبيل في غزة.

الأوضاع الإقتصادية :

لما كانت غزة تقع على الطريق التجاري البري الوحيد الذي يربط مصر ببلاد الشام ، وما اتصل بها من تجارة شبه الجزيرة العربية والأناضول والعراق وفارس وبلاد ماوراء النهر ، فإن القوافل التجارية المحملة بمختلف أنواع السلع والبضائع كانت تتخذها محطة واستراحة ، وهذا ينعكس بدوره على طبيعة الفعاليات الاقتصادية في المدينة . يضاف إلى ذلك موقع غزة في وسط منطقة زراعية غنية قريبة من البحر والبادية . يدعمه ماورد في الدفتر من إشارات إلى غراس الزيتون والكرمة والنخيل والليمون والجوز واللوز وغيرها ، والبساتين التي توزعت في ظاهر غزة وداخلها والمزارع وقطع الأراضي المستغلة في المزروعات والمغروسات . وقد شكلت الغراس والبساتين والمزارع والحواكير وقطع الأراضي مصدراً مهمًا وكثيراً للأوقاف والأملاك في غزة واللواء .

وتدل المعلومات الواردة في الدفتر على وجود عدد من الخانات ، تدل أسماؤها على أنواع

سوق الغنم ، وخان ابن البويضاني ، قرب محلة دار الخضر . وخان الجمالية ، نسبة إلى الحاج علي الجمالي بمحلة الزيتون ، وخان الجمالين الكائن في مدينة غزة ، وخان زاوية الهنود ، داخل غزة بسوق الفخار ، وكان هذا الخان لصيقًا لزاوية الهنود . والخان كما هو معروف ، يستخدم للاستراحة وبيع السلع التجارية الواردة إلى المدينة ، من حرير وأرز وصابون وسكر وأقمشة وملح وغيرها من الخضروات والفواكه (الوثائق ٥٦ ، ٦٠) .

وأشار الدفتر إلى دار الوكالة ، الكائنة قرب سوق التركمان ، وهي مهمة عالية محاطة بأسوار منيعة[١٠] ، فيها حجرات صغيرة لسكنى التجار ومخازن للبضاعة مخصصة للتجار ، وغالبًا ما يملكها تاجر واحد أو أسرة واحدة ، وكان السلطان قايتباي أكثر من اهتم بإنشاء دور الوكالات[١١] ، وقد ورد في قانون نامه لواء غزة فقرة تتعلق بالمباع في دار الوكالة من دبس وخروب والشراب المصفى .

كما وردت إشارة إلى القيصارية القريبة من دار الشفاء (البيمارستان) ، وهي عبارة عن سوق صغير متخصص في بيع سلعة معينة[١٢] .

ووجد في غزة أسواق متخصصة ببيع منتوجات معينة ، بعضها محلي ، والبعض الآخر مستورد من ريف غزة أو من الخارج كمصر والشام . ومن هذه الأسواق ، نذكر سوق الفخار أو الفراخيري ، بمحلة البرجلية ، وتختص في صنع وبيع الفخار[١٣] وسوق المسلخ ، داخل غزة ، بمحلة البرجلية ، ويبدو أنه تخصص في بيع ذبائح السلخ ، حيث بلغ عدد الدكاكين على جانبيه أكثر من خمس وثلاثين دكانًا .

وقد وردت في الدفتر إشارات تفيد بأن سوق المسلخ لم يكن واحدًا ، وإنما كان أسواقًا متعددة . فالسوق الذي وصف بسوق المسلخ المعمور ، إنما هو المسلخ الرئيسي ، وكان يقع بظاهر غزة ، أما الأسواق الأخرى فكانت تقع قرب محلة الزيتون وفي محلة دار الخضر ، وجنوب حارة التفاح ومنها سوق الغزل والكتان بمحلة الشجاعية ، وسوق العطارين وسوق القطن ، داخل غزة أيضًا ، ويمتد الأخير من باب الجامع الكبير إلى حارة بني عامر ، وسوق الخضرة في وسط محلة البرجلية ، إلى الجنوب الغربي من محلة الدرج ، وسوق الهنود ، في قلب المدينة ، قرب زاوية الهنود ، التي بناها أحد أثرياء الهند ، لنزول الهنود المسافرين إلى المدينة ، وكان يباع فيه البضائع المستوردة من الهند .

ومن الجدير بالذكر ذهاب الكثير من الباحثين اليهود إلى تحريف الكلمة وتصحيفها إلى "اليهود" فاصطنعوا محلة وسوقًا وحارة لليهود في غزة ، وهو مالم يرد في دفترنا ولاغيره حتى سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦١م . فلاتوجد أية حارة أو محلة أوسوق لليهود في المدينة ، وإنما كانت خالية منهم . وما ورد إشارة وحيدة لعدد محدود لايشكل تجمعًا .

ويبدو أن السوق الرئيسي في غزة ، والذي لم يتخصص بسلعة معينة هو سوق الشجاعية ، وكان كبيراً ، وجدت دكاكين في الصف القبلي منه وكذلك في الصف الشمالي . ويمتد إلى محلة التركمان وسوق الغنم . وأشار دفترنا إلى (٣٥) دكان ، كانت من مصادر الأوقاف . وسوق الغنم قرب المدرسة الباسطية ، وتخصص في بيع المواشي ، وبه ٣٢ دكانًا ، من مصادر الوقف . وأشار الدفتر إلى سوق الخلعية أو الملاعبة . ولم ترد أية اشارة تفيدنا في تحديد اختصاصه ، ولكن الخلعية أو الملاعبة كما هو معروف ، هم من يمارسون أعمال الشعبذة والدلالة والبهر والحيل . وسوق التركمان ، في محلة التركمان ، قرب محلة جامع الزيتون . وهناك إشارة لسوق التجار ، ولاندري إن كان يبيع السلع بالجملة أو أنه مركز تجار المدينة ؛ وأخرى لسوق في محلة الزيتون ، قرب جامع ابن لجم الدين ، إضافة إلى وجود إشارتين إلى ما سمي "بالباشورة" إحداهما باشورة النقلية والثانية ، باشورة اللوز . ويبدو أن الأولى كانت متخصصة ببيع القستل والبندق أي النقل ، وباشورة اللوز ، المتخصصة في بيع اللوز الأخضر أو الجاف . ولعل التسمية تدل على التأثير العثماني ، مثلما دل مصطلح دار الوكالة ، على التأثير المملوكي المصري .

وكان في المدينة أيضًا ، قيصارية ، خرب المارستان (المستشفى) ، بها سبعة عشر بابًا ، ويفترض أن كل باب تخصص في بيع سلعة معينة . وعلاوة على ذلك فقد وجد في أسواق غزة مخازن ، أعدت لتخزين البضائع الواردة إلى السوق . ومن ناحية ثانية رصد الباحث النشاط التجاري في أسواق غزة . من خلال المعلومات الواردة في الدفتر ، وذلك بمقارنة عائدات الدكاكين في كل من سوق الشجاعية ، وسوق الغنم ، وسوق المسلخ ، فكان متوسط ريع الدكان الواحد في سوق الشجاعية ، وسوق الغنم ، وسوق المسلخ . فكان متوسط ريع الدكان الواحد في سوق الشجاعية في السنة (١٩٦٫٧٣ عثمانيًا) في حين بلغ متوسط الريع في سوق المسلخ (٩٩٧٧ عثمانيًا) وفي سوق الغنم (٦٥٫٨٢ عثمانيًا) ، وهو مايفيد بقوة النشاط التجاري في سوق الشجاعية .

ويستكشف من المعلومات الواردة في الدفتر إلى وجود عدد من المعاصر في غزة ، كانت ثلاث منها لعصر الشيرج (زيت السمسم) توزعت بين محلة الشجاعية ودار الخضر وداخل غزة ، وثلاث لعصر الزيتون ، واحدة في محلة دار الخضر ، وثانية في داخل غزة وثالثة في دار الخضر ، وخلا دفترنا من البذور[١١٤] التي يعتقد أنها اختصت بعصر الزيتون .

وفي الدفتر إشارات لعدد من الطواحين لطحن القمح والشعير ، توزعت بين محلات غزة ، إذ وجد طاحون بحجر أو أكثر في المحلات التالية ، محلة البرجلية ؛ محلة التركمان محلة جماقيه ، طاحون كبير في غزة نفسها ، محلة الشجاعية ضمت (١٨ بابًا) وطاحون في محلة باب الخضر[١١٥] ، وكانت قد سكان المدينة وزوارها بما يلزم من دقيق . وأشير أيضا إلى طاحون في قرية جباليا ، وأخرى في قرية بيتا .

ووجدت في غزة أماكن للصياغة لتلبية حاجات المواطنين ، أشير إليه في دفترنا بمصطلح بريخانة ، ولم يرد في دفترنا ذكر إلا لتلك الكائنة في داخل غزة . أما غيرها فقد توزعت بين محلة الشجاعية ، وقرب جامع ابن عثمان ، وذكرت مصبنة واحدة في دفترنا . كانت في حي الزيتون .

ومن المرافق الاقتصادية الخدمية التي وردت معلومات عنها في دفترنا ، الأفران ، والاصطبلات والتي توزعت في مختلف محلات المدينة . ففي داخل المدينة وجد فرنان وفرن في محلة طباعية ، وفرن في محلة التركمان ، وفرن في محلة دار الخضر ، وفرن في سوق الغنم ، وفرن في محلة البرجلية[١١٦] . وكان في المدينة ثلاثة اصطبلات تخدم حيوانات المدينة من خيل وبغال وحمير ، كانت في محلة دار الخضر ، واصطبل عند بستان الدرج ، واصطبل في محلة شجاعية .

ويبدو أن عوامل الإهمال والكسل وجدت طريقًا إلى بعض مصادر النشاط الاقتصادي في المدينة ، فقد ظهر مصلح "خراب وعاطل وخالي بلزا" عدد من مصادر الأوقاف ، فقد أحصينا أكثر من (٢٠) دكانًا كانت خرابًا في سوق المسلخ وفي داخل أسواق غزة ، ومزارع كانت خالية ، منها مزرعة مقابر مخدوم ، ومزرعة تليل ناحية بني عياش ، ومزرعة بيت ماعز ومزرعة مكيمن ومزرعة جاد ، بل إن قرى كاملة ، كانت خالية ، وهي قرية صقرير الفاصي وقرية جديدة وقرية سنان بني عياش ، وقرية ملبص فضلا عن عدد من البيوت والأحواش والمعاصر

سوء الإدارة والإهمال الذى لحق بها . ولكن الخراب والعطل لايشكلان شيئاً مهمًا فى اقتصاديات المدينة .

الأوضاع الصحية فى المدينة على ضوء دفترنا :

يستفاد من دفترنا أن أهم مرفق صحى وجد فى مدينة غزة ، كان دار الشفاء أو التيمارخانة التى تأوى المصابين بالأمراض العصبية وهى من منشآت علم الدين سنجر الجاولى ، نائب غزة . غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوقف عليها أوقافاً جليلة من دكاكين ومصبغة وفرن وحصصًا من قرى ومزارع ، بلغت ريوعها (٤٥٣٩٤) أقجة عثمانية[١٧] . وألحق بها مهمات موظفى التيمارخانه ، ومايترتب لكل موظف عامل فيها ، ونقرأ من بين أولئك الموظفين ، مواجب جراح ، ومواجب اثنين من الأطباء ، ومواجب كحال ، وهو مايدل على وجود أطباء فى المدينة مثل الجراحين والأطباء الطباعيين ، الذين يعالجون الأمراض الباطنية، وكحالين ، أى أطباء عيون .

ويلاحظ إلحاق ما يسمى "جدول المواجب ، أو الرواتب" بالوقفية ، وهو ما أطلق عليه عند العثمانيين (توزيع نامه) حيث تعرضت أوقاف دار الشفاء لتقص فى عائداتها ، الأمر الذى لايفى بحاجاتها . وتشير الوقفية صراحة إلى القضاة الذين أباحوا لأنفسهم استغلال عائدات أوقاف التيمارخانة بما يعود بالنفع على أشخاصهم . مما دعا إلى إعادة النظر فى الموظفين العاملين فى دار الشفاء وتحديد أجورهم . وبحسب الجدول المرفق بالوقفية ، فإن الموظفين الذين حددت أجورهم ، كانوا كما يلى (وكانت أجورهم محددة على أساس اليوم الواحد) .

- متولى الأوقاف ويصرف له (٢٠ عثمانى فى اليوم الواحد) .
- كاتب الوقف (٥ عثمانى فى اليوم الواحد) .
- ٥ قراء قرآن كريم هم الشيخ عبد الرحمن ومحمد المشرفى .
- عبد الرحمن قارئ آخر ، ومحمد خله ، وعبد الرحمن قارئ بالحرمين ويصرف لكل واحد (٢ عثمانى) .
- دارج موتى ، وكان الشيخ محمد المشرفى (٥ر١ عثمانى) .

- فراش دار الشفاء ، وكان الشيخ أحمد غاوى ، وأبو النصر ، وأم المحمد فراش نساء ، وفاطمة ولكل (١ عثمانى) .
- طباخ أشربة ، محمد أبو الطيب (١ عثمانى) .
- وكيل الخرج وله (١ عثمانى) و(٥ر٠) غرارة حنطة فى السنة .
- خازن التيمارخانة ، وله (١ عثمانى) .
- جابى الأوقاف : (٥ر١ عثمانى) .
- منجد القماش : (١ عثمانى) .
- مؤدب المجانين : (١ عثمانى) .
- جراح : (٢ عثمانى) .
- طبيب : (٢ عثمانى) .
- كحال : (١ عثمانى) .
- بواب : (٢ عثمانى) .
- خادم الخان : (١ عثمانى) .
- سواق السانية : (٤ عثمانى) .
- مرمائى التيمارخانة : (١ عثمانى) .
- ناظر التيمارخانة : (٤ عثمانى) .

ويلاحظ أن البعض كان يتولى أكثر من عمل فى التيمارخانة : فالشيخ محمد المشرفى ، كان يأخذ أجرة على قراءة القرآن ، وأجرة على اشتغاله بوظيفة دارج الموتى ، وثالثة على اشتغاله أمين دار الشفاء . وأبو النصر كان يعمل فراشًا وبوابًا . وأيضاً يعمل بعض السامرية أطباء ومرمائى ، أى يعمل فى ترميم وإصلاح دار الشفاء .

ومن ناحية أخرى ، فإن وجود ثمانية حمامات فى المدينة يعطى دلالة على الأوضاع الصحية فى المدينة ، لاسيما أن الاستحمام ورجويد والنظافة تحظى بعناية المسلمين بصفة عامة. فإذا ما اقترن ذلك بالعدد الكبير للمساجد الموجودة فى غزة أوقاتنا هذا : [illegible]

الشروط الصحية عند سكان المدينة ، والحمامات الغزية كانت موزعة في المحلات والحارات التالية :

- حمام القلعة ، قلعة غزة ، التي بنيت إبان الاحتلال الفرنجي للمدينة زمن بلدوين الأول ، سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . وكانت حصناً منيعاً لفرسان الداوية ، وتبعد مسير ساعة عن البحر إلى الشرق .

- حمام الجامع القديم المعروف بوقف عن صوباشي ، وكان الوقف مرصداً للحنفية .

- حمام السوق ، ويلاحظ أن حمام السوق لم يكن واحداً ، وإنما نسب إلى السوق الموجود فيه ، فكان واحداً عند بوابة سوق الخضار من الشرق ، وآخر عند السوق الفوقاني ، وفي سوق المسلخ وجد حمام واحد . وهناك حمام السوق المعروف بشيخ طير ، منسوب إلى مسجد الطيار بمحلة التركمان .

- وحمام الصفري بين سوق الغنم وسوق الشجاعية في داخل غزة ، وكان خرباً سنة التسجيل .

- وحمام في محلة الشجاعية المعروف بحمام اليتيم ، مع بئر الماء حكر الأحمدي وحمام التوفه جي أي الزعّار أو القتوة في محلة قايتباي ، وقرب الجامع . وقد وجدنا بعملية حسابية أن عائدات الحمام الأخير هي الأكثر ما بين ربع الحمامات الأخرى ، بمعنى أنه الأكثر ارتياداً من قبل السكان ثم يليه حمام اليتيم في محلة الشجاعية . وهو مايدل على الكثافة السكانية في تلك المحلات .

الحياة العلمية في المدينة :

رغم أن الإشارات التي تورده الوقفيات ، لاتشكل مادة علمية متكاملة ، يمكن الاعتماد عليها في رسم صورة للحياة العلمية في غزة واللواء ، إلا أن ماورد في الوقفيات من شروط يرصد أجزاء من ريعها على تراءة القرآن الكريم ، وقراءة كتب الحديث ، كصحيح البخاري وكتاب الشفاء للقاضي عياض ، وفي الترب والأضرحة والمقامات وغيرها من المزارات ، تجعل الباحث يميل إلى أن المدينة عاشت حياة علمية نشطة . يؤيد هذا الاتجاه ، الأعداد الكثيرة من المساجد التي توزعت في المدينة ، وما لحق بها من كتاتيب ومدارس للتعليم سواء للأطفال أو

ويلمس الباحث من خلال إشارات الوقفيات ، مدى تأثير الحركة الصوفية في مجتمع مدينة غزة ، فقد أفردت وقفيات خصص ريعها لبعض أقطاب المتصوفة مثل الشيخ الياس بن سابق بن خضر والشيخ البرهاوي والشيخ سليم ، وقفاً ذرياً ثم بعد الانقراض توقف على مصالح الزوايا التي وجدت في المدينة آنذاك . وعبد الرحمن بن سلطان والشيخ ظريف والشيخ خالد والشيخ زكريا وغيرهم الكثير .

ويستدل من الوقفية رقم ٥٤ الخاصة بجامع الجاولي ، أنه ألحق به مدرسة كائنة بوسط سوق المدينة ، كانت عامرة بالعلم وخاصة بالشافعية ، وقد كانت لتعليم الأيتام إذ خصص من ريع الوقف لمهمات موظفي الجامع ، مبلغ (٣ درهماً) نقرة في كل شهر لمعلم الأيتام ، وحدد عدد الأيتام الذين يدرسون بالجامع بعشرين نفراً ، وتضمن شرط الوقف من جملة شروط أخرى ، أن يخصص لكل واحد منهم من أجل الكسوة (١٣ درهماً) نقرة في السنة . أما الموظفون الآخرون الذين خدموا الجامع ، حسب شرط الواقف ، فكانوا ، خطيب ، وإمام ، وقارئ للقرآن ، وقارئ للحديث ، وثمانية مؤذنين وأربعة قراشين للتنظيف ووقاد ، وبوابان ومصدر وخازن ، ومنجر (نجار) وخادم للخان ، ومتولي مشيخة الجامع ، ومتولي النظارة وعامل وكاتب وشاهد . وجاء في الوقفية رقم (٩) وقف محمد بن مقبل الرومي في درجة الوقف "وأربعة قراء يقرأون القرآن العظيم برواق واقف المزبور بغزة ، في كل سنة ماعينه بكتاب وقفه ، وتاريخ الوقفية سنة (٨٠٧هـ) ويبدو أنه كان لتعليم الطلبة في غزة[١٨٨] .

ومن المدارس الأخرى التي كانت في غزة ، ورصدت لها الأوقاف نذكر .

- مدرسة الطواشي الكائنة بمحلة الجديدة من الشجاعية ، أنشأها أمير من أمراء المماليك ، هو شاهين بن عبد الله الكجكن ، كان قدم القصر الشريف سنة ٧٨٦هـ[١٩٠] .

- مدرسة اليرديكية في محلة الشجاعية ، بناها برديك الداودار الملكي الأشرفي بتاريخ ذي الحجة الحرام سنة ٨٥٩هـ أيام الملك الأشرف ، أبو النصر ، إينال العلائي ، وقد زارها عبد الغني النابلسي في رحلته سنة ١١٠١هـ إلى غزة ، وكانت إذ ذاك محكمة للقضاة[٢٠] .

- المدرسة الجركسية في وسط غزة ، بناها نائب غزة أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، طرنطاي الجوكندار سنة ٧٣٦هـ والذي تولى النيابة خلفاً لسنجر بن عبد الله الجاولي ، وقد عرفت فيما بعد بالزاوية الأحمدية ، نسبة إلى السيد أحمد البدوي[٢١] .

- مدرسة قايتباى : وكانت ملحقة بجامع السلطان قايتباى ، بوسط غزة القديمة وبخط ساقية الطوابين ، وقد أمر بانشائها الملك الأشرف أبو النصر قايتباى قبل سنة (٨٨٣هـ) وكانت زاهرة بالعلماء والمدرسين ، واستمرت تؤدى دورها حتى سنة (١٢٣٠هـ/١٨١٤م) فقد جددت بأمر الملك الناصر ، أبو السعادات محمد بن قايتباى سنة (٩٠٣هـ) وقد درس بها سنة ١٠٧٣هـ ، الشيخ أحمد بن عمر وكان إمامها ، وتولى الشيخ مصطفى بن يوسف بن أحمد الشهير بخليفة ولاية النظر والخطابة والإمامة بجامع قايتباى سنة (١٢١١هـ) ثم داهم الجامع والمدرسة الخراب بعد سنة ١٢٣٠هـ[٢٢] .

- المدرسة الكمالية ، وكانت بمحلة باب دار الحضر ، على التل المرتفع ، خلف السور القديم ، وكانت تتبع المسجد الذى أمر ببنائه الملك الكامل ، أبو الفتح ، ناصر الدين محمد بن العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وهو الذى أنشأ المدرسة الكاملية بمصر بين القصرين ، وصارت تعرف بدار الحديث ، وكان يلقى فى المدرسة دروس الفقه والحديث وسائر العلوم ، وقد ظلت آثار الجامع والمدرسة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وبلغ عدد مصادر وقفها ١٦ مصدراً وريع أوقافها بلغ ٣١٢٧ قرشاً عثمانيا[٢٣] .

- المدرسة الباسطية ، لم يرد ذكر لهذه المدرسة إلا فى إشارة وقعت فى الوقفية رقم ٢٥ ، وقفية السلطان قايتباى ، حيث جاء فى مصادر أحد الوقف "دكاكين فى سوق الغنم قرب المدرسة الباسطية ، باب ٣ حصته وقف ١٦ ط ، حاصل ٢٨٨ ، وورد فى الوقفية رقم ٥٠ وقف عبد الباسط على مصالح جامعة فى سوق الغنم فى نفس غزة ، ويشير العارف إلى أن الجامع يقع فى حى الشجاعية قرب مطحنة زعر والأرجح أن منشئ المدرسة هو زين الدين ، عبد الباسط بن خليل الدمشقى ، ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة ، ولعله نفسه واقف المدرسة الباسطية فى القدس سنة ٨٣٤هـ[٢٤] .

ملاحظات : لم ترد الوثائق محلة خاصة بالنصارى فى المدينة ، وإنما كانوا يسكنون فى محلة الزيتون ومحله الدرج ومحلة الخضر بين سكان المدينة ، وقد وردت إشارة واحدة لدكان نصرانى فى قصبة السوق فى حى الشجاعية ، بمعنى إن النصارى كان يجاورون المسلمين ، ولم يتفرقوا أو يتكتلوا فى أحياء معينة ، ويبدو أن النصارى فى المدينة كانوا من أتباع كنيسة الروم الأرثوذكس التى كانت قائمة فى وسط محلة دار الخضر .

وأما بالنسبة لليهود فلم ترد أية إشارة إلى وجود محلة لهم وماورد فى الوقفية ١٩ "بيوت فى محلة هنود فى غزة" حرفها Lewis و Cohen إلى محلة يهود وإشارة إلى الأطباء من السامرية الذين كانوا يعملون فى البيمارستان الوارد ذكرها سابقاً ، كما ان الدفتر ١٩٢ يورد جماعة يهوديان ولم يشير الى محلة باسمهم كما وقع فى المحلات الأخرى التى ورد ذكرها فى الدفتر .

ولتحديد التركيبة السكانية فى دفترنا رقم (٣١٢) رجعنا إلى الدفتر رقم (٣٠٤) مفصل سنجق غزة وتاريخه سنة (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) فكانت كما يلى :

- محلة الزيتون : ١٦٠ خانة (متزوج)

١٠ مؤذنين وامام وخطباء

١٠ شريف

٥٠ عاجز وأعمى وأعرج

١٥ خانة أجناد حلقة (الذين كانوا جزءاً من الجنود فى العهد المملوكى ، ويسكنون المحلة المذكورة .

- محلة البرجلية : ٤٥٣ خانة

٥٨٠ مجرد (أعزب)

١٠٩٠ أشراف

٩٠٠ عاجز وأعمى ومجانين وعرجان

٣٥٠ خانة أجناد الحلقة

- محلة شجاعية : ٣٨٥ خانة

١٥٠ اشراف

١٥٠ أئمة وخطباء ومؤذنين ومشهلين

٥٠٠ عاجز وأعمى

٣٤٠ خانة أجناد الحلقة

- محلة دار الخضر : ١٢٨ خانة

٢ . . أشراف

١٥ . مجرد (أعزب)

١٩ . خطباء ومؤذنين وأئمة

٨ . . عميان ومجانين

١ . خانة أجناد الحلقة

- محلة حكر التفاح : ٢٥٤ خانة

٤ . . أشراف

٣ . . أئمة وخطباء ومؤذنين

٥ . . مجرد (أعزب)

٩ . . خانة ، أجناد الحلقة

- محلة التركمان : ٢٠٧ خانة

١ . . شريف

٣ . . خطباء وأئمة ومؤذنين

٧ . خانة أجناد الحلقة

- النصارى : ٩٦ خانة

٢ . عميان

- جماعة رزق الله : ٣٨ خانة

- النصارى من وادي موسى : ٢٦ خانة

- نصارى الشويك : ٤٣ خانة

٢ . عميان

- جماعة جباريه : ٥١ خانة

١ . راهب

- جماعة تاكانية من القدس

(نصارى) ٩ خانة

٢ خانة رعية من الخليل

- نصارى الصخرة المشرفة : ٧٥ خانة

١ . أعمى

- جماعة يهود : ٧٨ خانة

٣ . خانة منهم لوقف حرم سيدنا الخليل

- جماعة السامرة ١٨ خانة(٢٤)

الاجمالي :

- عدد خانات المسلمين بها : ١٧٦٠ خانة (متزوج)

فيهم أجناد الحلقة

- الأئمة والخطباء والمؤذنين ٥٩ .

- الأشراف : ٣٢

- مجنون، عاجز وأعمى وأعرج ٢٧

- مجرد (أعزب) ٧٨

ولو فرضنا أن متوسط عدد الأسرة في ذلك الوقت (٥ أفراد) فيكون عدد المسلمين في المدينة ، قرابة (٨٩٩٦) .

- عدد النصارى كافة ١٦٩٦

- اليهود ٣٩٠

- السامرة ٩٠ .

فيكون عدد سكان المدينة فرضاً هو ١١١٧٢ فرداً

وكانت عائدات (ريع) الوقف الخ . ١٠٠ .

١- عائدات أوقاف الحرمين الشريفين ٥ر١٤٥٠ عثمانى .

٢- وقف الجامع القديم . ٨٣٥٠

٣- وقف موسى بكر . ٥٠٠

٤- جامع الشيخ زكريا . ٩٦٠

٥- تربة الشيخ خالد . ٩٠٠

٦- ولى الدين بن النويرى . ٧٤٠١

٧- شرف الدين عيسى . ٦٨٠

٨- جامع أحمد بن عثمان . ٤٦٣٢

٩- مسجد دار الحكيم ٤٠٠

١٠- جامع الكمالية . ٣١٠٧

١١- شمس الدين محمد . ١١٥١

١٢- تربة النبى صالح . ٥٠

١٣- مسجد ناصر الدين نعران . ٧٠٠

١٤- شيخ عبد الله . ١٠٠

١٥- جامع قايتباى . ٣٨٣١٦

١٦- زاوية الشيخ سليم . ٣٠٠٠

١٧- جامع ابن نجم الدين . ٦٩٤

١٨- أقبغا . ١٠٠٠

١٩- محمد بن مصطفى . ٦٠٠

٢٠- ركن الدين بيبرس . ٢٤٠

٢١- مدرسة جركسية . ٨٠٠

٢٢- مسجد جمالية . ١٠٠٠

٢٣- محمد بن الدقماق الصفدى . ٣٠٠٠

٢٤- مسجد الزينى بليان الخطابى . ١٦٠٠

٢٥- وقف عبد الباسط . ٦٣٢

٢٦- زاوية على بن مروان . ١٥٦٠

٢٧- رمضان بن الياس . ٣٣٧٠

٢٨- زاوية شيخ نبهان . ١٨٦

٢٩- أحمد البريضانى . ١٠٢

٣٠- الشيخ ابنه بكى . ١٣١٠

٣١- الشيخ مجاهد . ٥٠٠

٣٢- مسجد ابن دعبوس . ٨٠٠

٣٣- مسجد آبرك . ٣٠٠

٣٤- مسجد منطار . ٢٠٠

٣٥- قبرى . ١٢٨٠

٣٦- أحمد بن بيلك . ١٠٠

٣٧- مسجد العينى . ١١٢

٣٨- عبد الرحمن بن شيخ أكبر . ٥٠٠

٣٩- مسجد بركات . ٢٤

٤٠- مسجد عاشور . ٢٠

٤١- مسجد كبكلدى . ١٣٢٤٠٠

٤٢- مسجد الشيخ أبو الركب . ١٣٢

٤٣- السيفى صنجك . ١٠٤٠٠

٤٤- مسجد أبو العزم . ٧٠٠

٤٥- مسجد قرية بيت حانون . ٢٠٠

٤٦- مدرسة الطواشى . ٤٢٠

٤٧- ساقية الجالقى . ٣٠٠

٤٨- مدرسة برديكية . ١٤٥٠

٤٩- ساقية النجمي .	٨٠٠
٥٠- مسجد الصوافيري .	١٠٠
٥١- مقام أبي هريرة .	٢٧٨٠
٥٢- مسجد الأوزاعي .	٢٠٠
٥٣- مسجد قوشقار .	٢٥٠
٥٤- مسجد عمر بن سواد .	١٦٠٠
٥٥- وقف الملك ابن قوتلوق .	لم يذكر
٥٦- الأمير ساطي بن عبد الله المؤدب .	٢٢٦٠
٥٧- دار الشفاء ، بيمارخانة .	٤٥٤٩٤
٥٨- شمس الدين محمد الحراني .	١١١٠
٥٩- حسان الدين .	٢٠٠
٦٠- زاوية علي مرجعي .	١٠٠
٦١- حضرت النبي شيث .	٢٠٠
٦٢- قرتلر بوغا بن عبد الله الصفدي .	١٠٠٠
٦٣- جوهر الصقباني الزمام .	١٣٤٥٦
٦٤- ساقية خان يونس .	١٢٧٠٠
٦٥- جامع كيكلدي .	٢٥٠٠
عائدات الوقف اللغوي :	
١- محمد بن أبو بكر .	١٥٠٠
٢- الظاهر بيبرس .	٣٥٠٠
٣- عاشق تيمور .	١٠٠٠
٤- الزيني شاهين الطواشي .	٣٧٧٥
٥- علي بن أمير الأبوغا .	٨٧١٧
	٢٠٢٥

٧- السلطان فرج بن برقوق .	٧٥٠٠
٨- محمد علاء الدين أولاد أحمد الترجمان .	٥٧١٠
٩- محمد بن سراج الدين بن عمر الأنصاري .	٢١٥٤
١٠- ذون النون .	٤٠٠
١١- تاج الدين عبد الوهاب بن حزارة .	٢٠٠
١٢- الناصري محمد بن السيفي .	١٦٧٨
١٣- خاص ترك بنت أحمد بن باكير .	٦٤٠
١٤- الناصري محمد بن حسين بن مصطفى .	٥٠٠
١٥- شهاب الدين أحمد بن محمد العجمي .	٤٢٢٠
١٦- وقف أمير علي .	١٨٠٠
١٧- الشهابي أحمد بن علي الحاجب .	١٦٨٠
١٨- خليل بن محمد العرضي .	٣٠٠
١٩- محمد بن ابراهيم النجاري .	١٠٠
٢٠- عبيد المعروف بجميتم .	٤٠٠
٢١- أحمد قلبغل .	٢٤٠
٢٢- علي الحصري .	٥٠٠
٢٣- ابراهيم بن الناصري الشهير بابن ماثان .	٢٠٠
٢٤- ناصر الدين محمد الأياس .	٨٠٠
٢٥- موسى وعثمان أولاد عبد الرحمن بن ناظر الجيش .	٢٠٦٠
٢٦- حسن بن علي بن سلطان .	٩٠٠
٢٧- غازي علائي بن اسرائيل .	٥٠٠
الأوقاف المشتركة (خيري - ذري) :	
١- وقف محمد بن مقبل الرومي .	٣٧٧٠
٢- زين الدين سلامش .	٤٠٠

٣- شمس الدين أحمد .	٤٠٠
٤- وقف يلبغا بن عاشق تيموري .	٥٠٠
٥- جامع الجاولي .	٣١٧١٧
٦- زاوية الشيخ علي الصيقلي .	٢٠٠
٧- قوتلر بوغاني عبد الله الصفد .	١٦٠٠
٨- اقبغا بن عبد الله الأوحدي .	٥٦٠٠٠

ريع أوقاف دون تحديد :

١- الناصري محمد بن أحمد الطوري .	٢٢٣٩
٢- وقف وملك عبد الرحمن بن شيخ محمد الزاهدي .	٤٠٠
٣- ابن المحتسب جمال .	٧٣٠
٤- ابن أخي ناظر الجيش .	٢٠٠٠

أما ريع الأملاك فكانت كما يلي :

١- بلال محمد باشا .	٨٤٢٨
٢- بلال محمد باشا .	٥٨١
٣- بلال محمد باشا .	عاطل
٤- معلم مبارك ومحمد من أولاد حمار .	١٠٠٠
٥- كمال الدين بن علاء الدين المشهور بابن الجمال .	٧٠٠
٦- جان سكر بنت علي .	١٢٥٠
٧- علي بن ابراهيم الحاجب .	٣٠٠
٨- محمد بن خليل الناقوسي .	١٠٠٠
٩- ناصر الدين محمد بن أوزمور .	٣٠٠ لعلها مكررة
١٠- ناصر الدين محمد بن أوزمور .	٣٠٠
١١- أحمد بن إبراهيم الناقوسي .	٥٠٠

١٣- محمد وعمر شريم وباقي شركائه .	٣٠٠٠
١٤- بلال محمد باشا .	٠٠٠
١٥- ولي الدين بن النويري .	٨٠٠
١٦- ابراهيم بن أحمد الحاجب .	١٣٥٠
١٧- بلال محمد باشا .	٣٠٠

وحتى يمكن تدقيق الضرائب والأعشار في الدفتر ، أرفق ترجمة لقانون لوا، غزه .

الهوامش :

(١) انظر الوقفيات رقم (٣٧ ، ٤١) و (٩٩ ، ١٠٢) .

(٢) أنظر وقفية عاشق تيمور ، رقم ٤٢ .

(٣) انظر ، اتحاف الأعزة ، ٢٠٠ .

(٤) أنظر الوقفية ٢٥ .

(٥) وقفية رقم ٦١ .

(٦) وقفية ٥٢ .

(٧) Cohen, Population, p. 177 المبيض ، غزة ١٤ .

(٨) وقفية رقم ١٠٥ .

(٩) ملاحظة : التعريف بهذه الأماكن الجغرافية ، ورد في مكانه من النشر .

(١٠) انظر الوقفية رقم ١٧ .

(١١) الوقفية ٢٥ .

(١٢) المقريزي ، الخطط ، ٩٣/٢ .

(١٣) الوقفية رقم ٢٥ .

(١٤) رافق ، غزة ، ٥٢ ، ٥٣ .

(١٥) يضم البد ، المسطاح ، وهي الأرض المكشوفة ، حيث يجمع الزيتون قبل عصره .

(١٦) انظر الوثائق ، ٥ ، ٢٥ ، ٥٥ ، ٦١ .

(١٧) أنظر الوثائق ، ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ١٧ .

(١٨) انظر الوقفية رقم ٩٥ .

(١٩) لم نعثر على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر ومراجع ، ولاندري إن كان هو نفسه القاضي مرتق الدين الرومي ، أحد قضاة الأحناف ، والذي تولى قضاء غزة لمدة طويلة باشارة من شيخه الشيخ أكمل الدين ، وتنقل قاضيا بين حلب والقدس والقاهرة ، وتولى منصب قضاء العسكر بالديار المصرية ت(٩١٠هـ/١٥٠٦م) انظر : ابن العيزني ، نزهة الأبدان ، ٢٣٦/٢ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ٢٢٥/٣ .

(٢١) حولها ، أنظر ، الضوء اللامع ٤/٣ - ٥ ؛ تاريخ غزة للعارف ٣٤٦ ، إتحاف الأعزة ١٦٣ .

(٢٢) أنظر ، الدرر الكامنة ، ٣١٨/٢ ، إتحاف الأعزة ١٦٧ .

(٢٣) انظر ، اتحاف الأعزة ، ١٩٥ .

(٢٤) انظر الوقفية رقم ١٩ اتحاف الأعزة ١٩٤ ، العارف ، تاريخ غزة ٣٥٢ .

(٢٥) ٥٥٢/١٥ .

(٢٦) Aramon Cohen, Bemrd, Population, pp. 124-125 .

قانون تأمة لواء غزه

يحتسب كل حمل جمل من أصناف الأقمشة المستوردة من مصر إلى غزة ثلاثين أقجة ، و١٥ أقجة عثماني لكل حمل بغل ، وحمل الركوبة ٥ر٥ أقجة عثماني .

ويحصل أقجة عثمانية واحدة على كل حمل قماش دخل الولاية ولم يبع .

ويؤخذ ٨ أقجات عثمانية عن خام الكتان في حال بيعه ، و٤ أقجات عن حمل الركوبة ، ويؤخذ أقجتان عثمانيتان عن كل ١٠ أرطال غزاوية من خيوط الحرير .

ويؤخذ ٢٥ أقجة عثمانية عن كل نفر يباع في غزة سواء أكان عبداً حبشياً أو عبداً أسود أو جارية .

يؤخذ أقجتان عن كل ١٠٠ أقجة من المباع من السكر وأصناف البهار والقلى والنرشادر وأصناف العطور الأخرى .

ويؤخذ ٨ أقجات عثمانية عن كل رطل غزاوي من الحرير المستورد من الشام ويبيع في غزة.

ويؤخذ ١٢ أقجة عثمانية عن كل حمل جمل من العبي ، ومايلزم من الشال شال الحصان .

والكرباس المصبوغ ، وما يتعلق بالفلاح ، وأما ما يباع بالذراع ، يؤخذ ذراعان ، وأما ما كان مستعملاً قبل ذلك ، فيبقى على ما كان عليه قديماً . ويدفع ٣ أذرع عن كل مئة ذراع .

أما الرز المستورد من مصر ، ومباع في غزة ، فيفرض حمل جمل عن كل ١٣٠ رطلاً ، وعن كل حمل جمل ١٩ أقجة عثمانية ، وعن كل حمل جمل من الرز المستورد عن طريق البحر ومباع في غزه يؤخذ ٥ر١ بطمان[1] ، ومما لا يؤخذ عنه من سائر المواد الأخرى الأخرى والمباع يؤخذ عن كل حمل جمل ١٦ أقجة عثماني وبطمان بلح .

أما الصابون الوارد إلى السوق ومباع فيه ، يؤخذ عن كل حمل جمل ٢٥ أقجة عثمانية .

وتكون الحسبة عن المباع في دار الوكالة من الدبس والخروب والزيت ٢٥ بطمان ، وأقجة عثمانية عن كل واحد من هذه الأصناف ويعطى أقجة عثمانية إلى كل من صاحب الوكالة ،

وأجرة خان رقبان مشاركة ، وأقجة عثمانية لكل من أمناء الحكومة و ٣ أقجات عن حمل بغلتين أيضاً وكذلك أقجة عثمانية لأمناء الحكومة مرة ثانية و ١٠ أقجات عثمانية عن حمل زيوت و ١٦ عثمانية لحمل البغل و ٤ أقجات عثمانية لصاحب القبان عن كل حمل و ٤ عثمانيات عن كل حمل شراب طازج مصفى وأقجتان عن كل حمل بغل مستورد من قرى القدس وخليل الرحمن ، ومن كل حمل جمل من الشراب والدبس القادم من بساتين غزة والسكر الوارد من الرملة ، وما شابهه يكون معفياً . ويؤخذ عثمانية عن كل حمل ركوبة من اللبن ويؤخذ دانة من الشمام والبطيخ عن كل حمل ركوبه .

يؤخذ ٣-٤ دانات عن كل حمل من الخيار والبصل والباذنجان والكوسا (القرع) ، ولا يؤخذ أقجات على مثل هذه الأنواع ، الخضار ، ويؤخذ ثماني عثمانيات عن حمل الحلوى المباع في نفس غزة ، ويؤخذ عثمانيتان عن كل ثلاثين رطل عسل و ٤ أقجات عن حمل التين . ويؤخذ ٨ أقجات عن حمل التفاح عند البيع ، ويعطى ٣٠ بارة كرسم دلالة للدلالين في سوق الغزل الموجود نفس غزة وبدون زيادة وأقجتان عن الحيوانات المباعة من الجمال والجواميس والماعز و ٤ أقجات عن كل غرارة كرسم كيالة عن المباع من السمسم والقمح والشعير والباقلاء والحمص وسائر أصناف الحبوب و٤٠ بارة تحسب شهرياً على دكاكين ، دار الخضرة ، التي تبيع الباقلاء وحمص الطبخ و٤٠ بارة عن كل دكان من دكاكين سوق الشجاعية وعن دكاكين باب جرودة ٢٠ بارة دون زياد.

أما القاضي فيأخذ مقداراً من كل واحد من أهل السوق تحسب بعد تقديم دفتر الأسعار عند البيع فإذا كان المباع أقل فلا يأخذ شيئاً .

وتتقيد القرى والمزارع في اللواء المذكور بما هو مرزع ومقيد ، ويقيد أعشار خاص سلطاني والأملاك والأوقاف من قرى اللواء ، فيعشر كله بالكامل ، ويقسم بعد ذلك بموجب الدفتر الخاقاني .

والزيتون في اللواء المذكور ليس كله اسلامياً ، ويأخذ السباهي نصف حاصل الرومي منه ، والنصف الآخر يكون للتيماري ، وبالمقارنة يؤخذ عثماني عن كل ١٢ شجرة من المتصرف بالزيتون الإسلامي ، وعثمانية عن كل خمس شجرات من الفواكه المختلفة وعشر أقجات عن مئة شجرة جوز و٤ عثمانيات عن كل شجرة تمر حباني و ٢ عثمانية عن كل شجرة من أصناف التين الأ

عن كل شجرة خروب وعشرة واحدة عن كل نخلة ، ورسم ٦ أقجات عن كل جاموسة سليمة ولا يؤخذ زيادة ويسجل باجاً وخفارة على السكان المحليين ويعمل بذلك ، وعند وقوع نزاع وحالات تحويل ملكية ، فيعتبر ذلك من وقت الحصاد . وتجمع عادات العربان (البدو) ، وقت الحصاد ، ولا تؤخذ قبل ذلك إن أغلب القرى الواقعة فى اللواء تحت تصرف قطاع الطريق من عشائر السوالمة وبنى عطاء ويعين لهم بعض المخصص ، وحينما يحين وقت القسمة ، يذهب حوالى ٣٠ - ٤٠ فارساً إلى كل قرية ويكلفوا السكان بالا يطيقون فليكن الأمر فقط وقت القسمة ، ولايجوز الوصول إلى القرى فى أوقات غير وقت القسمة .

ويتقيد بالمخصص بما هو مسجل فى الدفتر الخاقانى الجديد ، فإذا كانت خواص سلطانية أو خاص أمير لواء أو سوباهى أو أصحاب أوقاف وأملاك تؤخذ من أهل كل قرية .

ولكى لايتم دخول القرى بالقوة ، تثبت هذه الأمور بالسجل ، ويعمل بعد ذلك بناء على ماهو مشروح . وأى تصرف يكون خارجاً عما هو موضح ، بخصوص اللواء المذكور من عادات رسوم الدورة والرجادية ورسم الحصاد وفتح البيدر وعادات الأضاحى والطباخة والفراشة ورسم الدجاج ، وعادات الزيت ، يعتبر ظلماً واضحاً ومخالفاً للقانون وللأوامر السلطانية ، ويمنع تحصيله منعاً باتاً .

ويعين على كل نفر من الكفرة واليهود القاطنين فى اللواء ٤٠ بارة ، ولكن بمناسبة الجلوس السلطانى ، فهناك زيادة ٥ بارات على الكفرة و ١٠ عثمانيات على اليهود زيادة عما قيد فى القانون القديم ، ويعمل بهذا من بعد كما هو موضح .

وعلى الأمراء والصرباشية والأمناء أن لايطلبوا أقجة واحدة غير قانونية ، وعليه يعفى رعايا أوقاف الحرمين الشريفين وخليل الرحمن ، عليه الصلاة والسلام من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية ، ومقيد ذلك فى الدفاتر القديمة ويجب تسجيل ذلك فى الدفاتر الجديدة بالصورة المشروحة[٥] .

أ.د. شوقى عطا الله الجمل (*)

كتابات الرحالة المغاربة والاندلسيين كمصدر لتاريخ العرب (كتاب وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان

تعتبر الرحلات - رحلات أهل المغرب العربى والأندلسيين بالذات - من أهم الرحلات التى قامت وكشفت النقاب عن أماكن - خاصة فى قارة أفريقيا لم تكن معروفة ، ونشر المغاربة والأندلسيون فى هذه المناطق التى كثرت رحلاتهم إليها سواء فى طريقهم للحج أو للتجارة - الدين الإسلامى واللغة العربية والحضارة الإسلامية فى العديد من بلاد غرب أفريقيا ووسطها وشرقها .

وإذا كان الكتاب والمؤرخون الأوربيون لايذكرون هذه الرحلات ويتجاهلونها عن عمد أو عن غير قصد - فمن واجبنا نحن العرب أن نبرز هذه الرحلات ونحللها وأن نوضح ونشرح دورها فى نشر الحضارة فى مناطق كانت مجهولة للأوربيين ، وكانت قبل مجئ العرب قليلة الصلة بالعالم الخارجى - فهذه حلقة هامة من تاريخنا الحضارى يجب الكشف عنها .

ويعتبر بوفيل (Bovill) الذى يعتبر من أهم من كتبوا عن علاقة المغاربة بالأقاليم الصحراوية الضخمة الواقعة فى غرب القارة الأفريقية - جنوب بلاد المغرب "إنه قبل قدوم

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة .

العرب لم يكن يعرف الكثير عن أفريقيا فى غرب القارة الأفريقية - جنوب بلاد المغرب ، فنحن ندين بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة الأفريقية إلى فئة قليلة من الرّحّالين والرحالة من أهمهم المسعودى ، وابن حوقل ، واليكرى ، والإدريسى ، وياقوت ، والعمرى ، وابن بطوطة وابن خلدون"[١] .

أما عن الدوافع التى دفعت العرب - المغاربة بالذات - للقيام بهذه الرحلات التى كانت عميقة الأثر فى التاريخ الحضارى والسياسى لهذه البلاد فيمكن أن نجملها فيما يلى :

١- التجارة :

برغم العقبات الطبيعية التى كانت تعوق الوصول إلى قلب القارة - فقد كانت هناك مراكز تجارية بمثابة (الموانى) يتطلع إليها المسافرون عبر الصحراء حيث يجدون بعض الحياة فيستريحون ويستبدلون الجمال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة الرحلة ، وفيها يحدث التبادل التجارى .

وكان للمغاربة دور هام فى هذه التجارة ، وكان ملح الطعام الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب المغرب الأقصى - من السلع الهامة التى يحتاج إليها الزنوج وغيرهم من شعوب المنطقة الواقعة جنوب الصحراء ، هذا بالإضافة إلى النحاس ، والمنسوجات ، والتمر والعقيق ، والحلى - وكانوا على استعداد لمبادلة هذه السلع بالذهب والمحاصيل الأفريقية الرعوية والاستوائية التى وجدت طريقها إلى البحر المتوسط وأوربا على يد التجار العرب - المغاربة على وجه الخصوص .

وأدى هذا الاحتكاك التجارى إلى انتشار الإسلام انتشاراً سريعاً وهادئاً بين الأهالى بهذه البلاد عبر هذه الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى أو على طول المحيط الأطلسى إلى بلاد السنغال ، وأعالى النيجر ، ومنطقة بحيرة تشاد ، وكان لتجار الفولانى ، والهوسا ، والتكرور المسلمين أيضاً دور كبير فى هذا المجال .

وكان التجار المسلمون فى تنقلهم بين المراكز التجارية يحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصى وأمانتهم ونظافتهم - وكثيراً ما أنتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين من هؤلاء الزنوج فى الإسلام ، وعدد غير قليل من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم ،

فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا حلقات لتعليم القرآن أو للعبادة وقاموا بمزاولة النشاط التعليمى والدعوة لاتباع مبادئ الإسلام بجانب نشاطهم التجارى[٢] .

ولذا تركز الإسلام على الخصوص فى البدأ فى المراكز التجارية الهامة والمدن ، ثم انتشر منها إلى المناطق البعيدة . وهكذا دخل الإسلام كثيراً من بلدان غرب أفريقيا فى ركاب التجار - وكنتيجة لنشاطهم - وانتشر بعد ذلك أكثر بانتشار نفوذ المسلمين ، فقد أصبح الإسلام - بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع الإمارات الإسلامية فى أفريقيا الغربية[٣] .

وساعد قيام ممالك إسلامية قوية فى غرب أفريقيا على استتباب الأمن مما أدى لازدهار التجارة التى أصبحت تلعب دوراً رئيسياً فى اقتصاد هذه الممالك[٤] .

ومن القبائل العربية التى لعبت دوراً هاماً فى التجارة عبر الصحراء قبائل (صنهاجة) و(لمتونة) ، و(مسوفة) ، و(جدالة) ويعتبر اعتناق صنهاجة الإسلام فى القرن العاشر حدثاً هاماً فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى غرب أفريقيا كلها - لأن هذه القبائل اندفعت فى نشر الإسلام بين سكان غرب أفريقيا - وهكذا أصبحت كثير من المراكز التجارية مثل (اودغشت) مصادر إشعاع دينى وثقافى[٥] .

وإذا كانت التجارة قد أسهمت فى نشر الإسلام - فقد أدى انتشار الإسلام إلى مضاعفة النشاط التجارى .

وقد وجدت طبقة جديدة من التجار العرب والأفارقة فى كل من غانه ، ومالى وغاز وأدى ذلك بالتالى إلى نشوء وغو مدن تجارية مثل (كومبى) ، و(تمبكتو) ، و(انيالى) و(جنة) و(غاو) [٦] .

وكان ميناء تمبكتو ملتقى البضائع القادمة من شمال أفريقيا ، ومنها توزع إلى مالى ، والنيجر الأعلى ، وداهومى . كما تصل إليها البضائع الأفريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها إلى شمال أفريقيا حيث قامت المدن التجارية فى المغرب ، والقيروان ، وتونس وطرابلس .

وقد أصبح التجار يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الأفريقى ، بل إن بعض القبائل الأفريقية اتخذت التجارة حرفه وتبسبة عرفت بها ، وأصبحت فى المدن التجارية الهامة أحياء

خاصة للتجار العرب يقيمون في دور بها بمنوتها فوق مستودعات بضائعهم ، وحرص هؤلاء على أن يتعلم أبناؤهم في المدارس والمساجد مع زملائهم الأفريقيين[٧] .

والحقيقة إن الذين كتبوا عن قصة التجارة في غرب أفريقيا وما كان يتم في هذه المراحل الطويلة في تلك الأيام التي لم يكن عامل السرعة والوقت فيها له من الاعتبار كما نحس به نحن الآن - يعطوننا صورة رائعة لأثر الإحتكاك البشري والحضارة في هذا الطريق - فابن بطوطة مثلاً يتحدث عن الطرق التجارية والآبار حيث يرتوي المسافرون ويستقرون ، وحيث كانت قوافل التجار تقيم في ضيافة التجار المحليين أو الشيوخ أو تستأجر مسكناً صغيراً تقضي فيه أيام الاستراحة . ويذكر أن الامتزاج كان على أشده بين السودانيين والتجار المغاربة[٨] .

٢ - الحج :

كان الحج - ومازال - من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرصة الالتقاء والتبادل الفكري والثقافي . وقد حرص سلاطين الدول الإسلامية في غرب أفريقيا وشعوبها على أداء هذه الفريضة .

ومن أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التي سجلها التاريخ رحلة الحج التي كان على رأسها منسى موسى - سلطان مالي وقد مر هذا السلطان في طريقه للحجاز بالمغرب ثم بمصر وقيل إنه لم يدع أميراً من أمراء المماليك في مصر ولا رب وظيفة إلا وصله بجمل من الذهب اللي كان معه ، كما أفاض من هباته على الفقراء في الأراضي الحجازية . وقيل إن قيمة الذهب قد انخفضت لكثرة ما أنفقه[٩] .

٣ - العلاقات التي قامت بين بلاد المغرب وممالك غرب أفريقيا :

وقد قامت علاقات سياسية بين سلطان فاس وسلاطين الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا . وكان الساسة في البلدين حريصين على تبادل الرسائل ، والبعثات ، وكانت علاقات المغرب الاقتصادية والسياسية ، والدينية قوية بهذه البلاد وكان الحكام في غرب أفريقيا يطلبون من سلاطين فاس إرسال العلماء والمهندسين ويستشيرون سلاطين المغرب في مهام الأمور ، بل وقد حاولوا تقليدهم في نظم الإدارة والحكم وغيرها .

وكان سلاطين وملوك غرب أفريقيا (مالي - صنغاي) يفضلون الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط في طريقهم لمصر والحجاز ، ويحدثنا العمري عن الحفاوة التي قوبل بها السلطان

منسى موسى في المغرب في رحلته للحجاز وقد ذكر إن السلطان المغربي أصدر أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء ، وليست المملكة حلة الزيفة لاستقبال ضيف المغرب[١٠] .

وكما سنرى فإن الحسن بن الوزان سافر في بعثة إلى صنغاي رفقة عمه موفداً من سلطان فاس إلى هذه البلاد - كما أوفد إليها بعد ذلك عدة مرات - وابن بطوطة أيضاً توجه برسم السفر إلى بلاد السودان موفداً من السلطان ابن عنان .

فالعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية كانت مستمرة ومنتظمة بين سلاطين المغرب وحكام الممالك الإسلامية وأثر المغرب واضح في سياسات وحضارة ومباني هذه البلاد ، وقد استمرت هذه العلاقات لسنوات إلى أن نكبت بلاد غرب أفريقيا بالاستعمار الأوربي[١١] .

والحقيقة أن بلاد المغرب بعلاقتها القوية بتلك النواحي تركت آثاراً واضحة فيها وشاركت بنصيب وافر في تشكيل وتطوير حياة الناس ، ومعتقداتهم وأفكارهم وبقي هذا الأثر إلى اليوم رغم ما أصاب هذه البلاد نتيجة الاستعمار الأوربي .

الرحالة المغاربة والأندلسيون :

من الصعب أن نلم بكل هؤلاء الرحالة ونشاطهم في هذا المجال - مجال الرحلات - وما أسفر عنه من كشف النقاب عن دور هام من أدوار التاريخ السياسي والحضارة بالذات للمغرب ، فكما ذكرنا أن المغاربة والأندلسيين شغفوا بالرحلات وسجلوا الكثير من المعلومات والبيانات عن البلاد التي زاروها والتي تأثرت باتصالها بالأمة العربية الإسلامية ، وانتهى الأمر باعتناق شعوبها الإسلام ، وقامت فيها ممالك إسلامية قوية واجهت المستعمرين الأوربيين حين حاولوا فرض سيطرتهم على هذه البلاد .

وإذا كان ما سجله الرحالة العرب في ذلك الوقت المبكر قد لا يصل في الدقة والتفاصيل إلى ما وصل إليه الرحالة الأوربيون وكتاباتهم فيما بعد حين قاموا برحلات تمانداها وتمولها الجمعيات الجغرافية والحكومات الأوربية ، لكن رحلات الرحالة العرب في ذلك الوقت المبكر وكتاباتهم لا تقل أهمية عن رحلات الرحالة الأوربيين ، خاصة أنها تلقي الأضواء على صفحات ناصعة من تاريخ العرب وعلاقتهم بهذه البلاد والشعوب ، نتيجة هذا الاحتكاك الحضاري بين الحضارتين العربية والإسلامية والحضارة الأفريقية ، وهي صفحات لم تلق اهتماما كبيرا من

الكتاب الأوربيين رغم أهميتها ودورها الرئيسى فى التكوين السياسى والاجتماعى والثقافى لهذه الشعوب .

ونشير إلى بعض الرحالة والكتاب العرب المغاربة والأندلسيين الذين قاموا بجولات ورحلات فى وقت مبكر ومتركز على كتابات أحدهم ، الحسن بن الوزان كمثل لهذه الرحلات وأهميتها كمصدر للتاريخ العربى .

١- البكرى أبو عبيد الله (١٠٢٨-١٠٩٤م) :

من عائلة عربية كانت تعيش فى الأندلس ، كتب كتابا من عدة مجلدات باسم المسالك والممالك ، معتمدا على وثائق الأرشيف الرسمى فى قرطبة ، وعلى الرغم من أننا لانعرف بالدقة نشاطه فى مجال الرحلات ونعرف أن معلوماته اكتسبها من اطلاعه على الوثائق المحفوظة بالأرشيف الرسمى فى قرطبة لكن المعلومات التى أوردها عن بلاد المغرب والسودان هامة وقد خصص جزء باسم "تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان"[١٢].

٢- الإدريسى ، محمد بن عبد الله بن إدريس :

من عائلة عربية فى الأندلس ، هاجرت إلى شمال أفريقيا وقد ولد فى مدينة سبتة عام ١١٠٠م ، لكنه دخل فى خدمة الملك روجر الثانى ملك صقلية ، وقد قضى حياته فى التجول، وقام بعدة رحلات فى أفريقيا ، واستعان به الملك روجر بجمع المعلومات الجغرافية والعلمية المعروفة فى ذلك الوقت .

وله كتاب مشهور عن المغرب وبلاد السودان الغربى ومصر والأندلس[١٣] .

٣- ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير :

قام بثلاث رحلات بين عامى ١١٨٢ ، ١١٨٥ ، خرج من غرناطة إلى الإسكندرية ، فالقاهرة ، ثم سافر إلى قوص ومنها إلى عيذاب ثم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وقدم لنا وصفا شيقا للطريق الذى سلكه وحالة الأهالى ومعيشتهم فى المناطق التى زارها .

٤- ابن بطوطة ، أبو عبيد الله محمد بن بطوطة : (١٣٠٤-١٣٧٧) :

من أهم الرحالة العرب ، ولد فى طنجه ، وطاف معظم بقاع العالم القديم المعروف فى وقته، وقام بثلاث رحلات هامة فى الفترة ١٣٢٥-١٣٥٤ :

ففى الرحلة الأولى : خرج من طنجه مستقط رأسه قاصداً بيت الله الحرام ، فوصل إلى تلمسان وأقام بها ثلاثة شهور ، ثم وصل إلى سوسه ، فالإسكندرية ، ثم قصد صعيد مصر إلى قوص ، ووصل إلى عيذاب على البحر الأحمر ، ولم يستطع أن يكمل رحلته عن طريق البحر الأحمر لاضطراب الأحوال بين الأتراك والبجة المنتشرين فى هذه الجهات ، فعاد إلى قوص ومنها سافر إلى بلبيس شرق الدلتا ومنها إلى الشام .

وفى الرحلة الثانية : وصل إلى سواكن ومنها أبحر إلى اليمن ، ثم عاد إلى ساحل أفريقيا الشرقى فوصل إلى زيلع ومنها سافر إلى مقديشيو ، وزاره كلوة وغيرها من موانى شرق أفريقيا التى كان العرب قد استقروا بها من زمن .

ويحدثنا عما رآه من مظاهر الحضارة فى الجهات التى زارها وأثر العرب الحضارى فى هذه البلاد .

أما الرحلة الثالثة : فقد كانت فى غرب أفريقيا ، فقد أبحر من الأندلس إلى مراكش وسافر إلى مكناس ، وفاس ، وتابع رحلته إلى السودان الغربى فوصل إلى سجلماسه ثم زار بعض السلطنات التابعة لملك مالى ، ووصل إلى تمبكتو حينما كانت مركزاً هاماً للحضارة الإسلامية واتجه شرقاً إلى تاكر أكبر مدن الطوارق ، ثم زار بعض الجهات الواقعة شرقى النيجر وقفل راجعاً إلى فاس - وقد أشار لنهر النيجر وذكر إنه يتجه إلى الشرق .

والحقيقة إن ابن بطوطة أمدنا بمعلومات هامة عن جهات أفريقية كانت فى وقته مجهولة ، وقد اتهمه بعض الكتاب بأنه بالغ فى ذكر مشاهداته ، لكن مهما يكن من أمر فإن هذا لايقلل من قيمة رحلته كمصدر هام من مصادر تاريخ العرب وحضارتهم وحياتهم فى الجهات التى زارها[١٤] .

٥- ابن خلدون ، عمر بن عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢-١٤٠٦م) :

من أسرة عربية بالأندلس ، لكنها هاجرت إلى تونس وتنقل فى عدة وظائف فعمل فى البلاط السلطانى فى تونس ، ثم فى فاس ، ولجأ لمصر حيث عمل مفتيا للمالكية ، ثم اعتزل بعد ٥ سنين فى الفيوم عكف خلالها على تنظيم المادة التى جمعها خلال سنوات تجواله المتعددة، وخرج علينا بكتابه المشهور[١٥] .

٦- التونسي ، محمد بن السيد عمر التونسي :

من الرحالة المغاربة (تونس) الذين زاروا السودان . ودونوا ملاحظاتهم عنه ، وقد أقام في السودان نحو عشر سنوات (١٨٠٣-١٨١٣) منها سبع سنوات ونصف في دارفور ، ووصل إلى دارفور من درب الأربعين الذي يبدأ من أسيوط وأتجه في صحراء ليبيا مارا بالواحات والآثار المختلفة .

وقد تحدث التونسي في كتابه عن عناصر السكان في منطقة دارفور ، وعن ظروف المعيشة فيها فهو مصدر هام لدراسة الأحوال السياسية والإجتماعية والثقافية لجهات السودان التي زارها .

وقد استطاع التونسي أن يلم بأحوال البلاد التي زارها إلماما تاما ثم سافر إلى واداي في غربها حيث قضى بها ما يقرب من العام ثم عاد إلى تونس .

ورحلته منشوره باسم تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان[١٦].

٧- الحسن بن محمد الوزان - ليو الأفريقي Leo Africanus (١٤٩٨-١٥٥٢) :

وكتابه وصف أفريقيا كمصدر من مصادر التاريخ العربي :

ظهر بعد ابن بطوطة بما يقرب من قرنين ، وسأركز عليه وعلى كتابه وصف أفريقيا باعتباره يعطي مثلاً قويًا لأهمية الرحالة المغاربة وكتاباتهم كمصدر من مصادر التاريخ العربي .

ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى العائلة الوزانية - وهي عائلة عربية عاشت بالأندلس في المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين العرب والأسبان - وقد أضطرت هذه الأسرة مع غيرها من الأسر العربية للهجرة من غرناطة حيث استقر بها المقام أخيراً في فاس .

وقد تعددت الأسماء التي كتب بها في المراجع الأجنبية بالذات ، فقد لقب باسم Leo. Africanis ، كما عرف باسم Giovanni Leone ، ويرتبط هذا الإسم باسم البابا ليو العاشر (Leox) الذي جلس على كرسي البابوية في الفترة (١٥١٣-١٥٢١) وهو من أسرة مدتشي Medicci الشهيرة ، وكان اسمه قبل أن يصل إلى كرسي البابوية Giovanni de Medicci .

وقد قدم له الحسن بن محمد الوزان كهدية من القراصنة الذين أسروه ، فعرف له قدره وقربه إليه .

أما المراجع العربية القليلة التي أشارت اليه فتطلق عليه لفظ الأيبيري أو الغرناطي وهذا يرجع لارتباطه بغرناطه وشبه جزيرة إيبيريا ، وبعض المراجع تنسبه إلى مدينة فاس التي ارتبطت بفترة هامة من حياته وتكوينه الفكري .

وهناك اختلاف في تحديد تاريخ ميلاده فقد ذهب البعض إلى أنه ولد في عام ١٤٩١ ، العام السابق لسقوط غرناطة في أيدي الأسبان ٢١ يناير ١٤٩٢) لكنه يذكر في كتابه إنه عند سقوط أسفي في يد البرتغال كان عمره عشر سنوات[١٧] ، ولما كان استيلاء البرتغال على أسفي قد حدثت في عام ٩١٣هـ - ١٥٠٨م ، فهذا يعني أن مولده كان في عام ٩٠٤هـ - ١٤٩٨م ، وبالتالي تكون أسرته قد بقيت في غرناطة ست سنوات تقريبًا بعد أن سلمت آخر معاقل الإسلام في أسبانيا لجيش (ايزابيلا) ، (وفرديناند) .

ومن المعروف أن كثيراً من المسلمين هاجروا من الأندلس قبيل سقوط غرناطة . وبعد سقوطها لجأ عدد منهم إلى المغرب ، فاستقر بعضهم في تطوان ، والبعض الآخر في الرباط والبعض في سلا ، وقد حمل هؤلاء لواء الجهاد والكفاح ضد البرتغاليين والأسبان في البحر المتوسط في ثغور شمال أفريقيا التي تعرضت لأطماع البرتغال والأسبان . ووصل الأمر إلى أن أصبحت لبعض هذه الأسر العربية المهاجرة سفن تهاجم السفن الأسبانية والبرتغالية لدرجة أن أطلقوا على العاملين في هذا الأسطول اسم القراصنة (قراصنة سلا)[١٨] .

أما الذين بقوا من المسلمين في أسبانيا بعد سقوط غرناطة - ومنهم أسرة الوزان - فقد عوملوا في البدء معاملة مقبولة وسمح لهم بالإبقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث الأسبان أن ضيقوا عليهم الخناق ، وساموهم سوء العذاب مما أضطرهم للهجرة[١٩] .

ومن المرجح أن أسرة الوزان - كما ذكرنا - بقيت في أسبانيا بعد سقوط غرناطة في يد الأسبان مدة أربع سنوات ثم هاجرت إلى المغرب واستقرت في فاس .

وصل الرحالة إلى فاس مع أسرته ومنها كانت نقطة إنطلاقه لرحلاته المتعددة .

وفي فاس تلقى الوزان علومه الأولى في مدارسها ثم تعلم في جامع القرويين الذي كان يعتبر كعبة الراغبين في التزود بالعلوم الدينية والنظرية[٢٠] .

وكانت فاس في ذلك الوقت من أهم مراكز العلم والمعرفة في العالم العربي ، وكانت لها منزلة لاتقل عن مكانة القاهرة ، وقرطبة وغرناطة .

ولعل الظروف السياسية في العالم العربي في ذلك الوقت والتي تمثلت في انتهاء نفوذ العرب السياسي في أسبانيا - رغم قسوتها - ساهمت في ازدهار منار العلم في فاس إذ أصبحت بلاد المغرب بالذات المأوى الذي احتضن الكثير من المثقفين والعلماء المهاجرين من أسبانيا . ودراسة الأوضاع العلمية والفكرية في المغرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الملاديين تعطي لنا فكرة عن الجو العلمي الذي نشأ فيه الوزان والذي أسهم في تكوينه .

ولعل أروع وصف لما وصل إليه صاحبنا من العلم والمعرفة هو ماعبر عن (Pory) مترجم كتاب وصف أفريقيا إلى الإنجليزية إذ قال "كما أن موسى وصف بأنه تثقف بكل حكمة المصريين كذلك فإن ليو يمكن أن يوصف بأنه تثقف بكل ثقافة المغرب والمغاربة في عهده"[٢١].

ويشير الوزان في كتابه إلى بعض رفاقه في التعليم لكنه لم يشر إلى أساتذته . وإن كان قد أشار إلى عشرات من المفكرين والفلاسفة المسلمين الذين قرأ لهم وتأثر بكتاباتهم مثل ابن رشد ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن خلدون ، وعبد الله البيطار ، والبكري والإدريسي والمسعودي).

وهذا يدل على أنه نال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة وانه اطلع على أمهات الكتب المعروفة في وقته .

أما عن أوجه نشاطه الأخرى في المغرب فيذكر أنه اشترك مع والده في إعداد قوافل الحج المتوجهة إلى الحجاز كما يشير إلى زيارته لبعض المزارات التي كانت لها قدسية في ذلك الوقت .

وقد شغل الحسن بن الوزان في بداية حياته العلمية بعض الوظائف فعمل لمدة عامين ككاتب عدل في المستشفى الكبير بفاس[٢٢] .

رحلات الوزان وأسفاره :

تعددت أسفاره وتنوعت ، فقد كان السفر والترحال هو الشيء المحبب إلى نفسه . ولذا فرحلاته تعتبر بلا شك مصدراً هاماً لتاريخ البلاد التي زارها فقد كان يتنقل في البلاد ويعمل كقاض أو حكم يفصل في الخلافات بين الناس مقابل أشياء عينية يحصل عليها من الطرفين المتخاصمين . وهذا يدل على أن النقود لم تكن متداولة بكثرة في ذلك الوقت .

وهو في ذلك يستند إلى إلمامه ببعض المبادئ القانونية ، كما كان في بعض أسفاره مع التجار يعمل كاتباً بدون لهم حساباتهم بالإضافة إلى أنه كان يفصل في مشاكلهم المادية والقانونية .

وهو يشير في كتابه إلى المتاعب التي كان يواجهها التجار في الطريق الصحراوي أو في المدن الساحلية من القرصان الذين كانوا يجردونهم من كل شيء ، بل كانوا أيضاً يبيعون من يقع في أيديهم في أسواق الرقيق ، ولذا فإن التاجر لم يكن تاجراً فحسب بل كان يلزم أن يكون أيضاً رجل حرب مستعداً للدفاع عن نفسه وعن تجارته وماله إذا هوجم ، وجانب من كتاباته يتمثل في رحلاته التي كلف فيها من قبل سلطان فاس .

هذا بالإضافة إلى أن الوزان اشترك ، كغيره من المرابطين المغاربة في المعارك ضد البرتغال في الثغور المغربية[٢٣].

وفي بعض رحلاته كان الوزان يسافر بتكليف من سلطان فاس كملحق مع بعض الموظفين الحكوميين لتحصيل الأموال المطلوبة من القبائل ، ويشير أثناء حديثه في ذلك لأشياء طريفة، فيذكر مثلاً أن الناس رغم قدرتهم على الدفع فقد كانت هناك صعوبة في أخذ النقود المطلوبة منهم ، ويذكر أن بعض القبائل بالذات عرف عنها البطء في دفع ما عليها من مال .

ومن جولاته التي قام بها في المغرب جولة قام بها في عام (٩١٥هـ ١٥٠٩م) لدراسة الشواهد التي على قبور بعض الشخصيات البارزة في (شاله) وانه اتخذ منها مادة لكتاب وضعه عن هذه الشخصيات فيما بعد ، وإن كنا لم نعثر على هذا الكتاب الذي ألفه بناء على دراسته لهذه الشواهد لكن هذا يلفت النظر إلى مصدر لدراسة تاريخ بعض الشخصيات الهامة التي لعبت دوراً في تاريخ هذه البلاد[٢٤].

ومن الرحلات الهامة التي قام بها الرحالة ، الرحلة الطويلة إلى تمبكتو والتي بدأها في عام ٩١٧هـ-١٥١١م ، عن طريق سجلماسة حتى وصل تمبكتو ، وقد وصفها وصفاً دقيقاً وكانت في ذروة مجدها ، وزار الوزان مملكة مالي ، ووصل إلى صنغاي والهجه شرقاً إلى بلاد الهوسا ثم إلى بورنو .

وهكذا زار في رحلته هذه ، التي وصفها في الكتاب السابع من كتبه التسعة ، عدداً كبيراً من الممالك الإسلامية بغرب أفريقيا .

ورغم أن الوزان أبحر فى نهر النيجر لمسافة طويلة ، فقط وقع فى خطأ إذ ذكر أن النهر ينبع من بحيرة تشاد ويسير نحو الغرب إلى المحيط .

وقد قام الحسن بن الوزان بثلاث رحلات إلى مصر وأعطانا وصفا للأوضاع بها فى ظل حكم المماليك ، كما أنه زارها فى طريقه للقسطنطينية وذلك بعد فتح السلطان سليم لها ، كما زار الحرمين الشريفين وبعض وجهات آسيا ، وذكر أنه سيسجل زيارته الأسبوية هذه فى كتاب آخر لأنه خصص كتابه لأسفاره فى أفريقيا ، ولا ندرى هل حقق هذا الأمل أم لا[٢٥].

ثم عاد إلى القسطنطينية فوصل إليها فى عام ٩٢٦هـ-١٥١٩م ، ومنها أبحر قاصدا المغرب ، لكنه وقع فى أيدى قرصان صقلية الذين كانوا يجوبون فى البحر المتوسط فأسروه وقدموه هبة إلى البابا ليو العاشر ، فعرف له مكانته وأضفى عليه رعايته .

وعاش الرحالة فى روما حوالى ثمانى سنوات ، زار خلالها عدة مدن إيطالية وقام بتدريس اللغة العربية بجامعة مدينة بولونا ، وبعد وفاة البابا ليو العاشر فى عام ٩٢٧هـ-١٥٢١م لم يلق نفس المعاملة الطيبة التى كان يعامل بها ، فعاد إلى شمال أفريقيا ، ولجأ إلى تونس حيث قضى بقية حياته حتى مات فى عام ١٥٥٢ .

كتاب وصف أفريقيا طبعاته وقيمته كمصدر للتاريخ العربى :

الطبعة الأولى الإيطالية :

نشر رامبسيو Ramusio من أسرة مؤسسة هاكيلوت (Haklut) الكتاب فى عام ١٥٥٠ بالإيطالية فى ثلاثة مجلدات مع مقدمة له وذلك فى مجموعة عن الرحلات .

وذكر الناشر أن الرحالة أثناء إقامته فى روما ترجم إلى الإيطالية الكتاب الذى كان يحمله عن رحلاته ، وأن هذه الترجمة جاءت حسب طلب البابا ليو العاشر[٢٦] .

والعجيب أن النسخة الخطية الإيطالية لهذه الطبعة المنشورة لم يعثر عليها أيضا ، ويرجح البعض إنه من الممكن أنها فقدت فى الحريق الذى تعرضت له مخازن مؤسسة (Hakluyt) والذى أتى على كثير من كتب المؤسسة .

ولم يذكر Ramusio هل حصل على النسخة الأصلية من المؤلف نفسه أو من أى مصدر آ

كما أنه لم يذكر لنا هل كانت لدى الرحالة نسخة باللغة العربية حملها معه إلى إيطاليا وعلى أساسها وضع الترجمة الإيطالية[٢٧] .

والبعض ذكر إنه كانت مع الحسن بن الوزان نسخه بالعربية لرحلاته ، وأنها فقدت أثناء هجوم القراصنة على السفينة المقلة له ، وهذا يثير سؤلا هو : ما المصدر إذا الذى اعتمد عليه فى كتابة رحلاته بالإيطالية ؟ فمن المستبعد أنه اعتمد على الذاكرة فحسب ، وقد ذكر البعض أنه وجدت نسخه خطيه بالعربية لدى أحد هواة جمع الكتب الخطية يدعى (V. Pinelli) وأنها اختفت بعد ذلك[٢٨] .

وقد ذكر المؤلف نفسه فى كتابه إنه مضطر للاعتماد على ذاكرته فى كثير من الأحداث التى ذكرها فقد مضت أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربى واحد .

على أن هذا لا ينفى وجود مسودة عربية للرحلة ، أثناء كتابة الرحالة لكتابه بالإيطالية ، للرحلة لكن المؤلف يقر حقيقة وهى أن المراجع الأجنبية كانت فى متناول يده بعكس المراجع العربية التى إفتقدها فى أوربا بينما كانت تحت يده فى وطنه الأصلى .

الترجمة الفرنسية :

ترجم الكتاب بعد ظهور الطبعة الإيطالية ، إلى العديد من اللغات ، بل ظهرت عدة طبعات له باللغة الواحدة .

ففى عام ١٥٥٦ قام (Jean Temporal) بترجمة الكتاب إلى الفرنسية عن النسخة الإيطالية التى صدرت فى عام ١٨٥٤ وأهداه إلى ولى عهد فرنسا[٢٩] .

وأعيد طبع الكتاب بالفرنسية فى مدينة (انتورب) عام ١٥٥٦ كما ظهرت طبعة فرنسية أخرى فى تاريخ متأخر (١٨٩٦-١٨٩٨)[٣٠].

الترجمة اللاتينية :

نشر (Joanes Fiorianus) فى عام ١٥٥٦ ترجمة لاتينية للكتاب وكانت اللغة اللاتينية فى ذلك الوقت لغة الطبقة المثقفة فى أوربا[٣١] .

ولهذه الطبعة اللاتينية أهمية خاصة لأنها كانت الأساس الذى أخذت منه عدة ترجمات وطبعات أخرى ، لكن للأسف فإن هذه الطبعة حدثت فيها عدة أخطاء حين حاول المؤلف تحويل

حاول أن يضيف تفسيرات لنص الظاهرات التى ورد ذكرها فى النسخة الإيطالية . وقد ترددت هذه الأخطاء فى ترجمات أخرى نقلت عن هذه الطبعة اللاتينية فهذه الطبعة ولو أن لها الفضل فى شهرة كتاب ليو الأفريقى إلا أنها أيضا تسببت فى كثير من الأخطاء التى تناولتها الكتب المترجمة عنها .

الترجمة الإنجليزية :

قام جون بورى (John Pory) بترجمة الكتاب لأول مرة إلى الإنجليزية ، ونشرت مؤسسة (Hakluyt) هذه الطبعة فى عام ١٦٠٠ ، وقد رجع المترجم إلى النسخة الإيطالية وصحح بعض الأخطاء التى وردت فى الترجمة الفرنسية لـ Florianus، وتتميز هذه الطبعة بعدة ميزات منها :

١- مقدمة (John Pory) الطويلة والإضافات المتعددة وتعليقات (Dr. Brown) التى شغلت فى الطبعة الإنجليزية ٢٢٥ صفحة من ١ إلى ٢٢٤ .

٢- المعلومات التى أضيفت إلى هذه الطبعة عن ثلاثة إمبراطوريات أو ممالك أفريقية هى إمبراطورية البريسترجون (إمبراطورية الحبشة) والمونوموتاپا ، ومملكة المغرب ، ثم عن مناطق الاستعمارين الأسبانى والبرتغالى فى القارة الأفريقية ، والقلاع التى أسسوها على السواحل الأفريقية ، ثم الدراسة التى عملت عن المعتقدات الدينية المنتشرة بين الأمازيغ (الوثنية ، واليهودية ، والمسيحية ، والإسلام) .

٣- الخرائط التى زودت بها هذه الطبعة وهى ٨ خرائط من وضع مستر رافينستين (Mr. Ravenstein) .

٤- فهرس البلاد والقبائل والأعلام الواردة فى الكتاب وهى من وضع Mr. Ravenstein أيضا .

الترجمة الهولندية للكتاب :

فى عام ١٦٦٥ ظهرت فى روتردام طبعة هولندية للكتاب .

الترجمة الألمانية :

ظهرت فى عام ١٨٠٥م .

الترجمة الأسبانية :

ظهرت فى عام ١٩٤٠م .

الترجمة العربية :

ظهرت أخيرا ترجمتان للكتاب إحداهما ترجمة د. عبد الرحمن حميدة الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وقد راجع هذه الترجمة الدكتور على عبد الواحد وهذه الترجمة استندت إلى الطبعة الفرنسية لـ A. Epaulard التى ظهرت فى سنة ١٩٥٦ (١٣٧٥هـ) وقامت هذه الترجمة العربية بمبادرة من كلية العلوم الاجتماعية فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول فى مطلع عام ١٣٩٩-١٩٧٩م .

وظهرت بعد ذلك ترجمة عربية أخرى للكتاب فى تونس .

وتتميز الترجمة التى صدرت فى المملكة العربية السعودية بالتحقيقات العديدة والحواشى القيمة وهى فى ٦٧٥ صفحة .

الأبحاث العديدة التى استندت إلى كتاب الحسن بن الوزان :

بالإضافة إلى الترجمات العديدة لكتاب الحسن بن الوزان فقد قام عدد غير قليل من الكتاب والباحثين بعمل أبحاث مستندين إلى ما أورده الحسن بن الوزان فى كتاب وصف أفريقيا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١- البحث الذى أعده Francis Moore بالإنجليزية فى عام ١٧٣٨ عن غمبيا مستندا إلى ماكتبه الحسن بن الوزان عن الممالك الزنجية بغرب أفريقيا .

٢- فى عام ١٨٠١ نشر (Bruns, Har Fraib Paul Jacob) بحثا بالألمانية بعنوان "تحليل لبعض الحقائق التى أشار إليها ليو فى كتابه" .

٣- فى عام ١٨٠١ نشر الأستاذ (Lors bach) مدير جامعة ناسو Nassau بحثا وضح فيه الأخطاء التى وقع فيها (Florianus) فى ترجمته اللاتينية ، وكان هذا البحث دافعا لظهور ترجمة دقيقة بالألمانية للكتاب فى عام ١٨٠٥ حاول تفادى الأخطاء المشار إليها .

٤- نشر الرحالة الغرناطى (Mormol Caravyal) وصفا لكثير من جهات أفريقيا معتمدا على رحلة لـ ليو كتابه .

٥- كتاب كل من لانجر (Longres De Tassay)[٣٢] ، مورجان[٣٣] (Joscpt Morgan) عن الجزائر - اعتمادا على ماكتبه ليو عن هذه البلاد .

٦- البحث الذى قام به (Louis, Massignon) عن مراكش فى العشرات الأولى من القرن السادس عشر فى وصف ليو الأفريقى[٣٤] .

والحقيقة إنه يندر أن يكون كاتب قد كتب عن شمال أفريقيا أو غربها أو وسطها ، بعد أن نشر كتاب ليو الأفريقى وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، حتى بدأت الكشوف الجغرافية المتأخرة تكشف عن حقائق كثيرة عن تاريخ العرب فى هذه الجهات وما قاموا به من دور حضارى ، من غير أن يستعين بما كتبه عن هذه البلاد .

وقد صرح المستشرق الألمانى هارتمان (Hartmann) فى القرن الثامن عشر - بأن "كتاب ليو كنز من الذهب ولولاه لخفيت عنا أشياء كثيرة"[٣٥] .

وحتى الرحالة بارث (Barth) الذى وصل إلى تونس فى سنة ١٨٤٩ ضمن حملة لكشف وسائل تنشيط التجارة عبر الصحراء الكبرى للقضاء على تجارة الرقيق ، ووصل إلى كانو ، وساح فى منطقتى كانم ، وباجرمى ووصل إلى تمبكتو ، نجده يبدى إعجابه بما كتبه ليو ، ودقته فى تسجيل ماراًه ، حتى أنه وعد بعمل ترجمة جديدة مع تعليقات لرحلة ليو ، رغم مرور ما يقرب من ثلاثة قرون عليها ، لكن وفاته فى عام (١٨٦٥) حالت كما يبدو ، دون إتمام هذا الوعد ، وإن كان كثيرون فيما بعد وجدوا فى مشاهدات بارث مجالا للمقارنة بما سجله ليو[٣٦] .

هذا ولم يقتصر أثر كتاب ليو على ذلك فقد امتد الأمر إلى رسامى الخرائط ، فكما ذكرنا أن كلا من Ramusio ، Pory نشرا خرائط عن أفريقية ، بناء على وصف ليو للمناطق التى زارها ، وقد ظلت هذه الخرائط حتى وقت متأخر المصدر الوحيد لرسامى الخرائط حتى أن كثيرا من المعالم الجغرافية والبلاد ظلت ترضح على الخرائط كما هى رغم المتغيرات الكثيرة التى طرأت على الكثير من هذه المناطق نتيجة للظروف البشرية والطبيعية التى تعرضت لها[٣٧].

جولة سريعة مع كتاب وصف أفريقيا :

يصعب أن يعطى المرء صورة سليمة عن كتاب بهذه الضخامة ويحتوى على كل هذا القدر من المعلومات فى بضعة سطور ، فيما لاشك فيه أنه لاغنى عن الكتاب نفسه لتقدر قيمته

العلمية كمصدر هام من مصادر التاريخ العربى يعطى صورة حقيقية عن نشاط العرب الحضارى ودورهم فى الحضارة العالمية والذى قلما تذكره المراجع الأجنبية التى تردد أن الأوربيين جاءوا إلى أفريقيا كرواد للحضارة وكمبعوثين من العناية الألهية لهذه القارة المظلمة.

والكتاب فى تسعة أقسام (أبواب) - أطلق الوزان على كل قسم منها لفظ كتاب .

القسم الأول :[٣٨]

تحدث عن منشأ اسم أفريقيا ، وأقسامها ، وتقسيم بلاد السودان ، والعرب الذين يسكنون فى أفريقيا فى خيام ، والأفارقة الذين يعيشون فى صحراء ليبيا ، والعرب الذين يسكنون الصحارى الواقعة بين بلاد البربر ومصر ، وديانة قدماء الأفارقة ، والأشياء المحمودة عند الأفارقة والأشياء المذمومة .

القسم الثانى :[٣٩]

عن مملكة مراكش ، وحياة الناس بها ، والسوس ، ومدينة أفران ، ومنطقة دكالة ، ومدينة أسفى ومنطقة تادلة .

القسم الثالث :[٤٠]

عن مملكة فاس ، ومدينة المنصورة ، ومكناس ، والمارستانات والخصامات الموجودة فى فاس، وعادات الناس بها ، والقصر الكبير ، وسبته ، والجبال بها .

القسم الرابع :[٤١]

مملكة تلمسان ، وعادات البلاط الملكى فيها ، والمرسى الكبير ، ومستغانم ، وجبال المملكة.

القسم الخامس :[٤٢]

مملكة بجايه وتونس ، وبلاط الملك ، ومدينة المهدية ، والجبال بالمملكة وصحراء برقة .

القسم السادس :[٤٣]

نوميديا ، ومنطقة سجلماسة ، وبسكره وغدامس ، والصحراوات ، والواحات .

القسم السابع :[٤٤]

بلاد السودان ، مملكة ولاته ، ومملكة جفه ، وتومبكتو ، وغاو ومملكتها ومملكة غوبر ، ومملكة وأنقاره ، وبورنو ، والنوبه ومملكتها .

القسم الثامن :[٤٨]

مصر أقسامها ، الإسكندرية ، رشيد ، مدينة طيبة ، فوه ، مدينة دبروط ، القاهرة ، مصر العتيقة ، الموظفون في الإدارة العامة : كاتب السر ، المحتسب ، أمير الحج ، الجيزة ، بني سويف ، المنيا ، الفيوم ، منفلوط ، أسيوط .

القسم التاسع :[٤٩]

أكثر الأنهار والنباتات والحيوانات في أفريقيا . نهر التانسقت ، أم الربيع ، أبو الرقراق ، والوكس ، الحيوانات في أفريقيا ، الطيور ، النباتات .

كتاب وصف أفريقيا كمصدر للتاريخ العربي :

لكي نقدر قيمة الرحلات التي قام بها الحسن بن الوزان ، وأهميتها كمصدر للتاريخ العربي، يلزم أن ننظر إليها في حدود العصر الذي تمت فيه هذه الرحلات (القرن السادس عشر).

وفي إطار هذه الحدود يظهر لنا أن الكثير من المعلومات التي وردت في كتاب وصف أفريقيا فريدة وبخصوص أوضاع المناطق التي زارها الرحالة ورآها بعين رأسه تتميز كتاباته عن هذه المناطق بالأصالة والدقة ، وينطبق هذا القول على وصفه التفصيلي الدقيق لبلاد المغرب بأقاليمها المتعددة ومدنها المختلفة ، كما ينطبق على بلاد السودان الغربي التي انتشر فيها العرب وأقاموا ممالك وإمبراطوريات هامة ، وفيما يتعلق بهذه المناطق الأخيرة ، فإن الأبحاث المتأخرة ، كما أشار Schefer الذي يرجع إليه الفضل في ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ، ثبت صدق ودقة أقواله حتى في المواضع التي أثارت في الماضي بعض الشكوك حولها خاصة عن المدى الذي وصلت إليه الحضارة العربية في هذه الجهات[٤٧] .

ويذكر هذا العالم أنه على مدى ثلاثة قرون لم يستطع كاتب أو عالم تحدث عن أفريقيا ، أن يتجاهل هذا المؤلف النفيس"[٤٨].

وإن كان الكتاب يضم إلى جانب مشاهداته ليو الشخصية خلال رحلاته وتجواله في المناطق التي تحرك فيها ، معلومات مستقاة من مصادر أخرى ، لكن هذا لايقلل من قيمة الكتاب .

ويذكر الرحالة في خاتمة كتابه[٤٩] . "ذاك ما رأيته أنا ، حنا ليون ، من حسن وجدير بالذكر في كل أفريقيا التي جبتها من طرف لآخر ، وقد سجلت بعناية ، يوما فيوما كل

الأشياء التي بدت لي جديرة بالذكر ، ثم الوضع الذي رأيتها عليه أما التي لم أرها بنفسي فقد استقيت معلومات موثوقة وكاملة عنها من أشخاص جديرين بالثقة ، ومن ثم رتبت هذه المذكرات قدر استطاعتي . وقد عملت منها أخيرا مادة مصنف عندما كنت في روما ، في العام ١٥٢٦م – في ١٠ آذار (مارس)[٥٠] .

وقد أشار ماسينون (Massignon) إلى أن الإنتاج الفكري للرحالة ليو الأفريقي كان له تأثير قوي على العالم الأوربي .

ويكفي أن نتأمل في عدد اللغات التي ترجم إليها الكتاب ، وعدد الطبعات التي طبعت منها لنعرف مدى الإدراك العالمي لأهميته وإلى وقت ليس ببعيد كانت أسماء الأماكن التي تظهر على الخرائط تعتمد عليه . وحتى الجغرافيين والرحالة والكتاب المتأخرين في القرن التاسع عشر لم يستطيعوا أن يتجاهلوا فضله[٥١] .

ولعلنا لانكون بعيدين عن الحقيقة إذ قلنا إنه حتى يومنا هذا – فإن المسافر الذي يتنقل في المغرب أو في غيره من المناطق التي زارها ليو وقدم وصفا لها – لايستطيع إلا إبداء دهشته من التوافق العجيب بين بعض ما يشاهده من مظاهر الحياة ، وبين ماسجله (ليو) رغم مضي هذه السنوات الطويلة .

وهذا يدل على ما اتصف به هذا الرحالة من دقة الملاحظة حتى للأحداث البسيطة التي قد يمر بها المشاهد العادي مر الكرام – ولعل ممارسته لوظيفة كاتب عام – بالإضافة إلى ما اتصف به من دقة الملاحظة – دربته على أن يسجل الملاحظات بدقة ، وأن ينتبه لكل ما يقع تحت بصره .

وهناك دلائل قوية – حتى من واقع الحياة اليومية في هذه الجهات – تجعلنا نحترم ليو ونحكم بأنه جدير بالثقة ، وتلزمنا بتقدير ما قدمه من وصف لكثير من المدن والحياة الناس بها وعاداتهم .

أما تفسيره للظاهرات التي تقع تحت بصره نهو يدعو للاحترام أيضا فمثلا نجده يبرز بعض الظاهرات الاجتماعية ، والعادات الغريبة في المغرب ، لكنه يعللها بميل الناس للمحافظة على عادات أجدادهم وحين يتحدث عن استخدام الحكام للجنود في جمع الضرائب – ينتقد ذلك ويشير إلى أن الناس لايعترفون بسلطة السلطان – إلا إذا كان قادراً على أن يكفل لهم الحماية والأمن .

وبينما نراه يتحدث عن الجيوش وتسليحها نجده لاينسى الحديث عن أسرى الحرب ومصيرهم التعس في ذلك الوقت ، فهو لايتحدث عن طبقة واحدة من المجتمع دون الأخرى ، فبينما تحدث عن قصور الحكام ، وما يتبع فيها من نظام (بروتوكول) ، نجده يتحدث عن عادات الناس العاملين وما يزاولونه من صناعات وما يؤثر على تصرفاتهم من تقاليد .

وقد اعتبره البعض أنه يمثل قمة ونهاية عصر الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة التي ازدهرت في أسبانيا .

هذا ولكتاب الوزان ورحلاته أهمية خاصة ، فالذين يكتبون عن الاستعمار الأوربي في أفريقيا لم يبرزوا موقف العرب من المستعمرين ومقاومتهم الباسلة لهم ، والحسن بن الوزان من القلائل الذين عاصروا أحداث الاستعمار البرتغالي لتغور شمال أفريقيا ، بل إنه شارك في هذه الأحداث ، فكتاباته عن البطولات العربية في مقاومة هذا الاستعمار تعتبر فريدة ومهمة .

هذا وأشير في النهاية إلى المنهج الذي اتبعه الحسن بن الوزان في تسجيل ملاحظاته وتتبعه لها . فلا يمكن أن ترجعه جملة وتفصيلا إلى نمط الرحلات الذي اشتهر به غيره من الكتاب المغاربة بالذات ، في كتاباتهم عن الرحلة بقصد الحج ، كما إنه لايمكن أن نرجعه إلى نمط (المسالك) أو الخطط الذي يتمثل في المصنفات الضخمة التي اشتهر بها بعض الكتاب كالمؤرخ المصري تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢) ، وهو ليس مؤلفا أو جامعا لعدة علوم وممارف أي موسوعي (Encyclopaedist) ، لكنه في الحقيقة يجمع بين كل هذه الأنماط ، ويعكس صوره للثقافة المتعددة الجوانب والتي تدل عليها مؤلفاته المتعددة الأخرى[٥٢] .

الهوامش والمراجع

(١) Bovill E.V. : The Golden Trade of the Moors (Oxford 1961) P. 60 .

- وقد ترجم هذا الكتاب للعربية

زاهر رياض (دكتور) : المسالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى. ولنفس المؤلف كتاب آخر أطنب فيه في ذكر دور التجار العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقيا هو:

Bovil, E. W. : Caravans of the old Sahara (1933) .

(٢) Fage : An Introduction to the History of West Africa (Cambridge 1955) P. P. 916 .

(٣) Trimingham, J. Spencer : Islam in West Africa ((Oxford 1964 P.1 .

(٤) Niane, Djibril : L'Empire de Mali (Conakry) 1948 .

(مؤلف الكتاب غيني ويعتبر من الأفارقة القلائل الذين كتبوا كتابة علمية دقيقة عن تاريخ هذه البلاد) .

(٥) عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا (١٩٦٥) ص٥ ومابعدها .

(٦) نعيم قداح أفريقيا الغربية في ظل الإسلام (دمشق ١٩٦٠) ص١٥ ومابعدها .

(٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٨) رحلة إبن بطوطة : دار التراث بيروت ١٩٦٨ ص٩٥٨ .

(٩) العمري ، مسالك الأبصار ص٩٤٣ ومابعدها .

(١٠) نفس المرجع السابق .

(١١) أنظر البحث القيم للأستاذ محمد المنوني : التيارات الفكرية في المغرب وآثارها (مجلة الثقافة المغربية عدد ٥) .

(١٢) البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري : المسالك والممالك .

(١٣) الإدريسي ، محمد بن عبد الله بن أدريس : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٦) .

(١٤) أنظر كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (طبعة بولاق ١٩٣٤) .

(١٥) ابن خلدون ، عمر عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (بولاق ١٢٨٤) هـ .

(١٦) نشر الأستاذين خليل محمود عساكر ، مصطفى محمد مسعد – رحلة التونسي إلى دارفور عام ١٩٦٥ إعتماداً على النص الذي نشره المستشرق A. Perrgn الذي نشر في باريس عام ١٨٥٠ لأنهما لم يعثروا على الأصل الذي دونه التونسي بنفسه .

رحلته إلى Widai لم تنشر ، يوجد نسخة منها في مكتبة الجمعية التاريخية بمصر باسم Voyage Au Soudain Oriental Le Ouday

(١٧) طبعة السعودية ص١٥٨ .

(١٨) Roger. Coindreau : Les Corsaires De Salé (Paris 1948) .

(١٩) Prescott : History of the Reign of Ferdinod and Isabella (1990) P. 467 .

(٢٠) يرجع بناء جامع القرويين إلى الأمير يحيى بن محمد بن إدريس – من ملوك الأغارسة وقد تولى الحكم عام ٢٣٣هـ/٨٨٩م – وأصبح بعد ذلك مرجع رعاية الملوك – وتطورت الدراسة به حتى أصبح بمثابة جامعة – وقد ذكر ليو أنه قرأ في القرويين بعض كتب الأدب والمنطق والعقائد .

(٢١) Pory, Jogn : The History and Description of Africa and of the Noable things, there In conained Written by Al Hassan Ibn Mohammed Al - Wazan Al Fasi, A Moor Bap tised as Giovanni Leone, But Better Known Leo Africanus (1896) P. 273 .

(٢٢) طبعة المملكة السعودية في ٢٣٤ .

(٢٣) استولى البرتغال على الموانئ المغربية الواحدة تلو الأخرى فقد استولوا على سبته عام ١٤١٥م ، وقد سلموها بعد ذلك للأسبان سنة ١٦٦٩م ، واستولوا على القصر الصغير عام ١٤٥٧م ، وعلى طنجة عام ١٤٦٤ وتنازلوا عنها للإنجليز عام ١٦٦١ كمهر تزوجته كاترين شقيقة ملك البرتغال لزوجها شارل الثاني ملك إنجلترا ، واستولوا على (أكادير) عام ١٥٠٥ وعلى الصويرة ١٥٠٦ ، وأسفي ١٥٠٨ وأزمور ١٥١٣ والجديدة ١٥١٤ – أنظر :

Vasco De Coravalho : La Dpominat Portugoes Maroc 1415-1769 (Lisbonne 1936) .

– د. شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير (١٩٩٧) ص٣٩ ومابعدها .

(٢٤) اثار شالة – هي منائر المخلفا ، المرينيين – انظر أبو عبد الله بن محمد بن مصطفى بوجندار الرباطي ، (١٣٤٥–١٩٢٦م) شالة وآثارها (الرباط ١٩٢٢) .

كذلك : Hesperis 1922 Chella une Nécropole Meriode (P.P.I 92, 255 316, p.p. 385-425)

(٢٥) الكتاب الثامن ص٩١٧ (طبعة السعودية) .

(٢٦) نشرت هذه الطبعة في حياة الوزان نفسه .

(٢٧) لم تعثر حتى الآن على النسخة العربية الأصلية للكتاب ، وقد بحثت في الاسكوريال عنها وسألت المسئولين عنها فأجابوا بأنه لم يعثر على نسخة بالعربية للكتاب وإن كانت توجد بالاسكوريال كتب أخرى بالعربية في مواضيع أخرى بقلم الحسن بن الوزان ، فمنها كتاب في نحو اللغة العربية ومنها مؤلفات أخرى باللاتينية .

(٢٨) أنظر طبعة المملكة العربية السعودية ص هـ .

(٢٩) نشرت الطبعة العربية تحت اسم :

Historiale Description de L'Afrique: Ecrit par jean Leon Africain Premierement en Langue Arabesque, puis en Toscane ; mise en Francoise par Jean Temporal (Lyon 1556) .

(٣٠) ظهرت هذه الطبعة الفرنسية تحت اسم :

Description de L'Afrique truce Partie du Monde écrite par Jean Leon Africain Premièrement en longue Nobesq ue puis en Toscane et a Present mise Francoise Nouvelle Edition, annotée par Ch. Schefer 1-111 (Paris 1896-1898).

(٣١) نشرت هذه الطبعة اللاتينية تحت اسم :

Joannis Leonis Africani, de Totius Africae Descripion recens in Latinam Linguam conuersi Jean Floriono inter prte .

(٣٢) Lngerés de Tassy : Histoire Du Royaume d'Alger (1725) .

(٣٣) Joseph Morgan : History of Algerie to Which is Prefexed an epitome of the Gener-al History of Barbury fromthe earliest times (1728) .

(٣٤) Massignon. Louis : Maroc dans Les Premières années du xve siecle, Tableau Geographique dapres Leon LAfricain (Algeri 1906) .

(٣٥) Hartmann. J.M. : Africa (1796) P.xx.

(٣٦) عن مشاهدات بارث يرجع إلى :

Barth. H. : Travels and discoveries in North and Central Africa (1849-1855) 5 vols. (London 1857-1858) .

(٣٧) نشير هنا إلى مطبعات وأقسام الطبعة العربية الصادرة في المملكة العربية السعودية حيث أنها الأكثر تداولاً في العالم العربي بالإضافة إلى ما تمتاز به من دقة .

(٣٨) ص٣٥-١٠١ .

(٣٩) ص ١٠٥-١٩٧ .

(٤٠) ص ١٩٩-٣٧٧ .

(٤١) ص-٣٨- ٤١٧ .

(٤٢) ص٤٢١-٤٨٣ .

(٤٣) ص٤٨٩-٥٢٩ .

(٤٤) ص٥٣٣-٥٥٩ .

(٤٥) ص٥٦٣-٦١٨ .

(٤٦) ص ٦١٩-٦٦٢ .

[٤٧] Schefer : Description de L' Afrique, I p. xxv .

[٤٨] Ibid I°. xxv.

(٤٩) ترجمة المملكة العربية السعودية ص ٦٦٢ .

[٥٠] Massignon, L. : Op. Cit. P. 65 .

[٥١] Walckenaer : Recherches Géographique sur L'intérieur de L'Afrique septen trionale (1821) .

(٥٢) يذكر Massignon إن ليو ألف باللاتينية كتابًا تناول فيه سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب .

(٥٣) أشار ليو في كتابه وصف أفريقيا – إلى أنه يعد مختصراً لتاريخ الإسلام .

– كذلك اشار إلى كتاب آخر له في العقائد والفقه الإسلامي .

– وبعض مؤلفاته هذه وغيرها مفقودة وبعضها محفوظة في الأرسكوريال بأسبانيا

د. ابراهيم سعيد فهيم محمود (*)

العالم العربي في نظر الرحالة الاوربيين :

مصنف آل ادورنى كمصدر اوروبى عن تونس في النصف الثانى من القرن ١٥م

(دراسة مقارنة)

مقدمة :

فى السابع والعشرين من مايو سنة ١٤٧٠م / السادس والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٧٥هـ، كان ميناء تونس على موعد مع سفينة جنوية تحمل بين ركابها أبًا وابنه تركا لنا مؤلفًا باللغة اللاتينية عن رحلتهما إلى الشرق والتى كانت تونس إحدى محطاتها .

ولقد قام الفرنسى روبير برونشفيج Robert Brunschivig بترجمة الجزء الخاص بتونس فى هذا المصنف إلى الفرنسية سنة ١٩٣٦م[١] ، وظل بقيته بلغته الأصلية حتى سنة ١٩٧٨م، حين قام الفرنسى جاك إير Jacques Heers بترجمته ترجمة كاملة شملت إلى جانب الجزء الخاص بتونس بقية محطات رحلة آل أدورنى إلى إيطاليا ، ومصر ، والشام، والعديد من جزر البحر المتوسط[٢].

وترجع أهمية وتفرد الجزء الخاص بتونس فى هذا المؤلف إلى كونه الأكثر قدما بين روايات السفر التى دونها أحد الأوروبين باستفاضة عن تونس الإسلامية[٣]، وكون القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، الأكثر غموضا وشحا بالأخبار فى التاريخ التونسى بالأخص[٤].

* مدرس تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

وعلى الرغم من الجهد العظيم الذى بذله برونشفيج فى نشر النص ، واستعانته به كثيرا فى أطروحته القيمة «تاريخ إفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م»، إلا أنه لم يضمنها مع ذلك ذكر بعض ما جاء فى النص من معلومات عن تونس ، أو اختصرها . كما أنه لم يتناول من قريب أو بعيد فصلا عن الإسلام والمسلمين ورد فى هذا المؤلف . ومن هنا كان حرصنا على تناول هذا النص الثرى بالدراسة، هادفين من وراء ذلك أن يصبح متاحا لمن لم يقدر له من الباحثين الرجوع إلى الرحلة الكاملة .

وجرت خطتنا فى هذا البحث على التعريف بمؤلفى هذا المصنف ودورهما فى الحياة السياسية والدبلوماسية فى أوروبا ، والهدف من وراء رحلتهما وكتابة هذا المصنف ، ثم ملخصا لخطوات الرحلة حتى الوصول إلى تونس . فى حين يتناول القسم الثالث منه تصنيف ما جاء فى المؤلف من معلومات عن سلطنة تونس ومقارنته بما رصدته بعض المصادر الإسلامية المعاصرة فى هذا الشأن . أما القسم الرابع والأخير من البحث فيتعلق بما تضمنه الكتاب من تفصيلات عن الإسلام والمسلمين . واختتمنا البحث بتقييم للمصنف وقيمته التاريخية والحضارية بالنقد والتحليل.

أولاً – المؤلفان :

المؤلفان هما أنسيلم أدورنو Anselme Adorno ، وابنه جان أدورنو Jean Adorno . وفيما يتعلق بأولهما وهو الأب، فقد ولد فى مدينة بريج Bruges البلجيكية فى الثامن من ديسمبر سنة ١٤٢٤م / السادس عشر من المحرم سنة ٨٢٨هـ، كأحد أفراد أسرة جنوية نبيلة استقر أحد فروعها- وهو الفرع الذى ينتمى إليه أنسيلم- فى الفلاندر Flandre قبل مولده بثلاثة أجيال . وكانت هذه الأسرة تسمى أدورنو Adorno . وكانوا سادة وقادة يسوسون الناس ويملكون الإقطاعات والقصور والقلاع المحصنة ، حتى أن دوجات جنوة كانوا يختارون من بين أفراد أسرة أدورنو أو أسرة فريجوزى Fregosi المنافسة لها فقط . وفى هذا الوسط من الرجال النشطاء فى مجال الحرب والدبلوماسية ولد أنسيلم وعاش [٥].

وقد شارك أنسيلم فيما بين عامى ١٤٤٢-١٤٤٩م / ٨٤٦-٨٥٣هـ، فى العديد من مبارزات وحفلات الفروسية : ففى سنة ١٤٤٤ م / ٨٤٨هـ ، كان أنسيلم هو الفائز فى المسابقة الكبرى للفروسية لجمعية عرفت باسم الدب الأبيض فى مدينة بريج. وفى نفس العام

Bruxelles ، وليل Lille [٦]. وبفضل الثروة الكبيرة والمكانة العالية لوالده بيير Pierre (بطرس) ، فقد أرسله إلى بلاط فيليب الحسن Philippe Le Bon دوق بورجونى Bourgogne ليحصل هناك على تعليم يجعل منه نبيلاً وفارساً [٧].

ويمكن تقسيم حياة أنسيلم أدورنو العامة إلى ثلاث مراحل ، تنحصر أولها فى الفترة ما بين عامى ١٤٦٧-١٤٧٢م / ٨٧١-٨٧٧هـ، وفيها كان أنسيلم فى طليعة من حاولوا الإصلاح ثم إقامة علاقات صداقة بين الفلاندر واسكتلندا . وبالفعل ، ولمدة ثلاث سنوات قام بإعادة بناء العلاقات التجارية التى كانت مترقفة بين التجار الإسكتلنديين والموانئ الفلاندرية. ونتيجة لجهوده، فقد لقى تقدير شارل الجسور Charles Le Téméraire سيد فلاندر ، وجاك الثالث Jacques III ملك اسكتلندا (١٤٥٠-١٤٨٨م) الذى منحه لقب فارس وسيد كورثاى Corthuy. وأثناء تلك المرحلة قام أنسيلم برحلته إلى تونس سنة ١٤٧٠م / ٨٧٤هـ. وفى السنة التالية ، وعقب عودته من الرحلة ذهب ليقيم بضعة شهور فى اسكتلندا فى بلاط الملك جاك الثالث ، حيث أعطاه الأخير أراضى فى بلاده ، كما منحه لقب «الحافظ لامتيازات الاسكتلنديين» فى ممتلكات دوق بورجونى، وذلك فى سنة ١٤٧٢م / ٨٧٦هـ [٨].

وتمتد الفترة الثانية من الحياة العامة لأنسيلم أدورنو بين عامى ١٤٧٢-١٤٧٧م / ٨٧٧-٨٨٢هـ، ولقد يُمت خلالها فى مارس ١٤٧٥م / ذى القعدة ٨٧٩هـ، بمهمة سياسية من قبل دوق بورجونى إلى بلاد فارس ليبحث عن تحالف بين بورجونى وفارس ضد الأتراك[٩].

كذلك لعب أنسيلم فى تلك المرحلة دوراً نشطاً فى الشئون السياسية والإدارية لمدينته بريج. فقد أصبح أمين خزانة المدينة، ثم عمدة لها ، وذلك فى فترة طعن فيها شارل الجسور دوق بورجونى المدينة بالضرائب، ولهذا، فإنه وبعد موت الأخير، أصبح أنسيلم أدورنو هدفا لخصومه السياسيين ، وللإجراءات القانونية التى أدت إلى استبعاده من الوظائف العامة إلى الأبد[١٠].

وعقب هذا الإجراء القاسى تراجع أنسيلم إلى اسكتلندا سنة ١٤٧٧م / ٨٨٢هـ، لتبدأ المرحلة الأخيرة من حياته العامة . وتميزت هذه المرحلة باستقبال جاك الثالث ملك اسكتلندا له بشكل حار وتقريبه منه. بيد أن إخلاصه وولاءه لجاك الثالث جره إلى نهاية قدرية، إذ مالبث أن اغتالته الفصائل المنكية المناوئة لحكم جاك الثالث فى أحد الأديرة فى ليلة الثالث والعشرين من يناير سنة ١٤٨٣م / الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٨٨٧هـ. ويوجد قبره الآن بكنيسة.

أما الابن جان أدورنو فقد ولد بدوره في بريج في الثامن من أغسطس سنة ١٤٤٤م / الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ٨٤٨هـ ، وهو الإبن البكرى لاثنى عشرة ولدا أنجبهم أنسيلم من زوجته مارجريت فان دير بانك Margoerite van der Banck . ولقد أكمل جان دراسته في جامعة باڤيا Pavia الايطالية حيث تعلم لخمس سنوات (١٤٦٥- ١٤٧٠) القانون المدني وكتابة العدول. وبعد الرحلة إلى الشرق وعودته مع أبيه إلى موطنه لم يبق جان طويلا في الفلاندر وعاد إلى إيطاليا مكرسا نفسه للحياة الدينية وخدمة البابوية [١٢].

وللعديد من السنوات ، قام جان أدورنو بنشاط متميز في الدبلوماسية البابوية. حيث أقام في البداية في جنوة ، ثم انضم بعد ذلك للمستولين البابويين في تسكانيا Tuscany ، كما عُهد إليه بالعديد من السفارات البابوية. ويبدو أنه انسحب تدريجيا من الحياة العامة ، ولايميز سيرته بعد ذلك سوى ثلاثة تواريخ ، أولها سنة ١٤٧٩م / ٨٨٤هـ، وفيها تقلد منصبا دينيا في كنيسة القديس بيير St. Pierre (بطرس) في مدينة ليل، والتي عُين راعيًا لها أيضا سنة ١٤٨٨م / ٨٩٤هـ، وكان آخر هذه التواريخ العاشر من مايو ١٥١١م / الحادى عشر من صفر سنة ٩١٧هـ، وهو تاريخ وفاته حيث دفن في نفس الكنيسة [١٣].

والتساؤل الذى يطرح نفسه الآن هو : هل كان هناك دافع وراء قيام آل أدورنى بهذه الرحلة؟. فكما علمنا فقد تربى أنسيلم وعمل في بلاط أدواق بورجونى. ومن المعروف لدى الباحثين المتخصصين في الحروب الصليبية أن فكرة الحروب الصليبية سيطرت على هؤلاء الدوقات وبمساعدة دوقات بورجونى وصل أدب الدعوة إلى ذروته في القرن الخامس عشر الميلادى ، وتميز بمفهوم التكريس والحماسة لتخليص الأرض المقدسة . ولقد انتشر الدعاة في أوائل القرن الخامس عشر من بلاط بورجونى الذى كان أدواقه يحكمون منطقة من أغنى أقاليم أوروبا، كما قدمت السفارات من الأقاليم الملكية والإمبراطورية طالبة العون من دوق بورجونى بصفته الأمير القائد في الغرب [١٤].

وشهد عهد فيليب الحسن المحاولة الأخيرة من دوقات بورجونى لإحياء الحروب الصليبية . فقد كان يحلم دائما بالقيام بحملة صليبية ، ولهذا أرسل فيليب الحسن اثنين من أعوانه هما برتراندون دى لابروكيير Bertrandon de la Brocquiére سنة ١٤٣٢م / ٨٣٥هـ، وجيليرت دى لانوى Chillebert de lannoy سنة ١٤٤٦م/ ٨٥٠هـ، إلى الشرق لدراسة الموقف السياسى، وقوة وقدرات الممالك والأتراك . وقد تركا تقريرين قيمين عن سفارتهما عن

أراضى ما وراء البحار. رداً عن سقوط القسطنطينية في أيدى الأتراك قرر فيليب الحسن سنة ١٤٥٤م/ ٨٥٨هـ، في مدينة ليل القيام بحملة صليبية ضدهم . كان أن بدأت المفاوضات مع البابا، ودرست الخطط الخاصة بذلك في وسط وغرب أوروبا . وبعد عامين عقد لدى شارل الجسور دوق بورجونى تجمع من سادة الفلاندر في مدينة بريج، وأقسم المجتمعون على القيام بحملة صليبية. ولكن لم يتم أى عمل من هذا القبيل [١٥].

وفى سنة ١٤٧٠م / ٨٧٥هـ، بلغ شارل الجسور أوج مجده وسلطانه ، فرغب في أن يحقق نجاحا سياسيا يكون له مردودا معنويا وكان يحلم بالقيام بحملة صليبية ضد المسلمين لذلك كانت رحلة ما وراء البحار لأحد سكان مدينة بريج الذائعى الصيت فرصة مناسبة للوقوف على أحوال الدول الإسلامية في البحر المتوسط ، والتي تمثل عوائق في وجه مثل هذه الحملة [١٦]. ولعل ذلك كان دافعا لإعتقاد المؤرخ البلجيكى جيل دى سان جنوا ونظيره الفرنسى روبير برونشفيج بأن التعليمات التي أعطيت لأنسيلم قبل رحيله قد تعلقت بهذا المعنى [١٧].

وفى مقابل هذا الرأى رفض جاك إير أن تكون هذه الرحلة أو الكتاب نوعا من الأدب السياسى ، ويرى أنه لايجب ربطها بالرغبة في الإعداد لحملة صليبية آنذاك. ويضيف أنه على العكس من ذلك كان آل أدورنى أشخاصا في تقديم ما لديهم من معلومات قد تساعد في الاستعداد لحملة صليبية . ويخلص جاك إير أن هذا المؤلف هو في المقام الأول رحلة أو رواية سفر بدافع زيارة المزارات المسيحية المقدسة في الشام ومصر [١٨].

ثانيًا – الرحلة :

غادر أنسيلم أدورنو مدينته بريج في طريقه لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة في مصر والشام بصحبة لامبير فان دو وال Lambert van de Walle ، وبيير ريبتسين Pierre Repti-sine ، وجان جوسان Jean Gausin ، وذلك في التاسع عشر من فبراير سنة ١٤٧٠م / السابع عشر من شعبان سنة ٨٧٤هـ، ليصل إلى مدينة بافيا حيث انضم إليه ابنه جان. ثم توجهت الصحبة إلى روما للحصول على مباركة البابا بول الثاني Paul II (بولس) للرحلة فوصلوها في الثامن عشر من أبريل / السادس عشر من شوال. وبعد لقائهم بالبابا غادروا روما إلى جنوة فقدموها في الثاني من مايو / الأول من ذى القعدة. وكان من المفروض أن تتابع المجموعة طريقها إلى البندقية كى يستقلوا إحدى سفنها التي تقوم بنقل الحجاج

الأوروبيين إلى فلسطين سنويا ، بيد أن أصدقاءهم من نبلاء جنوة نصحوهم بالابتعاد عن ركوب مثل هذه السفن لأنها غير مريحة لازدحامها بالمسافرين الأمر الذى يؤدى إلى انتشار الأمراض بينهم وموت الكثير منهم بسبب ذلك. ونصحوهم بدلا من ذلك بركوب إحدى السفن الجنوية التى سيجدوا عليها كل سبل الراحة مهيأة[١١٩].

وكان أن أخذوا بهذه النصيحة فغادروا جنوة إلى الشرق فى السابع من مايو / السادس من ذى القعدة، على متن سفينة جنوية بقيادة لودوفيكو انجيبرتى Lodovico Inghiberti وحلت السفينة فى كورسيكا فى الثانى عشر من مايو / الحادى عشر من ذى القعدة ، كما توقفت فى سردينيا فى الثامن عشر من مايو / السابع عشر من ذى القعدة. وكان وصول السفينة إلى قرطاج فى الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من مايو / الثالث والعشرين أو الرابع والعشرين من ذى القعدة ، وهناك هبطوا فى ميناء تونس فى السابع والعشرين من مايو سنة ١٤٧٠م / السادس والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٧٤هـ[١٢٠].

وبعد أن قضوا فى زيارة مدينة تونس نحواً من ثلاثة أسابيع غادروها فى الخامس عشر من يونيو / الخامس عشر من ذى الحجة ، فوق سفينة جنوية يقودها كوزم دو نيجرون Cosme de Nigron ، رحلت بهم بعد يومين إلى الإسكندرية . وكان على متن هذه السفينة مائة من المغاربة من الرجال والنساء، بعضهم من التجار الذين كانت لديهم شحنة من الزيت فوق السفينة ، وبعضهم من الحجاج الذين كانوا فى طريقهم إلى مكة. كما وجد عليها أيضا بعض اليهود . وفى الطريق للإسكندرية ترفقوا عدة أيام فى سوسة حيث سمح لهم بزيارة المدينة ثم تابعوا بعدها إبحارهم إلى مصر[١٢١].

ثالثا – تونس فى مؤلف آل أدورنى :

نرى ما قيمة هذا المؤلف بالنسبة لتاريخ وحضارة تونس ؟ . إن الإجابة عن هذا التساؤل لا تتأتى بطبيعة الحال إلا بمقارنته بالمصادر العربية التى تتناول تاريخ تونس فى تلك الفترة. ومن هنا كانت المقارنة مع خمسة من المصادر العربية، جاء اثنان منهما لرحالة مسلمين هما الأندلسى القلصادى صاحب كتاب «رحلة القلصادى»[١٢٢]. والمصرى عبد الباسط بن خليل مؤلف «الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم»[١٢٣]. أما ثالث هذه الأعمال فهو مؤلف القاضى التونسى ابن الشماع واضع كتاب الأدلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة

الحفصية»[١٢٤]. وتمثل رابع هذه المصادر فيما دونه المؤرخ التونسى الزركشى تحت عنوان «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية»[١٢٥]. وكان آخر هذه المؤلفات هو كتاب «وصف إفريقيا» للحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليو الإفريقى[١٢٦]. ولقد تعمدنا فى هذه المقارنة تصنيف ما جاء عند آل أدورنى من معلومات فى المتن، وتسجيل ما جاء فى المصادر العربية متشابها مع رواياتهما فى الهامش ، وذلك لإبراز مدى التشابه والاختلاف والتفرد بين تلك الرواية الأوربية الغربية وبين المصادر العربية.

وأيا كان الأمر ، فإنه يمكن تصنيف ما ورد فى رواية سفر آل أدورنى بشأن تونس على النحو التالى :

١ – الجوانب العسكرية والدفاعية :

بدأ آل أدورنى الكلام بوصف الجوانب العسكرية والدفاعية لمدينة قرطاج ، فذكروا أنه كان يوجد على اللسان البحرى للمدينة عدد من القلاع والأبراج المرتفعة لحراستها . وحالما تدخل السفن خليج قرطاج ، كان يتم إرسال إشارة بذلك من قلعة إلى أخرى حتى يصل الخبر إلى مدينة تونس . وفى مواجهة قرطاج كان يوجد فى البحر جبل أسمياه Gimbal، وكانت المنطقة بين اللسان البحرى لقرطاج وهذا الجبل، تتسم بكثرة ارتياد سفن القراصنة لها، ولذلك- وخوفا من غارات الأوروبيين – كان يوجد بالمدينة عشرة آلاف رجل مسلح – على الأقل- للدفاع عنها بخاصة وعن مملكة تونس بعامة، لأن قرطاج وفق عبارة آل أدورنى- إذا وقعت كان بسهل وقوع الدولة كلها[١٢٧].

من أجل هذا لم يكن التونسيون يسمحون للمسيحيين الأوروبيين بالتوغل داخل قرطاج دون إذن من الملك أو ضباطه ، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من هؤلاء الأجانب وقد حدث ذات يوم عندما ذهب أنسيلم أدورنو مع ربان سفينته إلى ساحل قرطاج للصيد أن قدم إليهما جمع من الجند التونسيين المسلحين للقبض عليهما، وعلى الرغم من أنه لم يكن معهما إذن من الملك ، إلا أنه لحسن حظهما تعرف عليهما أحد فرسان الملك الذى كان موجودا بالصدفة وشهد على حصولهما على ذلك الإذن[١٢٨].

وفيما يختص بالتحصينات الدفاعية للعاصمة الحفصية تونس فقد أشار آل أدورنى إلى أن المدينة كانت محصنة للغاية ، ولكنهما لم يسهبا فى وصف هذه التحصينات ، واقتصرا على

القول بأن أسوار المدينة كانت تشكل مربعا محيطه أربعة أميال انتشر على امتداده عدد لايحصى من الأبراج المتجاورة ، كما كان لها ستة[٢٩] أبواب[٣٠].

ووصف آل أدورنى دار صناعة الأسطول بتونس حيث كانت سفن الملك فقالا أنها منطقة محاطة بالأسوار ولها بوابتان ، إحداهما تطل على المدينة، والأخرى تقع على بحيرة ضخمة يبلغ محيطها ثلاثين ميلا . وهذه البحيرة تتصل بالبحر بواسطة قناة يعرض سفينة من نوع الشرانى وكانت ضفتا هذه القناة مسورتين . ومن هذا المكان كانت تنقل إلى تونس على القوارب كل أنواع البضائع التى يتم إنزالها من السفن الراسية فى البحر والعكس . ولأهمية هذا المكان الحيوى أقام التوانسة إلى الجنوب من هذه القناة المسماة المضيق برجًا ضخمًا عرف باسم وادس ، بغرض حماية المضيق وميناء المدينة من هجمات القراصنة والأعداء[٣١].

وأشار آل أدورنى إلى أنه كان يوجد فى غرب المدينة فى منطقة جميلة بجوار أكبر مسجد فى المدينة قلعة[٣٢] تسمى القصبة يبلغ محيطها ميلا ونصف ، ولكنها لم تكن محاطة بالأسوار ، وكانت بواباتها[٣٣] مقببة ومداخلها ملتوية كالأقبى. وكانت القلعة محمية بقوة شديدة، وتحرس بواباتها بصفة دائمة جماعات ضخمة من الجنود المسلحين جيدا، فقد كان السلطان يقيم فيها مع كل ضباطه وخدمه الجزء الأكبر من السنة ، حيث كان لكل أسرة سكنها المنفصل . وكان قصر السلطان بهذه القلعة يحتوى على مبانى جميلة وثرية من الداخل بشكل يصعب وصفه[٣٤].

وغرب هذه القلعة – وعلى مقربة منها – كان يوجد أكبر وأجمل شوارع المدينة . وكان يتفرع منه حى يسمى الريض به العديد من الشوارع التى تغلق ببوابات فى أطرافها . وفى هذا الحى كان يسكن مسيحيو الريض الذين يحملون اسم الحى الذى يعيشون فيه. وتشبها بأسلافه كان السلطان يتخذ منهم حرسه الخاص والمدافعين عنه[٣٥] كما كانوا يرافقونه فى أوقات الحرب والسلم ، ولايجرؤ أحد غيرهم على الاقتراب من السلطان . ولذلك كان السلطان يفيض عليهم بالإمتيازات . وكان مسيحيو الريض يخضعون لثلاثة قادة منهم[٣٦].

كذلك أبان آل أدورنى أن السلطان أبا عمرو عثمان كان يستأجر ثمانية أو تسعة آلاف من العربان المحاربين الأقوياء للدفاع عنه بأجر جزل[٣٧]. ولكن هؤلاء العربان كانوا يناصبونه العداء دائما[٣٨]. ولهذا السبب لم يكن السلطان أبو عمرو عثمان يسمح لهم بقضاء الليل داخل مدينة تونس، وإنما كانوا يخرجون منها لقضاء الليل فى خيامهم خارج المدينة، وكان

هؤلاء العربان المستأجرون يتميزون بملابس صفراء بصفة عامة[٣٩]، ويفخرون بأنفسهم ، ولايحملون أى اعتبار لسكان تونس[٤٠].

أما عن تنظيم الجيش الحفصى نفسه فقد اتضح من خلال مؤلف آل أدورنى أنه كان يتكون من الفرسان والمشاة ورماة المدفعية[٤١]. ووفق ما شاهداه وذكراه فقد كان عدد أفراد جيش السلطان أبى عمرو عثمان لايقل بأى حال من الأحوال عن الستين ألفا[٤٢]. وكان عدد حرسه الشخصى حوالى الأربعين ألفا ، وعندما كان يخرج إلى الحرب كان يرافقه مائة ألف واثنا عشر ألف جمل محملة بمعدات الحرب الضرورية[٤٣].

وتأمينا لمدينة تونس أشار آل أدورنى إلى أنه كان لايسمح للأجانب من الأوروبيين برؤية أماكن عديدة فى مدينة تونس أو الخروج منها، وإن كانا قد تفردا بالرغم من ذلك برؤية بعض هذه المناطق بفضل أمان مرور، منحه لهما السلطان[٤٤]. كذلك فى أثناء صلاة الجمعة كان يتم إغلاق كل أبواب المدينة، كما كان كل المسيحيين يبقون فى منازلهم ، وذلك خشية أن يستفيد الغزاة الأوروبيون من هذه المناسبة للاستيلاء على المدينة[٤٥].

ولم يكتف آل أدورنو بذكر التحصينات والإجراءات العسكرية بالنسبة لمدينتى تونس وقرطاجه فحسب وإنما خلفا لنا بعض المعلومات المشابهة عن غيرهما من من المدن التونسية ، مثل مدينة منستير التى ذكرا بخصوصها أنها فى حجم مدينة سوسة ولكن قصبتها أكبر، وكل سكانها تقريبا من المرابطين[٤٦]. أما عن تحصينات جزيرة جربة فلم يوردا عنها سوى أنها تمتلك قلعة وميناء[٤٧].

وتميز وصف آل أدورنى لمدينة سوسة فى هذا المجال بتفصيلات هامة، إذ قالا بشأنها أنها كانت فى الماضى مدينة كبيرة ولكنها وقت زيارتهما لها كانت مدينة صغيرة ، ومربعة ، محاطة بسور[٤٨] مربع له دعائم تغوص فى الماء . وتميزت أسوار المدينة بسمكها الشديد الذى كان يبلغ اثنى عشر قدمًا، وكانت تحتوى على قباب وأقواس دفاعية. واحتوى كل ضلع من أسوار المدينة على عشرة أبراج ضخمة جدا فى حين لم يوجد لها سوى ثلاثة أبواب أحدها بجوار البحر، والثانى ناحية الأرض، أما الأخير فكان يفتح على قصبة المدينة حيث كان يقيم حاكم المدينة[٤٩]. وكان هذا الباب صغيرا ومبنيا فى الجزء الأكثر ارتفاعا من المدينة ، ولكنه كان مع ذلك قويا جدا[٥٠].

وكان آخر ما ذكره آل أدورنى بشأن النواحى الدفاعية هو قولهما بأن مدينة سفاقس مدينة بحرية جميلة صغيرة ، ولكنها محاطة بالأسوار[٥١].

٢ - النواحي الاقتصادية :

وجه آل أدورنى اهتماما خاصا إلى النواحى الاقتصادية والمالية فى تونس الحفصية ، فكان مما ذكراه بشأن التجارة أن عدد الفنادق كثير جدا فى مدينة تونس . وفيما وراء الباب الشرقى للمدينة[٥٢] وجدت فنادق التجار المسيحيين الأجانب كالجنويين[٥٣] والبنادقة[٥٤] والبيازنة والفلورنسيين[٥٥] والكتلان[٥٦]. وأضافا أن فندق الجنوية ومقبله فندق البنادقة هما الفندقان الرئيسان والأحسن تأثيثا بين كل فنادق المدينة . وداخل فندق الجنوية كانت هناك كنيسة مكرسة للقديس لورنت Laurent كان يحتفى بها قداس يوميا . كذلك وجدت فى فندق البنادقة كنيسة كرست للقديس مرقص[٥٧]. ويستنتج من وجود فنادق الأجانب فى منطقة واحدة أن الغرض من هذا كان إجراءً دفاعياً من الدولة الحفصية التى عمدت إلى ذلك كى يسهل مراقبة هؤلاء الأجانب والإشراف عليهم.

وذكر آل أدورنى أنه كان هناك موضع معين لكل حرفة[٥٨]. ولكل نوعية من المتاجر داخل المدينة[٥٩]. وأن هذا كان من شأنه أن يوفر راحة للتجار حتى لا يهرولون من مكان إلى آخر[٦٠].

ولاحظ آل أدورنى أن الشوارع التى تعج بالمارة هى الشوارع التجارية[٦١]، وهى مغطاة ومسقوفة حتى تمنع دخول الشمس ومضايقتها للتجار فى أعمالهم وتجاراتهم[٦٢].

إلا أنه وعلى الرغم من هذا فإن آل أدورنى لم يذكرا سوى صنفين من البضائع التى اكتظت بها تونس آنذاك، فقالا إنه كان يوجد فى حى الربض[٦٣] ميدان ضخم جدا تباع فيه الملابس والمجوهرات المستعملة[٦٤].

أما بالنسبة للصناعة فلم يشيرا إلى صناعة العطور فى تونس، وقد وصفاها بأنها عطور رائعة مستخرجة من مختلف الزهور والأعشاب لم يعهدا مثلها من قبل . وكان تجار التوابل يبيعون هذه العطور فى حوانيتهم[٦٥] أمام جامع الزيتونة[٦٦] وذلك فى آنية زجاجية مزركشة ذات عنق طويل وضيق[٦٧].

أما عن الزراعة فقد سجل آل أدورنى أنه أحاط بمدينة تونس وأرباضها جنان وحدائق جميلة وكثيرة، ولكن أكثرها وأجملها كان يوجد فى جنوب المدينة. وأحصى آل أدورنى قرابة أربعة آلاف حديقة فى مجاورات المدينة مليئة بالنباتات العطرة ، وبالورود المتنوعة ، وبأنواع الفاكهة

كالبرتقال والرمان والخوخ والجوز والتين والتوت الأحمر والأبيض[٦٨] وغيرها[٦٩]. ومع هذا فقد لفت أنظارهما أن تين مدينة سوسة[٧٠] هو الأحسن والأكبر حجما بالمقارنة بأى تين شاهداه، وأنه فى حجم الكمثرى[٧١].

وفيما يتعلق بالنواحى المعدنية أشار آل أدورنى إلى استخراج الرصاص من جبل الرصاص القريب من مدينة تونس[٧٢].

وأظهر مؤلف آل أدورنى أن النشاط الاقتصادى للدولة الحفصية لم يكن مركزا فى مدينة تونس فحسب ، وإنما وجد أيضا فى العديد من مدن السلطنة الأخرى[٧٣] مثل مدينة سوسة . ففى هذه المدينة قادهم الضباط التوانسة إلى كهفين معقدين كان اليهود- المحتكرون لصيد أسماك التونة فى كل السلطنة الحفصية- يملحون ويحفظون بهما أسماك التونة التى يصطادونها فى شهرى مايو ويونيو من كل عام. ولقد شاهد آل أدورنى فى خليج تونس أسماك التونة بأعداد لا حد لها ، ولهذا أعتقد أن مدينة تونس اشتقت اسمها من هذه السمكة التى يسميها المغاربة تون ton[٧٤].

كذلك أوضح آل أدورنى أن الثروات البحرية فى السلطنة الحفصية شملت كذلك المرجان[٧٥]. ومن المعروف أن المرجان كان يستخدم فى صناعة السيج.

واهتم آل أدورنى بالنواحى المالية للسلطنة الحفصية ، فذكرا أن الدخل السنوى لسلطان تونس من ممتلكاته ومدنه لايقل عن ثمانمائة أو تسعمائة ألف قطعة ذهبية. وفصلا مصادر هذا الدخل بأن كل حرائت المدينة التى تبيع كافة أنواع المتاجر كانت ملكا خاصا له. كذلك كان السلطان يحصل ضريبة مقدارها ثلاثة ناصرى على رأس كل حيوان يذبح[٧٦] أيا كان عجلاً أو بقرة أو خروفا - كما كان جلد الحيوان المذبوح يؤول إليه. وقدر آل أدورنى دخل الخزانة السلطانية من هذه الضريبة بثلاثين ألف دينار سنويا[٧٧].

يضاف إلى ذلك أن سلطان تونس كان يفرض مكسا مقداره عشرة فى المائة- كقطعة صوف من كل عشرة ، ودوكات[٧٨] بندقية على كل عشرة - على المتاجر التى تأتى بحرا إلى ميناءى تونس وقرطاج أو تخرج منهما . حيث كانت البضائع توضع فى جمرك ميناء تونس الذى كان يوجد على امتداد بحيرة المدينة لحين دفع هذا المكس. يبلغ دخل الخزانة السلطانية من هذا المكس مائة وسبعين ألف قطعة ذهبية سنويا فى تقديرهما[٧٩].

كذلك أضاف آل أدورنى أن مدينة جربة تغل[٨٠] للسلطان عشرين ألف دوكات[٨١]. ومن المدهش أن ليون الأفريقى أعطى رقما مشابها لما تقدمه جزيرة جربة لخزانة السلطان من حصيلة الأتاوات والمكس على التجارة الكبيرة بها، ألا وهو عشرين ألف « دوبل »[٨٢] وهو الإسم الذى عرف به الأجانب الدينار التونسى.

وأدى ذلك إلى القول بأن آل أدورنى ميزا بإيراد أنواع وقيمة العملات التى كانت رائجة فى تونس وقت زيارتهما لها. فذكرا أنه يضرب[٨٣] بأمر السلطان فى تونس عملات رائعة[٨٤]. وكانت القطع الذهبية مستديرة الشكل؛ فى حين كانت الفضية مربعة. وأوضحا أنه لم تكن تضرب بتونس أى عملة برونزية. وكان الأجانب يسمون العملة الذهبية مضاعفة[٨٥]. فى الوقت الذى عرفها التوانسة باسم دينار، وكانت أقل من الدوكات البندقية[٨٦] فى قيمتها، وإن تساوت مع المارك الإسكتلندى. كذلك عرف التوانسة عملات من فئة نصف، وربع، وثمن دينار. أما العملة الفضية فكانت تسمى ناصرى، وكانت كل ثلاث ناصرى تعادل دينارا[٨٧]. وعرفت أجزاء هذه العملة بالخمس وكان يعادل (٥ / ٦) خمسة أسداس الناصرى، والخروبة وكانت تساوى (٤ / ٦) أى ثلثى ناصرى، والجديد وكانت قيمته تبلغ (٢ / ٦) أى ثلث ناصرى، والقفصى وكانت قيمته (١ / ٦) أى سدس ناصرى[٨٨].

وخلص آل أدورنى أن السلطان الحفصى كان أغنى الأمراء المغاربة بإيراداته المألوفة وبثروته الواسعة. كما كان يملك برجا ضخما مربعا فى قصره بمدينة تونس يحتوى على كميات ضخمة من الذهب والأحجار الكريمة الرائعة[٨٩].

٣- النواحى الاجتماعية :

أفرد آل أدورنى صفحات عديدة للنواحى الاجتماعية قلما نجدها فى مؤلف عن تونس الحفصية فى تلك الحقبة الزمنية وذلك أنهما أفاضا فى الحديث عن سكان مدينة تونس التى قالا عنها أنها غنية بسكانها الذين كانوا يبلغون وفقا لتقويم قام به الخبراء ثمانمائة ألف تقريبا. وأضافا أنه فى سنة ١٤٦٨م / ٩٧٣هـ، توفى مائتان وستون ألف فى خلال ستة أشهر. كما أضافا أن عدد سكان جزيرة جربة مائة ألف[٩٠].

ومما لاشك فيه أن هذه الأرقام[٩١] مبالغ فيها إلى حد كبير؛ ولكننا لانتفق مع ذلك إلى ما ذهب إليه روبير برونشفيج من أن تونس لم يبلغ سكانها فى أعز أيام ازدهارها فى العصر الحفصى أكثر من مائة ألف نسمة[٩٢]. وذلك ليس مستبعدا، وهو أد جعل الجيش الحفصى

نقطة- الذى استعرضه السلطان أبوعمرو عثمان فى مدينة تونس أمام آل أدورنى كما سبقت الإشارة- كان تعداده ستين ألفا، فما بالنا بأعداد بقية سكان المدينة. وأيا كان الأمر فإن أقوال آل أدورنى تدل على أن تونس عرفت الإحصاءات الرسمية بالنسبة لتعداد سكان مدنها.

وأوضح آل أدورنى كون غالبية سكان مدينة تونس من السود، والأقلية من البيض. ووصفا حالتهم الجسمانية، فأوضحا أن رجالها يتمتعون ببنيان قوى جدا، وأن ملابس الأمراء وأبناء الأمراء، وذوى المكانة والأثرياء، منهم فضفاضة طويلة حتى القدمين، كما كانوا يرتدون فوق جلابيبهم برنسا من الصوف القديم جدا. وكانت أحذيتهم واسعة جدا من الأمام لدرجة يمكن فيها وضع القدمين فى خف واحد، وكانت هذه الأحذية ذات حد منثنى أحيانا. أما الفقراء والعمال فكانوا يرتدون فى الغالب قطعة ملابس واحدة صغيرة وضيقة بلاشكل محدد تمتد حتى الركبة، كما كانوا يمشون حفاة وبالنسبة لتسريحة شعورهم فلم يلاحظ آل أدورنى أى فرق بينهم لأنهم كانوا يرتدون عمائم[٩٣] من الصوف الأبيض تلف عدة مرات حول الرأس كذلك جرت عادة مسلمى تونس على أن يعلقوا فى أذرعتهم بالقرب من أكفهم خنجرا صغيرا أو طويلا جدا فى غمده[٩٤].

أما سيدات مدينة تونس - وفق ما ذكره آل أدورنى فكن يمشين فى الشوارع وهن ساترات الوجوه، بما فيها العينين، مرتديات رداء أبيض واسع يلامس الأرض. وكن يلبسن نعالا جميلة أقل عرضا من تلك التى يرتديها الرجال[٩٥]. وأضافا أن التونسيات قويات بصفة عامة يمشين باستقامة ويطوينهن للأمام كما لو كن حوامل. وكلما كانت المرأة سمينة كلما كان ينظر إليها على أنها أكثر جمالا. وكانت التونسيات ترتدين الأساور فى أيديهن والخلاخيل فى أرجلهن. وكانت أقدام وأذرع رجال ونساء المدينة ترسم وتزين بمختلف الرسوم وفقا لرغبة كل فرد. وكان هذا الأمر ينتشر بين النساء أكثر من الرجال، وبين العامة أكثر من النبلاء، ولم يفهم آل أدورنى كيف كان يتم تثبيت هذه الوشوم، وكانا يعتقدان أن هذا يتم بالنار[٩٦].

ويبدو أن التقاليد كان من الممكن أن تختلف فى مدينة تونس عما سواها فى بقية مدن السلطنة، ففى سوسة شاهد آل أدورنى نساء كن ينظرن إليهما بوجوه مكشوفة دون أحجاب[٩٧].

ووصف آل أدورنى كيفية اتمام الزواج على النحو التالى: يقابل الرجل والدى الفتاة. وإذا ما قبلاه، يتقابل والدى العروس والعريس فى منزل العروس ليبتهجوا ويقيموا وليمة؛ لأن

أولادهم وعدا بالزواج . ولم يكن العريس يتحدث إلى العروس ، وإنما كان يحدث بعد الوليمة أن تدخل العروس إلى حجرة . والعريس إلى حجرة أخرى ، وكلاهما ينظر إلى الآخر من خلال فتحة صغيرة ليريا ما إذا سبعجبان بعضهما البعض . وإذا ما تم الاتفاق ، كان يستدعى موظف يسمى الشاهر ليكتب عقد الزواج المسمى صداق . وفى هذا البرم ، كان الزوجان يدخلان فى حجرة يجدان أعد فيها سرير ، وعلى بابها تجلس أما العريس والعروس وبعض النساء الأخريات للوقوف على كل الأفعال والكلمات التى يفعلها ويقولها الزوج لزوجته . وعندما يتأكدن أن الزوج جامع زوجته ، يصحن بصوت عال : «فرحة ، فرحة كبيرة ، تم الزواج» . وبهذه الكلمات يغادر العريس والعروس الغرفة ويشاركان فى وليمة الزواج، وفى احتفالات الزفاف العديدة . وبانتهاء الاحتفالات يأخذ العريس زوجته ويغلق عليها حجرة نومهما ستة أسابيع حتى تفرط فى السمنة، وهى منتهى جمال المرأة ذلك أنه كان يطعمها أطعمة دسمة دون توقف حتى تصل المرأة . إلى الحد الذى لاتستطيع معه اجتياز باب الغرفة[٩٨].

وقد أوضح آل أدورنى أنه ليس مسموحا للمسلمين معاشرة نساء أخريات غير نسائهم . أى زوجاتهم والنساء اللاتى يشترونهم أو الذين يوهبون إليهم. وكذلك النساء اللاتى يكن بشكل أو آخر ملكا لهم. وقد ذكر آل أدورنى أن البعض كانوا يتحايلون على الشرع ظنا منهم أنهم يتجنبون الوقوع فى الخطيئة فكانوا يذهبون إلى ماخور[٩٩] وحتى لايتهمون بمباشرة نساء غير مسموح لهم شرعا بمعاشرتهم فإنهم يقولون للعاهرات (أنا اشتريكى بهذا السعر) ويذكرون السعر الذى يدفعونه مقابل مضاجعتهن . وبعد مضاجعتهن يلغون عقد الشراء[١٠٠].

أما بالنسبة للأطفال فلم يشر آل أدورنى سوى إلى أسلوب تعليمهم . فذكر أنه لدى المسلمين مكاتب عامة يتعلم بها الأطفال[١٠١]، حيث يشرح لهم المعلم الدرس بصوت عال بينما الأطفال يكررون بعده ما يقوله . وبذلك يتعلم الأطفال بالتكرار . وبعدما يعيد المعلم عليهم الدرس عدة مرات كان يصمت ليتأكد من صحة ما يقوله التلاميذ . وإذا ما سمع تلميذا يخطئ القول كان يضربه بعصا طويلة ورفيعة يمسكها بيده ، ثم يعيد الدرس عليه بمفرده بينما بقية التلاميذ ينصتون. وأوضحا أن الأطفال كانوا يتعلمون بهذه المدارس القراءة والكتابة فقط، ثم كانوا ينتقلون بعد ذلك إلى مرحلة دراسة القرآن . ولقد لاحظ آل أدورنى أن الكتابة العربية لايتم التحدث بها حرفا حرفا ، وإنما كان كل حرف يمثل مقطعا فى الكلمة[١٠٢]. ويبدو أنه قد سها عليهما عندما ذكرا أن المسلمين يكتبون من اليسار إلى اليمين. كذلك ذكرا أن المسلمين يطوون رسائلهم فى شكل لفة، ثم يغلقونها بشريط محكم[١٠٣].

وتطرق آل أدورنى إلى الحديث عن أهل الذمة فى مدينة تونس فذكرا أن مسيحى الريف مقربون ومحبوبون جدا من السلاطين لأنهم مخلصون بشدة لهم ، وهم يتمتعون بحرية رفيعة ، لايتوافر للمسلمين مثلها فى أرض السلطان الذى كان يدفع لهم كثيرا بسبب إخلاصهم . وكان هؤلاء المسيحيون لايختلفون عن المسلمين فى لغتهم أو سلوكياتهم أو فى أسلوب معيشتهم . لأنهم ولدوا فى تلك البلاد من أصول تونسية ، ولكنهم ظلوا على الدين المسيحى . وقد امتلك مسيحيو تونس كنيسة ضخمة وجميلة جدا كرست للقديس فرانسوا وهى تحتوى على الكثير من النقوش القيمة ذات الطابع الرومانى. وكان يتلى بها قداسا باللاتينية يوميا. يرتاده مسيحيو تونس بالرغم من جهلهم بهذه اللغة . ووجد فى الكنيسة ثلاثة أجراس كبيرة إضافة للعديد من الأجراس الصغيرة ، وهو امتياز لم يمنح لغيرهم من المسيحيين الأجانب كالبنادقة والجنوية. كذلك كان مسيحيو تونس لايدفعون أى جزية للسلطان ، ويتملكون ويسودون عددا من القرى والكفور الإسلامية ، ولايستطيع أى شخص أن يطعن فيهم بالقول أو بالفعل أما ملابسهم فكانت على النمط الإسلامى فيما عدا أنهم كانوا لايلبسون العمائم وإنما يستعملون غطاء للرأس على النمط الأوروبى . وكان من المباح لمسيحى تونس أن يستعملوا غطاء للرأس أبيض اللون بالرغم من أن غير المسلمين كانوا يمنعون من استعمال أغطية للرأس بهذا اللون لأن اللون الأبيض كان وفق اعتقاد المسلمين كان من علامات الإسلام . أضف إلى ما تقدم أن السلطان كان يدعوهم إلى مأدبه ، وفى حفلات الزواج والميلاد الخاصة بالأسرة المالكة . أما بالنسبة لنسائهم فلم يذكر عنهم آل أدورنى سوى أنهن كن يذهبن ويأتين فى يسر مثلهن مثل السيدات المسلمات[١٠٤].

وعلى العكس من مسيحى الريف ، أوضح آل أدورنى أنه لم يكن لليهود نصيب من حرية العيش ، بل كانوا محتقرين ومكروهين ، تفرض عليهم جزية ثقيلة ، ويرتدون ملابس مميزة عن ملابس المسلمين ، وإذا لم يفعلوا كانوا يعاقبون ، كذلك كانوا يضعون على رؤوسهم أو فى أعناقهم قطعة قماش صفراء[١٠٥]. اللون ولم تكن نساؤهم يتجرئن على لبس الأحلية[١٠٦].

وتعرض آل أدورنى لعادات التوانسة فى المأكل والمشرب فأوضحا أن التوانسة يفرطون فى الأكل بشكل يثير العجب ، ولكنهم لايشربون إلا الماء واللبن . ومع ذلك أشارا إلى أن بعض الرجال ذوى المكانة والأغنياء ، يشربون الخمر المصنوع من الزبيب ، والماء المسكر ، وخليط من العصائر والماء. ولتناول الطعام كانوا يجلسون على الأرض على شكل دائرة على سجادة يوضع فى وسطها ماجور ضخم أو طبق مستدير واسع وعميق[١٠٧].

وفصل آل أدورنى أن المسلمين - ومن بينهم التوانسة بطبيعة الحال- يأكلون بأصابعهم بصفة عامة. وفسرا ذلك بأن خبزهم ولحومهم وأطعمتهم الأخرى كانوا ينضجونها جدا بما يسمح لهم بفصل قطع منها بأصابعهم بسهولة . وكانوا عندما يجلسون للغذاء أو العشاء يتحدثون ، ولايستغرقون أكثر من نصف ساعة فى تناول الطعام. واتسموا بكونهم لايأكلون وجبات منتظمة ، وبأنه نادر ما كان الأزواج يتناولون طعام الغذاء مع زوجاتهم ، وفى المقابل كانوا يأكلون بعض الأطعمة بكميات صغيرة هنا وهناك عدة مرات خلال النهار . ولذا كانت حوانيت بيع الأطعمة المطهية الطازجة تنتشر فى كل مكان . وعلى العكس من ذلك كان كل رجل يتناول عشاءه فى منزله مع أفراد عائلته[١٠٨].

ووصف آل أدورنى وجبة تناولاها خارج مدينة تونس فى منزل تونسى استقبلهما فى احدى حدائقه ، حيث جلسا مع ضيوف آخرين على بلاط حسن مغطى بسجادة ، غير أنه لم يكن هناك أى طاولات أو مقاعد أو مقارش أو أدوات مائدة . وقد حُمل للمدعوين فى البداية طبق عميق مستدير مملوء بحلوى مصنوعة من الدقيق والعسل والزيت والعنب ، تتوسطها حبيبات من العجين فى حجم البازلاء طهيت فى حساء الدجاج تسمى بازين[١٠٩]. وبعد ذلك أحضر دست ضخم احتوى على ديكة محاطة بعجين مطهى بالبيض ، ثم جرى إليهم بالفاكهة وكانت عبارة عن لوز وتفاح وتمر . وفى النهاية تناول المدعون حبوب الخشخاش[١١٠] ليناموا جيدا، فى حين أخذ البعض الآخر فى التسلية ببعض الألعاب[١١١].

وفى المساء أحضر للمدعوين ماجور ضخم مملوء بعجين يشبه الأرز، ولكنه كان مصنوعا من لباب القمح، عليه قطع من اللحم والدجاج ملفوفة فى أوراق الكرنب. وكان هذا العجين يسمى كسكسى وأشار آل أدورنى إلى أن التوانسة يأكلونه بشكل شائع ، ويحبونه كطعام خفيف ومغذى، وأنهما شاهداه مرات وهو يطهى. وفى هذا الشأن أيضا أضاف آل أدورنى أن التوانسة دائما ما يأكلون حبوب الفول واللوبيا فى الفرن، وأنواع أخرى من البقوليات[١١٢]. وبأنهم يصنعون من القمح والنخالة الخبز الأبيض[١١٣] والخبز الأسمر[١١٤].

ويتضح مما سبق أن عادة التوانسة جرت فى الضيافة على إعداد الطعام فى حضرة المدعوين، كما كان الرجال هم الذين يتولون أمر الطهى وليس النساء .

واهتم آل أدورنى بذكر وسائل الترفيه التى عرفها سكان مدينة تونس آنذاك: فقد دونا أنهما شاهدا عروضا مدهشة فى ميدان رحب كان يمتد خلف فنادق الأجانب فى المدينة ، وكان

هذا الميدان يخصص يوميا لمثل هذه العروض فى الساعتين السابقتين على حلول الليل . وأرجعا ذلك إلى أن التوانسة لم يكن لديهم يوما للراحة أسبوعيا ؛ لذا كانوا يأتون كل مساء إلى هذا الميدان بعضهم على ظهور الجمال وبعضهم على الأقدام ليشاهدوا العديد من الألعاب والعروض ، ويمرحوا عن أنفسهم . ولقد شاهد آل أدورنى فى الميدان رواة كانوا يتغنون وفى أيديهم عصا طويلة ليمروا بمآثر عديدة من تواريخ الماضى وذلك فى حضور عدد كبير من المستمعين اليقظين[١١٥].

وفى ركن آخر من الميدان، كان هناك عدد من المغنين المسلمين يصاحب غناء كل منهم اثنان يضربان الكفوف . وكان المغنون يضعون نعالهم أمامهم ليلقى الراغبون من المشاهدين بعض النقود فيها. وفى مكان ثالث من الميدان كان هناك من يعزفون المزمار ويضربون طبول ضخمة ، وعلى صوتها كان بعض الحضور يرقصون مقابل دفع مبلغ من المال للعازفين[١١٦].

وفى ذات الميدان، وجد بضعة من الأساتذة المتخصصين فى استخدام السيف والدروع، يعلمون من يرغب فنون القتال . واعترف آل أدورنى بأن التوانسة بارعون فى فن القتال وأنهم أقوى من الأوروبيين فى هذا المجال ، كما يتميزون بصفة عامة على الشعوب الأخرى فى ثلاثة فنون هى المسايفة والفروسية والشطرنج . ويستحيل على غيرهم ممارسة هذه الفنون كما يفعلون[١١٧].

وفى نفس الميدان كان بعض الأطفال فى سن العاشرة يستعرضون بحمل ثمانية أو تسعة جرار موضوعة فوق بعضها على رؤوسهم ، وبهلوانات كانوا يغنون ويرقصون . ومن المؤكد أن هذه العروض كانت تلقى نجاحا كبيرا من التوانسة الذين كانوا يهرولون كل ليلة فى أعداد غفيرة لمشاهدتها[١١٨].

وكان هناك بعض الرجال المسئولين عن رش مثل هذه الميادين بالمياه حتى تظل أكثر نظافة وتماوة . وآخرين كانوا يطوفون بالمياه الباردة يقدمونها لمن يطلبها بالمجان أو مقابل منح مالية صغيرة[١١٩].

ومن طرائف ما لفت نظر آل أدورنى أمر رجل من الأشراف - عرفاء بأن هذا يعنى أنه من نسل النبى محمد (ص) - قدم لهما عرضا رائعا . فقد كان فى الأربعين من عمره، بيد أنه كان مولودا بدون أذرع ومع هذا فقد كان يتقن كتابة التماسات إلى الملك لمن يحتاج هذا، وذلك بقدميه التى كان يستخدمها عوضا عن يديه فى كل شئ[١٢٠].

ومن أبرز ما سجله آل أدورنى وصفهما الدقيق لما شاهداه لكيفية الاحتفال بعيد الأضحى لسنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م ، فى مدينة تونس [١٢٦]. وفيه خرج السلطان فى اليوم التاسع من شوال من قصره على حصانه ومعه أولاده وكل الزعماء الذين قدموا من جميع الأنحاء للاحتفال معه ، متوجهين إلى أحد أبواب المدينة- وهو باب خالد- حيث يوجد المكان المخصص لبيع الماشية ؛ فاشترى منه السلطان الخروف الذى سيذبحه فى الليلة التالية . وما كاد السلطان يبتاع هذا الخروف حتى أخذ أتباعه يشترى كل منهم الخروف الخاص به ، ليعود السلطان عقب ذلك إلى قصره . وفى كل مرة كان السلطان يخرج من قصره كان جميع الزعماء والعسكريين يحملون له رماحا طويلة عليها الشعار السلطانى . كذلك كان السلطان يحمل رمحه على كتفه مثل المقاتلين ، علامة على الشجاعة والقوة [١٢٧].

وفى يوم العاشر من شوال كان السلطان يخرج فى موكب عظيم من الباب الجنوبى لقصره الذى كان لايفتح إلا لخروجه ودخوله فى الأعياد الكبرى. وكان يتقدم الموكب ابنه الأكبر مع أفراد بيته والحامية ، يتبعه بقية الأبناء والأحفاد . بينما كان يخلف الموكب ستون ألفًا من مشاة ورماة جيشه، يعقبهم بقية رجالات الدولة وهم ممتطون جيادهم ويرفعون رماحا طويلة رقيعة على أكتافهم . وكان يأتى بعدهم سكان قرطاجنة مع شعاراتهم ثم قضاتهم ، فى الوقت الذى كانت الأبواق والطبول الضخمة تحدث ضجة عظيمة . وكان السلطان يرتدى ملابس طويلة عبارة عن جبة من الحرير الشديد النعومة ، يعلوها برنسا أحمر ، كذلك كان زعماء البلاد يرتدون ملابس حمستة تقارب ملابس السلطان[١٢٨]. وأمام السلطان كان يقاد باليد صف من أربعة وعشرين جوادا تثير روعتهم العجب ، وكانوا يزينون بأغطية ثمينة وسروج وأجمة وركاب مصنوعة من الذهب [١٢٩].

وكان مركب السلطان يعبر ميناءًا ضخمًا جدا حيث يسكن مسيحيو الريف الذين كانوا ينتظرونه وهم راكبون خيولهم فى نظام حربى رائع ، ومعهم أبواقهم ورواياتهم . وبمجرد ما ير السلطان بهم ينتظمون على جانبيه ، فيأخذ فى التجول فى هذا الميدان، ثم يهبط من على حصانه للصلاة فى مسجد يوجد فى نهايته . وعقب الصلاة كان السلطان يذبح بيديه الخروف الذى اشتراه فى اليوم السابق ويقدمه أضحية لله . ليعود بعد ذلك إلى قصره من شارع آخر غير الشارع الذى قدم منه [١٣٥]. وكان رجال ونساء وأطفال المدينة ينتظرون مرور موكب السلطان فى الشوارع ، وفرق أسطح المنازل، وعندما يلمحونه قادما كانوا يزغردون ويصفقون[١٣٦].

وبعد ظهر نفس اليوم كان عدد كبير من فرسان السلطان يتجمعون فى ميدان ضخم أمام قصره ومعهم أسلحتهم من الرماح المسنونة المصنوعة من الحديد ، وكذلك تروسهم حيث كانوا يتبارزون بقوة ضد بعضهم . وكانوا يركبون خيولهم بسرعة وبسهولة شديدة ، ويجعلونها تستدير بحركة إصبع إلى حيث يريدون . ولقد تعجب آل أدورنى من كيفية ركوب هؤلاء الفرسان لخيولهم فى مثل هذا السباق السريع [١٣٧].

أما فيما يتعلق بكيفية احتفال العامة بهذا العيد فقد كان كل منهم يشترى بنفسه حيوانا فى اليوم السابق على العيد. وفى يوم العيد كان الجميع يتجهون إلى الجامع ليضحوا بحيواناتهم . وكانوا يعتنون بتجفيف جلود أضحياتهم ويضحونها فوق سجاجيدهم ليجلسوا عليها . وسجل آل أدورنى أن المسلمين كانوا يمتنعون عن العمل أثناء النهار فى الأيام الأولى من أعيادهم [١٣٨].

٤- النواحى الادارية :

لم يغب آل أدورنى فى تعريفنا بأبرز الوظائف الإدارية فى تونس الحفصية فكتبا أن رجال السلطان الذين يديرون المدن والكفور كان كل منهم يحمل لقب قايد. واستطردا قائلين إن البلاط السلطانى كان يتكون من خمسة آلاف موظف ، أبرزهم المنفذ [١٣٩] ، وهو مستشار السلطان والمسئول عن تحرير وإرسال المخاطبات السلطانية . كذلك كان من بينهم صاحب البيت وكان عمله مراجعة حسابات الضياط . أما المحتسب فكان مسئولا عن الموازين والمكاييل فى مدينة تونس . وكان صاحب الجمرك أكثر الموظفين تأثيرا على السلطان نظرا لأنه كان يقدم للخزانة السلطانية دخلا سنويا مقداره مائة وسبعين ألف قطعة ذهبية ، إذ كان مسئولا عن كل الأجانب والمتاجر التى تدخل موانئ تونس وقرطاجنة ، ولهذا كان يتمتع بصداقة حميمة مع التجار والبنادقة، كما كان يسكن مسكنا رائعا ليس له مثيل فى تونس[١٤٠].

وفصل آل أدورنى مهام صاحب الجمرك فأوضحا أنه كان يستقبل كل الأجانب للحصول منهم على الضريبة المفروضة عليهم عند دخول تونس . وكان صاحب الجمرك يجامل بعضهم ويعفيهم من الضريبة المفروضة عليهم، كما كان يقود بعضهم للمثول أمام السلطان وأولاده ، فضلا عما تقدم فقد كان يزود بعضهم بخطابات توصية سلطانية موقعة بيد السلطان ، ومكتوبة بالعربية على ورق أصفر مصقول وفقا للعادة . وكان يكتب هذه الخطابات مستشار السلطان (المنفذ) ثم يرفعه للسلطان الذى يوقعه بنفسه دون ختمه لأن العادة لم تجر بذلك، وإن كان يضاف للخطاب توقيع ذى أثر للريشة أو البوصة المدون بها الخطاب [١٤١].

وشغل القضاء الحفصي جزءاً في مؤلف آل أدورني فأوضحا أن حكام المدن كانوا يستشيرون القضاة في كل القضايا، وأنه كان في السلطنة الحفصية تمثل ادعاء ومحامون وأضافا إن الإجراءات القضائية في القضايا الجنائية والمدنية صغيرها وكبيرها تميزت بسرعتها. أما بشأن العقوبات فقد كان من النادر توقيع عقوبة الإعدام، وإنما كان الحفصيون يعاقبون بالغرامات وبالعقاب الجسدي غير المميت[١٣٢].

٥- النواحي الطبوغرافية والمعمارية :

حدد آل أدورني مساحة مدينة تونس في عبارة : «وأسوار مدينة تونس[١٣٣] تشكل مربعا محيطه أربعة أميال، ولكن خارج المدينة يمتد للعديد من الأرباض الهامة[١٣٤]، ويضم هذ الضواحي فإن امتداد تونس كان يشكل محيطا قدره اثني عشر ميلا. والضواحي ليست مؤسسة عند التقاء ممرات وفقا للتنظيم المعتاد، ولكنها متصلة ومتجاورة بعضها إلى جانب بعض بدون أي مسافات حرة بينها »[١٣٥].

ولما كان روبير برونشفيج صاحب أكمل مؤلف في تاريخ تونس الحفصية قد أكد أنه لم يبق شئ من المباني الحفصية في زمننا الحاضر[١٣٦]، فإن هذا يوضح أهمية مؤلف آل أدورني في هذا الشأن. إذ حفظا لنا الكثير من تفصيلات المنشآت العمرانية الحفصية التي اندثرت ولم يبق منها شئ تقريبا. وبشأن المنازل ذكرا أن مدينة تونس مليئة بالكثير من المنازل الضخمة المربعة المبنية بالرخام الأبيض المكونة من أسوار وممرات مغطاة، وفي وسطها فضاء غير مغطى. وخلصا إلى أن عامة هذه المنازل أكثر جمالا في الداخل منها في الخارج[١٣٨].

وفيما يتصل بالمساجد أحصيا حوالي مائتين وستين مسجدا في مدينة تونس[١٣٩] لها جميعا نفس الشكل، فهي غالبا مربعة ذات حجم متوسط[١٤٠].

وقال آل أدورني عن فنادق تونس أنها عبارة عن أرض مربعة محاطة بالأسوار، تضم بداخلها عددا كبيرا من المباني المختلفة، ولكن ليس لها سوى مدخل واحد[١٤١].

ومن أكمل ما جاء في مؤلف آل أدورني فيما يختص بالنواحي المعمارية تفصيلهما للنسق المعماري والجمالي لحدائق مدينة تونس، إذ قالا عنها أنه كان يوجد في كل حديقة[١٤٢] بناء جميل ومرتفع على شكل برج[١٤٣] ضخم مربع مبطط بالأحجار الملونة مع صهريج جميل وعراق ساخن وحمام بارد كان يتم الاستحمام في أولهما شتاء والآخر صيفا[١٤٤].

وكان منزل وحديقة الابن الأكبر للسلطان المسماة رأس الطابية[١٤٥] أكثر الحدائق التي أعجب بها آل أدورني، ولقد دخلاها من مدخل بواسطة بوابة مفتوحة على منزل جميل جدا كانت كل حوائطه مزينة من الداخل بالجص المقطع على طريقة النحت الرقيق فوق الخشب، كما كانوا يفعلون على الأسرة في تونس. وكانت أرضية المنزل مبلطة بصخور بيضاء وصفراء وزرقاء، وسوداء، وغيرها من الألوان المتسقة والمتناغمة. وفي وسط أرضية كل غرفة وجدت نافورة مستديرة من الرخام الأبيض بها فتحة على شكل الشفاط تندفع منها المياه[١٤٥]. وكانت هذه النافورات مرسومة ومذهبة ومقطاة بالنحت من الداخل.

وكانت نوافذ الحجرات المحيطة بها مربعة وصغيرة، حجمها حوالي متر أو أقل، وترتفع نحو متر لكي يتمكن الجالس بجوارها من مشاهدة ما بالخارج. وأبان آل أدورني أن المنزل كان على شكل برج قليل الارتفاع وفقا لنمط البلاد. وكان يوجد أسفل مستوى أرضه صهريج مبلط بالبلاط المهذب بصخور شديدة البياض، كان يُهبط إليه من المنزل بواسطة سلالم. وتحت بلاط الصهريج الأول كان يوجد خزان مغطى بعقود ضخمة ومملوء بالمياه مثل الخزان الأعلى. وكانت المياه تجلب يوميا للخزان الأسفل من آبار عميقة فتحاتها مرتفعة أكثر من غرف المنزل، وكان يتم رفع مياهها بواسطة أوعية مربوطة في عجلة تشبه طواحين المياه وكانت المياه تصب بعد ذلك في آبار حوض مربع، ومنه كانت المياه تقذف بواسطة أنابيب، لتتدفق منها كنبع في الفسقيات الموجودة في غرف المنزل. ثم كانت المياه تندفع بعد ذلك في قناة إلى داخل الصهريج الأعلى، ومنه كانت تخرج بواسطة أنابيب صغيرة تجعلها تسيل بشكل منخفض عبر الحديقة في قنوات تحملها أسوار[١٤٦].

وشاهد آل أدورني في الحديقة أشجارا مثمرة وأعشابا مزروعة في نظام بديع بتوسطها أربعة منازل منظمة على شكل صليب. وبين هذه المنازل كان يمتد بلاط جميل ذو ألوان مختلفة على شكل رسوم يتدفق وسطها نبع مياه. ولقد أدهشت الحديقة آل أدورني إلى درجة قولهما أنهما لم يريا حديقة أجمل منها، وأن الحقيقة أكثر إبداعا مما يعجز عنه الوصف[١٤٧].

كذلك وصف آل أدورني الحديقة الملكية المسماة باردو[١٤٨] فقالا أنها ضخمة، ولكنها ليست جميلة مثل رأس الطابية التي تبعد عنها ميلا واحدا فقط. وكان يتم الدخول إليها عبر بوابة تقود إلى ممر ضخم طوله حوالي نصف ميل محاطا بالأسوار من جانبيه، وينتهي في طرفه الآخر ببوابة أخرى. وكانت ستة منازل سلطانية وصفاها بالرائعة تنتظم على جانبي هذا

الممر الذي كان السلطان يستخدمه للدخول لهذه المنازل عبر الحدائق عندما يريد أن يُرى . أما إذا كان يريد ألا يُرى فكان يتنقل على قدميه أو على جواده من منزل إلى منزل آخر من هذه المنازل بواسطة نفق ضخم تحت الأرض كان يتسع لمرور ستة فرسان . وكان هذا النفق مغطى بواسطة عقود حجرية موضوعة فوق سطح الأرض، بينما كانت أسوارها الجانبية مدفونة في التربة[١٤٩].

وذكر آل أدورنى أنه كان يوجد أمام الحديقة الملكية المسماة بباردو سبيل عبارة عن حوض مربع تأتي إليه المياه من الصهريج الملكي بالحديقة . وكان كل الذين يمرون في هذا الشارع يشربون ويسقون حيواناتهم منه[١٥٠].

أما آخر ما أورده آل أدورنى في هذا المجال فهو أنه كان ينتشر في تونس عدد كبير من الطواحين[١٥١] التي تديرها الجمال أو حيوانات الجر[١٥٢] الأخرى . وأضافا أنه يقال أن عدد الطواحين في تلك البلاد يتساوى مع عدد الحمامات[١٥٣]، وكذلك مع عدد الجوامع[١٥٤].

ويبقى القول إن آل أدورنى لم ينسبا وصف مقابر سلاطين وسكان مدينة تونس ، ولم يكتفيا بذلك بل فرقا مقابر الأغنياء والبسطاء منهم . وكان ما أورداه في هذا الصدد أنهما شاهدا في شمال المدينة جبلا يسمى الزلاج[١٥٥]. كان التونسة يدفنون فوقه بصفة عامة[١٥٦]. وأوضحا أن هذا الجبل كان يبدو عن بعد وكأنه مدينة ملاصقة لمدينة تونس لأن كل التونسة من ذوي الأهمية، كانوا يبنون أضرحة يحيطونها بالأسوار الضخمة والعالية، مما يجعلها تشبه المنازل لا المقابر ، كما كانوا يزرعون بصفة عامة شجرة جميلة في وسط كل مقبرة . أما مقابر العامة فكانت متواضعة ، إذ كانوا يدفنون بتغطيتهم بالتراب، مع وضع حجر عند رأس الميت وآخر عند قدميه . وأضافا أن عادة المسلمين جرت أن يذهب كل منهم إلى قبور أقاربه في اليوم الأول لعيدهم . فضلا عن ذلك فقد كانت النساء تذهبن يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع إلى المقابر ليبكين موت أقاربهن وأصدقائهن[١٥٧].

وبالقرب من جبل الزلاج، وفي أحد أرباض مدينة تونس كان يرتفع ضريح جميل جدا يشبه القصر يدفن به السلاطين، وكان هذا الضريح مبنيا من الصخور وأعمدة من الرخام المهذب ، ويتسم بأناقته السلطانية وهناك عدد كبير من المصابيح معلق فوق هذه المقابر[١٥٨].

٦- النواحي الطبيعية :

وأمدنا آل أدورنى ببعض المعلومات التي تصنف اليوم ضمن مجال الجغرافيا لاسيما ما يختص منها بعلم الحيوان، فكان مما ذكراه أنه كان يوجد في غرب تونس غابات تحتوي على مختلف الحيوانات المتوحشة كالأسود[١٥٩]. وكذلك صحاري كان السلطان أبو عمرو عثمان[١٦٠] يخرج للصيد فيها كل عام في شهر سبتمبر[١٦١].

فضلا عن هذا وبالقرب من جبل الرصاص كان هناك جبل آخر كانت تعيش فيه الأسود بأعداد ضخمة ، ولم تكن هذه الأسود تهاجم البشر إلا في النادر . فقد كان هناك الكثير من الحيوانات التي يقتاتون عليها. وأورد آل أدورنى أن التونسة كانوا يعيشون في هذا الجبل ، وكان الأسود يتجولون بجوار مساكنهم[١٦٢].

وشاهد آل أدورنى فوق البحيرة التي تطل عليها مدينة تونس آلافا من الطيور تشبه طيور اللقلق وهي تسبح في البحيرة وعلى ساحلها . وقد لاحظا أن رائحة هذه البحيرة نتنة للغاية وبخاصة في الصيف[١٦٣].

ووصف آل أدورنى الخيول التونسية بالسرعة والحسن والجمال والجلد في السفر[١٦٤]. وأضافا أن المرء يتجول على جواده من ثمانين إلى تسعين ميلا دون أن يطعمه . وجرت عادة التونسة على غسل الخيول بأكملها ، بينما كانت العادة في أوروبا هي غسل أقدامها فقط. ودائما ما كانت الخيول التونسية تنام في الشوارع وهي مربوطة . وتميزت الخيول والبغال بكثرتها الشديدة في مدينة تونس ، إذ كان كل المواطنين من ذوي الأهمية يستخدمونها للتنقل في المدينة[١٦٥].

ومما يجدر ذكره أن آل أدورنى أغفلا الحديث عن المصادر التي كان يستقي منها سكان مدينة تونس مياه شربهم ، وذلك في الوقت الذي تميز عنهما ليو الإفريقي في هذا الإطار حين تحدث عن عدم وجود عين أو نهر أو بئر في المدينة ، واستخدام سكانها للصهاريج لجمع مياه الأمطار التي لم تكن نقية[١٦٦].

ومع ما تقدم فقد شكل مؤلف آل أدورنى مصدرا لما آل إليه أمر القناة الرومانية القديمة التي كانت تنقل المياه إلى قرطاجة ، وكان ما أورداه بشأنها أن مدينة قرطاجة تفتقد مصادر المياه الحلوة، ولكن القرطاجيين نجحوا في جلب المياه الحلوة إلى مدينتهم، فمن جبل زغوان الذي

يبعد ستة وعشرين ميلا عن قرطاجة بتفجر عين ماء نشط بشكل مجرى وجهه القرطاجيون على طوال الوادى على أسوار مرتفعة جدا تحملها عقود من الرخام من هذا الجبل حتى جبل مدينة قرطاجة ومنها إلى صهاريج (خزانات) المدينة. وأوضحا أنهما لم يكونا ليصدقا التكلفة غير المعقولة التى تم بها انشاء هذا المجرى لولا أنهما شاهدا بأعينهم هذه الأسوار التى تمتد لما يزيد على ثلاثين ميلا، وترتفع فى بعض المناطق لعشرين مترا، ولارتفاع قد يزيد أو ينقص عن ذلك فى مناطق أخرى [١٦٧]. وذكرا أنه يقال إنه يوجد ثلاثمائة وسبعون ألف عقد ويزيد على امتداد هذا المجرى. ولكنهما شاهدا بقايا حوالى أربعمائة عقد فى عدة مناطق متجمعة أحيانا ومنثورة فى أحيانا أخرى. وكان بعضها محطم والبعض الآخر كاملا. ولقد أدشهما حطام تلك العقود، مثلها مثل بقية الآثار المنهارة التى تظهر القوة القديمة لقرطاجنة [١٦٨].

ووصف آل أدورنى مناخ تونس بأنه شديد الحرارة صيفا، وبأن البلاد مليئة بالذباب والنمل والزنابير. ولذلك فقد جرت عادة التوانسة على أن يحمل كل منهم مذبة فى يديه صيفا لطرد الذباب. وخاصة فى لحظات تناول الغذاء والعشاء، وبأنهم لايستغنون عن المذبات بسبب هجمات الذباب [١٦٩].

٧- السلطان عثمان :

شغل شخص السلطان عثمان [١٧٠] حيزا فى مؤلف آل أدورنى : فقد أمدانا بصورة نابضة بالحياة عرفنا من خلالها كونه رجلا فارع الطول، أسمر البشرة، ذا لحية كثيفة، نبيلا، عاقلا، عطرقا، لبيبا قليل الكلام. ولكنه حسن الاستماع، مهتما بتحقيق العدالة، يقرأ القرآن يوميا ويحكم بحرفية الشريعة الإسلامية، ولذلك فإن رعاياه يجدون طهارة سيرته ويحبونه ويقدرونه [١٧١]، ومع ذلك فقد وصفاه بالبخل. وفصلا أن السلطان عثمان كان يحدد يوما لكل نوعية من الأعمال التى يجب عليه أن ينجزها خلاله. فقبل ظهر يومى الأحد والثلاثاء كان يعقد جلسة لسماع عامة ليسمع ويتسلم شكاوى رعاياه. فى حين كان يتوجه بعد الظهر مع حاشيته إلى الحدائق للتنزه. أما فى يومى الإثنين والخميس فكان يخرج لصيد ذوات الريش والزغب، هذا فى حين خصص يومى السبت والأربعاء لزيارة المناطق المجاورة. كذلك كان يجلس يوم الجمعة فى مقر القضاء ليعقد محكمته، وكانت أحكامه تنفذ بواسطة ضباطه والويل لمن كان يؤخر العقوبات منهم [١٧٢].

وذكر آل أدورنى أن السلطان عثمان كان يحب المسيحيين كثيرا لأن أمه ولدت مسيحية فى

مدينة فالنسيا [١٧٣]، ولكنها أسرت وأحضرت إلى تونس حيث اشتراها والده سرية له وأنجبه منها. وبدوره كان السلطان عثمان يملك أكثر من ستمائة سرية كن يقمن جميعا فى قصر القصبة بمدينة تونس تحت إشراف امرأة مسيحية وعدد من الخصيان. وفى كل مرة يرتحل السلطان كانت تتبعه ستين منهن على الأقل. وكان له العديد من الأبناء والبنات من هؤلاء السراير. وذكر آل أدورنى أن أولاد السلطان الثلاثة الكبار كانوا يتسمون بالشجاعة والبسالة. أكبرهم مولاى المسعود، وكان ضخما وقويا ومبتهجا وكريما. ووفقا لقانون السلطنة فقد كان وحده صاحب الحق فى تملك السلطنة بعد وفاة والده. ودعى الابن الثانى للسلطان مولاى عبد العزيز. أما الثالث فهو مولاى إبراهيم، وكان يشبه أباه فى قوامه وهيئته، وهو رجل حسن الوجه جدا وشجاع، وكان يبلغ من العمر آنذاك أربعين عاما. وقيل لآل أدورنى أنه نتيجة لنقص فى طبيعته لم يعرف أى إمرأة أبدا [١٧٤].

كذلك تناول آل أدورنى بعض جوانب من الحياة الخاصة للسلطان عثمان فكشفا أنه كان يمكن نصف العام من مارس إلى سبتمبر فى قصره فى مدينة تونس. وفى سبتمبر كان يخرج فى ظل حراسة ضخمة ويتوجه للصيد فى اتجاه الغرب فى إقليم الغابات والصحارى، ليبقى بهما حتى شهر مارس، ثم يعود ثانية إلى مدينة تونس. وكان يرافقه دائما فى هذه الجولات أولاده وما لايقل عن ستين من سرائره، وكل ضباط البلاط، وأربعمائة جمل محملة باللوازم له ولحاشيته [١٧٥].

رابعًا : الإسلام والمسلمون فى مؤلف آل أدورنى :

أفرد آل أدورنى فصلا فى مؤلفهما للحديث عن الإسلام والمسلمين، تراوح ما جاء فيه بين الصحة والخطأ. وكان أبرز ما تناولاه فى حديثهما عن العقيدة الإسلامية هو الخلاف بينها وبين العقيدة المسيحية : فأوضحا أن المسلمين يقولون إن محمداً هو رسول الله الذى أرسله لخلاص الإنسانية. وأنهم لاينكرون كون المسيح نبيا، ولكنهم يرفضون القول بأنه ابن الله، وإنما هو روح من الله كذلك فإنهم لايعتقدون فى صلبه، وإنما صلب مكانه شخص آخر بأمر إلاهى. كذلك أضافا أن المسلمين يجلون العذراء كقديسة لكنهما أخطئا القول بأن المسلمين يعتقدون بأن السيدة مريم لم تكن عذراء حين وضعت المسيح. وانتهيا إلى أن المسلمين- ومع الاعتراف كليا بأن المسيح رسول- فهم لايتبعون شريعته، وإنما يتبعون شريعة محمد لأنه خاتم الأنبياء [١٧٦].

ولاحظ آل أدورنى أنه مكروه للمسلمين من الرجال ارتداء الذهب ، ولذا فإنهم يستعملون خواتم من الفضة ذات صنعة راقية . ومع هذا فقد شاهدنا بعض علية القوم يتفاخرون باستخدام الذهب والفضة فى صنع سروج وشكائم وركاب خيولهم. كذلك ذكرا أنه محرم على المسلمين شرب الخمر ، لأنهم إن شربوا الخمر فى الدنيا حرموا منها فى الآخرة . ولهذا فالمسلمون لايصنعون الخمر بأنفسهم ، ومن يصنعها منهم يرجم ، وبالرغم من ذلك فبعضهم يشربونها سرا وليلا عند أصدقائهم المسيحيين ، إما بدفع ثمنها أو كضيافة . وأضافا أيضا أن المسلمين لايأكلون لحم الخنزير ، ولا الميتة وأنهم يتوجهون إلى الجنوب (أى تجاه الكعبة) عندما يقومون بذبح حيواناتهم [١٧٧].

وأكد آل أدورنى اهتمام الإسلام بنظافة أتباعه ، لأن محمداً (ص) أمرهم بعدم دخول المساجد إلا وهم حفاة ، عليهم ملابس نظيفة، وأن يغتسلوا بعد قضاء حاجتهم أو إذا ما لامسوا إمرأة . وأرجعا لهذا السبب فى وجود ميضات ماء بارد أمام جوامعهم ، لكى يغتسل منهم من يأتى إلى الجامع وهو غير طاهر . وكان آل أدورنى دقيقين للغاية عندما سجلا أن النساء الحائضات لا تستطعن دخول المساجد. وأوضحا أن المسلمين يغتسلون يوميا بصفة عامة، لدرجة قد تصل إلى سبع مرات يوميا ، وأنهم يغسلون أعضاءهم التناسلية أو ينظفونها مع الأرض (أى التيمم) عقب التبول ، أو بعد الجماع ، ولهذا فهم يقيمون حمامات داخل مساكنهم للاغتسال . ولاحظ آل أدورنى أن رجال المسلمين كانوا يتبولون على الأرض وهم مقرفصين ، ثم يأخذون من الأرض بعض الرمال لتنظيف عضو الذكورة . وبينا اعتقادهما بأن المسلمات يفعلن نفس الشئ ولكنهما لم يريا شيئا مثل هذا ، لأنهن محتشمات ومتحفظات فى كل سلوكياتهن . فضلا عن هذا فقد أكدا على عناية المسلمين بجمال ونظافة مساجدهم لدرجة وصفوها بأنه لايمكن لأحد أن يجد قشة تبن بأى مسجد. كذلك أوضحا أن رجال الدين المسلمين يحيون حياة أسرية مثل بقية المسلمين [١٧٨].

وأوضح آل أدورنى أن المسلمين يرجعون كل أفعالهم وأعمالهم إلى الله ، وهم يرددون على كل شئ : «إن شاء الله» . وإذا وجد المسلمون فى مكان موبوء بداء الطاعون فإنهم لايهربون ، لأنهم يقولون أن هذه إرادة الله أن يكونوا فى هذا المكان ، وأنهم لايجب أن يفروا من الموت ؛ لأنه إذا كانت إرادة الله تقضى بأن يموتوا ، فإنهم سيموتون على كل حال . وعلى العكس من ذلك فهم يتجنبون أى مكان موبوء بالطاعون ، حتى لايتعرضون للموت [١٧٩].

كذلك قام آل أدورنى بنقل صيغة الآذان نقلا سليما لاينقصه إلا عبارة حى على الفلاح. الله أكبر لا إلله إلا الله ، موضحين أن المؤذنين كانوا ينادون على المسلمين للصلاة بواسطة هذا الآذان من فوق المآذن أو أمام أبواب المساجد [١٨٠] . فضلا عن ذلك فقد وصفا كيفية أداء الصلاة وصفا دقيقا من واقع مشاهدتهم للتجار المسلمين الذين صاحبوهم فى الرحلة البحرية من تونس إلى الإسكندرية [١٨١].

ومن ناحية أخرى، فقد جانب الصواب آل أدورنى فى بعض ما سجلاه عن الإسلام والمسلمين، فقد ذكرا أن المسلمين لديهم عيدين كبيرين سنويين يحتفلون بأولهما فى القمر الجديد لشهر مارس: عندما يبدأ صومهم الذى يستمر ثلاثين يوميا كاملة. وهم يصومون من شروق الشمس، حتى غروبها وقد أمدانا ببعض الحقائق عن كيفية قضاء المسلمين لشهر الصوم إذ قالا إن المسلمين يأكلون أطعمة رائعة فى الليل ما شاءوا ، عدة مرات ، وأحيانا أربع أو خمس مرات، على صوت الموسيقى والطبول . وفى هذه الليالى يشعرون بالسعادة ويتجولون عادة فى المدن وهم يغنون ويعزفون الألحان ، ووجوههم مبتهجة . أما العيد الثانى فقد ذكرا أنه يقع فى اليوم العاشر من قمر شهر يونيو ، وهم يحتفلون بهذا العيد على شرف النبى إبراهيم الذى أراد بناء الكعبة بأمر من الله ذبح ابنه اسحق [١٨٢].

ووقع آل أدورنى فى خطأ آخر عندما أشارا إلى أن المسلمين يصلون سبع صلوات يوميا[١٨٣]. وجاءت معلوماتهم ناقصة عندما قالا إن الأشراف هم من سلالة نبى الله محمد عن طريق أخوانه ، ولذلك فهم مبجلون ومشرفون جدا، ويعاقب بشدة من يخطئ فى حقهم[١٨٤].

كذلك تحامل آل أدورنى على نبى الإسلام وذكرا أنه منع أتباعه أن يتحدثوا مع المسيحيين عن دينهم ، وأمرهم بأن يرجموا المسيحيين الذين يحاولون مناقشتهم فى ذلك. وحاولا أن يقرا ما يدعيه بعض الأوروبيين من أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، فأوردا رواية لانعلم من أين استقوها مفادها أن المسلمين لايستطيعون الحديث عن الدين فيما بينهم. وأنهم عندما يجتمعون لصلاة الجمعة ، فإن المؤذن يمسك القرآن بيد وفى اليد الأخرى سيف فولاذ مسلول يظهره إلى الحضور قائلا هذه الكلمات : «هذا هو تشريعكم ، آمنوا ، آمنوا، وإذا لم تؤمنوا ، هذا هو السيف الذى سيقطع الرأس» [١٨٥].

خاتمة وتقييم :

يتضح من خلال الدراسة المقارنة السابقة أهمية مؤلف آل أدورنى بالنسبة لتاريخ وحضارة تونس ؛ إذ أتت روايتهما عن تونس فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى/ النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى، هى أكمل المصادر الستة التى اعتمدت عليها الدراسة . وذلك على الرغم من أن مصادر الدراسة العربية تعد المصادر الأساسية لتاريخ وحضارة تونس فى تلك المرحلة الزمنية . هذا إلى أن آل أدورنى قُدر لهما قضاء أقل مدة فى مدينة تونس بالمقارنة مع أصحاب المصادر الأخرى.

فالقلصادى قضى فى تونس ثلاثة أعوام ونصف ، منها سنتان ونصف بين نوفمبر ١٤٤٤م وأبريل ١٤٤٦م شعبان ٨٤٨هـ- المحرم - ٨٥٠هـ- فى رحلة ذهابه إلى الأراضى المقدسة ، ثم قضى سنة أخرى من جمادى الآخرة سنة ٨٥٣هـ إلى جمادى الآخرة سنة ٨٥٤ هـ / أغسطس ١٤٤٩م- يوليو ١٤٥٠م- فى رحلة الإياب من الأراضى المقدسة إلى موطنه الأندلس . ولكن كل ما أورده عن تونس هو أسماء العلماء الذين اتصل بهم، وذكره لأحوالهم ومكانتهم العلمية، وما يدرسونه من علوم وأنواع الكتب وطرقهم فى التدريس والتعليم [١٨٦].

أما عبد الباسط بن خليل فقد أقام فى مدينة تونس حوالى عشرة أشهر فيما بين الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٦٦هـ/ الثامن عشر من أغسطس سنة ١٤٦٢م، وحتى التاسع والعشرين من شعبان سنة ٨٦٧هـ/ التاسع عشر من مايو سنة ١٤٦٣م ، وكذلك توقف فى تونس وقفة قصيرة سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٧م . وعن طريق التجارة وطد علاقة بالتجار فى تونس، واتصل برجال الدين والأطباء والشعراء، كما اتصل ببعض كبار الشخصيات التى استضافته أحيانا وهيأت له الإعفاء من الضرائب [١٨٧]. ومع ما تقدم فلم يفرد عبد الباسط بن خليل فصلا فى كتابه للحديث عن مدينة تونس وإنما جاءت معلوماته عنها عرضا من خلال الروايات التى دونها عن ذكرياته بها بين طيات كتابه . وقد تعلق معظم هذه الروايات بالنواحى الاقتصادية ، وفداء الأسرى المسلمين ، إلى جانب إشاراته إلى جنان تونس ومقابرها. ولقد أكدت تلك المعلومات صحة ودقة ما ورد فى مؤلف آل أدورنى.

أما ابن الشماع فعلى الرغم من أنه لم يكن غريبا عن مدينة تونس ، إذ عاش بها معظم حياته، وعمل قاضيا فى القضاء الحفصى ، فإن قصده من مؤلفه التاريخى هو شخصية السلطان «أبو عمرو عثمان»، وهذا ما جعله يطنب كثيرا فى سرده لتاريخ الفترة التى عاشها

السلطان «أبو عمرو عثمان»، وهو بذلك يصور المؤرخ الذى عاش فى ظل القصر ونعم بخيراته. فأخذ يلهج بهذه المسرات [١٨٨]. على أن ما سجله لم يزد عن ذكر بعض الأعمال والمنشآت التى أقامها هذا السلطان ، ومدى دلالة ذلك على حميد صفاته . فى حين جاءت المعلومات الخاصة بمدينة تونس نفسها سطحية للغاية لاتقارن بما ورد فى نص آل أدورنى .

وفيما يتعلق بالزركشى فقد ولد وعاش بتونس طوال عمره، وكان شاهد عيان للدولة الحفصية من خلال موقعه ككاتب وصاحب خطة عدل لها. وكان غرضه الأساسى من مصنفه التاريخى هو تدوين تاريخ تلك الدولة بتونس ، وخاصة الفترة الزمنية التى حكم فيها السلطان أبو عمرو عثمان ، والتى كان معاصرا ومعايشا لها. ومع ذلك فإن ما سجله الزركشى عن فترة حكم هذا السلطان ينصب على ذكر رجال دولته ، وما أمر أبو عمرو عثمان بإنشائه من مدارس وزوايا ومساجد وأسبلة . هذا فضلا عن الأحداث الداخلية للدولة . وأشهر الوفيات ومن عهد إليهم بتولى القضاء بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية . وبرغم ذلك فإن حجم المادة الخاصة بتونس وأحوالها جاء بسيطا أو يكاد يكون معدوما فى هذا المؤلف مما يظهر قيمة مؤلف آل أدورنى بهذا الشأن .

وبأتى الدور على ليو الإفريقى لنجد أنه أقام فى تونس نحو السنتين فيما بين عامى ٩٢٤-٩٢٦هـ / ١٥١٨-١٥٢٠م [١٨٩]. وكان مؤلفه الجغرافى أقرب المصادر العربية تشابها مع ما جاء فى كتاب آل أدورنى بشأن تونس إذ أفرد لها أكثر من فصل فيه. وقد ظهر من خلال الدراسة أن كلاً من نصى آل أدورنى وليو الإفريقى عن تونس يتشابهان فى بعض الأحيان تشابها يثير العجب . ولعل فى ذلك دليلا آخر على مدى دقة ومصداقية النص موضوع الدراسة ، وإن كان يجب الاعتراف بأن ما سجله آل أدورنى عن تونس يفوق بكثير ما سجله ليو الإفريقى .

وبالمقارنة مع المدد التى قضاها أصحاب هذه المصادر يتضح أن آل أدورنى لم يقضيا الشهر، ومع ذلك فقد سجلا كل ما يمكن تسجيله خلال هذه المشاهدة المباشرة أما ما خفى عنهما فقد استخلصاه من أفواه التجار الجنويين والبنادقة الذين رافقاهما فى جولاتهما فى تونس وضواحيها طوال إقامتهما فى المدينة . هذا إلى أن مدير جمرك تونس استقبلهما فى منزله ، وهيأ لهما مقابلة مع السلطان الحفصى «أبوعمرو عثمان» الذى منحهما خطاب توصية إلى ضباطه وموظفيه . وقد احتفظ أنسيلم أدورنو بالخطاب فى حوزته مترجما إلى اللاتينية ،

ويجري : بعد الثناء على الله والتحية على كل من يرى هذا الأمر الملكي، إلى قادتنا في الأرض والبحر، لتعلموا أننا نعهد إليكم بفارس ملك اسكتلندا – أنسيلم أدورنو– من إقليم الفلاندرز الذي قدم على سفينة لودوفيكو الجيبرتي ، ولأجل نبالته يجب أن تعاملوه بشكل مشرف لشخصه وممتلكاته وأتباعه وكل الذي يتطلع إليه » [١٩٠].

ترى ما الذي جعل السلطان الحفصي يوافق على استقباله، ومنحه هذا الأمان، ويأمر موظفيه وضباطه بحسن تلقيه ، وبفتح الأبواب المغلقة أمام الأجانب في وجهه؟ ، لانجد إجابة على هذا التساؤل. ولكن نتيجة ذلك نجدها في قول آل أدورنو: «ولقد فكرنا في زيارة هذه البلاد الضخمة بالطريق البري، ولكننا أقلعنا عن مشروعنا هذا بسبب العربان وقطاع الطرق[١٩١]، فخوفا منهم لم يكن السكان يجرؤون على السفر . وكذلك بسبب الطاعون الذي يعيث في عدة أقاليم داخلية. ولقد كنا قانعين بالذي عرفناه لأنه كان يشابه الأشياء الحبوبة في البلاد، وكذلك ذكر التجار أننا شاهدنا في المملكة أشياء كثيرة جدا لم يسبق لأحد من المسيحيين الأجانب رؤيتها، وبفضل أمان المرور الذي منحه لنا السلطان استطعنا أن نخرج عدة مرات من تونس حتى مسافة عشرين ميل منها » [١٩٢].

وقد يستغرب المرء لدقة البالغة لهذا النص إلى الدرجة التي تجعله في كثير من الأحيان المصدر الوحيد للوقوف على كثير من الجوانب في تونس في تلك الحقبة الزمنية . ولكن هذا الاستغراب يزول إذا علمنا أن آل أدورنو لم يعتمدا على الذاكرة وحدها، وإنما أيضا على المذكرات فيما سجلاه عن تونس . فقد كان جان أدورنو يقوم– كما أكد بنفسه– بتدوين يوميات الرحلة وملاحظاته في مفكرة ، وفي ورق انتقده بداية من سينا، وإن كان رهبان دير القديسة كاترين قد زودوه بورق من عندهم [١٩٣]. أضف إلى هذا مبادرة جان أدورنو بكتابة نص الرحلة بمجرد نهايتها مما، لم يترك أي مجال للسهو أو النسيان في النص. وبعد العودة من رحلة الشرق عاش جان ستة أشهر في بريج في منزل والده، وخلال هذه الإقامة كتب– كما ذكر هو بنفسه– رواية السفر. وفي الأيام الأولى من شهر أكتوبر سنة ١٤٧١م / ربيع الآخر ٨٧٦ هـ، صاحب أبويه حتى مدينة كاليه Calais ، حيث كانا في طريقهما إلى اسكتلندا. ومما لاشك فيه أن أنسيلم أدورنو حمل معه تلك الرواية التي كتبها ابنه [١٩٤].

وفي ضوء كل ما تقدم يبدو من المؤكد أن الغرض من الرحلة – ولاسيما ما يتعلق منها بتونس على الأقل– لم يكن مجرد معلومات تساعد في الإعداد لحملة صليبية . يؤيد هذا أن

زيارة آل أدورنو إلى تونس جاءت عارضة ولم يكن مخططا لها سلفا. أضف إلى ذلك أن أنسيلم أدورنو أهدى رواية سفره إلى جاك الثالث ملك اسكتلندا ، وليس إلى سيده شارل الجسور دوق بورجوني الذي كان قد أعلن عزمه على القيام بحملة صليبية ، مما يظهر بما لايدع مجالا للشك أنه لم يكن مكلفا بالتجسس لحسابه. ورغم هذا يمكن القول بأن آل أدورنو قد استفادا من مشاهدتهما، وأعدا هذا الكتاب لكي يكون مرشدا لجاك الثالث ملك اسكتلندا ، آملين أن يشجعه هذا الكتاب وما حواه من تفصيلات من مختلف الأنماط على القيام بعمل عسكري. إذ ذكرا في مقدمة كتابهما أن الغرض منه هو حث ملك اسكتلندا على محاربة المسلمين [١٩٥]، مما يجعلنا نخلص إلى القول بأن آل أدورنو قدما للشرق– ومن جملته تونس بطبيعة الحال– كزائرين ، وعادا منه بفكر الغازي الصليبي.

ويدفع كل هذا إلى عدم مسايرة جاك إير محقق الرحلة فيما ذهب إليه من أن آل أدورنو كانا بخلاء في معلوماتهما التي قد تساعد في الاستعداد لحملة صليبية . فما ورد في الكتاب من تفصيلات دقيقة وبخاصة ما تعلق منها بتونس ، إنما تعد– إن صح القول– معلومات استخبارية من الدرجة الأولى ، لايمكن إغفالها بأي حال من الأحوال عند الإعداد لأي حملة صليبية .

بقيت نقطة جديرة بالذكر وهي أن آل أدورنو – مع دقتهما فيما أورداه عن تونس– إلا أنهما كانا على العكس من ذلك بالنسبة لمعلوماتهما التي نقلوها عن الإسلام للأوروبيين ، وإن كان ذلك لايعني أن كل ما أورداه بهذا الشأن كان غير صحيح على طول الخط .

ومؤجز القول أن نص رحلة آل أدورنو وما سجل به عن تونس إنما هو نموذج متفرد لوثيقة أوروبية– وإن كانت غير رسمية– عن تونس في تلك الفترة الزمنية. وأن هذا المؤلف يعتبر من أدق وأهم ما سجل عن تونس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر/ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، إن لم يكن أهمها على الإطلاق . ومن هنا جاء اهتمامنا بإلقاء الضوء عليه لإثراء المكتبة العربية بمصدر قد يكون مجهولا أو غير متاح للبعض منا .

الحواشي والمصادر والمراجع

١- Brunschivig, R., Deux Récits de Voyages en Afrique du Nord au XV Siècle, Paris 1936 .

٢- Adorno , A., Itinéaire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471), Texte édité , traduit et annoté par. Jacques Heers et Georgene de Groer , Paris, 1978 .

٣- Brunschivig, R., Op. cit., p., 147 .

٤- الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تحقيق وتعليق محمد ماضور ، ط٢ ، تونس (المكتبة العتيقة)، ١٩٦٦م، ص أ-ب .

٥- Adorno, A., Op. cit., pp. 7,433 .

٦- Ibid, p. 7 .

٧- Adorno , A., Op. cit., pp. 1,7-8 . Cf. also: Brunschivig, R., Op. Cit., pp. 139-40 .

٨- Adorno , A., Op. cit., pp. 8, 433 . Cf. also: Brunschivig, R., Op. cit., p. 140 .

٩- Adorno, A., Op. cit., p. 15 .

١٠- Adorno, A., Op. cit., p. 8 . Cf. also: Brunschivig, R., Op. cit., p. 140 .

١١- Adorno . A., Op. Cit., p. 8. Cf. also: Brunschivig, R., Op. Cit., p. 141; L. St., Anselme Adornes ou un Voyageur Brugeois au xv Siècle , dans Messager des Sciences Historiques ou Archives des Arts et de la Bibliographie de Belgique, Gand, 1881, pp. 1.218.38-41 .

١٢- Adorno, A., Op. cit., pp. 6,8-9, 439,447 .

١٣- Adorno , A., Op. cit. pp. 8, 491, 493. Cf. also: Brunschivig, R., Op. cit., p. 146 .

١٤- Adorno, A., Op. cit. p. 2 . Cf. also: Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938 , pp. 187, 189-90 .

١٥- Adorno , A., Op. cit., pp. 2-3 ; Cf also: De Saint-Genois, J., Les Voyageurs Belges du XIII anXVII Siècle, 2 tomes, Bruxelles, (S.D), t.I., pp. 20-5; Atiya, A.S., Op. Cit., pp. 190-2; Brunschivig, R., Op. cit., p. 143 .

١٦- في الواقع إن اهتمام الفكر الصليبي بتونس لم يكن بالأمر الجديد فقد اعتقد الصليبيون بداية من الحملة الصليبية الثامنة الفاشلة التي قادها لويس التاسع ضد تونس سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ بأن سقوط تونس في يد الصليبيين من شأنه أن يؤدي إلى الاستيلاء على مصر بسهولة ، وفصل المغرب عن المشرق الإسلامي. وتكررت المحاولات الصليبية للاستيلاء عليها كما وضح في الحملة على المهدية سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ، والتي باءت بدورها بالفشل كسابقتها. ولم يتوقف اهتمام الأوروبيين بتونس. فقد اعتقد بعض المفكرين الصليبيين بأن العمليات التبشيرية قد تنجح فيما لم تنجح فيه العمليات العسكرية ، فقامت العديد من المحاولات التبشيرية لتنصير سكان تونس والتي لم يقدر لها بدورها سوى نجاح محدود . انظر : محمود سعيد عمران : شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس (١٢٦٦-١٢٨٥) ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد السادس ، المجلد الأول، مارس ١٩٩٨، ص١٧٩؛ علي بن محمد عبدة القاصدي: الراهب الفرنسيسكاني ويرندلول ومحاولاته نشر النصرانية في شمال افريقية، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد السادس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٨، ص١٤٤-١٦٠ .

١٧- De Saint- Genois, J., Op. cit. t.I. p. 30 ; Brunschivig, R., Op. Cit., pp. 144-5 .

١٨- Adorno, A., Op. cit., pp. 3-4 .

١٩- Adorno , A., Op. cit., pp. 1,39-57, 433, 439 . Cf. also: De Saint- Genois, J., Op. cit., t.I. p. 31 ; Brunschivig, R., Op. cit., p. 141 .

٢٠- Adorno, A., Op. cit., pp. 57 -63 . Cf. also: De Saint- Genois, J., op. cit., t. I. p. 31 ; Brunschivig , R., Op. Cit., p. 141 .

٢١- Adorno, A., Op. cit., pp. 139-147 .

٢٢- القلصادي : ولد علي بن محمد بن علي القرشي البسطي أبو الحسن الشهير بالقلصادي بمدينة بسطة الأندلسية سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م ، وبها نشأ وتلقى دراسته الأولى. وفي سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، ابتدأ القلصادي رحلة علمية إلى المراكز الثقافية الشهيرة في عصره بالمغرب والمشرق . وكانت تونس أحد المراكز العلمية التي حط بها. انظر : القلصادي: رحلة القلصادي لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي المتوفى بباجة افريقية سنة ٨٩١هـ دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان تونس (الشركة التونسية للتوزيع) ١٩٧٨م، ص٣٠-٣٥ ، ٧٢-٧٣ .

٢٣- عبد الباسط بن خليل : ولد عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي في سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، من أب معروف في التاريخ الإداري للدولة المملوكية. وهو خليل بن شاهين الذي شغل منصب الوزارة سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م ، إلا أن ابنه عبد الباسط لم يتبع خطاه في الطريق الإداري، فقد اتجه إلى جانب التجارة، ولم يمنعه ذلك عن دراسة العلوم الدينية والطب. وتوفي سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، عن عمر يناهز الرابعة والسبعين سنة . ولقد دفعته تجارته ودراسته إلى القيام برحلة إلى شمال إفريقية والأندلس ليدرس الطب على أيدي الأساتذة المشهورين في المغرب . ومن أجل ذلك رحل عن الإسكندرية في شوال ٨٦٦هـ/ يوليو ١٤٦٢م . ليعود إليها في شوال ٨٧١هـ/ مايو ١٤٦٧م ، في نهاية رحلة استغرقت خمس سنوات قضى منهم بضعة شهور في تونس . ولقد سجل عبد الباسط رواية سفره مشافهة ضمن مؤلف تاريخي عام باسم «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم». انظر : عبد الباسط بن خليل : الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص٦٠٦ . ولقد نشر روبير برونشفيج الجزء الخاص بتونس في هذا الكتاب بعنوان :

Brunschvig , R., Deux Récits de Voyages en Afrique Afrique du Nord au XV Siècle, Paris , 1936 .

٢٤- ابن الشماع : اشتغل أبو عبدالله محمد بن الشماع بالقضاء في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان الذي امتد حكمه فيما بين ٨٣٩-٨٩٤هـ - ١٤٥٣-١٤٨٨م . وأثناء قيامه بمهامه ألف سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٧م، كتاب الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية . انظر : ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم د. الطاهر بن محمد المعموري، تونس (الدار العربية للكتاب) ١٩٨٤م، ص١٩-٢٠ .

٢٥- الزركشي : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ المعروف بالزركشي ، نسبه إلى جده اللؤلؤ هو أعلى نسب له، مما يدل على أن جده مملوك مجهول الأصل تونسي وسلك في تكوين عائلته وتسمية بنيه مسلك أبناء البلاد، أما مؤرخنا فولادته بتونس وعيشه لايشك فيهما لعمله الشافي للرق. ولقد كانت ولادته بتونس بحدود سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م . وفي العاصمة الحفصية تعلم على أيدي شيوخها الفقه وشروحه ورواية الأخبار . ولقد شغل الزركشي خطة عدل تانوية مختصة بالدولة الحفصية ، وكان أحد كتابها . وآخر ما يعرف عنه أنه كان لايزال بحيا حتى سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م . ولقد سجل الزركشي معارفه ومشاهداته في تونس في كتابه «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» . وهو تاريخ موجز للمغرب العربي في القرون ما بين السادس إلى العاشر الهجري / الثاني عشر إلى الخامس عشر الميلادي، وهذا التاريخ مرتب على السنين . راجع : الزركشي : المصدر السابق ، ص أ-ب .

٢٦- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليو الإفريقي) : ولد بن محمد الوزان حوالي عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م . بمدينة غرناطة ، وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين. ولقد لفت نبوغه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي، فقربه إليه وأسند إليه مهام سياسية خطيرة . وكانت هذه المهام السياسية بالإضافة إلى النشاط التجاري لأسرته هي التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه ، وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يومية هدت أساس كتابه الجغرافي «وصف إفريقيا» . وكانت رحلته إلى تونس في طريق الرجوع للمغرب آخر رحلاته، ويبدو أنه مكث بها حوالي السنتين ، إذ نجده في عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م. يبحر من تونس ليعود إلى المغرب ، ولكن سوء حظه أوقعه في أيدي القراصنة الإيطاليين فأسروه بالقرب من جزيرة جربة . وأخذوه إلى نابولي، ثم قدموه هدية للبابا ليون العاشر Leon X في روما الذي سر بهذا العالم العربي وتوثقت الصلة بينهما. ولعل من أسباب هذا التقارب ذكاء الحسن الوزان، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فتظاهر بالتنصر بالمعمودية وحمل اسم حاكمه وصار يدعى ليون الإفريقي . وإن كان قد استمر على الإسلام طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في إيطاليا . ولقد شغل خلالها بتدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة ، ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا، إضافة لما وضعه من مؤلفات باللغة الإيطالية أو اللاتينية في التاريخ والجغرافيا واللغة، وتتصل موضوعاته اتصالا وثيقا بالمسلمين وبلادهم ولسانهم . وفي سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠ م، اختفى الحسن الوزان من روما في ظروف غامضة ، وتوجه إلى تونس حيث عاد لحياته الإسلامية الأولى . وهنا يسدل الستار عليه، ولا يدري هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس ، كذلك نجهل غير المكان تحديد مكان وتاريخ وفاته . إلا القول بأنه مات بعد عام ٩٥٢هـ/ ١٥٥٠م . ويعد كتاب وصف إفريقيا ، القسم الثالث من كتاب الجغرافيا العامة الذي ألفه الحسن الوزان بالعربية، ثم ترجم المؤلف هذا القسم إلى الإيطالية عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م، بمدينة روما. انظر : ليون الإفريقي: وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي ، ترجمه عن الفرنسية د. محمد حجي ، ود. محمد الأخضر، ط٢ ، بيروت (دار الغرب الإسلامي) ١٩٨٣م، ص٧-١٩ .

٢٧- Adamo , A., Op. cit., pp. 99-101 .

٢٨- Ibid, p. 101 .

٢٩- ذكر عبد الباسط بن خليل اسم أحد أبواب المدينة وهو باب الزلاج. راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٢ .

٣٠- Adonno . A., Op. cit., p. 101 .

٣١- Adonno . A., Op. cit. pp. 105-7 .

٣٢- يرجع بناء هذه القلعة إلى العصر الأغلبي، ولكن السلطان عبد المؤمن عند استيلائه على مدينة تونس، قد أعاد بناءها تماما بيرجها المثلثة الزوايا وفصلها عن المدينة بسور ، وواصل جهوده في هذا المجال السلطان أبو زكريا في الربع الثاني من القرن الثالث عشر . ثم أتمها ابنه المستنصر . وكانت القصبة بمثابة مدينة حكومية صغيرة ملتصقة بالمدينة الكبيرة، وكانت تقع على ربوة قليلة الارتفاع تمكن في أن واحد من مراقبة المدينة ومسالكها الوسطى والشمالية. راجع : روبار برونشفيك : المرجع السابق، ص٣٧٣ .

٣٣- كانت القلعة تفضي إلى المدينة من الجهة الشرقية بواسطة باب يحمل اسم تنجيس وهو ما يعني البربرية باب الغار. كذلك أشير إلى ثلاثة أبواب أخرى متفاوتة الأهمية في اتجاه الجهات الأصلية الثلاث المتبقية، هي باب الجبلية في الشمال الذي كان يفضي إلى خارج القصبة، وباب القدر في الغرب وهو باب مستتر يفضي إلى البادية، وفي الجنوب كان يوجد باب يفضي إلى الربض لا يعرف اسمه، وقلما كان يفتح لأنه كان مخصصا للسلطان وللحاشية الرسمية رجع: الزركشي : المصدر السابق ، ص١٤٢ ، ١٤٧ . وكذلك : روبار برونشفيك : المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٤ .

٣٤- Adonno , A., Op. cit., p. 107 .

٣٥- دأبت الدول المتعاقبة التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري، على استخدام عناصر من المرتزقة المسيحيين للفصل كجنود في صفوف جيوشها . وكان مرجع ذلك طريقة القتال عند هذه العناصر التي تعتمد على أسلوب الشهامة في الزحف . لأن أسلوب القبائل البربرية اعتمد على الكر والفر. فضلا عن عدم ثقة حكام المغرب في بعض العناصر المحلية وخشيتهم للتعرض للاغتيال في حال استخدام هذه العناصر المحلية كحرس خاص لهم. انظر : رضوان محمد رضوان البارودي: عناصر المرتزقة في الجيوش المغربية منذ القرن السادس الهجري حتى القرن الثامن الهجري، بحث منشور ضمن أبحاث ندوة بلاد المغرب وعلاقاته بالمشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد / التاسع الهجري ، العدد الخامس من مجلة حصاد (منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة) ، القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص٢٤٧-٢٤٨ . ولقد أكد ليون الإفريقي هذا قائلا: «ويوجد في هذا الربض حارة تكون هي الأخرى شبه ربض صغير يسكنه نصارى تونس الذين يستخدمون في حرس الملك أو يزاولون حرفا لم يعتد المسلمون ممارستها ». انظر : ليون الافريقي: المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٤ .

٣٦- Adonno. A., Op. cit., pp. 107-9 , 135-6 .

٣٧- أكد ليون الإفريقي هذه الحقيقة في قوله : «ولكن العرب المقيمين بالصحارى المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعا مثل سادتهم. فكل أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يرودها على قبيلته ليتفي الفتن ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية. وحب هؤلاء العرب اللباس الجميل، واكتساب الخيل الفارهة المسرجة، والخيام الكبيرة الرائعة . ومن عاداتهم أن يغيروا صيفا إلى ضواحي تونس ليتزودوا منها . وفي شهر أكتوبر يقتنون كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس وسلاح، ويرجعون إلى الصحراء ليقضوا فيها الشتاء». انظر : ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج ١، ص٦٣ .

٣٨- ظهرت حركة العريان هذه مع تقلد السلطان عثمان مقاليد الحكم سنة ١٤٣٤م/ ٨٣٩هـ، وعادت هذه الحركة بقوة سنة ١٤٥٧م / ٨٦١هـ. وكذلك سنة ١٤٦٣م / ٨٦٧هـ . ولقد واجه السلطان عثمان هذا الخطر بحزم وعزيمة . ولكن هؤلاء الأعراب الذين كانوا قهروا إلى حين كانوا يكنون حقدا دفينا ضد السلطان الذي لم يستطع وضع حد لجميع أعمالهم التخريبية. ولامتهم من جعل الطرقات الداخلية آمنة . روبار برونشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ٢ج ، بيروت (دار الغرب الإسلامي) ١٩٨٨م، ج١، ص٢٧٣، ٢٨٧-٢٨٨ .

٣٩- لم يصف آل أدورني ملابس نساء هؤلاء العربان أصالبون الإفريقي فقد وصفها بقوله : «أما نساء هؤلاء العرب فيرتدين لباسا معينا حسب عادة البلاد، وهو قميص واسع الأكمام ، يجعلن فوقه خمارا أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن عقبة على أكتافهن من أمام وخلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية. ويضعن أقراطا عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن. وأساور في أيديهن وخلاخل في أرجلهن ». ويضيف : «وتضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوبا صغيرا مثقوبا أمام العينين». انظر ليون الإفريقي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٤ .

٤٠- Adonno .A., Op cit. p. 141 .

٤١- بقي الجيش الحفصي مدة طويلة بدون قلاقين، ولم يبدأ هذا السلاح في الظهور في تونس إلا في عهد أبي عمرو عثمان . راجع : روبار برونشفيج : المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٥ .

٤٢- أشار ابن القنفذ أن الجيش الحفصي في عهد الأمير أبي زكريا ، (٦٢٥-٦٤٧هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٩م) بلغ سبعين ألف فارسا . راجع : ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨م، ص١١٣ .

-٤٣ Adorno. A., Op. cit., pp. 133, 135, 137 .

-٤٤ Adorno . A., Op. cit., p. 141 .

-٤٥ Ibid, p. 75 .

-٤٦ Ibid, p. 147 .

-٤٧ Ibid. p. 131 .

٤٨- ذكر ليون هذه الأسوار ووصفها بأنها جميلة. ولقد أنشأ هذا السور الأغالبة في القرن التاسع الميلادي اضافة إلى جامع رباط وقصر في أعلى جزء من الجانب الجنوبي الغربي للسور، حيث توجد قصبة المدينة. راجع : ليون الافريقي : المصدر السابق ، ج٢، ص٨٣ . وكذلك : رودلف برونشفيك المرجع السابق ، ج١، ص٣٣٨ .

٤٩- وصف ليون الإفريقي هذه القصبة بأنها كبيرة وحصينة . انظر : ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٨٣ .

-٥٠ Adorno . A., Op. cit. p .143 .

-٥١ Adorno , A., Op . cit., p. 131 .

وصف ليون الإفريقي هذه الأسوار بأنها عالية متينة . انظر : ليون الإفريقي : المصدر السابق : ج٢، ص٨٧ .

٥٢- عرف هذا الباب بباب البحر على بعد نحو نصف ميل من بحيرة قناة حلق الواد ، وكان يفتح على مرسى الميناء أو البحيرة الذي كان يمتد بين باب البحر والبحيرة، وكانت هذه المنطقة تشتمل بصفة خاصة على فنادق التجار الأجانب . راجع : ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٤ .

٥٣- ذكر عبد الباسط بن خليل أنه ركب من مدينة وهران في سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م، سُفينة جنوية عظيمة الحجم تقلته إلى مدينة تونس كانت محملة بالجرخ للشاجرة فيه، وكانت قد قدمت من بلاد اقلتة ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط . راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق . ص٦٧ . هذا ، ويجب الإشارة أن العلاقات بين تونس وجنوة قد تميزت في تلك الآونة بعلاقات رسمية متواصلة ، مع تشوب بعض الخلافات بسبب القيام بأعمال قرصنة من كلا الجانبين . ولقد عقد الجانبان معاهدة بينهما في التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٤٣٣م / الرابع من ربيع الأول سنة ٨٣٧ هـ، لمدة عشرين عاما، وجددت المعاهدة بينهما في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٤٤٥م / التاسع والعشرين من رمضان سنة ٨٤٩هـ، لمدة اثنا عشر سنة ، وثانية في الخامس عشر من مارس سنة ١٤٦٥م / السادس عشر من رجب سنة ٨٦٩هـ، لثلاثين عاما قمرية أخرى. راجع :

Mas- Latrie (de.) , Traités de Paix et de Commerce Concernat les Relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale au Moyen - Age, Paris, 1866, pp. 134-144, 151 .

وكذلك : رودلف برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٢٨٣-٢٨٤ ، ٢٩٣-٢٩٤ .

٥٤- أشار عبد الباسط بن خليل أنه شاهد في شعبان سنة ٨٦٧هـ/ أبريل سنة ١٤٦٣م، شواني البندقة يرسم الإتجار وحمل التجار ببضائعهم من تونس إلى الإسكندرية . انظر : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٥-٣٦ . ومما يجدر ذكره أن سفن البندقية كانت تتردد على الموانئ المخصصة للربط بينها وبين مصر وجزر الحوض الشرقي من البحر المتوسط من جهة ، وبينها وبين ايطاليا من جهة أخرى . هذا. ولقد تمكن فرانسيسكاري دوج البندقية من عقد معاهدة صلح بينه وبين السلطان الحفصي عثمان في الثلاثين من مايو سنة ١٤٣٨م / الخامس من ذي الحجة ٨٤١هـ، لمدة عشرين سنة، ثم لم يلبث أن قام في التاسع من أكتوبر سنة ١٤٥٦م / التاسع من ذي القعدة سنة ٨٦٠هـ، بتجديد تلك المعاهدة لمدة ثلاثين عاما قمرية أخرى. انظر :

Mas - Latrie (de.) , Op. cit., pp. 250-6 .

وكذلك : رودلف برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٢٨١-٢٨٢ ، ٢٩٣ .

٥٥- عقدت فلورنسا وبيزا معاهدة صلح مع تونس في الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٤٤٥م / الخامس عشر من المحرم سنة ٨٤٩هـ، وذلك لمدة احدى وثلاثين سنة شمسية ، بواسطة السفير بالديناشيو دانتونيو دلي إيزي Baldinaccio d' Antonio degli Ertl انظر :

Mas- Latrie (de.) Op. cit., pp. 355-360 .

وكذلك : رودلف برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٢٨٥-٢٨٦ .

٥٦- أشار مسلاتري إلى وجود خطاب بتاريخ الثاني من ديسمبر سنة ١٤٩٢م / التاسع من جمادى الآخرة سنة ٨٩٧ هـ، أرسله سادة برشلونة إلى أبي عبدالله بن عثمان ملك تونس يطالبونه فيه بحسن معاملة العديد من التجار الكتلان الذين سيتجهون إلى مملكته للتجارة ، ويؤكدون للملك على حسن الاستقبال الذي سيجده رعاياه من التجار العرب في برشلونة . انظر :

Mas- Latrie (de.) , Op. cit., p. 334 .

-٥٧ Adorno, A., Op. cit. p. 103 .

٥٨- أكد ليون الإفريقي هذا في قوله : «وتمتاز مدينة تونس حقاً بجمالها الفائق، ونظامها الرائع. لكل من أرباب الحرف مرتفعهم الخاص». انظر : ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٤ .

٥٩- اصطفت معظم هذه الأسواق حول جامع الزيتونة الذي كان يشغل قلب المدينة . راجع : روبار برونشفيك: المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٦ .

٦٠- Adorno , A., Op. cit. p. 101 .

٦١- لم يحدد آل أدورنو هذه المشاجر ، ولكن ليون الإفريقي فسر ذلك في قوله : «وتضم بعض أسواق تونس عدداً كبيراً من تجار القماش ، الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كما تضم غيرهم من التجار والصناع، كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر ، وتجار العطور والحرير والخياطين والسراجين والفرائين والفاكهانيين واللبانين والخبازين (صانعي الفطائر) والقصابين الذين يذبحون الخرفان أكثر من غيرها لاسيما في الربيع والصيف، إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق ولا فائدة في ذكرها». انظر : ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٥ .

٦٢- Adorno , A., Op. cit., p. 123 .

٦٣- كانت تجري في الربضين الشمالي والجنوبي لمدينة تونس أهم المعاملات التجارية في أسواق يومية وأسبوعية ، في ساحات رحبة حيث يجد الناس والدواب راحتهم ، وتعرض البضائع في الهواء الطلق. راجع : روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٣٧٨ .

٦٤- Adorno, A., Op. cit., p. 109 .

٦٥- بلغ عدد حوانيت العطارة في تونس سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، ما يزيد عن سبعمائة حانوت وفق ما ذكره ابن الشماع. راجع : ابن الشماع : المصدر السابق، ص٩١ .

٦٦- امتدت حوانيت باعة العطور والتوابل على طول واجهة جامع الزيتونة الشمالية ، وقد بناها السلطان أبو زكريا». راجع : ابن الشماع : المصدر السابق ، ص٥٦-٥٧ . وكذلك : روبار برونشفيج: المرجع السابق، ج١ ، ص٣٦٧ .

٦٧- Adorno , A., Op. cit., p. 121 .

٦٨- Ibid, p. 115 .

٦٩- ذكر ليو الإفريقي في هذا المجال : «وتوجد خارج تونس بساتين بديعة تنتج فواكه عجيبة بكميات قليلة لكنها في غاية الجودة . وهناك عدد لايحصى من البساتين المغروسة بالبرتقال والليمون ، والورد

وغيره من الأزهار الجميلة، خصوصاً في مكان يدعى الباردو حيث بساتين الملك وقصوره الفخمة البهية بمختلف التحوت والرسوم الجميلة. ويحيط بالمدينة على مسافة أربعة أميال ستة أميال بساتين زيتون تنتج كمية عظيمة من الزيت». راجع ليون الإفريقي: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٧ . وأشار عبد الباسط بن خليل في هذا المجال أنه شاهد في جزيرة جربة كروم وزيتون وغنم كثير. راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٦ .

٧٠- أوضح ليون الإفريقي أن مزارع أشجار التين هذه فضلاً عن مزارع للزيتون كانت توجد خارج مدينة سوسة . راجع : ليون الإفريقي: المصدر السابق : ج٢، ص٨٣ .

٧١- Adorno , A., Op. cit. p. 147 .

٧٢- Ibid , p. 113 .

٧٣- أورد القلصادي بشأن جزيرة جربة أنها كانت مزروعة بالنخيل والزيتون والتفاح ، واختصت كذلك بلين أصوافها . وأضاف بدوره عبد الباسط بن خليل أنها كانت خصبة جداً ذات كروم وزيتون وغنم كثير. انظر : القلصادي: المصدر السابق: ص١٢٣-١٢٤؛ عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق ، ص٣٦ .

٧٤- Adorno , A., Op cit., p. 145-7 .

٧٥- Ibid, p. 129 .

٧٦- يبدو أن اعتقاد آل أدورنو باستلاك سلطان تونس لكل حوانيت المدينة كان خاطئاً ، ومع ذلك فقد أكد الزركشي ما ذكراه من أن هذه الحوانيت والأسواق كانت تمثل مصدراً هاماً من مصادر الدخل السلطاني بما يفرض عليها من ضرائب . ولقد صنف الزركشي أنواع المجابي التي كانت تفرض على حوانيت وأسواق تونس في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز حوالي سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، قائلاً : «قسمتها مجبي سوق الرعادنة، وكان قدره ثلاثة آلاف دينار ذهبا لي كل عام إذ كان كل من اشترى شيئاً من أنواع الأمتعة واللباس يغرم نصف دينار ذهباً، ومجبي فندق الملح وقدره ألف دينار ذهبا ونصف الألف، ومجبي فندق البياض وقدره ألف دينارا بهذا، ومجبي قائد الأشغال وقدره ثلاثة آلاف دينارا ذهبا ، ومجبي سوق القشاشين وقدره مائة دينار ذهبا ، ومجبي سوق الصفارين وقدره خمسون دينارا ذهبا، ومجبي سوق العزافين وقدره خمسون دينارا ذهبا، ومجبي الصابرين وقدره ستة آلاف دينارا ذهباً». انظر : الزركشي : المصدر السابق : ص١١٦-١١٧ .

٧٧- Adorno , A., Op. cit., p. 133 .

٧٨- الدوكات : تم ضرب هذه العملة في البندقية لأول مرة سنة ١٢٨٤م / ٦٨٣هـ، وكان وزنها ثابتا بقدر متوسطه بحوالي ٥١ ، ٣ جراما ذهبا . ولقد سادت الدوكات عالم التجارة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى لوزنها الثابت ونقائها. ولقد وصفها أحد الباحثين بأنها «دولار العصور الوسطى» مقارنة بما يمثله الدولار من مكانة في عالم الاقتصاد المعاصر. كذلك فقد سادت الدوكات الشرق المملوكية بداية من سنة ١٣٩٩م / ٨٠١هـ لأن العملات المملوكية كان يعوزها النقاء والوزن الثابت . ولقد بذل السلاطين المماليك جهوداً كبيرة لإنهاء هذه السيادة بإصدار عملة مملوكية جديدة في مواجهة الدوكات . وتوجت تلك المحاولات بإصدار الدينار الأشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي سنة ١٤٢٥م / ٨٢٩هـ، والذي حل بنجاح محل الدوكات كعملة ذهبية أولى في سلطنة المماليك حتى نهايتها. ولمزيد من التفاصيل عن الصراع بين الدوكات البندقية والدينار المملوكي ومحاولة كل منهما الاستئثار بعالم الاقتصاد في دولة المماليك ، انظر :

Bacharach , J. L, The Dinar versus the Ducat, in , International Journal of Middle East, vol. 4 , 1973, pp. 77-96 .

٧٩- Ibid, pp. 105-7, 139 .

٨٠- ذكر عبد الباسط بن خليل عن جزيرة جربة إن التجار كان يوسقون منها الزيت الكثير وأنواع الأكسية إلى السفن وأنجع: عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٦ .

٨١- Adorno, A., Op. cit., p. 131 .

٨٢- ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٩٥ .

٨٣- كانت دار السكة تابعة لقصر السلطان خلال القرن الرابع عشر الميلادي. راجع: روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٣٧٩ .

٨٤- ذكر عبد الباسط بن خليل الذي زار تونس قبل آل أدورني ببضعة سنوات أن الشاير والرداهم كان مضروبا عليها اسم المشوكل على الله عثمان ملك تونس . راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق ، ص١٧ .

٨٥- سمى ليون الإفريقي الدينار التونسي بدوره باسم «دوبرلي» أي مضاعفة . راجع ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٥٧ ، ٧٥ .

٨٦- يبدو أن قيمة تلك العملة كانت متغيرة إذ يذكر ليون الإفريقي بعد ذلك التاريخ بأقل من نصف قرن

وتحديدا أواخر سنة ١٥١٦م/ ٩٢١هـ، أن الدينار الذي كان يضربه ملك تونس كان يزن أربعة وعشرين قيراطا أي ما يعادل دوكة وثلث مما يروج منها في أوروبا. راجع ليون الأفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٨١ .

٨٧- أخطأ أدورني في تقدير قيمة العملة الفضية إذ أورد معاصرهما عبد الباسط بن خليل أن ستة باصري فضة كانت تعادل ربع دينار في تونس، أي أن الدينار التونسي كان يساوي أربع وعشرين باصري. وهو ما أكده ليون الإفريقي الذي تدهورت قيمة هذه العملة الفضية في زمنه إذ أشار أن هذه العملة الفضية الرديئة الشكل كانت ثلاثين أو اثنتين وثلاثين منها تعادل ديناراً واحداً . انظر : عبد الباسط بن خليل - المصدر السابق، ص٢٨ ؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨١ .

٨٨- Adorno , A., Op. cit., p. 141 .

٨٩- Ibid, p. 133 .

٩٠- Ibid. p. 119 .

٩١- أشار ليون الإفريقي إلى كثرة سكان تونس وكثافتهم ولكنه لم يحدد أعدادهم . انظر : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٥ .

٩٢- روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٣٨٩ .

٩٣- لم يسهب ليون الإفريقي في وصف ملابس التوانسة كما فعل آل أدورني غير أنه ذكر أن الصناع والتجار والفقهاء وجميع من يتقلد وظائف يرتدون لباسا محتازاً ، ويضعون على رؤوسهم عمامة مكسوة بقماش طويل، وكذلك العسكريون وأصحاب الحاشية. إلا أنهم لا يضعون قماشا على العمامة. راجع : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٥ .

٩٤- Adorno , A., Op. cit., p. 119-21 .

٩٥- ذكر ليون الإفريقي عن نساء تونس أنهن يرتدين لباسا حسنا ويتأنقن في زينتهن ، ويسترن وجوههن عندما يخرجن بوضع خمار يسمى سفساري على عصابة عريضة جدا يعصبن بها جباههن بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عمالقة، لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن حتى إن العطارين هم دائما آخر من يغلقون دكاكينهم . راجع : ليون الإفريقي: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٨ .

٩٦- Adorno , A., Op. cit. 121 .

٩٧- Ibid., p. 147 .

٩٨- Adorno , A., Op. cit., p 87 .

٩٩- ذكر ليون الإفريقي في هذا الشأن : «إن البؤس الذي يلتبك بضعفاء الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الانجرار بفتياتهن بأبخس الأثمان». انظر ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢، ص٧٧-٧٨ .

١٠٠- Adorno, A., Op. cit. Loc. Cit .

١٠١- أشار ابن القنفذ ، وابن الشماع إلى وجود مكاتب لتعليم الأطفال في تونس . انظر : ابن القنفذ : المصدر السابق ، ص١١٤ ؛ ابن الشماع : المصدر السابق ، ص٥٦ .

١٠٢- Adorno , A., Op. cit., p. 93 .

١٠٣- Ibid., 95 .

١٠٤- Ibid. pp. 89 , 107-9, 135-6 .

١٠٥- ذكر ابن القنفذ، وابن الشماع أنه في سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م : «جعلت الشكلة لليهود ويرغ في ثلثهم». راجع : ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١١٧ ؛ ابن الشماع : المصدر السابق، ص٦٦ .

١٠٦- Adorno , A., Op. cit., pp. 109-11 .

ويذهب روبير برونشفيج إلى أن عدم ارتداء نساء اليهود للأحذية لم يكن بسبب قيود رسمية عليهم ، وإنما يبدو أن مرجع هذا السلوك من قبل اليهوديات اللاتي شاهدهما آل أدورني هو عادة فرضتها ضروريات فقر يهود تونس، لاسيما وأن رؤيتهما لهن كانت في شهر يونيو حيث لا يعرضهن الخروج حافيات إلى الوحل أو البرد. ولمزيد من التفاصيل عن يهود تونس في العصر الحفصي ، راجع : روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٤٣٦-٤٦٠ .

١٠٧- Adorno , A., Op. cit., p. 123 .

١٠٨- Ibid. pp. 91-3 .

١٠٩- ذكر ليون الإفريقي أن البازين عبارة عن عجين خفيف يطبخ في الماء، فإذا نضج ، عُجن في إناء وجُمع في وسطه . ثم يسقى بالزيت أو مرق اللحم ويبلعونه دون مضغ . وأضاف أكلة أخرى تسمى البسيس تتكون من دقيق الشعير الممزوج بقليل من الماء المضاف إليه قليل من الزيت أو عصير الليمون الحامض أو البرتقال. وكان التونسة يأكلون هذا العجين نيئا دون مضغ . انظر : ليون الإفريقي: المصدر السابق : ج٢ ، ص٧٦ .

١١٠- وردت اشارة عند عبد الباسط بن خليل إلى استخدام التونسة للأفيون . كذلك تحدث ليون

الإفريقي عن تناولهم للحشيش قائلا : «ويتناول التونسيون عادة بعض المستحضرات المسماة بالحشيش ، وثمنه مرتفع ، إذ أكل الإنسان منه أوقية استخفه المرح وأخذ يضحك ويأكل ما يأكله ولاثة رجال ، ويصير أسوأ حالاً من الشلل. وهذا المخدر يقوى على الجماع بكيفية غريبة». راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٩ ؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٨ .

١١١- Adorno , A., Op. cit., p. 123 .

١١٢- لم يرد عند عبد الباسط بن خليل بالنسبة لأطعمة التونسة سوى أكلة تسمى المجبنة كان ما أورده عنها قوله : «ثم هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مآكل الأندلس، وصفته جين طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين ثم يعجن السميد عجنا محكما مملوكا جيدا حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو أغلظ قوامًا منه بيسير ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة ورشاقة ، ثم يحمل عليها قطعة من الجبن المدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها ثم يبسط قليلا ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن فيقلى ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمون ويحمل ذلك بين الحاضرين وتولى عمله بعض الجماعة من ظرفائهم». راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق ، ص٢١ .

١١٣- ذكر ليون الإفريقي أن خبز تونس في غاية الجوده، أبيض مخبوز كما يجب، إلا أنه لا يصنع من الدقيق فقط، بل يخلط بالسميد . راجع ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٥-٧٦ .

١١٤- Adorno, A., Op. cit., pp. 123-5 .

١١٥- Ibid. pp. 73-5, 105 .

١١٦- Ibid, Loc. Cit .

١١٧- Ibid, Loc. Cit .

١١٨- Ibid, Loc. Cit .

١١٩- Ibid, p. 119 .

١٢٠- Ibid. pp. 111-3 .

١٢١- قارن بين ما ذكره آل أدورني عن هذا الاحتفال وبين ما ذكره معاصرهما عبد الباسط بن خليل الذي قال في بضعة كلمات فقط : « وفيها (يعني سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م) في يوم السبت عيدنا النحر

بتونس، وصليا صلاة العيد بجامع الزيتونة». انظر : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق ، ص١٩ .

١٢٢- Adorno , A., Op. cit., p. 135 .

١٢٣- ذكر برونشفيج أن آل أدورنو لا خطأ أن البرنس الأحمر الذي كان يرتديه السلطان عثمان لم يكن خاصا به بل أنه لاحظ كذلك أن كبار رجال الدولة الموجودون إلى جانب السلطان كانوا يرتدون ملابس مثل ملابسه بالضبط ، في حين أنه ورد عند آل أدورنو أن رجال الدولة كانوا يرتدون ملابس شبيه بتلك التي كان يرتديها الملك وليست ملابس مماثلة . راجع : روبار برونشفيك : الموجع السابق، ج١ ، ص٣٥ .

١٢٤- Adorno, A., Op. cit., p. 135 .

١٢٥- لم يدرك آل أدورنو أن عادة المسلمين جرت بذلك تحقيقا للسنة النبوية .

١٢٦- Adorno, A., Op. cit., p. 131 .

١٢٧- Ibid., p. 137 .

١٢٨- Adorno , A., Op. cit., p. 77 .

١٢٩- أورد الزركشي أن كبار رجال السلطان «أبو عمرو عثمان» كانوا يتألفون من حاجبه ، وكاتب قلم جبايته وتنفيذه ، وكاتب علامته، ومزواره ، فضلا عن قضاة الجماعة ، وقضاة الأنكحة بحضرته ، والمفتين بجامع الزيتونة . أما ليون الإفريقي فقد ذكر أن الوظائف الرئيسية لبلاط سلطان تونس بأنها كانت تتكون من المتقدم وهو كنائب الملك في حكم المملكة، ويسمى صاحب المنصب الثاني المزوار، وهو شبيه القائد العام، له السلطة المطلقة على الجنود والحرس الملكي . والثالث في شرف المرتبة هو قائد القصر المكلف بحرس القصر والبنايات التي يشغلها هذا الحرس ، وبالقصور الملكية . والرابع في المرتبة هو والي تونس، والخامس هو الكاتب الأعظم الذي يكتب ويجيب باسم الملك. والسادس هو قائد الإيوان. والسابع هو الأمين الذي يستلم المال من الجباة ويدفعه إلى أصحاب بيت المال، ثم يصرفه وفق أوامر السلطان ، والثامن هو مدير المكس يقبض الرسوم المفروضة على البضائع الداخلة إلى تونس براء والتاسع هو مدير الجمرك، ومهمته جمع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تخرج من تونس للتصدير بحرا، وكذلك على البضائع الواردة عن طريق البحر، والعاشر هو القائم بالصرف وهو يزود القصر الملكي بحاجته من الغذاء والثياب والخشبان والجواري وغير ذلك من احتياجات القصر.

ولمزيد من التفاصيل راجع : الزركشي : المصدر السابق، ص١٣٤-١٣٥ : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٩-٨٠ . ويتضح من مقارنة ذلك بما ذكره آل أدورنو أن وصفهما للوظائف الإدارية في البلاط الحفصي كان أكثر دقة وتفصيلا مما جاء عند الزركشي، ومشابها إلى حد كبير مع ما أورده ليون الإفريقي، وإن كان آل أدورنو قد خلطا بين بعض الوظائف كوظيفتي المنفذ والكاتب الأعظم، أو يعتقد أن مهام بعض الموظفين قد تغيرت على عهد ليو الإفريقي .

١٣٠- Adorno , A., Op. cit., p. 137 .

١٣١- Ibid, p. 139 .

١٣٢- Ibid , p. 143 .

١٣٣- وصف عبد الباسط ابن خليل مدينة تونس في شهر ذي القعدة سنة ٨٦٦هـ / أغسطس ١٤٦٢م، يضيع كلمات قائلا : «وقبيد في يوم الأربعاء ثاني عشرينه دخلنا إلى مدينة تونس بعد أن بقينا بالبحر ثلاثا وثلاثين يوما . فرأيت مدينة حسنة جليلة حائلة تقرب من دمشق في جفلها». راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص١٧ .

١٣٤- حدد ليون الإفريقي هذه الأرباض بأربعة ، أحدها خارج باب يسمى باب السويقة، وآخر خارج باب المنارة وكان كلاهما عامر بعدد لا يحصى من الصناع والصيادين والعطارين وغيرهم، ويوجد في هذا الربض حارة تكون هي الأخرى شبه ربض صغير يسكنه نصارى تونس الذين يستخدمون في حرس الملك أو يزاولون حرفا لم يعتد المسلمون ممارستها . ثم امتد ربض آخر خارج باب البحر على بعد نحو نصف ميل من بحيرة تحاذ حلق الوادي ، ينزل به التجار الأجانب أمثال الجنويين والبنادقة والقطلان ، ولهم فيه فنادق ومخازن . انظر : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢، ص٧٤ .

١٣٥- Adorno , A. Op. cit., p. 101 .

١٣٦- روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٣٨٨ .

١٣٧- Adorno , A., Op. cit., Loc. Cit.

وجدير بالذكر أن وصف ليون الإفريقي للمنازل التونسية جاء أكثر تفصيلا من مثيله عند أدورنو إذ يقول بهذا الشأن: «ومعظم الديار حسنة المنظر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه، سقوفها مزدانة بالفسيفساء، وبعضها مجزع بطريقة فنية عجيبة، ومصبوغة باللازورد وغيره من الألوان الرفيعة. ذلك لأن الأثرياء وأشراف [illegible]

وتبلط الحجرات بربعات لماعة ذات لون فاتح ، وتبلط أيضا الساحات كذلك بقطع لماعة. وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي، ومدخلها جميل ذو بابين أولهما يفضي إلى الخارج، والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل . ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل. ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها ، لأن هنالك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشؤون مع خدامهم ». راجع : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧٧ .

١٣٨- لم يحص ليون الإفريقي مساجد تونس ولكنه فصل أن للمدينة جامعا كبيرا آخر جامع الزيتونة في غاية الجمال والسعة، كثير المستخدمين عظم الموارد، وجوامع أخرى في المدينة وفي الأرباض أقل أهمية من الجامع الكبير. وفيها عدة مدارس للطلبة، وبعض الزوايا للمتنسكين، وكانت أوقاف هذه المؤسسات الدينية تكفي للانفاق عليها لتستمر في القيام بوظائفها بكيفية لائقة. راجع ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٦ .

١٣٩- Adorno, A., Op. cit., p. 103 .

١٤٠- Ibid, Loc. Cit.

١٤١- يرى برونشفيج أن فن المنتزهات والبساتين التي وجدت في ضواحي العاصمة التونسية كانت ذات طابع أندلسي. راجع: روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج٢، ص٢١٧ .

١٤٢- ذكر الزركشي أنه في عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م « وكمل بنا، البرج الجديد برأس الطابية وبلغت النفقة فيه خمسين ألف دينار ، وكان يناق من مال العموم ». انظر : الزركشي: المصدر السابق، ص٧١ .

١٤٣- Adorno , A., Op. cit., p. 115 .

١٤٤- وصف عبد الباسط بن خليل هذه الحديقة سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م. بقوله وفيها : وجمع التاجر المعظم الحراجا المكرم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه والحجاج منهم من أهل الأندلس وغيرهم وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من أجنة تونس يقال له رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرجهم ، وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه الضيافة فرأيت هذه الجنان غاية في الإتقان والحسن، وبه مكان كالقصر يرتفع السلطان ثلاث طباق عظيم إلى الغاية أنيق البناء فرج نزه بناء ملوكي على صفة غريبة وهيئة عجيبة،

وبه بركة ماء عظيمة جدا وبه شئ يقال له المعنشة يرسم جريان الماء فيه تقر في حجر كالرخام يدخل إليه الماء من جهة ثم يجول فيه جولانا غريبا في أوضاع محفورة نقرا في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة الدور بديعة الصفات تسر الناظر وتشرح الخاطر . وهي من النوادر يجول فيها الماء كأنه حنش ويتعاكس الجولان عدة معاكسات قريبة الهيئات». راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٢٠-٢١ . هذا ولقد أنشأ هذه الحديقة حوالي سنة ١٢٢٥م / ٦٢٢هـ ، السيد الموحدي أبوزيد ، ولقد أوصلها الخليفة أبو عبد الله المنتصر (٦٤٧-٦٦٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٧م) ، سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، بالقصبية بواسطة نهر محاط بسور حتى يتمكن نساء القصر من التحول إلى رأس الطابية دون أن يراهن الناس. راجع : ابن الشماع : المصدر السابق، ص٦٦-٦٧ . وكذلك : روبار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٣٨٧ .

١٤٥- Adorno , A., Op. cit., pp. 115-7 .

١٤٦- Ibid, p. 117 .

١٤٧- Ibid, Loc. cit.

١٤٨- ذكر عبد الباسط بن خليل عن هذه الحديقة : «وخرج صاحب تونس إلى المكان الذي أنشأ بباردو من الجنان العظيم فيه، وما يناد من القصور والمتنزهات ». راجع : عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٥ .

١٤٩- Adorno , A., Op. cit., p. 119 .

١٥٠- Ibid, Loc. Cit.

١٥١- أورد ابن الشماع أنه كان يوجد في تونس حوالي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، ما يزيد على مائة وعشرين طاحونة انظر : ابن الشماع : المصدر السابق، ص٩١ .

١٥٢- اهتم ليون الإفريقي بدوره بالقول أنه لاتوجد طواحين يحركهما الماء، لاداخل مدينة تونس ولاخارجها. راجع : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢ ، ص٣٦ .

١٥٣- لم يرد ليون الإفريقي بشأن الحمامات بتونس سوى قوله بإنها متعددة ، وأكثر تنسيقا من حمامات فاس. إلا أنها أقل منها حسنا وسعة . انظر : ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج٢، ص٧٧ .

١٥٤- Adorno, A., Op. Cit., p. 125 .

١٥٥- كانت مقبرة الزلاج تمتد خارج باب علاوة على الأرض المنخفضة والمرتفعات المحيطة بها . راجع: رويار برونشفيك : المرجع السابق، ج١، ص٣٨٦ .

١٥٦- ذكر عبد الباسط بن خليل عن هذه الجبانة أنها تسمى الزلاج وأنها جبانة عظيمة يتبرك بها الكثير من الصالحين والأولياء . كذلك سجل الزركشي أسماء العديد من الأعلام الذين دفنوا فيها. انظر: عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٣٢ ؛ الزركشي: المصدر السابق، ص١٠٨ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٨ .

١٥٧- Adorno , A., Op. cit., pp. 87-111 .

١٥٨- Ibid, p. 111 .

١٥٩- كانت هواية صيد الأسود تعرض السلاطين الحفصيين للخطر في بعض الأحيان ، فقد ذكر ابن القنفذ أن السلطان أبي فارس (٧٩٦-٨٢٩هـ/ ١٣٩٤-١٤٣٤م) ، وثب عليه أسد وهر على فرسه أثناء الصيد ، مما عرضه لخطر الموت. انظر : ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٩٦ .

١٦٠- درج السلطان الحفصي عثمان على إرسال بعض الهبرانات الثمينة من بلاد المغرب إلى سادة أو أمراء بعض الدول الأوروبية توثيقا لعلاقات الصداقة معهم، ففي سنة ١٤٥٢م / ٨٥٦هـ ، تلقى فرانسوا سفورزا دوق ميلانو أسدا من السلطان عثمان . انظر : رويار برونشفيك : المرجع السابق، ج١، ص٢٩٢-٢٩٣ .

١٦١- Adorno, A., Op. cit., p. 137 .

١٦٢- Adorno , A., Op. cit., p. 113 .

١٦٣- Ibid, p. 107 .

١٦٤- يبدو أن الخيول التونسية قد تميزت بسمعة عالمية آنذاك، ففي سنة ١٤٦٠م / ٨٦٤هـ، أرسل سيجموند مالاتيستا أمير ريميني- الواقعة- تحت حماية أمير جنوة- بعض أعوانه لشراء خيل للسباق، وفي سنة ١٤٤٦-١٤٦٨م / ٨٥٠-٨٧٣هـ، حملت عدة بعثات متتابعة بعض الخيول الرائعة من ترنس إلى السلاطين المماليك ، وإلى سادة وأمراء أوروبا. راجع : رويار برونشفيك : المرجع السابق، ج١، ص٢٩٢-٢٩٣ .

١٦٥- Adorno , A., op. cit., p. 125 .

١٦٦- ليو الإفريقي : المصدر السابق، ج٢، ص٧٦ .

١٦٧- أورد ابن القنفذ بشأن هذه المجاري المائية قوله : «وفي سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧م) أكمل المستنصر بناء الحنايا العادية المجلوب عليها ماء عيون زغوان إلى مدينة قرطاجنة في الزمن السلف». في حين وصفها ليون الإفريقي وصفا يكاد أن يكون شبيها بوصف أل أدورنو ولكنه أقل منه تفصيلا إذ يقول : «وما زال يشاهد بها الآن هنا وهناك أسوار كاملة، فضلا عن خزان ماء ذي سعة كبيرة جدا. كما أن القناة التي كانت تحمل الماء إلى قرطاجنة من جبل يبعد عنها بثلاثين ميلا ما زالت كاملة ... وقد زرت مأخذ الماء الذي كان يزود قناة قرطاجنة . وتظل القناة على مستوى سطح الأرض على طول عشرة أميال ، لأن الأرض مرتفعة بقرب الجبل، وكلما ابتعدت عنه انخفضت . وأخذت القناة حينئذ ترتفع شيئا فشيئا حتى تصل إلى قرطاجنة» راجع : ابن القنفذ : المصدر السابق، ص١٢٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٩-٧٠ .

١٦٨- Adorno, A., Op. cit., p. 99 .

١٦٩- Ibid. p. 119 .

١٧٠- تمت مبايعته في الثاني والعشرين من صفر سنة ٨٣٩هـ/ السادس عشر من سبتمبر سنة ١٤٣٥م، وكان يبلغ من العمر آنذاك سبعة عشر عاما، واستمر حكمه للدولة الحفصية ثلاثة وخمسين عاما. راجع : ابن الشماع : المصدر السابق، ص١٢١ . وكذلك : رويار برونشفيك : المرجع السابق، ج١ ، ص٢٧٢ .

١٧١- وصف ابن الشماع سيده السلطان أبوبكر عثمان بأن له مآثر عديدة ، منها بناء مدارس ومكاتب لتراءة القرآن ومساجد ومبضات ، ومصاكن للطلبة ، وأسبلة ، فضلا عن مد الأسطلة. كذلك عدد من مآثره صدقته الجارية على أهل الأندلس لإعانتهم على الجهاد ، وصلته لذوي رحمه وأصدقاء أبيه، وإكرامه للضيف ، وسفره كل عام لردع المفسدين في الأرض. انظر : ابن الشماع: المصدر السابق، ص١٢١-١٣٣ .

١٧٢- Adorno , A., Op. cit., pp. 127, 137-9 .

١٧٣- أكد الزركشي هذا في قوله أن أم السلطان أبوعمرو عثمان كانت أم ولد علجية اسمها ريم . انظر: الزركشي: المصدر السابق، ص١٣٤ .

١٧٤- Adorno , A., Op. cit., p. 127 .

١٧٥- Ibid, p. 133 .

١٧٦- Ibid, p. 69 .

-١٧٧ Ibid. pp. 71 , 83 .

-١٧٨ Ibid. pp. 73,81 .

-١٧٩ Ibid, p. 69 .

-١٨٠ Ibid. pp. 77-9 .

-١٨١ Ibid, pp. 79-81 .

-١٨٢ Ibid. pp. 75-7

-١٨٣ Ibid. p. 77 .

-١٨٤ Ibid. p. 81 .

-١٨٥ Ibid, p. 75 .

١٨٦- القلقشندي : المصدر السابق، ص١١٢-١٢٤ ، ١٦٠-٦١ .

١٨٧- عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق، ص٦-١٠ .

١٨٨- ابن الشماع : المصدر السابق ، ص٣٠ .

١٨٩- ليون الإفريقي : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٠ .

-١٩٠ Adamo , A., Op. cit., p. 139 .

١٩١- نص ليون الإفريقي على هذه الحقيقة قائلا إن العرب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر يعيشون عيشة فقيرة لأن البلاد التي يسكنونها قاحلة وعرة . وهذا ما جعل هؤلاء العرب أشبه اللصوص على وجه الأرض يجردون كل غريب يقع في أيديهم من جميع ما عنده ثم يبيعونه . حتى أنه منذ مائة سنة لم تر قافلة بالساحل المحاذي للصحراء التي يعيش فيها هؤلاء القوم. فإذا أرادت قافلة أن تخترق البلاد، مرت من الداخل على بعد نحو خمسمائة ميل من البحر . راجع ليون الإفريقي : المصدر السابق، ج١ ، ص٦٥ .

-١٩٢ Adamo , A., Op. cit., pp. 139-41 .

-١٩٣ Ibid, p. 475 .

-١٩٤ Ibid, p. 491 .

-١٩٥ Ibid, pp. 27 , 33 , 433 .

د. صلاح أحمد هريدي على (*)

سجلات المحاكم الشرعية بالشهر العقاري بالإسكندرية

تعد سجلات المحكمة الشرعية المحفوظة بالشهر العقاري بالإسكندرية وثائق هامة، ومصدراً من مصادر تاريخ مصر العثمانية، لما تحتوي عليه من الحقائق والمعلومات في شتى نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما أن تلك السجلات تضم أحكام محاكم عديدة تابعة لمحكمة الإسكندرية مثل : رشيد ودمياط وأبوقير[١] .

فمن الناحية الاقتصادية ، نجدها سجلاً لتعاملات التجار المحليين من الأهالي، والتجار العرب (كالحجازيين، والشوام ، والمغاربة .. وغيرهم) وكذا من الأوربيين من مختلف الجنسيات، ومن خلالها نستطيع أن نتعرف على أنواع السلع التي تعاملوا فيها، وطرق تعاملاتهم التجارية، فنرى في مصر العثمانية مارس التجار العرب نشاطهم التجاري دون أية قيود على أسلوبهم التجاري وطرق استثمارهم لرؤوس أموالهم، ما داموا لايلحقون الظلم بالأهالي ، مما أعطى لاستثماراتهم مجالاً للحرية الاقتصادية، فتمكنوا من تنمية ثرواتهم عن طريق استيراد السلع التي تحتاجها السوق المحلية من منتجات بلدانهم والبلدان الأخرى ، وتصدير الفائض عن حاجة السوق المحلية من المنتجات المصرية، والسلع المستوردة إليها إلى البلدان العربية الأخرى[٢].

أما بالنسبة للأوربيين ، فقد كان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية ، النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوربية، وعلى وجه الخصوص التجار الأجانب ، ثم المقيمين

(*) أستاذ ورئيس قسم التاريخ وكيل كلية الآداب بدمنهور – فرع جامعة الاسكندرية .

بالقسطنطينية ، ولذا وضعت الدولة العثمانية نظاماً خاصاً يعرف باسم نظام الامتيازات ، وعاشت كل مجموعة من هؤلاء الأجانب طبقاً لما نص عليه فى المعاهدات الرسمية التى أبرمتها الدولة العثمانية مع حاكم الدولة التى تنتمى إليها المجموعة ، ومنذ البداية ، عملت الدولة العثمانية على تنظيم إقامة الأجانب فى داخل الإمبراطورية[٣].

وبالنسبة للنشاط الاقتصادى الذى شارك فيه الأهالى والتجار العرب والأوربيون فى الإسكندرية ، فإنه شمل جميع أوجه الأنشطة المعروفة فى ذلك الوقت سواء فى التجارة أو الصناعة أو الحرف أو قطاع الأموال، وشارك فيه الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون وبخاصة فى تجارة الحبوب مثل الأرز[٤]، والقمح [٥]، والدقيق [٦]، والفول[٧] والعدس والحمص[٨].

وتعامل الأهالى فى تجارة المواد الغذائية ، ومعهم الحجازيون والشوام والمغاربة ، مثل الجبن[٩] حيث لوحظ أن المغاربة يحددون قيمة الصفقة والعملة[١٠] والعسل الأبيض[١١] والزبد والسمن[١٢] والزيت الحار[١٣] وتخصص المغاربة فى السيرج[١٤] والسكر[١٥] حيث كان يفضل المصنوع فى قوة[١٦] والقصب [١٧].

كذلك تخصص المغاربة فى سلع معينة مثل البقسماط[١٨] حيث كان يتم توريده للصاغة الشريفة، وكانت الأوامر دائماً تصدر بضرورة الاهتمام بتصنيعه وتوريده[١٩] والخضار واشتهروا بتلك النسبة[٢٠] والليمون المخلل الذى كان يورد للبقالين[٢١] والزيت الطيب[٢٢] والزيتون[٢٣] وتخصص الشوام فى التين اليمنى[٢٤] والبيض الذى كان يورد للحلوانية[٢٥] والبطارخ[٢٦] وتخصص الأوربيون فى السمك المملح[٢٧] وزيت الزيتون[٢٨] والخمور [٢٩].

أما تجارة التوابل فكانت تتعامل فيها الشوام، والمغاربة ، والأوربيون وخصوصا الفرنسيين، حيث تعاملوا فى الفلفل الأسود[٣٠] وجوزة الطيب[٣١] والقرفة[٣٢] والزنجبيل[٣٣] والصبر[٣٤] والزنبق والجنزبيل والصمغ العربى[٣٥] والشمع الأصفر[٣٦] والمسك[٣٧] وأهل النعة فى الخيار الشنبر [٣٨].

أما تجارة الياميش فقد تعامل الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيين فيها مثل الجوز القبرصى[٣٩] والزبيب الأحمر والأسود[٤٠] واقتصر تعامل الشوام على التمر والعجوة[٤١] والأوروبيين على الخروب [٤٢].

وأما تجارة الفواكه فقد تعامل المغاربة فى البطيخ والقرع[٤٣] والأوربيون فى العنب والتين[٤٤] حيث يباع المحصول قبل حصاده فى الخارج مثل رودس والتفاح [٤٥].

* * *

وبالنسبة لتجارة العبيد والجوارى فقد شارك الأهالى فيها، فأحيانا لم يذكر جنسية العبد أو الجارية[٤٦] وفى تلك الحالة يباع العبد المجهول الجنسية بسعر منخفض[٤٧] كما كان سعر الجارية مرتفعا عن العبد[٤٨] .

وشملت تجارة العبيد والجوارى فى بعض الأحيان أسرة بأكملها ، مثل الزوج والزوجة والابن، من التبارصة ، وفى مثل هذه الحالة يكون المشترى أوربيا[٤٩] وخصوصا من الإيطاليين [٥٠]، وأحيانا تكون جارية يابنها الرضيع ، وقد تكون هذه الجارية ميراثا لأحد الأبناء، ورثها عن والده ، وقاصراً ، ففى مثل هذه الحالة يقوم الوالد الوصى بالبيع نيابة عنه، ويقوم المشترى بالشراء بعد الفحص والمعاينة[٥١].

وامتد نشاط الشوام التجارى إلى الجوارى[٥٢] من جنسيات وديانات مختلفة[٥٣] ويشترط أن يذكر فى عقد البيع أنها خالية من الحمل [٥٤]. وشارك المغاربة فى تجارة العبيد ، التى شملت أحيانا تجارة الجملة[٥٥] ويكون البيع بعد الفحص والمعاينة[٥٦] وكذا المماليك[٥٧] وشاركهم فى ذلك الأوربيون وخصوصا البنادقة[٥٨] والجنويين[٥٩] وشملت هذه التجارة أيضا الأطفال الصغار الأحرار الذين كانوا يسرقون من بلادهم الأوربية ، ويباعوا فى الإسكندرية[٦٠].

* * *

وللأهالى دور هام فى تجارة الماشية والأغنام ، كما ساهم فيها أيضا كل الحجازيين والشوام والمغاربة والأوربيين [٦١]. وتعامل العربان المقيمين فى رشيد[٦٢] والحجازيون[٦٣] والشوام فى الجمال[٦٤] وتاجر كل من الأهالى والشوام فى البغال [٦٥]. واقتصرت تجارة الأحصنة على الأهالى[٦٦] والأكديش على الشوام والمغاربة[٦٧] والبقر والجاموس والثيران على الأهالى والحجازيين والمغاربة[٦٨] والأغنام على الأهالى والشوام والمغاربة[٦٩] أما الحمير فكانت تمثل وسيلة النقل الأساسية فى ذلك العصر ، فاقتصرت على المكارية من الأهالى والشوام والمغاربة[٧٠].

واعتمدت تجارة الجلود أساسا على جلود الثيران والبقر[٧٦] وشارك الأوروبيون فى هذه التجارة وخصوصا الفرنسيين[٧٣] والشوام[٧٣] والمغاربة[٧٤].

أما تجارة الأقمشة والمنسوجات ، فقد قام بها الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون . وكان منها الكتان[٧٥] والجوخ بأنواعه المختلفة[٧٦] والحرير[٧٧] والمنسوجات الحريرية[٧٨] والصوف المغربى الذى كانت له شهرة واسعة وخاصة المخلوط بكتان[٧٩] وصناعة الأحرمة الصوفية[٨٠] وأغطية الرأس للسيدات ، وخاصة الأغطية الحجازية التى كانت لها شهرتها ، والبسط الرومية[٨١].

كذلك تخصص الشوام بتجارة المنسوجات الحريرية[٨٢] والمغاربة والأوربيون فى البسط الرومى[٨٣] والحجازيون فى الفوة[٨٤] كما تاجروا فى النيلة الهندى التى تستخدم فى صباغة الملابس ، وتاجروا أيضا فى قماش القلاع والفوط[٨٥] والأليسة[٨٦].

* * *

أما تجارة مواد البناء والمعمار ، فقد شارك فيها كل من الأهالى والحجازيين والشوام والمغاربة والأوربيين، حيث تاجروا فى الأخشاب التى تورد للترسخانة (الترسانة) حيث كانت السلطات الحاكمة تهتم بذلك دائما ، وتصدر أوامرها بخصوص ذلك[٨٧] والزفت[٨٨] والمسامير[٨٩] والمرايات[٩٠] والعصيان من الخيزران[٩١] والجير[٩٢] والحديد[٩٣]. وتخصص الشوام فى تجارة مصنوعات القيشانى من الصينى والأدوات الفخارية[٩٤] والأوانى النحاسية[٩٥].

واقتصر تعامل الأوربيين على تجارة المجوهرات مثل الفضة[٩٦] والصدف[٩٧] والمرجان[٩٨].

* * *

بالإضافة إلى ذلك ، كانت هناك تجارة من نوع غريب فى رشيد، ألا وهى تجارة الشعر، حيث يتفق البعض مع أحد الشعراء على كتابة عدد معين من أبيات الشعر نظير مبلغ معين[٩٩].

* * *

أما عن طرق التعامل فى ميدان التجارة ، فكانت متعددة، ولاشك فى أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص، سواء على مستوى صغير أو فى حجم تجارى كبير . وهنا نجد أن

أرشيف المحكمة يسجل لنا أنواع تعاقداتهم وعلاقاتهم مع الغير، الذين يتعاملون معهم. وكان هناك كذلك من يقوم بتكوين شركات للتجارة، الداخلية والخارجية. ووجدت وثائق عن تكوين شركة لتجارة القصب فى رشيد[١٠٠] . وثانية للتجارة فى الكتان والصجوة . وقد لوحظ أن أحد الشركاء من السقايين . ويذكر فى عقد الشركة قيمة رأس المال النقدى والعينى[١٠١] وتكوين شركة بين أحد الحجازيين وأحد السودانيين لتجارة النيلة[١٠٢] . وأسس بعض الشوام شركات لتجارة الأقمشة والمنسوجات[١٠٣] والحرير[١٠٤] والجلود[١٠٥] كما استأجر بعضهم بالمشاركة مع أحد الأهالى مخيزا فى وقف سنان باشا، وقد فسخ العقد بعد ذلك[١٠٦].

وقام المغاربة بتكوين شركات فى تجارة الكتان، وشاركهم الأوربيون فى بعض الأحيان[١٠٧] وكذلك فى الحروب[١٠٨] والزيتون[١٠٩] والبطيخ والقرع[١١٠]. كذلك ساهم الأوربيون فى هذا المجال ، فأنشأوا شركات للتجارة فى المشروبات المطبوخة[١١١] وشاركوا الأهالى فى تجارة الصدف والمرجان[١١٢] وشراء المراكب مثل الشيطية ، والأكريب ، والقرة ، والغلبون وغيرها[١١٣]. ولوحظ أنه فى بعض الأحيان نجد أنه بعد تأسيس الشركة ببضعة أيام، يطالب أحد الشركاء ببيع نصيبه، ويوافقه الشركاء على ذلك[١١٤] على الرغم من أن نصيبه ثلاثة أرباع رأسمال الشركة وحل محله أحد الأتراك العثمانيين[١١٥] وأحيانا تظهر مشاكل بين الشركاء نتيجة لحدوث خسائر، كما حدث فى تجارة الخمور عندما أصر أحد الشركاء على استلام حقه كاملا، فاضطر صاحب المركب إلى الحجز على الصفقة ضمانا لحقه[١١٦].

وكان يذكر فى عقد الشركة نصيب كل شريك ، واختصاص كل منهم، والمسؤول عن الإدارة والصيانة ، وغير ذلك من الشروط الأخرى[١١٧].

واشتهر المغاربة باشتغالهم بأعمال الوكالة لحساب الغير، فعملوا كوكلاء لتجار حلبيين مقيمين بالقسطنطينية ، يشترون لحسابهم البقسماط[١١٨] والتجار الكارمبلية يشترون لحسابهم القماش المخصص للتفصيل[١١٩]، والعبيد لحساب أحد الأمراء الميرالللو[١٢٠] والجوارى[١٢١] والبهار لحساب بعض الأوربيين وخصوصا البنادقة[١٢٢] واليهود المغاربة حيث عملوا كوكلاء للأوروبيين فى تجارة الجوخ بأنواعه المختلفة[١٢٣].

ولم يكن المغاربة وحدهم فى هذا المجال ، بل شاركهم فى ذلك الشوام، حيث اشتغلوا لحساب بعض الأوربيين فى تجارة الحرير ولدفتهم فى ذلك ، كانوا يحررون عقود البيع متضمنة

النوع والكمية ، وأن يقر المشترى ذلك بأنه استلم بضاعته كاملة[١٢٥]. وساهم الأوربيون أيضا في هذا المجال إذ عملوا كوكلاء للتجار المحليين في تجارة الحرير[١٢٦] والبهار وعموزة الطيب[١٢٧] وبعض التجار الأوربيين المقيمين في الخارج، وكذلك في تجارة الخروب من أضاليا[١٢٨] وزيت الزيتون[١٢٩]. والسمك المملح[١٣٠] والجوخ[١٣١] والأواني الفخارية بجميع أنواعها[١٣٢] والمراكب بجميع أنواعها[١٣٣] والجلود[١٣٤] والعبيد[١٣٥].

وشهد مجال التعامل التجاري نوعا آخرا من التعامل، مثل المقايضة ، فقد تم مقايضة قز على ورد ، وبحدد السعر لكل صنف ، ثم يدفع الفرق أحيانا على أقساط يومية[١٣٦] والخمور بالكتان، وكانت غالبا تتم بين الأوربيين[١٣٧]، وغزل ومنسوجات بالحرير صناعة الشام[١٣٨]، وجمال بأثوار[١٣٩] وجلود بشيران ومحصولات زراعية[١٤٠]، وأوراق بفلفل أسود[١٤١].

وشهد قطاع التجارة في مدينتي الإسكندرية ورشيد الكثير من المنازعات في هذا الميدان ، فالسجلات تعطينا صورة كاملة عن طريقة التعامل البسيط، وطريقة التقاضي، والأحكام التي تصدر أو الطرق التي كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية، وأرشيف المحكمة الشرعية مليء بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب التجارة في مصر العثمانية .

وكان من الطبيعي أن تنشأ خلافات في حالات الشراء بالأجل، فمنها تباطأ أحدهم في رشيد، في دفع بقية الأقساط الخاصة بشراء الدقيق، وانتهى الأمر به في النهاية بإيداعه في السجن[١٤٢] كذلك تباطأ بعض الأهالي في دفع بقة أقساط القمح[١٤٣] وتباطأ أحد الفرنسيين في دفع بقية صفقة جلود حتى انتهى به الأمر بإيداعه في السجن[١٤٤] وحدث نفس الأمر لأحد العاملين في صناعة الكعك[١٤٥] واشترى البعض كمية من الدقيق ، ودفع جزءاً من ثمنها ، وطالبه البائع بتسديد مبلغ يفوق المبلغ المتبقي عليه، وأصر البائع على المبلغ الذي طلبه، وانتهى الأمر بحدوث نزاع بين الطرفين ، وتم القبض على البائع وسجن[١٤٦] كذلك كانت هناك حالات للوفاء بالأجل، حيث يتباطأ البعض في دفع بقية الأقساط ، ولكن يتم الاتفاق على تسوية الموقف بالدفع[١٤٧] أو بستمر المشتري- وهو أحد الخلوانية - في تسديد ما تبقى عليه معتذراً بعدم توافر المال لديه ، وينتهي الأمر بالحكم عليه بالسجن[١٤٨] وفي هذا النوع من الخلافات نجد أن بعض المشترين يتذرع بارتباكه المالي ويطلب من المحكمة إعطاءه فرصة للتسديد ، مثال ذلك شراء أحد الشوام كمية من الزبيب من بعض تجار السويس المقارنة

وعجز عن التسديد في الوقت المحدد له، وطلب من المحكمة إعطاءه فرصة للتسديد ، ووافق البائع وأقرت المحكمة هذا الاتفاق[١٤٩] وكان الدفع بالأجل ، أحيانا يتم أسبوعيا كما في تجارة العجوة ، وعندما يتعثر المشتري بدفع بقية الأقساط ينكر البائع هذا الاتفاق[١٥٠] . وشملت الأقساط الأسبوعية بعض السلع مثل الياميش[١٥١] والسكر[١٥٢] وأحيانا يحدد مدى الأقساط كل خمسة وعشرين يوما ، كما في تجارة الجلود[١٥٣] وفي هذه الحالة تضاف فائدة إذا تأخر المشتري عن الدفع في الميعاد المحدد[١٥٤] وهنا يتم اتفاق جديد على أساس دفع نصف المبلغ ، ويقسط الباقي[١٥٥] ويتضمن بعض القساوسة هذا الاتفاق كما في تجارة العبيد[١٥٦] والجواري[١٥٧] . وفي حالة بيع الجوخ يصر البائع على وضع عقار المشتري كرهن حتى يتم تسديد باقي الأقساط[١٥٨]. وعند الشوام نجد أن البيع بالأجل وعدم قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته يتطور الأمر في بعض الأحيان إلى إعطائه بعض ممتلكاته مخصصاته مثلا- للوفاء بجزء من الدين . ولكن إذا كان الخصان لم يكف للوفاء بكل الثمن، ينتهي الأمر بإعلان إفلاس التاجر[١٥٩]، وكان بعضهم يعطي بعض منقولاته رهنًا للوفاء بدينه ، مثل وضع أحد المشترين مركبه كرهن لدى البائع[١٦٠]. ورغم ذلك فإن البائع لم يستلم البضاعة كاملة، بل خصم نسبة من وزن القمح كتالف وفاقد ، وهدفه من ذلك الضغط على المشتري[١٦١]. وبالنسبة للأوربيين نجد أن بعضهم أعطى مجوهراته نظير تسديد ثمن صفقة من الدجاج[١٦٢] أو مركبة ، نظير تشديد ثمن جلود[١٦٣] أو أوانى نحاسية، على أن ترد عند تسديد ثمن الخروب[١٦٤] أو الأسماك المملحة[١٦٥].

وحدث أن اشترى أوروبي مركبًا من أهالي رشيد، ودفع جزءاً من ثمنها على أن يقسط الباقي على أقساط شهرية، إلا أن البائع توفي قبل نهاية تسديد الأقساط ، فطالب ورثته بدفع باقي الأقساط ، فأنكر المشتري وادعى أنه دفع المبلغ كاملا للمتوفى[١٦٦]. وفي حالة ثانية توفي البائع دون أن يحصل بقية أمواله، وطالب ورثته المشتري، الذي اعترف بالمبلغ وطلب إعطائه فرصة للتسديد، وسدد المبلغ بعد خصم نسبة منه. كما في تجارة الجبن والعسل[١٦٧] وحالة أخرى، فاتفق على دفع نصف المبلغ وتعهد بدفع الباقي على أقساط مثل تجارة المسلى والزبد[١٦٨].

وهناك حالة إنكار أحد المجازين الخازنين حول المبلغ المتبقي لديه، ولم يستطع بائع الدقيق إثبات حقه[١٦٩]. وحدث نزاع بين أحدهم مع البعض حول بيع جمل وتبقى مبلغ ، وعند حلول

ميعاد السداد أنكر المشترى بقية المبلغ، وتدخل البعض، وترتب على ذلك دفع مبلغ يقل عن المطلوب[١٧٠]. وأنكر البعض دفع بقية الأقساط فى صفقة قماش قلاع المراكب[١٧١] تحصل على جزء من مبلغه بدلا من أن يفقد كل المبلغ، وهناك حالات كثيرة يتذرع فيها المشترى، ويصر على أن المتبقى من المبلغ يقل كثيرا عن المطلوب[١٧٢] وقد يضطر المشترى بعد إنكاره إلى أن يرضخ أمام شهادة الشهود إلى الاعتراف بالصفقة، ويتعهد بالدفع[١٧٣] وفى حالة أخرى نجد عدم اعتراف المشترى بالمبلغ المتبقى بعد شرائه عدداً من الخرقان[١٧٤].

وبالنسبة لحالات الغش التجارى نجد أن بعض الحجازيين قد تعاقد مع أحد عربان هرارة على توريد كمية من التين، وفوجئ عند استلامها بأن بها عيبا، وطالب البائع برد المبلغ، وحدث نزاع، وانتهى الأمر بتسوية الموقف على بيع الكمية على حالتها مع تحمل البائع فرق السعر[١٧٥] كذلك نجد أن بعض الشوام واجهته مشكلة أخرى تتمثل فى فقدان كمية من البن المصدر إلى استانبول لحساب بعض التجار وتطور الأمر فى مثل هذه الحالة إلى تقديم المستندات الدالة على ذلك وشهادة الشهود[١٧٦] كذلك حالة مشترى الخشب الذى دفع مبلغا مقدما من الصفقة على أساس دفع الباقى بعد المعاينة، وثبت أنه يوجد بعض العيوب، وعند مطالبته برد المبلغ، رفض البائع، وتلفظ بألفاظ نابية فانتقل الأمر إلى القضاء[١٧٧].

وفى نفس الوقت نجد حالات كثيرة لدى الشوام، لايصر البائع على أخذ رهن، ويسلم السلع، ويتفق مع المشترى على الدفع بعد فترة معينة وفى ثقة كاملة[١٧٨] وهناك صفقات تم دفع ثمنها بالكامل وتم ذلك مع المتحدث على بيت المال الحشرى[١٧٩] والبيع بصفة أمانة بين الشوام والمغاربة[١٨٠] وهناك حالات أخرى تمكن فيها المشترى وفى نفس القطاع، وهو أحد الخبازين بتسديد ما عليه فى الميعاد المحدد[١٨١].

وبالنسبة للتصدير والاستيراد، نجد أن الكثير من الأهالى والحجازين والشوام والمغاربة والأوربيين كان لهم دور فى هذا المجال، حيث ساهم الأهالى برشيد بتصدير الأرز والقمح إلى أزمير[١٨٢] ويحدث فى حالات حدوث أزمات اقتصادية أن يمنع تصدير القمح، مثال ذلك أزمة عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، حيث صدرت الأوامر بتفتيش السفن للتأكد من عدم تصديره[١٨٣]. وكان الشوام يقومون بتصدير البن والبقال إلى استانبول[١٨٤]، كما قام المغاربة بتصدير الحبش والكتان والأقمشة إلى بلاد المغرب[١٨٥] وصدر الأوربيون الكتان والجلود والسمك المملح[١٨٦].

أما بالنسبة للاستيراد، فاستورد الأهالى الجبن من قبرص[١٨٧] والخمور من سالونيك[١٨٨] والبن من اليمن[١٨٩] والجوخ من الهند[١٩٠] والمرايات من أوربا، وإن كانت الوثيقة لاتذكر البلد المستورد منها[١٩١]. واستورد الأوربيون البطاوخ والصابون وخشب القرو من استانبول[١٩٢].

ومن الطرائف أن بعض أفراد أوجاق مستحفظان تاجر فى الحطب، وخاصة مع أهل الذمة من الشوام الذين عملوا كبحارة على إحدى المراكب[١٩٣] واشترى أحد الأهالى مركبًا من بعض المغاربة من نوع القايق، ويستخدم هذا النوع فى نقل الناس من شاطئ إلى آخر، ولدقة البائع صرح للمشترى بأن به بعض العيوب، واستلمه على هذا الأساس، وعارض سردار إدكو هذا البيع، لأن صاحب المركب الأصلى متأخر فى دفع الرسوم المقررة على هذا القايق، واستشهد البائع ببعض الشهود الذين أكدوا بأنه هو القايق المطلوب[١٩٤]. ومن أمثلة ذلك أيضا شراء تابودان الإسكندرية إحدى الجوارى وبيتها[١٩٥]، وشراء أحد الأفراد إحدى الجاريات، واتضح بعد ذلك أنها كانت حاملا، مما أدى إلى قيام المشترى بشكوى البائع، وتطور الأمر إلى نزاع بين الطرفين، وتدخل بعض وجهاء المدينة، حيث أقسم لهم، بأنه لم يجامعها بالمرة، واقتنع المشترى بذلك[١٩٦]. وقام أحد الأهالى حرام من الصوف لرقيد عند أحد الشوام، وفوجئ عند استلامه بقيام الرقا بإعارته لأحد الأشخاص، مما ألزمه بدفع ثمنه، وطالبه بسعر مرتفع، مما جعل المحكمة تستعين بأحد المختصين، الذى قدره بسعر معقول[١٩٧]. وهناك الكثير من الطرائف وأرشيف المحكمة على، بمثل هذه الموضوعات.

* * *

وأخيراً فإن علينا أن نذكر، أن سجلات المحكمة الشرعية بالإسكندرية، تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى والخلافات التى نجمت فيه، وهو ميدان الاقتراض، ثم ما قد يترتب على ذلك من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون. ولقد شارك الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون والعثمانيون وغيرهم فى هذا المجال، وكانوا يقترضون من بعضهم البعض، وشاركهم فى ذلك بعض أفراد الأوجاقات العثمانية الموجودة فى الإسكندرية[١٩٨] ووجدت أيضا الأمانات والرهونات.

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى إلى خلافات وبسداد المقترض ما استدانه من مال، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لاتحتفظ إلا بالأمور التى حدث فيها خلاف وفى أشكال متعددة.

ولم يكن الأهالي وحدهم يمارسون عملية القرض والاقتراض ولكن شاركهم في ذلك المغاربة، حيث كان بعضهم يقرض بعض الأهالي[١٩٩] والحجازيين من أهل مدينة بدر ، ومن الشرايفة بالذات[٢٠٠] ، كذلك كان الحجازيون يقترضون من بعضهم البعض ويقرضون بعض أبناء الإسكندرية والمغاربة[٢٠١] وبعض النساء الخاسكيات[٢٠٢] . وقد حدث تعامل بين المسلمين وأهل الذمة وخصوصا من اليهود ، حيث أقرض ميرالاي الشريف السلطاني بثغر رشيد ودمياط مبلغًا من المال لأحد اليهود ، وكان يشغل وظيفة ملتزم للأموال السلطانية برشيد [٢٠٣]. وشمل هذا المجال أيضا الذمة حيث كانوا يقترضون من بعضهم البعض [٢٠٤]. حتى القضاة كانوا يقترضون ويقرضون في بعض الأحيان بعضهم البعض. ويشترطون في بعض الحالات تسديد هذه القروض على أقساط . ولدينا بعض الوثائق تصف المقترض ومواصفاته الجسمانية حرصًا على حفظ الحقوق [٢٠٥]. ونجد حالات الإقراض بالوكالة عن الغير، وخاصة لدى المغاربة، فقد أقرض أحدهم بعض الأمراء السابقين في أوجاق مستحفظان[٢٠٦].

وتعددت أغراض القروض، فقد يكون القرض بقيمة أجرة شحن بضاعة[٢٠٧] أو أجرة سفر لرودس[٢٠٨] أو ثمن علف جمال[٢٠٩] أو إصلاح مركب [٢١٠]. وقد يكون القرض أو الدين عبارة عن تأخير إيجار لإحدى الركالات في وقف الأشرف قايتباي بالمدينة ، وعند المطالبة بالتسديد أدعى المستأجر بدفع ما عليه من إيجار[٢١١] أو يكون قيمة حصة في رأسمال شركة سابقة، تم تصفيتها وتحدث بعض المشاكل كالإنكار وينتهي بهم الأمر بإيداعهم في السجن[٢١٢] وقد يكون في حالة افتداء الأسرى في مالطة ويتعهد في أثناء هذه الحالة بتسديد قيمة القرض عند عودته[٢١٣] أو فك الأسرى في معسنا[٢١٤] أو لتمويل صفقة تجارة مثل تجارة الجواري[٢١٥] والعسل والجبن ، وفي مثل هذه الحالة يتفق على دفع المبلغ بعد خصم نسبة منه[٢١٦] أو ثمن جاموسة [٢١٧].

وشملت القروض الحرفيين في حرفة واحدة أو بين أبناء حرفة وأخرى، مثال ذلك اقتراض بعض الصرافين من بعض الطحانين[٢١٨] وأحد العاملين في تجارة الجمال لأحد القصابين[٢١٩].

وكان بعض المقرضين يصر أحيانا ، على أخذ رهن لديه حتى يتم السداد، مثل مفروشات المنزل (غطاء - وسادة) ، وفي مثل هذه الحالة تضاف فائدة إلى المبلغ الذي يتفق على كيفية تسديده على أقساط أسبوعية[٢٢٠] أو مصوغات[٢٢١] أو ملابس وأقمشة فإذا تأخر المقترض عن التسديد يباع الرهن دون الرجوع إلى المقترض[٢٢٢].

أما عن المشاكل الناجمة عن ذلك ، فنجد أن سجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه المشاكل ، مثال ذلك اقتراض أحد العاملين بتجارة الجمال من أحد القصابين الشوام، واتفق على دفع جزء من المبلغ، ويسدد بعد ذلك ما تبقى، ولكنه تباطأ في الدفع ، وقام نزاع بين الطرفين ، وتدخل البعض ، واتفق على دفع الباقي، وقد أقرت المحكمة هذا الاتفاق [٢٢٣]. كذلك مماطلة أحد المغاربة لبعض الشوام في تسديد ما عليه من قرض، ثم ادعى بأنه كان عاجزًا ، واستشهد بالبعض ، وانتهى الأمر بدفع ما تبقى عليه من المبلغ[٢٢٤].

* * *

أما بالنسبة للأمانات ، فقد حدث أن أودعت إحدى السيدات مصاغها عند شقيقها بصفة أمانة ، وتذكر أنواعها وأوزانها، واستردتها دون نقصان[٢٢٥] وقام البعض بإيداع مبالغ كبيرة لدى الغير بصفة أمانة واستردها كاملة [٢٢٦]. وقد أودع أحد الشوام مبلغا من المال لدى أحد المغاربة ، بصفة أمانة لاستثماره، ولكن حدث أن خسر المبلغ وقام نزاع بين الطرفين ، وانتهى بخسارته للمبلغ على حسب شهادة الشهود[٢٢٧].

وتحدث بعض المشاكل في هذا المجال. مثال ذلك قيام بعض الأهالي بتأدية فريضة الحج ، وقبل ذهابه ترك مبلغًا من المال لدى البعض بصفة أمانة . وحدث أثناء تأديته فريضة الحج، أن توفي هناك. وعندما طالب الورثة، برد المبلغ، أنكر واستشهد ببعض الشهود الذين أبدوه ، وكانت النتيجة ضياع المبلغ[٢٢٨].

وقد أودع أحد الحجازيين بعض الأواني النحاسية كرهن عند البعض، إلا أنها فقدت ، فحدث نزاع بين الاثنين ، وانتهى ذلك بدفع قيمة هذه الأواني[٢٢٩].

أما الوضع بالنسبة للأوربيين فانهم كانوا يحصلون مبالغ على هذه الأمانات ، التي اتخذت أشكالا مختلفة مثل النقود الذهبية كالدينار الذهبي، ويفقد هذا المبلغ ، وتكون النتيجة دفع ما يوازيه من العملات المحلية التي كانت تتداول خلال هذه الفترة[٢٣٠] وقد تكون الأمانة مجوهرات ويطمع فيها ، ولايردها بل وينكر استلامها ، ولكن في النهاية تلزمه المحكمة بردها بما لديها من مستندات[٢٣١].

بعض الحرف والصناعات :

أما عن الحرف والصناعات ، فإن دراسة موضوع طوائف الحرف في مصر العثمانية ، تلقي الضوء على جانب هام من جوانب حياة المجتمع المصري العثماني الذي انقسم فيه المجتمع إلى

هيئات طائفية كان منها العلماء والملاك والتجار والصناع . فجميع الأفراد الذين تضمهم مهنة واحدة، أو عمل واحد أو مذهب ديني واحد، كانوا ينظمون أنفسهم في شكل طائفة لرعاية مصالحهم . وقد ضمت الطوائف جميع فئات المجتمع بلا استثناء أو تفرقة . فكان منها طائفة يميلون إلى تقديم ولائهم إلى طائفتهم أكثر من تقديمه إلى السلطة الحاكمة[٢٣٢] وكان نظام الحرف قائمًا على التكوين الديني أو العرقي للطوائف . فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس الحرفة . فإنهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم . ونوع تجارتهم وعباداتهم الدينية[٢٣٣] وتدرجوا في مراتب هذه المهن الطائفية طبقًا لنظام الطوائف من صبي إلى أسطى أو معلم إلى شيخ حرفة أو شيخ طائفة[٢٣٤].

أما بالنسبة للصناعات فإنها كانت صناعات صغيرة تعتمد على ورش صغيرة . وكانت في النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي بدائية تعتمد على عدد قليل من العمال لتزويد السكان بما يحتاجون إليه من غذاء وكساء وأدوات منزلية . وكانت تعتمد في المقام الأول على القوى العضلية والمواشي. واستخدم بعض المهاجرين الأجانب قوة الهواء في إدارة الطواحين[٢٣٥].

أما الحرف فإنها كثرت وخاصة التي ترتبط ارتباطا وثيقًا بالمدن الساحلية مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط . والسويس وغيرها ومن أهمها حرفة قلفطة المراكب. ونجد أن بعض أهالي الأندلس الذين وفدوا بمراكبهم إلى الإسكندرية ورشيد ينتهزون فرصة رسوهم في رشيد ويقومون بعملية القلفطة[٢٣٦] وقد احترف هذه الحرفة كل من الأهالي والأوربيين اليونانيين والعرب الشوام والحجازيين[٢٣٧] وبحارة المراكب[٢٣٨] وخاصة اليونانيين الذين خدموا في الأسطول العثماني، كما أن الأتراك العثمانيين تركوا تجارتهم مع الغرب في أيدي اليونانيين لخبرتهم البحرية[٢٣٩] وعمل الأهالي كبحارة في النيل وفي البحر المتوسط، والنقل بين الموانئ الداخلية مثل دمياط ورشيد[٢٤٠] ونقلوا البضائع بين موانئ البحر المتوسط مثل : من طرابلس إلى الإسكندرية[٢٤١] وقد لوحظ أن رئيسهم أحيانا يكون من المغاربة [٢٤٢]. بالإضافة إلى ذلك استخدموا معهم بحارة أوربيين[٢٤٣] وقد يطردوا لسوء سلوكهم أو غير ذلك من الأسباب وينتقمون منهم بالاستيلاء على بعض ما تحمله المركب[٢٤٤].

ووجدت حرفة أخرى تتعلق بصناعة المراكب وعمليات البناء، ألا وهي حرفة الخدادة، وقد مارسها الأهالي في رشيد[٢٤٥] وحرفة المعمار[٢٤٦] وكان يرأس هذه الحرفة معماري باشي

الذي كان يحصل من الحرفيين (أو من مباشرهم في كل عمارة من العمارات السلطانية التي يشرف عليها معمارًا واحدا) أو ١٨٠ نصف فضة يوميا[٢٤٧] وقد لوحظ أن الأهالي احترفوا هذه الحرفة وشاركهم فيها الشوام[٢٤٨].

كذلك احترف الأهالي، حرفة أخرى تتعلق بوسيلة النقل الأساسية التي كانت موجودة، سواء أكان ذلك داخل المدن أو خارجها، وتعتمد أساسًا على النقل بالحمير . وكان لهؤلاء حرفة معينة عرفت بحرفة المكارية . وكانت لهم مواقف خاصة بهم، ويتفق معهم على الأجرة مقدما، ويدفع أحيانًا عربون، وقد يسترد [٢٤٩]. وقد احترفها كل من الأهالي والشوام[٢٥٠].

كذلك احترف الأهالي السقاية[٢٥١] لأن هذه الحرفة كانت موجودة في تلك الفترة، وكانوا ينقلون الماء في مزادات[٢٥٢] فكانت جماعة السقابين عنصرا أساسيا من عناصر المظهر الاجتماعي. ويحكم ذهابهم من منزل لآخر- كما تقتضي وظيفتهم- فقد تهيأ لهم أن ينفذوا إلى داخل البيوت حيث السيدات . وربما نجم عن ذلك أنهم لعبوا دورا هاما في نقل الأخبار ونشرها وساهموا بطريقة مباشرة في الحياة اليومية للأهالي [٢٥٣].

وهناك حرفة أخرى كانت سائدة في تلك الفترة في مصر العثمانية، ألا وهي حرفة الحمامين والتي يبدو أن التقاليد الطائفية «النقابية» عندهم كانت قوية لحد كبير، إذ أنهم وحتى نهاية القرن التاسع عشر، في وقت كانت الروابط الطائفية في كثير من الحرف قد ضعفت، ظلوا يقومون باحتفالات الشد، وكان يمارس هذا التقليد بالإضافة إليهم الحذامون والحلاقون [٢٥٤]. وبجانب حرفتهم كانوا دائما يتعاملون في التجارة وخصوصا تجارة الدقيق [٢٥٥]. ويرجع ذلك إلى أن بعض الذين يدخلون للاستحمام يقضون أغلب اليوم هناك فيلزم إطعامهم إن لم يكن معهم طعاما. وقد مارس هذه الحرفة كل من الأهالي والمغاربة[٢٥٦] والشوام وكانوا يتعلمونها عن بعض المغاربة[٢٥٧] واحترف كل من الأهالي والمغاربة حرفة الحلاقين[٢٥٨].

أما حرفة الخياطين فقد احترفها كل من المغاربة والحجازيين واليونانيين الذين اشتهروا بخياطة الطواقي[٢٥٩] وعمل الشوام برفي الملابس[٢٦٠].

بالإضافة إلى ذلك فقد وجدت حرف أخرى كمهنة الخبازين حيث عمل فيها كل من الأهالي والمغاربة والشوام[٢٦١] وعمل كل من المغاربة والأهالي والشوام في حرفة القصابين[٢٦٢] وعمل أيضا كل من المغاربة والحجازيين كمداحين وطبالين[٢٦٣] وهناك مهنة السمسرة التي احترفها المغاربة واليونانيون [٢٦٤]. واحترف كل من المغاربة والأوربيين والأهالي الصرافة [٢٦٥]. وعمل

المغاربة كدلالين[٢٦٥] والشوام تواسين[٢٦٦] والحجازيين فى الصباغة لحساب الغير[٢٦٧] واليونانيون كصناع للكراسى. وكانت لهم وظائفهم المنفصلة . وكان بين أعضاء الطائفة المحلية فى هذه الحرفة الأقباط واليهود[٢٦٨].

واقتصرت بعض الحرف على فئة معينة مثل الشوام ، الذين احتكروا حرفة القهوجية[٢٦٩] والدخاخنية وتبييض النحاس[٢٧٠] وكان شيخ الحرفة يتولى شئونها ويفصل فى المنازعات بين الأفراد ، ويوزع عليهم الضرائب، وينزل بهم العقاب إذا أهمل أحد الأفراد فى حرفته[٢٧١].

أما أجور الحرفيين . فإما أن تكون نقدية أو عينية، مثل الملابس وغيرها [٢٧٢]. وقد يتفق الحرفى من الحجازيين مثلا على القيام بعملية معينة بأجرة محددة [٢٧٣]. وغالبا كانت أجرة الحرفى تتساوى تقريبا عند مختلف الجنسيات[٢٧٤].

وبالنسبة للمشاكل التى تحدث فى هذا المجال، نذكر على سبيل المثال: تباطأ بعض الحرفيين الشوام فى تسليم الستائر التى سلمها له البعض لتضيعها ، وعندما استفسر عن سبب ذلك، اتضح أنها سرقت منه[٢٧٥] وتسليم بعض العاملين فى تبييض النحاس بعض الأوانى لسيدة غير صاحبتها[٢٧٦]. وفى هذه الحالة أصرت صاحبة الأوانى على أخذ قيمة أوانيها[٢٧٧].

وفى هذا القطاع نجد الكثير من الخلافات حول إتمام العمل دون دفع الأجرة المتفق عليها، كما حدث فى تلفظة إحدى المراكب[٢٧٨] أو إهمال تعليم الحرفة، ورفضه دفع المبلغ المدفوع وإنكار الاستلام[٢٧٩].

* * *

وبالنسبة للصناعة فى مصر فى العصر العثمانى ، كانت هناك بعض الصناعات مثل صناعة النسيج وخاصة نسج الملابس المغربية والملابس الصوفية التى استخدمها البدو فى الصحراء الغربية، والأحرمة المغربية والشيلان المغربية التى كانت لها شهرة واسعة[٢٨٠]. كذلك انتشرت صناعة المنسوجات فى كثير من المدن الشمالية (فى الوجه البحرى)، نظراً لسهولة استيراد الحرير من سوريا[٢٨١] وملاءمة تلك المدن للتصدير إلى أسواق الأقطار المجاورة. وقد أصبح لبعض القرى شهرة واسعة بالصناعات مثل منوف، محلة مرحوم ، وبرية، وأبيار، وبيسون، وسمنود ورشيد ودمياط وأنشاص [٢٨٢]. كذلك نشطت صناعة النسيل والمنسوجات الكتانية[٢٨٣]. وكان يصنع فى رشيد نوعًا من الأقمشة الكتانية بها خطوط من

الحرير الأبيض، تستخدم بصفة خاصة فى صنع قمصان النساء[٢٨٤] كذلك كانت تصنع قلوع المراكب من الكتان، وكانت لها شهرة واسعة فى تلك الفترة [٢٨٥] وقامت صناعة تمليح السمك[٢٨٦] والسكر[٢٨٧] الذى كان يصدر منه للخارج[٢٨٨] والمراكب وقد اشتهرت رشيد بذلك، واعتمدت على خبرة أهالى مطوبس فى هذا المجال[٢٨٩].

وتخصصت كل طائفة فى صناعة معينة مثل المغاربة فى صناعة عصر الزيوت . والصابون والسكر، والمخلل والأقمشة ، والأحرمة الصوفية، والشيلان المغربية والملابس الصوفية والمنسوجات الكتانية بأنواعها ، والأقفاص ، والحصر، والأدوات المنزلية ، والأدوات الخشبية ، والسروج ، والتزازة ، والأدوات الحديدية ، ودباغة الجلود [٢٩٠]. وتخصص الشوام فى صناعة الحلوى[٢٩١] واليونانيون فى صناعة المرجان[٢٩٢].

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية . فكانت من واقع سجلات المحكمة الشرعية، متمثلة فى العادات والتقاليد ، مثل الزواج والطلاق، والميراث ، والخلافات العامة، واعتاق العبيد والجوارى والأوقاف، واعتناق بعض أهل الذمة من أهل البلاد والأوربيين للإسلام ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى.

ومن الملاحظ فى حالة الزواج ، النص دائمًا على مقدم الصداق والمؤخر ، الذى كان فى أغلب الأحوال يقسط على أقساط شهرية ، وأحيانا لايدفع مؤخر الصداق طالما أنها فى عصمته ويلاحظ أيضا أن مقدم الصداق كان يختلف من فئة لأخرى، ويكون ذلك راجعا إلى حرفة الزوج أو إلى مقدرته المالية، فنجد المكارى مثلا يدفع مقدم صداق يتناسب مع مكانته ، أما المؤخر فهو يقسط على أقساط شهرية متساوية [٢٩٣]. وعندما يتباطأ بعضهم- فى بعض الحالات- فى دفع بقية الأقساط الشهرية تلجأ الزوجة إلى القضاء لتحصل أقساطها الشهرية من مؤخر الصداق[٢٩٤] لأن تقسيط مؤخر الصداق كان ساريا فى بعض فئات المجتمع خلال هذا العصر[٢٩٥] كما يتعهد الزوج بكسوة زوجته شتاء وصيفا[٢٩٦].

وقد تمت بعض حالات الزواج بين الأهالى والمغاربة[٢٩٧] وبين الأهالى والهوارة الصعايدة[٢٩٨] وإن كان ذلك يخالف عاداتهم وتقاليدهم بعدم الزواج من غير الهواريين ، كما أن البدو الأردنيين المقيمين بالبحيرة كانوا يتزوجون من الأهالى ويشترط عليه كسوتها[٢٩٩].

وبالنسبة للحجازيين، فقد تزوج بعضهم من بنات الأهالي[٣٠٠] وبنات المغاربة[٣٠١] وإحدى المحترفات الحبشيات[٣٠٢]. وهناك ما عرف بالزواج المشروط وهو أن تشترط إحدى الزوجات على زوجها، بأنه إذا تزوج بغيرها، تكون طالقا دون أن ينطق اللفظ نفسه[٣٠٣].

أما بالنسبة للشوام، فقد تزوج أحدهم من بنات إحدى أهالي الصعيد المقيمين بالاسكندرية[٣٠٤] وتزوج أيضا أحد الشوام الدروز من بنات الأهالي[٣٠٥]. كما تزوج بعض الأهالي من إحدى بنات الشوام[٣٠٦] ومن اللاتي كن صغيرات السن تقدر بعشر سنوات[٣٠٧] ومن الطريف أن إحدى النساء العاميات اشترطت على زوجها إذا تركها مدة ثلاث شهور دون متعة أو نفقة تصبح طالقا دون أن يطلق اللفظ[٣٠٨].

أما المغاربة، فقد لوحظ عندهم تحديد المقدم والمؤخر، الذي يقسط أحيانا على سنوات معينة يتفق عليها[٣٠٩] وتزوجوا من عربان هوارة[٣١٠] وأيضا من إحدى السردينيات المعتقات بعد أن أشهرت إسلامها[٣١١].

أما الزواج عند الجاليات الأوربية، فقد تم بين بعضهم البعض، وبينهم وبين بعض الجنسيات الأخرى، ويذكر مقدم الصداق ولايذكر المؤخر ولا كمونتها[٣١٢] ولابد أن يذكر أنها خالية من الموانع الشرعية[٣١٣] وتزوجوا من الأهالي وتزوج الأهالي كذلك من الأوربيات المسلمات[٣١٤].

وهناك حالات من الزواج المشروط بعدة شروط، مثل عدم مطالبة الزوجة بمؤخر الصداق طالما أنها في عصمته، وتكون الزوجة طالقا منه، لو تزوج بأخرى دون أن يطلق اللفظ، أو الالتجاء للقضاء، وفي هذه الحالة تبريه من جزء معين من مؤخر صداقها[٣١٥].

وفي حالة الطلاق عند الأهالي، قد تبرئ الزوجة زوجها من مؤخر صداقها[٣١٦] وأحيانا يدفع مؤخر الصداق المتفق عليه[٣١٧].

أما الطلاق عند الحجازيين فيتفق على اقتسام أثاث المنزل وغير ذلك. ومن الممكن في مثل هذه الحالة أن تطلب من مطلقها رد بعض الأشياء الخاصة بها[٣١٨] ويطلب الزوج أحيانا أن تبريه من مؤخر الصداق[٣١٩].

وعند الشوام، كان الطلاق يتم في بعض الحالات بأن تطلب الزوجة نفسها الطلاق، وتتنازل عن مؤخر صداقها[٣٢٠] وهناك حالة أخرى تنازلت فيها الزوجة عن مؤخر صداقها، وبالرغم من ذلك فإنه يحكم لها بنفقة شهرية[٣٢١] وتنطبق نفس الحالة على المغاربة[٣٢٢].

أما بالنسبة للأوربيين، فإنه من المفروض للمطلقة أن تستلم مؤخر صداقها المتفق عليه دفعة واحدة، ولكن يدفع المطلق المؤخر على دفعات، ويتفق الاثنان على استلام ما يخص كل منهما من أثاث المنزل[٣٢٣] وأحيانا تبرئ الزوجة زوجها من مؤخر الصداق، وما يخصها من مجوهرات وأثاث وغير ذلك من مستحقاتها، إذا كانت هي الراغبة في الطلاق[٣٢٤].

أما عملية النزاع على الميراث، فقد يحدث أن يستولي أحد الأخوة على ميراث أخوته، من أرض زراعية وغير ذلك، ويستولي على ريعها من الحاصلات الزراعية، ويلجأ الورثة للقضاء، الذي ينصفهم برجوع حقهم في الأرض والريع[٣٢٥] ويحدث أن يكون لأحد المغاربة المقيمين خارج البلاد ميراثه الشرعي في رشيد، ويركل أحد الأهالي باستلام ميراثه وصرف ريعه على الورثة الشرعيين الموجودين في رشيد[٣٢٦].

أما الميراث عند الحجازيين فإنه اختلف حسب نوعه، فقد يكون الميراث عبارة عن أموال ثمن بضاعة، باعها التاجر قبل وفاته، ففي مثل هذه الحالة طالب الورثة المشتري بالمبلغ، الذي وعد بسداده بعد خصم نسبة منه[٣٢٧] وقد تكون التركة تشمل بعض الأبنية، وبضاعة ومراكب وعقارات، مشاركة بينه- المتوفى- وبين أخيه، وأراد أبناؤه الانفراد بالميراث وحدهم، ولكن يثبت أخوه في المشاركة، حتى ينتهي الوضع بتقسيم الميراث مناصفة[٣٢٨].

وبالنسبة للشوام فإنه قد تكون حصة الميراث في أشياء أخرى غير العقار[٣٢٩]، قد تكون في بعض الحيوانات. ويستشهد الورثة بمقدم السقائين وغيره[٣٣٠] ويتنازل أحد الورثة عن نصيبه في الميراث لأخيه وأخوته البنات[٣٣١]، كما يوهب البعض قبل وفاته ميراثه لبعض الناس الذين كانوا يقومون برعايته أثناء مرضه، وكتب حجة بذلك وشهد عليها بعض الشهود[٣٣٢] كما يهب آخر حصته في القايق لشخص ما[٣٣٣].

وبالنسبة للمغاربة وتصفية تركاتهم فقد أخذت أشكالا وأنماطا معينة، فقد أخذ أحدهم حق والدته وشقيقته، فاستشهد ببعض الأندلسيين الذين أكدوا حقهما في الميراث وأقر بيت المال ذلك[٣٣٤] وحدد بعضهم الوصي على أولاده مثل زوجته[٣٣٥]. وكتبت إحدى الدلالات وصيتها قبل أن تؤدي مناسك الحج[٣٣٦]. ويتوفى بعضهم وهو خارج البلاد فيقوم من ينوب عنه بتسليم وصيته إلى بيت المال[٣٣٧].

وبالنسبة للأوربيين، قد تكون التركة مشتملة على بعض البضائع مثل الأخرمة والأرز[٣٣٨] ويذكر في وصيته قيمة ماله، وما عليه من ديون، ويذكر سبب هذه الديون سواء أكان ذلك في شكل قروض أو في بضاعة ويستشهد ببعض الشهود[٣٣٩].

ويأتي بعد ذلك مظهر آخر من مظاهر الحياة اليومية الخاصة بالأهالي والعرب والجاليات الأوربية وغيرهم من المقيمين بالإسكندرية، والتي اتخذت أشكالا عديدة ، مثل التعامل مع بعضهم البعض، وقضايا قذف العرض، فسجلات المحكمة الشرعية، مليئة بمثل هذه القضايا . من ذلك تعرض بعض الأهالي للاعتداء بالضرب من جانب بعض الأتراك العثمانيين الاستانبولين[٣٤٠] واتهمه بالكفر[٣٤١] وشمل الاعتداء من جانب بعض الأهالي على الآخر بالاعتداء على ممتلكاته الخاصة مثل ذبح بقرته، وطالب صاحبها بثمنها[٣٤٢] واعتدى آخر بالضرب والتلفظ بألفاظ نابية ، مما جعله يطلب التعويض عن الضرب والإهانة[٣٤٣] واتهام البعض بسرقة ماله أثناء نومه عنده ، واتضح بعد ذلك أن صاحب المبلغ برأ المتهم[٣٤٤] الذي صفح عنه نتيجة للتهمة الموجهة ضده[٣٤٥].

وتعرض بعض الحجازيين للسب والألفاظ النابية من جانب بعض الإكليرية ، وطالب بالتعويض المناسب ، وقد اتضح بعد ذلك أن الحجازي قد استولى على علف جماله مما أدى إلى الاشتباك . وتبادلا الألفاظ النابية ، وترتب على ذلك أن أصدر القاضي حكما تأديبيا ضدهما[٣٤٦] كما اعتدى أحد الأهالي على آخر بألفاظ نابية ، وعند مواجهته أنكر حدوث ذلك ، ولكن أكد الشهود ذلك[٣٤٧]. وعلى الجانب الآخر اعتدى أحدهم على بعض الزيانين بلفظ نابٍ، وطالب بالتعويض المناسب[٣٤٨].

وبالنسبة للشوام ، نجد أن أحد الحدادين اتهم أحد السكندريين بأنه تفوه بعبارات زوجته ، وعند مواجهته بذلك أنكر ، وأمام شهادة الشهود الذين أكدوا حدوث ذلك اعترف وتعهد بعدم فعل ذلك مرة أخرى[٣٤٩] واكتفى القاضي بتعهده . واحتست بعض النساء الخمر في إحدى خمارات المدينة، وعند مواجهتها بذلك علللت فعلها بأن بعض النساء قد غرون بها ، وأدخلنها هذه الخمارة التي يمتلكها أحد الذميين ، ووجدت بعضهن يحتسين الخمر، وتدمن لها ، واحتست كمية كبيرة حتى فقدت وعيها تماما[٣٥٠] ومن الملاحظ أنه لم يصدر حكم ضدها. وممارسة إحدى الشامیات الدعارة ومعها إحدى الساقطات الأخريات في أحدى الحدائق العامة بالمدينة، وتم ضبطهن بمعرفة صوباشي المدينة أثناء مروره ليلا. وعند مواجهته الجميع من الرجال والنساء، ادعى أحد الرجال بأن البستانجي، هو الذي أحضر لهم هؤلاء النساء لممارسة الدعارة معهن ، نظير دفع مبلغ معين. وانتهى الأمر بتطبيق الشرع الشريف ضد الجميع[٣٥١] ومن الملاحظ أنه لم يصدر أي حكم ضد البستانجي باعتباره أنه مارس مهنة القواد. وهناك العديد من القضايا المتنوعة في مثل هذه الأمور .

أما المغاربة فقد اعتدى أحدهم على الآخر بالألفاظ النابية، وتفوه بألفاظ أخرجته عن دين الإسلام، وعندما مثل ، اعترف واستغفر ربه، وتاب ، وتلفظ بالشهادتين[٣٥٢] واعتدى بعض اليهود على أحدهم بالسب ، وعندما روجه بذلك ، اعترف وتم الإفراج عنه بضمان أحد المترجمين لدى القرنسيين[٣٥٣] واعتدى بعض الأضالبين على أحدهم بالألفاظ النابية ، فطالبه بالتعويض عن ذلك[٣٥٤].

وشهدت الاعتداءات مظهرا آخر ، مثل ممارسة الشذوذ الجنسي مع الأطفال والرجال[٣٥٥] والاعتداء على أملاك بعضهم مثل المركب والسلاح ومثل البندقية[٣٥٧] أو حيواناته[٣٥٨] أو مجوهراته[٣٥٩].

أما الجاليات الأوربية ، فنجد اعتداء بعض الأوروبيين على منزل بعض اليهود ، لمجرد سماعه أن لديه جارية مسيحية، يريد تهويدها بالقوة ، وهجم على منزله، وحدث نتيجة لذلك ضرر ألم بزوجته وابنها الرضيع فيطالب بالتعويض عن ذلك[٣٦٠] ويعتدي البعض الآخر على يهودي بالضرب بدعوى أنه يمارس الزنا مع زوجاته الثلاث ، ويستشهد بأحد المسلمين وبعض الأوروبيين ، ويطالب بتعويض عما لحقه من أضرار مادية وأدبية . فأنكر الشهود الأوربيون الضرب، أما الشهود المسلمون فقد أكدوا عملية الاعتداء بالضرب[٣٦١].

واعتدى بعضهم على بعض أفراد الأوجاقات العثمانية بالضرب وطالب المعتدى عليه بالتعويض المناسب[٣٦٢] واحتسى البعض الخمر وهجم على مسكن أحد المسلمين ، وسرق بعض الأوانى النحاسية ، واعترف باحتسائه الخمر، ولكنه أنكر السرقة[٣٦٣] واعتدى بعض الأهالي على منزل أحد الأوربيين ، وقت أداء صلاة الجمعة ، وسرق بعض الأشياء النفيسة، وقد شاهد صاحب المنزل السارق لأنه جار له[٣٦٤] وقيام بعض الأوروبيين بالسطو على مساكن أحدهم أثناء تغيبه وأسرته بالسفر، واستولى على أمواله وبعض مجوهراته ، ولكنه أنكر ذلك بالقسم أمام قسيس الكنيسة[٣٦٥].

وكان الاعتداء بالألفاظ النابية شائعًا بينهم، وكان الرد الطبيعي في مثل هذه الحالات الرد أيضا بالألفاظ النابية[٣٦٦] وهناك الاعتداء بالألفاظ التي وصلت إلى التجريح بأمهاتهم[٣٦٧] كما وصل بهم التجريح إلى نسب الشخص نفسه، أي أنه «لقيط»[٣٦٨] ونذكر بعض هذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر ، وقد ظهرت عمليات التعدي بالألفاظ بشكل واضح[٣٦٩].

وحدث أن اعتدى بعض الطباخين الأوربيين على بعض السقائين بالضرب، بسبب بيع الماء، وتدخل بعض المارة ليفض هذا الشجار، فقام الأوربى بالاعتداء عليه هو الآخر، وسال الدم منه، وعندما ووجه بذلك أنكر، ولكن بشهادة حكم لهما القاضى بالتعويض المناسب[٣٧٠].

وإذا كان البعض قد اعتدى على الآخرين بالألفاظ النابية أو بالضرب، فإنه حدثت هناك اعتداءات لا أخلاقية، كممارسة الشذوذ الجنسى مع البعض[٣٧١] وممارسة الدعارة بين أحد الأوربيين وإحدى المسلمات بإحدى الحدائق الخاصة بشيخ طائفة المغاربة بالمدينة، وضبطت هذه الحالة، وطبق عليهما ما أمر به الشرع وأقره فى مثل هذه القضية[٣٧٢].

كذلك شهدت الاعتداءات أيضا نوعا آخر كالاعتداء على ممتلكات بعضهم وإتلافها أو سرقة البضائع منهم، فحدث أن اعتدى البعض على مراكب الآخرين وأتلفها، وطالب بالتعويض عما أصابه من أضرار[٣٧٣] وشمل هذا الاعتداء أيضا استيلاء البعض على عبيد الآخرين، فقد اتهم بعض الاسبرطيين أمين بيت المال باستيلائه على عبدين خاصين به، ولكنه أنكر ذلك- - أمين بيت المال- وذكر أنهما ملكًا خاصًا به، ولكن الأوربى أثبت بالمستندات والشهود ملكيته لهما، وعلى هذا الأساس سُلما لصاحبهما الأوربى[٣٧٤].

* * *

أما اعتاق العبيد والجوارى لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، فكانت سمة موجودة خلال هذه الفترة- حيث قام بعض الأهالى بإعتاق عبيده، وفى تلك الحالة، يذكر جنسيته ومواصفاته الجسمانية، وغير ذلك، ويقر بأنه- العبد- قد أصبح حرا من أحرار المسلمين وله نفس الحقوق وما عليه من الواجبات[٣٧٥] ولم يكن اعتاق العبيد قاصراً على الرجال، بل شمل أيضا الجوارى من النساء[٣٧٦].

وقام أحد التهوجية الشوام بإعتاق عبد له، لوجه الله تعالى وابتغاء رحمته، وأنه أصبح حرا من أحرار المسلمين، وعليه حقوقهم، وله واجباتهم[٣٧٧] وقد يقوم أحد الأفراد باتخاذ الإجراءات لإعتاق جارية له، وحدث أثناء ذلك أن وافته المنية ولكن الشهود أكدوا ذلك وأصبحت هذه الجارية حرة من أحرار المسلمات[٣٧٨].

وقام أحد المغاربة بإعتاق بعض عبيده وجواريه، ابتغاء وجه الله[٣٧٩] وأحضر آخر عبده المسيحى، وأعلن إسلامه، ووافق على ختانه وأعتقه[٣٨٠] وأخر أثبت أنه لم يمسه الرق والصبوة لاهو ولا أهله، وأنه مسلم أبا عن جد ولاتعرف سببا لذلك.

أما بالنسبة للأوربيين فإنها كانت قاصرة على المسلمين فقط منهم، مثال ذلك اعتاق إحدى الجوارى الخاصة بأحد المسلمين للإسلام، وشهد على اعتناقها لدين الإسلام وسجل ذلك فى المحضر، أنه اعتقها لوجه الله تعالى، وأنها أصبحت حرة من أحرار المسلمات لها ما لهن وعليها ما عليهن[٣٨٢]. واعتنق بعض العبيد الإسلام، وخشى من إعلانه، وسمع بعض المسلمين بذلك، فأحضر الشخص الذى له الحق فى بيع هذا العبد، وتم الاتفاق على بيعه فى أسواق المدينة، برضاء صاحبه، واشتراه ثم اعتقه لوجه الله تعالى[٣٨٣].

أما الأوقاف والحياة الدينية منها الأوقاف الموقوفة على الحرمين الشريفين، فكانت تؤجر للأهالى، ومن حصيلة إيجارها يصرف على الحرمين الشريفين[٣٨٤] ولم يقتصر على ذلك، فقد كان هناك وقف الأشرف قايتباى فى مدينة الإسكندرية، ودمياط ورشيد، ويصرف ما يحصل منه على أوجه الخير[٣٨٥] ويلجأ البعض لوقف بعض أملاكه للصرف على أولاده القصر، على أن يستردون أوقافهم بحجة شرعية[٣٨٦] وأحيانا يوقف بعضهم بعض أملاكه وتؤجر للأهالى مدة معينة[٣٨٧] واتخذت الحياة الدينية مظهراً آخراً مثل تأسيس المساجد فى بعض البلاد الأوربية مثل قبرص، ويرسلون إليها البسط والحصر والأموال للصرف عليها[٣٨٨]. كما اشتهر البعض بحبه للخير والعطف على الفقراء والمحتاجين، فيقوم بشراء الغلال من بلاد الشام إبان حدوث الأزمات الاقتصادية، كما حدث فى عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م. ويبيعها بسعر معتدل للفقراء فى ثغرى الاسكندرية ورشيد، ففى هذه الحالة يدعو الأهالى دائمًا للسلطان العثمانى ودوام الدولة[٣٨٩].

وأوقف بعض الحجازيين بعض الأراضى الحجازية على الطريقة البرهانية[٣٩٠] كما أوقف بعضهم مكانًا بجوار مقام الشيخ ياقوت العرشى اشتمل على بيت للسكن، وبيت آخر، وقطعة أرض خالية بالمكان المذكور، وقد ذكر أن هذه الأشياء آيلة للورثة بالميراث الشرعى، من قبل والدتهما. وأقرا بأنهما وقف شرعى بحيث لايباع لأحد، ولايرهن، ولايستبدل جزء منه أو بعضه، ويظل هذا الوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. واشترط الواقف أن يتم الصرف منها على مقام سيدى ياقوت العرشى، وعلى فقراء المسلمين من قبل أنفسهما، وفى ذريتهما من بعدهما، ومن هم فى درجات القرابة. وعين الناظر على الوقف وحدد واجباته التى تشتمل الصرف على الوقف والعناية بالمبانى وصيانتها وغير ذلك من الشروط الأخرى[٣٩١].

أما الشوام فكان منهم من يتبرع للصرف على وقف معين بالمدينة، ويحدد المبلغ المقرر لهذا العمل، وهو قيام أحد القهوجية المستأجرين لهذا الوقف بالتعهد بصيانتها وترميمها على نفقته الخاصة. كما تبرع البعض بمبلغ للصرف على روح المتوفى عن المنتفع بالوقف[٣٩٢] ويشترى البعض منزلاً، ثم يوقفه بعد ذلك للصرف على مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه[٣٩٣].

وبالنسبة للأوقاف للمغاربة، وجد الكثير من الأوقاف الخاصة بهم[٣٩٤] واستأجر البعض بعض المخابز فى مبانى الأوقاف . وفى مثل هذه الحالة يتفق على مدة الإيجار وطريقة الدفع[٣٩٥] وشمل الإيجار أحيانا فى الوقف، إيجار حصة تقدر بالثلث[٣٩٦]. وتأخر بعض المستأجرين فى وقف زاوية المغاربة فى دفع الإيجار[٣٩٧] كما تأخر أحدهم فى دفع إيجار وكالة فى وقف الحرمين الشريفين[٣٩٨] كما تبرع أحدهم لأحد المتعسرين فى دفع الإيجار الخاص بوقف المغاربة فى المدينة[٣٩٩].

وقام بعض الأوربيين بوقف بعض الممتلكات الخاصة للصرف على الكنائس بالمدينة، وعلى فقرائها ، ويذكر فى حجة الوقف بأنه لايجوز البيع أو الرهن ، بأى وجه من الوجوه إلا للصرف عليها، ويذكر أنه فعل ذلك لوجه الله تعالى[٤٠٠] ويقوم البعض باستئجار الوقف الخاص بفقراء الفرنسيين[٤٠١]، وينص فى عقد الإيجار لمدة سنة هجرية ، تدفع على ثلاث أقساط متساوية[٤٠٢].

أما اعتناق الإسلام، فقد اعتنق أحد اليهود الشوام الإسلام، فيذكر أنه قد حضر طائعاً مختاراً دون إكراه أو إجبار وتلفظ بالشهادتين أمام الجميع[٤٠٣].

ويعتنق بعض الأوروبيين المسيحيين الدين الإسلامى ، ويقر بأنه جاء دون أى ضغط عليه، وتلفظ بالشهادة بقوله « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤٠٤] ويذكر البعض أنه قد أبرأ نفسه من كل دين يخالف الدين الإسلامى، وأنه قد سمى نفسه محمداً[٤٠٥] وشمل أيضا اعتناق الدين الإسلامى لبعض الجاريات التابعة لأحد الفرنسيين[٤٠٦] .

وكان بعضر اعتناق الإسلام بعض الشخصيات الهامة مثل بلك باشى الينكجرية بالثغر ، ونقيب الأشراف ومفتى الإسلام، وكثير من أعيان المدينة[٤٠٧].

ويأتى بعد ذلك اختيارهم للقناصل بالمدينة، ويبدو أنها كانت عملية اختيارية بين رعايا الدول الأوربية ، ويطالبون أحيانا كما حدث فى عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، التجار الإنجليز والجنويين والمستين ، بعزل القنصل الفرنسى ، لمجرد شكهم فى أنه غير نزيه، غير عادل فى تحصيل الرسوم المفروضة على تجار المدينة من الأوربيين[٤٠٨].

هكذا ساهم الأهالى والتجار العرب والجاليات الأوربية فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى فى مدينتى رشيد والإسكندرية فى العصر العثمانى، ففى المجال الاقتصادى تعرضت الدراسة لكافة أنواع السلع التى تعاملوا فيها، وتخصص كل فئة منهم فى تجارة سلعة معينة ، وقيام كل من الشوام والمغاربة والحجازيين والأوروبيين والأهالى فى هذا المجال، أما لحسابهم الخاص أو كوكلا - للآخرين ، أو تكوين شركات خاصة بتجارة سلعة معينة. وقد لوحظ فى تعاملهم بتجارة المراكب أنها شملت كافة الأنواع المستخدمة خلال هذه الفترة مثل القرة ، والأكريب، والغليون والشبطملية، وغير ذلك من الأنواع الأخرى، بالإضافة إلى دورهم فى تصدير واستيراد بعض المنتجات التى تعاملوا بها فى هذا المجال.

ومن جانب آخر سلطت الدراسة الأضواء على جوانب التعامل الاقتصادى بين الأفراد، ومن أهم الظواهر التى أبرزتها الدراسة ظاهرة الاقتراض سواء أكانت أغراضها اقتصادية لتمويل صفقات تجارية أو لأغراض أخرى، ثم عرضت للمشاكل المصاحبة لتسديد هذه القروض وضماناتها .

وفى الجانب الاقتصادى أيضا تعرضت الدراسة لأنواع العملات التى سكت خلال هذه الفترة مثل العثمانلى والدينار الذهبى الجديد، والبندقى ... الخ ، بالإضافة إلى الأوزان مثل الرطل والأقة والقنطار والأردب، والكيلة والمقاسات مثل الأمتار .

وقد ضم المجال الاقتصادى الحرف والصناعات التى عملوا بها، واحترفوها ، وتخصص كل فئة منهم فى حرفة معينة وصناعة معينة. وقد لوحظ أن نظام الحرف كان قائما على التكوين الدينى أو العرقى مع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرقى، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة ، فإنهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم، ونوع تجارتهم وعباداتهم الدينية[٤٠٩] وقد لوحظ أيضا أن اليهود والأوروبيون احترفوا حرفًا معينة مثل السمسرة والترجمة وشاركهم فى ذلك المغاربة، فضلا عن عملهم بصفتهم سماسرة للمعادن النفيسة والسكرة وصناع الزرابر[٤١٠].

أما الجانب الثاني للدراسة فتعرض لحياتهم الاجتماعية ومظاهر هذه الحياة وأهمها ظاهرة الزواج، سواء أكان هذا الزواج من بعضهم البعض أو من الجواري بعد عتقهن . وتعرضت لإجراءات الزواج لقواعده المختلفة وتقاليده كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التي تدون بالعقد والطلاق ومشاكله الناجمة على ذلك .

وعرضت الدراسة لمظاهر العلاقات الاجتماعية ، التي ظهرت مشكلاتها والجوانب الأخلاقية فيها، خاصة وأن البحث محدود بإطار الوثائق التي تسجل هذه العلاقات . وكلها مشاكل تتعرض في الغالب لاعتداءات بالضرب أو السب ، أو ممارسة الشذوذ الجنسي أو الدعارة أو الاغتصاب وموقف السلطات الحاكمة من كل ذلك.

كذلك عرضت الدراسة لجانب خير من جوانب الحياة الاجتماعية كظاهرة عتق العبيد والجواري، موضحة الدوافع وراء ذلك وحالات العتق وشروطه إن وجدت . ومن ناحية أخرى تعرضت الدراسة لظاهرة الأوقاف وتوجيهها للخير والبر، كما أنها سجلت حالات اعتناق بعض أهل الذمة للإسلام، ولجوء بعض الأوربيين لتغيير جنسياتهم والإجراءات التي تتخذ في مثل هذه الحالات .

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا : المصادر :

١- وثائق لم تنشر بعد :

أرشيف سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقاري بالإسكندرية . وقد نقلت أخيراً إلى دار الوثائق القومية بالقاهرة .

ثانيا : المراجع العربية :

١- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) ، في أصول التاريخ العثماني ، القاهرة ١٩٨٢ .

٢- إدوار وليم لين، المصريون المحدثون عاداتهم وعاداتهم . ترجمة عدلي طاهر نور، القاهرة ١٩٧٣ .

٣- أندريه ريمون، فصول التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية . ترجمة زهير الشايب القاهرة ١٩٧٤ .

٤- ب . س . جيرار ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الرابع من مجموعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨م .

٥- توفيق الطويل (دكتور) ، التصوف في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ١٩٤٦م.

٦- صلاح أحمد هريدي علي (دكتور) ، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، الإسكندرية ١٩٨٥ .

٧- دور الصعيد في مصر العثمانية (٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م) الإسكندرية عام ١٩٨٤م.

٨- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية .

٩- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) ، الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧٨م.

١٠- المغاربة في مصر في العصر العثماني، تونس ١٩٨١م.

١١- علي الجريطلي (دكتور) ، تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة - ١٩٥م.

١٢- عمر عبد العزيز (دكتور) ، مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى، ضمن ندوة مجتمع الإسكندرية عبر العصور المختلفة، الإسكندرية ١٩٧٣م.

١٣- دراسات فى تاريخ العرب الحديث، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى، بيروت ١٩٧١م .

١٤- ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتور)، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٧٨م. دراسات فى تاريخ وحضارة مصر والشام إبان الحكم العثمانى، القاهرة ١٩٧٩م.

١٥- محمد فهمى لهيطة (دكتور)، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٤٢ .

١٦- محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور)، حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى، القاهرة ١٩٧٨م.

١٧- محمد محمود زيتون ، إقليم البحيرة صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح، القاهرة ١٩٦٢ .

١٨- محمد مختار التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية برلاق ، ١٣١١هـ .

١٩- هاملتون جب، هارولد بوون، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧١م.

ثالثا : المراجع الأوربية :

20- Gabrial Baen.

Guilds in Egypt in Modern Times, Jeruslem , 1964 .

21- Stanford J. Shagaw.

Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge. 1964.

هوامش البحث

١- سجلات محكمة اسكندرية ، بالشهر العقارى، أرقام ٧ ، ٨ ، مادة ٢٥٠، ٢٥٨ ، ص١٠٨ ، ١١٢ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣ ، بتاريخ ٢٦ ذى الحجة عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م

٢- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ، ص٢٨ .

٣- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث، الشرق العربى من الفتح العثمانى، حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى، ص٥٧ .

٤- سجل رقم ٦ ، مادة ٢٢ ، ص٢ ، بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

، نفسه ، مادة ٣٢٢، ص١٠٧ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م .

، سجل رقم ٣٦ ، مادة بدون رقم ، ص٥٨ ، بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

، سجل رقم ٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص٥٦٤ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠٧هـ/ ١٦٠٨م.

٥- سجل رقم ١١ ، مادة ٩٦٨، ص٢٣٩ ، بتاريخ ٢٢ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٣ ، مادة ٣٨٥، ص١٢٨ ، بتاريخ ١٢ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٩م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٨٩٥، ص٣٣٣ ، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٨٠، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م .

٦- سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م

، سجل رقم ٢٩ ، مادة ٣٥٣ ، ص٩٧، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م.

، سجل رقم ٦ ، مادة ١٧٣ ، ص٦٩ ، بتاريخ آخر ربيع الأول عام ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٥م.

٧- سجل رقم ٨ ، مادة ٤٥ ، ص١٦ ، بتاريخ ١٢ محرم عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥ م .

٨- سجل رقم ١٧ مادة، ٣٩ ، ص٧ بتاريخ ١٩ رجب عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١ م .

، سجل رقم رقم ٥١، مادة ١٠٨٢، ص٧٩٣، بتاريخ ١٢ رمضان عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٢م .

٩- سجل رقم ٥، مادة بدون رقم ، ص١٩٨، بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

، سجل رقم ١ مادة ١٥٥ ، ص٣٦٥، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

، سجل رقم ٥٩، مادة ٩٨٧، ص٢٣١، بتاريخ ١٥ صفر عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م.

١٠- سجل رقم ١١، مادة ٩٣٩، ص٢٣٤، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ١١، مادة ٩٦٢، ص٢٣٨، بتاريخ ٢٦ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٥٦، مادة ٦٨٠، ص٢٣٢، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

، سجل رقم ٥٦، مادة ٦٨٠، ص٢٣٢، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

، سجل رقم ٤، مادة بدون رقم، ص٢٣، بتاريخ ٥ ذى القعدة عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م.

١١- نفسه.

، سجل رقم ٤٦، مادة ٢٠، ص٨، بتاريخ أواخر ربيع الثانى عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م.

١٢- سجل رقم ٩ مادة ٣٥٦، ص١٤٥، بتاريخ ١٦ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

١٣- سجل رقم ٤، مادة ١٠٧٣، بدون رقم، بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٤- سجل رقم ١٢، مادة ٤٤٠، ص١٥٤، بتاريخ ١٨ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

١٥- سجل رقم ١٤، مادة ١٣٦، ص٤١، بتاريخ ٢١ رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٦- سجل رقم ١١، مادة ١٣٦، ص٤١، بتاريخ ٢١ رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٧- سجل رقم ٩، مادة ٦٩٢، ص٢١٢، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

١٨- سجل رقم ، ١٢، مادة ٣٩٣، ص١٣٦، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

١٩- سجل رقم ١٥، مادة ١٤، ص٩، بتاريخ اذو القعدة عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م.

٢٠- سجل رقم ١٤، مادة ٦٨٧، ص٢٠٠، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٦٣م.

٢١- سجل رقم ١١، مادة ٦٣٥، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢- سجل رقم ١١، مادة ١٨٤، ص١٥٤، بتاريخ اشعبان ، عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٣- سجل رقم ١٢، مادة ٤٨٠، ص١٦٧، بتاريخ ١٤ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ٥٦، مادة ٦٨٠، ص٢٣٢، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

٢٤- جبرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ص٣٠١.

٢٥- سجل رقم ٥٦، مادة ٩٨٧، ص٢٣١، بتاريخ ١٥ صفر عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م.

٢٦- سجل رقم ٩، مادة ٤٩٤، ص٩١، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

٢٧- سجل رقم ٢١، مادة ٧٩٩، ص٢٩٠، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

٢٨- سجل رقم ٤٦، مادة ٢٥٤، ص١١٢، بتاريخ غاية ذى الحجة عام ٩٧ - ١هـ/ ١٦٨٥م.

٢٩- سجل رقم ٥٦، مادة ٦٨٠، ص٢٣٢، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

٣٠- سجل رقم ٦، مادة ٩٣٩، ص١٣٥، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

٣١- سجل رقم ١١، مادة ٢٩٤، ص٢٩، بتاريخ ١٢ رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٢- سجل رقم ٥، مادة ٥٦٠، ص٢٤، بتاريخ أول ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

٣٣- سجل رقم ٥٩، مادة ٤٥، ص١٤٢، بتاريخ ١١ ربيع الثانى عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٤- سجل رقم ١٢، مادة ١٤٧، ص٥٨، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٥- سجل رقم ٢١، مادة ٥٤، ص١٢، بتاريخ ٦ شوال عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٥م.

٣٦- سجل رقم ١١، مادة ٢٠٥، ص٢٠٥، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٤٣، مادة ٥٣٥، ص١٨١، بتاريخ ٨ شوال عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م.

٣٧- سجل رقم ٨، مادة ٤٣١، ص١٤٥، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣٨- سجل رقم ١١، مادة ٢٠٥، ص٢٠٥، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٩- سجل رقم ٨، مادة ٣٨٧، ص١٣٢، بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٤٠- سجل رقم ٩، مادة ٦٦٤، ص٢١٢، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

أخبار الشتير ، نهاد ملين، أنظر ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٦.

٤١- سجل رقم ٥، مادة بدون رقم، ص١٩٨، بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

، سجل رقم ١٧، مادة ٨٢٥، ص٢٧٣، بتاريخ ١٦ صفر عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٥٤م.

، سجل رقم ١١، مادة ٥١٥، ص١٤٢، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٤٢- سجل رقم ٢٥، مادة ١٨٩، ص١٦٣، بتاريخ ١١ رجب عام ٩٩٦هـ/ ١٥٩٧م.

، سجل رقم ١٢، مادة ٣٦٢، ص١٢٠، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ١٦، مادة ١٠٤٨، ص٣٨٤، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عم ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

٤٣- سجل رقم ١١، مادة بدون رقم، ص١٤، بتاريخ ١٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

٤٤- سجل رقم ١٤، مادة بدون رقم، ص٢١٩، بتاريخ ٢٩ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٤٥- سجل رقم ٤٣، مادة بدون رقم، ص٧٢، بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٩م.

٤٦- سجل رقم ٩، مادة ٢١ ، بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

٤٧- سجل رقم ٩ ، مادة ٢٩ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

٤٨- سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٩ ، ص١٧٨ ، بتاريخ ٢٥ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٤٩- سجل رقم ١١ ، مادة ٤٠٩ ، ص١٢٢ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٥٠- سجل رقم ١٣ ، مادة ٢٣ ، ص١٢ ، بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

٥١- سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

٥٢- سجل رقم ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/ ١٥٩٠م.

٥٣- سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/ ١٥٩٠م.

٥٤- سجل رقم ١٢ ، مادة ٩٥٨، ص٢٩٤ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ/ ١٥٥٨م.

٥٥- سجل رقم ٨، مادة ٥٤٨ ، ص٩٤ ، بدون تاريخ .

٥٦- سجل رقم ٧ ، مادة ٦١٦ ، ص٢٥٠ ، بتاريخ ١صفر عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

٥٧- سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٥٥ ، ص٣٣٩ ، بتاريخ ٣صفر عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٩ ، ص٢٣ ، بتاريخ ٣ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٥٨- سجل رقم ٤٤ ، مادة ١٩٥ ، ص٣٥٧ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م.

٥٩- سجل رقم ٣٦ ، مادة ٢٣٧ ، ص٨١ ، بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م.

٦٠- سجل رقم ٩، مادة ٨٠ ، ص٣٦ ، بدون تاريخ .

٦١- سجل رقم ٥٨ ، مادة ٢٧٤ ، ص٩٨ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٦٢- سجل رقم ٥ ، مادة ٢٧٣ ، ص١٠٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م.

، سجل رقم ٦، مادة ١٥٧ ، ص٦٢ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ١٠٤٤هـ/ ١٥٩٥م.

٦٣- سجل رقم ١١ ، مادة ٦٦٣، ص١٩٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.

، سجل رقم ٦ ، مادة ١١ ، ص٦ بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥ ، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٢٢ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٣ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٦٤- سجل رقم ٨ ، مادة ٣٢٣ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٣٥٣ ، ص٨٩ ، بتاريخ ٢ جمادى الآخرة عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٥٨ ، ص١٥٩ ، بتاريخ ٩ ذى القعدة عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٦٥- سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٢، ص٢٩٦ ، بتاريخ ١ محرم عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

٦٦- سجل رقم ٨ ، مادة ٥٥٢ ، ص٢٣٣ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٠٧ ، ص٣٢٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م.

٦٧- سجل رقم ١ ، مادة ١٤١٨ ، ص٣٣٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م.

، سجل رقم ٦ مادة ١٥٧، ص٦٢ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٩٣ ، ص١٦٢ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.

٦٨- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٤ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ٩ ، مادة ٣٠٠ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٢ جمادى الأولى عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

٦٩- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٤ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ٩ ، مادة ٣٠٠ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٢ جمادى الأولى عام ٩٩١هـ/ ١٥٨١م.

٧٠- سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٧٤ ، ص٣١٦، بتاريخ ١٩ محرم عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

، نفسه ، مادة ٥٢٠ ، ص١٥٠ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٧١- سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٧٢، ص٨٤ ، بتاريخ ٥ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

، نفسه مادة ٨٨٣ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٤ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٧٢- سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٧٢ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٥ رجب عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٧٣- سجل رقم ١٢ مادة ٨٤٨ ، ص٢٩١ ، بتاريخ ١٦ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ/ ١٥٨٧م.

٧٤- سجل رقم ٩ ، مادة ٧٣٦ ، ص٢٣٣ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٧٥- سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٤٣، ص٢٥٥ ، بتاريخ ٧ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٠٢ ، ص١٧٣ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ١١٨٦ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ١٦ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٢٤ ، ص١٧٩ ، بتاريخ ١٢ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٧٦- سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٧٧، ص١٩٣، بتاريخ ٢٣ محرم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

٧٧- سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٨٣ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

سجل رقم١٨ ، مادة ١٠٧٦ ، ص٣٥٣، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

، سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٨١ ، ص٩٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

٧٨- سجل رقم ٢١ ، مادة ٥٦٩ ، ص٩٦ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م.

٧٩- سجل رقم ١ ، مادة ١٧٢ ، ص٣٨ ، بتاريخ ١٨ رمضان عام ٩٥٧هـ/ ١٠٤٠م.

٨٠- سجل رقم ١٤ ، مادة ١٤٧ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٧٦ ، ص٣٥٣ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

٨١- سجل رقم ١١ ، مادة ٣٤٣ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

، سجل رقم ٥ ، مادة ٣٧٠ ، ص١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٨م.

٨٢- سجل رقم ٢١ ، مادة ٥٦٩ ، ص٩٦ ، بتاريخ ٢٨ شعبان عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م.

٨٣- سجل رقم ١١ ، مادة ٤٢٣ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

، سجل رقم ٥ مادة ٣٧٠ ، ص١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨١م.

٨٤- سجل رقم ٢٥ ، مادة ١١٤٥ ، ص٤٠٥ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

٨٥- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص٥٦ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٨٦- سجل رقم ٧ ، مادة ١٢٥ ، ص١٢٩ ، بتاريخ ١٦ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٨٧- سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٧٩ ، ص٢٠٠ ، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٧٣ ، ص٢١٤ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٨٨- سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٨٩ ، ص٢٠٩ ، بتاريخ ٢٠ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٨٩- سجل رقم ١٥ ، مادة ١٩ ، ص٢٤ ، بتاريخ أواسط جمادى الأولى عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

٩٠- سجل رقم ١٣ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٢ ، بتاريخ ١٦ محرم عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م.

٩١- سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠١ ، ص٩٣ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الثانى عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٩٢- سجل رقم ٢٥ ، مادة بدون رقم ، ص٣١٩ ، بتاريخ ٤ محرم عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م.

٩٣- سجل رقم ٥٦ ، مادة ٢٠٩ ، بدون رقم ، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٨٥هـ/ ١٥٨٩م.

، سجل رقم ٦ مادة ، ٢٠٠ ، ص١٨١ ، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م.

، سجل رقم ٤٧ ، مادة ٢٨٦ ، ص١٠٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٣م.

٩٤- سجل رقم ٩٥ ، مادة ٧٢ ، ص٤٨ ، بتاريخ ١٨ رجب عام ١١٨٦هـ/ ١٦٦٤م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٧ ، ص٨٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٩٥- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠١٢ ، ص٣٧٤ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

، سجل رقم ٢٧ ، مادة ٤٣٩ ، ص٢٢٠ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م.

٩٦- سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٣ ، ص١٧٩ ، بتاريخ ١٥ ذى القعدة عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٤م.

٩٧- سجل رقم ٥٦ ، مادة بدون رقم ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٠م.

٩٨- سجل رقم ١٤ ، مادة ١٩٠ ، ص٦٠ ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٩٩- نفسه .

١٠٠- سجل رقم ١١ ، مادة ٨٩٩ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٠١- سجل رقم ١٤ ، مادة ١١٦٥ ، ص٣٥٧ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى عام /٩٨٧ ١٥٧٩م.

١٠٢- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص٥٦ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

١٠٣- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠١٢ ، ص٣٧٤ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

١٠٤- سجل رقم ٦٥ ، مادة ٣٣١ ، ص١٧٢ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١١١٣٠هـ/ ١٧١٧م.

١٠٥- سجل رقم ٢٩ ، مادة ٨٧٦ ، ص٢٩٩ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

١٠٦- سجل رقم ٨٣ ، مادة ٤٩٩ ، ص٢٦٣ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م.

١٠٧- سجل رقم ١٤ ، مادة ٥٩٨ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

١٠٨- سجل رقم ١١ ، مادة ٧٢٩ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٠٩- سجل رقم ١١ ، مادة ٧٢٦ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١١٠- سجل رقم ٤ ، مادة ١١ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

١١١- سجل رقم ٤١ ، مادة ١٦٦ ، ص٩١ ، بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٦٧هـ/ ١٥٧٦م.

١١٢- سجل رقم ٨ ، مادة ٣٦٢ ، ص٦٤ ، بتاريخ ٢ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١١٣- سجل رقم ٥١ ، مادة ٨١٠ ، ص٣٧٩، بتاريخ ٢٢ ذي الحجة عام ١٠٠٧هـ/ ١٩٩٦م.

١١٤- سجل رقم ١٤ ، مادة ٣٩٨ ، ص١٤٦، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م.

١١٥- سجل رقم ٤٢ ، مادة ٧٩٩، ص٢٤٦، بتاريخ ١٨ صفر عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.

، سجل رقم ٣٢، مادة ١٠٣١، ص٩١ ، بتاريخ ٢٠جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

١١٦- سجل رقم ٥٩، مادة بدون رقم ، ص٥٦ ، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

١١٧- سجل رقم ٥١، مادة ١١٤٣، ص٢٩٣، بتاريخ أول ربيع الثاني عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥٠م.

١١٨- سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٧ ، ص١٣٢، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧٨م.

١١٩- سجل رقم ٤ ، مادة ٩١ ، ص٤ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

١٢٠- سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٥٥، ص٣٣٦، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

١٢١- سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩، ص١١ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٨٠م.

١٢٢- سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠، ص٢٤٠ ، بتاريخ أول ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨٣م.

١٢٣- سجل رقم ١١ ، مادة ١١٦٨، ص٣٨٥ ، بتاريخ ١٦ ذي الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٨٠م.

١٢٤- سجل رقم ٦٥ ، مادة ٣١ ، ص١٧٢ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١١١٣هـ/ ١٧١٧م.

١٢٥- نفسه.

١٢٦- سجل رقم ٥٩ ، مادة بدون رقم ، ص٥٦ ، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

١٢٧- سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠، ص٢٤٠، بتاريخ ١ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

١٢٨- سجل رقم ٣١ ، مادة ٤٤٢، ص٤٤٢ ، بتاريخ ١٥ شوال عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م.

١٢٩- نفسه .

١٣٠- سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص٧٢ ، بتاريخ ٨ ذي القعدة عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م.

١٣١- سجل رقم ٢٥، مادة ١٢٤٥، ص٤٠٥ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

١٣٢- نفسه .

١٣٣- سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٩٠ ، ص٨٦ ، بتاريخ ٤ صفر عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م .

، سجل رقم ٢٢ ، مادة ٣٧ ، ص١٠١ ، بتاريخ ٢١ ربيع الآخر عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

٣٤- سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص٧٢ ، بتاريخ ٨ ذي القعدة عام ١٠٨٨هـ/ ١٦٠٩م.

١٣٥- سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٣ ، ص٦٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م.

، سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٣٥٦، ص٤٧٥، بتاريخ ١ رجب عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

١٣٦- سجل رقم ١٨ ، مادة ٧٧ ، ص٢٦ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

١٣٧- سجل رقم ٤ ، مادة ١٧٨، ص٥٦ ، بتاريخ ١٩ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٣٨- سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٨٢، ص٣٨٤ ، بتاريخ مستهل ربيع الأول عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

١٣٩- سجل رقم ٦ مادة ١٥٧، ص٦٢ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثاني عام ٤٠-١هـ/ ١٥٩٥م.

١٤٠- سجل رقم ٦ ، صادرة ١١٠ ، ١٢٠ ، صفحتي ٤٥ ، ٢٥٨ ، بتاريخ ١٢ ذي الحجة عام ١١٠٣هـ/ ١٦٠٤م، ٢٥ ربيع الثاني عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٤١- سجل رقم ٢٤ ، مادة بدون رقم ، ص٢٥٣، بتاريخ ٤ ربيع الثاني عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م.

١٤٢- سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٤٣- سجل رقم ١٦، مادة ٤٥٥، ص١٨٥، بتاريخ ١٧ محرم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

١٤٤- سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٨، ص٩٣ ، بتاريخ ٢٣ رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٤٥- سجل رقم ٨ ، مادة ٢٠٨ ، ص٩١ ، بتاريخ أوائل ذي الحجة عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م.

١٤٦- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر الخير عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

١٤٧- سجل رقم ٢٨ ، مادة ١٠٧٦، ص٣٥٣ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

١٤٨- سجل رقم ٥٩ ، مادة ٢١٦ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٩ ربيع الثاني عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

١٤٩- سجل رقم ١١، مادة ٥١٥ ، ص١٤٢ ، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧١م.

١٥٠- سجل رقم ٢٥ ، علبة ١٨٩ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١١ رجب عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م.

١٥١- سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م.

١٥٢- سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٩٣ ، ص٦٨ ، بتاريخ ١٦ ذي الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٨م.

١٥٣- سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

١٥٤- سجل رقم ٨ ، مادة ٢٨٤ ، ص١٩٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٥٥- سجل رقم ٢٠ ، مادة ٥١٧ ، ص٢٠٢ ، بتاريخ ٢ رمضان عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٥٦- سجل رقم ٨ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

١٥٧- سجل رقم ١٦ ، مادة ٧٩٥ ، ص٢٩٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م.

١٥٨- سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٧٧ ، ص١٩٣ ، بتاريخ ٢٣ محرم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

١٥٩- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٧ ، ص٦ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

١٦٠- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م.

١٦١- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م.

١٦٢- سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٣١ ، ص٢٧٨ ، بتاريخ ٢٥ ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

١٦٣- سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٠٣ ، ص٢٩٨ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م.

١٦٤- سجل رقم ٣٨ ، مادة ٢٩١ ، ص٢٠ ، بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

١٦٥- سجل رقم ٢٢ ، مادة ٧٩٩ ، ص٢٩٠ ، بتاريخ ٩ محرم عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

١٦٦- سجل رقم ١٧ ، مادة ٨٣٢ ، ص٧٩ ، بتاريخ ٢٨ صفر عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٢م.

١٦٧- سجل رقم ٩ ، مادة ١٥٥ ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦١م.

١٦٨- سجل رقم ٣٦ ، مادة ٢٠ ، ص٨ ، بتاريخ أواخر ربيع الثانى عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م.

١٦٩- سجل رقم ٣ ، مادة ٣٨٥ ، ص١٣٨ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.

١٧٠- سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨٦ ، ١٣٨ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

١٧١- سجل رقم ٨ ، مادة ٧٧١ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

١٧٢- سجل رقم ٣٦ ، مادة ٦٩٥ ، ص٢١٩ ، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

١٧٣- سجل رقم ٣٢ ، مادة ٣٩٧ ، ص١٥١ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م.

١٧٤- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٦ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

١٧٥- سجل رقم ٣ ، مادة ١٣٤٠ ، ص٣٢٠ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

١٧٦- سجل رقم ٤٥ ، مادة ٣٣٩ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ٢٤ محرم عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م.

١٧٧- سجل رقم ٢٥ ، مادة بدون رقم ، ص٣١٩ ، بتاريخ ٤ محرم عام ٩٩٧هـ/ ١٦٩١م.

١٧٨- سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٠٨ ، ص٦١ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

١٧٩- سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٧١ ، ص١٣٤ ، بتاريخ ٢ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

١٨٠- سجل رقم ١٣ ، مادة ١٠٦ ، ص٤٤ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م.

١٨١- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

١٨٢- سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٨٠ ، ص١٣٧ ، بتاريخ ٨ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٠م.

١٨٣- سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

وكان ذلك ابان ولاية على باشا الصوفى (٩٧١-٩٧٣هـ/ ١٥٦٣-١٥٦٥م)

١٨٤- سجل رقم ٤٥ مادة ٣٣٩ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ٢٤ محرم عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م.

١٨٥- سجل رقم ٦٢ ، مادة ١٦٧ ، ص٧١ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م.

١٨٦- سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٢٢١ ، ص٣٩٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

١٨٧- سجل رقم ١٨ ، مادة ١٢ ، ص٥ ، بتاريخ ٦ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

١٨٨- سجل رقم ١٧ ، مادة ١٢١٣ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

١٨٩- ب-س ، جيراو ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ص٣٠١ .

١٩٠- سجل رقم ١١ ، مادة ٩١٣ ، ص٢٢٨ ، بتاريخ ٢١ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٩١- سجل رقم ١٣ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٢ ، بتاريخ ١٦ محرم عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م.

١٩٢- سجل رقم ٢٥ ، مادة ٢٢١ ، ص٣٩٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

١٩٣- سجل رقم ١٧ ، مادة ٤٨٤ ، ص١٦٥ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

١٩٤- سجل رقم ٥٨ ، مادة ٤٣ ، ص١٣٩ ، بتاريخ ٩ شوال عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩١م.

١٩٥- سجل رقم ٩٥ ، مادة ٨٢ ، ص٤٨ ، بتاريخ ١٨ رجب عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م.

١٩٦- سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م.

١٩٦- سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٨٥، ص٧٩ ، بتاريخ ١٠ ربيع الثانى عام ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م.

١٩٧- سجل رقم ١١ ، مادة ٨٣٤، ص٢٠٩ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

١٩٨- سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٨ ، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م

، سجل رقم ١١ ، مادة بدون رقم ، ص١١٢ ، بتاريخ بدون .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٠٣ ، ص٢٢٦-٢٢٧ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

١٩٩- سجل رقم ٩ ، مادة ٤٠٥ ، ص١٤١ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م.

٢٠٠- سجل رقم ١٧ ، مادة ٩٥ ، ص٣٠ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٢٠١- سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٦، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٢٠٢- سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٩٥، ص٢٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٢٠٣- سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٩ ، ص١٤١ ، بتاريخ ٢١ صفر عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م.

، سجل رقم ٧ ، مادة ٤٤ ، ص١٦ ، بتاريخ ١٢ محرم عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

٢٠٤- سجل رقم ١٧ ، مادة ١٢٣ ، ص٢٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٢٠٥- سجل رقم ١٤ ، مادة ٩٠٣، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٢٠٦- سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٤٦، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

، سجل رقم ٢، مادة ١٥٢، ص٤٤٢، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م.

٢٠٧- سجل رقم ١٩، مادة ١١٢٨، ص٤١٤، بتاريخ ١٤ ذى الحجة عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.

٢٠٨- سجل رقم ١٢، مادة ٢٢٥، ص٨٦، بتاريخ ١١ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

، سجل رقم ١٧ ، مادة ٢٣٧، ص٧٧ ، بتاريخ ٢٢ رمضان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢هـ

٢٠٩- سجل رقم ١١ ، مادة ٦٢٦، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٢١٠- سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٩٥، ص٢٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

٢١١- سجل رقم ١١ ، مادة٣٥، ص١٢ ، بتاريخ أول رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢١٢- سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٨، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢١٣- سجل رقم ٣٥، مادة ٦٨٠ ، ص٢٧٣ ، بتاريخ ٢٠رجب عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م.

٢١٤- سجل رقم ٥٦ ، مادة ٧٤٦، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢١٥- سجل رقم ١ ، مادة ١٤٥٠ ، ص٣٩٥، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢١٦- نفسه .

٢١٧- سجل رقم ١ ، مادة ١٤١٨، ص٣٤٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢١٨- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧٤، ص٣٩٠ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانى عام ٩٥٩هـ/ ١٥٩٨م.

٢١٩- سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥، ص٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢٠- سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٥٧، ص٢٤٧ ، بتاريخ ٢٨ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢١- سجل رقم ١٩ ، مادة ١١٢٨، ص٤١٤، بتاريخ ١٤ ذى الحجة عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.

٢٢٢- سجل رقم ١٨، مادة ٣٧١، ص٢٢٥ ، بتاريخ ٢٠ رجب عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م.

٢٢٣- سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٢٨، ص٢٥٢، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢٤- سجل رقم ٣٢، مادة ٩٠٣، ص٢٢٦، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢٥- سجل رقم ١١، مادة ٦٩٨، ص١٧٩، بتاريخ ٣ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢٦- سجل رقم ١١ ، مادة ٥٥٧، ص١٥٢، بتاريخ ١٥ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٢٧- سجل رقم ٥١، مادة ٨٤، ص١١٧، بتاريخ ١١ جمادى الأولى عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٧٣م.

٢٢٨- سجل رقم ١٦ ، مادة ٢٥٣، ص١٠٦، بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٢٢٩- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧٤، ص٣٩٠، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

٢٣٠- سجل رقم٩ ، مادة ٨٧٧، ص٢٤٧، بتاريخ ٢٩ محرم عام٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٢٣١- سجل رقم ٢٩ ، مادة ٨١٠، ص٢٥٢، بتاريخ ٦ صفر عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٢٣٢- ليلى عبد اللطيف أحمد، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام، إبان الحكم العثمانى ص٥٧ .

٢٣٣- Gabriel Baer, Guilds in Egypt in Modern Times. Jerusalem. 1964 .

ليلى عبد اللطيف أحمد، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام، إبان الحكم العثمانى ص٨٣ .

٢٣٤- سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ١٤محرم عام ٨٧ ١هـ/ ١٦٧٦م.

٢٣٥- على الجرجاوى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ص١٦-١٧ .

٢٣٦- سجل رقم ١ ، مادة ٢٤٦ ، ص٥٥ ، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٥م.

٢٣٧- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

، سجل رقم ٨ ، مادة ٣٧٩ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٣٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص١٢٩ .

٢٣٩- محمد عبد اللطيف البحراوى ، حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ، ص٢٤ .

٢٤٠- سجل رقم ٨ ، مادة ١٤١ ، ص٥١ ، بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٤١- سجل رقم ١١ ، مادة ٢٤١ ، ص٧٠ بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٤٢- سجل رقم ١١ ، مادة ٣٢٨ ، ص٩٤ ، بتاريخ ٢٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٤٣- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٤٤- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧ ، ص٢٨ ، بتاريخ ٢٨ ربيع الأول عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٢٤٥- سجل رقم ١٤ ، مادة ٣٧١ ، ص٨٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٣ ، ١هـ/ ١٥٩٤م.

٢٤٦- سجل رقم ٧ ، مادة ١٦٥ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

٢٤٧- محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص١٩ .

٢٤٨- سجل رقم ١ ، مادة ١٨٢٠ ، ص٤٣٧ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٢٤٩- سجل رقم ٩ ، مادة ١١٩ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٥٠- سجل رقم ١١ ، مادة ٧٣٩ ، ص١٨٧ ، بتاريخ ٢٥ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٥١- سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م.

٢٥٢- وليم لين ، المصريون المحدثون ، عاداتهم وشمائلهم وتقاليدهم ، ص٢٨١ .

٢٥٣- اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، ص١٠٦ .

وانظر أيضا ، صلاح هريدى ، الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، ص٥٥-٦٢ .

٢٥٤- أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ص٥٥-٦٢ .

٢٥٥- سجل رقم٨ ، مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٥٦- سجل رقم ١ ، مادة ١٣٢٤ ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٣م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٧٩ ، بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥١م.

٢٥٧- سجل رقم ٦ ، مادة ١٨ ، ص٦ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م.

٢٥٨- سجل رقم ٨ ، مادة ١٢٦ ، ص٤٤ ، بتاريخ ٢٤ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٥٩- سجل رقم ١ ، مادة ٤٩٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢٠ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

وهى حرفة خاصة بإصلاح عيوب الملابس .

٢٦٠- سجل رقم ٤ ، مادة ٦١٣ ، ص٢٠٥ ، بتاريخ ٧ صفر عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ٥ ، مادة ٣٣٩ ، ص١٢١ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٠م.

، سجل رقم ٩ ، مادة ٦٦٢ ، ص٢١٢ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ٨٩٩ ، ص٣٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٦١- سجل رقم ٩ ، مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

، سجل رقم ١١ ، مادة ٣١٥ ، ص٩١ بتاريخ ٢٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥ ، ص٣٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٦٢- سجل رقم ١ ، مادة ٩٣٩ ، ص٢٨١ ، بتاريخ ٢٥ ذى القعدة عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م.

، سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص١٤٥ ، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

٢٦٣- سجل رقم ٦ ، مادة ٥٨ ، ص٢٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الآخر عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م.

، سجل رقم٨ ، مادة ٣٨٧ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٦٤- سجل رقم ٨ ، مادة ٧٩٥ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٦٥م.

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٥ ، ص٣٨ ، ٣٩ ، بدون تاريخ.

، سجل رقم ٧ ، مادة ١٩٩ ، ص٨١ ، بدون تاريخ .

٢٦٥- سجل رقم ٩ ، مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

٢٦٦- سجل رقم ٩١، مادة ١٣٢ ، ص٨٧ ، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٥م.

٢٦٧- سجل رقم ١ ، مادة ٤٩٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢٠ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٢٦٨- سجل رقم ١ ، مادة ١٦٢ ، ص٣٥ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٢٦٩- سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م.

، سجل رقم ٥ مادة ٤٦٨، ص١٩٦، بتاريخ ١٠ رمضان عام ٩٦٣ هـ/ ١٥٥٥م.

٢٧٠- سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٩، ص١٢ ، بدون تاريخ .

٢٧١- محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة، ص٣٤ .

٢٧٢- سجل رقم ٨ ، مادة ٩٢ ، ص٣١ ، بتاريخ ٦ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٧٣- سجل رقم ٥٨ ، مادة ٢٨٨، ص١٦٠ ، بتاريخ ١٩ ذى الحجة عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م.

٢٧٤- سجل رقم ٤٩ ، مادة ٤٦٩، ص١٧١، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٦٥هـ/ ١٥٦٤م.

٢٧٥- سجل رقم ١١ ، مادة ٣٥ ، ص١٢ ، بتاريخ أول رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٢٧٦- سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٩ ، ص١٢ ، بدون تاريخ .

٢٧٧- نفسه .

٢٧٨- سجل رقم ٨ ، مادة ٣٧٩، ص١٣٠ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٢٧٩- سجل رقم ١٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٣م.

٢٨٠- عمر عبد العزيز عمر، مجتمع الإسكندرية فى العصر العثمانى، ضمن ندوة مجتمع الإسكندرية عبر العصور المختلفة، ص٣٣٠-٣٣١ .

٢٨١- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ص١٨٢ .

٢٨٢- ب . س جيرار الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ص٣٠٨ .

٢٨٣- S. J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 132 .

٢٨٤- ب . س . جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ص٣٠٨ .

٢٨٥- سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

٢٨٦- على الجريتلى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن ١٩ ، ص١٩ .

٢٨٧- محمد محمود زيتون ، إقليم البحيرة، ص١٢٧ .

٢٨٨- نفسه .

٢٨٩- سجل رقم ١٣ ، مادة ٦٨٤، ص٢٢٥ ، بتاريخ ١٨ محرم عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م.

٢٩٠- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المقاومة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٨٣ .

٢٩١- سجل رقم ٢٩، مادة ٣٠٨، ص١٢٣، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م.

٢٩٢- سجل رقم ٢ ، مادة ١١٤٧، ص٢١٦، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

٢٩٣- سجل رقم ٦، مادة ٢٢٩، ص١٨٤ ، بتاريخ ٢٢ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

٢٩٤- سجل رقم ٧ ، مادة ٣٧٧ ، ص٣٦٧، بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

٢٩٥- سجل رقم ٧ ، مادة ٣٧٧، ص٢٦٧ ، بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م.

٢٩٦- سجل رقم ٦ ، مادة ٦٢٢، ص٢٥٩، بتاريخ ١٣ رجب عام ١٠١٣هـ/

٢٩٧- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٦٠ ، ص١٦٢ ، بتاريخ ٢٨ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

٢٩٨- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٣٩، ص٥٥ ، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(راجع أيضا، صلاح حيدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية، ص٤١٩)

٢٩٩- سجل رقم ١٩ ، مادة ٦٥٠ ، ص٢٥١، بتاريخ ٤ جمادى الآخرة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٣٠٠- سجل رقم ٧٢ ، مادة ٢٣٠ ، ص١٧٨ ، بدون تاريخ.

٣٠١- سجل رقم ٥١ ، ص١٤٤٣ ، مادة ٥ ، ص٩١٦ ، بتاريخ ١٨ رمضان عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م.

٣٠٢- سجل رقم ٧١ ، مادة ٥٦٦، ص٢٤٣ ، بتاريخ جمادى الأولى عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م.

٣٠٣- سجل رقم ١٨ ، مادة ٤٤ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٣م.

٣٠٤- سجل رقم ٢٢ ، مادة ١١٤٧، ص٣٤٧، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م.

٣٠٥- سجل رقم ٦ ، مادة ١٢١ ، ص٤٨ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٣م.

٣٠٦- سجل رقم ٦ ، مادة ١٢١ ، ص٤٨ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٣م.

٣٠٧- سجل رقم ٤٢ ، مادة ٧٨٤، ص٢٤٠ ، بتاريخ ٢٨ صفر عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م.

٣٠٨- سجل رقم ٤٢ ، مادة ١١٢ ، ص٣٥ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ١١٠٥هـ/ ١٦٠٧م.

٣٠٩- سجل رقم ٤ ، مادة ١١ ، ص٣٤٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣١٠- سجل رقم ٤ ، مادة ٦٩٧، ص٢٢٠ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣١١- سجل رقم ٨ ، مادة ٣٦٥، ص٢٨٥ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣١٢- سجل رقم ٢٠ ، مادة ٩٧ ، ص٢٨ ، بتاريخ ١٠ ربيع الثانية عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م.

٣١٣- سجل رقم ٤٢ ، مادة ٣٧٢ ، ص١١٠ ، بتاريخ ١١ شوال عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠٧م.

٣١٤- سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٣ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٩ ربيع الثانى عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٣١٥- سجل رقم ٢١ ، مادة ٢٤٦، ص١١٣ ، بتاريخ أول جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣١٦- سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٤ ، ص٢١٦ ، بتاريخ ٢٧ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣١٧- سجل رقم ٦ ، مادة ٣٨١ ، ص٢٧٤ ، بتاريخ ١٥ رجب عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.

٣١٨- سجل رقم ١ ، مادة ٣٣٣، ص٧٢ ، بتاريخ ٩ شوال عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م.

٣١٩- سجل رقم ٩ ، مادة ١٨٦ ، ص٥٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

٣٢٠- سجل رقم ١ ، مادة ٤١٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢ ذى القعدة عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م.

٣٢١- سجل رقم ٩١ ، مادة ٣١٩ ، ص٢٢٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م.

٣٢٢- سجل رقم ٤ ، مادة ٤٤٠ ، ص١٥٠ ، بتاريخ ١١ رمضان عام ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦م.

٣٢٣- سجل رقم ٤٢ ، مادة ٦٣٢ ، ص١٩٦ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠١٦هـ/ ١٥٦٧م.

٣٢٤- سجل رقم ٧ ، مادة ٥١٧ ، ص٢١٧ ، بتاريخ ١١ ذى القعدة عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

٣٢٥- سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٨، ص٢٤٧، بتاريخ ١ ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

٣٢٦- سجل رقم ٧ ، مادة ٤٥ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى عام ١١٤٣هـ/ ١٧٢٩م.

٣٢٧- سجل رقم ١ ، مادة ١٥٥٠، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥١م.

٣٢٨- سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٠ ، ص٣١ ، بتاريخ أواخر ذى القعدة عام ١١٢١هـ/ ١٧١٠م.

٣٢٩- سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٢٠، ص١٦٤ ، بتاريخ ٢١ ربيع الأول عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

٣٣٠- سجل رقم ٢١ ، مادة ١٧٨ ، ص٥٣ ، بتاريخ ١٦ شوال عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٣٣١- سجل رقم ٩١، مادة ٣٢٦ ، ص١٤٩ ، بتاريخ ختام عام ١١٨٣هـ/ ١٧٧٠م.

٣٣٢- سجل رقم ٩٥ ، مادة ٨٠ ، ص٥٢ ، بتاريخ ٨ رجب عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م.

٣٣٣- سجل رقم ٨١ ، مادة ١٥٢ ، ص١١٢ ، بتاريخ أواخر صفر عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م.

٣٣٤- سجل رقم ٥ ، مادة ٤٥٣، ص١٨٢ ، بتاريخ أول ذى القعدة عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م.

٣٣٥- سجل رقم ٥ ، مادة ١٩١ ، ص٧١ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٧م.

٣٣٦- سجل رقم ٤ ، مادة ٤٦٩، ص١٥٩ ، بدون تاريخ.

٣٣٧- سجل رقم ٣٦ ، مادة ٦٧ ، ص٢٧ ، بتاريخ ١٤ جمادى الآخر عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٦م.

٣٣٨- سجل رقم ٤٢ ، مادة ٥٧٣، ص١٧٧ ، بتاريخ ١٠ رمضان عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٥م.

٣٣٩- سجل رقم ٩ ، مادة ١٠ ، ص٦ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م.

٣٤٠- سجل رقم ٩، مادة ٥١٥، ص ص١٧٨ ، بتاريخ ١٦ ربيع الآخر عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٣٤١- نقبه .

٣٤٢- سجل رقم ١٧ ، مادة ١٨ ، ص٦ ، بتاريخ ١٩ رجب عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

٣٤٣- سجل رقم ١٣ ، مادة ٥٦ ، ص٨١ ، بتاريخ ٢٠ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٩٨م.

٣٤٤- سجل رقم ١٧ ، مادة ٩٦ ، ص٢٣٠ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

٣٤٥- سجل رقم ١٧، مادة ٩٤٢، ص٣١٥ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م.

٣٤٦- سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠ ، ص٦١ ، بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٣٤٧- سجل رقم ١١ ، مادة ٥٧٦، ص١٥٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٣٤٨- سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص١٤٥ ، بتاريخ مستهل عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م.

٣٤٩- سجل رقم ١ ، مادة ١٨٢٠، ص٤٣٤ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٥٠- سجل رقم ٣، مادة ٩٠٧، ص٢١٧، بتاريخ ١٦ شوال عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م.

٣٥١- سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦٢، ص١٥٥ ، بتاريخ ١٧ ذى الحجة عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٣م.

٣٥٢- سجل رقم ١ ، مادة ١٧٩٧، ص٤٣١ ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٥٣- سجل رقم ٨ ، مادة ١٣١ ، ص٤٥، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣٥٤- سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩ ، ص١١ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٥٥- سجل رقم ١ ، مادة ١٥٣٩، ص٣٦٥، بتاريخ ١٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٥٦- نفسه.

٣٥٧- سجل رقم ٤ ، مادة ١٣٧١، ص٣٥٣، بتاريخ ٩ صفر عام ٩٦٢هـ/ ١٥٨٤م.

٣٥٨- سجل رقم ١ ، مادة ١٤٦٩، ص٣٤٦، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٥٩- سجل رقم ١ ، مادة ١٣٩ ، ص٣٢٨ ، بتاريخ ١٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٦٠- سجل رقم ٨ ، مادة ٨٣٣، ص٣٩ ، بتاريخ ٢٥ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

وقد وجد بنفس السجل وثيقة رقم ٩٠٠، ص٣٥٥ بنفس المحادث بتاريخ ٢ رجب عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣٦١- سجل رقم ١١ ، مادة ٤٥٠، ص١٤٧، بتاريخ ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م ذكر لى أستاذنا الدكتور حسن فاطا . أنه تمكن الصماح لبعض طوائف اليهود بالزواج بأكثر من واحدة.

٣٦٢- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٧١ ، ص٦١ ، بتاريخ ١ محرم عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

٣٦٣- سجل رقم ١٢ ، مادة ١٢٢٤، ص٣٨٩، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧١م.

٣٦٤- سجل رقم ٢٧ ، مادة ١٠٨٢، ص٥٠٠ ، بتاريخ ٣ رجب عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م.

٣٦٥- سجل رقم ٥٨ ، مادة ١٠٠، ص٣١ ، بتاريخ ٢ ربيع الثانى عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

٣٦٦- سجل رقم ١٩ ، مادة ١٤٩، ص١٥٤، بتاريخ ١٦ جمادى الثانية عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.

٣٦٧- سجل رقم ٢٩ ، مادة ٧٤٣، ص٤٣٥ ، بتاريخ ٢٠ ذى الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

٣٦٨- سجل رقم ٢٧ ، مادة ٣٩٤، ص٢٠٣ ، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م.

٣٦٩- سجل رقم ٦٢، مادة ١٠٠، ص٤٩ ، بدون تاريخ .

٣٧٠- سجل رقم ٣٢ ، مادة ٣٦٦، ص١٤٠ ، بتاريخ ٩ ذى القعدة عام ٨٠٠هـ/ ١٥٩٩م.

٣٧١- سجل رقم ٣٥ ، مادة ٨٢٧، ص٣٩٠ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م.

٣٧٠- سجل رقم ٣٥ ، مادة ٨٢٧، ص٣٩٠ ، بتاريخ ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ/ ١٦٠٦م.

٣٧٠- سجل رقم ١٦ ، مادة ٩٤٧، ص٣٤٤ ، بتاريخ ٣ رجب عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

٣٧١- سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٧١٢، ص٦١٩ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م.

٣٧٢- سجل رقم ٥٣، مادة ٢٦١، ص١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ٨٧٠١هـ/ ١٦٨٦م.

٣٧٣- سجل رقم ٢٤ ، مادة بدون رقم ، ص٩٣ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

٣٧٤- سجل رقم ٢٦، مادة ٣٨١، ص٣٨٢، ص١٢٤، بتاريخ ٧ شوال عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

٣٧٥- سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٥٤، ص٢٤٦، بتاريخ ٢٨ شوال عام ٩٩٨هـ/ ١٥٧٩م.

٣٧٦- سجل رقم ٥٥ ، مادة ٤٦٢، بتاريخ ٢١٤ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م.

٣٧٦- سجل رقم ١٤ ، مادة ١١٧٣، ص٣٦١ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

٣٧٧- سجل رقم ٤١ ، مادة ٧٧١ ، ص٤١٦ ، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م.

٣٧٨- سجل رقم ٣٥ ، مادة ٧٦٥، ص٢٤٤ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

٣٧٩- سجل رقم ١١، مادة ١٩١، ص٥٥ ، بتاريخ ٢ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٨٠- سجل رقم ٨، مادة ٨٤٦، ص٢١٢، بتاريخ ٣ رجب عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٣٨٠- سجل رقم ١ ، مادة ١٤٦٦، ص٣٤٦، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٨١- سجل رقم ١١ ، مادة ١٥٠٥، ص٣٧٥ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م.

٣٨٢- سجل رقم ٣٥، مادة ٥٥٣، ص٢٢٨، بتاريخ ٥ جمادى الآخرة عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م.

٣٨٣- سجل رقم ٤٥، مادة ٣١٥، ص١٣٦، بتاريخ ١٩ محرم عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م.

٣٨٤- سجل رقم ٨، مادة ٦٣٨، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٣ ربيع الثانى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

٣٨٥- سجل رقم ١٥ ، مادة ٣١ ، ص٣٠ ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م.

٣٨٦- سجل رقم ١٣، مادة ٤٨٩، ص١٥٢، بتاريخ ٤ رمضان عام ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م.

٣٨٧- سجل رقم ٤١ ، مادة ٤٨٩، ص٢٧٩، بتاريخ ١٢ رجب عام ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م.

٣٨٨- سجل رقم ١١ ، مادة ٨٦٧، ص٢١٧ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٨٩- سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٤، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٩٠- سجل رقم ٤٦ ، مادة ١٧٨ ، ص٦٧، بتاريخ مستهل شهر صفر عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤٦م.

والطريقة البرهانية ، هي إحدى الطرق الصوفية التي كانت موجودة في العصر العثماني، انظر ، توفيق الطويل ، التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص٧٥) .

٣٩١- سجل رقم ١ ، مادة ٩٥٨ ، ص٢١٧ ، بتاريخ ٢٨ محرم عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م.

٣٩٢- سجل رقم ٣١ ، مادة ٧٢، ص ٣٠ ، بتاريخ ٧ رجب عام ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م.

٣٩٣- سجل رقم ٨١ ، مادة ١٥٢ ، ص١١٢ ، بتاريخ أواخر صفر عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م.

٣٩٤- سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٥٠، ص٣٧٥ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٦٩هـ/ ١٥٧١م.

٣٩٥- سجل رقم ١ ، مادة ٩٠ ، ص١٩ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٣٩٦- سجل رقم ١١ ، مادة ٥٠٢ ، ص١٤٠ ، بتاريخ ٢٩ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

٣٩٧- سجل رقم ٣، مادة ٧١٣، ص٢٤٧، بتاريخ غرة صفر عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

٣٩٨- سجل رقم ١١، مادة ٥٠٢، ص١٤٠، بتاريخ ٢٦ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م..

٣٩٩- سجل رقم ، مادة ٤٠٥، ص٣٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

٤٠٠- سجل رقم ١ ، مادة ٤٠٥، ص٣٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٥م.

٤٠١- سجل رقم ٨ ، مادة ٧٩١، ص٢٨٣ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

٤٠٢- سجل رقم ٤٧ ، مادة ٩٨، ص٢٥ ، بتاريخ ٥ شوال عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م.

٤٠٣- سجل رقم ٢١ ، مادة ٣٦٤، ص٣١٥، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

٤٠٤- سجل رقم ١٩ ، مادة ٣٨٦، ص١٦١ ، بتاريخ ١٣ جمادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

٤٠٥- سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٨١ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ٩ شعبان عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م.

٤٠٦- سجل رقم ٤٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٢٩ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م.

٤٠٧- سجل رقم ٣٠ ، مادة ٣٦٠ ، ص٣٠٦ ، بتاريخ ٦ ربيع الثاني عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م.

٤٠٨- نفسه .

٤٠٩- ليلى عبد اللطيف أحمد، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، ص١٢٥ .

٤١٠- هاملتون ، هارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسيني، جـ٢ ، ص١٤٣ .

د. عبدالله عبد الرازق ابراهيم (*)

المخطوطات العربية في نيجيريا
وأهميتها كمصدر لتاريخ العرب في غرب افريقيا

مقدمة :

تهل الحديث عن التراث الحضاري لنيجيريا في القرن التاسع عشر باعتباره مصدراً من مصادر التاريخ العربي في غرب القارة الأفريقية لابد أن نوضح حقيقة هامة ، هي أن هذه المنطقة تميزت في العصور الوسطى والحديثة بظاهرتين كبيرتين أثرتا فيه تأثيراً بالغاً ، أولاهما الهجرات أو الغارات المتصلة لبعض قبائل البربر إلى الجنوب ، وثانيهما تعرض الشعوب البدائية لهذه الهجرات والاحتكاك بها والاقتباس لكثير من نظمها الاجتماعية والعسكرية والدينية[1].

أخذت الهجرات العربية تأخذ طابعاً جدياً بعد أن بسط العرب سلطانهم على بلاد المغرب كلها [2]. ولم يكن التحرك جنوباً بقصد القنص وإنما للإقامة الدائمة ومن ثم أخضع العرب البدو لسلطانهم ، وصاروا جزءاً من عالم المغرب الإسلامي، يتأثرون بأحداثه، ويتفاعلون بانفعالاته ، وصارت مناطق غرب أفريقيا عرضة لهجوم قبائل عربية كلما تعرض المغرب لأزمة سياسية، وجاءت غارات بني هلال وبني سليم التي أصبحت عاملاً هاماً في تاريخ المغرب حتى القرن السادس عشر[3] .

ولم تكن هذه الهجرات التي تمت بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر أولى وأخر الهجرات، بل كانت أشهرها وأعنفها في تاريخ شمال أفريقيا الوسيط[4].

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة .

كانت هذه القبائل العربية كلما توغلت جنوبًا ، كلما أجبرت البربر على الهجرة ، واستمرت هذه الاغارات حتى دخلت مشارف السنغال[٥].

كانت هذه القبائل المهاجرة تحيا حياة مستقلة عمادها الطابع الحربي ، حتى فرضوا سلطانهم على الطوائف الزنجية المستقرة ، وبدأ الاختلاط التدريجي بين الغالب والمغلوب عن طريق التزاوج . وهكذا نشأت طبقة جديدة من المولدين اغتصبت الحكم لنفسها حتى أقامت إمبراطوريات في غرب القارة[٦].

ومن أبرز القبائل العربية التي لعبت دورًا في هذا المجال قبائل الطوارق أو الملثمين التي قامت بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وبين أقاليم السودان الغربي حتى توسعوا ووصلوا إلى منحنى النيجر ، وصارت هذه القبائل تسيطر على طرق التجارة المارة بين أودغشت في الجنوب وسجلماسة في الشمال[٧].

لقد أدت هذه الهجرات من البربر إلى قيام إمارات الهوسا في القرن العاشر الميلادي، وظهرت شعوب جديدة مثل الماندي، وكان عقبة بن نافع هو أول من حمل الملثمين على الإسلام، بل وأول عربي يرتاد هذه الأقاصي حيث فتح الطريق أمام تجار العرب الذين نفذوا إلى هذه الجهات وتابع خلفاء عقبه بن نافع نفس سياسته في نشر الإسلام بين صفوف البربر عن طريق الدعوة ، ونجح التجار العرب في التوغل جنوبًا في بلاد السودان ، وساعد هذا التوغل العربي على انتشار الإسلام في مملكة غانه نفسها [٨].

لقد كان اتجاه حركة الفتح الإسلامي نحو المغرب وما ارتبط به وتبعه من الهجرات العربية أثر واضح في تيسير قيام الدويلات الإسلامية وتعددها في بلاد السودان الغربي بالمقارنة ببلاد سودان وادي النيل، ولاشك في أن الصلة المتصلة عبر القرون خلال المنافذ العديدة كانت المفتاح لانتشار الإسلام وحضارته، وقيام جماعاته، وظهور دوله . وهكذا كان الحال في أودغشت وكانسينا وجوبير ودورا وكانوا وزاريا . ولقد كانت هذه الحواضر ملتقى حضارات ومراكز سلطة وتجارة وصناعة ومراكز علم وتعليم. ولعل القاعدة الاقتصادية المتمثلة في التجارة والصناعة مع الموقع كانت الأساس لما تبع من سلطان ونفوذ . وهنا يبرز الدور الذي لعبه التجار في نشر الإسلام ودعمه فضلاً عن انتشار اللغة العربية وازدهارها [٩].

واستمر انتشار الدعوة الإسلامية على يد المجاهد عبد الله بن ياسين الذي ارتحل إلى ديار الملثمين وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بآهداب الدين، وهاجر مع بعض أصحابه إلى جزيرة نائية في مصب السنغال الأدنى[١٠].

وكان أن استطاع دعاة المرابطين نشر الإسلام على ضفاف السنغال وأسلم شعب التكرور الذي قام بدوره بنشر الإسلام في غرب القارة ونجح عبدالله بن ياسين بعد خمس سنوات أن يستولي على الجزء الأكبر من مملكة غانه أن يضمها إلى دولة المرابطين.

وهكذا نجح العرب في تأسيس دولة إسلامية في غرب القارة . وأقام المرابطون مدينة تمبكت التي صارت حاضرة الثقافة والعلوم والآداب العربية في السودان الغربي. وامتد الإسلام إلى مدن أخرى مثل جني التي توطنت فيها الحضارة العربية، وصار للعرب مكانة كبرى في تلك الجهات من غرب أفريقيا ، وظهرت دول جديدة مثل مالي التي أسسها شعب الماندنجو ، ودولة صنغي التي أسسها شعب صنغي الذي كان قد اختلط بدماء العرب والبربر[١١].

وقد تجلى الدور العربي في هذه المنطقة من غرب أفريقيا عندما حدث التحام حضاري بين الإسلام وتقاليده ونظمه ، وتلك التقاليد والنظم المحلية، وظهرت نظم حكم جديدة ذات أنماط ومؤثرات إسلامية.

وساعدت هجرات الهلاليين منذ القرن الحادي عشر إلى دفع فريق من الملثمين إلى الهجرة إلى واحة أير وهناك تزاوج البربر مع السكان المحليين وحدث الاندماج الذي نشأ عنه شعوب الهوسا[١٢].

بدأت هذه الشعوب الهوسوية هجرات جديدة نحو الجنوب إلى شمال نيجيريا ، وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبع ولايات هي إمارات دورا، وبيرام ، وجوبير ، وكانو ، وكاتسينا، وزاريا وزمفرا[١٣].

وظل الهوسا حتى القرن الرابع عشر على وثنيتهم وأشار إلى ذلك ابن بطوطة الذي زار هذه الجهات في عام ١٣٥١ وتعجب لأن سكانها على الوثنية ، لكن سرعان ما تدفق الإسلام إليها على أيدي مجموعة من الفقهاء العرب الذين وفدوا إلى هذه الجهات، وطبقوا الشريعة الإسلامية واستمر التوسع العربي حتى جاء الغزو المراكشي لتمبكت عام ١٥٩٦ وتم تدمير هذه المدينة ، وعاد السودان الغربي إلى الفرقة بعد انهيار دولة صنغي لكن إذا كان المد الإسلامي قد توقف في هذه المنطقة إلى حين فإن جهودًا أخرى عربية قامت بنشر الإسلام إلى منطقة بحيرة تشاد حيث قامت سلطنات الكانم والبرنو. ومما هو لافت للنظر أن ملوك الكانم يطلقون على أنفسهم اسم بني سيف حيث يدعون نسبًا حميريًا بصلتهم بسيف بن ذي يزن وهم من العرب الذي حافظوا على هذا الأصل العربي[١٤].

ولقد اتبع السلطان فى دولة مالى ومنفى مذهب الإمام مالك. ولاتكاد تجد أسرة حاكمة فى هذا العصر إلا واصطنعت لنفسها نسبًا عربيًا حيث ادعى سلاطين مالى الانتساب إلى عبدالله بن صالح ابن على، وانتسب سلاطين الكانم وبرنو إلى حمير، وقد اتخذ السلاطين هذا النسب العربى ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير السكان[١٥٥].

وترجد مجموعة كبيرة من العلماء الذين ينتمون إلى أصول عربية أمثال أحمد بابا التنبكتى الذى ولد فى وهران عام ١٥٥٦ من أصل صنهاجى ورحل إلى تمبكت وشهد الاحتلال المراكشى وحمل أسيراً إلى مراكش ثم عاد إلى تمبكت مرة أخرى حيث ظل بها حتى وفاته عام ١٦٣٧.

وقد أعطانا صورة لتاريخ الحركة الفكرية فى السودان الغربى، كما ظهر أيضًا المفكر عبد الرحمن السعدى فى القرن السابع عشر، وأقام فى تمبكت ورحل إلى المغرب، وله مؤلفان ضخمة عن تاريخ السودان[١٩٦].

ظهر أيضًا المؤلف الكبير محمود كعت صاحب كتاب الفتاش الذى صار من أعظم فقهاء تمبكت وألف كتابه بالأسلوب المغربى المأثور[١٩٧].

بعد الغزو المراكشى فى القرن السادس عشر مر السودان بفترة من التفكك والانقسام حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما تعرض السودان الغربى لهجرات من البدو الرعاة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الفولية على حين يسميهم الهوسا باسم الفولانى ويطلق عليهم العرب اسم الفلاتة[١٩٨].

وقد اختلفت الروايات والآراء، وصار الجدل حول أصل هذه الشعب، وذلك لأنهم أقل سمرة من عموم الزنوج فى غرب أفريقيا، كما أنه الشعب الوحيد فى غرب أفريقيا الذى اعتمد على حرفة الرعى باعتبارها وسيلة المعيشة الوحيدة[١٩٩].

وقد انقسم المؤرخون شيعًا وأحزابًا حول أصل هذا الشعب حيث يرى ديبوى أن الفولانى من البربر، وأنهم إنحدروا من منطقة أدرار شمال السنغال وأنهم اندفعوا إلى السودان الغربى بعد طرد المسلمين من الأندلس، واشتغلوا بالزراعة والرعى[٢٠٠].

أما عالم الأجناس سلجمان (Seligman) فيرى أن الفولانى انتشروا فى السودان الغربى وأعالى السنغال أثناء قيام إمبراطورية غانا، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا، وصاروا قوة مسيطرة هناك بعد حركة الجهاد الفولانى فى أوائل القرن التاسع عشر[٢٠١].

ويرى إبراهيم طرخان أنهم من مصر العليا، وأنهم هاجروا عبر الشمال الأفريقى حيث مكث بعض منهم هناك وواصل البعض الآخر رحلته جنوبًا، واختلطوا بالهوسا واعتنقوا الدين الإسلامى[٢٠٢].

أما المؤرخ فيج (Fage) فيرى أنهم نزحوا من حوض النيل، وأنهم من أصل حامى[٢٠٣].

ويطالعنا جونستون (Johnston) برأى جديد وهو أنهم جاءوا أساسًا من الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا، وتحركوا نحو الشرق من منطقة ساغجاميبا، وشقوا طريقهم نحو السودان الغربى[٢٠٤].

وتشعبت الآراء عندما يطالعنا هوجبن (Hogben) برأى آخر يؤكد أن موطن الفولانى هو شرق أفريقيا، وأنهم نزحوا إلى مصر، ثم اتجهوا إلى جنوب مراكش، وهناك صاروا تحت سيطرة حكم بنى أمية، واضطروا إلى ترك المغرب والتوجه جنوبًا إلى فوتا جالون حيث اختلطوا مع قبائل الولوف والسرر، ونتج عن هذا الاختلاط شعب التكرور، وفى القرن الرابع عشر اتجهوا إلى بلاد الهوسا[٢٠٥].

وعن أصل الفولانى يسجل الوزير جنيد الملقب برزير سوكوتو حيث يرى أن جماعات الترنكاوا Toronkawa وهم أحد فروع الفولانى ينتمون إلى ذرية سيدنا إبراهيم وابنه اسحق عليهما السلام، وأن هذه الجماعة عبرت من أرض فلسطين إلى شمال أفريقيا، ووصلت إلى منطقة فوتاتورد وازداد عددهم واستقروا واعتنقوا الدين الإسلامى[٢٠٦].

ويحتفظ الفولانى بأسطورة لهم مثل غيرهم من الشعوب الأفريقية حيث تصف الأسطورة زواج أحد العرب المسلمين ويدعى يعقوب بامرأة من السودان تدعى باجومانجو، وأنها أنجبت طفلاً، وتركته فى أحد الأيام تحت رعاية أخيه الأكبر وعندما عادت وجدت الطفل يبكى، ووجدت أخاه يواسيه بلغة غريبة لاتعرفها، وعندما استدعت أحد الرجال ليشرح لها ما يقوله الابن الأكبر، لم يفهم الرجل شيئًا، وتنبأ بأن هذا الطفل سيكون مؤسسًا لشعب عظيم يدافع عن حمى الإسلام، وقد ترعرع الولدان وتحدثا بلغة الفولانى فى نفس الوقت الذى عرفا فيه اللهجة المحلية، فكان هذا بداية أصل الفولانى[٢٠٧].

ومع تعدد الآراء فإن الفولانى يرون أن أصلهم من سلالة عقبة بن نافع، وقد رجح الشيخ عثمان بن فودى وأخوه عبد الله بن فودى هذا القول فى إتفاق الميسور لتاريخ بلاد التكرور حيث قال:

عقبة جـد للفلاتين من عـرب ومن تورب كانت أمه هي يجمع[٢٨]

ويسجل أول دخول للفولانى إلى بلاد الهوسا فى حوالى عام ١٣٢٠ أى فى عهد السلطان منسى موسى أحد سلاطين دولة مالى حيث مارست هذه الجماعة التجارة والزراعة مثل جيرانهم من الهوسا[٢٩].

ومن العرض السابق لمختلف الآراء حول الشعب الفولانى ومع اختلاف وجهات النظر إلا أن الجميع أتفق على أن هذا الشعب دخيل على هذه المناطق ، وأنه شعب من أصل حامى، وأن أصوله ترجع إلى الجزيرة العربية والشام ومصر ، أى أن هذا الشعب عربى الأصل سواء جاء من أصل سيدنا إبراهيم عليه السلام أو جاء مع عقبة بن نافع الفهرى، فإن الأصل العربى لهذا الشعب واضح ، ولا خلاف حوله، ومن ثم فإن الدور الذى لعبه هذا الشعب الفولانى فى غرب أفريقيا بصفة عامة وشمال نيجيريا بصفة خاصة سيكون بالغ الأثر فى إحياء التراث العربى ونشر الثقافة العربية، وحمل لواء الجهاد ونشر الدين الإسلامى بين القبائل الوثنية، بل وتأسيس أكبر إمبراطورية إسلامية ذات أصول عربية فى شمال نيجيريا أطلق عليها أسم دولة الفولانى أو إمبراطورية سوكوتو الإسلامية ، فكيف تأسست هذه الإمبراطورية ؟ وما هى أبرز المؤلفات العربية فى هذه الدولة الإسلامية ، وأثر ذلك على هذه المنطقة . وسوف نعالج هذا الدور العربى لهذه الإمبراطورية من خلال عدة محاور هى:-

أولاً: تأسيس الإمبراطورية الإسلامية .

ثانياً : المؤلفات العربية فى شمال نيجيريا فى القرن التاسع عشر.

ثالثاً : أثر هذا التراث الحضارى على الحياة الثقافية .

أولاً : تأسيس الإمبراطورية الإسلامية

من المعروف أن انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا يعود إلى هجرات القبائل العربية خاصة هجرات بنى سليم وبنى هلال ، وتقدم هذه الهجرات نجاء الصحراء بحثاً عن ظروف تشبه الحياة فى الجزيرة العربية، كما كان لهجرة هذه القبائل إلى الشمال الأفريقى أثره فى دفع قبائل البربر والزنوج إلى التحرك جنوباً بعد اعتناق الإسلام ، ثم عبورها نهر النيجر والوصول إلى السودان الغربى[٣٠].

ولما قامت دولة المرابطين تكونت جبهة إسلامية قوية امتدت إلى المغرب والأندلس، وساعد هذا على انتشار الإسلام فى إقليم السنغال حتى ساحل العاج والنيجر[٣١].

استطاع دعاة المرابطين العرب الدخول إلى اودغشت عام ١٠٥٥ ثم إلى مملكة غانا وإخضاعها فى عام ١٠٧٦ وعينوا عليها حاكماً من البربر ، وقد ساعد ذلك على انتشار الدين الإسلامى فى السودان الغربى، وقيام عدة ممالك إسلامية لها مكانتها وحضارتها فى كل من غانا ومالى وصنغى والبرنو والكانم ، وكلها ممالك ذات أصول عربية إسلامية ، وهذا يوضح المد العربى والأثر الإسلامى فى هذه الجهات، وهذا ما يدعونا إلى دراسة تاريخ العرب فى هذه المناطق من غرب القارة الإسلامية[٣٢].

هكذا دخل الإسلام إلى بلاد الهوسا، وأسلم معظم الملوك والحكام، واعتنقوا الدين الإسلامى فى القرن الرابع عشر، ودخل إمارات كانوا وزاريا وكاتسينا. ولعبت قبائل الفولانى بعد اعتناقها الإسلام دوراً فى تلك الجهات وكان للطرق الصوفية خاصة القادرية والتيجانية دوراً كبيراً فى هذا المضمار[٣٣].

ومع النمو السريع لإمارات الهوسا وانتشار الإسلام على أيدى رجال الدين من الصوفية حدثت عدة صراعات بين الإمارات المختلفة، وحاولت كل إمارة أن تفرض سيطرتها على الأخرين وتمكنت إمارة جوبير أن تنتزع السيادة من إمارة زمفرا لكن هذه الحروب المستمرة لم تجعل لأى إمارة السيادة لأن أساليب الحرب لم تكن قد وصلت إلى درجة من التقدم تساعد على أن تبسط إمارة نفسها على الأخرين، وقد أثر هذا على مسيرة الدعوة الإسلامية حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما نجح الفولانى بعد أن اتخذوا من الدعوة الإصلاحية ركيزتهم وعدتهم فى ثورتهم الكبرى من أجل نقاء العقيدة والعودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق ، فقامت هذه الدولة الإسلامية الكبرى التى سيكون لها الأثر الأكبر فى نشر الإسلام، وإحياء السنة المحمدية فى قلب الغابة الاستوائية، وبعد أن اتخذ زعماء الحركة من شمال نيجيريا ومنطقة سوكوتو مقراً للدعوة ، ومستقراً لأكبر حركة إصلاحية عرفتها المنطقة عبر تاريخها ، حركة إصلاحية كبرى حمل لواءها زعيم فولانى من أصول عربية نجح فى بضع سنوات أن يضع حداً للانقسامات والصراعات المحلية بين إمارات الهوسا، ويوحد الجميع تحت لواء دولة واحدة، اتخذت من الشريعة الغراء منهجاً ودستوراً ، وبعد أن قضت على كل البدع والعادات الوثنية، وبعد أن دخل الناس أفواجاً فى الدين الحنيف وبعد أن وضعت أسس الخلافة الإسلامية فى أعظم وأجل وأزهى صورها. وبتطلب الأمر إلقاء الضوء السريع على هذا المجاهد الإسلامى الكبير ودوره الإصلاحى، وأثره فى نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية[٣٤].

أعلن الشيخ عثمان بن فودى حركته الإصلاحية ضد حكم إمارة جوبير الأمير نافاتا الذى حاول منع الشيخ عثمان من مواصلة دعوته ، وأصدر ضده مرسومًا يحرم لبس العمامة وألا تضع امرأة خمارها على جبهها ، وتحمل الشيخ هذا التحدى حتى وفاته وتولى ابنه يونفا الذى استمر فى العداء للشيخ عثمان حتى جاءت الساعات الحاسمة . وأعلن الشيخ وثيقة أهل السودان التى كانت إعلانًا للجهاد ضد الحكام الوثنيين، وكان هذا الإعلان بداية قيام أقوى دولة إسلامية فى غرب أفريقيا حتى بدأ الجهاد عام ١٨٠٤ ، واستمر الجهاد والانتصار للشيخ عثمان وأبنائه حتى دخوله العاصمة الكالارا عام ١٨٠٨ [٣٥].

وبسقوط مدينة الكالارا يقول محمد بلو أن المقاومة للمسلمين قد انتهت، وانتشرت أخبار الجهاد عن طريق المسافرين فتاب بعضهم، واستقام أمر البلاد، واطمأنت جوانبها[٣٦].

ويمكن القول أنه فى عام ١٨١٠ أى بعد ست سنوات من تعيين الشيخ أميرًا للمؤمنين ، كان جهاد الشيخ عثمان لإعلاء شأن الإسلام فى إمارات الهوسا قد تحقق الغرض الذى من أجله أعلن هذا الجهاد . وتحقق الهدف من نشر الإسلام فى بلاد الهوسا بعد أن نجح أتباعه فى تكوين إمبراطورية شاسعة بلغت مساحتها ١٨٠,٠٠٠ ميلاً مربعًا[٣٧].

وهكذا حدد ال الشيخ عثمان الهدف من الجهاد حيث أوضح فى وثيقة أهل السودان بأن الغرض من الجهاد هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار، وتنفيذ أحكام الشرع، وقتال الملك الكافر الذى لايقول «لا إله إلا الله»[٣٨].

لأول مرة فى تاريخ هذه المنطقة استطاع الشيخ عثمان تشكيل وحدة سياسية أخذت شكل إمبراطورية وأصبح نظام الحكم فيها خلافى، وتخضع جميع الإمارات لحكم خليفة أطلق عليه أمير المؤمنين[٣٩].

وهكذا نجد أن حركة الإصلاح الدينية قد غيرت أسلوب الحياة السائد فى بلاد الهوسا، حيث ظهر مجتمع جديد تحكمه طبقة جديدة تسير وفق أنماط جديدة فى الحياة تختلف عن الأساليب التى كانت سائدة من قبل، وقد قوى هذا من ساعد المجاهدين الذى سعوا إلى نشر الإسلام، وتطبيق شريعته فى كل منحى من مناحى الحياة، وبعد نجاح الجهاد ترك الشيخ أمور الحكم والإدارة فى عام ١٨١٢ واقتصر دوره على النصح والإرشاد ، وتقديم المشورة ، وكرس الجزء الباقى من حياته فى التأليف والدراسة والتأمل حيث انتقل إلى مدينة سوكوتو عام ١٨١٥، وظل بها حتى وافته المنية يوم ٢٠ أبريل ١٨١٧ تاركًا تراثًا ثقافيًا ضخمًا ، ومخلفًا أكبر

إمبراطورية إسلامية فى غرب القارة ، ومؤسسًا لدولة إسلامية تورث أبناؤها الحكم والسلطة وتنفيذ أوامر الشريعة الإسلامية طوال قرن من الزمان حتى دخلها البريطانيون فى عام ١٩٠٣ وضموا هذه الدولة الكبرى إلى دولة نيجيريا المتحدة ، لكن التراث الحضارى العربى والإسلامى الذى خلفه الشيخ عثمان وأخوه عبدالله بن فودى، وابنه محمد بلو يُعد إنجازًا حضاريًا وتراثًا إسلاميًا ، وثقافة عربية تذخر بها دور الوثائق والمكتبات العالمية وهذا فى حد ذاته دليل على قوة النفوذ العربى، وقوة الثقافة العربية وانتشارها فى هذه المنطقة من غرب أفريقيا ، وإذا كانت نيجيريا هى أكبر دولة إسلامية فى القارة من ناحية السكان المسلمين ، فإن هذا يرجع إلى هذه الحركة الإصلاحية التى قاد لواءها الشيخ عثمان وأبناؤه فى مطلع القرن التاسع عشر[٤٠].

ثانيًا : أهم المؤلفات العربية فى شمال نيجيريا فى القرن التاسع عشر

أ- التراث الحضارى للشيخ عثمان بن فودى:

لقد كان الشيخ عثمان بن فودى أحد العلماء القلائل الذين أثروا فى شعوبهم ، وأدوا الأمانة كاملة. وقادوا شعوبهم فى سفينة الأمان ووسط الأمواج المتلاطمة ، والظلمات الدامسة حتى وصلوا إلى بر الأمان. كما استطاع الشيخ أن يجمع الناس على دين واحد بعد أن أخضع جميع الإمارات المجاورة وضمها إلى الإمبراطورية الإسلامية والتى أصبحت تطبق الشريعة الإسلامية الغراء ، ويرفرف عليها علم المحبة والإخاء والمساواة، ولم يكن من السهل على الشيخ أن يجمع كل هذه المناطق تحت راية واحدة، ولم يكن طريقة مفروشًا بالورد فى كل خطوة يتخذها نحو بناء الدولة، بل تربص به الأعداء من الحكام المحليين الذين خافوا على عروشهم ، فوقفوا من الحركة موقفًا سلبيًا ، وحاربوها فى كل مكان ، وجندوا طاقاتهم ضد الشيخ وأتباعه، ولكن أراد الحق سبحانه وتعالى أن ترفع رايات الإيمان فى تلك المنطقة النائية عن مركز الدعوة الإسلامية فى المشرق العربى، وشاءت الأقدار أن تكلل جهود الشيخ فى القضاء على كل من وقف ضده، ونجح الشيخ فى الرد على تآمر العلماء الحاقدين عليه والذين أصدروا فتاوى عديدة يبطلون فيها الدعوة وصاحبها ، ويشككون فى صلاحها . ويزرعون الشك والريبة فى أقواله وعظاته ، بالإضافة إلى إثارة القبائل ضد الشيخ وأعوانه بعد ازدياد النفوذ ونجاح أتباعه فى نشر دعوته فى طول بلاد الهوسا وعرضها ، والتفاف الناس من حوله[٤١].

ولهذا كان جهاد الشيخ عثمان متنوعًا وشاملاً حيث استخدم السيف فى مواقف تحتاج إلى القوة المسلحة ضد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله كما استخدم القلم ضد من أراد إنكار الدعوة ، أو حاول التشكيك فى قيادتها ، ومن ثم كانت مجالس وعظه تتجه إلى جوانب الحياة والدين يحاول إصلاحهما على المنهج الإسلامى القويم، وفى نفس الوقت كان الشيخ يركز على شئون العقيدة والعبادات والمعاملات ، وشئون الحكم والرعية، والسلوك الخاص والعام للفرد والمجتمع، وكان يتخذ أسلوب الداعية الذى يقرن القول بالعمل والتعليم بالتربية ومن هنا جاءت مؤلفات الشيخ لتسد كل هذه الجوانب من الحياة الإنسانية ، فصارت متنوعة ومتعددة وشاملة ، ولم تترك صغيرة ولاكبيرة فى المسائل الدينية إلا شملتها ولم تدع المجال أمام سلوك الناس ولم تترك الأمور تسير على هواها ، بل كان الشيخ يصدر الفتاوى والأحكام التى تعالج المشكلات الاجتماعية والدينية فى قالب سهل بسيط[٤٢].

وكان الشيخ عثمان من رواد نشر اللغة العربية والتأليف بها فى مجتمعات غرب أفريقيا، ويمتاز أسلوبه بسهولته وقدرته على الإقناع أثناء شرح القضايا الإسلامية ، وكان غالبًا ما يستعرض فى كتبه فتاوى وآراء واجتهادات الكثير من أئمة المسلمين وعلمائهم الصالحين ، ولم يتوقف دوره عند هذا الحد بل كان يقوم بتحليل وتفنيد وشرح هذه الآراء قبل الاستناد عليها لدعم وجهة نظره فى أى أمر من الأمور، وكثيراً ما كان يستدل بآراء العلماء السابقين لكى يبرر صدق أقواله، ولكى تكون برهانًا على صحة ما يقول، وكان يعرض مختلف آراء العلماء حول المسألة التى يعالجها ، وينتهى الأمر بالحديث عن رأيه الخاص والذى كان يدعمه بالحجج والأسانيد القوية، ومن هنا جاء سر اقتناع الناس بآراء الشيخ والالتزام بها، والوقوف إلى جانبها .

كانت كتب الشيخ تخدم أغراض حركته فى الجهاد ، وتشرح دعوته التى حارب من أجلها ، وتفسر مختلف النظريات التى آمن بها خصوصًا كتاباته السياسية والدينية التى جاءت فى فترة طغت فيها موجة من الاستهتار والانصراف عن أمور الدين، واتباع الناس لكثير من العادات الوثنية وبعد طغيان التقاليد المحلية والقوانين الوضعية التى أثرت على الشريعة الإسلامية، فكتب الشيخ مؤلفاته المتنوعة بعد أن هاله حالة البلاد ، وتساهل الحكام فى تطبيق الشريعة، وبعد انتشار البدع والضلالة . وبعد أن أخذت كل هذه الأمور الوضيعة تنخر فى جسد الأمة الإسلامية، وتجد تشجيعًا من حكام وثنيين، وأناس لايعرفون عن الدين إلا القليل

فجاءت كتاباته فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة إليها للتمسك بالفضيلة ، ونبذ الرذيلة، والتمسك بآداب الدين، والوقوف أمام جماعات الشرك الوثنيين، فكان ذلك التحول فى المجتمع وكانت تلك القلة من البدع والأهواء الشيطانية إلى قيام مجتمع إسلامى متكافل يطبق شريعة الإسلام، ويلتزم بكل الأمور التى حث عليها الشيخ عثمان، ولذا يمكن القول أن ما خلفه الشيخ من تراث علمى ودينى وثقافى كان النبع الأول لتحول الناس أفرادًا إلى الرسالة المحمدية ، ولتصحيح الكثير من الأفهام والبعد عن الشوائب التى لحقت بالدين الإسلامى[٤٣].

ومن يطلع على مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى يدرك عمق الثقافة لدى هذا العالم الإسلامى الجليل ، ويحس بمدى إطلاع الشيخ على كثير من مؤلفات السلف الصالح ، وقدرته على استخدام القرآن الكريم فى كثير من المواضع التى تحتاج إلى استشهاد من كتاب الله كما تؤكد هذه المؤلفات اطلاعه على الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال ومناقب الخلفاء الراشدين والتابعين لهم وآراء الأئمة الأربعة والجامع الصحيح لأبى عبدالله البخارى، وعلماء بلاد السودان وفقهائه المتخصصين وسائر فقهاء المسلمين مثل الإمام الغزالى، وابن تيمية ، والقاضى عياض ، وخليل بن اسحق ، والإمام السيوطى، والإمام المغيلى، والشيخ محمد مختار الكنتى وأستاذه الحاج جبريل بن عمر وغيرهم من العلماء.

وكان الشيخ عثمان يسعى فى مؤلفاته إلى إصلاح أحوال العلم والعلماء ، وقد وضح بنفسه وجوه الإصلاح فى أمور ثلاثة هى:

أولاً : البحث عن أحكام الله فى عمل الإنسان فيما هو به من حركة وسكون وما يعرض له من إقبال وإدبار . وذلك بأن يراقب أحواله ، فلايعمل شيئًا إلا عن علم وإقتداء بمن يصح الاقتداء به من عالم ورع . وفقيه لاهوى له.

ثانيًا : تصحيح الإيمان بوجه يؤدى إلى إقامة حرية الشارع فيما أمر به ونهى عنه والتبصر فى الدين.

ثالثًا : العلم بأصول الطريق الذى يريد سلوكه[٤٤].

وإذا استعرضنا مؤلفات الشيخ عثمان وتراثه الضخم نجد أنها تدور حول موضوعات كثيرة وأحيانًا تتداخل الموضوعات إلى حد التكرار ذلك لأن الشيخ لم يترك مناسبة إلا وتحدث عنها حتى ولو تكررت فى مكان آخر وبين جماعات من المسلمين لم يكن قد التقى بهم بعد، ويمكن إجمالاً أن نصف أبرز هذه الموضوعات فى المسائل الآتية:-

ناقش الشيخ الموضوعات الدينية بهدف إحياء السنة المحمدية وإخماد البدعة الشيطانية ولم يكن قصده هتك أستار الناس والاشتغال بعيوبهم ، ولعل أهم مؤلفاته في هذا الصدد كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة والذي اشتمل على ثلاثة وثلاثين بابا تدور كلها حول العقيدة والتوحيد والطهارة والصلاة والزكاة والحج ، ويُعد هذا الكتاب مرجعًا أساسيًا باللغة العربية الفصحى لكل مسلم في هذه المنطقة ولم يترك الشيخ صغيرة ولاكبيرة تهم أمر المسلمين إلا وتحدث عنها في مؤلفاته الدينية ، وهذا ما جعل الإسلام يعيش فترة زاهرة في هذه المنطقة.

هذه بعض الأعمال التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي، وصارت تراثًا حضاريًا في نيجيريا اليوم والتي تنوعت وتعددت وعالجت كل ما يهم الناس في دينهم ودنياهم فكانت لهم مرشدا إلى الطريق السليم وإلى النهج القويم، وإلى تنقية العقيدة من البدع التي سادت مجتمعات غرب أفريقيا، وصارت هذه المؤلفات العديدة الأساس الذي انكب عليه رجال الإصلاح وأتباع الطرق الصوفية ليسترشدوا به في جهادهم.

وبعد هذا العرض السريع لمؤلفات الشيخ عثمان بن فودي يمكن أن نلحظ أنها تتسم بعدة أمور منها :-

١- أنها تتميز بالتكامل والشمول والتنوع حيث لم تعالج فكرة واحدة ، ولم تتحدث عن موضوع واحد، بل شملت الكثير من الأفكار والآراء التي عالجت شتى جوانب الحياة الإنسانية بما في ذلك قضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢- غلبت على مؤلفات الشيخ عثمان كثرة النقل من كتب العلماء والأئمة حيث كان الشيخ دائم الاستشهاد من مختلف العلماء، وكان صادقًا في كل ما ينقله عند مناقشة أي قضية من القضايا .

٣- اتسمت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي بكثرة التكرار حتى في الموضوع الواحد وفي أكثر من مؤلف، ولكن بأسلوب مختلف . ولعل السبب في ذلك أن الشيخ عثمان كان دائم التنقل من مكان إلى آخر، وفي كل مرة كان يلتقي بجماعات أخرى خلاف ما كان يجتمع معها من قبل، وكان عليه أن يعالج الموضوعات حسب الوضع الذي أمامه ، ولذا كثر التكرار في مؤلفاته لمواجهة مختلف الجماعات، وفي مختلف الأماكن والمناسبات.

٤- تكشف مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي على أنه كان واسع الاطلاع ، ويلم بأصول

الدين، ويعتمد على مؤلفات كبار العلماء وأصحاب المذاهب الأربعة، وعلى التفقه وحفظ الحديث الشريف ، والقرآن الكريم، وحسن الاستدلال بها في أكثر من موقع.

٥- يمتاز أسلوب عثمان بالبساطة في كل مؤلفاته التي كتبها باللغة العربية، كما يتسم أسلوبه بالمرونة في التعبير، وإبراز الفكرة التي يريد إيضاحها ، وهذا ما شجع على نشر اللغة العربية ، وكان بذلك قدوة لمجموعة من العلماء الذين ساروا على نهجه وخصوصًا أخوه عبدالله بن فودي وابنه محمد بلو بن عثمان.

ب- التراث الحضاري للشيخ عبدالله بن فودي:

يعتبر الشيخ عبدالله بن فودي الرجل الثاني في حركة الجهاد الفولاني ، كما أنه الساعد الأيمن للشيخ عثمان بن فودي ، حيث رافقه في كل مراحل الجهاد رغم أنه أصغر من الشيخ عثمان اثني عشر عامًا (ولد عام ١٧٦٧وتوفي عام ١٨٣٠) .

وكان الشيخ عبدالله قد صاحب أخاه في كل مراحل تعليمه وحفظ القرآن الكريم عن والده محمد فودي، ودرس المبادئ الأساسية للعلوم الإسلامية ، وتتلمذ على أيدي أخيه عثمان في بعض الأمور المتعلقة باللغة العربية وآدابها وشعرائها[٤٤].

وقرأ الشيخ عبدالله عن السنوسية ، ودرس علم التصوف ومبادئ الفقه كما درس علم الحديث، وعلم الحساب ، ولازم أخاه عثمان في طلبه ورحلاته العلمية.

فقد تنوعت مؤلفاته حول أمور كثيرة لأن الشيخ عبدالله بن فودي من الرجال العباقرة الذين تفخر بهم نيجيريا في الوقت الحاضر ليس لهذه الكثرة من الكتب التي ألفها أو لقيمتها العلمية فحسب، بل لشمول هذه المؤلفات وتناولها مختلف فروع العلم من فقه، وتفسير وتصوف وتاريخ وحديث ونحو ومنطق وعلم الكلام والعروض والأدب ولكثرة هذه المؤلفات باللغة العربية الفصحى فقد أصبح أكبر عالم عرفته أفريقيا الغربية، ولا غرابة أن يلقبه الناس بعربي السودان لذلك الجهد الكبير الذي بذله في نشر الثقافة العربية من خلال أشعاره ومقالاته وكتبه العلمية والدينية.

وباختصار يعتبر الشيخ عبدالله بن فودي أعظم من قام لنيجيريا تراثًا ضخمًا في الأدب بعد أخيه عثمان في القرن التاسع عشر شمل التفسير والحديث والأدب والشعر والتاريخ وغيره من فنون التعبير والكتابة.

ج- التراث الحضاري للشيخ محمد بلو بن عثمان :

من الطبيعي في الجو العلمي الذي عاش فيه الشيخ عثمان وأخوه عبدالله أن تتفرع ذريتهم على حب العلم والتأثر بهذا المناخ الثقافي، وفي هذه البيئة نشأ الشيخ محمد بلو بن عثمان حيث حفظ القرآن وتعلم العلم ولازم والده في كل مراحل جهاده وأخذ عنه التفسير والحديث وأصول الدين، وقرأ عليه التصوف . كما قرأ على عمه عبدالله الألفية ولامية الأفعال وشرحها والجوهر المكنون، وقرأ على أخيه الكبير محمد سعد بن عثمان الألفية حتى وصل إلى باب جمع التكسير، وكان محمد بلو موفقًا في تعليمه ودراسته، وجهاده . وقد برع محمد بلو في علوم السياسة والشريعة . وألف الكثير من الكتب مثل والده وعمه غير أنه يمتاز عنهما بولعه الكبير بالتاريخ وكتابه «أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور»[٤٦]. ويعتبر هذا الكتاب من أكبر مؤلفات محمد بلو ومن أهم المصادر الموثوق بها في تاريخ بلاد الهوسا[٤٧].

ويعتبر كتاب أنفاق الميسور المصدر الأساسي لتاريخ الدعوة الإسلامية وجهادها والدولة الفولانية في مطلع القرن التاسع عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب الذي كتبه مؤلفه في زحمة من الأعمال إلى أنه شارك في كثير من الأحداث التي وقعت في بلاد الهوسا في القرن التاسع عشر . كما أن المؤلف كرس الجزء الأكبر من هذا الكتاب إلى ترجمة لسيرة والده الشيخ عثمان حيث تحدث باسهاب عن حياته ودعوته إلى الإسلام . والمعارضة التي واجهها من أمراء الهوسا، وغزوات الشيخ وجهاده بشكل مفصل . وكراماته ومصنفاته ورزاته . وقواده، وأبنائه وبناته . كما تطرق إلى الحديث عن مملكة صنغاي وعلمائها . واختتم الكتاب بالحديث ورد الطريقة القادرية وفوائده.

وإلى جانب هذا العرض التاريخي يضم الكتاب بين جوانبه الكثير من القصائد التي نظمها المؤلف أو التي نظمها عمه الشيخ عبدالله وهي تكشف مدى الاهتمام باللغة العربية وآدابها . كما يضم الكتاب بحوثًا في السياسة الشرعية حررها محمد بلو ردا على قضايا معاصرة أو أحداث جسام في حروب الدولة وجهادها [٤٨].

ومن مؤلفات الشيخ محمد بلو «كف الإخوان عن اتباع خطوات الشيطان» وفيه يتحدث عن التعصب الديني . وأقسام العلماء، والترهيب من تزكية المرء نفسه وسوء الظن بالغير، كما يخصص فصلاً للحديث عن المنكرات كما يتحدث عن النصيحة[٤٩].

وفي كتاب «شفاء الأسقام في ذكر مدار الحكام» يتناول المؤلف الحديث عن الأحكام الشرعية بصفة عامة، وعن الكتب التي درسها الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم[٥٠].

ويتناول كتاب «الغيث الوبل في سيرة الإمام العدل» الحديث عن سياسة السلاطين في الأقطار الإسلامية، ومن خلال أحد عشر بابا يناقش محمد بلو وجوب الطاعة للسلطان ووجوب النصح له . والواجب عليه نحو حماية الإسلام والمسلمين والواجب نحو حفظ الدين، وضرورة إقامة الشعائر وعمارة المساجد، وإعلان الجهاد[٥١].

وفي كتاب «روض الأنكار» يتحدث الشيخ عن ملوك السودان الغربي الوثنيين وتقاليدهم، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية.

وإلى جانب هذه المؤلفات التاريخية قام محمد بلو مثل والده بالتأليف في المجالات الفقهية والدينية والمجالات الاجتماعية وأيضًا المجالات الطبية.

هذا فضلاً عن علماء آخرين أثروا في الحياة الثقافية في غرب أفريقيا، وفي شمال نيجيريا مثل أحمد بن القاضي، وأسماء بنت الشيخ عثمان والشيخ ألفا هاشم، والشيخ عبد القادر بن المصطفى والشيخ علي بن حمزه، والشيخ غداد بن ليم والشيخ عيسى بن فردي والشيخ حيات بن سعيد . والشيخ محمد الطاهر الفلاني . وغيرهم من الأسماء التي حفل بها فهرست المخطوطات العربية في شمال نيجيريا والذي تم جمعه وطبعه في عام ١٩٧٧ . والذي يُعد دليلاً ومرشداً كل باحث عن التراث الحضاري لزعماء نيجيريا في القرن التاسع عشر .

ثالثًا : أثر التراث الحضاري على الحياة الثقافية

تعتبر دولة الخلافة في سوكوتو نموذجًا فريداً ورائعًا لدراسة الدولة الإسلامية الأفريقية حيث قرر الشيخ عثمان اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في هذه الدولة التي تسمها إلى حوالي ثلاثين إمارة طبقت الشريعة الإسلامية والقضاء الإسلامي على مذهب الإمام مالك وكان الشيخ عثمان يقيم في كل قرية مسجداً تحت إشراف معلم، وكان المسجد يضم فصلين للتعليم أحدهما للعلوم والآخر للمتقدمين في العلم وهما ما أطلق عليها المدارس القرآنية والدهليز . وقد اتخذ الشيخ عثمان من اللغة العربية أساسًا للتدريس في هذه المدارس[٥٢].

وصارت مدن مثل كانوا وزاريا وكاتسينا وسوكوتو من أشهر مدن الدولة التي جذبت مدارسها الطلاب من كافة أنحاء الإمبراطوريات، وكانت الدروس تُعطى في المسجد طوال

اليوم، ولاتنقطع إلا وقت الصلاة ، كما كان بعض الأساتذة يدرسون بالليل على نور الحطب المشتعل الذى يتبرع به الطلاب[٥٣].

ولم يقتصر الدين الإسلامى على أنه الدين الرسمى للدولة بعد نجاح الجهاد، بل فكراً وثقافة، وما أن يعتنق الشخص الدين الإسلامى حتى يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة، وبهذا التعليم تيسر مكانة الفرد، ويرتفع كيانه الاجتماعى فى الدولة، وارتبط الدين الإسلامى بالتعليم نظراً لأن انتشار هذا الدين استلزم تعليم اللغة العربية حتى يفهم القرآن الكريم والفقه والتشريع الإسلامى ، وقد ساعد هذا على انتشار اللغة العربية لدرجة أن لغة الهوسا كانت تكتب بألفاظ عربية حتى جاء الاستعمار الأوربى واستبدلها بالحروف اللاتينية[٥٤].

وسوف ندرس الآثار التى ترتبت على هذا التراث الحضارى فى نيجيريا فى القرن التاسع عشر .

أولاً : لقد ساعدت حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودى على جعل اللغة العربية لغة التعليم والدراسة ، وصارت مناهج التعليم فى دولة سوكوتو تعتنى أساسًا بحفظ القرآن، وتفسيره باللغة العربية، إلى جانب دراسته الفقه والتوحيد ، وأصبحت المعاهد العلمية تعتمد على هذه اللغة، وصار معهد الشيخ عثمان من أكبر المعاهد الدينية فى نيجيريا ، هذا إلى جانب عدد من المعاهد فى مدينة كانو، ومعهد زاريا، ومعهد إمارة أدماوا[٥٥].

وبالطبع ساعدت هذه المعاهد على نشر الثقافة العربية فى دولة سوكوتو وكان للكتب التى ألفها قائد الجهاد ورجاله فى شتى فروع العلم والمعرفة وآثارها فى حياة الناس والمجتمع وصارت هذه المؤلفات حجر الزاوية لثقافة الدولة ، وحضارتها فى القرن التاسع عشر ، وساعد ذلك على اتخاذ اللغة العربية لغة الأدب والحضارة فى دولة سوكوتو[٥٦].

وحتى الغزو البريطانى لدولة سوكوتو فى عام ١٩٠٣ كانت تلك المناطق الإسلامية تضم عدداً من المدارس والمعاهد والمراكز العلمية التى تدرس باللغة العربية، وكانت العلوم والآداب تلقى اهتمامًا فى هذه المعاهد العلمية ، وقد ساعدت هذه المدارس الإسلامية على تطوير الثقافة العربية فى بلاد سوكوتو[٥٧].

كما أحدثت مؤلفات الشيخ عثمان ثورة ثقافية فى مجتمعات غرب أفريقيا حيث أقبل الناس على تعلم هذه اللغة، وفتحت المدارس والمعاهد أبوابها لدراسة اللغة العربية وآدابها

وصار مقر الشيخ عثمان فى سوكوتو منارة يؤمها طلاب العلم من جميع البلدان المجاورة، بل وأغرى ذلك عدداً من الأجانب فأقبلوا على ضخامة هذه المؤلفات ، وتناولها بالشرح والتحليل والتعليق ، وترجموا العديد منها إلى لغاتهم الأجنبية .

ولاتزال اللغة العربية واضحة المعالم فى مجتمعات غرب أفريقيا ويظهر ذلك بشكل جلى فى مؤلفاتهم المحلية، ولاتزال آلاف الكلمات إلى اليوم مستخدمة فى بلاد السودان الأوسط الغربى، وفى نظم الحكم ، والحياة الاجتماعية وحتى فى أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات ، ولاتزال اللغة العربية تتفوق من حيث سعة الانتشار بسبب مكانتها المقدسة باعتبارها لغة القرآن الكريم، وبسبب مؤلفات زعماء الجهاد فى القرن التاسع عشر، ولايزال إقبال الأفارقة على تلقى العلم، والاستزادة من مناهل اللغة العربية يوماً بعد يوم من حماس تلقائى بسبب سماحة الدين الإسلامى، وما يمتاز به المسلمون من كفاءة ودراية فى شتى الميادين الاقتصادية ، ولايزال المسلمون يمثلون حضارة رفيعة ومدينة عريقة فى نيجيريا[٥٨].

ثانيًا : لقد ساعدت حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودى على نشر الطريقة الصوفية القادرية التى صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى ، وكان لكتابات الشيخ عثمان وحديثه عن الطرق الصوفية وخاصة القادرية أثرها فى انتشار تلك الأفكار الصوفية والتى لعبت دوراً كبيراً فى نشر التعليم والثقافة الإسلامية ، والتصدى إلى البدع والخرافات التى سادت فى مجتمعات غرب أفريقيا والتى جعلت الشيخ عثمان يقف أمامها بحزم ويؤلف العديد من الكتب التى تحدثت عن كثير من البدع والخرافات بعد أن صار قطبًا للطريقة القادرية ، ولقد ساعدت تلك الأفكار الصوفية على قيام جماعة من أتباع الطريقة بعد اعتناق المبادئ التى نادت بها بالتصدى لعادات المجتمع وكان لابد من قيامها بحملة من الدراسة والتعليم للقضاء على الجهل، والانتقال إلى نشر قواعد الدين الصحيح بعد تعلم اللغة العربية كتابة وقراءة[٥٩].

وأصبحت زوايا الطريقة القادرية فى نيجيريا بمثابة مراكز للذكر والصلاة جنبًا إلى جنب مع الدراسة والتعليم . وصارت مصدراً للفتوى والتعليم تعقد فيها جلسات القضاء المحلى، والأكثر من ذلك أن هذه الزوايا قد أصبحت مراكز للتدريب العسكرى على الرماية والمبارزة ، وركوب الخيل وشن الحملات العسكرية بعد أن أعلن الشيخ عثمان بن فودى الجهاد ورحبت القبائل الوثنية بجماعات القادريين باعتبارهم كتابًا وفقهاء، ومعلمين وبسرعة سيطر رجال الطرق الصوفية على السكان المحيطين بهم، ودخل الناس أفواجًا فى الدين الإسلامى[٦٠].

وتحملت الطريقة الصوفية القادرية عبء نشر التعليم في المنطقة ، وصارت المدارس القرآنية مراكز العلم والثقافة. كما لعبت هذه الطريقة دوراً كبيراً في مقاومة الاستعمار الأوربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان لجهود العلماء المخلصين الذين قادوا الجهاد في دولة سكوتو نشاط واضح في المجالات الأدبية والدينية والعلمية حتى صار النصف الأول من القرن التاسع عشر بمثابة العصر الذهبي لهذا الإنتاج في دولة سكوتو بفضل مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي والشيخ عبدالله ومحمد بلو بن عثمان تلك المؤلفات التي جعلت العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يحجمون عن التأليف لأنهم اعتقدوا أن هذا الباب قد أغلق بمضي الشيخ عثمان وأقطاب الجهاد ، وأنه ليس في إمكان واحد منهم أن يأتي بجديد بعد هذه المؤلفات الضخمة لزعماء الجهاد ولذا انحصرت جهودهم على قراءة هذه الكتب وشرحها وتفسيرها مما أثرى الثقافة العربية، وساعد على استمرار انتشار أفكار الشيخ والمبادئ التي نادى بها[٦٦١].

ثالثًا : ساعدت الحركة الثقافية والأدبية التي قاد لواءها الشيخ عثمان بن فودي على إحياء مجد الدولة الإسلامية في ذلك الجزء من القارة الأفريقية ، حيث أنشأ الشيخ عثمان في حكومته مناصب عربية مثل الوزير والقاضي والوالي والمحتسب وشيخ الإسلام والحاجب وغيرها من الألقاب والوظائف التي كانت شائعة في صدر الإسلام وفي الدولة الأموية والعباسية[٦٦٢]، فأحدث ذلك إحياء للخلافة الإسلامية بعد أن حمل الشيخ لقب أمير المؤمنين وحمل أبناؤها بعد ذلك ألقاب الخليفة وأمير المؤمنين طوال القرن التاسع عشر ، وقد ساعد هذا على إعادة منصب الوزارة كما كان في عهد العباسيين وسار على نهج السلف الصالح، وأنشأ مؤسسات ودواوين ودور قضاء ، كما سجل جميع الإجراءات باللغة العربية مما ساعد على ازدهارها طوال القرن التاسع عشر[٦٦٣].

رابعًا : لقد ساعد هذا التراث الضخم لأقطاب الجهاد في نيجيريا في القرن التاسع عشر على قيام أول تجربة إسلامية في تاريخ السودان تجمع تلك المنطقة الواسعة تحت لواء دولة واحدة. بل كانت أول دولة تُجمع تحت رايتها عدة ممالك وأوطان من بلاد الهوسا ، وتفرض السلام والسكينة في ربوع المنطقة بعد صراعات دموية طوال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، واستطاعت هذه الدولة الجديدة أن تصبغ المنطقة بالطابع الإسلامي والذي لازال يميزها حتى يومنا هذا ، ولازال نيجيريا أكبر دولة إسلامية في القارة الأفريقية على الإطلاق

بفضل هذه الجهود المخلصة لزعماء الكفاح والنضال الإسلامي طوال القرن التاسع عشر ، فلقد أعطت هذه الدولة للإسلام دفعة جديدة بما ألف زعماء الجهاد من تراث ديني وأدبي صحح الكثير من الأخطاء وقضى على البدع والخرافات التي سادت عادات الناس وسلوكهم في هذه المجتمعات، بل وانتهت الوثنية التي كانت تخيم على المنطقة بأسرها ، وبددت الظلام ، وأشرق نور الإسلام في غابات وشواطئ الأطلس ، ناهيك عن أن هذه الدولة كانت تجربة رائدة وقدوة في المنطقة اقتفى آثارها كثير من الحركات الإسلامية في المناطق المجاورة لها شرقًا وغربًا، وخلف دعاتها تراثًا علميًا لكثير من جوانب المعرفة الإسلامية ، وفي السياسة والتاريخ ، والطب، والعلوم والأدب فكان هذا فتحًا جديدًا لهذا الجانب من التشريع الإسلامي في هذه المنطقة[٦٦٤].

وقد ظهر أثر الإسلام بعد انتشار حركة الجهاد في جعل القرابة الدموية من ناحية الأب بدلاً من الأم في تلك المجتمعات، وبعد اعتناق الإسلام بدأ النظام القبلي في التفتت تدريجيًا فساعد ذلك على التآخي بين القبائل في دولة واحدة بعد حروب دموية قبلية طويلة المدى، وقد أدى ذلك بدوره إلى ظهور الدول الأفريقية الإسلامية في مجتمعات غرب أفريقيا كما ساعد الدين الإسلامي على الاستقرار النفسي، ومن إقبال الناس على أعمال الخير والقيام بأداء الواجبات التي يُمليها عليهم الدين الإسلامي، والالتزام بأحكامه ، وإقبال الناس على الكسب الحلال، وممارسة المهن الشريفة . كما كان لأفكار الشيخ في تحرير المسلمين آثارها في ذيوع الأفكار الإسلامية عن إلغاء الرق والذي كان منتشراً في معظم أجزاء المنطقة منذ القرن السادس عشر وكان يمارس بشكل منتظم من جانب دول أوربية كثيرة، وكان حديث الشيخ عثمان عن هذه الموضوعات سببًا في حماية القوى البشرية وصونها والحفاظ على أرواح المسلمين وتحريرهم من عصر العبودية والرق والظلام[٦٦٥].

خامسًا : لقد ظهر من مؤلفات الشيخ وأخيه عبد الله الشيخ محمد بلو أنها قد تنوعت وشملت كافة مرافق الحياة من دينية وسياسية واجتماعية ، كما تطرق الشيخ إلى الحديث عن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، ودعا الناس إلى التحلي بالقيم والأخلاق الفاضلة، ولم تقتصر مواعظه وتعاليمه للرجال فقط، بل اتجه بفكره إلى تحرير المرأة وطالب بتحريرها ، كما طالب بعدم اللجوء إلى القسوة في معاملتها ، ونادى بضرورة تعليمها حتى تعرف أمور دينها ودنياها ، وحث الناس على التمسك بالدين، وكانت هذه المؤلفات دعوة صادقة نحو تحرير المرأة

من القيود، وإعطائها حقها لتمارس دورها في المجتمع . وظهرت آثار مؤلفات الشيخ عثمان في العادات والتقاليد التي سادت المجتمع النيجيري في القرن التاسع عشر حيث عادت احتفالات المسلمين بالأعياد الإسلامية مثل العيدين ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وصارت عادات المهور والزواج تتم على الطريقة الإسلامية وعلى مذهب الإمام مالك ويقول على أبو بكر أن التقاليد لاتختلف كثيراً عما يدور في مصر، وأن الزوج يستحي من والد زوجته ووالدتها ويحترمها إلى حد كبير، وتستحي الزوجة أيضًا من والد زوجها ووالدته ، ومن العادات المرعية أن الزوجة لايمكن أن تدعو زوجها باسمه أو اسم والده أو والدته تخاطبه بقول «معالم» وهي مأخوذة من الكلمة العربية ومعناها: يا أيها المعلم. وهنا يظهر الدين الإسلامي والثقافة العربية[٦٦].

سادسًا : لقد ساعدت مؤلفات الشيخ عثمان وزعماء الجهاد في القرن التاسع عشر على نشر الأفكار المهدية ، حيث ظهرت مؤلفاته العديدة في هذا المجال لدرجة أن أتباعه اعتقدوا أنه المهدي المنتظر ، واضطر إلى نفي نفس الفكرة عن نفسه في كتابه «تحذير الإخوان» وقال: اعلموا يا إخواني بأنني لست المهدي ولا أدعي المهدية[٦٧]. لكن إذا كان الشيخ عثمان قد نفى عن نفسه هذه الفكرة إلا أنها أثرت في عقول الناس ، وانتشرت هذه الأفكار في المناطق المجاورة ، وكانت سببًا في ظهور لحركات المهدية سواء في سودان وادي النيل مثل محمد أحمد المهدي، أو في المناطق الغربية لدولة سوكوتو في حركة أحمد لوبو، وحركة الحاج عمر الفوتي التكروري. كما أدت أفكار الشيخ عثمان إلى قيام محمد أحمد المهدي باستخدام أفكار الشيخ كوسيلة للدعاية لحركته ، كما استغلها للدعوة لنجاح هذه الحركة، والدليل على ذلك أن الشعب النيجيري في الإمارات الشرقية وفي حوض بحيرة تشاد قد تعاطف مع هذه الحركة وأيدها، وظهر الأثر الكبير لمؤلفات الشيخ عثمان وأخيه عبدالله عن المهدية إلى قيام أحد أحفادهما وهو الشيخ حيات بن سعيد بتبني هذه الأفكار المهدية، وانتقاله إلى إمارة ادماوا ومطالبة خليفة سوكوتو بالانضمام إلى هذه الحركة تلبية لآراء الشيخ عثمان ، والحقيقة أن المهدية في السودان كانت تعبيراً عن ما يدور في عقول الناس نتيجة أفكار الشيخ عثمان. كما كانت هذه المؤلفات سببًا في تقبل الناس لهذه الأفكار وانضمامها إلى تلك الحركة المهدية سواء في سودان وادي النيل والسودان الغربي كله[٦٨]. حيث كان من بين المهاجرين من إقليم النيجر وبحيرة تشاد رجل يدعى عبدالله بن آدم الذي استقر بين قبيلة التعايشة ، وهو الذي

التقى بمحمد أحمد المهدي ونبهه إلى أنه المهدي المنتظر ، وبعد هذه الواقعة أعلن محمد أحمد الجهاد والمهدية في سودان وادي النيل [٦٩].

وباختصار كان التراث الحضاري في نيجيريا في القرن التاسع عشر استجابة للبيئة التي نشأت فيها حركة الجهاد الإسلامي الكبرى في أوائل القرن التاسع عشر بزعامة الشيخ عثمان، كما كانت تعبيراً عن الحقائق التي يتطلبها المجتمع حسبما يستجد من أحداث وتغيرات ، وكانت أيضًا رداً على ما ظهر من بدع وشبهات حول الإسلام فكانت وبحق تصحيحًا لمفاهيم الدين الحنيف ، وترسيخًا للأسس الإسلامية في تلك المناطق من القارة الأفريقية.

الخاتمة

بعد هذا العرض لهذه المخطوطات العربية فى نيجيريا فى القرن التاسع عشر وأثارها العظيمة فى تاريخ العرب والمسلمين فى هذه المناطق علينا أن نؤكد عدة حقائق حول هذه المخطوطات وهذا التراث الحضارى العربى.

أولاً : أن هذه المخطوطات عالجت موضوعات شتى مثل تاريخ أرض برنو وتاريخ العرب فى كانو وتاريخ الأمراء فى برنو، وتاريخ القبائل العربية هناك ، وأيضاً عالجت أنساب الطرق الصوفية وخاصة القادرية ، كما تناولت شيوخ برنو منذ العصر الكانيمى فضلاً من تاريخ بلاد التكرور أى أنها مصدر أساسى لا غنى عنه لأى دارس لتاريخ العرب وتاريخ هذه المنطقة.

ثانياً : أن هذه المخطوطات كانت متناثرة ومتفرقة فى بيوت الحكام والخلفاء ولكن أمكن جمعها فى سجلات وتم حصرها فى مائة وعشرين سجلاً وأكثر من عشرين مجلداً ، وقام بجمعها البروفسير عثمان سيد أحمد البيلى والدكتور عبدالله سميث فيما عُرف باسم : مشروع بحث شمال نيجيريا ضمن كلية الآداب والدراسات الاجتماعية بجامعة أحمد بلو ولاية زاريا - كادونا فى نيجيريا .

ثالثاً : أن هذه المخطوطات قد جمعت من عدة مصادر منها مجموعة فيكه، ومجموعة متحف جس ومجموعة كنسديل ، ومجموعة الأستاذ محمد أحمد الحاج فضلاً عن مجموعة برنو التى جمعها الدكتور عبدالله سميث.

رابعاً : أن هذه المجموعات فى مظاريف أعلى كل مظروف معلومات مفيدة عن أصل المخطوطات ، ومصدر الحصول عليه، وعدد صفحاته، وأماكن تواجده، وهذا بالطبع يساعد على الاستفادة من المخطوط بسهولة ويسر خاصة بعد ترجمة عدد كبير منها إلى اللغات الأجنبية .

خامساً : أن اللغة العربية المكتوب بها هذه المخطوطات هى لغة علماء وفقهاء من أبناء الشيخ عثمان بن فودى والخط المثبت به هذه المخطوطات هو الخط السودانى المغربى، وهو الخط المتفرع من الخط الكوفى وهو ما يعرف فى بلاد الهوسا باسم الخط العجمى الذى طرع بالإضافة والحذف ليتناسب مع لغة الهوسا.

سادساً : توجد مصورات كثيرة على الميكروفيلم وملفات الهوسا والفولانى والكنورى، والمؤلفات الموجودة لاتقتصر على المؤلفات المحلية بل تضم مؤلفات العلماء المسلمين والعرب قبل الإسلام وبعده، وبالتالى فهى مصادر أساسية لتاريخ العرب والإسلام وتاريخ هذه المنطقة التى تنعم بنعمة الإسلام والعروبة والثقافة العربية الأصلية، وبأصول وقبائل عربية عاشت فى هذه المناطق وخلفت تراثاً حضارياً أساسياً لابد من تحقيقه للاستفادة منه باعتباره مصدراً أصيلاً لتاريخ العرب فى غرب القارة الأفريقية.

الهوامش

١- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة الإسلامية في أفريقيا، القاهرة ١٩٦٣، ص٢١٩ .

٢- Fage, J.D; Ahistory of west Africa, p. 16 .

٣- Palmer R; The Bornu, Sahara and Sudan, London 1936, p. 7 .

٤- عثمان سيد أحمد البيلي: فهرست المخطوطات العربية مشروع بحث شمال نيجيريا، الخرطوم ١٩٧٧، ص٨ .

٥- Dubois; Tombocto, The Mysterious, Paris, 1897, p. 153 .

٦- البكري أبوعبدالله بن عبد العزيز : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، الجزائر ١٨٥٧، ص١٦٢ .

٧- ابن حوقل : المسالك والممالك ص٧٨ .

٨- حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص٢٠٩ .

٩- عثمان البيلي : فهرست المخطوطات العربية ، ص١٣ .

١٠- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص٧٩ .

١١- عن دولة مالي أنظر : إبراهيم طرخان دولة مالي الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٤ وعن دولة صنغي أنظر، محمد أنور توفيق : رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٧٧ .

١٢- Hogben, S.J. : The Mohammadan Emirates of Northern Nigeria. Oxford 1930, p. 69 .

١٣- Fage. Op. Cit. p. 54 .

١٤- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء الجزء الخامس، دار الكتب ١٩١٩، ص٢٧٩ .

١٥- حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص٢٤٠ .

١٦- Dubois, Op. Cit. p. 352 .

١٧- انظر السعدي عبد الرحمن بن عبد الله : تاريخ السودان نشر وعلق عليه هوادس باريس ١٨٩٨، ص١٥٠ .

١٨- أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة قولية .

١٩- عبدالله عبد الرازق إبراهيم : الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة ١٩٨٤ ، ص٩ .

خريطة

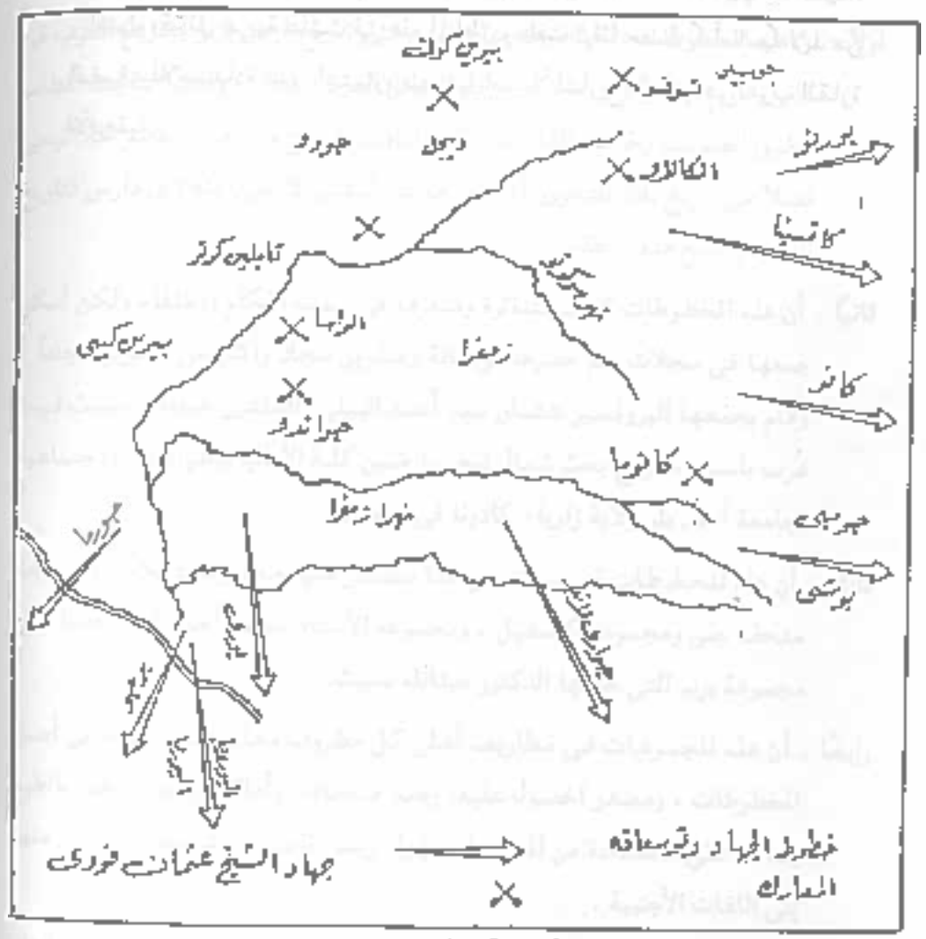

شكل رقم (١)

٢٠- Dubois. Op. cit. p. 35

٢١- Sepigman, C. : Races of Africa, p. 96 .

٢٢- إبراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية القاهرة ١٩٧٥، ص١٣٠ .

٢٣- Page: Op. cit. p. 35 .

٢٤- Johnston : H.A.S: The Fulani Empire of Sokoto London 1967. p. 18 .

٢٥- Johnston : Op. cit. p. 19 .

٢٦- Hogben . S. J. An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria. p. 53 .

٢٧- Orin F. W. The Fulani of Northern Nigeria, p. 8 .

٢٨- أنظر : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور . القاهرة ١٩٦٤ .

٢٩- أنظر : تفاصيل هذه الدولة فى إبراهيم طرخان : دولة مالى الإسلامية وأيضاً :

محمد أنور توفيق أبو علم : دولة صنغى، مرجع سابق ، ص٢٥ - ٤٠ .

٣٠- Trimingham, J.S. : Op. cit. p. 22 .

٣١- هربير دبشان: الديانات فى أفريقيا السوداء، القاهرة ١٩٦٥ ترجمة أحمد صادق حمدى، ص١٣٦ .

٣٢- إبراهيم طرخان : الإسلام والثقافة العربية فى غرب أفريقيا، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، مجلد ٢٧ - ٢٨ عام ١٩٦٦، ص١٣٧ .

٣٣- عن الطرق الصوفية ودورها أنظر : عبدالله عبد الرازق إبراهيم ، الطرق الصوفية فى أفريقيا، دار الثقافة القاهرة ١٩٩٨ .

٣٤- محمد بلو : انفاق الميسور ، ص٥٥ .

٣٥- عبدالله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص ص٣٥-٤٣ .

٣٦- Webster . J.B. The Revolutionary Years . West Africa Since 1800. p. 8.

٣٧- Niven, C.R. : Nine Great Africans, London 1964 , p. 125 .

٣٨- وثيقة أهل السودان للشيخ عثمان بن فودى.

٣٩- Page . J. D. Op. cit. p. 150 .

٤٠- Johnston . S. J., Op. cit. p. 101 .

٤١- سمير التابعى : عثمان بن فودى، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٧٦، ص١٩٠ .

٤٢- حسن عبد الظاهر : مرجع سابق ، ص٢٠٦ .

٤٣- قام البروفسير عثمان سيد أحمد البيلى بجمع مخطوطات الشيخ عثمان وغيره من علماء نيجيريا فى «فهرست المخطوطات العربية- مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا » ونشرته دار جامعة الخرطوم ، وهو من أهم الوثائق التى اعتمدنا عليها عند دراسة مؤلفات زعماء الحركة الفولانية .

٤٤- عثمان بن فودى: حسن الأفهام من جيوش الأوهام (مخطوط) ص٢ ، ٣ .

٤٥- على أبو بكر : مرجع سابق ، ص٣٣ .

٤٦- طبع هذا الكتاب فى القاهرة بمطابع الشعب بالقاهرة فى عام ١٩٦٤ ولقد حققه مجموعة من العلماء تحت إشراف وزارة الأوقاف وشئون الأزهر .

٤٧- على أبو بكر : مرجع سابق ، ص٢٨٥ .

٤٨- حسن عيسى عبد الظاهر : مرجع سابق ، ص٢٠٤ .

٤٩- على أبو بكر: مرجع سابق ، ص٢٨٦ .

٥٠- يقع هذا المخطوط فى ست وستين صفحة سجل (١٠١) مظروف (١ ، ٢) .

٥١- يقع الكتاب فى ١٥٦ صفحة سجل (١١) مظروف (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) .

٥٢- المنظمة العربية للتربية والعلوم ، مرجع سابق، ص١٥ .

٥٣- تعيم قداح : حضارة الإسلام وحضارة أوربا فى أفريقيا الغربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص١٩٥٩ .

٥٤- محمد مصطفى الشمبيتى: نيجيريا ، الدولة والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٨، ص١٧٨ .

٥٥- على أبو بكر : مرجع سابق ، ص ص ١١٠-١٣١ .

٥٦- Hiskett . M.: The State of Learning . p. 577.

٥٧- Mounoum . Abdo : Education in Africa. London 1968 . p. 23 .

٥٨- السيد عبد أحمد العراقى : انتشار اللغة العربية مجلة دراسات أفريقية ص١١٣ .

٥٩- عباس محمد جلال : التعليم الإسلامى فى أفريقيا ، مجلة الأزهر ، الجزء السابع السنة السابعة والثلاثون .

٦٠- عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مرجع سابق، ص٢١٥ .

٦١- علي أبوبكر : مرجع سابق، ص١٩١ .

٦٢- لمزيد من الدراسة على نظام الحكم الذي فرضه الشيخ عثمان أنظر السيد أحمد العراقي: نظام الحكم في الخلافة الصكتية ، مطبوعات كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى، الخرطوم ١٩٨٣ .

٦٣- عبدالله عبد الرازق ابراهيم : مرجع سابق ، ص٢١٩ .

٦٤- حسن عيسى عبد الظاهر : مرجع سابق ، ص١٧٥ .

٦٥- نعيم قداح : مرجع سابق ، ص١٧٥ .

٦٦- علي أبوبكر : مرجع سابق ، ص١٥٣ ، وأيضاً محمد مصطفى الشنيتي: مرجع سابق ص ص١٣٠-١٤٠ .

٦٧- أنظر المخطوط : مرجع سابق .

٦٨- Martin . Z. Njeuma: Adamawa and Mahdism .

٦٩- The Career Hayatu Ibn Said in Adamawa 1878-1898, Journal of African History . VOL. XII . 1. 1971 . pp. 61-77 .

د. عبد الكريم بوصفصاف(*)

وثيقة جديدة في تاريخ الجزائر والمغرب العربي المعاصر

تميزت الكتابات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر بالاعتماد المفرط على المصادر والمراجع الأجنبية لاسيما الفرنسية منها ، وأهملت المصادر الجزائرية إلى حد كبير ، ويعود ذلك إلى عدة أسباب أهمها :

- **أولاً** : توفر المصادر الأجنبية داخل الجزائر وخارجها .
- **ثانياً** : النظر إلى المراجع الأجنبية على أنها أكثر علمية في اعتقاد البعض .
- **ثالثاً** : قلة المصادر الوطنية لعدة عوامل :

أ - نقل الكثير منها إلى دور الأرشيف الفرنسي ، ومنع الباحثين من دراستها .

ب - احتفاظ مختلف العائلات الجزائرية برصيد كبير من الوثائق ، وعدم تمكين الدارسين من الاطلاع عليها .

وتندرج هذه الوثيقة (موضوع الدراسة) في سياق البحث عن المصادر الجزائرية وعنوانها : « حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة (الحرب العالمية الأولى) » ، وهي صادرة عن شيوخ الطرق الصوفية ورجال الدين الرسميين في الجزائر وسلطان المغرب " المولى يوسف " وباي تونس " محمد الناصر باشا " بتاريخ ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ / ١٠ نوفمبر ١٩١٤م .

---

* - جامعة منتوري - قسنطينة - الجزائر .

وتتألف من أربع عشرة صفحة من الحجم الكبير ، عثرنا عليها سنة ١٩٩٧ في مكتبة أحد المعلمين القدامى ينتمي إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في الجزائر سنة ١٩٣١ ويدعى " الشيخ الرهيوي " ، وهي وثيقة نادرة لم يجد الباحثون إليها سبيلاً من قبل .

يلاحظ المتصفح لهذه الوثيقة أول ما يلاحظ أن الممثلين الدينيين للشعب الجزائري : شيوخ الطرق الصوفية ، والمفتون المالكيون والحنفيون ، والأعيان والقضاة ، قد وقفوا صفًا واحدًا بجانب فرنسا في الحرب الكونية الأولى ضد ألمانيا والدولة العثمانية التي اعتبروا انضمامها إلى الألمان قراراً صادراً عن المجانين لاعن الحكماء السياسيين ، وأنهم أرادوا أن يضلّوا العرب والمسلمين في أتون حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل . وهي مجموعة من الخطب والرسائل والبيانات يبلغ عددها ثلاثين وثيقة أمضتها عشرون شخصية .

وهذه الوثيقة ، وإن كانت تشكل مصدراً تاريخيًا هامًا في تاريخ المغرب العربي المعاصر ، فإنها تفتح المؤسسة الدينية التي كان يقودها المرابطون وشيوخ الطرق الصوفية وحكام المغرب وتونس ، في قفص الاتهام بالخيانة الكبرى بناءً على معايير ذلك العصر لأنهم وقفوا بجانب عدوهم ضد الأمة الإسلامية والشعوب العربية قاطبة .

لقد جاء في مقدمة هذه الوثيقة ما يأتي : " كانت تركيا قد تكدرت أحوالها بسبب الانقلاب الذي أوقعه فيها الجوزترك واضطربت أمورها من أجل ذلك الانقلاب ، واختل نظامها وخارت قواها في الحرب الطرابلسية والحرب البلقانية ، وتوجعت من إنهزاماتها ، وذهبت ماليتها حتى قربت من الإفلاس فأصبحت محتاجة للغاية إلى مدة طويلة في السلم لعلاج جراحاتها وللاجتهاد في تحسين حالتها المادية والمعنوية ، وهو الشيء الذي لايمكن إلا في حالة السكون والهدوء ، فمن بين الدول كلها عطفت عليها فرنسا حبيبتها وحامتها منذ القديم فحنت عليها وأقرضت لها الأموال التي تتوقف عليها الأعمال التي تنقذها من حالتها السيئة وترجع بها إلى حالة مُرْضية . والظاهر أن المملكة العثمانية لاحاجة لها إلى هذه الحرب التي أضرمت نارها دولة ألمانيا الوحشية ، ولا فائدة لها ، إذ لا تخاف من عاقبتها شيئًا ، لأن فرنسا وانجلترا حبيبتان لها من أول الزمان ، كما برهنت لها على ذلك غير ما مرة أثناء تاريخها . ومع ذلك ، فإن أنور باشا[١] ورفقائه من الجوزترك الذين بأيديهم الحكومة في الأستانة قد جعلوا بكائهم غنيمة باردة في مخالب ألمانيا وهذه هي الجناية الكبرى .

والحال أن المملكة العثمانية قد فقدت بسبب ذلك همتها وشرفها واستقلالها . وكيف لا و"أنور باشا" خادم بل رفيق الإمبراطور " قليوم " واقف عند طاعته وإشارته . والجيش التركي في قبضة الضباط الألمانيين يتآمرون عليه كما يشاؤون ، وجميع إدارات التصرف - حتى الدوائر الدينية - في أيدي الألمان ، فكان لهذه الجناية التي ارتكبها رجال دولة تركيا صدى عظيم وتأثير كبير في العالم الإسلامي كله .

فأنكر المسلمون كلهم مسلكهم القبيح ، ورفعوا أصواتهم في الهند وفارس وجزيرة العرب ومصر وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وبراطن إفريقية ، وغيرها من الأقطار الإسلامية ، بالانتقاد على أولئك الأشقياء الذين وقعوا ببلادهم في المهواة التي فيها دمارها لامحالة . وقد عارضهم في تركيا نفسها المسلمون الحقيقيون الذين لهم إحساس شريف بمصالح الإسلام والمسلمين ، رغمًا عن الضغط والخوف اللذين ألم بهما الأمة " أنور باشا " وشركاؤه ، كما عارضوا ألمانيا الخبيثة التي أوقدت نار الحرب . وجاهر أولئك المسلمون العالمون بدينهم العاملون به بمحبتهم للدول الثلاث المتحابة : فرنسا وإنجلترا وروسيا . أما المسلمون القاطنون في المستعمرات الفرنسوية بإفريقيا بين رعاية وحماية ، فقد انتهزوا هذه الحادثة فرصة للإفصاح بصدقهم التام ومحبتهم الأكيدة لفرنسا ، فإن المفاتي والقضاة ، وغيرهم من المشايخ والعلماء الذين لهم الباع الطويل في الشريعة المحمدية والدين الحنيف الشريف والأعضاء المسلمين في المجالس التي ينتخبها الأهالي والرؤساء المسلمين والأعيان وحتى الأصاغر من الفلاحين ، قد قاموا للإعراب عما في ضمائرهم لدولتهم الفرنسوية الفخيمة من خالص الصدق، وكامل التعلق ، وصميم المودة ، التي لايبليها الزمان ولا يخفيها تعاقب الملوان [٢].

وقد اصطفينا من بين الألوف المؤلفة من تصريحاتهم المقالات الصادرة من أكابر مشائخ الطرق الصوفية فنشرناها هنا بعد خطاب جلالة سلطان المغرب الأقصى وحضرة باي تونس ، ومن تصفحها يجدها مفيدة بليغة مطابقة للشرع والطبع . وإذا أضيفت إلى المقالات الصريحة الصادرة من المسلمين في الأقطار الإسلامية الأخرى لاسيما من المسلمين الذين هم رعايا إنجلترا وروسيا يتحقق من الجميع أمر واضح لايختلف فيه إثنان ولا يتناطح فيه عنزان ولايجد المعارضُ له سبيلاً ، وهو أن رجال دولة إنجلترا جنوا بإشراك المملكة العثمانية مع ألمانيا في الحرب جناية فضيعة مرقوا بها من الربقة الإسلامية وتنصلوا عن الجماعة المحمدية " [٣].

- بعد عرض مقدمة هذه الوثيقة نستخلص النتائج الآتية :

١ - أن شيوخ الطرق الصوفية وزوايا المرابطين ظلوا يتكيفون مع الأوضاع والسلط السياسية الجديدة في المغرب العربي منذ ظهورها في هذه الربوع الإفريقية في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وهذا يؤدي بنا إلى نتيجة أخرى ، وهي أن هذه المؤسسة الدينية لم تكن لها هُوية ثابتة عبر تاريخها الحديث ، وإنما كان منهجها المتبع هو الحفاظ على مكانتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى الآن ، باستثناء بعض الزوايا الصالحة التي اتبعت منهج المصلحين المُحدثين في علاج المجتمع الإسلامي .

٢ - أن شيوخ هذه الطرق ، كانوا يتحكمون بقوة سحرية في عقول العامة ورقابها وتوجيهها في السياق الذي يخدم مصالحهم ، مستخدمين الدين الإسلامي الحنيف كوسيلة فعالة لقيادة الجماهير الشعبية التي ران على صدرها الجهل والأمية ردحًا من الزمن . ففي هذه الوثيقة نلاحظ أن الإسلام هو المادة الخام التي استغلهم منها شيوخ الطرق وعلماء الدين الرسميون من أئمة ومفتي شحذ هم الجماهير ضد ألمانيا ، والتضحية والتفاني في الدفاع عن " حبيبتهم فرنسا " واتخاذ موقف معادي من الدولة العثمانية التي أصلت الشعوب الإسلامية في أتون حرب خاسرة لاتعنيهم ، لامن قريب ولامن بعيد .

وبعودة سريعة إلى التاريخ نجد شيوخ الطرق الصوفية قد ركبوا قطار كل الدول أو السلط التي تعاقبت على حكم الجزائر حتى يومنا هذا ، وأكلت من كل موائدها ، واقتحمت كل مجالسها وشاركت في كل مخططاتها وبرامجها ، لتبقى سيدة على الدوام بجانب السلطة الزمنية .

لقد وصل تأثير الطرق الصوفية إلى الجزائر خلال قرون متعاقبة وظهرت جمعيات دينية كثيرة ، تفرعت عنها زوايا منتشرة في كل أنحاء القطر الجزائري ، وانتشر معها تقديس الأولياء وأضرحتهم وقبابهم ، وظل في تزايد مستمر حتى القرن العشرين فبجانب كبار الأولياء المشهورين مثل : " سيدي بومدين " في تلمسان و " الشيخ محمد بن عبد الرحمان بوقبرين " (ت١٧٧٣م) في منطقة جرجرة ، كان ثمة نوع من الأولياء الشعبيين الذين ادعوا نزول بركات الله عليهم من السماء ، والتي يمنحونها بدورهم إلى مريديهم . وقد أصبحت قبورهم مزارات يأتيها المؤمنون بهم من كل حدب وصوب يحجون إليها ويستمدون البركة منها بواسطة الصلوات والنذور والطقوس السحرية. وهكذا تكاثرت الزوايا الكبرى وأصبحت

محلات للعبادة ومدارس للتعليم ومنازل للضيافة . وفي الجزائر كانت العبادات تقوم على أساس أوراد مستندة إلى القرآن الكريم والحديث الشريف[٤] ومن الزوايا التي يكون على رأسها شيخ مشهور.

والحق أن مهام الطرق الصوفية لم تكن قاصرة على تبليغ التعاليم الدينية لأتباعها ، والتي كانت تؤمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كانت أيضًا حريصة على أن توصل إليهم توجيهات ذات طابع سياسي تتلاءم مع معتقداتهم الدينية .

ويمكن تلخيص تاريخ المؤسسة الصوفية في الجزائر في ثلاثة مراحل أساسية :

- المرحلة الأولى : تميزت بالنشوء والبناء وظهور المذاهب المتعددة ونشر الفكر الصوفي بين المسلمين وبناء الزوايا ومحلات العبادة والتعليم ، والعمل على تكوين القاعدة الشعبية المتمثلة في الأتباع والمريدين ، الذين يؤمنون بمذاهبها الجديدة ويخلق المناخ الملائم لنمرها وانتشارها عبر أنحاء الوطن ، والظهور بمظاهر الورع والتقوى والتمسك بمبادىء الكتاب والسنة .

- أما المرحلة الثانية : فقد تميزت بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي والرياضة الروحية ونشر الإسلام بين الناس [٥]. إذ كانت هذه الزوايا عبارة عن مؤسسات دينية ومراكز ثقافية ونوادي اجتماعية وخلايا سياسية ، يتعلم الناس فيها مبادىء دينهم وتعاليم شريعتهم[٦] وفيها يتلقون مختلف العلوم والمعارف ويقيمون العلاقات الاجتماعية والعسكرية والسياسية والثقافية [٧].

وقد بلغ عدد الزوايا في الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ٣٤٩ زاوية ، وعدد المريدين والإخوان ٢٨٥٠٠٠ مريد[٨].

والحق أن الزوايا قبل الاحتلال الفرنسي كانت تحتل مكانة مرموقة بين المدارس الثقافية الإسلامية في البلاد[٩] وتنتشر في العديد من المناطق داخل حدود الوطن . فهي بالمقارنة مع المؤسسات الدينية والثقافية في الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة لها كانت تعد متطورة في نشر الثقافة والدعوة إلى الإسلام ، ولكن بالمقارنة مع مؤسسات الحضارة الحديثة على الضفة الغربية لحوض المتوسط تبدو في غاية الجمود والتحجر الفكري ، إذ أصبح العلماء يقتصرون على نقل العلوم والمعارف التقليدية نقلا آليا وباتوا عاجزين عن الخلق والإبداع في حقول العلوم والفنون الإسلامية والإنسانية عامة . ومع ذلك لم يكن قبل ظهور الحركة الإصلاحية في

الجزائر من يفكر فى أن الإسلام هو غير ما كانت تدعو إليه الطرق الصوفية . بل إن الجميع كان يعتبر أن الممثلين الحقيقيين للإسلام هم رجال الزوايا ، التى كانت لها فروع كثيرة فى المدن والقرى ، حتى البدو الرحل[١٠١] .

والحق أن معظم الثورات خلال القرن التاسع عشر ضد الوجود الفرنسى فى الجزائر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بروح من بعض هذه الزوايا[١١١] . فالأمير عبد القادر ١٨٠٨-١٨٨٣ رائد المقاومة الوطنية الجزائرية كان واحدا من زعماء هذه الطرق وهى الطريقة القادرية . و"لالافاطمة نسومر" ١٨٣٠-١٨٩٣ قائدة المقاومة فى منطقة القبائل تلميذة للطريقة الرحمانية، والشيخ "الحداد" الزعيم الروحى لثورة ١٨٧١ كان رئيسا لأكبر طريقة جزائرية وهى الطريقة الرحمانية أيضا[١١٢] .

وهكذا كانت الزوايا الصالحة فى الجزائر مصدرا للعلم والهداية وحامية الدين والتراث العربى ومنبع اليقظة ، وهى عون للإصلاح مصدر لثورات عديدة فى الجزائر على الاستعمار .

أما المرحلة الثالثة : فهى مرحلة الجمود والإنحراف فى أنظمة بعض الزوايا الجزائرية وأعمالها تجاه أتباعها ، حيث يلاحظ المرء أن بعض هذه الزوايا قد انحرفت عن مبادئها وأهدافها مع سقوط البلاد تحت وطأة الإستعمار ، وأضحت عميلة للاحتلال ومعينة له على الجزائريين .

لقد أخذت السلطات الاستعمارية عقب إحتلالها الجزائر تعمل على تقليص واجهاض نفوذ الطرق الصوفية ، ووضعتها تحت الرقابة المباشرة للشرطة ، كما عملت على سجن رؤسائها ونفى قادتها من أصحاب النفوذ ، والتأثير على الجماهير الشعبية . ونادى المعمرون من جهتهم بشل حركة هذه الجمعيات . وفى سنة ١٨٧٠ إتهمت الإدارة الفرنسية الطريقة التيجانية بالثورة على السيادة الفرنسية ، وألقت القبض على شيخها "أحمد التيجانى" فى السنة نفسها، وفاضت بنفيه إلى فرنسا . إلى أن أطلق سراحه سنة ١٨٨١ ، حيث تزوج بفرنسية هناك ليكفر عن تهمته السابقة ، ويتقرب بذلك إلى الفرنسيين . ولكن هذا الموقف الجديد لرئيس الطريقة التيجانية جلب عليه سخط المسلمين ، وأفقده سمعته وتأثيره الروحى على الأتباع والأنصار ، لأنه كان أول جزائرى يتزوج فرنسية بعد الإحتلال .

وقد قمعت الإدارة الإستعمارية بشدة الجمعية الرحمانية فقتلت ونفت شيوخها وأتباعها ، نتيجة لدورها الهام فى ثورة ١٨٧١ وأجبرت على الإنقسام إلى عشرين جمعية ، حتى أعتقد

أن هذه الطريقة قد أبيدت وأزيلت تماما من الوجود . ومع ذلك فإن السلطات الفرنسية كانت متخوفة من هذا الوضع ، لأن هذا الإنقسام قد إنبثقت عنه ١١٧ زاوية مما أدى إلى تزايد عدد الأتباع الذين أصبحوا فى سنة ١٨٩٥ ، ٢٩٥١٨٩ بعد أن كانوا ١٦٨٩٧٤ فى سنة ١٨٨٢ ورغم التكاثر فى عدد الأتباع فإن الطريقة لم تتطور بصفة عامة منذ ١٨٨٠ ، وما كاد يطل القرن العشرين حتى أجبرت على الإنضمام إلى النظام الإستعمارى .

وبناءً على النظرة العلمانية ، فإن الفرنسيين يعتقدون أن الطرق الصوفية كانت عبارة عن منظمات ذات أهداف سياسية تعمل على خلق أنواع من الهيمنة الطبقية الإجتماعية القائمة على إستغلال المرابطين لعامة الشعب[١١٣] ولكى تسيطر إدارة الإحتلال على الجماهير الشعبية أخضعت الطرق الصوفية لنفوذها .

وهكذا تحولت الزوايا الجزائرية إلى خدمة الإستعمار من جهة ، والإحتفاظ بإمتيازاتها الإجتماعية من جهة أخرى ، ولم تعد لها غاية دينية واجتماعية ، كما نص على ذلك قانونها الأساسى وعملت على الحفاظ على نفوذها وشهرتها والإهتمام بجيوش الفقراء المنتشرين فى المساجد والزوايا وبإصلاح حالهم[١١٤] .

من خلال هذا العرض التاريخى لمراحل الجمعيات الدينية الطرقية فى الجزائر ندرك لماذا كان موقفها ممالئا للإدارة الإستعمارية بعد الهزيمة العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى أخفقتها بها السلطات الفرنسية عقب إحتلال البلاد سنة ١٨٣٠ .

يقول شيخ الطريقة التيجانية[١١٥] لأتباعه المنتشرين فى الجزائر وفى كافة العالم الإسلامى : "تواللة قد أخطأ رجال دولة تركيا خطأ فاحشا يدل على جنونهم وخبالهم ، وأعظم شاهد عليهم فى ذلك هو التاريخ نفسه . فمن ذا الذى يجهل أن فرنسا من أول الزمان إلى الآن كانت خير مساعد للأمة التركية قدها بأموالها وتنورها بعلومها وتنصحها بآرائها الصائبة ، وتنقذها من المهالك التى ترميها إليها ألمانيا وغيرها وإلى أين تلتجأ تركيا فيما بعد إن عادتها فرنسا؟".

ويذكر شيخ الطريقة التيجانية أتباعه فى البيان الموجه إليهم غداة إندلاع الحرب الكونية الأولى بالعلاقات العثمانية الفرنسية السابقة ، لاسيما فى إطار عملية التحديث التى إعتمد فيها الباب العالى على فرنسا إبان القرن ١٩ وما قبله ، معتبرا الدولة الفرنسية بمثابة الماء والهواء بالنسبة لتركيا العثمانية . ومن ناحية أخرى يصف ألمانيا بالوحشية والدمار ، وأنها قاتلة النساء والأطفال ومخربة الحضارة . ثم يعاود إستحضار التاريخ فينتقل مباشرة إلى

الحديث عن ماضي العثمانيين في الجزائر محاولا تكوين صورة قاتمة عن وجودهم في شمال إفريقيا قبل الإحتلال الفرنسي ، أما نحن المسلمون عموما والتيجانيون خصوصا ، فندين دولة تركيا على أعمالها الفاسدة التي يستحي منها المسلمون في العالم كله من أقصى الهند إلى أقصى المغرب ، فلا يغرب عليكم أيها الأحباب ماقعله الترك في الجزائر وقت إستيلائهم عليه ، فقد أضروا بالبلاد والعباد وارتكبوا فيه جميع الفواحش ، ولم يحترموا الدين ولا الشرع الإسلامي ، ولاعوائد الأهالي ، وتركوا الناس فوضى يحارب بعضهم البعض . وعليه فلا غرو أن صرنا جميعا أعداء للدولة الترك ..[١٦٦]

إن هذا النص بالرغم من إيديولوجيته الموالية للإستعمار الفرنسي ، فإنه يلقي أضواء كاشفة على العهد العثماني في الجزائر وفي البلاد العربية عموما إذ يتهمهم بالفساد والاستبداد والتحجر والبعد عن الإسلام الذي رفع شعاره سلاطينهم الأوائل ، بل إنه يعتبرهم السبب فيما وقع في الجزائر بعد خروجهم سنة ١٨٣٠ من فوضى سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، لاسيما حرب الثارات التي هزت أركان المجتمع الجزائري غداة سقوط البلاد بين مخالب الإمبريالية الفرنسية المتعاقبة في ذلك الوقت .

ولعلنا نشاطر شيخ الطريقة فيما يتصل بهذه المسائل كلها ، لأن الوجود التركي العثماني في الجزائر خلال ثلاثة قرون من الزمن أدخل البلاد فعلا في دوامة واسعة النطاق في عهوده الأخيرة ، بسبب غياب سياسة وطنية حكيمة ، والتركيز على الجباية ، وقهر الفلاحين بالضرائب الفادحة التي أرغمتهم على ترك مزارعهم قاحلة ، فارين نحو الجبال والقيافي بمواشيهم وأموالهم المنقولة من وجه الجباة [١٦٧] فلا تعليم عربي متطور ، ولا مشاريع إقتصادية شاملة ، ولا شراكة في الحكم على مستوى قمة الهرم أو على مستوى القاعدة .

إن شيخ الطريقة التيجانية في الوقت الذي كان يعمل على الدولة العثمانية ويحرض المسلمين ضدهم فإنه يبالغ إلى حد التمسح بالأقدام في الخضوع والولاء للدولة الفرنسية المستعمرة : واعلموا أيها الأحباب أننا لم نزل ولن نزل متعلقين بأذيال دولتنا الفرنسوية الفخيمة صاحبة الفضل والفضائل ، شاكرين نعمها العظيمة ومزاياها الجسيمة التي لاتعد ولاتحصى . فهي لنا المحبة ذات الرأفة والشفقة ، ويجب علينا معشر المسلمين أن نعينها بنفوسنا وأموالنا وأولادنا على عدوتها ألمانيا وحليفتها النمسا وحليفتها تركيا .. بأنها

الأحباب وأتباع هذا المسلك الذي فيه خيركم ، ولا أنساكم في الدعاء أوقات الإستجابة .. إلخ [١٦٨] .

إن شيوخ الطريقة التيجانية في الجزائر إعتبروا الدولة العثمانية عشية الحرب الكونية الأولى دولة مارقة عن الإسلام ، إنطلاقا من كونها قد ألقت بالمسلمين إلى التهلكة ، عندما قررت الدخول في الحرب إلى جانب ألمانيا . ولكن الأمر عند هؤلاء الشيوخ لم يتوقف عند هذا الحد بل ذهبوا إلى حد الإعتراف بفضائل فرنسا في الجزائر : "فإننا نجدها بالقلب والقالب منذ إستيلائها على هذا الوطن .. لم تصنع إلا ما فيه خير البلاد والعباد ، من نشر لواء العافية والعمران واحترام الدين وقهر الظالمين ونصر الضعيف على القوي وإقامة قسطاس العدل"[١٦٩] .

ثم يعلن شيخ الطريقة التيجانية لفرنسا أنه هو وأمواله وأولاده مجندون للدفاع عن وحدة الوطن القومي لفرنسا ، مصممون على قتال أعدائها أينما وجدوا ، رافعا يديه بالدعاء لها وحلفائها بالنصر .

أما شيخ الطريقة الرحمانية فبعد أن حمل على تركيا حملة منكرة قال : "أما نحن مسلمو الجزائر ، فما علينا إلا أن ننتهز هذه الحادثة فرصة جديدة لنبين ونثبت لدولتنا الفرنسوية العزيزة محبتنا الصادقة ، ونعينها بقصارى الجهد على أعدائها ، فإنها تسألنا كما هو مقرر في الأذهان مزايا لاتحصى . فهذه تقريبا مدة قرن من الزمن ونحن بفضلها رقود في مهد العافية والأمن ، وربينا المال والأولاد ، ولم ينغص عيشنا منغص ، فأين هذا الوقت من وقت إستيلاء الترك على القطر الجزائري ، فقد حدثنا آباؤنا عن آبائهم بأنهم لم ينالوا في وقتهم عافية ، ولا أمنا ، إلا على أنفسهم ولا على أموالهم ، مع إرتكاب الفضائع والقبائل والفضائع .. وعليه فنحيكم أيها الإخوان أن تكونوا مع دولتنا يدا واحدة ، وتنصروها على أعدائها" [١٧٠] .

هذه ثلاثة نماذج من جملة ثلاثين بيانا صدر في هذه الوثيقة تأييدا للحكومة الفرنسية في حربها مع ألمانيا والدولة العثمانية سنة ١٩١٤ . والصيغة المتفق عليها بين جميع الشيوخ هي إنهاء كل البيانات بكلمات الإشادة لفرنسا والإعتراف بجميلها في الجزائر . لا سيما إستقرار الأمن ونشر التمدن والعدالة والضرب على يد الظالم ، والأخذ بيد المظلوم .

هذه تعابير مكررة في جميع بياناتهم ، فهل يعتبرها القارئ حقيقة ثابتة تضمنتها هذه النصوص ؟ أم أنها أخلت من مصدر واحد أوحت به الإدارة الفرنسية في الجزائر عشية الحرب؟

والحق أن الحكومة الفرنسية إستعملت كل الأساليب الممكنة لتجنيد الشعب الجزائري ضمن قواتها العسكرية في الحرب ، واتبعت سياسة : "الترغيب والترهيب"[٢١١] لكي لاتترك ثغرة في هذه المستعمرة قد تتسرب منها الدعاية العثمانية الألمانية بقوة .

والواقع أن ماعبرت عنه هذه الوثيقة بلسان الطرق الصوفية لم تكن هي الحقيقة لأن الشعب الجزائري قد إنتفض خلال سنوات الحرب وقام بعدة ثورات وانتفاضات وقردات وهجمات وإغتيالات للعسكريين والمدنيين الفرنسيين ، وأكبر ثورة ألهبوا نارها أثناء سنوات الحرب "ثورتا الأوراس والهوقار" سنتي ١٩١٦-١٩١٧ بالإضافة إلى فرار المجندين الجزائريين من الجيش الفرنسي وصعودهم للجبال ، أو هروبهم من الجبهة الأوربية نحو ألمانيا ثم تركيا ثم مصر ، وبعدها العودة مرة أخرى إلى الجزائر .

ولعل خير مصدر معبر عن هذا الرفض للوجود الفرنسي ما سجله الأدب الشعبي في قصائد المداحين وشعراء الملحون ، والرسائل المتبادلة بين الجزائريين وكذلك مادونته تقارير المخابرات الفرنسية والقيادات العسكرية التي تبعت المقاومة الوطنية بعنف ووحشية[٢٢٤] .

أما بيانات سلطان المغرب وباي تونس الواردة في هذه الوثيقة ، فقد كانت هي الأخرى معبرة عن ولاء المحميتين للدولة الفرنسية على المستوى الرسمي .

وقد ورد في الخطاب الأول الذي وجهه مولاي يوسف إلى الجنود المغاربة قبيل سفرهم إلى جبهة القتال في أوروبا "أن فرنسا ما تدخلت في المغرب الأقصى إلا بنية إصلاحه ، وما أقبلت عليه إلا بقصد أن تعاونه معاونة إحسان على تحسين حالته الوطنية وتنظيمه ، وهذا هو واجب الجار على جاره ، وما أحسن الفرنسويين جيرانا فإن فرنسا سلكت إلى الغاية المشار إليها مسالك خيرية تستحق بها شكر المغرب كله"[٢٢٥] .

كان هذا الخطاب بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب بسنتين فقط ، ما تزال خلالها بعض مناطق المغرب الأقصى بعيدة عن النفوذ الفرنسي . وبالرغم من أن بنود معاهدة الحماية قد أملیت من جانب واحد "الجانب الفرنسي بالطبع" فإن فرنسا لم تكن قد سيطرت بعد على جميع مقدرات الدولة المغربية ، ومن هنا جاء خطاب السلطان يوسف في صورة ودية حميمية إزاء فرنسا ، كما لو أنها جاءت متعارفة لا محتلة .

أما الخطاب الثاني الذي وجهه مولاي يوسف إلى جنوده في الجبهة الأوربية ، فقد حثهم فيه على التفاني والتضحية من أجل الدفاع عن فرنسا بأقصى ما يملكون من قوة وشجاعة .

"ونأمركم أن تدوموا على ذلك وتؤكدوا ماعُرفتم به من الشهامة والإقدام ، وتبرهنوا للحاضرين عما أحرزتموه من شرف الثبات أمام أعدائكم وتحبوا لقدماء شجعانكم الذكر الجميل وتخلدوا لأنفسكم المجد الأثيل الذي يتوارثه أبناؤكم جيلا بعد جيل ، فأثبتوا وتعاضدوا وكونوا على قلب رجل واحد وأصبروا فإن الصبر عاقبته الفوز والظفر" .

إن هذا الخطاب يبدو كما لو أنه كان موجها لجيشه في الدفاع عن الوطن المغربي نفسه ، ولو وجه مثله لجيشه سنة ١٩١٢ ربما ما كانت فرنسا تستطيع إحتلال البلاد المغربية بتلك السهولة التي دخلت بها المملكة المغربية .

أما خطاب "محمد الناصر باشا" باي تونس الذي وجهه للجنود التونسيين الذين أرسلوا إلى أوروبا ، فقد كان أرقى وأذكى من كل الخطب والبيانات السابقة ، إذ عبر فيه عن وجود الدولة التونسية ، وكأنها لم تكن خاضعة للحماية الفرنسية ، وطلب من جنده أن يقوموا بحماية الدولتين التونسية والفرنسية معا ، بأسلوب سياسي رفيع تجنب فيه صيغة المدح والإطراء قائلا: "هذا ونكاد أن لانحتاج لتنبيه رعايانا لما عليهم من الواجبات في هذه الظروف نحو الدولتين الحامية والمحمية ، وهو الأمر الذي يعرفونه كما عرف واجبهم إخوانهم مسلمو الهند أن أعربوا في هذه المناسبة عن صحيح أحكامهم وولائهم لحكومة بلادهم ، وكذلك لنا نحن اليقين بصدق ولاء عامة رعايانا وإخلاصهم وتعلقهم المتين وإقبالهم على شؤونهم للتمتع بالفوائد التي اكسبتها المملكة لمساعدة الدولة العظمى الفرنسارية والإعراض عن سفاسف القول مع الإخلاد للراحة والسكينة والوثوق القطعي بنصر جيوش فرنسا وأحلافها"[٢٢٦] .

إن وثيقة باي تونس الموجهة إلى رعاياه توحي بأن الدولة التونسية صاحبة قوة وسيادة وإن كانت صيغة الولاء لاتخفى في هذا الخطاب .

وجملة القول أن هذه الوثيقة التي مرت عليها أربع وثمانون سنة تعد وثيقة تاريخية هامة في البحث عن ظاهرة الولاء في المستعمرات الفرنسية شمال إفريقيا ، وتفاوت درجاته بين الولاء الرسمي والولاء الحزبي أو الجمعيات للدولة في ذلك الوقت ، ومدى خضوع القيادات المغاربية للسيطرة الفرنسية ، وكيف أن الإسلام قد وظف من قبل شيوخ الطرق الصوفية والأعيان وعلماء الدين الرسميين في الجزائر لتعبئة الجماهير الشعبية ضد تركيا "الخلافة الإسلامية" وحليفتها ألمانيا دفاعا عن الأراضي الفرنسية في أوربا .

إن هذه الوثيقة وإن كانت مغاربية ، فإنها توضح بجلاء إنقسام المسلمين وتشردهم بين القرى العالمية الكبرى في ذلك الوقت من الناحية الرسمية على الأقل .

أما الجماهير الشعبية من المثقفين والفلاحين والعمال ، فقد كانت على طرفي نقيض مع قادتها الأهليين من جهة والإدارة الإستعمارية من جهة أخرى ، وقد دلت على ذلك شواهد كثيرة أتينا على ذكر بعضها في هذا الموضوع ، كالثورات والإنتفاضات والأشعار والأغاني الشعبية والقرار الفردي والجماعي للمجندين الجزائريين والمغاربة من الجبهة الأوروبية . فهذه الوثيقة إذا تعبر عن مرحلة تاريخية دخل فيها قادة المغرب العربي في عملية تغيير مجرى التاريخ العالمي عامة ، والتاريخ الإسلامي بصورة خاصة ، ضحى فيها الجزائريون بحوالي مائتي ألف (٢٠٠٠٠٠) شاب ، منهم من قتل في الصفوف الأولى في الجبهة الأوروبية ، وهم يذودون عن حياض فرنسا المستعمرة ، ومنهم من قضى نحبه في السجون الألمانية ، ومنهم من جاهد واستشهد في جبال الجزائر وفيافيها ، إلى أن وضعت الحرب أوزارها ، وأخلفت فرنسا وعودها التي كانت قطعتها على نفسها إزاء الشعب الجزائري ، ولم تحقق له ما كانت قد منته به عشية الحرب الكونية الأولى ، وكان ذلك بداية للحركة الوطنية الجزائرية التي إتبعت أساليب جديدة في الكفاح وطرحت إستراتيجية متقدمة في النضال .

الهوامش :

(١) أنور باشا : ١٨٨٢-١٩٢٢ قائد تركي ، تولى إمارة جيوش القفقاس والدردنيل إبان الحرب العالمية الأولى .

(٢) المقران : تعاقب الليل والنهار .

(٣) جماعة من شيوخ الطرق الصوفية والمفتون والقضاة : حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ، الجزائر ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٠ نوفمبر ١٩١٤ ص ص ١-٢ .

(٤) شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسير ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والدار التونسية للنشر ، الجزائر ، تونس : ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص١٢٥ .

(٥) ينظر أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ص٤٧ .

(٦) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية ١٩٠٠-١٩٢٠ ، ٢ دار الآداب بيروت : ١٩٦٩م ص٦٤ .

(٧) محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية تقديم وتحقيق : محمد بن عبد الكريم ، ط١ ، الجزائر ، ١٩٧٢ ، ص٥٨ .

(٨) عمار الطالبي : إبن باديس حياته وآثاره ، ج١ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ ، ص١٨٠ .

(٩) المراكز الثقافية التي يفوق عدد أصنافها المختلفة سبعة أنواع وهي : الكتاتيب القرآنية ، الزوايا المساجد ، المدارس الدكاكين التجارية الأندية المنزلية ، المكتبات العامة والخاصة .

(١٠) Ali Merad : Le réformisme musulman en algérie de 1925 a 1940 Martan, Paris, France : 1967, PP. 42-43 .

(١١) محمد علي دبوز : أعلام الإصلاح في الجزائر من ١٩٢١-١٩٧٥ ، ط١ ، ج٢ ، مطبعة البعث قسنطينة ، الجزائر : ١٩١/٥ ، ص٧١ .

(١٢) يحيى بوعزيز : وصايا الشيخ الحداد ومذكرات إبن عزيز ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر : سنة ١٩٨٩ ، أنظر النشأة والمولد ، ص١٤١ ومابعدها .

(١٣) Charles Robert Ageron : Histoire de L'algérie contemporaine (1871-1954), Tome. Presse universitaires de france, Paris : 1979, P. 173 .

(١٤) Ibid. P. 174 .

(١٥) ينظر حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة المصدر السابق ، ص ٣ .

(١٦) ينظر حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ، المصدر السابق ، ص٢ .

(١٧) ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٧٩ ص١٢٥ .

(١٨) علي ابن القطب سيدي أحمد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية ، في زاوية عين ماضي الكبرى - حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ، ص١ .

(١٩) محمد البشير نجل سيدي محمد التيجاني : نداء لجميع مقادميه وأحباب طريقته - حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ص٤ .

(٢٠) السيد المختار بن الحاج محمد شيخ الطريقة الرحمانية في زاوية الهامل - حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ص٨ .

(٢١) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص٢٠٣ ومابعدها .

(٢٢) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص٢١٠ .

(٢٣) مولاي يوسف سلطان المغرب - حكم المسلمين في خط تركيا بعد دخولها في الحرب الحاضرة ، ص٤ .

(٢٤) محمد الناصر باشا باي تونس : خطاب موجه من الحضرة العليا إلى كافة الرعايا التونسيين . المصدر السابق ، ص٣ .

د. مجاهد توفيق الجندي(*)

الوثائق مصدر أصيل لدراسة التاريخ والحضارة الإسلامية
وثائق الأزهر في التاريخ الحديث والمعاصر

تمهيد :

تعتبر الوثائق من المصادر المهمة لدراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأنها تحوي مادة تاريخية تسجل حضارة أصيلة .

ونقصد بالوثائق الأوراق الرسمية - على وجه الخصوص - كالرسائل والسجلات والمنشورات والأحكام القضائية والنظم المالية والفتاوى الدينية والمعاهدات السياسية والمراسيم وعهود التولية لكبار الموظفين من أمراء ووزراء وولاة وقادة .

ولقد حققت وتحقق الوثائق ودراستها والحجج الشرعية فوائد جمة ، حيث أصبحت المصدر الأساسي والأصيل لدراسة التاريخ والحضارة ، ويتمكن الباحث بواسطتها من تتبع المسألة الواحدة بداية ونهاية في منشأة من المنشآت المدنية أو الدينية أو الحربية ، للمجلس الكبير أو لمقر السلطان أو الملك .. ومن المدينة الكبيرة التي تتلألأ بأضوائها الكثيرة إلى القرية الصغيرة النائية في أعماق الريف القابعة في الظلام . ومادة الوثيقة التاريخية لها قيمتها وأهميتها من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية ، حيث تتحدث الوثيقة أحيانًا عن الأسواق وحركة البيع والشراء ، وأنواع العملات ، ومعاصر الزيتون ، ومصانع الصابون، والمطاحن والمخابز ، والزرع ، والحدائق ، والأطيان ، والعقارات ، والزواج، والطلاق ... وغير ذلك كثير .

* - أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر .

وقد يرى البعض من المؤرخين الذين يهملون النواحي الحضارية أن كل ما لايمت إلى السياسة العليا ، أو ما لم يصدر عن السلاطين والملوك يعد شيئًا تافهًا ...

لكن وثيقة من الوثائق تدلنا على أرزاق الجند أو مرتبات الأساتذة والطلاب أو طعامهم ولباسهم وكسوتهم وألقابهم وغير ذلك من نظم سير الدراسة وتطورها بالمؤسسة العلمية مثلاً لهي وثيقة لها خطرها .

ولا يستطيع باحث في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية كتابة تاريخ التعليم دون الرجوع إلى الحجج الشرعية ، والوثائق الكائنة بإدارة القيد والحفظ بوزارة الأوقاف أو دار الوثائق القومية في رملة بولاق ، أو دار المحفوظات العمرمية بالقلعة ، أو المجلس الأعلى للثقافة ، أو مكتبة الأزهر وأروقته ومدارسه وكلياته ومعاهده ...

هذا إلى أن التقرير الذي يكتبه مسئول عن مدرسة أو كتاب أو مكتبة أو جامع أو خانقاه أو بيمارستان أو وكالة أو قيسارية أوغيرها يوضح أحوالها في الماضي ، ونظامها وطرق الاستفادة منها والانتفاع بها وطرق سيرها ، سواء كان ذلك في قرية صغيرة أو مدينة كبيرة لهو أيضًا أمر له قيمته وخطره في دراسة تاريخ هذه المؤسسات ، ولايمكن كتابة التاريخ إلا عن هذا الطريق .

هذه المادة التاريخية من الوثائق العربية ، أغفلها كثير من المؤرخين ، ولعل السبب هو صعوبة الوصول إليها ، خاصة في دور الوثائق القومية ، وبعض أماكن الحفظ الأخرى ، والتي يقع بعضها عادة في مناطق عسكرية كالقلاع والحصون ، على أن القائمين على الأمر يدركون أهمية الناحية العلمية فييسرون للباحث مهمته ، وإن كانت تترصده عقبات أخرى ، تتمثل في هذا الارتفاع الشاهق للقلعة حيث تقع تلك المصادر الفريدة في أماكن قد لاتصلح لحفظها ، حيث تفتقر إلى طرق الوقاية الحديثة فصارت في كثير من الأحوال نهبًا للرطوبة والعفن والأرضة ... وغير ذلك كثير ...[١].

كذلك تفتقد هذه الوثائق إلى الترتيب المكتبي الحديث ، الذي يوفر لها حسن التنظيم ، ولقد أصبحت الأهمية العلمية للوثائق موضع الإجماع بين الباحثين من المؤرخين وغيرهم فهي

---

١ - راجع ما كتبناه في مجلة منبر الإسلام العدد التذكاري بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر ، مارس ١٩٨٣م / جمادى ١٤٠٣ هـ ، ص ١١٩ ومابعدها ، تحت عنوان : « اتقذوا ما بقي من تراث الأزهر » .

أولاً قطاع لايمكن إغفاله ، ولأنها جزء من التراث القومي التاريخي والحضاري وهي ثانيًا مصدر أصيل لاستنباط الحقائق التاريخية في مجالات عديدة بالنسبة لدارسي التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الآثار وتاريخ القانون وتاريخ النظم وتاريخ اللغة وغير ذلك .

وقد تنبه إلى هذه الأهمية منذ وقت مبكر علماء التاريخ والآثار ، وأصبحت الوثائق عنصراً أساسيًا هامًا في دراساتهم وبحوثهم ، لما تعطينا من الأهمية العلمية والقيمة التاريخية والحضارية ، وما تمدنا به من الجدة والابتكار ، ..

وهكذا أصبحت الدراسة التاريخية المعتمدة على المصادر الروائية وحدها أقل درجة من الدراسات المعتمدة على الوثائق ...

والوثائق تحتاج إلى الباحث الأمين الذي يستطيع بصيره ومثابرته أن يستنطق الوثيقة ليستخرج منها الحقائق .

ونحن بلا شك في حاجة ماسّة وملحة إلى هذا النوع من البحوث ولما كان التأريخ لفترة مامن كل جوانبها : حوادث وحضارة صعبًا بل شبه مستحيل إذا لم تتوفر الآثار والوثائق الدالة على أحداثه ووقائعه ، فقد عمد المؤرخون إلى مراجعة الوثائق الأصلية . ومن هنا كانت أهمية الوثائق للتاريخ ، نظراً لأن الحوادث التاريخية تخرج عن نطاق التجريب كالعلوم الطبيعية .

وجرى عن البيان أن الوثيقة تؤدي مهمتها على خير وجه إذا عثر عليها تامة ، وإلا سببت ارتباكًا للمؤرخ ورمت به في مجاهل الاستنتاج والظنون مما يؤثر على التاريخ العلمي الصحيح.

* * *

وثائق الأزهر الشريف وملحقاته [٢]:

من نافلة القول أن أتحدث عن نشأة الأزهر الذي أسس سنة ٣٥٩ - ٣٦١ هـ ، أقامه جوهر القائد الصقلي لسيده المعز لدين الله الفاطمي ، وبدأت الدراسة به على شكل حلقات في عهد العزيز بالله الفاطمي ، وبإشراف وزيره يعقوب بن كلس .

وسأركز غالبًا على مجموعة من الوثائق تتعلق بنظام الالتحاق بالأزهر ، والدراسة ، والامتحانات ، ومنح الشهادات ، وتخرج الأساتذة ، ومرتباتهم من عملهم بعد التخرج ، ووفاتهم ، ومعاشاتهم . وسنترك الوثائق تتكلم عن نفسها .

---

٢ - المقصود بملحقاته : المعاهد الدينية العلمية الإسلامية كمعهد الاسكندرية الديني ومعهد طنطا الديني ومعهد أسيوط الديني ومعهد الزقازيق الديني ومعهد دسوق الديني ومعهد دمياط الديني ، ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة عثمان باشا ماهر ، وغير ذلك (الباحث)

ولكننى سأرتبها وفق الترتيب المنطقى الطبيعى ، وهو تسجيل أسماء الطلاب فى طلبات انتساب إلى القسم الأولى أو الابتدائى الأزهرى وفى طلب الانتساب إلى الأزهر يكتب به اسم الطالب كاملاً ، وتاريخ ميلاده ومكانه ومديريته ومركزه وبلدته وولى أمره وعنوانه الذى يمكن مكاتبته عليه بسهولة ، وصناعته ، وشهادة بحسن سير وسلوك الطالب ، وتعهد من ولى الأمر بالقيام بالواجبات التى تفرضها قوانين ولوائح وقرارات الجامع الأزهر حالاً أو مآلاً ، وموقع على كليهما من عمدة وشيخ بلدته . وبعد أن يلتمس الطالب قبوله ضمن طلبة العلم فى المعاهد الدينية وخضوعه لجميع القوانين واللوائح يتم الكشف عليه طبيًا ثم يمتحن شفويًا فى القرآن ، وتحريريًا فى الإملاء والحساب والخط ثم يسجل اسمه فى السجل العمومى ، ويرضع اسمه فى كشوف فصل دراسى برقم معين هذا لمن حفظوا القرآن فى بيوتهم أو كتاتيب خاصة أما من حفظوه فى كتاتيب الأزهر فكانوا يمتحنون بها وينقلون رأسًا إلى المرحلة التى تليها (أولية أو ابتدائية) ، وكل هذا كان يتم الإعلان عنه فى شروط القبول وموعد تقديم الأوراق وغيرها – فى الصحف السيارة .

ثم يلى ذلك إسكان الطلاب المغتربين أو الغرباء فى المساكن والخلاوى الملحقة بالمساجد الدراسية الكبرى ، أو الأروقة والحارات بالجامع الأزهر . وأيضًا يحصلون على الجراية اليومية والمخصصات الشهرية من سكر وحلوى وزيت وصابون ونقود وكسوة وغيرها من الأوقاف المرصدة لهم من الأزهر وأهل الخير الأثرياء ..

ثم يرتبون فى حلقات دروس العلم حسب مذهب كل منهم فيكون منهم الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى .

ثم بعد ذلك يمتحنون ويمنحون الشهادات المختلفة من أولية وثانوية وعالمية ، ثم تخصص التدريس (الماجستير) ثم العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) . ثم بعد ذلك يوظفون ويحصلون على مرتبات من الدولة ، ثم يحصلون على المعاشات بعد انتهاء مدة خدمتهم ، ونكتفى بهذا القدر ، وندع الوثائق تتكلم عن نفسها .

الملحق الأول :

– فالوثيقة رقم (١) من الملحق الأول هى طلب انتساب طالب معهد طنطا الدينى بالصورة للطالب / عبد الغفار حامد هلال ، تاريخ ميلاده ١٥ سبتمبر ١٩٣٦ ، سنه عند بدء الدراسة ١٤ سنة و ١٦ يومًا ، بلده برما ، مركز طنطا ، مديريته الغربية هذا والانتساب مكون من وجه

وظهر وصاحبه الآن هو الأستاذ الدكتور/عبد الغفار حامد هلال عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر فرع مدينة السادات ونترك القارئ الكريم يستمتع بما فى هذه الوثيقة من علم وفن .

– وثيقة رقم (٣) وهى أيضا من وجه وظهر وهو طلب انتساب لمشيخة علماء الإسكندرية بدون صورة ، اسم الطالب ولقبه : عبد العزيز شبل حاتم ، بلده : الحوته مركزه : ايتاى البارود ومديريته : البحيرة سنة ١٦ سنة ولى أمره والده عمدة الحوته ومذهبه حنفى ، مايحفظه من القرآن الشريف : جميعه ، وحالته الصحية : جيدة ، قرار التسجيل (يسجل اسم هذا الطالب مع طلاب السنة الأولى الدراسية وتصرف له الجراية اعتباراً من يوم الأربعا - أول القعدة سنة ١٣٢٦هـ – ٢٥نوفمبر ١٩٠٨) شيخ علماء الإسكندرية الشيخ / محمد شاكر والغريب فى طلب انتساب هذا الطالب أن به مكانا للإملاء (حيث يكتب الطالب مايملى عليه) .

– وثيقه رقم (٥) طلب انتساب للبعوث الإسلامية سنة ١٩٦٣ للطالب : حمدى (ابن عثمان) يوسف عثماشش واسم والده وجده عثمان يوسف وتاريخ ميلاده ١٥–٦–١٩٣٧م ، وبلده : يوغوثيو وجنسيته يوغسلافى جواز سفره صدر من سرايفو ، ومن تخاطبه الإدارة فى شأنه : شيخ رواق الأتراك صناعته وعنوانه : طالب بالمعهد الإعدادى بمدينة البعوث الإسلامية. ولحت طلب الانتساب هذا بطاقة طالب سيصبح شيخا للرواق وهو أردنى من أصل جركسى اسمه : يحيى عيسى إسماعيل ، بلده فلسطين – كفركما – الجهة الدراسية : كلية اللغة العربية ، تاريخ الانتساب ٦ فبراير ١٩٤٦ الرواق : الأتراك ، المكن : دار طلبة العلم ، وقف أبو الدهب .

– وثيقة رقم (٦) جدول دروس مكاتب الأزهر الأسبوعى ، وهو يبين المواد التى كانت تدرس بالكتاتيب وأوقاتها اليومية ، وهى القرآن والحساب والخط والمطالعة والإملاء .

– وثيقة رقم (٧) وهى إعلان عن شروط انتساب طلبة العلم الغرباء بالجامع الأزهر بتاريخ ديسمبر ١٩١٣ محرم ١٣٣٢هـ .

– وثيقة رقم (٨) وهى شروط التحاق الطلاب الوافدين بالأزهر .

الملحق الثانى : ويبدأ بوثيقة رقم (٩ – ١٦) ويشمل سكن الطلاب وجرايتهم والأوقات المرصدة عليهم .

فالوثيقة رقم(٩) تبين إجمالى الجراية المرتبة بالجامع الأزهر يوما بعد يوم ، ومرتب المقرئ ، وأسماء الطلاب فى كل رواق من سجل المذكورين بسجلات الجراية بالجامع الأزهر وهذا نموذج منها ، ونموذج آخر فى الوثيقة رقم (١٠) وبها أسماء الطلاب الذين أصبحوا بعد ذلك هيئة كبار العلماء بالأزهر سنة ١٣٨٦هـ ، والقفة هى التى كان يوضع فيها الجراية لرواق الريافة بالجامع الأزهر حيث كانت توضع الجراية فى قفاف كل رواق بعينه له قفة تخصه وبها الخبز القرصة الجيد العلامة . وكان هذا طعام أساسى للمجاورين بالجامع الأزهر طلابا وشيوخا ومعهد المخصصات الأخرى من آدم ولحم .

- وثيقة رقم (١١) موجهة لشيخ رواق الأتراك بشأن سكنى الطلاب بأماكن الرواق وجدول ببيان تلك الأماكن واحدا بعد الآخر وعليها توقيع الفقير الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى شيخ الأزهر بتاريخ ٢٤ اغسطس ١٩٠٥م ، ٢٣ جمادى الثانية ١٣٢٣هـ .

- وثيقة رقم (١٢) صورة جدول ببيان الأماكن المخصصة لسكنى طلبه رواق الأتراك وهى ١١ مسكنا فى الدور الأعلى من المنطقة الغربية المجاورة للرواق العباسى ، وبهما أسماء الطلاب وعليها خاتم مجلس إدارة الأزهر نفس تاريخ الوثيقة السابقة .

- الوثيقة رقم (١٣) أيضا تخص سكنى طلبة العلم الأتراك حيث وضعت شروط لسكنهم بناءً على الشكوى المقدمة من الطلبة والوثيقة واضحة ونترك القارئ يستمتع بها .

- الوثيقة رقم (١٤) دعوة طلاب وشيوخ الرواق لانتخاب شيخ لرواقهم من أربعة مرشحين هم الشيخ محمد رامخ ، وعبد الحميد طاهر ، وعمر عبد الله ، وجركس الحاج أحمد شرجونوق بعد استقالة شيخه محمد أمين السحيمى بتاريخ ١٩ فبراير ١٩٢٨م .

الوثيقة رقم (١٥-١٦) هى أوقاف لكتب وأطيان وعقارات ، على طلاب وشيوخ رواق الأتراك بالجامع الأزهر ، الأولى خاصة بالكتب وهى بتواريخ مختلفة والثانية بتاريخ ١٩٢٨/١٠/٢٩ .

المبحث الثالث : وهو خاص بدروس العلم المختلفة ، ويشمل عدة وثائق الوثيقة الأولى منه وهى رقم (١٧) تحوى بداخلها درس الشيخ على كامل من حاشية أبو الحسن فى الفقه من سجل حصر تعداد المجاورين بالجامع الأحمدى سنة ١٣٠٦هـ مسجل بها أسماء الطلاب وبلادهم ومراكزهم ومديرياتهم . ذكر أولاً الاسم واللقب ثم الأب والجد ، ويتضح أن بهذه الحلقة بعض

النساء وهى سعاده البناية بنت محمد سيد أحمد من بشتامى مركز منوف ، وهى رقم ثلاثة من أسفل . الوثيقة رقم(١٨) بها درس الشيخ أحمد أبو لبلة الزيادى . وهذا الدرس به سيدة هى فاطمة العوضية محمد من طنبرك مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية . الوثيقة رقم (١٩) درس الشيخ يحيى الجيزاوى (الشرح الصغير) مسجل بها أيضا أسماء الطلاب فى الحلقة وعددهم ٣٦ .

الوثيقة رقم (٢٠) درس الشيخ سيد محى الدين (كتاب التحرير فى الفقه الشافعى) وعدد طلابه ١٦ طالبا ، وأما درس الشيخ عثمان قراعير (كتاب التحرير أيضا) فسجل به أسماء الطلاب أيضا وعددهم ١٨ طالبا وكلهم من طنطا وكانت تابعة لمركز محله منوف عدا الأخير .

الوثيقة (٢١) درس الشيخ محمد عمارة (كتاب التحرير أيضا) مسجل به أسماء الطلاب وعددهم ٤٢ طالبا .

الوثيقة رقم (٢٢) درس الشيخ محمد سلامة من كتاب أبو الحسن ، ومكرر فيه سعاده البناية فى آخر سطر فى الدرس وعدد الطلاب المسجلين ٢٨ طالبا . هذه نماذج لدروس العلم وحلقاته للجامع الأحمدى فى مدينة طنطا وكان إجمالى الدروس الموجودة الكائنة بهذا الجامع ٢٠٤٧ عدد الشافعية منهم ١٦٣٣ وعدد المالكية ٣٥٩ وعدد الحنفية ٥٥ ، وكان ذلك سنة ١٣٠٦ هـ .

الوثيقة رقم (٢٣) وهى عبارة عن صورة نادرة لطلاب العلم بالجامع الأزهر وهم يحيطون بفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر . الوثيقة رقم (٢٤) فهى تذكرة حملها الشيخ محمد حمودة الشوبرى من أهالى شوبر التابعة لمركز محلة منوف غربية ، تعنى أنه مقيم بالجامع الأحمدى لطلب العلم الشريف وتلاوة القرآن المجيد . وقد أحضر كشفا مشمولا بختم شيخ الناحية وخط صراقها محفوظا تحت يد مباشر الجامع المذكور ، وقد أعطيت له هذه التذكرة لأجل إكرامه واحترامه ومعاملته أسوة بأمثاله المجاورين بالجامع المذكور . وقد وقع عليها ستة من العلماء واعتمدها شيخ الجامع الشيخ محمد الإمام القصبى شيخ الجامع الأحمدى بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٩٧هـ .

الملحق الرابع : بدل الجراية

الوثيقة رقم (٢٥) بها التماس من طلاب رواق الأتراك أن يصرف لهم بدل جراية لأخوانهم السابقين . وأفاد وكيل الجامع الأزهر الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام بصرف بدل الجراية لهم بتاريخ ١٥ اكتوبر ١٩٢٩م .

الملحق الخامس :

الوثائق (٢٦-٢٧-٢٨) بها قيد قرارات المعافاة من القرعة العسكرية لمجلس امتحان مديرية الغربية سنة ١٣٠٥ هجرية من سجل حصر وتعداد المجاورين بالجامع الأحمدى سنة (١٣٠٢-١٣٠٣هـ) وبها أسماء الطلاب الذين أعفوا من القرعة العسكرية بصفة العلم ووقع عليهم اثنان من العلماء هما الشيخ إسماعيل الدلبشانى المالكى والشيخ سيد أحمد الحويحى الشافعى ومفتى مديرية الغربية وقاضيها ثم الشيخ محمد القصبى شيخ الجامع ثم مدير الغربية .

الملحق السادس : بعنوان الامتحانات وتخريج العلماء ومنحهم الشهادات وثيقة رقم (٣٠) تصدير السيوطى محاضرة هى أصغر مؤلفاته ، تقع فى ٥٢ سطراً هى تفسير الثلاث آيات الأولى من سورة الفاتحة تخرج بها مدرسا للتفسير بجامع شيخون بالقاهرة ، رجع فيها إلى أمهات المصادر فى هذا الفن وحضرها جماعة من القضاة والأفاضل وعلى رأسهم شيخ الإسلام قاضى القضاة علم الدين البلقينى ، وذلك يوم الثلاثاء تاسع ذو القعدة سنة ٨٩٧ هجرية وكان عمره ثمانى عشر سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام .

الوثيقة رقم (٣١) بها ثلاث طلبات للتدريس ، الأول والثانى منها الكتب والحواشى التى درسها الطالب / محمد زهران والطالب / خلف على المالكى القمومى ، وأما الثالث فهو طلب إعادة إمتحان من الشيخ على صقر بأنه لم يقو على الجلوس أمام لجنة الامتحان من الهيبة والرعب الذى اعتراه فطلب إعادة امتحانه مرة أخرى .

الوثيقة رقم (٣٢) بها موضوعات امتحان الشفوى لطلبة شهادة العالمية النظامية بطريق التعيين فى الامتحان المقرر سنة ١٣٤٦هـ للطالب عبد المجيد عبد الرزوف محرم .

وأما الوثيقة رقم (٣٣) ففيها الدرجات التى حصل عليها الطالب سالف الذكر فى العلوم الدينية والعربية والرياضية وغيرها .

الوثيقة رقم (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦) تحوى بداخلها شهادات وخطابات الشيخ محمد لطفى الركابى خريج كلية الشريعة والذى عين قاضيا شرعيا بمحكمة قنا الشرعية الدرجة الثانية ، ثم رقى قاضيا من الدرجة الأولى بمحكمة القاهرة الابتدائية سنة ١٩٤٩م ، ومع هذه الوثائق الشهادة الأولية والشهادة العالمية مع إجازة القضاء الشرعى - وينسب هذا الشيخ الجليل إلى قرية العطف مركز المحمودية محافظة البحيرة .

- الوثيقة رقم (٣٧-٣٨) فهما شهادة الأهلية وشهادة العالمية من مدرسة القضاء الشرعى التابعة للأزهر الشريف للشيخ على محمد حسين حسب الله ، الأولى سنة ١٩١٨م ، والثانية ١٣٤٢هـ .

أما الوثيقة رقم (٣٩-٤٠-٤١) فهى الشهادة الأولية والثانوية وبها العلوم التى تلقاها الطالب فى هذه المرحلة ، وشهادة العالمية من الجامع الأحمدى للشيخ / عبد المتعال الصعيدى من كفر النجباء مركز أجا محافظة الدقهلية ومذكور بها التواريخ .

الوثيقة رقم (٤٢-٤٣) هما العالمية سنة ١٩٠٦ وإذن بالتدريس فى نفس العام من مشيخة الجامع الإبراهيمى للشيخ محمد أبو زيد البسيونى رحمه الله ، والجامع الإبراهيمى هو جامع سيدى ابراهيم الدسوقى وقد انتقلت اللجنة من الأزهر إلى دسوق لامتحان هذا الطالب وهى الشهادة الأولى والأخيرة على حد علمنا .

الوثائق من رقم (٤٤-٥٣) بأسماء أصحابها : الشيخ الدكتور طه الدسوقى العربى ، وعلى محمد إبراهيم حموده ، وبدوى عبد اللطيف عوض ومحمد عبد الرحمن بيصار ، وأحمد إبراهيم الشعراوى ، وإبراهيم محمد نجا ومحمد نائل شرقاوى وهى استمارات دخولهم العالمية من درجة أستاذ فى كلياتهم الشريعة وأصول الدين واللغة العربية .

الملحق السابع : وهو عبارة عن عقد لتعيين مستخدم مؤقت لمدة سنة أو أكثر بين الشيخ محمد حسن حنفى مدرس وبين الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر .

الملحق الثامن والأخير : يحوى مرتبات معاشات بعض العلماء كالشيخ محمد الانبابى الشافعى الذى عين شيخا للأزهر بدلا من الشيخ محمد المهدى العباسى ومعاش الشيخ هارون عبد الرازق .

وهكذا وبعد قراءة هذه الوثائق النادرة والتى تنشر وتخرج إلى النور لأول مرة تظهر لنا أهمية الوثائق ودورها فى خدمة تراث الإسلام والحضارة الإسلامية .

ملحق الوثائق

الجامع الأزهر
والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية

(استمارة رقم ٣ ـ ز مكررة)
(٩٢٨/١٢/١٥٠٠٠)

صفحة للتسجيل

رقم القيد ـــــ (المكاتبة المقتضى تسديدها)
رقم الصفحة بالمجلد ـــــ اسم الجهة ـــــ
رقم صفحة الكويا ـــــ تاريخ المكاتبة ـــــ
عدد المرفقات ـــــ رقم المكاتبة ـــــ

المضمون : ـــ

مطلوب الرد

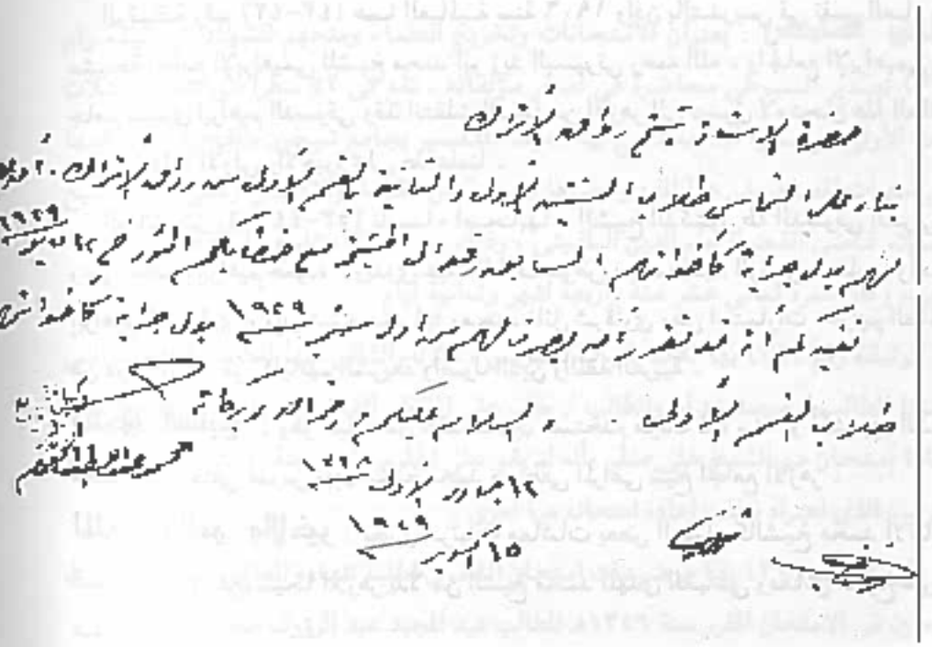

الوثيقة رقم (٢٥)

اعلان

من شروط قبول انتساب طلبة المعاهد الدينية بالجامع الأزهر

قرر مجلس الأزهر الأعلى بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٠ هـ ـ ٩ نوفمبر ١٩١٣ ما يأتي :

أولا ـ أن لا يزيد سن مريد الانتساب على ثلاثين سنة

ثانيا ـ أن يكون حافظا لربع القرآن الكريم على الأقل اذا كان من القاهرة أو الشوام أو الجنين أو أهل الحرمين أو أهل بغداد ـ وأن يكون يعرف القراءة الصحيحة في المصحف الشريف من بقية طوائف الأعراب كالأرنؤط والأكراد والجبرت والبربر والزيارة والأتراك والهنود والجاوة والدكارنة صليح وداغستان والسنارية ومن في حكمهم

ثالثا ـ أن يرفق مريد الانتساب طلبه بالأوراق الآتية :

أ ـ شهادة الميلاد أو ما يقوم مقامها من الأوراق الرسمية (فان لم يتوفر لعذر مقبول يكتفى بتقدير الطبيب)

ب ـ شهادة من الجهة الرسمية التابع لها الطالب بأنه حسن السير ولم يسبق الحكم عليه بما يخل شرفه (ويعفى من هذه الشهادة من كان عمره أقل من أربعة عشر عاما)

ج ـ كتابة من ولي أمره ان كان قاصرا بقبول انتسابه وتعهده القيام بالواجبات التي تفرضها قوانين المعاهد الدينية ونظاماتها

د ـ تعهد من الطالب على نفسه بالخضوع لأوامر المشيخة ولوائح والنظامات المتبعة في المعاهد الدينية

فعلى من يرغب الحضور من أبنائه لطلب العلم بالجامع الأزهر وكان مستكملا للشروط المنصوص عليها في الفقرتين الأولى والثانية من هذا القرار أن يتحضر منه جميع هذه الأوراق ويرفقها بطلب انتسابه ـ ومن لم يكن مستكملا للشروط أو لم يتحضر الأوراق المذكورة عنها لا يقبل انتسابه

مع العلم بأن طلبات الانتساب تقبل من أول جمادى الثانية الى آخر شهر رمضان من كل عام وتبتدىء الدراسة من ١٥ شوال ؟

شيخ الجامع
الأزهر

تحريرا في محرم ١٣٣٢ ـ ديسمبر ١٩١٣

الوثيقة رقم (٧)

الوثيقة رقم (١٥)

الوثيقة رقم (١٦)

الجامع الأزهر

الوثيقة رقم (٤٦)

الجامع الأزهر الشريف

الوثيقة رقم (٣٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الختام

حضرات الإخوة الزملاء والأخوات الزميلات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد

فإننا نهنئكم بنجاح ندوتكم عن « أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب » . إن الحصيلة الكبيرة التي خرجنا بها من الجلسات التسع التي استغرقتها هذه الندوة ، لتدل على أهمية الموضوع وحيويته من ناحية ، ثم على الجهد الكبير الذي بذلتموه أنتم : من محاضرين أصحاب بحوث ، ومناقشين أصحاب رأي وفكر ، من ناحية أخرى .

قد تختلف الآراء ، وتتباين وجهات النظر ، وتتعدد البحوث حول نقطة واحدة من نقاط الموضوع ... وربما تحول النقاش إلى جدل . ولكنه جدل هادئ بالتي هي أحسن يستهدف الوصول إلى حقائق التاريخ ، فيكون هذا كله دليلاً على حرية الرأي ، وإعمال الفكر ، والرغبة في الاجتهاد وروح التسامح التي تسود الجميع . ولولا تباين وجهات النظر ما كانت المذاهب في الأديان السماوية جميعها ، ولولا الاجتهاد ما أمكن التوصل إلى كنه الحقيقة التي هي هدفنا الأول من هذه اللقاءات .

حضرات الإخوة الزملاء والأخوات الزميلات

يامن تمثلون الصفوة بين المؤرخين العرب ... نهنئكم بهذا النجاح الذي حققتموه ، ونبارك جهودكم وثمار أعمالكم ، ونشكركم على تحملكم عناء البحث وأعباء السفر في سبيل تحقيق رسالة سامية ... سائلين المولى القدير أن يجزيكم عن علم التاريخ وأهله خير جزاء ، وأن يجمعنا دائمًا على صراطه المستقيم ، لنعطي تراث الآباء والأجداد حقه من العناية والتقدير ، ونغرس بذوراً جديدة مثمرة في قلوب الأبناء والأحفاد ... وإلى لقاء جديد في القاهرة تحت مظلة اتحاد المؤرخين العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سعيد عبد الفتاح عاشور

رقم الإيداع ٩٩/٤٩٢٢

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 322 - 005 - 2

دار بوداهيرت للطباعة ت ٣٥٨٤٣٦٢ - ٣٥٨٠٦٤٤
٥٤ شارع نوبار - باب اللوق